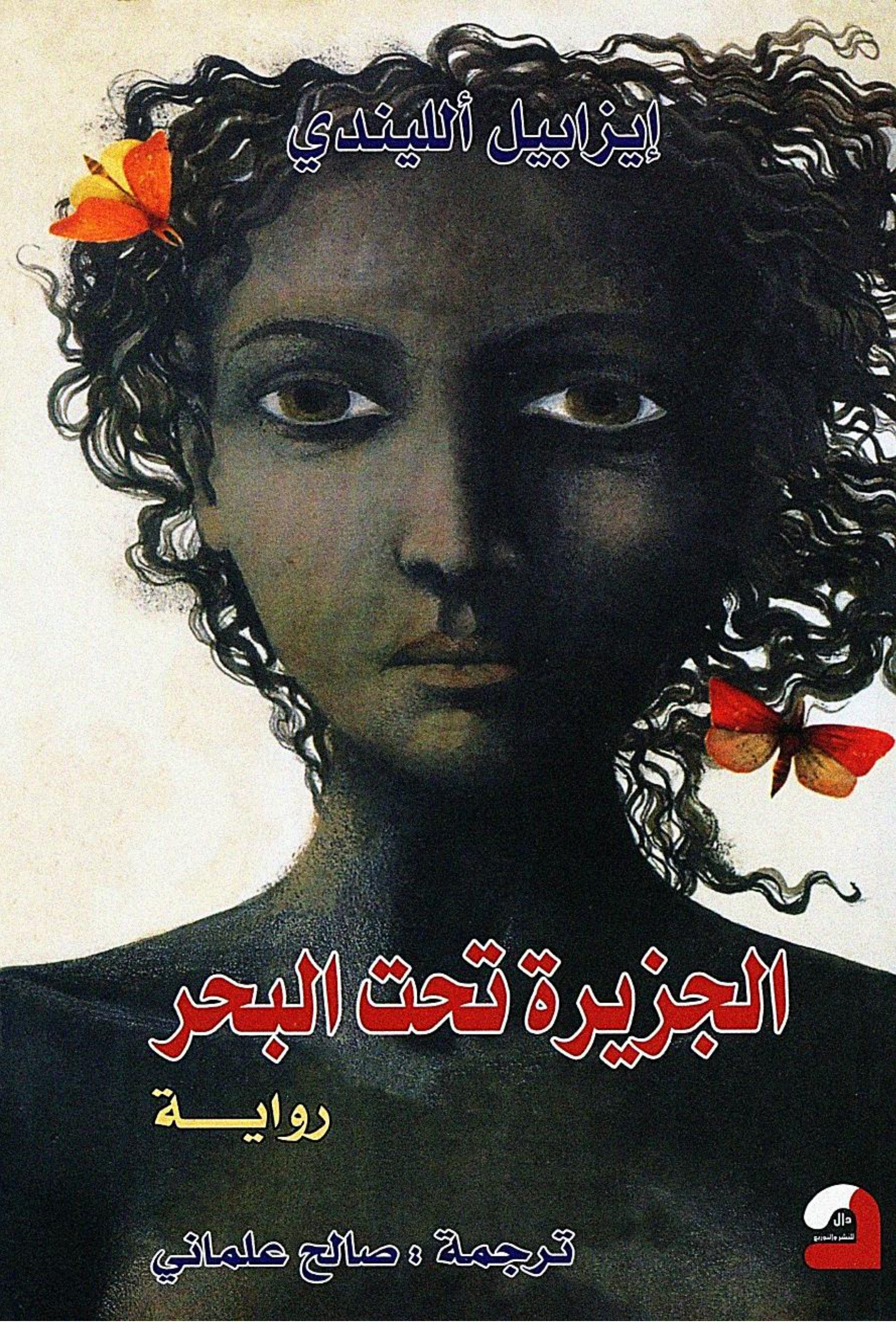

إيزابيل ألليندي
الجزيرة تحت البحر
رواية
دال
للنشر والتوزيع
ترجمة : صالح علماني

الجزيرة تحت البحر

*المؤلفة: إيزابيل الليندي

* الترجمة: صالح علماني

* الرواية: الجزيرة تحت البحر

* الطبعة الأولى 2010

* الناشــر:

دال للنشــر والتـوزيـع

سـورية دمشـق ص ب 29170

هاتف 00963 944 464830

إيميل: N_hammdan@yahoo.com

إيزابيل الليندي

الجزيرة تحت البحر

روايـــة

ترجمة: صالح علماني



العنوان الأصلي للكتاب

Isabel Allende

La isla bajo el mar

إلى ابنيّ: نيكولاس ولوري



زاريتيه

خلال سنوات عمري الأربعين، كنتُ أنا، زاريتيه سيديلا ، محظوظة أكثر من عبدات أخريات. سأعيش طويلاً وستكون شيخوختي سعيدة لأن نجمي ـ طالعي ـ يُشع حتى عندما تكون السماء غائمة. أعرفُ متعة أن أكون مع الرجل الذي اختاره قلبي عندما توقظ يداه الكبيرتان بشرتي. لقد أنجبتُ أربعة أبناء ولي حفيد واحد، وصار الأحياء منهم أحرارا. ذكراي الأولى عن السعادة تعود إلى الزمن الذي كنت فيه طفلة رضيعة معروقة العظم ومتشعثة الشعر، وتتمثل في تمايلي على إيقاع الطبول، وهذه هي أيضاً سعادتي الأحدثعهداً، لأني ظللتُ في الليلة الماضية أرقص وأرقص في ساحة الكونغو بلا أفكار في رأسي، وجسدي اليوم حامٍ ومتعب. الموسيقى ريحٌ تحمل معها السنين والذكريات والخوف. الخوف: هذا الحيوان القابع في أعماقي. مع قرع الطبول تختفي زاريتيه اليومية وأعود تلك الطفلة التي كانت ترقص حين لم أكن قد تعلمتُ المشي بعد. أضرب الأرض بباطن قدميّ فتصعد الحياة عبر ساقيّ، وتجوب هيكلي العظمي، تهيمن عليّ، تُخلّصني من الهمّ وتجمّل ذاكرتي. العالم يهتز. الإيقاع يولد في الجزيرة تحتِ البحر، يهز الأرض، يخترقني كوميض برق ويمضي إلى السماء حاملاً أحزاني كي يمضغها بابا بوندي ويبتلعها ويخلفني نظيفة من الهموم وسعيدة. الطبول تهزم الخوف. والطبول هي إرث أمي، إنها قوة غينيا التي في دمي. عندئذ لا يجاريني أحد، أصير قوة جارفة مثل إرزولي، **لوا** الحب، وأسرع من السوط. تجلجل الأصداف في كاحليَّ ورسغيّ، تسأل ثمار القرع الجوفاء، فترد طبول الجامب بصوتها الغابيّ والطبلات الصغيرة بصوتها المعدني، تدعو طبول الجان جان التي تعرف التكلم، ويشخر طبل الممان الأكبر عندما يقرعونه لاستدعاء **اللوات**. الطبول

مقدسة، من خلالها تتكلم **اللوات**.

في البيت الذي عشت فيه سنوات حياتي الأولى، كانت الطبول تقبع صامتة في الحجرة التي أتقاسمها مع هونوري، العبد الآخر، ولكنها تخرج لتتمشى في أحيان كثيرة. فمدام ديلفين، سيدتي في ذلك الحين، لم تكن ترغب في سماع ضجيج الزنوج، وإنما تفضل أنين الكلافيكورديو الكئيب وحسب. إنها تعطي يومي الاثنين والثلاثاء دروساً في العزف لفتيات ملونات، وفي بقية أيام الأسبوع تعلّم في بيوت **البيض الكبار**، حيث تملك الآنسات آلاتهن الموسيقية الخاصة لأنه لا يمكنهن استخدام الآلات نفسها التي تعزف عليها الخلاسيات. تعلمتُ تنظيف ملامس الكلافيكوريو بعصير الليمون، ولكنني لم أكن قادرة على صنع موسيقى لأن المدام تمنعنا من الاقتراب من الكلافيكورديو الخاص بها. ولم نكن بحاجة إليه. فهونوري قادر على إخراج الموسيقى من قِدر، ويمكن لأي شيء بين يديه أن يُصدر إيقاعاً، نغمة، لحناً، صوتاً؛ إنه يحمل الأصوات في جسده، لقد جاء بها من داهومي. وكانت لعبتي ثمرة قرع جوفاء نجعلها ترن؛ ثم علمني بعد ذلك كيف أداعب طبوله برفق. وكان ذلك منذ البدء، حين كان يحملني بين ذراعيه ويأخذني إلى حفلات الرقص وإلى طقوس الفودو، حيث يقوم هو بضبط الإيقاع على الطبل الرئيس كي يجاريه الآخرون. هكذا أتذكره. كان هونوري يبدو عجوزاً مسناً لأن عظامه بردت، مع أن سنوات عمره في ذلك الحين لم تكن أكثر من سنوات عمري الآن. كان يشرب خمر التافيا كي يتحمل أوجاع تحركه، ولكن أكثر من ذلك الشراب الفظ، كان دواؤه المفضل هو الموسيقى. لأن أنينه يتحول إلى ضحك على وقع الطبول. لم يكن هونوري يقدر على أكثر من تقشير البطاطا لطعام السيدة بيديه المشوهتين، ولكنه لا يكل من قرع الطبل، وإذا ما دار الرقص، فليس هناك من يرفع ركبتيه أعلى منه، ولا من يهز رأسه بقوة أكبر منه، ولا من يؤرجح مؤخرته بزهو أكثر منه. وحين كنتُ لا أعرف المشي بعد، كان يجعلني أرقص وأنا جالسة، وما إن تمكنت من الوقوف على قدميّ،

حتى صار يدعوني لأضيع في الموسيقى، كما في حلم. يقول لي: «ارقصي، ارقصي يا زاريتيه، لأن العبد الذي يرقص عبد حر... طالما هو يرقص». وقد ظللتُ أرقص دائماً.



القسم الأول

سان دومانغ

1793 ـ 1770



الداء الإسباني

وصل تولوز فالموران إلى سان دومانغ في العام ١٧٧٠، العام نفسه الذي تزوج فيه ولي عهد فرنسا من الأرشيدوقة النمساوية ماريا أنطوانيت. وقبل سفره إلى المستعمرة، حين لم يكن يظن أن قدره سيلعب مزحة وينتهي به الأمر مدفوناً وسط حقول القصب في الأنتيل، دُعي إلى فرساي، إلى حفلة على شرف ولية العهد الجديدة، صبية في الرابعة عشرة، تتثاءب دون مداراة وسط بروتوكول البلاط الفرنسي الصارم.

كل ذلك صار من الماضي. فسان دومانغ عالم آخر.

كانت لدى الشاب فالموران فكرة غامضة جداً عن المكان الذي يعجن فيه أبوه خبز الأسرة بشقة متطلعاً إلى تحويله إلى ثروة. لقد قرأ في مكان ما أن سكان الجزيرة الأصليين، الأراهواكو، كانوا يطلقون على جزيرتهم اسم هايتي قبل أن يحول الغزاة اسمها إلى «اسبانيولا» ويقضوا على السكان الأصليين. فخلال خمسين سنة لم يبق فرد واحد من الأراهواكيين حياً، ولو كنموذج: جميعهم ماتوا ضحية العبودية والأمراض الأوروبية والانتحار. كانوا سلالة ذات بشرة ضاربة إلى الحمرة، وشعر سميك أسود، وكبرياء راسخة، ورعديدين إلى حدّ يمكن لإسباني واحد أن يتغلب على عشرة منهم وهو أعزل. وكانوا يعيشون في تجمعات متعددة الزوجات، يزرعون الأرض بحذر كيلا يستنزفوها، يزرعون درنات الكاموتي، والذرة، والقرع، والفول السوداني، والفلفل، والبطاطا، والمانديوكا. ولم يكن للأرض، مثل السماء والماء، مالكون إلى أن استولى الغرباء عليها ليزرعوا نباتات لم تُر من قبل قطّ ويجبروا الأراهواكيين على العمل فيها بالسخرة. في ذلك الزمن بدأت عادة «الاستكلاب»: قتل الناس العزل بحثٍّ الكلابِ عليهم. وعندما قضوا على السكان الأصليين، استوردوا عبيداً

مخطوفين من أفريقيا، وبيضاً من أوروبا من المجرمين المحكومين والأيتام والعاهرات والمشاغبين.

في أواخر القرن السابع عشر تخلت إسبانيا عن الجزء الغربي من الجزيرة لفرنسا، فسمته سان دومانغ، وتحول إلى أغنى مستعمرة في العالم. وفي زمن وصول تولوز فالموران إليها، كان ثلث صادرات فرنسا يأتي من الجزيرة، على شكل سكر وبنّ وتبغ وقطن ونيلة وكاكاو. ولم يكن قد تبقى عبيد بيض هناك، أما العبيد الزنوج فكانوا بمئات الآلاف. وأكثر زراعة مطلوبة كانت قصب السكر، إنه ذهبُ المستعمرةِ الحلو؛ ولم يكن قطع القصب، وهرسه وتحويله إلى سائل، عملاً بشرياً، بل عمل بهائم، مثلما يؤكد زارعوه.

كان فالموران قد أكمل العشرين من عمره عندما استُدعي إلى المستعمرة برسالة مستعجلة من وكيل أبيه التجاري. وحين نزول من السفينة وهو يلبس حسب آخر موضة في باريس، معصمين من الدانتيلا، وباروكة شعر معفرة بمساحيق ملونة، وحذاءً عالي الكعب، كان واثقاً من أن كتب الاكتشاف التي قرأها تؤهله بما يكفي لمساعدة أبيه بضعة أسابيع. وقد سافر مع خادم خاص يكاد يدانيه في الأناقة، وعدة صناديق تضم ملابسه وكتبه. وكان يُعرّف بنفسه على أنه رجل آداب، ويفكر في تكريس نفسه للعلم عند عودته إلى فرنسا. كان معجبا بالفلاسفة والموسوعيين الذين صار تأثيرهم عظيماً في أوروبا خلال تلك العقود، ويتفق مع بعض آرائهم الليبرالية: فكتاب ***العقد الاجتماعي*** لروسو كان أحد النصوص التي يضعها قرب سريره وهو في الثامنة عشرة. وما كاد ينزل إلى البر، بعد رحلة أوشكت أن تنتهي بمأساة حين واجهت السفينة إعصاراً في الكاريبي، حتى قابلته أول مفاجأة مزعجة: لم يجد أباه بانتظاره في الميناء. بل استقبله الوكيل، وهو يهودي لطيف، يرتدي السواد من رأسه حتى قدميه، وقد أطلعه على الاحتياطات الضرورية التي عليه اتخاذها للتنقل في الجزيرة، ووفر له خيولاً وبغلتين للأمتعة، ودليلاً ورجل ميليشيا لمرافقته إلى مزرعة

سان لازار. لم يكن الشاب قد غادر فرنسا من قبل، ولم يكن يُبدي اهتماماً كبيراً بالقصص ـ وهي تافهة على كل حال ـ التي اعتاد أبوه روايتها في زياراته الكثيرة للأسرة في باريس. وما كان يدور في خلده أنه سيذهب ذات يوم إلى المزارع، فالاتفاق الضمني يقضي بأن يتولى أبوه تعزيز الثروة في الجزيرة، بينما يتولى هو رعاية أمه وأخواته والإشراف على الأعمال في فرنسا. كانت الرسالة التي تلقاها تلمِّح إلى مشاكل صحية، وافترض أنها مسألة حمى عابرة، ولكنه حين وصل إلى سان لازار، بعد يوم من السفر بسرعة تنهك الحصان عبر طبيعة نهمة ومعادية، أدرك أن أباه يموت. فهو لا يعاني الملاريا مثلما توقع، وإنما السفلس الذي يفتك بالبيض والزنوج والخلاسيين على السواء. وكان الداء قد بلغ مرحلته الأخيرة وصار أبوه شبه مشلول، تغطيه البثور، أسنانه مخلخلة وذهنه في الضباب. ومع أن أساليب العلاج الدانتية المعتمدة على فصد الدم، والزئبق، وكيّ العضو بأسلاك متوهجة لم تخفف عنه، إلا أنه مازال يمارسها كفعل ندامة. كان قد بلغ الخمسين من عمره، ولكنه يبدو عجوزا هرماً يصدر أوامر متضاربة، ويتبول دون ضابط، ويظل دوماً في أرجوحة نوم مع زنجيتين صغيرتين أدركتا لتوهما سن البلوغ.

وبينما العبيد يُنزلون الأمتعة تحت أوامر خادمه المتأنق الذي وجد مشقة في تحمّل الرحلة في السفينة وكان مرعوباً حيال ظروف المكان البدائية، خرج تولوز فالموران ليجوب الملكية الواسعة. لم يكن يعرف أي شيء عن زراعة قصب السكر، ولكن تلك الجولة كانت كافية ليدرك أن العبيد يتضورون جوعاً وأن المزارع قد نجت من الإفلاس لأن العالم يستهلك السكر بشراهة متزايدة. ووجد في دفاتر الحسابات تفسيراً لسوء وضع أبيه المالي الذي لا يستطيع توفير متطلبات الأسرة في باريس بالأبهة اللائقة بمكانته. فالإنتاج في حالة كارثية والعبيد يتساقطون مثل البق، ولم يعد يخامره أي شك في أن رؤساء العمال يسرقون مستغلين تردي حالة المالك المؤثرة. لعن حظه واستعد ليشمر عن ساعديه ويبدأ

العمل، وهو أمر لم يكن يقدم عليه أي شاب من وسطه: فالعمل لفئة أخرى من الناس. بدأ بالحصول على قرض كبير بفضل دعم وكيل أبيه التجاري واتصالاته بمصرفيين، ثم أرسل *الكومندورات* إلى حقول القصب ليعملوا جنباً إلى جنب مع من عذبوهم من قبل، واستبدلهم بآخرين أقل فساداً، وقلص العقوبات، وتعاقد مع بيطري أمضى شهرين في سان لازار محاولاً ردّ شيء من الصحة إلى الزنوج. ولكن البيطار لم يستطع إنقاذ خادمه الذي قضى عليه إسهال شديد خلال أقل من ثمان وثلاثين ساعة. أدرك فالموران أن عبيد أبيه يستمرون في العمل ثمانية عشر شهراً وسطياً، قبل أن يهربوا أو يموتوا جوعاً، ولكن مردودهم أقل مما في مزارع أخرى. وأن النساء يعشن لفترة أطول من الرجال، لكن مردودهن أقل في العمل المنهك في حقول القصب ولديهن العادة السيئة بالحبل دوما. وبما أن قلة من المواليد كانوا يظلون على قيد الحياة، فقد قدّر أصحاب المزارع أن خصوبة الزنوج منخفضة جدا وغير مجزية. أجرى الشاب فالموران التغييرات الضرورية بصورة آلية، دون تخطيط وعلى عجل، مصمماً على المغادرة بأسرع وقت، ولكنه عند موت أبيه، بعد شهور من ذلك، اضطر إلى مواجهة الواقع الذي لا مفر منه، وأدرك أنه قد وقع في المصيدة. لم يكن ينوي إبقاء عظامه في تلك المستعمرة الموبوءة بالبعوض، ولكنه إذا ما رحل قبل الوقت المناسب سيخسر المزارع ويخسر معها مداخيل أسرته ومكانتها الاجتماعية في فرنسا.

لم يحاول فالموران إقامة علاقات مع مستوطنين آخرين. وكان *البيض الكبار*، مالكو المزارع الأخرى يعتبرونه مغرورا لن يتمكن من البقاء لوقت طويل في الجزيرة؛ ولهذا السبب بالذات ذهلوا حين رأوه بجزمة ملوثة بالوحل وقد لوحته الشمس. كان الجفاء متبادلاً. فأولئك الفرنسيون المنقولون إلى جزر الأنتيل هم في نظر فالموران قرويون، على الطرف النقيض للمجتمع الذي كان يرتاده، حيث تُمجد الأفكار والعلوم والفنون ولا أحد يتكلم عن المال ولا عن العبيد. لقد انتقل من

«عصر العقل» في باريس ليغرق في عالم بدائي وعنيف يمضي فيه الأحياء والأموات يداً بيد. كما أنه لم يعقد صداقات مع *البيض الصغار* الذين يتمثل رأسمالهم الوحيد في لون بشرتهم، فهم مجرد شياطين بائسين مسمّمين بالحسد واللعنة، مثلما كان يقول هو نفسه. كما أنهم يتحدرون من أربع جهات الأرض ولا توجد طريقة لتحري نقاء دمائهم أو ماضيهم. وهم في أحسن الحالات تجار، وحرفيون، وكهنة محدودي الفضيلة، وبحارة، وعسكريون، وموظفون صغار، ولكن هناك بينهم أشراراً فاسدين أيضاً، وقوادين، ومجرمين، وقراصنة يستخدمون كل ركن خفي في الكاريبي لممارسة نذالاتهم. ولم يكن لديه شيء مشترك مع أولئك الناس.

وبين المولدين الأحرار أو الخلاسيين العتقاء كان يوجد أكثر من ستين مرتبة، حسب نسبة الدم الأبيض التي تحدد مستواهم الاجتماعي. لم يستطع فالموران قط تمييز تلك التدرجات اللونية ولم يعرف تسمية كل خلطة من العرقين. ولم يكن المولدون يتمتعون بأية سلطة سياسية، ولكنهم كانوا يتصرفون بأموال طائلة؛ ولهذا كان البيض الفقراء يكرهونهم. فبعضهم يكسب عيشه من صفقات غير مشروعة، ابتداء من التهريب وحتى الدعارة، ولكن آخرين منهم تلقوا تعليماً في فرنسا ويملكون ثروة وأراض وعبيداً. وإضافة فوارق اللون الدقيقة بينهم، كان الخلاسيون متحدين بتطلعهم المشترك إلى التشبه بالبيض، وبازدرائهم العميق للزنوج. أما الزنوج الذين كان عددهم أكبر عشر مرات من عدد البيض المتفرنسين معا، فلم يكن لهم أي شأن، لا في إحصاء السكان ولا في وعي المستوطنين.

ولأنه من غير المناسب له عزل نفسه تماما، صار تولوز فالموران يتردد بين حين وآخر على بعض أسر *البيض الكبار* في لوكاب، المدينة الأقرب إلى مزارعه. ويشتري خلال تلك الرحلات ما يحتاج إليه من مؤن، ويعرج على جمعية المستعمرة، إذا لم يستطع تجنب ذلك، ليسلم على نظرائه، فهكذا لا ينسون كنيته. ولكنه لم يكن يشارك في

جلسات الجمعية. وينتهز فرصة وجوده في المدينة كذلك لمشاهدة كوميديات في المسرح، وحضور حفلات *الدجاجات* - المومسات الحيويات الفرنسيات والإسبانيات والخلاسيات اللاتي يسيطرن على الحياة الليلية - وتأبط أذرع مكتشفين وعلماء يتوقفون في الجزيرة، وهم في طريقهم إلى أمكنة أكثر أهمية. لم تكن سان دومانغ تجتذب زائرين، ولكن بعضهم يأتون أحياناً لدراسة طبيعة جزر الأنتيل أو اقتصادها، فيدعوهم فالموران إلى سان لازار لعله يستعيد، ولو لوقت قصير، متعة خوض محادثة سامية هيأته لها سنواته في باريس. وبعد ثلاثة أعوام على وفاة أبيه، صار بإمكانه أن يريهم الملكية بفخر؛ فقد حوّل صخبٍ الزنوج المرضى وحقول القصب الجافة إلى إحدى أكثر المزارع ازدهاراً بين مزارع الجزيرة الثمانمائة، وضاعف خمس مرات كمية تصديره من السكر غير المكرر، وأقام معمل تقطير يُنتج فيه براميل روم فاخرٍ، وأفخم بكثير من الذي يشربه عادة. كان زائروه يقضون أسبوعاً أو أسبوعين في بيته الخشبي الكبير والخشن، ينغمسون في حياة الريف ويقدّرون، عن قرب، اختراع السكر السحري. ويتنزهون على الخيول بين الأعشاب الكثيفة التي تصفر متوعدة مع هبوب الريح، محتمين من الشمس بقبعات كبيرة من القش، ومحشرجين في رطوبة الكاريبي اللاهبة، بينما العبيد، مثل ظلال باهتة، يقطعون القصب عند مستوى الأرض دون قتل الجذر، كي ينمو في محصول آخر. يبدون من بعيد كأنهم حشرات وسط حقول القصب المبرقشة التي تعلو ضعف ارتفاع قاماتهم. عملية تنظيف القصب القاسي، وتقطيعه في الآلات المسننة، وعصره في المكابس وغلي العصير في مراجل نحاسية عميقة للحصول على سائل كثيف قاتم، كل ذلك كان يبدو فاتناً لأناس المدينة أولئك الذين لم يروا من قبل إلا البلورات البيضاء التي تُحلى بها القهوة. كان أولئك الزوار يطلعون فالموران على آخر أحداث أوروبا التي تصبح أبعد فأبعد عنه، ومنجزات التقدم التكنولوجي والعلمي الجديدة والأفكار الفلسفية الرائجة. ويفتحون له بوابة يرصد منها العالم

ويتركون له بعض الكتب كهدية. كان فالموران يستمتع مع ضيوفه، ولكنه يستمتع أكثر عندما ينصرفون. لم يكن يروقه أن يكون هناك شهود على حياته ولا على ملكيته. فالأجانب ينظرون إلى نظام العبودية بمزيج من الاشمئزاز والفضول المرضي الذي يبدو له مهيناً، لأنه يعتبر نفسه مالكاً عادلاً. فلو أنهم يعرفون كيف يعامل مالكو مزارع آخرون زنوجهم لوافقوه الرأي. كان يعرف أن بعضهم يعودون إلى الحضارة وقد تحولوا إلى دعاة لإلغاء العبودية لا يتورعون عن معارضة استهلاك السكر. وكان يمكن للعبودية أن تصدمه هو أيضاً لو عرف التفاصيل قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى العيش في الجزيرة، ولكن أباه لم يكن يشير إلى الموضوع. أما الآن، بعد أن صار مئات الزنوج تحت وصايته، فقد تبدلت أفكاره بهذا الشأن.

مرت السنوات الأولى على تولوز فالموران وهو يعمل على إخراج مزرعة سان لازار من الخراب، دون أن يتمكن من السفر خارج المستعمرة ولو مرة واحدة. فقد الاتصال بأمه وأخواته، اللهم إلا بعض الرسائل المتباعدة ذات اللهجة الرسمية التي تقتصر على الحديث عن تفاهات الحياة اليومية والصحة.

لقد جرب وكيلين جيء بهما من فرنسا ـ فسمعة الكروليين المحليين سيئة ـ ولكنهما كانا إخفاقاً. فقد مات أحدهما بلدغة أفعى، وانغمس الآخر في إغواء المومسات، إلى أن جاءت زوجته لإنقاذه واقتادته معها دون استئناف. إنه يختبر الآن بروسبير كامبري الذي خدم، مثل جميع الخلاسيين الأحرار في المستعمرة، السنوات النظامية الثلاث في الميليشيا ـ الدرك ـ المكلفة بفرض احترام القانون، وحفظ النظام، وجباية الضرائب، ومطاردة العبيد الآبقين. كان كامبري بلا ثروة ولا عرابين، واختار أن يكسب عيشه في مهنة اصطياد الزنوج غير المرغوبة في تلك الجغرافية الهذيانية من أدغال عدائية وجبال وعرة، حيث لا يمكن حتى للبغال أن تمشي فيها بثقة. كان أصفر البشرة، في وجهه قروح جدري، وشعره أجعد أكسجيني اللون، وعيناه ضاربتان إلى الخضرة، وكان

دائم النزق، وله صوت مترنم وناعم، يتناقض بصورة مضحكة مع طبعه الفظ ومظهره البدني كقاتل مأجور. كان يطالب العبيد بالإذعان المطلق ولكنه يتذلل بالمقابل أمام من هو أعلى منه مكانة. وقد حاول في البدء كسب تقدير فالموران بالمكائد، ولكنه سرعان ما أدركٍ أن هوة عِرقية وطبقية تفصل بينهما. عرض عليه فالموران راتباً جيداً، وفرصة لممارسة السلطة وصنارة التحول إلى رئيس لمراقبي العمال.

عندئذ توافر لفالموران مزيد من الوقت للقراءة، والخروج للصيد، والسفر إلى لوكاب. كان قد تعرف إلى فيوليت بواسيير، ***الدجاجة*** المرغوبة أكثر من جميع الأخريات في المدينة، وهي فتاة حرة، مشهورة بأنها نظيفة ومعافاة، لها ملامح أفريقية موروثة ومظهر امرأة بيضاء. ومعها لن ينتهي على الأقل إلى ما انتهى إليه أبوه، بتحول دمه إلى ماء بفعل «الداء الإسباني».

طائر الليل

فيوليت بواسيير هي ابنة مومس أخرى، خلاسية مهيبة ماتت في التاسعة والعشرين من عمرها بطعنة سيف ضابط فرنسي ـ ربما هو والد فيوليت، وإن لم يتأكد ذلك قطّ ـ أفقدته الغيرة اتزانه. وقد بدأت الابنة الفتية ممارسة المهنة في الحادية عشرة من عمرها تحت وصاية أمها؛ وفي الثالثة عشرة، حين قتلت الأم، كانت الابنة تتقن فنون المتعة الفاخرة، وتفوقت وهي في الخامسة عشرة على جميع منافساتها. وكان فالموران يُفضل عدم التفكير في من تضاجعهم ***صديقته الصغيرة*** أثناء غيابه، لاسيما أنه غير مستعد لشراء الحق الحصري. لقد استحكمت نزوة فيوليت به، فهي محض حركة وضحك، ولكنه كان يتمتع بما يكفي من برودة الأعصاب لكبح مخيلته، خلافاً لحال الضابط الذي قتل أمها وقوض حياته المهنية وسمعته. كان فالموران يكتفي بمرافقتها إلى المسرح وإلى حفلات رجال لا تحضرها نساء بيض، حيث يجتذب جمالها المشع الأنظار. وكان يشعر بسعادة خبيثة لما يثيره ظهوره وهي تتأبط ذراعه من الحسد في رجال آخرين. فكثيرون منهم لا يتورعون عن التضحية بشرفهم مقابل قضاء ليلة كاملة مع فيوليت، بدلا من ساعة واحدة أو ساعتين، مثلما هو اشتراطها، ولكن ذلك الامتياز غير متاح إلا له وحده. أو هذا ما كان يظنه على الأقل.

كانت الفتاة تملك منزلاً من ثلاث حجرات وشرفة بحاجز حديدي مزين بزنابق في الطابق الثاني من بناية بالقرب من ساحة كلوني، هو الإرث الوحيد الذي خلّفته لها أمها إلى جانب بعض الفساتين المناسبة لمهنتها. وهناك كانت تعيش بنوع من الترف برفقة لولا، وهي عبدة أفريقية غليظة ومسترجلة تمارس دور الخادمة والحارس الشخصي. وكانت فيوليت تقضي أشد ساعات الحر في الراحة أو الاعتناء بجمالها:

مساجات بحليب جوز الهند، والتخلص من الشعر الزائد بسكر محروق، وحمامات زيت لشعرها، ومغلي أعشاب لتنقية صوتها وبصرها. وفي بعض الأحيان تُحضّر مع لولا مراهم للبشرة، وصابون لوز، وكريمات ومساحيق زينة يبعنها لصديقاتهما من النساء. كانت نهاراتها مملة ومتاقلة. وعند الغروب، حين لا يعود بإمكان أشعة الشمس الضعيفة تلطيخ بشرتها، تخرج للتنزه ماشية إذا كان المناخ يسمح بذلك، أو في محفة يدوية يحملها عبدان وتستأجرها من جارة لها؛ فتتجنب بذلك الاتساخ بروث الخيل والقمامة ووحل الطرق في لوكاب. وكانت تلبس باحتشام كيلا تستفز نساء أخريات: فلا النساء البيض ولا الخلاسيات يتسامحن بطيبة خاطر مع مثل تلك المنافسة. وتذهب إلى المتاجر للقيام بمشترياتها، وإلى الميناء للحصول على مواد مهربة من البحارة، وتزور الخياطة، ومصفف الشعر، وصديقاتها. وبذريعة تناول عصيرٍ فواكه، تتوقف في الفندق أو في أحد المقاهي، حيث لا تعدم سيداً مستعداً لدعوتها إلى منضدته. وكانت تعرف معرفة حميمة أكبر المتنفذين في المستعمرة، بمن في ذلك صاحب أعلى رتبة عسكرية، الحاكم. ثم تعود بعد ذلك إلى بيتها لتتزين من أجل ممارسة مهنتها، وهذه مهمة معقدة تتطلب منها نحو ساعتين. ترتدي فساتين من أقمشة فاخرة من أوروبا والشرق، وبكل ألوان قوس قزح، وأحذية وحقائب متناسقة، وقبعات ذات ريش، وشالات مطرزة من الصين، وعباءات فراء تجرها وراءها على الأرض، لأن المناخ لا يتيح لها لبسها، وصندوق حلي رخيصة. وفي كل ليلة، يكون على صديق النوبة المحظوظ ـ لم يكن يُسمى زبوناً ـ أن يأخذها إلى استعراض ما وتناول العشاء، وبعد ذلك إلى حفلة تستمر حتى الفجر، ثم يرافقها أخيراً إلى شقتها، حيث تشعر بالأمان، لأن لولا تنام على فراش من قش في متناول صوتها، ويمكنها في حالة الضرورةٍ التخلص من أي رجل عنيف. كانت تسعيرتها معروفة ولا تُذكر علناً؛ فالنقود تُترك في علبة من اللّك على المنضدة، وعلى هذه المكافأة يعتمد الموعد التالي.

وفي فجوة بين لوحين من خشب الجدار لا تعرفها سوى لولا، كانت فيوليت تخبئ جراباً من جلد الغزال يضم مجوهراتها الثمينة، بعضها هدايا من تولوز فالموران الذي يمكن أن يقال عنه أي شيء باستثناء القول إنه بخيل، وبعض النقود الذهبية المقتناة شيئاً فشيئاً، تدخرها من أجل المستقبل. وكانت تفضل أن تتزين بحلي مزيفة كيلا تغوي اللصوص وتستثير التقولات، ولكنها تستخدم المجوهرات عندما تخرج مع من أهداها إياها. وتضع على الدوام خاتماً من حجر كريم ذا تصميم عتيق، ألبسها إياه الضابط الفرنسي إيتيان روليه كعلامة خطوبة. وكانت تلتقي به قليلاً جداً، لأنه يقضي حياته على صهوة حصان، قائداً وحدته، ولكنه عندما يكون في لوكاب تؤجل **أصدقاء** آخرين لتكون في خدمته. وكان روليه الشخص الوحيد الذي يمكنها الاستسلام معه لفتنة الشعور بأنها محمية. ولم يكن تولوز فالموران يشك في أن ذلك العسكري الفظ يشاركه شرف قضاء ليلة بكاملها مع فيوليت. ولم تكن هي تقدم تفسيرات، كما أنها لم تكن مضطرة إلى الاختيار بينهما، لأنهما لم يلتقيا معاً في المدينة قط.

ـ ماذا سأفعل بهذين الرجلين اللذين يعاملاني كخطيبة؟ ـ سألت فيوليت في إحدى المناسبات لولا.

ـ هذه الأمور تجد حلها من تلقاء ذاتها ـ أجابتها العبدة وهي تمج بعمق سيجارها الذي من التبغ الخام.

ـ أو أنها تُحل بالدم. تذكري ما جرى لأمي.

ـ مثل ذلك لن يحدث لك يا ملاكي، لأني موجودة هنا لحمايتك.

وقد كانت لولا على حق: فقد تكفل الزمن بتصفية أحد الخطيبين. فبعد نحو سنتين، تحولت صداقة فالموران إلى صداقة غرامية خالية من وله الشهور الأولى، عندما كان لا يتورع عن المجيء في عدو سريع يُنهك مطيته من أجل مضاجعتها. تباعدت الفترة بين الهدايا الغالية، وكان في بعض الأحيان يأتي إلى لوكاب دون أن يبدي تلهفاً لرؤيتها. لم تؤنبه فيوليت، لأن حدود تلك العلاقة كانت واضحة لديها على

الدوام، ولكنها أبقت على التواصل الذي يمكن له أن يكون نافعاً لكليهما.

كان الكابتن إيتيان روليه يتمتع بسمعة المنزه عن الفساد في أجواء يشكل الفساد فيها القاعدة، حيث الشرف معروض للبيع، والقوانين توضع من أجل خرقها، وينطلق الجميع من قاعدة أن من لا يستغل السلطة لا يستحق امتلاكها. كانت استقامته تمنعه من الإثراء كآخرين في مكانة مماثلة لمكانته، بل إن إغراء جمع ما يكفي للعودة إلى في فرنسا، مثلما وعد فيوليت بواسيير، لم يتمكن من حرفه عما يعتبره الاستقامة العسكرية. لم يكن يتردد في التضحية برجاله في معركة أو تعذيب طفل للحصول منه على معلومات عن أمه، ولكنه لم يلمس بيده نقوداً لم يكسبها بنزاهة. كان يبالغ في التدقيق بشرفه ونزاهته. ويرغب في أخذ فيوليت إلى حيث لا يعرفهما أحد، وحيث لا يمكن لأحد الشك في أنها كانت تكسب حياتها من ممارسات غير فاضلة، ولا يكون اختلاطها العرقي واضحاً. لأنه لا يمكن إلا لعين مدربة في الأنتيل أن تعرف نسبة الدم الأفريقي التي تسري تحت بشرتها الفاتحة.

لم تكن فكرة الذهاب إلى فرنسا تجتذب فيوليت، لأنها تخشى فصول الشتاء الجليدية أكثر من خشيتها ألسنة السوء التي هي محصنة ضدها، ولكنها وافقت على مرافقته. ووفق حسابات، فإنه إذا ما اقتصد في نفقاته، وتقبل مهمات تنطوي على مجازفة كبيرة يحصل مقابلها على تعويضات إضافية، وتوفر له ترقية سريعة في وظيفته، فسوف يتمكن من تحقيق حلمه. وكان يأمل أن تكون فيوليت قد نضجت حتى ذلك الحين ولم تعد تلفت الأنظار بوقاحة ضحكتها، وببريق عينيها السوداوين شديد الخبث، واهتزاز مشيتها الإيقاعي. لن تتوقف أبداً عن لفت الأنظار، ولكن ربما سيكون بإمكانها تولي دور زوجة العسكري المتقاعد. مدام روليه... كان يستمتع بتذوق هاتين الكلمتين، يرددهما كصيغة سحرية. لم يكن قراره بالزواج منها حصيلة إستراتيجية دقيقة، مثلما هي بقية شؤون حياته، بل ضربة قلب عنيفة

لم يضعها موضع الشك قطّ. وعلى الرغم من أنه لم يكن رجلاً عاطفياً، إلا أنه تعلم الثقة بغريزته، وهذا أمر مفيد جداً في الحرب.

لقد تعرّف إلى فيوليت قبل نحو سنتين، في زحمة سوق الأحد، وسط صرخات الباعة وتزاحم الناس والبهائم. في مسرح بائس يتألف من منصة مغطاة بمظلة من خرق بنفسجية، حيث كان يختال رجل له شارب ضخم بمبالغة وموشوم بزخارف أرابيسك، بينما طفل ينادي بأعلى صوت معلناً عن مزاياه بأنه أشهر ساحر في سمرقند. وما كان لذلك الاستعراض المثير للشفقة أن يجتذب الكابتن لولا حضور فيوليت المشع. فعندما طلب الساحر متطوعاً من الجمهور، شقت طريقها بين المتفرجين وصعدت إلى المنصة الخشبية بحماسة طفولية، ضاحكة ومحيية بمروحتها اليدوية. كانت قد أكملت للتو خمسة عشر عاماً من عمرها، ولكن كان لها جسد وسلوك امرأة مجربة، مثلما هي الحال في ذلك المناخ، حيث البنات، مثلهن مثل الفاكهة، ينضجن سريعاً. وبانصياع لتعليمات المشعوذ، بادرت فيوليت إلى التكور على نفسها في صندوق مزركش برموز فرعونية. أغلق المنادي، وهو زنجي صغير في حوالي العاشرة متنكر بزي تركي، غطاء الصندوق وأقفله بقفلين ثقيلين، واستُدعي مشاهد آخر للتأكد من متانتهما. قام السمرقندي بالمرور بذيل عباءته عدة مرات فوق الصندوق ثم قدّم المفاتيح إلى المشاهد المتطوع كي يفتح القفلين. وعند رفع غطاء الصندوق وجد أن الفتاة لم تعد في داخله، ولكن قرع طبل سريع قام به الزنجي الصغير بعد لحظات أعلن عن ظهورها العجيب وراء الجمهور. فاستدار الجميع بأفواه مفتوحة إعجاباً بالفتاة التي تجسدت من العدم وراحت تهوّي بمروحتها اليدوية وهي ترفع إحدى ساقيها على برميل.

منذ النظرة الأولى عرف إيتيان روليه أنه لن يستطيع أن ينتزع من روحه تلك الفتاة التي من عسل وحرير. أحس بأن شيئاً ينفجر في جسده، جف فمه وفقد الإحساس بالتوجه. وكان لا بد له من بذل جهد كي يعود إلى الواقع وينتبه إلى أنه في السوق ومحاط بالناس. وفي

محاولة للسيطرة على نفسه، استنشق جرعة كبيرة من رطوبة منتصف النهار ونتانة السمك واللحوم المعروضة تحت الشمس، والثمار المتعفنة، والقمامة، وروث البهائم. لم يكن يعرف اسم الجميلة، ولكنه افترض أنه من السهل تحري ذلك، واستنتج أنها غير متزوجة، لأنه لا يمكن لأي رجل أن يسمح لها بأن تعرض نفسها بذلك الاستهتار. كانت باهرة الجمال إلى حدّ أن العيون كلها تركزت عليها، بحيث لم ينتبه أحد، باستثناء روليه المدرب على ملاحظة أدنى التفاصيل، إلى خدعة المشعوذ. ولو أنه في ظروف أخرى، فربما كان أماط اللثام عن القعر المزدوج للصندوق وحيلة الفتحة في المنصة، لمجرد إظهار اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة، ولكنه توقع أن الفتاة تشارك كمتواطئة مع الساحر وفضّل تجنيبها الموقف السيئ. لم يبق لرؤية الغجري الموشوم وهو يُخرج قرداً من قارورة، ولا لرؤيته يقطع رأس متطوع، مثلما كان يعلن الطفل المنادي. أزاح الجموع بمرفقيه وانطلق وراء الفتاة التي كانت تبتعد مسرعةً وهي تتأبط ذراع رجل يرتدي الزي العسكريٍ، ربما يكون جندياً من فوجه. لم يصل إليها، إذ أوقفته فجأة زنجيةٌ ذات ذراعين متيني العضلات وممتلئين بأساور عادية، اعترضت سبيله ونبهته إلى أنه عليه انتظار دوره، لأنه ليس الشخص الوحيد المهتم بسيدتها فيوليت بواسيير. وحين رأت ملامح الذهول على وجه الكابتن، انحنت نحوه لتهمس في أذنه مبلغ الإكرامية المطلوبة كي تعطيه المكان الأول بين زبائن الأسبوع. وهكذا عرف أنه تعلّق بواحدة من أولئك المومسات اللاتي يمنحن مدينة لوكاب شهرتها.

حضر روليه أول مرة إلى شقة فيوليت بواسيير متيبساً في بدلته العسكرية المكوية للتو، وأحضر معه زجاجة شمبانيا وهدية متواضعة. وضع المبلغ المطلوب حيث أشارت إليه لولا أن يضعه وتأهبٍ للرهان على مستقبله في ساعتين. اختفت لولا بتكتم وظلٍ وحيداً، يتعرق في الهواء الساخن للصالة المترعة بالأثاث، متقززا بعض الشيء من الرائحة الحلوة المنبعثة من ثمار مانجا ناضجة موضوعة في طبق. لم تتركه

فيوليت ينتظر أكثر من دقيقتين. دخلت منسلة بصمت ومدّت إليه يديها، بينما هي تتفحصه برموش شبه مطبقة وابتسامة غامضة. تناول روليه تينك اليدين الطويلتين والمرهفتين بين يديه دون أن يدري ما هي الخطوة التالية. فأفلتت يديها منه، وداعبت وجهه متصنعة أنه قد حلق ذقنه من أجلها، وأشارت إليهِ أن يفتح القارورة. طارت سدادة الفلين وخرج زبد الشمبانيا مضغوطاً قبل أن تتمكن من تلقيه بالكأس، فبلل معصمها. مرت بأصابعها المبللة على عنقها وأحس روليه بدافع يدفعه إلى لحس القطرات التي تلمع على البشرة البديعة، ولكنه ظل مسمراً في مكانه، أبكم وفاقدا الإرادة. سكبت الشمبانيا في الكأس وتركتها، دون أن تتذوقها، فوق منضدة صغيرة إلى جانب الأريكة، ثم اقتربت، وبأصابع خبيرة راحت تفك أزرار سترة الزي العسكري. «اخلعها، فالجوٍ حارٍ. واخلع الجزمة أيضاً»، أشارت عليه وهي تقدم إليه روباً صينياً مزيناً برسوم طيور مالك الحزينٍ. بدا الروب لريبليه غير مناسب، ولكنه ارتداه فوق القميص، مصارعاً تشابك الكمين العريضين، ثم جلس على الأريكة الضيقة. لقد كان معتاداً على إصدار الأوامر، ولكنه أدرك أن فيوليت هي من تأمر بين تلك الجدران الأربعة. كانت فراغات أباجور النافذة تسمح بدخول ضجة الساحة وآخر أشعة الشمس التي تتسرب أشبه بضربات سكين عمودية مضيئة الصالة الصغيرة. كانت الشابة ترتدي عباءة من حريريٍ زمردي اللون معصوبة عند خصرها بحبل ذهبي، وتنتعل خفاً تركياً وتعتمر عمامة معقدة مطرزة بكرات خردق معدنية. وتتهدل على وجهها خصلة شعر سوداء. شربت فيوليت رشفة من الشمبانيا وقدمت إليه الكأس نفسها، فأفرغها بجرعة واحدة لاهثة، كغريق. ملأت الكأس من جديد وحملته من ساقه الطويلة، وظلت تنتظر إلى أن دعاها هو إلى جانبه على الديوان. وكانت تلك هي مبادرة روليه الأخيرة؛ لأنها هي من تولت منذ تلك اللحظة اقتياده في اللقاء على طريقتها.

بيضة الحمامة

تعلمت فيوليت إرضاء **أصدقائها** خلال الوقت المحدد دون إعطائهم إحساساً بأنها مستعجلة. كثرة تغنج ذلك الجسد المراهق وخضوعه الساخر جرّدا روليه تماماً من أية مقاومة. حلّت فيوليت قماش العمامة الطويل ببطء، فسقط على الأرضية الخشبية برنين كرات الخردق، وأتبعت ذلك بهز شلال شعرها الأسود على كتفيها وظهرها. كانت حركاتها متكاسلة، دون أي تصنع، وبنداوة رقصة. لم يكن نهداها قد بلغا بعد حجمهما النهائي، وكانت حلمتاهما ترفعان حرير العباءة الأخضر كحصاتين. لقد كانت عارية تحت العباءة. أعجب روليه بذلك الجسد الخلاسي، بالساقين المتينتين والكعبين الناعمين، بالمؤخرة والفخذين الثخينين والخصر الضيق، والأصابع الأنيقة المنحنية إلى الخلف والخالية من الخواتم. كانت ضحكتها تبدأ بخرخرة صماء في بطنها وتتعالى شيئاً فشيئاً، بلورية وفضائحية ونابضة، برأسها المرفوع، وشعرها الحيوي وعنقها الطويل. قطعت فيوليت بسكين فضي صغير قطعة من المانجا، وضعتها في فمها بشراهة فسال خيط من العصارة على فتحة صدرها المبلل بالعرق والشمبانيا. التقطت بإصبع أثر الثمرة: قطرة عنبرية كثيفة، ودعكتها بشفتي روليه بينما هي تجلس مفرشخة على ساقيه بخفة حيوان سنورى. صار وجه الرجل بين نهديها العابقين برائحة المانجا. انحت عليه وأحاطته بشعرها الوحشي، قبّلته بقوة من فمه وقدمت إليه بلسانها قطعة الفاكهة التي قضمتها. تلقى روليه اللباب الممضوغ وقد اجتاحته قشعريرة المفاجأة: لم يجرب من قبل قطّ شيئاً بمثل تلك الحميمية، والصدمة، والروعة. لحست طرف ذقنه ثم أمسكت رأسه بكلتا يديها وغمرته بقبلات سريعة كأنها نقرات عصفور على الجفنين، على الخدين، على الشفتين، على العنق، متلاعبة

وضاحكة. طوق الرجل خصرها، وبيدين متلهفتين نزع العباءة كاشفاً عن تلك الفتاة الرشيقة العابقة بالمسك التي تلتصق، تنصهر، تتفتت على عظام جسده والعضلات الصلبة للجندي المتمرس في المعارك والحرمان. أراد حملها بين ذراعيه وأخذها إلى السرير الذي يمكنه رؤيته في الحجرة المجاورة، لكن فيوليت لم تمنحه الوقت؛ فقد فتحت بيديها روب طيور مالك الحزين الذي يرتديه وأنزلت سرواله الداخلي، وراح ردفاها الفخمان يتلويان فوقه بخبرة إلى أن انغرست على عضوه المتصلب مطلقة تنهيدة سعادة عميقة. أحس إيتيان روليه أنه يغرق في مستنقع نشوة، دون ذاكرة ولا إرادة. أغمض عينيه مقبلاً ذلك الفم الرطب الممتلئ ومتذوقاً شذى المانجا، بينما هو يجوب بيدي الجندي الخشنتين نعومة البشرة المستحيلة وثراء الشعر الوافر. غاص فيها مستسلماً لحر تلك الشابة وعرقها ورائحتها، بإحساس من وجد أخيراً مكانه في الدنيا بعد أن جال وحده طويلاً وعلى غير هدى. وخلال دقائق قليلة انفجر كمراهق طائش، بدفقة متشنجة وصرخة إحباط لأنه لم يستطع منحها المتعة، لأن رغبته في أن يحبها كانت أكبر من رغبته في أي شيء في الحياة. انتظرت فيوليت إلى أن انتهى، ثابتة، مبللة، ممتطية إياه، ووجهها غاطس في فجوة كتفه، متمتمة بكلمات غير مفهومة.

لم يدرِ روليه كم من الوقت ظلا متعانقين على تلك الحال، إلى أن عاد يتنفس بصورة طبيعية وانقشعت عنه قليلاً الغشاوة الضبابية التي لفته، وعندئذ انتبه إلى أنه مازال فيها، وأنه مثبت بتلك العضلات المرنة التي تدلكه بإيقاعية، تشده وتفلته. وتمكن من التساؤل كيف تعلمت تلك الطفلة فنون مومس متمرسة قبل أن يتيه مرة أخرى في هلام اللذة واضطراب حب فوري. وعندما أحست به فيوليت متصلباً من جديد، طوقت خصره بساقيها وشبكت قدميها على ظهره، وأشارت إلى الحجرة المجاورة. حملها روليه بذراعيه وهي مغروسة على عضوه، وسقط معها على السرير، حيث استمتعا مثلما شاءت لهما الرغبة حتى وقت متقدم جدا من الليل، وأكثر بساعات عديدة من الوقت الذي

اشترطته لولا. حتى إن المرأة الضخمة دخلت مرتين متأهبة لوضع حد لتلك المبالغة، لكن فيوليت التي لانت وهي ترى ذلك العسكري الناري يبكي حباً، صرفتها دون تروٍ.

الحب الذي لم يعرفه إيتيان روليه من قبل قط، حوّله إلى موجة رهيبة، إلى طاقة وملح وزبد خالص. قدّر أنه غير قادر علىٍ منافسة زبائن آخرين على تلك الفتاة، ممن هم أجمل أو أوسع نفوذاً أو ثراء منه، ولهذا قرر عند الفجر أن يعرض عليها ما لا يمكن إلا لقلة من الرجال البيض أن يكونوا مستعدين لتقديمه: اسمه. «تزوجي مني»، طلب منها بين معانقتين. جلست فيوليت متقاطعة الساقين على الفراش وشعرها المبلل يلتصق بجلدها، وعيناها تتوهجان، وشفتاها منتفختان من القبلات. كانت تضيئهما بقايا ثلاث شموع محتضرة رافقتهما في ألعابهما الأكروباتية اللامتناهية. «لست من طينة من يتزوجن»، أجابته وأضافت أنها لم تنزف بعد في دورات القمر، وأن الوقت قد فاتها لحدوث ذلك، ولن تتمكن من إنجاب أبناء قط. ابتسم روليه، لأنه يرى أن الأطفال ليسوا سوى عِرقلة مزعجة.

ـ إذا ما تزوجتُ منك سأظلٍ وحيدة دائماً، بينما أنت ماض في حملاتك. لأني لن أجد لي مكانا بين البيض، وسيبتعد عني أصدقائي لأنهم يخافونك، ويقولون إنك دموي.

ـ عملي يتطلب ذلك يا فيوليت. فمثلما يبتر الطبيب عضواً أصابته الغرغرينا، أنفذ أنا واجبي لتجنب الأسوأ، ولكنني لم أُلحق الأذى بأحد دون مسوغ مقبول.

ـ إنني أوفر لك كل المسوغات المقبولة. ولا أريد أن ألقى المصير الذي لقيته أمي.

ـ لن يكون لديك ما تخافينه يا فيوليت ـ قال روليه وهو يمسك بكتفيها وينظر إلى عينيها طويلا.

ـ هذا ما آمل فيه ـ تنهدت أخيراً.

ـ سنتزوج، أعدك بذلك.

ـ راتبك لا يكفي لاحتياجاتي. فمعك سأفتقد كل شيء: الملابس، والعطور، والمسرح، وإضاعة الوقت. إنني كسولة أيها الكابتن، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي أكسب بها معيشتي دون أن أتلف يدي سريعاً.

ـ كم عمركِ الآن؟

ـ قليل، ولكن مهنتي هذه قصيرة النفس. فالرجال يملون الوجوه نفسها والمؤخرات نفسها. يجب أن استغل الشيء الوحيد الذي أمتلكه، كما تقول لولا.

سعى الكابتن لرؤيتها بكثرة، بقدر ما تسمح به حملاته، وبعد عدة شهور توصل إلى أن يكون شخصاً لا يمكنها الاستغناء عنه؛ كان يعنى بها وينصحها كعم، إلى أن لم تعد تتصور الحياة من دونه وبدأت تنظر إلى إمكانية الزواج في مستقبل شاعري. وقدّر روليه أنهما يستطيعان فعل ذلك بعد حوالي خمس سنوات. وهذا وقت يتيح لهما وضع حبهما موضع الاختبار وتوفير كل منهما المال بصورة منفصلة. واستسلم لمشيئة فيوليت في أن تواصلٍ مهنتها المعهودة وأن يدفع مقابل خدماتها مثل الزبائن الآخرين، شاكراً إمكانية قضائه ليالٍ كاملة معها. في البدء كانا يمارسان الحب إلى أن يتضعضع جسداهما، ثم استُبدل الاحتدام بعد ذلك بالرقة والحنان، وصارا يكرسان ساعات ثمينة في تبادل الحديث، ووضع الخطط والراحة متعانقين في عتمة شقة فيوليت الحارة. تعلم روليه معرفة جسد الصبية وطبعها، وصار قادراً على استباق ردود فعلها، وتفادي نوبات غضبها المفاجئة والقصيرة كالعواصف المدارية، ومنحها المتعة. اكتشف أن تلك البنت الصغيرة شديدة الحسية، مدربة على منح اللذة وليس على تلقيها، واجتهد في إرضائها بصبر وطيب خاطر. كان فارق السن وطبعه المتسلط يعوضان عن خفة فيوليت التي تسلم له قيادها في بعض الأمور العملية لإرضائه، ولكنها تحافظ على استقلاليتها وتدافع عن أسرارها.

كانت لولا تدير المال وتتحكم بالزبائن برباطة جأش. وفي إحدى المرات، وجد روليه عين فيوليت مزرقة، فغضب وأراد أن يعرف من

هو الفاعل لجعله يدفع الثمن غالياً. «لقد تقاضت لولا الثمن منه. إننا تدبر أمورنا وحدنا على ما يرام»، قالت له ضاحكة، ولم تكن ثمة طريقة لجعلها تبوح باسم المعتدي. كانت العبدة القوية تعرف أن صحة سيدتها وجمالها هما رأس مال كلتيهما، وأنه لا بد أن تأتي اللحظة التي يبدأان فيها بالتناقص؛ كما أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار منافسة دفعات المراهقات الجدد اللوتي يقتحمن المهنة اقتحاما كل عام. كانت لولا تشعر بالحزن لكون الكابتن فقيرا، لأن فيوليت تستحق حياة جيدة، وترى أنه لا وجود للحب، لأنها تخلط بينه وبين الوله الذي تعرف أنه لا يدوم طويلا، ولكنها لم تجرؤ على اللجوء إلى المكائد للتخلص من روليه. فقد كان الرجل مرهوبا. أضف إلى ذلك أن فيوليت لم تكن تبدي تعجلاً في الزواج، وقد يظهر في أثناء ذلك متودد آخر بوضع مالي أفضل. قررت لولا التوفير؛ لم تكتف بمراكمة حلي تافهة في حفرة، لأنه لا بد من بذل الجهد في استثمارات أوسع مخيلة، تحسباً من عدم تحقق الزواج من الضابط. قلصت النفقات ورفعت تعرفة سيدتها التي كانت خدماتها تصير أكثر حصرية كلما تقاضت أجراً أكبر. وتولت تضخيم سمعة فيوليت وفق إستراتيجية إشاعات: فكانت تقول إن سيدتها قادرة على إبقاء رجل فيها طيلة ليلة كاملة أو أنها تبعث الطاقة في أشد المتعبين حتى اثنتي عشرة مرة متتالية، وأنها تعلمت ذلك من عربية، وتتدرب عليه ببيضة حمامة، فهي تخرج للشراء، وتذهب إلى المسرح وإلى صراع الديوك وبيضة الحمامة في مخبئها السري دون أن تنكسر أو تسقط منه. ولم يكن يُعدم من يقاتلون بالسيف من أجل نيل الشابة *الدجاجة*، مما ساهم بصورة هائلة في توسيع شهرتها. فكان أثرى الرجال البيض وأوسعهم نفوذاً يسجلون أسماءهم بانصياع في القائمة وينتظرون دورهم. وكانت لولا هي من فكرت في خطة الاستثمار في الذهب كيلا يتسرب توفيرهما كالرمل من بين أصابعهما. وروليه الذي لم يكن في وضع يمكنه من المساهمة بالكثير، قدم إلى فيوليت خاتم أمه، الأثر الوحيد المتبقي من أسرته.

عروس من كوبا

في شهر تشرين الأول ١٧٧٨، وفي السنة الثامنة لوجوده في الجزيرة، قام تولوز فالموران برحلة أخرى من رحلاته القصيرة إلى كوبا، حيث يعقد صفقات لا يناسبه أن تشيع أخبارها. فقد كان عليه، مثل جميع المستوطنين البيض في سان دومانغ، أن يتاجر مع فرنسا فقط، غير أن هناك ألف طريقة حاذقة للتحايل على القانون، وهو يعرف عدداً منها. لم يكن يشعر بالإثم لتهربه من الضرائب، لأنها ستنتهي في آخر المطاف إلى صناديق الملك التي لا قرار لها. وكان الشاطئ العاصف يوفر لمركب متكتم أن يبتعد في الليل باتجاه خلجان أخرى في الكاريبي دون أن يعلم أحد بذلك، كما أن الحدود النفوذة مع الشطر الإسباني من الجزيرة، الأقل سكاناً والأكثر فقراً بكثير من الشطر الفرنسي، يسمح بالتهريب كرتل نمل متواصل من وراء ظهر السلطات. ويتيح تمرير كافة أنواع المهربات، ابتداء من الأسلحة وحتى المفاسد، وأكثر من ذلك كله أكياس سكر وبن وكاكاو تنقل من المزارع إلى وجهات أخرى، متجنبة الجمارك.

بعد أن خرج فالموران من ديون أبيه وبدأ يراكم منافع أكثر مما حلم به، قرر أن يحتفظ بنقود احتياطية في كوبا، تكون بأمن أكبر مما هي عليه في فرنسا، وفي متناول يده عند الضرورة. وصل إلى هافانا وفي نيته البقاء أسبوعاً واحداً للقاء مع وكيله المصرفي، ولكن الزيارة طالت أكثر مما هو مخطط لها لأنه تعرف في حفلة رقص في القنصلية الفرنسية على إوخينيا غارثيا دل سولار. ففي أحد أركان الصالون الباذخ رأى من بعيد شابة ممتلئة ذات بشرة شفافة، متوجة بشعر كستنائي كثيف وتلبس كقروية، على خلاف الأنيقة فيوليت بواسيير، ولكنها في عينيه لا تقل عنها جمالاً. ميزها على الفور بين حشد صالون الرقص، وأحس للمرة

الأولى أنه غير كفء. فبدلته المبتاعة من باريس قبل سنوات عديدة، لم تعد من الطراز المستخدم، وبشرته التي لوحتها الشمس تبدو كجلد مدبوغ، ويداه حديديتان، وباروكة شعره تسبب له حكة في رأسه، ودانتيلا ياقة عنقه تخنقه، وحذاؤه المتأنق ذو المقدمة الرفيعة والكعب الملتوي يضغط على قدميه ويجبره على المشي كبطة. وأساليبه التي كانت مهذبة، صارت تبدو جلفة بالمقارنة مع طلاقة الكوبيين. فالسنوات التي أمضاها في المزرعة صلبته من الداخل والخارج، وصار خلواً من فنون التهذب التي كانت طبيعية جداً في شبابه، في حين أنه بأمس الحاجة إليها الآن. والأدهى أن الرقصات الرائجة صارت حركات تشابك سيقان وانحناءات احترام ولف وقفزات يجد نفسه غير قادر على محاكاتها.

عرف أن الشابة شقيقة شخص إسباني يدعى سانتشو غارثيا دل سولار، من أسرة نبيلة منخفضة المرتبة، وذات لقب عظيم، ولكنها افتقرت منذ نحو جيلين. فالأم وضعت حداً لحياتها بالقفز من أعلى برج كنيسة، ومات الأب شاباً بعد أن بدد ثروة الأسرة. أما إوخينيا فتربت في دير جليدي بمدريد، حيث لقنتها الراهبات ما هو ضروري لشخصية أي سيدة: العفة، والصلوات، والتطريز. وفي أثناء ذلك وصل سانتشو إلى كوبا في محاولة لجمع ثروة، لأنه لا متسع في إسبانيا لمخيلة جامحة كمخيلته، فهو يستدين لصفقات مربحة، ولكنها ليست مشروعة على الدوام. وقد عاش في كوبا حياة عازب صاخبة، معتمداً على ديون لا كابح لها، يسددها بمشقة وفي اللحظة الأخيرة دوماً من ربح يصيبه على مائدة القمار أو بمساعدة من أصدقائه. كان حسن المظهر، ويمتلك لساناً ذهبياً لتملق الغريب، ويبدي الكثير من الزهو لا يمكن لأحد معه أن يعرف عمق جيبه. وفجأة، وفي وقت لم يكن يتوقعه، أرسلت له الراهبات أخته بمرافقة وصيفة ورسالة مقتضبة توضح أن إوخينيا لا تتمتع بأي ميل ديني وقد صار عليه هو، قريبها وحاميها الوحيد، أن يتولى أمرها الآن.

وبوجود هذه الشابة العذراء تحت سقفه، انتهت أيام لهو سانتشو، وصار عليه أن يعثر لها على زوج مناسب قبل أن تتجاوز السن ولا يبقى أمامها إلا أن تقوم بتبديل ملابس تماثيل القديسين، سواء أكان لها ميل إلى ذلك أم لم يكن. وكان ينوي تزويجها لمن يقدم أفضل عرض، لشخص يُخرج كليهما من الشح الذي أوصلهما إليه تبذير أبويهما، ولكنه لم يتصور أن تكون السمكة التيٍ ستعلق بالشص من الوزن الثقيل مثل تولوز فالموران. إنه يعرف جيداً من هو ذلك الفرنسي وكم يساوي، وكان يضع عينه عليه ليقترح عليه بعض الصفقات، ولكنه لم يقدمه إلى أخته في حفلة الرقص لأنها في وضع خاسر بوضوح إذا ما قورنت بجمال الكوبيات الشهير. فإوخينيا خجولة، لا تملك ملابس لائقة وليس باستطاعته شراءها لها، ولا تتقن تسريح شعرها، وإن كان الحظ قد حباها بشعر غزير، ولم تكن ذات قامة نحيلة ودقيقة مثلما هو رائج. ولهذا فوجئ في اليوم التالي عندما طلب منه فالموران الإذن بزيارته لنوايا جدية، كما قال له.

ـ لا بد أنه عجوز أعرج ـ قالت إوخينيا مازحة حين علمت بالأمر وهي تضرب أخاها بمروحتها اليدوية المطبقة.

ـ إنه سيد متعلم وغني، ولكنك ستتزوجين منه على كل حال حتى لو كان أحدب. سوف تبلغين العشرين عما قريب، وليس لديك أية دوطة...

ـ ولكنني جميلة! ـ قاطعته ضاحكة.

ـ هناك نساء كثيرات أجمل وأكثر نحولاً منكِ في هافانا.

ـ أأبدو لكَ بدينة؟

ـ لا يمكن لك أن تطلبي من يتوسل إليك، لاسيما إذا كان المتقدم هو فالموران. إنه صفقة رائعة ولديه ألقاب وأملاك في فرنسا، وإن كان ثقل ثروته الأكبر يتركز في منشآت السكر في سان دومانغ ـ أوضح لها سانتشو.

ـ سانتو دومنغو؟ ـ سألته مذعورة.

ـ بل سان دومانغ يا إوخينيا. فالشطر الفرنسي من الجزيرة مختلف تماماً عن الشطر الإسباني. سأريك خريطة، إنها قريبة جدا؛ يمكنك المجيء لزيارتي كلما رغبتِ.

ـ لستُ جاهلة يا سانتشو. أعرف أن تلك الجزيرة مكان معذب بأمراض قاتلة وزنوج متمردين.

ـ لن يستمر ذلك إلا لبعض الوقت. والمستوطنون البيض يغادرون فور تمكنهم من ذلك. وبعد وقت قصير ستكونين في باريس. أليس هذا هو حلم جميع النساء؟

ـ أنا لا أتكلم الفرنسية.

ـ ستتعلمينها. منذ الغد سيكون لك معلم ـ أنهى سانتشو.

وإذا كانت إوخينيا غارثيا دل سولار قد خططت لمعارضة نوايا أخيها، فإنها تخلت عن الفكرة فور حضور تولوز فالموران إلى بيتها. كان أكثر شباباً وجاذبية مما توقعته، متوسط القامة، حسن التناسق، وعريض المنكبين، وبوجه رجولي منسجم التقاطيع، وبشرة برونزية لوحتها الشمس، وعينين رماديتين. له ملمح قسوة في فمه دقيق الشفتين. ومن تحت باروكة شعره المائلة يطل بعض الشعر الأشقر، ويبدو متضايقاً في ملابسه الضيقة على مقاسه. أعجبت إوخينيا بطريقته في الكلام دون مداورة، وبنظرته إليها كما لو أنه يعريها، مما سبب لها تنميل حكاك كالذي كان يستثير حفيظة الراهبات في الدير الكئيب بمدريد. فكرت في أنه من المؤسف أن تكون إقامة فالموران في سان دومانغ، ولكن ذلك لن يستمر إلا لوقت قصير، إذا كان أخوها لا يخدعها. دعا سانتشو المتقدم لطلب يد أخته لتناول سامبومبيا[1] عسل القصب في عريشة الحديقة، وخلال أقل من نصف ساعة كانت الموافقة الضمنية على الصفقة قد تمت. لم تعلم إوخينيا بالتفاصيل التالية التي جرى التوصل إليها بين الرجلين وراء باب موصد، وتولت هي مسألة

---

[1] سامبومبيا sambumbia : شراب يُحضّر من الماء وعسل القصب والفلفل.

إعداد جهاز عرسها وحسب. وقد أوصت عليه من فرنسا عملاً بنصيحة زوجة القنصل، وتولى أخوها التمويل بقرض ربوي حصل عليه بفضل بلاغته كثرثار. وفي صلواتها الصباحية، كانت إوخينيا تشكر الرب بحماسة على حظها الفريد بالزواج زواجْ مصلحة من شخص يمكن لها أن تتوصل إلى أن تحبه.

بقي فالموران في كوبا حوالي شهرين يغازل إوخينيا بأساليب مرتجلة، لأنه كان قد فقد عادة التعامل مع نساء مثلها؛ والأساليب المستخدمة مع فيوليت بواسيير لا تنفع في هذه الحالة. كان يتردد على بيت خطيبته يومياً من الساعةِ الرابعة حتى السادسة لتناول شراب مرطب ولعب الورق، ودائماً بحضور الوصيفة التي ترتدي السواد وتغزل بإحدى عينيها بينما هي تراقبهما بالعين الأخرى. كان بيت سانتشو يفتقد أشياء كثيرة، وإوخينيا التي لا تتمتع بميول منزلية، لم تفعل شيئاً لترتيب الأمور قليلاً. وكي تتجنب أن تلوث وساخة الأثاث ملابسَ الخطيب، كانت تستقبله في الحديقة، حيث تطفح الخضرة المدارية النهمة كتهديد نباتي. وكانا يخرجان أحياناً للنزهة بمرافقة سانتشو، أو يرى أحدهما الآخر من بعيد في الكنيسة، حيث لا يمكنهما تبادل الكلام.

كان فالموران قد لاحظ الظروف غير المضمونة التي يعيشها الأخوان غارثيا دل سولار، واستنتج أنه إذا كانت خطيبته مرتاحة هناك، فإنها ستكونٍ أكثر راحة في مزرعة سان لازار. كان يرسل إليها هدايا رقيقة، وأزهاراً ورسائل رسمية تحتفظ بها في علبة مبطنة بالمخمل، ولكنها لا تقرؤها. لم تكن لفالموران حتى ذلك الحين إلا علاقات قليلة جداً مع الإسبان، لأن صدقاته كانت فرنسية، ولكنه سرعان ما صار يشعر أنه على ما يرام معهم. لم يجد مشكلة في التواصل، لأن اللغة الثانية للطبقة الراقية والناس المثقفين في كوبا هي الفرنسية. وقد ظن أن صمت خطيبته هو نوع من العفة، وهذه في نظره فضيلة نسائية تستحق التقدير، ولم يخطر له أنها تكاد لا تفهم ما يقوله لها. فإوخينيا لا تتمتع بسمع

مرهف، وتبين أن جهود المعلم لم تكن كافية لتلقينها دقة اللغة الفرنسية. وبدا له تحفظ إوخينيا وأساليبها كراهبة مستجدة ضمانة بألا تنساق في مسلك التهتك كحال الكثير من نساء سان دومانغ، ممن ينسين الحياء بحجة المناخ. وعندما فهم الطبع الإسباني، المبالغ في حس الشرف والبعيد عن السخرية، أحس بالراحة مع الفتاة وتقبل بانشراح فكرة أنه سيضجر معها بوعي. لم يكن ذلك يهمه. فهو يرغب في زوجة شريفة وأم مثالية لذريته؛ أما لتزجية الوقت فلديه كتبه وصفقاته وأعماله.

كان سانتشو نقيض أخته وإسبان آخرين تعرف إليهم فالموران: فهو وقح، أرعن، محصن ضد الميلودرامية وضد مفاجآت الغيرة، غير مؤمن، وبارع في تصيّد الفرص بسرعة وهي في الهواء. ومع أن بعض مظاهر شخصية صهره المستقبلي تصدمه، إلا أن فالموران كان يستمتع معه ويفسح له المجال ليخدعه، مستعداً لأن يخسر مبلغاً من المال مقابل متعة التحدث الفكِه معه والضحك لبعض الوقت. وكخطوة أولى جعل منه شريكاً له في عملية تهريب أنبذة فرنسية ينوي القيام بها من سان دومانغ إلى كوبا حيث يلقى ذلك النبيذ التقدير والرواج. وكانت تلك بداية تواطؤ طويل ومتين سيجمع بينهما حتى الموت.

بيت السيد المالك

في أواخر شهر تشرين الثاني رجع تولوز فالموران إلى سان دومانغ ليهيئ لمجيء زوجته المقبلة. كان هناك في مزرعة سان لازار، ككل مزارع القصب الأخرى، ما يسمى «البيت الكبير»، وهو في هذه الحالة أقرب إلى براكة مستطيلة من الخشب والآجر، تستند إلى أعمدة ترتفع ثلاثة أمتار عن سطح الأرض لدرء خطر الفيضانات في موسم الأعاصير، والتمكن من الدفاع عن النفس عند وقوع تمرد عبيد. وتتألف من سلسلة حجرات نوم مظلمة ـ أخشاب بعضها متعفنة ـ وصالة وغرفة طعام واسعتين، ومزودتين بنوافذ متقابلة ليتحرك فيهما الهواء، ونظام تهوية بمراوح من قماش سميك معلقة في السقف ويحركها العبيد بشدها بحبل. ومع حركة تلك المراوح تنتشر سحابة خفيفة من الغبار وأجنحة البعوض المتيبسة وتسقط على الملابس كأنها قشرة الشعر. ولم يكن للنوافذ زجاج وإنما ورق مشمع، وكان الأثاث خشناً، مثلما يمكن أن يكون عليه في منزل مؤقت لرجل وحيد. وتعشش في السقوف خفافيش، ويُعثر في الأركان عادة على دويبات صغيرة، وتُسمع في الليل حركة فئران في الغرف. وهناك رواق أو شرفة مسقوفة، فيها أثاث خيزراني تالف، تحيط بالبيت من ثلاث جهات. وحول البيت يوجد بستان خضروات مهمل، وأشجار مثمرة منخورة، وعدة أفنية ينقر فيها دجاج مشوش من الحر، وإسطبل خيول أصيلة، وحظائر كلاب وعربة، ويلي ذلك أقيانوس من حقول القصب، وكستارة خلفية تنتصب جبال بنفسجية اللون تعانق السماء المتقلبة. ربما كانت هناك حديقة من قبل، ولكن لم يبق منها ولو ذكرى. أما معاصر القصب، وأكواخ وبراكات العبيد فلا تُرى من البيت. جال تولوز فالموران البيت كله بعين ناقدة، ملاحظاً أول مرة عدم استقراره

وفظاظته. إنه قصر إذا قورن بمسكن سانتشو، ولكنه أمام بيوت **بيض كبار** آخرين في الجزيرة **وقصر** أسرته الصغير في فرنسا الذي لم يطأه منذ ثمانية أعوام، يكشف عن قبح مخجل. قرر أن يبدأ حياته الزوجية بخطوة طيبة ومفاجأة زوجته ببيت يليق بلقبي فالموران وغارثيا دل سولار. لا بد من إجراء بعض الإصلاحات.

تلقت فيوليت بواسيير خبر زواج زبونها بطيب مزاج فلسفي. فلولا التي تتحرى عن كل شي، قالت لها معلقة على أن لفالموران خطيبة في كوبا «سيشتاق إليكِ يا ملاكي، وأؤكد لك أنه سيرجع». وهذا ما حدث. فبعد وقت قصير، طرق فالموران باب الشقة، ولكن ليس طلباً للخدمات المعهودة وإنما لتساعده عشيقته القديمة في استقبال امرأته بصورة لائقة. لم يكن يدري من أين يبدأ ولم يخطر بباله شخص آخر يمكنه طلب هذا الجميل منه.

ـ هل صحيح إن الإسبانيات ينمن بقميص نوم راهبات له ثقب من أمام من أجل ممارسة الحب؟ ـ سألته فيوليت.

ـ كيف سأعرف ذلك؟ فأنا لم أتزوج بعد، ولكن إذا كان الأمر كذلك فسوف أجتثه عنها اجتثاثاً ـ قال العريس ضاحكاً.

ـ لا يا رجل. أحضر القميص لي، وسأعمل مع لولا على فتح ثقب آخر فيه من الخلف.

أبدت المومس الشابة استعدادها لمساعدته مقابل عمولة معقولة قيمتها خمس عشرة بالمئة من تكاليف تأثيث البيت. وللمرة الأولى في علاقتها مع رجل، لم تتضمن تلك العلاقة بهلوانيات في الفراش، وبادرت إلى المهمة بحماسة. سافرت مع لولا إلى سان لازار لتكوّن فكرة عن المهمة التي كلفها بها، وما كادت تجتاز عتبة البيت حتى سقطت من بين زخارف السقف سحلية على فتحة صدرها. اجتذبت صرخاتها عددا من العبيد في الفناء، فجندتهم لإجراء عملية تنظيف معمقة. وخلال أسبوع قامت هذه الغانية الجميلة التي زارها فالموران على ضوء المصابيح الذهبية، مزينة بالحرير والدانتيلا، ممكيجة ومعطرة،

بتوجيه فريق من العبيد وهي حافية، برداء من قماش خشن وخرقة تلف بها رأسها. كانت تبدو كما لو أنها في جوها، وكأنها قد مارست ذلك العمل الفظ طوال حياتها. فتحت إشرافها قاموا بكشط ألواح الخشب السليمة واستبدال المتعفنة، وغيّروا ورق النوافذ والكلل، وقاموا بالتهوية، ونثروا سموماً للفئران، وأحرقوا تبغاً لإبعاد الحشرات، وأرسلوا الأثاث المكسر إلى زقاق العبيد، وأخيراً صار البيت نظيفاً وعارياً. أمرت فيوليت أن يُطلى بالأبيض من الخارج، وحين زاد بعض الكلس استخدمته في طلاء أكواخ العبيد المنزليين القريبة من البيت الكبير، ثم أمرت بزرع أزهار ثالوث بنفسجية أسفل الرواق. قرر فالموران الحفاظ على البيت نظيفاً وخصص عددا من العبيد لإعداد حديقة مستوحاة من فرساي، على الرغم من أن المناخ القاسي لا يساعد فنون الحدائق الهندسية كما في البلاط الفرنسي.

رجعت فيوليت إلى لوكاب ومعها قائمة مشتريات، «لا تنفقي كثيرا، فهذا بيت مؤقت. فور عثوري على وكيل عام جيد، سنغادر إلى فرنسا»، قال لها فالموران وهو يسلمها مبلغاً بدا له مناسباً. لم تُعر فيوليت اهتماماً لتنبيهه، لأنه ليس هناك ما يروقها أكثر من الشراء.

عبر ميناء لوكاب كان يخرج كنز المستعمرة الذي لا ينفد وتدخل السلع الشرعية والمهربة. فجموع من مختلف الأشكال والألوان تتزاحم في الشوارع الموحلة، تساوم بلغات كثيرة بين العربات والبغال والخيول وأسراب الكلاب الشاردة إلي تتغذى على القمامة. هناك تباع سلع فاخرة من باريس ومواد تافهة من الشرق، وحتى غنائم القراصنة، وفي كل يوم، باستثناء أيام الآحاد، تجري المزايدة على عبيد لتغطية الطلب: حوالي عشرين إلى ثلاثين ألفا في السنة لمجرد الحفاظ على عدد ثابت من العبيد، لأنهم لا يستمرون في العيش إلا قليلاً. أنفقت فيوليت ما في كيس النقود وواصلت الشراء ديناً بضمانة اسم فالموران. وعلى الرغم من حداثة سنها، كانت تختار بثقة كبيرة بالنفس لأن الحياة الدنيوية أكسبتها الخبرة وهذبت ذوقها. فقد أوصت قبطان سفينة يقوم

برحلات بين الجزر أن يجيئها بأدوات مائدة فضية، وأوني كريستال، وطقم سفرة من الخزف للضيوف. ولم تشغل نفسها بأمر الملاءات والشراشف لأن العروس هي من تقدمها، لا بد أن تكون قد طرزتها منذ الطفولة. وحصلت على أثاثٍ من فرنسا للصالون، ومنضدة أمريكية ثقيلة مع ثمانية عشر كرسياً مصنوعة بمتانة لتعيش عدة أجيال، ولوحات هولندية مطرزة، وحواجز بارابانات مشغولة باللّك، وصناديق إسبانية للملابس، ومجموعة مبالغ بها من الشمعدانات المعدنية ومصابيح الزيتِ، لأنها تصر على أنه لا يمكن العيش في الظلام. واشترت خزفاً برتغالياً للاستخدام اليومي، وتشكيلة من التحف وقطع الزينة، ولكنها لم تشترِ أية سجاجيد، لأنها تتعفن في الرطوبة. وتولت وكالاتٌ تجارية شحنَ المشتريات وتقديم الحسابات إلى فالموران. وسرعان ما بدأت تصل إلى مزرعة سان لازار عربات محملة إلى أعلاها بصناديق وسلال؛ فكان الزنوج يُخرجون من بين القشِ سلسلة لامتناهية من الأشياء: ساعات ألمانية، أقفاص عصافير، علبا صينية، نسخاً مقلدة لتماثيل رومانية مبتورة الأذرع، مرايا فينيسية، أعمال حفر ورسمٍ مختلفة الأساليب ومنتقاة لموضوعاتها، لأن فيوليت لا تعرف شيئاً عن الفن، وآلات موسيقية لا يعرف أحد العزف عليها، وحتى مجموعة لا تفسير لها من الزجاج السميك والأنابيب واللوالب البرونزية الصغيرة، وعندما قام فالموران بتركيب أجزائها تبين أنها منظار لمراقبة العبيد من الشرفة. رأى تولوز أن الأثاث فخم وأن الزينات غير مفيدة على الإطلاق، ولكنه استسلم للأمر لأنه لا يستطيع إعادتها. ومع انتهاء حفلة الشراء المجنونة، تقاضت فيوليت عمولتها وأعلنت أن زوجة فالموران المقبلة ستحتاج إلى خدمة منزلية، وطاهية جيدة، وخدم للبيت ووصيفة. وهذا أقل ما هو مطلوب مثلما أكدت لها مدام ديلفين باسكال التي تعرف جميع أناس المجتمع الراقي في لوكاب.

ـ باستثنائي أنا ـ أشار فالموران.

ـ أتريدها أن تساعدك أم لا؟

ـ لا بأس، سآمر بروسبير كامبري أن يدرب بعض العبيد.

ـ لا يا رجل! لا يمكنك التوفير في هذه المسألة! فعبيد الحقول لا ينفعون، إنهم أجلاف. سأتولى أنا بنفسي البحث لك عن خدم منزليين

ـ صممت فيوليت.

كانت زاريتيه على وشك إكمال السنة التاسعة من عمرها عندما اشترتها فيوليت من مدام ديلفين، وهذه فرنسية لها تجعدات شعر قطنية وصدر ديك رومي، بلغت سن النضوج، ولكنها مازالت تحتفظ بمظهر جيد، إذا أخذنا بالاعتبار الأضرار التي يسببها المناخ. كانت ديلفين باسكال أرملة موظف مدني فرنسي متواضع، ولكنها تعطي الانطباع بأنها شخصية أرفع مكانة بفضل علاقاتها مع *البيض الكبار*، وإن كان هؤلاء لا يأتون إليها إلا من أجل صفقات تجارية غامضة. وكانت مطلعة على أسرار كثيرة، مما يمنحها مزية عندما تحتاج إلى خدمات. وهي تعيش في الظاهر على معاش زوجها المتوفى وإعطاء دروس على الكلافيكورديو للآنسات، ولكنها تقوم في السر ببيع أشياء مسروقة، وتؤدي دور القوادة، وتمارس عمليات إجهاض في حالات طارئة. وكغطاء لأعمالها تلك، تقوم أيضاً بتعليم الفرنسية لبعض المومسات اللاتي يطمحن إلى المرور كبيضاوات وتخونهنّ نبرة النطق، وإن كان لهنّ اللون المناسب. هكذا تعرّفت على فيوليت بواسيير، إحدى أشد تلميذاتها بياضاً، ولكن دون أي طموحات للتفرنس؛ بل على العكس، فالفتاة تشير دون أي عُقَدٍ إلى جدتها السنغالية. وكانت مهتمة بتكلم فرنسية سليمة لتفرض احترامها على **أصدقائها** البيض. لم يكن لدى مدام ديلفين سوى عبدين اثنين: هونوري، وهو رجل عجوز يقوم بكل الخدمات، بما في ذلك المطبخ، وقد اقتنته بسعر بخس لتشوه في عظامه، وزاريتيه ـ تيتي ـ التي وصلت إلى يديها حين كان عمرها بضعة أسابيع ولم تكلفها أي ثمن. وعندما اشترتها فيوليت من أجل إوخينيا غارثيا دل سولار، كانت الصغيرة نحيلة، مجرد خطوط عمودية

وزوايا، مع شعر كثيف ومتماسك، ولكنها تتحرك بطرافة، ولها وجه نبيل وعينان بلون العسل السائل. وقد قدّرت فيوليت أنه يمكن للصغيرة أن تكون متحدرة من سنغالية مثلها. تعلمت تيتي باكراً منافع الصمت وتنفيذ الأوامر بملامح غير معبرة، دون أن تبدي ما يوحي بأنها تفهم ما يدور حولها، ولكن فيوليت كانت ترتاب دوماً في أنها أكثر تيقظاً مما تُوحي به للوهلة الأولى. ولم يكن من عادتها التدقيق في العبيد ـ فهي تعتبرهم بضاعة، باستثناء لولا ـ ولكن تلك الصغيرة كانت تثير فيها تعاطفاً. فهما متشابهتان في بعض المظاهر، وإن كانت هي حرة، وجميلة، وتمتعت بمزية تلقي التدليل من أمها، وأن تكون مرغوبة من جميع الرجال الذين يصادفونها. لم يكن لدى تيتي شيء من ذلك؛ بل مجرد عبدة مهلهة، ولكن فيوليت حدست فيها قوة الشخصية. فهي نفسها كانت مجرد حزمة عظام وهي في مثل عمر تيتي، وظلت على تلك الحال إلى أن صارت لدنة عند البلوغ، وتحولت الزوايا إلى انحناءات، وحُسمت التكورات التي منحتها الشهرة. عندئذ بدأت أمها تدريبها على المهنة التي جنت منها المنافع، كيلا تقصم ظهرها في العمل كخادمة. وقد تكشفت فيوليت عن تلميذة نجيبة، وفي الفترة التي قتلت فيها أمها كانت قد صارت قادرة على الاعتماد على نفسها بمساعدة لولا التي تحميها بوفاء متحمس. وبفضل هذه المرأة الطيبة لم تحتج إلى حماية قواد وازدهرت في مهنة جاحدة تفقد فيها فتيات أخريات الصحة، وحتى الحياة أحياناً. وما إن برزت فكرة الحصول على عبدة شخصية لخدمة زوجة تولوز فالموران، حتى تذكرت تيتي. «لماذا تهتمين كثيراً بهذه الطفلة؟»، سألتها لولا دائمة الريبة عندما علمت بنواياها. «إنها ضربة قلب، أظن أن دروبنا ستتقاطع ذات يوم»، كان هذا هو التفسير الوحيد الذي خطر لفيوليت. وقد تقصت لولا ذلك بقواقع التنجيم دون أن تحصل على جواب مرضٍ؛ فهذا الأسلوب في قراءة الطالع لا ينفع في توضيح قضايا رئيسية، وإنما الأمور التافهة وحسب.

استقبلت مدام ديلفين فيوليت في صالة ضيقة جداً، حتى إن الكلافيكورديو يبدو فيها بحجم خرتيت. جلستا على كرسيين هشين قوائمهما مائلة لتتناولا قهوة في فناجين أقزام مزينة برسوم أزهار، والتحدث في كل شيء ولا شيء، مثلما تفعلان في زيارات أخرى. وبعد بعض المداورة طرحت فيوليت سبب زيارتها. فوجئت الأرملة بوجود من يهتم بتيتي التافهة، ولكنها كانت سريعة الملاحظة، وشمت على الفور إمكانية جني أرباح.

ـ لم أكن أفكرٍ في بيع تيتي، ولكن بما أنكِ من تطلبين ذلك، وأنت صديقة عزيزة جدا...

ـ آمل أن تكون الصبية معافاة. فهي نحيلة جداً ـ قاطعتها فيوليت.

ـ ليس ذلك لِنقص في الطعام! ـ هتفت الأرملة مغضبة.

سكبت مزيداً من القهوة، وسرعان ما تحدثتا في السعر الذي بدا لفيوليت مبالغاً فيه. مع أنها كلما دفعت أكثر تكون عمولتها أكبر، ولكنها لا تستطيع الاحتيال على فالموران بمثل تلك الوقاحة؛ فالجميع يعرفون أسعار العبيد، لاسيما عبيد المزارع الذين يشترونهم دوما. وطفلة هزيلة ليست بالسلعة الثمينة، بل هي شيء يقدم كهدية رداً على خدمة ما.

ـ يحزنني ابتعاد تيتي عني ـ تنهدت مدام ديلفين وهي تمسح دمعة غير مرئية بعد أن اتفقتا على السعر ـ. إنها بنت طيبة، لا تسرق وتتكلم الفرنسية بصورة لائقة. فأنا لا أسمح لها أبداً أن تكلمني برطانة الزنوج. ولا يمكن لأحد في بيتي أن يكسر لغة موليير الجميلة.

ـ لا أدري ماذا سيفيدها ذلك ـ علقت فيوليت ضاحكة.

ـ كيف تقولين هذا! فوصيفة تتكلم الفرنسية هي وصيفة متأنقة. وتيتي تخدم على أحسن وجه، أؤكد لك. ولكنني أعترف لكِ يا مدموزيل بأنني ضربتها مرات لأخلصها من عادة الهروب الخبيثة.

ـ إنه أمر خطير! يقولون إنه لا علاج له...

ـ هذا ينطبق على بعض الزنوج حديثي الوصول من أفريقيا وكانوا

أحراراً من قبل، أما تيتي فولدت عبدة. حرية! يا للغطرسة! ـ هتفت الأرملة وهي تصوب عيني الدجاجة اللتين لها إلى الصغيرة التي تقف منتظرة عند الباب ـ. ولكن لا تقلقي يا مدموزيل، لن تعود إلى محاولة ذلك. ففي المرة الأخيرة ظلت تائهة عدة أيام وعندما أحضروها إليّ كانت مصابة بعضة كلب ومتأججة بالحمى. لا يمكنك أن تتصوري الجهد الذي تكلفته لعلاجها، ولكنها لم تفلت من العقاب!

ـ ومتى حدث ذلك؟ ـ سألت فيوليت وهي تسجل ملاحظة عن صمت العبدة المعادي.

ـ منذ سنة. ولا يمكن أن تخطر لها الآن مثل تلك الحماقة، ولكن عليك مراقبتها على كل حال. ففي عروقها دم ملعون من أمها. لا تكوني لينة معها، إنها بحاجة إلى يد صلبة.

ـ ما الذي قلتيه عن أمها؟

ـ لقد كانت ملكة. جميعهن يقلن إنها كانت ملكة في أفريقيا ـ قالت الأرملة ساخرة ـ وقد وصلت وهي حبلى؛ هكذا هي أمورهن دوماً، فهن مثل كلبات في نزوة تزاوج دائمة.

ـ موسم التزاوج. البحارة يغتصبونهن في السفن كما تعرفين. لا تنجو واحدة منهن ـ ردّت فيوليت بقشعريرة وهي تفكر في جدتها التي ظلت على قيد الحياة في رحلة اجتياز المحيط.

ـ وكانت تلك المرأة على وشك أن تقتل ابنتها. تصوري! اضطروا إلى انتزاعها من بين يديها. وزوجي المسيو باسكال، ليحفظه الرب في ملكوت مجده، أحضر لي الصغيرة كهدية.

ـ كم كان عمرها آنذاك؟

ـ حوالي شهرين، لا أذكر جيداً. وعبدي الآخر هونوري هو الذي أطلق عليها هذا الاسم الغريب زاريتيه، ورباها على حليب أتان؛ لهذا هي قوية وشغيلة، وإن تكن عنيدة كذلك. لقد علمتها كل الأعمال المنزلية. إنها تساوي أكثر مما أطلبه منك يا مدموزيل بواسيير. إنني أبيعها فقط لأني أفكر في العودة قريباً إلى مرسيليا، ما زال بإمكاني استعادة

ترتيب حياتي، ألا ترين ذلك؟

ـ بالتأكيد يا مدام ـ أجابت فيوليت وهي تتفحص وجه المرأة المغطى بالمساحيق.

اقتادت تيتي في ذلك اليوم بالذات، دون أي أمتعة سوى الأسمال التي تلبسها ودمية فجة من الخشب يستخدمها الزنوج في طقوس **فودو** التي يمارسونها. «لا أدري من أين جاءت بهذه القذارة»، علقت مدام ديلفين وقامت بحركة لانتزاعها منها، ولكن الطفلة تشبثت بكنزها الوحيد بيأس شديد اضطرت معه فيوليت إلى التدخل. ودّع هونوري تيتي باكياً ووعدها بأن يذهب لزيارتها كلما سمحوا له بذلك.

لم يستطع تولوز فالموران تفادي صرخة استياء عندما أرته فيوليت من اختارتها خادمة لزوجته. كان ينتظر أن تكون أكبر سناً، وأفضل مظهراً وخبرة، وليس تلك الطفلة مشعثة الشعر والموسومة بكدمات من الضرب، والتي انكمشت على نفسها مثل حلزون عندما سألها عن اسمها، ولكن فيوليت أكدت له أن زوجته ستكون راضية جداً بعد أن تهيئها لها كما يجب.

ـ وكم سيكلفني ذلك؟

ـ ما سنتفق عليه بعد أن تصير تيتي جاهزة.

بعد ثلاثة أيام من ذلك خرج صوت تيتي أول مرة لتسأل إن كان ذلك السيد هو من سيكون مالكها. كانت تظن أن فيوليت اشترتها لتحتفظ بها لنفسها. «لا توجهي أسئلة ولا تفكري في المستقبل. فالعبيد لا يحسبون حساباً إلا ليومهم»، حذرتها لولا. التقدير الذي شعرت به تيتي تجاه فيوليت أطاح بمقاومتها، وسرعان ما استسلمت بحماسة لإيقاع البيت. صارت تأكل بنهم من عاش في الجوع، وخلال أسابيع قليلة ظهر شيء من اللحم على هيكلها العظمي. كانت متعطشة للتعلم. تلحق فيوليت مثل كلب، تلتهمها بعينيها، بينما هي تغذي في أعمق أسرار قلبها الرغبة المستحيلة في أن تصير مثلها، جميلة وأنيقة، ولكن حرة قبل ذلك كله. علمتها فيوليت تصفيف الشعر حسب

التسريحات المعقدة الرائجة، والتدليك، ونشاء الملابس الفاخرة وكيها وغير ذلك مما يمكن لسيدتها المقبلة أن تطلبه منها. ولم تكن هناك حاجة لكل ذلك الانهماك، على حدّ قول لولا، لأن الإسبانيات لا يتمتعن برهافة الفرنسيات، وهنّ شديدات الفظاظة. وقامت هي نفسها بقص شعر تيتي الدنس وأجبرتها على الاستحمام بكثرة، وهي عادة لم تكن البنت تعرفها، لأن الماء حسب قول مدام ديلفين يُضعف البدن؛ وتكتفي بالمرور بخرقة مبللة على الأجزاء المخبأة من جسمها وتتضمخ بالعطر. شعرت لولا بأن الصغيرة قد غزتها، فالحجرة الضيقة التي تتقاسمانها في الليل تكاد لا تتسع لهما معاً. فكانت تُثقل عليها بالأوامر والشتائم، وتفعل ذلك بدافع العادة وليس خبثاً، وتوجه إليها ضربات على رأسها عندما تكون فيوليت غائبة، ولكنها لا تبخل عليها بالطعام قائلة لها: «كلما سمنت أسرع تغادرين أسرع». ولكنها كانت تبدي بالمقابل لطفاً كبيراً في معاملة هونوري العجوز عندما يأتي بخجل في زيارة. تُجلسه في الصالون على أفضل مقعد، وتقدم له روم من نوعية جيدة وتستمع إليه بافتتان وهو يتكلم عن الطبول والفنانين. «هونوري هذا سيد حقيقي. كم أتمنى أن يكون أحد **أصدقائك** مهذباً مثله»، كانت تقول لفيوليت في ما بعد.

زاريتيه

خلال بعض الوقت، أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، لم أفكر في الهرب. كانت مدموزيل مسلية وجميلة، لديها ملابس كثيرة الألوان، وتعبق برائحة زهور، تخرج في الليل مع **أصدقائها** وتأتي بهم بعد ذلك إلى البيت ليفعلوا أفعالهم، بينما أنا أغطي أذني في حجرة لولا، ولكنني كنت أسمعهم مع ذلك. وحين تستيقظ مدموزيل، عند الظهر تقريباً، أحمل إليها وجبتها إلى الشرفة، مثلما علمتني، وعندئذ تحدثني عن حفلاتها وتريني هدايا المعجبين بها. أصقل لها أظفارها بقطعة صغيرة من جلد الغزال فتصير لامعة كأنها الصَّدَف، وأسرح شعرها المموج وأدلكها بزيت جوز الهند. إن لها بشرة أشبه **بالكريم كراميل**، حلوى الحليب وصفار البيض الذي كان هونوري يحضّره لي أحياناً من وراء ظهرِ مدام ديلفين. تعلمتُ بسرعة. تقول مدموزيل إنني ذكية ولا تضربني أبداً. ربما ما كنت لأهرب لو أنها هي من ستكون سيدتي، ولكنها تعلمني كي أخدم إسبانية في إحدى مزارع لوكاب. وكونها إسبانية ليس بالشيء الجيد بأي حال، حسب ما تقول لولا التي تعرف كل شيء وهي متنبئة، لقد رأت في عيني أنني سأهرب قبل أن أقرر أنا نفسي ذلك، وأخبرت مدموزيل، ولكنها لم تهتم بها. «لقد خسرنا نقوداً كثيرة! ماذا سنفعل الآن؟»، صرخت لولا عند اختفائي. «سننتظر»، ردّت عليها مدموزيل وواصلت شرب قهوتها بهدوء شديد. وبدلاً من التعاقد مع صياد زنوج، مثلما يفعلون دوماً، طلبت من خطيبها، الكابتن روليه، أن يرسل جنوده للبحث عني دون ضجة، وألا يلحقوا بي أي أذى. هذا ما أخبروني به. لقد كان سهلاً عليّ مغادرة البيت. لففت ثمرة مانجا ورغيف خبز بمنديل، وخرجت من الباب الرئيسي ومضيت دون ركض، كيلا ألفت الانتباه. وحملت معي أيضاً دميتي، وهي مقدسة، مثل قديسي مدام ديلفين،

ولكنها أقوى سلطة، كما قال لي هونوري عندما نحتها لي. لقد كان هونوري يحدثني طوال الوقت عن غينيا، وعن **اللوات**، وعن فودو، وحذرني من أتباع آلهة البيض، لأنهم أعداؤنا. وأوضح لي أن فودو في لغة آبائه تعني روحاً إلهية. دميتي تمثل إرزولي، **لوا** الحب والأمومة. كانت مدام ديلفين تجبرني على الصلاة للعذراء مريم، وهذه ربة لا ترقص، إنها تبكي وحسب، لأنهم قتلوا ابنها ولأنها لم تعرف قطّ متعة النوم مع رجل. هونوري اعتنى بي في سنواتي الأولى، إلى أن صارت عظامه عقداً مثل أغصان يابسة وعندئذ صار عليّ أن أعتني به. ما الذي حلّ بهونوري يا ترى؟ لا بد أنه مع أسلافه في الجزيرة تحت البحر، لأن ثلاثين سنة مضت منذ المرة الأخيرة التي رأيته فيها جالساً في صالون شقة مدموزيل في ساحة كلوني، يشرب قهوة مع الروم ويتذوق حلويات لولا. آمل أن يكون قد تجاوز الثورة حياً، مع كل ما رافقها من فظاعات، وأن يكون قد توصل إلى بلوغ الحرية في جمهورية هايتي السوداء قبل موته بطمأنينة في الشيخوخة. كان يحلم بامتلاك قطعة أرض، وتربية بهيمتين وزراعة خضرواته، مثلما كان يفعل أبواه في داهومي. كنت أدعوه جدي، لأنه كان يقول لي إنه لا حاجة لأن يكون أحدنا من الدم نفسه ولا من القبيلة نفسها ليكون من الأسرة نفسها، غير أنه كان عليّ في الحقيقة أن أدعوه **ماما**. فقد كان الأم الوحيدة التي عرفتها.

لم يوقفني أحد في الشوارع عندما غادرت شقة مدموزيل، سرت عدة ساعات وأظن أنني اجتزت المدينة كلها. ضعت في حيّ الميناء، ولكن الجبال كانت تبرز في البعيد وكانت المسألة كلها تتمثل في السير بذلك الاتجاه، ولكننا لم نكن نعلم أنه وراء القمم الأولى هناك قمم كثيرة أخرى، كثيرة بحيث لا يمكن عدّها. خيم الليل، فأكلت الخبز واحتفظت بثمرة المانجا. اختبأت في إسطبل، تحت كومة من القش، مع أنني كنت خائفة من الخيول، من قوائمها التي كالمطارق ومن أنوفها التي يخرج منها البخار. كانت الحيوانات قريبة جداً مني، يمكنني سماع أنفاسها من خلال القش، أنفاس خضراء وحلوة مثل أعشاب حمّام مدموزيل. ومتشبثة بدميتي إرزولي، أم غينيا، نمت طيلة الليل دون

أحلام خبيثة، يدثرني دفء الخيول. وعند الفجر دخل عبدٌ إلى الإسطبل ووجدني أشخر وإحدى قدميّ تطل من بين القش. أمسكني من كاحلي وسحبني بقوة. لا أدري ما الذي كان ينتظر العثور عليه، ولكنه لم يكن ينتظر العثور على طفلة بكل تأكيد، لأنه بدل أن يضربني حملني وأخذني إلى حيث الضوء وتأملني مفتوح الفم. «أنتِ مجنونة؟ كيف خطر لكِ الاختباء هنا؟»، سألني أخيراً دون أن يرفع صوته. «عليّ أن أصل إلى الجبال»، أوضحتُ له، بصوت هامس أيضاً. ولكن عقوبة من يساعد عبداً هارباً معروفة أيضاً، وقد تردد الرجل. «أفلتني، أرجوك، ولن يعرف أحد أنني كنت هنا»، توسلتُ إليه. فكر لحظة ثم أمرني أخيراً أن أظل هادئةً في الإسطبل، تأكد من أنه لا وجود لأحد في محيط المكان وخرج خارجاً. رجع سريعاً ومعه كعكة قاسية وقرعة صغيرة مملوءة بقهوة شديدة الحلاوة، انتظر إلى أن أكلت ثم أشار لي إلى طريق الخروج من المدينة. لو أنه وشى بي لقدموا له مكافأة، ولكنه لم يفعل. آمل أن يكون بابا بونديي قد كافأه. انطلقت أركض وخلفت ورائي آخر بيوت لوكاب. سرت في ذلك اليوم دون توقف، مع أن قدميّ كانتا تنزفان وكنت أتعرق وأنا أفكر في كلاب صيادي الزنوج ورجال الدرك. كانت الشمس قد صارت في كبد السماء عندما دخلت في الغابة. أخضر، كل شيء أخضر، السماء لا تُرى والضوء يكاد لا يخترق الأوراق. سمعتُ صخب حيوانات وهمهمة أرواح. وراح الدرب يُمحى. أكلت المانجا، ولكنني تقيأتها على الفور تقريبا. لم يضيع جنود الكابتن روليه وقتهم في البحث عني، لأني عدت وحدي بعد أن أمضيت الليل متكورة على نفسي بين جذور شجرة حية، كنت قادرة على سماع قلبها ينبض مثل قلب هونوري. هكذا أتذكره.

أمضيت اليوم وأنا أمشي وأمشي، أسأل وأسأل إلى أن وصلت عائدة إلى ساحة كلوني. دخلت إلى شقة مدموزيل جائعة متعبة جداً إلى حدّ لم أشعر معه بصفعة لولا التي طوحت بي بعيداً. وعندئذ ظهرت مدموزيل، وكانت تتهيأ للخروج، ومازالت بثوبها البيتيّ وشعرها مفلت. أمسكت بي من ذراعي وحملتني مرفوعة إلى حجرتها وبدفعة

قوية أجلستني على سريرها، كانت أقوى بكثير مما تبدو عليه. ظلت واقفة ويداها على خاصرتيها، تنظر إليّ دون أن تقول شيئاً، ثم قدمت إليّ خرقة كي أمسح دم الصفعة. «لماذا رجعتِ؟»، سألتني. لم يكن لدي جواب. قدمت لي كأس ماء وعندئذ سالت دموعي مثل مطر دافئ، مختلطة بالدم النازف من أنفي. «اشكريني لأني لم أجلدك مثلما تستحقين أيتها المخاطيةٍ البلهاء. إلى أين أردتِ الذهاب؟ إلى الجبال؟ لن تستطيعي الوصول أبداً. بعض الرجال هم من يتمكنون من ذلك فقط، أشدهم يأساً وشجاعة. وإذا استطعت الهرب بمعجزة من المدينة، وتمكنتِ من اجتياز الغابات والمستنقعات دون أن تطئي المزارع، حيث يمكن للكلاب أن تلتهمك، وتمكنت من تفادي رجال المليليشيا، والشياطين والأفاعي السامة ووصلت إلى الجبال، فسوق يقتلك العبيد الآبقون. لماذا يريدون طفلة مثلك؟ هل أنت قادرة على الصيد، أو على حمل منجل ماتشيتي؟ بل هل تعرفين تقديم المتعة إلى رجل؟» وكان عليّ أن أوافق أنني غير قادرة على ذلك. قالت لي إنه عليّ الإفادة من حسن حظي، وإنني لستُ خبيثة. توسلت إليها أن تسمح لي بالبقاء معها، ولكنها قالت إنها لا تحتاج إليّ. ونصحتني بأن أتصرف جيداً إذا كنتُ لا أريد أن أنتهي إلى العمل في قطع القصب. وأنها تدربني لأكون عبدةً خاصة لمدام فالموران، وهو عمل خفيف: سأعيش في البيت وآكل جيداً، وسأكون أفضل مما كنت عليه عند مدام ديلفين. وأضافت بألا أهتم بما تقوله لولا، وكون سيدتي إسبانية لا يعني مرضاً، وإنما يعني أنها تتكلم بلغة مختلفة عنا. وقالت إنها تعرف سيدي الجديد، وهو رجل محترم، وأي عبدة ستكون سعيدة بأن يكون هو مالكها. «أريد أن أكون حرة، مثلك»، قلت لها وسط بكائي. عندئذ حدثتني عن جدتها التي جرى اصطيادها في السنغال، حيث يولد أجمل الناس في العالم. واشتراها تاجر غني، فرنسي له زوجة في فرنسا، ولكنه أحبها فور رؤيته لها في سوق العبيد. وقد منحته عدة أبناء وأعتقهم جميعاً؛ وكان يفكر في تعليمهم كي يزدهروا، مثل أناس كثيرين في سان دومانغ، ولكنه مات فجأة وخلفهم

في البؤس، لأن زوجته طالبت بثروته كلها. فأقامت الجدة السنغالية كشكاً لبيع المقالي في الميناء كي تقيم أود الأسرة، لكن ابنتها الصغرى، وكانت في الثانية عشرة، لم تشأ تدمير حياتها في نزع أحشاء السمك وسط أبخرة الزيت الزنخة واختارت أن تعمل في تلبية رغبات السادة. تلك الطفلة التي ورثت جمال أمها النبيل، توصلت إلى أن تكون أكثر مومس مرغوبة في المدينة، وأنجبت بدورها ابنة هي فيوليت بواسيير، وعلمتها ما كانت تعرفه. هكذا روت لي مدموزيل القصة. «ولولا غيرة رجل أبيض قتلها، لكانت أمي لا تزال ملكة الليل في لوكاب. ولكن لا تتعللي بالأوهام يا تيتي، فقصة حب جدتي نادرة الحدوث. العبد يبقى عبداً. وإذا ما هرب وحالفه الحظ، فإنه يموت في هربه. وإذا لم يحالفه الحظ، يمسكون به حياً. انزعي الحرية من قلبك، وهذا أفضل ما يمكنك عمله»، قالت لي. واقتادتني على الفور إلى حيث لولا كي تقدم لي الطعام.

عندما جاء السيد فالموران للبحث عني بعد عدة أسابيع، لم يتعرف إليّ، لأني كنت قد سمنت، وكنت نظيفة، شعري قصير وأرتدي ثوباً جديداً خاطته لي لولا. سألني عن اسمي وأجبته بصوتي الثابت، دون أن أرفع بصري، لأنه لا يمكن النظر إلى وجه أي أبيض مباشرة. «زاريتيه دي سان لازار، يا سيدي»، مثلما علمتني مدموزيل. ابتسم مالكي الجديد وقبل أن نغادر ترك لها جراباً. لا أدري كم دفع لها مقابلي. وفي الشارع كان بالانتظار رجلٌ آخر ومعه حصانان، تفحصني من أعلى إلى أسفل وجعلني أفتح فمي ليرى أسناني. إنه بروسبير كامبري، رئيس رؤساء العمال. أصعدني بشدة واحدة على ردف حصانه، وهو حيوان عالٍ وعريض ودافئ، يلهث بقلق. لم تكن ساقايّ تصلان إلى حدّ يمكّنني من تثبيت نفسي، فكان عليّ أن أتشبث بخاصرة الرجل. لم أكن قد ركبت حصاناً من قبل، ولكنني ابتلعت خوفي: فليس هناك من يهمه ما أشعر به. امتطى السيد فالموران حصانه أيضاً وبدأنا نبتعد. التفتُ لأنظر إلى البيت. كانت مدموزيل على الشرفة، وظلت تلوح لي بيدها إلى أن انعطفنا عند الناصية ولم أعد أراها. هكذا أتذكر.

العقاب العِبرة

عرق وبعوض، نقيق ضفادع وسياط، أيام إنهاك وليالي خوف لقافلة العبيد، ورؤساء العمال، والجنود المأجورين، والسيدين تولوز وإوخينيا فالموران. سيستغرقون أكثر من ثلاثة أيام من المزارع حتى مدينة لوكاب التي لا تزال أهم ميناء في المستعمرة، مع أنها لم تعد العاصمة التي انتقلت إلى بور أوبرانس على أمل تحكم أفضل بأراضي المستعمرة. ولكن فائدة الإجراء كانت قليلة، فالمستوطنون يسخرون من القانون، والقراصنة يجوبون الشاطئ، وآلاف العبيد يهربون إلى الجبال. أولئك العبيد الآبقون الذين تتزايد أعدادهم وجرأتهم، كانوا ينقضون على المزارع والمسافرين بحقد مسوغ. وكان الكابتن إيتيان روليه، «كلب حراسة سان دومانغ»، قد ألقى القبض على خمسة من الزعماء، وهذه مهمة شاقة، لأن العبيد الهاربين يعرفون الأرض، ويتحركون كالهواء، ويختبئون في قمم عصية على الخيول. ولأنه لا أسلحة لديهم سوى السكاكين ومناجل الماتشيتي والعصي، فإنهم لا يتجرؤون على مواجهة الجنود في ميدان مكشوف. إنها حرب مناوشات، هجمات مفاجئة وانسحاب، توغلات ليلية، سرقات، حرائق وقتل، تستنزف قوات الدرك النظامية والجيش. عبيد المزارع يحمونهم، بعضهم لأنهم يأملون بالانضمام إليهم، وآخرون لأنهم يخافونهم. لم يكن روليه يتجاهل مزية الآبقين على جنوده، فهم أناس يائسون يدافعون عن حياتهم وحريتهم، بينما الجنود ينصاعون للأوامر وحسب. لقد كان الكابتن رجلا حديديا، جافا، نحيلاً، محض عضلات وأعصاب، عنيداً وشجاعاً، له عينان باردتان وأخاديد عميقة في وجهه المعرض للشمس والريح دوماً، وهو قليل الكلام، ودقيق، قليل الصبر وصارم. لا أحد يشعر بالراحة في حضوره، بمن في ذلك *البيض الكبار* الذين يتولى

حماية مصالحهم، و*البيض الصغار* الذين ينتمي إلى طبقتهم، و**المولدين** الذين يشكلون السواد الأعظم من قواته. المدنيون يحترمونه لأنه يفرض النظام، والجنود لأنه لا يطالبهم بشيء لا يكون هو نفسه مستعداً لعمله. تأخر في العثور على المتمردين في الجبال، متابعاً ما لا حصر له من الأدلة الزائفة، ولكنه لم يشك قط في أنه سيتوصل إلى ذلك. كان يحصل على المعلومات بوسائل شديدة الوحشية لا يجري ذكرها في المجتمع في الأزمنة العادية، ولكن منذ زمن ماكاندال صار الجميع في غيظ من العبيد المتمردين، وحتى السيدات اللاتي كان يُغمى عليهن من رؤية عقرب أو شم رائحة البراز ما عدن يضيعن على أنفسهن مشاهد التعذيب والتعليق عليها بعد ذلك بين كؤوس المرطبات وأطباق الحلوى.

مدينة لوكاب، ببيوتها ذات السقوف الحمراء، وصخب شوارعها وأسواقها، وميناءها حيث هناك دوماً عشرات السفن الراسية من أجل العودة إلى أوروبا بكنوزها من السكر والتبغ والنيلة والبن، مازالت تُعتبر باريس جزر الأنتيل، كما يسميها المستوطنون الفرنسيون بسخرية، ذلك أن الطموح العام هو جمع ثروة سريعة والعودة إلى باريس لنسيان الحقد الذي يطفو في هواء الجزيرة مثل سحب البعوض ونتانة نيسان. البعض يتركون المزارع في عهدة مديرين أو وكلاء يديرونها على هواهم، فيسرقون ويستغلون العبيد حتى الموت، ولكنها خسارة محسوبة، والثمن مقابل العودة إلى الحضارة. ولكن هذه لم تكن حال تولوز فالموران الذي مضت عليه عدة سنوات مدفوناً في مزرعة سان لازار.

كان رئيس رؤساء فرق العمل بروسبير كامبري يشد مكابح طموحه ويمضي حذراً لأن رب عمله كثير الارتياب وليس صيداً سهلاً، مثلما ظن في البدء، ولكنه يأمل مع ذلك بألا يبقى طويلاً في المستعمرة: فهو يفتقر إلى الجرأة وكثافة الدم التي تتطلبها مزرعة قصب، فضلاً عن أنه يحمل على كاهله زوجته الإسبانية، تلك المرأة ضعيفة الأعصاب التي

لا رغبة لها سوى الهروب من هناك.

في موسم الجفاف، يمكن قطع المسافة حتى لوكاب في يوم كامل على أحصنة جيدة، ولكن تولوز فالموران يسافر هذه المرة مع إوخينيا المحمولة على محفة يدوية، ومع العبيد مشاة. كان قد ترك في المزرعة النساء والأطفال وأولئك الرجال الذين فقدوا الإرادة ولم يعودوا بحاجة إلى عِبرة. لقد اختار كامبري الشباب، ممن مازال بإمكانهم تخيل الحرية. ومهما حاول ***الكومندورات*** إرهاق أولئك الناس، لن يستطيعوا دفعهم إلى الإسراع أكثر مما تتحمله القدرة البشرية. فالطريق غير واضحة المعالم، وهم في أوج موسم الأمطار. وغريزة الكلام وحدها، مع صواب نظر بروسبير كامبري، **الكريولي**، المولود في المستعمرة والعارف بطبيعة الأرض، هما ما يحول دون ضياعهم في الأدغال، حيث يمكن لهم فقدان الاتجاه والدوران في حلقة مفرغة إلى الأبد. الجميع يمضون خائفين: فالموران يخاف من هجوم يشنه الآبقون، أو من تمرد عبيده أنفسهم ـ ولن تكون المرة الأولى التي يرى فيها الزنوج إمكانية للفرار ويواجهون الأسلحة النارية بصدورهم العارية، معتقدين أن آلهتهم ***اللوات*** ستحميهم من الرصاص ـ، العبيد يخافون السياط وأرواح الغابة الخبيثة، وإوخينيا تخاف تهيؤاتها بالذات. أما كامبري فلا يرتجف إلا أمام الموتى الأحياء، ***الزومبي***، وهذا الخوف لا يتمثل في مواجهتهم، فهم قلة قليلة ورعديدين، وإنما في التحول إلى واحد منهم. فالزومبي هو عبد لساحر، ***بوكور***، ولا يمكن للموت أن يحرره من تلك العبودية، لأنه ميت أصلاً.

لقد جاب بروسبير كامبري من قبل هذه المناطق مرات كثيرة، ملاحقاً الهاربين مع رجال ميليشيا الدرك. وهو يعرف تفسير إشارات الطبيعة، تلك الآثار التي لا تراها العيون، ويستطيع ملاحقة أثر مثل أفضل كلاب الصيد، وشم رائحة خوف طريدة وعرقها على بعد عدة ساعات، والرؤية في الليل مثل الذئاب، والتكهن بوقوع تمرد قبل أن يبدأ والقضاء عليه. ويتفاخر بأن قلة من العبيد الذين تحت أمرته هربوا

من مزرعة سان لازار، وأن أسلوبه يتمثل في كسر أرواحهم وإرادتهم. فالخوف والإرهاق وحدهما يستطيعان التغلب على إغراء الحرية. إجبار العبيد على الإنتاج، والإنتاج، والإنتاج حتى النفس الأخير الذي لا يتأخر طويلاً في المجيء، لأن أحداً هناك لا يصل إلى الحد الذي تهرم فيه عظامه، فالعبيد يعيشون في العمل ثلاث أو أربع سنوات، ولا يمكن أن تزيد على ست أو سبع سنوات بأي حال. «لا تبالغ كثيراً في العقوبات يا كامبري، لأنك تُضعف لي عبيدي»، هكذا أمره فالموران في أكثر من مناسبة، مشمئزاً من القروح المتقيحة والأعضاء المبتورة التي تعطل العبيد عن العمل، ولكنه لم يعارضه قطّ أمام العبيد، فكلمة رئيس رؤساء فرق العمل يجب أن تكون غير قابلة للاستئناف من أجل الحفاظ على الانضباط. وهذا ما يرغب فيه فالموران، لكنه ينفر من التعاطي مع الزنوج. إنه يُفضّل أن يكون كامبري هو الجلاد بينما يحتفظ لنفسه بدور السيد الرحيم، مما يتفق من مُثل شبابه الإنسانية. وحسب رأي كامبري، فإنه من المجدي والأفضل مردوداً استبدال العبيد بدل معاملتهم برفق، فبعد استهلاكهم بما يعادل كلفتهم، يصير من المناسب استغلالهم حتى الموت، ثم شراء عبيد أكثر شباباً وقوة. وإذا كان هناك من يخامره الشك في ضرورة استخدام القبضة القوية، فإن قصة ماكاندال، الزنجي المسحور، تبددها تماماً.

فبين عامي ١٧٥١ و١٧٥٧، عندما زرع ماكاندال الموت بين المستوطنين، كان تولوز فالموران لا يزال طفلا مدللاً يعيش في ضواحي باريس، في قصر صغير تملكه الأسرة منذ عدة أجيال، ولم يكن قد سمع باسم ماكاندال. لم يكن يعلم أن أباه قد أفلت بأعجوبة من أعمال التسميم الجماعي في سان دومانغ، ولو أنهم لم يلقوا القبض على ماكاندال، لكانت رياح التمرد قد عصفت بالجزيرة. وقد أخروا إعدامه لإتاحة الوقت لمالكي المزارع كي يصلوا إلى لوكاب مع عبيدهم. فهكذا يقتنع الزنوج مرة واحدة وإلى الأبد بأن ماكاندال كائن فانٍ. «القصة تتكرر، ولا شيء يتبدل في هذه الجزيرة اللعينة»، قال تولوز

فالموران لامرأته معلقاً بينما هما يجتازان الطريق نفسه الذي قطعه أبوه قبل سنوات للسبب نفسه: حضور عقوبة تكون عِبرة. وشرح لها أن هذه هي أفضل طريقة لإخماد حماسة مثيري القلاقل، كما قرر الحاكم والمعتمد اللذين اتفقا في الرأي مرة واحدة على أمر. كان يأمل أن يطمئن المشهد إوخينيا، ولكنه لم يتصور أن الرحلة ستتحول إلى كابوس. راودته الرغبة في الاستدارة على عقبيه والعودة إلى سان لازار، ولكنه لا يستطيع عمل ذلك، لأنه يتوجب على أصحاب المزارع الحضور ومعهم زنوجهم. كان يعرف أن هناك تقولات تدور من وراء ظهره، يقولون إنه متزوج من إسبانية نصف مخبولة، وأنه متعجرف ويستغل مكانته الاجتماعية، ولكنه لا يقوم بواجباته في الجمعية الاستعمارية، حيث ظل مقعد آل فالموران شاغرا منذ موت أبيه. لقد كان السيد الأب مؤيدا متعصباً للملكية، ولكن ابنه يزدري لويس الرابع عشر، هذا العاهل المتردد الذي لا يثبت على رأي والممسك بزمام الملكية بيديه السمينتين.

ماكاندال

قصة ماكاندال التي رواها لها زوجها، أطلقت جنون إوخينيا، ولكنها لم تكن السبب فيه، لأن الجنون كان يسري في عروقها. ولم يخبر أحدٌ تولوز فالموران، حين تقدم لطلب يدها في كوبا، بأن هناك عدداً من المجنونات في عائلة غارثيا دل سولار. لقد كان ماكاندال زنجياً جيء به من أفريقيا، وكان مسلماً ومتعلماً، يقرأ ويكتب بالعربية، ولديه معارف في الطب والنباتات. فقد ذراعه اليمنى في حادث رهيب كان يمكن له أن يودي بحياة شخص أقل منه قوة، وحين لم يعد قادرا على العمل في حقول القصب، أرسله سيده لرعي المواشي. فكان يجوب المنطقة متغذياً على الحليب والثمار، إلى أن تمكن من التدرب على استخدام يده اليسرى وأصابع قدميه لنصب الشراك وربط العقد؛ وهكذا استطاع اصطياد قوارض وزواحف وطيور. وفي أجواء الوحدة والصمت استعاد صور مراهقته، حين كان يتدرب على الحرب والصيد، مثلما يليق بابن ملك: جبهة عالية، صدر منتصب، ساقان سريعتان، عينان متيقظتان، والحربة ممسوكة بثبات. نباتات الجزيرة كانت مختلفة عن مناطق فتوته المسحورة، ولكنه بدأ باختبار أوراق وجذور ولحاء شجر، وفطور من كل الأنواع، واكتشف أن بعضها يفيد في الشفاء، وغيرها في التسبب بالنعاس وحالات الغيبوبة، وبعضها يسبب الموت. كان يعرف على الدوام أنه سيهرب ذات يوم، لأنه يفضل تسليم جلده لأسوأ أشكال التعذيب على أن يظل عبدا؛ ولكنه أعدّ نفسه بحذر وانتظر الفرصة المناسبة بصبر. وأخيراً غادر إلى الجبال، ومن هناك بدأ انتفاضة العبيد التي ستهز الجزيرة كإعصار رهيب. انضم إلى عبيد آبقين آخرين وسرعان ما تكشفت آثار غضبه ومكره: هجوم مباغت في أشد الليالي ظلمة، بريق مشاعل، وقع

أقدام حافية، صرخات، معدن سلاسل، حريق في حقول القصب. صار اسم الزنجي ينتقل من فم إلى فم، يردده الزنوج كصلاة أمل. ماكاندال، أمير غينيا، يتحول إلى طائر، إلى عظاءة، إلى ذبابة، إلى سمكة. العبد المقيد إلى عمود التعذيب يرى مرور أرنب بري راكض قبل أن يتلقى ضربة السوط التي تُغرقه في غيبوبة: إنه ماكاندال، الشاهد على التعذيب. عظاءة مسالمة تراقب الفتاة المغتصبة الملقاة على التراب. «انهضي، استحمي في النهر ولا تنسي ما حلّ بك، لأنني سآتي للانتقام قريباً»، تصفر العظاءة. ماكاندال. ديوك مقطوعة الرؤوس، رموز مرسومة بالدم، فؤوس مغروسة في الأبواب، ليلة غير مقمرة، وحريق آخر.

بدأت المواشي تنفق أولاً. وعزا المستوطنون ذلك إلى نبتة قاتلة تنمو مستترة في الحقول، واستخدموا خبراء نبات أوروبيين ومشعوذين محليين لاكتشافها واجتثاثها، دون جدوى. وبعد ذلك جاء دور الخيول في الإسطبلات، والكلاب الشرسة، وأخيراً سقطت عائلات بكاملها. كانت بطون الضحايا تنتفخ، وتسوّد لثهم وأظفارهم، ويميع دمهم، وتتمزق جلودهم ثم يموتون وهم يعانون تلويات فظيعة. الأعراض لا تنطبق على داء من الأمراض التي تعصف بجزر الأنتيل، ولكنها لا تظهر إلا على البيض. عندئذ لم يعد هنالك مجال للشك في أنه سمّ. ماكاندال، إنه ماكاندال مرة أخرى. يتساقط الرجال حين يشربون جرعة خمر، والنساء والأطفال عند تناول فنجان شكولاته، وجميع المدعوين إلى مأدبة قبل أن تُقدم الحلوى. ما عاد بالإمكان الثقة بفواكه الأشجار ولا بقارورة خمر مغلقة، ولا حتى بسيجار، لأنه من غير المعروف كيف يتم دس السمّ. يعذبون مئات العبيد دون أن يتوصلوا إلى كيفية دخول الموت إلى البيوت، إلى أن ضعفت صبية في الخامسة عشرة، واحدة من كثيرات يزورهن الزعيم الزنجي في الليل متخذاً هيئة خفاش، وحيال تهديدها بإحراقها حية، قدمت أثراً للعثور على ماكاندال. لقد أحرقوها على كل حال وقاد اعترفها رجال الميليشيا إلى

مخبأ ماكاندال بالتسلق سيراً كالماعز عبر قمم وجروف حتى بلوغ الذرى الرمادية التي سكنها الأراهواكو القدماء. أمسكوا به حياً. وكان قد مات حتى ذلك الحين ستة آلاف شخص. «إنها نهاية ماكاندال»، قال البيض، ولكن الزنوج كانوا يهمسون: «سنرى».

ضاقت الساحة بالجمهور الآتي من المزارع. استقر ***البيض الكبار*** تحت مظلاتهم وخيامهم، ومعهم وجباتهم وشرابهم، وارتضى ***البيض الصغار*** المنصات، واستأجر المولدون شرفات البيوت المحيطة بالساحة التي يملكها آخرون من الملونين الأحرار. أما موقع المشاهدة الأفضل فكان محجوزاً للعبيد الذين ساقهم مالكوهم من أماكن بعيدة كي يتأكدوا من أن ماكاندال ليس سوى زنجي بائس أبتر، وأنه سيُشوى في المحرقة مثل خنزير. جمعوا الأفارقة حول المحرقة، تحرسهم كلاب تتفلت من سلاسلها وقد أثارت سعارها رائحة البشر. طلع صباح يوم الإعدام غائماً، وحاراً ودون أي نسمة. كانت رائحة الجموع المتراصة تختلط برائحة السكر المحروق، وزيت المقالي، والأزهار البرية التي تنمو متسلقة الأشجار. كان عدد من الكهنة يرشون ماء مقدساً ويقدمون قطعة زلابية مقابل كل اعتراف. وكان العبيد قد تعلموا خداع الكهنة بالاعتراف بخطايا مشوشة، وتصل تلك الأخطاء المعترف بها مباشرة إلى أذني السيد المالك، ولكن أحداً منهم لم يكن متحمساً للزلابية في ذلك اليوم. فهم ينتظرون ماكاندال مبتهجين.

كانت السماء الملبدة بالغيوم تنذر بهطول المطر، وقدر الحاكم أنه لا يوجد متسع من الوقت قبل هطول الوابل، ولكن عليه أن ينتظر مجيء المعتمد، ممثل الحكم المدني. وأخيراً ظهر على إحدى المنصات المعتمد وزوجته، وهي صبية مراهقة تختنق في ثوبها الثقيل وزينة الريش والاستياء؛ إنها الفرنسية الوحيدة في المدينة التي لا ترغب في أن تكون هناك. زوجها لا يزال شاباً، ولكن له ضعف سنها، وهو قصير الساقين، ضخم المؤخرة وأكرش، غير أن له رأساً بديعاً كرأس سيناتور روماني تحت باروكته المعقدة. أعلن قرع طبول عن ظهور الأسير.

استُقبل بكورال توعد وشتائم من البيض، وسخرية من الخلاسيين، وصرخات حماسة جنونية من الأفارقة. تحدى العبيد الكلاب والسياط وأوامر رؤساء العمال والجنود، ونهضوا واقفين، متقافزين وأذرعهم مرفوعة نحو السماء ليحيّوا ماكاندال. أدى ذلك إلى ردّ فعل جماعي، حتى إن الحاكم والمعتمد نهضا واقفين.

كان ماكاندال طويل القامة، شديد السواد، تغطي جسده القروح، لا يستره سوى سروال قصير متسخ ولطخات دم جاف. كان يمضي مقيداً بالسلاسل، ولكنه منتصب القامة، متكبر وغير مبال. ازدرى البيض والجنود والكهنة والكلاب؛ وجالت عيناه ببطء علّى العبيد وعرف كل واحد منهم أن تينك الحدقتين السوداوين تميزانه، وتسلمانه نفحة روحه الجامحة. لم يكن عبداً من سيُعدم، وإنما الرجل الحر الوحيد حقاً بين تلك الجموع. هكذا أدرك الجميع، وخيم صمت عميق على الساحة. وأخيراً جاء ردّ فعل الزنوج، وانطلق كورال لا يمكن كبحه صارخاً باسم البطل، ماكاندال، ماكاندال، ماكاندال. أدرك الحاكم أنه من الأفضل الانتهاء سريعاً، قبل أن تتحول دائرة الحصار المندفعة إلى حمام دم؛ فأعطى الإشارة وقام الجنود بتقييد الأسير إلى عمود المحرقة. أشعل الجلاد القش وسرعان ما بدأ الحطب المشبع بالزيت يتقد والدخان الكثيف يتصاعد. لم يكن يُسمع أي نفس في الساحة عندما تعالى صوت ماكاندال العميق: «سأرجع! سأرجع!».

ما الذي حدث عندئذ؟ سيكون هذا هو السؤال الأكثر تواتراً في الجزيرة على امتداد تاريخها، مثلما اعتاد المستوطنون القول. بيض وسود رأوا ماكاندال يفلت من السلاسل ويقفز فوق الجذوع المشتعلة، لكن الجنود انقضوا عليه، وأخضعوه بالضرب وأعادوه ثانية إلى المحرقة، حيث التهمته بعد دقائق ألسنة اللهب والدخان. الزنوج رأوا أن ماكاندال قد أفلت من السلاسل، وقفز فوق الجذوع المشتعلة، وعندما انقض الجنود عليه تحول إلى بعوضة وخرج محلقاً عبر الدخان، وقام بدورة كاملة حول الساحة كي يتمكنوا جميعهم من وداعه، ثم ضاع

في السماء بالضبط قبل هطول وابل المطر الذي بلل المحرقة وأطفأ النار. رأى البيض والخلاسيون جسداً ماكاندال المحروق. أما الزنوج فلم يروا سوى عمود المحرقة خاوياً. أولئك انسحبوا راكضين تحت المطر، وظل هؤلاء الآخرون يغنون، تغسلهم العاصفة. لقد انتصر ماكاندال وسينجز وعده. ماكاندال سيعود. لهذا السبب، لأنه لا بد من تدمير تلك الأسطورة السخيفة إلى الأبد، كما قال فالموران لزوجته المزعزعة، يتوجهون مع عبيدهم لحضور عملية إعدام أخرى في لوكاب، بعد ثلاثة وعشرين عاماً من تلك.

كانت القافلة الطويلة تمضي تحت حراسة أربعة من رجال الميليشيا المسلحين بالبواريد، وبروسبير كامبري وتولوز فالموران المسلحين بطبنجات، و*الكومندورات* المسلحين بسيوف ومناجل ماتشيتي فقط، لأنهم من العبيد. فهم غير موثقين، ويمكن لهم في حال التعرض لهجوم أن ينضموا إلى الآبقين. كان الزنوج النحيلون الجائعون يتقدمون ببطء شديد، حاملين على ظهورهم الحزم ومقيدين إلى بعضهم بعضاً بسلسلة حديدية تعرقل المسيرة، وتبدو للسيد المالك مبالغاً فيها، ولكنه لا يستطيع نزع صلاحيات رئيس رؤساء فرق العمال. «لن يحاول أحد الهرب، فالزنوج يخافون شياطين الأدغال أكثر من خوفهم من الضواري السامة»، أوضح فالموران لامرأته، لكن إوخينيا لا تريد معرفة أي شيء عن الزنوج أو الشياطين أو الضواري. كانت الصغيرة تيتي تمضي طليقة إلى جانب محفة سيدتها التي يحملها عبدان مختاران من أقوى العبيد. كان الطريق يضيع وسط تشابك الخضرة والوحول، بينما الموكب الصامت يتجرجر أشبه بأفعوان كئيب نحو لوكاب. وبين حين وآخر يعلو نباح كلاب أو صهيل حصان أو فرقعة سوط أو صرخة تقاطع همهمة اللهاث البشري وهمس الغابة. في البدء أراد بروسبير كامبري جعل العبيد يمشون وهم يغنون لبث الحماسة وإبعاد الأفاعي، مثلما يفعلون في حقول القصب، ولكن إوخينيا الذاهلة من الدوار والتعب لم تتحمل ذلك.

الظلام يخيم باكراً في الغابة بسبب كثافة الأشجار السامقة ويتأخر بزوغ الفجر بسبب الضباب المعرش على السراخس. النهار يبدو قصيرا لفالموران، ولكنه يبدو أبدياً للآخرين. كانت وجبة العبيد تتألف من عصيدة ذرة أو بطاطا مع لحم مجفف وفنجان قهوة، توزع عليهم عندما يخيمون في الليل. لقد أمر السيد بأن تضاف إلى القهوة قطعة سكر ورشفة من التافيا، خمر الفقراء المقطر من القصب، من أجل تدفئة من ينامون على الأرض المبللة بالمطر والندى، معرضين للإصابة بالحمى. كانت الأوبئة في ذلك العام كارثية في المزارع. فكان لابد من استبدال الكثير من العبيد، ولم يبق أي وليد جديد على قيد الحياة. حذر كامبري سيده من أن الخمر ومذاق السكر الحلو سيفسدان العبيد ولن تكون هناك طريقة بعد ذلك لمنعهم من مص قصب السكر. كانت هناك عقوبة خاصة لهذه الجريمة، ولكن فالموران ليس ممن يؤيدون أعمال التعذيب المعقدة، باستثناء تعذيب الهاربين، ففي هذه الحالة يلتزم بحرفية **القانون الأسود**. وكان إعدام الآبقين في لوكاب يبدو له هدرا للوقت والمال: يكفي شنقهم دون كثير من المظاهر.

كان رجال الميليشيا و*الكومندورات* يتناوبون في الليل على حراسة المعسكر والمواقد، يكبحون البهائم ويهدؤون الجمع. لم يكن أحد مطمئناً في الظلام. وكان السيدان ينامان على أرجوحتي نوم في خيمة من قماش مشمع، مع صناديقهم وبعض الأثاث. وإوخينيا التي كانت شرهة، صارت لها شهية عصفور كناري، ولكنها تجلس بطقوس احتفالية إلى المائدة، لأنها مازالت تلتزم الإتيكيت. كانت تشغل في تلك الليلة كرسياً من قطيفة زرقاء، وتلبس الساتان، بينما شعرها المتسخ مثبت في عقيصة، وتشرب ليمونادة مع الروم. وقبالتها يجلس زوجها دون معطف، بقميص مفتوح وذقن غير حليقة وعينين محمرتين، يشرب خمراً من الزجاجة مباشرة. المرأة تكاد لا تستطيع كبح غثيانها أمام أطباق الطعام: خروف مطهو مع فلفل حار وتوابل لإخفاء الرائحة الكريهة بعد يومين من السفر، وفاصوليا ورز، وخبز ذرة

مالح، وفاكهة مغطسة بالقطر. تيتي تهوّي لها دون أن تتمكن من تجنب الشفقة عليها. فقد توصلت إلى أن تحب «دونيا إوخينيا»، مثلما تفضل السيدة أن تُسمى. لم تكن السيدة تضربها، وكانت تبوح لها بهمومها وشجونها، مع أن تيتي لم تكن تفهم ما تقوله لها في البدء، لأنها تتكلم بالإسبانية. كانت تروي لها كيف كان زوجها يتودد إليها في كوبا بالغزل والهدايا، ولكنه بعد ذلك، في سان دومانغ، أظهر طبعه الحقيقي: إنه مفسد بالمناخ الخبيث وسحر الزنوج، مثل جميع المستوطنين في الأنتيل. أما هي بالمقابل، فكانت تنتمي إلى صفوة المجتمع في مدريد، وإلى أسرة نبيلة وكاثوليكية. لم تكن تيتي قادرة على تصور ما كانت عليه سيدتها في إسبانيا وفي كوبا، ولكنها ترى أن حالتها تتردى بصورة سافرة. فعندما عرفتها، كانت إوخينيا شابة ممتلئة مستعدة للتكيف مع حياتها كمتزوجة حديثاً، ولكن المرض أصاب روحها بعد شهور قليلة. صارت تخاف من كل شيء وتبكي دون سبب.

زاريتيه

كان السيدان يتناولان العشاء في الخيمة كما في البيت الكبير. وكان هناك عبد يكنس الحشرات عن الأرض ويهش البعوض، بينما يقف عبدان آخران وراء كرسيي السيدين، حافيين، كسوتيهما تقطران ماء وتفوح من باروكتيهما البيضاوين رائحة كريهة، ومتأهبين لخدمة السيدين. كان السيد يبتلع طعامه ساهياً، دون أن يمضغه تقريباً، بينما دونيا إوخينيا تبصق اللقم كاملة في الفوطة، لأنها تشعر بأن لكل شيء طعم الكبريت. كان زوجها يكرر عليها أن تأكل بهدوء، لأن التمرد قد سُحق قبل أن يبدأ والزعماء مسجونون في لوكاب وعليهم من أصفاد الحديد أكثر مما يستطيعون حمله، ولكنها تخشى أن يكسروا السلاسل، مثلما فعل الساحر ماكاندال. لقد كانت فكرة سيئة من السيد أن يحدثها عن ماكاندال، لأنه انتهى إلى تخويفها. كانت دونيا إوخينيا قد سمعت عن إحراق الهراطقة الذي كان يمارس في بلادها ولم ترغب في أن تشهد مثل ذلك الرعب. وقد حلمت في تلك الليلة أن ضاغطة تعذيب تضغط رأسها، لم تعد قادرة على تحمل المزيد، تريد الذهاب إلى كوبا لرؤية أخيها، يمكنها الذهاب وحدها، فالرحلة إلى هناك قصيرة. أردتُ أن أمسح جبهتها بمنديل، ولكنها أزاحتني عنها. ردّ عليها السيد بألا تفكر في ذلك مجرد تفكير، لأن الرحلة تنطوي على مخاطر كثيرة ولن يكون لائقاً أن تصل إلى كوبا وحدها. «لا أريد مزيداً من الكلام في هذا الشأن!»، صاح غاضباً وهو ينهض قبل أن يتمكن العبد من سحب الكرسي، وخرج لإصدار آخر التعليمات لرئيس رؤساء فرق العمال. أومأت السيدة لي، فتناولتُ الطبق وحملته إلى أحد الأركان مغطى بخرقة، كي آكل البقايا في ما بعد، وفي الحال بدأتُ تهيئتها للنوم. لم تعد تستخدم الصدار والجوارب والتنا نير التي تملأ صناديق عرسها،

فهي تتجول في المزارع بجلابيب خفيفة، ولكنها تتجمل وتلبس جيداً عند العشاء دوماً. خلعتُ عنها ملابسها، وجئتها بالمبولة، وغسلتها بخرقة مبللة، ونثرت عليها مسحوق الكافور لإبعاد البعوض. طليت وجهها ويديها بالحليب، نزعت دبابيس تسريحتها ومشطت شعرها الكستنائي مئة مرة، بينما هي مستسلمة لما أفعله ونظرها زائغ. لقد كانت شفافة. تقول السيدة إنها جميلة، ولكن عينيها الخضراوين وأنيابها الحادة لا تبدو لي بشرية. عندما انتهيتُ من تنظيفها، جثت على مركعها وصلت بصوت عالٍ مسبحة كاملة، وأنا أشكل كورالاً لها، مثلما هو واجبي. كنتُ قد تعلمت التراتيل، مع أنني لا أفهم معانيها. وفي تلك الأثناء كنت قد تعلمت عدة كلمات إسبانية وصار بإمكاني طاعة أوامرها، لأنها لا تصدر الأوامر بالفرنسية أو **الكريولي**. لم يكن من واجبها بذل جهد للتواصل معنا، وإنما علينا نحن أن نفعل ذلك. هذا ما تقوله. حبات المسبحة الصدفية تمر بين أصابعها البيضاء بينما أنا أقدّر كم بقي عليّ أن أنتظر كي آكل وأستلقي للنوم. وأخيراً قبّلت السيدة صليب المسبحة وخبأتها في جراب جلدي أملس ومتطاول مثل مغلف، اعتادت تعليقه حول عنقها. إنه حاميها مثلما كانت دمية إرزولي حاميتي. قدمت إليها كأساً من نبيذ أوبورتو لمساعدتها على النوم، شربته بتكشيرة قرف، وساعدتها على الاستلقاء في أرجوحة النوم، ثم غطيتها بالكلة وبدأت أهزها متضرعة أن تنام سريعاً دون أن تستغرق في ملاحقة خفق أجنحة الخفافيش، وخطوات الحيوانات الصغيرة المتكتمة والأصوات التي تحاصرها في مثل هذه الساعة. لم تكن أصواتاً بشرية، هذا ما شرحته لي هي نفسها؛ إنها أصوات تأتي من الظلال، من الغاب، من تحت الأرض، من الجحيم، من أفريقيا، أصوات لا تتكلم بكلمات، وإنما بولولات وضحكات صاخبة. «إنها الأشباح التي يستحضرها الزنوج»، كانت تبكي مرتعبة. «هس يا دونيا إوخينيا، أغمضي عينيكِ، صلي...» كنت خائفة مثلها، مع أنني لم أسمع الأصوات قط ولم أرَ الأشباح. «أنت ولدتِ هنا يا زاريتيه،

ولهذا سمعك أصم وبصرك أعمى. لو أنكِ جئت من غينيا لعرفت أن هناك أشباحاً في كل مكان»، هذا ما كانت تؤكد لي تانت روز، المداوية في سان لازار. لقد حددوها عرابة لي عند وصولي إلى المزرعة، وكان عليها أن تعلمني كل شيء وتراقبني كيلا أهرب. «لا تفكري في عمل ذلك يا زاريتيه، ستضيعين في حقول القصب، والجبال أبعد من القمر».

نامت دونيا إوخينيا وانسحبتُ إلى ركني، حيث لا يصل ضوء مصباح الزيت المرتعش، بحثتُ عن طبق طعامي بالتلمس، أمسكتُ قليلاً من لحم الخروف المطبوخ بأصابعي ولاحظت النمل الذي سبقني إليه، ولكنني أستمتع بمذاقه اللاذع. وكنت سأتناول اللقمة الثانية عندما دخل السيد ومعه عبد، ظلان طويلان على قماش الخيمة ورائحة زخمة من الجلد المدبوغ والتبغ وأحصنة الرجال. غطيتُ الطبق وانتظرتُ حابسة أنفاسي، باذلة جهداً في قلبي كيلا ينتبها إليّ. «يا قديسة مريم، يا أم الرب، صلي من أجلنا نحن الخطأة» دمدمت السيدة في حلمها ثم أضافت بصوت صارخ «عاهرة الشيطان!». طرتُ لأهز أرجوحة نومها قبل أن تستيقظ.

جلس السيد على كرسيه وخلع عنه العبد جزمته؛ ثم ساعده بعد ذلك في خلع البنطال وبقية ملابسه، إلى أن ظل بالقميص وحده وكان يصل حتى إليتيه ويكشف عن عضوه الوردي والمترهل، مثل قطعة من أحشاء خنزير، وسط عش شعر بلون القش. أمسك له العبد المبولة كي يتبول، وظل ينتظر إلى أن أمره بالانصراف، فأطفأ مصابيح الزيت، ولكنه ترك الشموع مشتعلة وانصرف. عادت دونيا إوخينيا تضطرب واستيقظت في هذه المرة زائغة العينين، ولكنني كنت قد قدّمت إليها كأساً أخرى من نبيذ أوبورتو. واصلت هز أرجوحتها وسرعان ما نامت من جديد. اقترب السيد حاملا شمعة وأضاء زوجته؛ لا أدري ما الذي يبحث عنه، ربما كان يبحث عن الفتاة التي أغوته قبل عام. قام بحركة كمن يريد لمسها، ولكنه فكر في الأمر واكتفى بتأملها بنظرة غريبة.

ـ مسكينتي إوخينيا. تقضي الليل معذبة بالكوابيس والنهار معذبة

بالواقع ـ تمتم.

ـ أجل يا سيدي.

ـ أنتِ لا تفهمين شيئاً مما أقوله، أليس كذلك يا تيتي؟

ـ لا يا سيدي.

ـ هذا أفضل. كم سنة عمرك؟

ـ لا أدري يا سيدي. عشر سنوات تقريباً.

ـ مازال أمامك وقت لتكوني امرأة إذاً، أليس كذلك؟

ـ ممكن يا سيدي.

جابتني نظرته من أعلى إلى أسفل. مدّ يده إلى عضوه وأمسك به، كما لو أنه يزنه. تراجع بوجه متوقد. سقطت من الشمعة قطرة على يده فأطلق لعنه، وعلى الفور أمرني بالانصراف للنوم وإبقاء إحدى عيني مفتوحة لأسهر على السيدة. استلقى في أرجوحة نومه، بينما أنا ازحف مثل حرذون إلى ركني. انتظرتُ إلى أن نام السيد وأكلتُ بحذر، دون أدنى ضجة. وكان المطر قد بدأ بالهطول في الخارج. هكذا أتذكر ما حدث.

حفل راقص في بيت المعتمد

وصل مسافرو سان لازار المنهكون إلى لوكاب في اليوم السابق لإعدام الآبقين، عندما كانت المدينة تنبض بالترقب، واجتمع فيها أناسٍ كثيرون، فكان الهواء يعبق بنتانة الحشود وروثٍ الخيول. لم يجدوا مكاناً ينزلون فيه. كان فالموران قد أرسل متقدماً على حصان سريع لحجز مهجع كبير لجماعته، ولكنه وصل متأخراً واضطر إلى استئجارٍ مساحة في عنبر سفينة شراعية راسية قبالة المرفأ. لم يكن سهلاً جعل العبيد يصعدون إلى الزوارق ومنها إلى السفينة، لأنهم ارتموا على الأرض صارخين من الخوف، مقتنعين بأنه الرحلة الجهنمية التي جاءت بهم من أفريقيا ستتكرر. اقتادهم بروسبير كامبري ***والكومندورات*** بالقوة وقيدوهم في عنبر السفينة لمنعهم من إلقاء أنفسهم في البحر. كانت فنادقٍ البيض ممتلئة، ولم تتوفر غرفة للسيدين اللذين وصلا متأخرين يوماً. ولم يكن بإمكان فالموران أن يأخذ إوخينيا إلى بانسيون للخلاسيين. ولو أنه كان وحده لما تردد في اللجوء إلى فيوليت بواسيير التي تدين له ببعض الخدمات. صحيح أنهما لم يعودا عاشقين، ولكن صداقتهما تعززت مع إعادة ترتيب البيت في مزرعة سان لازار، وتقديمه إليها هبتين ماليتين لمساعدتها في الخروج من ديونها. فقد كانت فيوليت تستمتع بالشراء بالدين دون تقدير للنفقات، إلى أن أجبرها تأنيب لولا وإيتيان روليه على الإنفاق بحذر.

كان مقررا أن يقدم المعتمد في تلك الليلة العشاء لنخبة المجتمع المدني، بينما كان الحاكمٍ على بُعد شارعين يستقبل الشريحة العليا من الجيش للاحتفال مسبقاً بنهاية الآبقين. ونظراً للظروف الضاغطة، ذهب فالموران إلى منزل المعتمد ليطلب مأوى. كانت لا تزال هناك ثلاث ساعات قبل أن يحين موعد حفل الاستقبال، وكانت تسود البيت

حماسة تسرع كالتي تسبق إعصار: فالعبيد يركضون بقوارير الخمر، وزهريات الأزهار، وقطع أثاث آخر ساعة، ومصابيح وشمعدانات، بينما الموسيقيون، وجميعهم خلاسيين، يضبطون آلاتهم تحت إشراف مدير فرنسي، وكبير الخدم يحمل قائمة في يده ويعد أدوات المائدة الذهبية. وصلت إوخينيا التعيسة شبه غائبة عن الوعي في محفتها، تتبعها تيتي حاملة قارورة أملاح ومبولة. وما إن تجاوز المعتمد وقع مفاجأة رؤيتهم أمام بيته قبل موعد الحفلة، حتى رحب بهما، بالرغم من أنه يكاد لا يعرفهما، وقد لينته شهرةٍ اسم فالموران وحالة زوجته التي يرثى لها. كان المحافظ قد هرم مبكرا، مع أنه في الخمسين وبضع سنوات، ولكنه عاشها بصورة سيئة. كان كرشه يحول دون أن يرى قدميه، ويمشي بساقين متيبستين ومتباعدتين، وذراعاه أقصر من أن تمكناه من تزرير سترته، ويتنفس نافخاً مثل كير، وكان بروفيله الأرستقراطي ضائعاً بين خدينٍ ضخمين متوردين وأنف شرِّيب بصليّ. أما زوجته فلم تتغير إلا قليلاً. كانت جاهزة للحفلة، تلبس حسب آخر موضة في باريس، مع باروكة مزينة بفراشات، وفستان مملوء بشرائط وشلالات من الدانتيلا، ومن فتحة الصدر الواسعة يبرز نهداها الطفليان. إنها لا تزال عصفور الدوري التافه الذي كانت عليه وهي في التاسعة عشرة، حين شهدت من منصة الشرف عملية إحراق ماكاندال. وقد حضرت منذ ذلك الحين ما يكفي من عمليات التعذيب لتغذية كوابيسها طوال ما تبقى من ليالي حياتها. قادت ضيوفها إلى الطابق العلوي وهي تجرجر ثقل ثوبها، حيث خصصت غرفة لإوخينيا، وأمرت بأن يهيئوا لها حماماً، ولكن الضيفة لم تكن تريد شيئاً سوى الراحة.

بعد حوالي ساعتين من ذلك بدأ المدعوون بالتوافد وسرعان ما ضج البيت بموسيقى وأصوات تصل خافتة إلى إوخينيا الراقدة في السرير. كان الغثيان يمنعها من الحركة، بينما تيتي تضع لها كمادات ماء بارد على جبهتها وتهوي لها. وعلى الأريكة تنتظرها ملابس البروكار المبهرج التي كوتها إحدى خادمات البيت، وجوارب الحرير الأبيض،

وحذاء من التفتا السوداء بعكب عال. وفي الطابق السفلي كانت السيدات يشربن الشمبانيا واقفات، لأن اتساع تنانيرهن وضيق مشداتهن تجعل من الصعب عليهن الجلوس، بينما الرجال يعلقون على استعراض اليوم التالي بنبرة رجولية، إذ لم يعد من اللائق التأثر كثيراً لتعذيب بعض الزنوج المتمردين. بعد قليل قطع الموسيقيون الأحاديث بنداء بوق، ورفع المعتمد نخب عودة الأوضاع الطبيعية إلى المستعمرة. رفع الجميع كؤوسهم، وشرب فالموران كأسه وهو يتساءل أية شياطين تعنيها الأوضاع الطبيعية: فالبيض والزنوج، والأحرار والعبيد، جميعهم يعيشون مريضين بداء الخوف.

القهرمان الذي يرتدي زي أميرال مسرحي، ضرب الأرض ثلاث مرات بعصا ذهبية ليعلن بدء العشاء بأبهة. فالرجل ذو الخمسة والعشرين عاماً يبدو صغيراً على منصب بالغ المسؤولية والتألق. أضف إلى ذلك أنه ليس فرنسياً مثلما هو متوقع، بل عبد أفريقي بديع، له أسنان تامة الكمال، حتى إن بعض السيدات بادرن إلى غمزه بعيونهن. وكيف يمكن لهن ألا ينتبهن إليه... طوله حوالي مترين ويتحرك برشاقة وتسلط يتفوق بهما على أسمى المدعوين مكانة. بعد تناول الأنخاب، توجه المدعوون نحو قاعة الطعام الفخمة والمضاءة بمئات الشموع. كان الليل قد برّد الجو في الخارج، أما في الداخل فكان الحر يزداد. وفالموران المثقل براحة العطور والعرق الدبقة، والذي رأى الموائد الطويلة المتلألئة بالذهب والفضة، وكريستال بكارا وخزف سيفريس، والعبيد ذوي الكسوات الرسمية، وراء كل كرسي واحد منهم، وآخرون يصطفون بحذاء الجدران لسكب النبيذ، وتناقل الصحاف ورفع الأطباق، قدّر أن الليلة ستكون طويلة جداً؛ والمبالغة في الاتكيت تُفقده صبره مثل الأحاديث المبتذلة. ربما كان صحيحاً أنه آخذ بالتحول إلى آكل لحم بشري، كما تتهمه امرأته. تأخر المدعوون في الجلوس وسط ضوضاء سحب الكراسي، وحفيف الحرير، والأحاديث والموسيقى. وأخيراً دخل رتلان من الخدم بأول الأطباق

الخمسة عشر المدونة في قائمة الطعام بحروف مذهبة: طيور حجل صغيرة محشوة بالخوخ تُقدم وسط ألسنة لهب زرقاء تتعالى من الكونياك المشتعل. لم يكن فالموران قد نبش بعد بين عظام طائره الصغير، عندما اقترب منه القهرمان المهيب وهمس له بأن زوجته متوعكة. وفي اللحظة نفسها همس خادم آخر بالشيء نفسه للمضيفة التي أومأت لفالموران من الجانب المقابل على المنضدة. نهض كلاهما دون أن يلفتا انتباه أحد وسط ثرثرة الأصوات وقعقعة أدوات الطعام على الخزف، وصعدا إلى الطابق الثاني.

كانت إوخنينا ضاربة إلى الخضرة، والحجرة نتنة بالقيء والبراز. اقترحت زوجة المعتمد أن يعالجها الدكتور بارمونتيه الموجود لحسنِ الحظ في قاعة الطعام، وعلى الفور انطلق العبدُ الذي يحرس الباب بحثاً عنه. بدا الطبيب الذي في حوالي الأربعين ضئيلاً نحيلاً، له ملامح شبه أنثوية، ولكنه موثوق بين *البيض الكبار* في مدينة لوكاب بفضل تشخيصه المهني الصائب، وإن كانت أساليبه ليست شديدة الأصالة: فهو يفضل استخدام أعشاب الفقراء بدل استخدام الملينات، وفصد الدم، والحقن الشرجية، والكمادات، والعلاجات المبهرجة المعتمدة في الطب الأوروبي. وكان بارمونتيه قد دحض العلاج بإكسير الحرذون مع مسحوق الذهب الذي اشتهر بأنه يُشفي الأغنياء وحدهم من الحمى الصفراء، لاسيما وأن الآخرين غير قادرين على تحمل نفقاته. وقد تمكن من إثبات أن ذلك المزيجِ شديد السمية، وأن المريض إذا نجا من داء سيام، فإنه سيموت مسمماً. لم يحتج إلى من يتوسل إليه كي يصعد لرؤية مدام فالموران؛ فسوف يتمكن هناك من تنفس جرعتي هواء أقل كثافة من هواء قاعة الطعام على الأقل. وجدها منهوكة بين وسائد الفراش وبادر إلى فحصها، بينما كانت تيتي ترفع الجفنات والخرق التي استخدمتها لتنظيفها.

ـ لقد سافرنا طوال يومين من أجل مهرجان الغد، وانظرِ الحالة التي وصلت إليها زوجتي ـ علق فالموران من العتبة وهو يضع منديلا على أنفه.

ـ لا يمكن للسيدة أن تحضر عملية الإعدام غداً، يجب أن تستريح أسبوعاً أو أسبوعين ـ قال بارمونتيه.
ـ أهي أعصابها مرة أخرى؟ ـ سأله الزوج هائجاً.
ـ يجب أن تستريح من أجل تجنب المضاعفات. إنها حبلى ـ قال الدكتور وهو يغطي إوخينيا بالملاءة.
ـ ابن! ـ هتف فالموران، وتقدم ليداعب يدي امرأته الخامدتين ـ سنبقى هنا كل الوقت الذي تطلبه منا يا دكتور. سأستأجر بيتاً كيلا نفرض نفسنا على السيد المعتمد وزوجته النبيلة.
حين سمعته إوخينيا فتحت عينيها ونهضت بنشاط يائس.
ـ سنغادر الآن بالذات! ـ صرخت.
ـ مستحيل، **تشيري**، لا يمكنك السفر في هذه الظروف. بعد تنفيذ الإعدام، سيذهب كامبري بالعبيد إلى سان لازار، وأبقى أنا هنا للعناية بك.
ـ تيتي، ساعديني على ارتداء ملابسي! ـ صرخت وهي ترمي الملاءة جانباً.
حاول تولوز أن يثبتها، ولكنها دفعته وطلبت منه بعينين متوقدتين أن يهربا فوراً، لأن جيوش ماكاندال بدأت مسيرتها لإنقاذ الآبقين القابعين في السجن والانتقام من البيض. توسل إليها زوجها أن تخفض صوتها كيلا يسمعوها في أنحاء البيت، ولكنها واصلت الصراخ. هرع المعتمد ليرى ما الذي يحدث، فوجد ضيفته شبه عارية تصارع زوجها. أخرج الدكتور بارمونتيه قارورة صغيرة من حقيبته وتعاون الرجال الثلاثة لإجبارها على ابتلاع جرعة لودانوم قادرة على تنويم قرصان. بعد ست عشرة ساعة من ذلك أيقظت رائحة اللحم المحروق التي دخلت من النافذة إوخينيا فالموران. كان الدم يغطي السرير وملابسها. هكذا انتهى حلم الابن الأول. وهكذا نجت تيتي من حضور عملية إعدام العبيد الذين قضوا في المحرقة، مثل ماكاندال.

مجنونة المزرعة

بعد سبع سنوات من ذلك، وفي شهر آب العام ١٧٨٧ القائظ المساط بأعاصير، أنجبت إوخينيا فالموران ابنها الحي الأول، بعد عدة إحباطات أنهكت صحتها. لقد جاء ذلك الابن عندما لم تعد قادرة على أن تحبه. فقد تحولت إلى مجرد حفنة أعصاب، تسقط في حالات شذوذٍ غريبة تشرد خلالها في عوالم أخرى لبضعة أيام، أو أسابيع أحياناً. وفي فترات الهذيان تلك، يهدئونها بصبغة الأفيون ويسكنونها بقية الوقت بنقيع نباتات تانت روز، المداوية الحكيمة في سان لازار، فكانت تلك الأدوية تحول غم إوخينيا إلى حيرة تتيح لمن هم حولها تحملها. في البدء كان فالموران يسخر من «أعشاب الزنوج»، ولكنه بدّل رأيه عندما تأكد من الاحترام الذي يكنه الدكتور بارمونتيه لتانت روز. كان الطبيب يأتي إلى المزرعة عندما يسمح له عمله بذلك، على الرغم من الأذى الذي يُلحقه السفر على الحصان بجسمه الهش، وكان يأتي بحجة فحص إوخينيا، لكن سبب مجيئه الحقيقي دراسة أساليب تانت روز. وكان يجرب تلك الأساليب في ما بعد في مستشفاه، ويدون النتائج بكل تفاصيلها المملة، لأنه يفكر في كتابة أطروحة حول وسائل العلاج الطبيعية في جزر الأنتيل، مقتصراً على العلاج بالنباتات، لأن زملاءه لن يأخذوا العلاج بالسحر على محمل الجد بأي حال، أما هو فمفتون به قدر افتتانه بالنباتات. وعندما اعتادت تانت روز على فضول ذلك الرجل الأبيض، صارت تسمح له بأن يرافقها للبحث عن أعشاب في الغابة. وكان فالموران يقدم لهما بغلتين ومسدسين، يحملهما بارمونتيه متقاطعين في حزامه، بالرغم من أنه لا يعرف استخدامهما. ولم تكن المداوية تسمح بأن يرفقها **كومندور** مسلح، لأنه سيكون حسب رأيها أفضل طريقة لاجتذاب قطاع الطرق. وإذا لم تجد تانت روز في جولاتها

ما تحتاج إليه، ولم تتح لها فرصة الذهاب إلى لوكاب، فإنها توصي الطبيب أن يأتيها به. وهكذا توصل إلى التعرف بالتفصيل على ألف دكان أعشاب وسحر في الميناء، تمون أناساً من كل الألوان. فكان بارمونتيه يقضي ساعات في تبادل الحديث مع «أطباء الأعشاب» في أكشاك الشارع والمشعوذين المختبئين في الحجرات الخلفية، حيث يبيعون أدوية طبيعة، وأشربة سحرية، وتمائم فودو ومسيحية، وعقاقير وسموم، ومواد لحسن الطالع وأخرى للإساءة، ومساحيق من أجنحة ملائكة ومن قرون شيطان. لقد رأى تانت روز تشفي جراحاً لو أنه المعالج لكان بتر العضو الجريح، وتقوم بعمليات بتر نظيفة يمكن أن تتحول على يديه غرغرينا، وتعالج بنجاح حالات حمى وإسهال أو زحار كانت تُحدث أذى كبيراً بين الجنود الفرنسيين المكدسين في الثكنات. «لا تسمح لهم بشرب الماء. أعطهم الكثير من القهوة المخففة وحساء الرز»، علمته تانت روز. واستنتج بارمونتيه أن المسألة كلها تتلخص في غلي الماء، ولكنه لاحظ أنه من دون أعشاب المداوية لن يسترد المرضى عافيتهم. وقد كان الزنوج أكثر مناعة ضد تلك الأمراض، بينما يسقط البيض صرعى وإذا لم يموتوا خلال أيام قليلة يظلون في غيبوبة لعدة شهور. ومع ذلك، وفي حالة التوترات الذهنية العميقة مثلما هي حال إوخينيا، لم يكن لدى الأطباء الزنوج وسائل علاجية أكثر مما لدى الأوربيين. فالشموع المباركة، والتبخير بالمريمية، والتدليك بشحم الأفاعي تبدو عديمة الجدوى مثلها مثل محاليل الزئبق وحمامات الماء الجليدي التي توصي بها كتب الطب. ففي مأوى شارونتون للمجانين، حيث تدرب بارمونتيه لفترة قصيرة في شبابه، لم يكن هناك علاج للمختلين ذهنياً.

في السابعة والعشرين من عمرها، كانت إوخينيا قد فقدت الجمال الذي أحبه تولوز فالموران في حفلة الرقص تلك في القنصلية الفرنسية في كوبا، وغرقت في وساوس ووهن بسبب المناخ والإجهاضات المتتالية. بدأ تردي حالتها يظهر بعد قليل من مجيئها إلى المزرعة، وراح

وضعها يتفاقم مع كل حمل لا ينتهي نهاية حميدة. صارت ترتعب من الحشرات التي توجد منها أنواع لا حصر لها في سان دومانغ، وتستخدم قفازات، وقبعة عريضة الحافة مع حجاب سميك يصل حتى الأرض، وقمصاناً طويلة الأكمام. وكان عبدان صغيران يتناوبان على التهوية لها وسحق أي حشرة تظهر على مقربة منها. كان يمكن لجدجد أن يسبب لها أزمة. وقد وصل هوسها إلى حدّ لم تعد تخرج معه من البيت إلا نادراً، وخاصة عند الغروب، موعد تكاثر ظهور البعوض. تستغرق أحياناً في التفكير وتعاني حالات رعب أو حماسة دينية، تتلوها حالات جزع لا تتورع خلالها عن ضرب من يكون في متناول يدها، ولكن ليس تيتي أبداً. فقد كانت تعتمد على الفتاة في كل شيء، حتى في أشد الأمور حميمية، فهي محط أسرارها، والوحيدة التي تظل إلى جانبها عندما تعذبها الشياطين. وتعمل تيتي على تلبية رغباتها قبل أن تنطق بها، وهي متأهبة على الدوام لتقدم لها كأس الليمونادة فور إحساسها بالظمأ، أو لتلتقط من الهواء الطبق الذي ترمي به السيدة إلى الأرض، أو لترتب وضع الدبابيس التي تنغرس في رأسها، أو مسح عرقها، أو مساعدتها في الجلوس على المبولة. ولم تكن إوخينيا تلحظ حضور عبدتها، وإنما غيابها فقط. وفي نوبات رعبها، عندما تصرخ حتى يُبح صوتها، تحبس تيتي نفسها معها لتغني أو تصلي لها إلى أن تنتهي نوبتها العصبية وتغفو في نوم عميق، تستيقظ منه دون ذكريات. وفي فترات كآبتها الطويلة، كانت الصبية تندس إلى جانبها في فراشها وتداعبها كعشيق إلى أن تُستنفد في البكاء. «يا لحياة دونيا إوخينيا المحزنة! إنها عبدة أكثر مني، لأنها لا تستطيع الهرب من رعبها»، هذا ما قالته تيتي في أحد الأيام لتانت روز. كانت المداوية تعرف جيداً أحلام البنت بالحرية، لأنها اضطرت إلى منعها من الهرب عدة مرات، ولكن الفتاة صارت تبدو منذ حوالي سنتين كمن استسلمت لقدرها ولم تعد تأتي على ذكر فكرة الهروب.

وكانت تيتي هي أول من لاحظت أن نوبات سيدتها تتوافق مع نداءات الطبول في ليالي ***الكاليندا***، عندما يجتمع العبيد للرقص. وكانت

تلك الكاليندات تتحول عادة إلى طقوس فودو المحظورة، ولكن كامبري و*الكومندورات* لم يحاولوا منعها خوفاً من قدرات *المامبو*، تانت روز، الخارقة. فقرع الطبول يعني لإوخينيا أشباحاً وأعمال سحر ولعنات، وقد كانت كل نكباتها بسبب الفودو. وعبثاً حاول الدكتور بارمونتيه أن يوضح لها أنه لا وجود في الفودو لما يخيف، وأنه مجموعة معتقدات وطقوس مثل أي ديانة أخرى، بما في ذلك الديانة الكاثوليكية، وأنها ضرورية جداً، لأنها تضفي معنى على حياة العبيد البائسة. فكانت إوخينيا تصرخ: «هرطوقي! لا بد لك من أن تكون فرنسياً كي تقارن ديانة يسوع المقدسة بشعوذات هؤلاء المتوحشين». أما في نظر فالموران العقلاني والملحد، فكانت أساليب الزنوج تلك من مرتبة صلوات زوجته نفسها، ولم يكن يعارض أياً من الأمرين في البدء. فكان يتسامح بالتجرد نفسه مع طقوس الفودو وصلوات الرهبان الذين يداهمون المزرعة يجتذبهم الروم الفاخر الذي يقطّره. كان الأفارقة يتلقون التعميد بالجملة فور نزولهم في الميناء، مثلما يطالب **قانون السود**، ولكن تواصلهم بالمسيحية لم يكن يتجاوز ذلك وبعض الصلوات السريعة التي يقيمها الكهنة الجوالون. فإذا كان البودو يشكل عزاء لهم، فليس هناك سبب لمنعه، هذا ما كان يراه تولوز فالموران.

ونظراً لتردي إوخينيا المتعاظم، أراد زوجها أخذها إلى كوبا، لعل تغير الجو يخفف عنها، ولكن صهره سانتشو شرح له في رسالة أن سمعة آل فالموران وآل غارثيا دل سولار ستكون في مهب الريح. لا بد من التكتم قبل أي شيء آخر. وسيكون من غير المناسب لصفقات كليهما أن تنتشر الأقاويل عن جنون أخته. وأعرب في أثناء ذلك عن الخجل الذي يشعر به لأنه زوَّجه من امرأة فاقدة الرشد. والحقيقة أنه لم يكن يظن أنها كذلك، لأنه لم تظهر عليها وهي في الدير أية أعراض مثيرة للقلق، وعندما أرسلوها إليه بدت له طبيعية، وإن كانت قليلة النباهة. ولم يتذكر السوابق العائلية. فكيف له أن يتخيل أن كآبة جدته الدينية وهستيريا أمه الهذيانية وراثية. لم يُعر تولوز فالموران أهمية لتحذيرات صهره، وحمل المريضة إلى هافانا وتركها في رعاية الراهبات

طوال ثمانية أشهر. وخلال ذلك الوقت لم تأتِ إوخينيا على ذكر زوجها قط، ولكنها كانت تسأل عن تيتي التي ظلت في سان لازار. وفي سلام الدير وصمته عاودتها الطمأنينة، وحين ذهب زوجها لإحضارها وجدها معافاة وسعيدة. لكن صحتها الجيدة لم تستمر طويلاً في سان دومانغ. وسرعان ما وجدتْ نفسها حبلى، وتكررت مأساة فقدان الجنين، ونجت من الموت مجدداً بفضل تدخل تانت روز.

في الفترات القصيرة التي كانت إوخينيا تبدو فيها معافاة من تشوشها، كان ساكنو البيت يتنفسون الصعداء، بل وعبيد حقول القصب أيضاً، ممن لم يكونوا يلمحونها إلا من بعيد عندما تخرج إلى الهواء الطلق ملتفة بكلة، وتشعر بشيء من التحسن. «أتراني مازلتُ جميلة؟»، كانت تسأل تيتي وهي تتلمس جسدها الذي فقد كل ميل إلى الشهوات. «أجل، إنك جميلة جداً»، تجيبها الفتاة، ولكنها تمنعها من النظر في مرآة الصالون الفينيسية قبل أن تحممها، وتغسل شعرها، وتُلبسها أحد أثوابها الفاخرة، وإن تكن الموضة قد تجاوزته، وتزين خديها بلون قرمزي، ورموشها بأسود فحمي. «أغلقي نوافذ البيت واحرقي أوراق تبغ لإبعاد الحشرات، لأنني سأتناول العشاء مع زوجي»، كانت إوخينيا تأمرها وقد ارتفعت معنوياتها. وبزينتها تلك، تدخل مترددة، بعينين زائغتين ويدين مرتعشتين من الأفيون، إلى قاعة الطعام التي لم تطأها منذ أسابيع. وكان فالموران يستقبلها بمزيج من المفاجأة وعدم الثقة، لأنه لا يستطيع أن يعرف أبداً كيف ستنتهي تلك المصالحات المتباعدة. فبعد كل تلك التفاهات الزوجية اختار أن يتركها جانباً، كما لو أنه لا علاقة له بذلك الشبح المزعج، ولكن عندما تظهر إوخينيا بملابس احتفالية على ضوء الشمعدانات الخادعة، يعاوده الوهم للحظات. لم يعد يحبها، ولكنها زوجته وعليهما أن يظلا معاً حتى الموت. كانت ومضات العودة إلى الوضع الطبيعي تلك تقودهما إلى الفراش، حيث ينقض عليها دون مقدمات، وبتسرع بحار. ولم يكن بمقدور تلك المعانقات توحيدهما أو إعادة إوخينيا إلى ميدان

التعقل، ولكنها تؤدي في بعض الأحيان إلى حَبَل آخر وتتكرر بذلك دورة الأمل والإحباط. في شهر حزيران من تلك السنة عُرف أنها حامل من جديد، ولم يتحمس أحد، وهي أقل من الجميع، للاحتفال بالخبر. وشاءت المصادفة أن تكون هناك حفلة *كاليندا* في الليلة نفسها التي أكدت فيها تانت روز حملها، فهيئ لإوخينيا أن الطبول تعلن عن أنها ستحبل بمسخ. وأن لعنة الفودو قد حلّت على الوليد في بطنها، وأنه سيكون طفلاً **زومبي**، طفلاً ميتاً حياً. ولم تكن ثمة طريقة لتهدئتها، ووصلت قوة هذيانها إلى حدّ انتقال عدواه إلى تيتي التي سألت تانت روز مرتجفة: «وماذا لو كان ذلك صحيحاً؟». فأكدت لها العجوز أنه لم يحدث قط أن ولد أحد «**زومبي**»، لأن الزومبي يُصنع من جثة طازجة، وهي عملية ليست سهلة على الإطلاق، واقترحت إقامة طقوس لداء المخيلة الذي تعاني منه السيدة. انتظرتا إلى أن تغيب فالموران عن البيت، وبادرت تانت روز إلى إعادة السحر الأسود المزعوم إلى الطبول من خلال طقوس معقدة، وأعمال سحرية مختلفة لتحويل الزومبي الصغير إلى طفل طبيعي. «كيف سنعرف أن هذا العمل قد أعطى نتيجة؟»، سألتها إوخينيا أخيرا. فقدمت إليها تانت روز شرابا مقززاً وقالت لها إنها إذا تبولت بولاً أزرق فسيكون كل شيء على ما يرام. وفي اليوم التالي سحبت تيتي المبولة وفيها سائل أزرق بعث بعض الطمأنينة في نفس إوخينيا، لأنها ظنت أنهما وضعتا شيئاً في المبولة. أما الدكتور بارمونتيه الذي لم يخبروه بكلمة واحدة عن تدخل تانت روز، فأمر بإبقاء إوخينيا فالموران في حالة من التهويم والنعاس إلى أن يحين موعد الولادة. وكان في تلك الأثناء قد فقد الأمل بشفائها، وصار يرى أن جو الجزيرة يميتها شيئاً فشيئاً.

مترئسة الطقوس

الإجراء القاسي بإبقاء إوخينيا مخدرة أعطى نتائج أفضل مما كان يأمله الدكتور بارمونتيه نفسه. ففي الشهور التالية انتفخ بطنها بصورة طبيعية، بينما كانت تقضي الوقت مستلقية تحت كلّة على أريكة على الشرفة، متناومة أو ساهية تنظر إلى مرور السحب، متجاهلة تماما المعجزة التي تتحقق في أحشائها. وقد سمعت تيتي سيدها يقول: «سيكون رائعاً لو أنها تبقى هادئة هكذا على الدوام». كانت تتغذى على السكر وعصيدة مركزة من لحم الدجاج والخضروات تطحن معا في هاون حجري، ويمكن لها أن تبعث ميتا إلى الحياة، وهي وجبة اخترعتها الطاهية تانت ماتيلد. كانت تيتي تنجز مهماتها في البيت ثم تستقر على الشرفة لتخيط جهاز الطفل وتغني بصوتها الأبح أناشيد دينية تحب إوخينيا سماعها. وفي بعض الأحيان، بينما هما وحدهما، كان يأتي بروسبير كامبري للزيارة بحجة طلب كأس من الليمونادة، يشربه ببطء شديد وهو جالس وإحدى ساقيه على حاجز الشرفة، ويضرب جزمته بالسوط الملفوف. كانت عينا رئيس مراقبي العمال الحمراوين تتأملان طوال الوقت جسد تيتي.

ـ أتراك تُقدِّر السعر يا كامبري؟ إنها غير معروضة للبيع ـ فاجأه ذات مساء تولوز فالموران بالظهور بغتة على الشرفة.

ـ ما الذي تقوله أيها السيد؟ ـ ردّ عليه الخلاسي بنبرة متحدية، دون أن يغير من وضعه.

استدعاه فالموران بإيماءة ولحق به الآخر مستاء إلى المكتب. لم تعرف تيتي ما الذي تحدثا فيه؛ ولكن سيدها أخبرها أنه لا يريد لأحد أن يجول في البيت دون إذن منه، بمن في ذلك رئيس مراقبي العمال. لم يتبدل سلوك كامبري بعد ذلك اللقاء على الانفراد مع المالك، وكان

احتياطه الوحيد قبل الاقتراب من الشرفة وطلب مرطب وتعرية تيتي بعينيه، هو التأكد من أن المالك غير قريب من المكان. كان قد تخلى عن احترامه لفالموران منذ زمن، ولكنه لا يتجرأ على التمادي كثيراً، لأنه مازال يطمع في أن يعيّنه وكيلاً عاماً.

مع مجيء شهر كانون الأول، دعا فالموران الدكتور بارمونتيه ليقيم في المزرعة طوال الوقت المتبقي لموعد وضع إوخينيا مولودها، لأنه لا يريد ترك المسألة بين يدي تانت روز. فقال له الطبيب: «إنها تعرف أكثر مني في هذا الشأن»، ولكنه وافق على الدعوة لأنها توفر له وقتاً للراحة والقراءة، وتدوين وسائل علاج جديدة من التي تستخدمها المداوية لضمها إلى كتابة. كانوا يستعينون في المزارع الأخرى بتانت روز لتعالج العبيد والبهائم على السواء، وتقاوم الالتهابات، وتخيط الجروح، وتخفف الحميات وآثار الحوادث، وتساعد في عمليات الولادة، وتحاول إنقاذ حياة الزنوج المعاقبين. كانوا يسمحون لها بالذهاب بعيداً للبحث عن أعشابها ونباتاتها، واعتادوا أخذها إلى لوكاب لتشتري موادها، حيث يقدمون لها بعض القطع النقدية يتركونها، ثم يأتون لأخذها بعد يومين. لقد كانت *المامبو*، أي مترئسة حفلات *الكاليندا* التي يتوافد إليها زنوج من مزارع أخرى، ولم يكن فالموران يعارض تلك الحفلات، على الرغم من أن رئيس مراقبي عماله قد نبهه إلى أنها تنتهي بمجون جنس جماعي أو بعشرات الممسوسين المتدحرجين على الأرض بعيون بيضاء. «لا تكن شديد الصرامة يا كامبري، دعهم يفرجون عن أنفسهم، فهكذا يرجعون إلى العمل وهم أكثر وداعة»، أجابه المالك بمزاج رائق. كانت تانت روز تختفي طوال أيام وعندما يقول رئيس رؤساء مراقبي العمال إن المرأة قد هربت إلى الآبقين أو إنها عبرت النهر إلى الأراضي الإسبانية، تعود وهي تعرج، منهوكة القوى وحاملة كيساً ممتلئاً بالأعشاب. كانت تانت روز وتيتي تفلتان من سلطة كامبري، لأنه يخشى أن تحوله الأولى إلى زامبي، ولأن الثانية هي عبدة السيدة الخاصة، ولا يُستغنى عنها في البيت الكبير. «لا أحد يراقبك يا

عرابتي، فلماذا لا تهربين؟» سألتها تيتي ذات مرة. فأجابت المداوية: «كيف سأركض بساقي المريضة؟ وماذا سيحل بالناس الذين يحتاجون إلى رِعايتي؟ ثم إنه لا فائدة ترجى من أن أكون حرة ويبقى الآخرون عبيداً». لم يكن ذلك قد خطر لبال تيتي، وقد ظل يجول في ذهنها مثل طنين. لقد عادت مرات كثيرة إلى التحدث مع عرابتها في الأمر، ولكنها لم تستطع قطّ تقبل فكرة أن حريتها مرتبطة بالضرورة بحرية جميع العبيد الآخرين. وإذا ما توفرت لها فرصة للهرب فإنها ستهرب دون أن تفكر فيمن سيبقون وراءها، وهذا أمر متأكدة منه. كانت تانت روز تدعوها إلى كوخها بعد عودتها من جولاتها، وتعكفان على إعداد الأدوية التي تتطلب مواد طازجة من الطبيعة، بتحضير دقيق وطقوس مناسبة. وكان كامبري يقول إن ما تفعله المرأتان مجرد، وأنه لا وجود لما لا يمكنه حلّه بعقوبة جلد جيدة. ولكنه لم يكن يجرؤ على المس بهما.

ذات يوم، وبعد أن أمضى الدكتور بارمونتيه أشد ساعات القيظ غارقاً في خدر القيلولة، ذهب لزيارة تانت روز وفي نيته التحري عما إذا كان هناك علاج للدغة أم أربع وأربعين. ولأن إوخينيا كانت هادئة وتراقبها ممرضة، فقد طلب من تيتي أن ترافقه. وجدا المداوية جالسة على كرسي خيزران أمام باب كوخها المخلخلٍ بعد العواصف الأخيرة، تدندن بلغة أفريقية بينما هي تنزع أوراقاً عن غصن يابس وتضعها على خرقة قماشية. كانت مستغرقة في عملها حتى إنها لم ترهما إلا بعد أن صارا أمامها. حاولت النهوض، لكن بارمونتيه أبقاها جالسه بحركة منه. مسح الدكتور العرق عن جبهته ورقبته بمنديل، وعرضت عليه المداوية تناول ماء من كوخها. كان الكوخ أوسع مما يبدوٍ عليه ٍمن الخارج وحسنٍ الترتيب، كل شيء في مكانه. وكان معتماً وبارداً. وبدا الأثاث رائعاً بالمقارنة مع ما لدى عبيد آخرين: منضدة من ألواح خشبية، وخزانة هولندية مخلعة الأصداف، وصندوق صفيح صدئ، وعدة علب وفرها لها فالموران لتحفظ فيها أدويتها، ومجموعة قدور فخارية مخصصة لغلي الأعشاب. وكومة من الأوراق الجافة

مغطاة بقطعة قماش ذات مربعات، وبطانية رقيقة تستخدم كفراش. وكانت تتدلى من سقف السعف أغصان، وباقات أعشاب، وزواحف متيبسة، ورياش، ومسابح، وبذور، وأصداف، وأشياء أخرى ضرورية لعلمها. شرب الدكتور رشفتي ماء بقرعة مجوفة، وانتظر نحو دقيقتين ليسترد أنفاسه، وعندما أحس بالراحة اقترب لتفحص المذبح، حيث توجد قرابين من أزهار ورقية، وقطع من البطاطا الحلوة، وكشتبانٍ فيه ماء وتبغ *للوات*. كان يعرف أن الصليب الموجود ليس مسيحياً، وإنما يمثل مفترق الطرق، ولكن الشكوك لم تخامره في أن تمثال الجص المطلي هو لمريم العذراء. وقد أوضحت له تيتي أنها هي نفسها من قدمت التمثال لعرابتها، وهو هدية من السيد المالك. وأضافت: «ولكنني أفضّل **إرزولي**، وعرابتي أيضاً». قام الطبيب بمحاولة إمساك *آسون* طقوس فودو المقدس، وهو عبارة عن قرعة رُسمت عليها رموز، مثبتة على عصا، ومزينة بخرز ومملوءة بعظام صغيرة من ميت حديث الولادة، ولكنه كبح نفسه في الوقت المناسب. فلا أحد يمكنه لمسها دون إذن من صاحبتها. وعلق: «هذا يؤكد ما سمعتُه: تانت روز كاهنة، إنها *مامبو*». لأن *الآسون* يكون عادة بحوزة *الهونغان* (الكاهن)، غير أنه لم يكن *هونغان* في سان لازار، وتانت روز هي من تتولى قيادة الطقوس الاحتفالية. شرب الطبيب مزيداً من الماء، وبلل منديله وعقده حول رقبته قبل أن يخرج مرة أخرى إلى الحر. لم ترفع تانت روز بصرها عن عملها الدقيق، ولم تقدم لهما ما يجلسان عليه أيضاً، لأنه لا يوجد لديها سوى كرسي واحد. كان من الصعب تقدير سنها، فوجهها يبدو وجه شابة، ولكن جسمها منهوك. ذراعاها نحيلان وقويان، وثدياها يتهدلان كثمرتي بابايا تحت ثوبها، وبشرتها شديدة القتامة، وأنفها مستقيم وعريض عند أصله، وشفتاها مرسومتين جيداً، ونظرتها حادة. كانت تغطي رأسها بمنديل تتبدى تحته غزارة شعرها الذي لم تقصه قطّ والمقسم إلى لفافات خشنة ومشدود بعضها إلى بعضها كحبال ليفية. لقد مرّت عربة على إحدى ساقيها

وهي في الرابعة عشرة من عمرها وأحدثت فيها عدة كسور جُبرت بصورة سيئة، ولهذا تمشي بمشقة مستندة إلى عكاز نحته لها أحد العبيد عربون امتنان. وترى المرأة أن الحادث كان ضربة حظ لها، لأنه حررها من العمل في حقول القصب. وكان يمكن لأي عبدة مصابة أخرى أن تنتهي إلى العمل في تحريك عصير القصب الذي يغلي أو غسل ملابس في النهر، ولكنها كانت الاستثناء، لأن *اللوات* اختاروها منذ صباها لتكون *مامبو*. لم يكن بارمونتيه قد رآها قط وهي تمارس الطقوس، ولكنه يستطيع تخيلها في غيبوبة التحول تلك. ففي البودو يمارس الجميع الطقوس على قدم المساواة ويتوصلون إلى الإلوهية حين يركبهم ***اللوات***، ودور ***الهونغان*** أو ***المامبو*** يتلخص فقط في التهيئة من أجل الطقوس. كان فالموران قد أعرب للدكتور بارمونتيه عن شكوكه في أن تانت روز مشعوذة تستغل جهل مرضاها. فرد عليه الطبيب: «النتائج هي المهمة. وهي تصيب في وسائلها أكثر مني في وسائلي».

كانت تصلهم من الحقول أصوات العبيد الذين يقطعون القصب، جميعهم في إيقاع واحد. وكان عمل العبيد يبدأ قبل الفجر، لأن عليهم البحث عن علف للبهائم وحطب للمواقد، وبعد ذلك يعملون منذ شروق الشمس حتى مغيبها، مع استراحة ساعتين في الظهيرة، عندما تصبح السماء بيضاء والأرض تتعرق. وقد حاول كامبري إلغاء هذه الاستراحة التي أقرها **القانون الأسود** ورفضها معظم أصحاب المزارع، غير أن فالموران اعتبرها ضرورية. كما أنه كان يمنحهم يوم عطلة في الأسبوع كي يزرعوا خضرواتهم، ويوفر لهم شيئاً من القوت، وهو غير كافٍ بأي حال، ولكنه أفضل مما في مزارع أخرى، حيث ينطلقون من قاعدة أنه على العبيد تأمين قوتهم مما يزرعونه في قطعة الأرض المخصصة لهم. لقد سمعت تيتي كلاماً عن إصلاحات في **القانون الأسود**: ثلاثة أيام عطلة في الأسبوع وإلغاء السوط، ولكنها سمعت كذلك أن أياً من المستوطنين لم يحترم ذلك القانون، فحتى لو وافق الملك على القانون، من الذي يرضى أن يعمل لغيره دون سوط؟ لم

يكن الدكتور يفهم كلمات أغنية العمال. لقد أمضى سنوات في الجزيرة، وقد اعتاد على سماع *كريولي* المدينة، وهي لهجة متفرعة عن الفرنسية، متقطعة وذات إيقاع أفريقي، أما *كريولي* مزارع القصب فتبدو له غير مفهومة، لأن العبيد حوّلوها إلى لغة رموز لاستبعاد البيض عن فهمها، ولهذا كان يحتاج إلى تيتي كمترجمة. انحنى ليتفحص الأوراق التي تنتزعها تانت روز، وسألها «بماذا تنفع؟». فشرحت له بأن أوراق *الكولانت* تفيد ضد طبول الصدر، وضجيج الرأس، وإرهاق الغروب، والقنوط. «هل تفيدني أنا، فقلبي يخونني؟» قال. فأجابته: «أجل تفيدك، لأن *الكولانت* يوقف الضراط أيضا»، وانفجر الثلاثة في الضحك. وفي تلك اللحظة سمعوا وقع عدو حصانٍ يقترب. إنه أحد *الكومندورات*، وقد جاء في طلب تانت روز لأن حادثاً وقع في معصرة القصب. «سرافين دست يدها حيث ما كان عليها أن تفعل»، صاح من فوق مطيته وانطلق عائداً على الفور، دون أن يأخذ المداوية معه. فلفت أوراقها في الخرقة وأدخلتها إلى الكوخ، ثم حملت حقيبتها الجاهزة دائماً، وانطلقت بأسرع ما تستطيع، ولحقت بها تيتي ومعها الطبيب.

تجاوزوا خلال الطريق عدة عربات تتقدم ببطءٍ حركة الجواميس التي تجرها، وكانت العربات محملة بجبال من القصب المقطوع للتو والذي لا يمكن إبقاؤه أكثر من يومين من أجل عصره. وعند اقترابهم من الأبنية الخشبية، حيث المعصرة، التصقت بجلودهم رائحة الدبس الكثيفة. وكان العبيد على جانبي الدرب يعملون بالسكاكين ومناجل الماتشيتي تحت حراسة *الكومندورات*. وعند أدنى تهاون من مراقبي العمال يعيدهم كامبري إلى قطع القصب ويستبدلهم بآخرين. ومن أجل تعزيز عبيده، استأجر فالموران فريقي عمل من عبيد جاره لاكروا، وقد كان مصيرهم أسوأ، لأن كامبري لا يهمه كم سيعيشون. وكان عدد من الأطفال يجولون بين صفوف العمال لتوزيع الماء في دلاء ومغارف. زنوج كثيرون كانوا مجرد عظام معروقة، الرجال منهم لا يلبسون سوى سروال قصير

وقبعة من القش، والنساء بثوب طويل ومنديل على الرأس. الأمهات يقطعن القصب منحنيات وأطفالهن على ظهورهن. ويمنحونهن دقائق معدودة لإرضاعهم خلال الشهرين الأولين، وبعد ذلك يتوجب ترك الصغار في عنبر خاص برعاية امرأة عجوز وأطفال أكبر سناً يعتنون بهم كيفما يستطيعون. كثيرون منهم يموتون بالكزاز، أو يصيبهم الشلل وتتصلب فكوكهم. هذا سر غامض آخر من أسرار الجزيرة، لأن البيض لا يعانون من هذا الداء. ولم يكن السادة المالكون يرتابون في أنه يمكن التسبب في تلك الأعراض دون ترك أي أثر بغرس إبرة في قمة جمجمة الطفل الطرية، قبل أن تلتحم العظام، وهكذا يذهب الطفل سعيداً إلى الجزيرة تحت البحر دون أن يعاني العبودية. كان من النادر رؤية زنوج لهم شعر رمادي مثل تانت ماتيلد، الطاهية في سان لازار، والتي لم تعمل قطّ في الحقول. وعندما اشترتها فيوليت بواسيير لتقدمها إلى فالموران كانت قد تقدمت في السن، ولكن السن لا تؤخذ بالاعتبار في مثل حالتها، وإنما الخبرة، وكانت قد خدمت في مطبخ خلاسي حر وثري في لوكاب، وهو خلاسي تعلم في فرنسا ويتحكم بتصدير النيلة.

وجدوا في معصرة القصب شابة ملقاة على الأرض وسط سحابة من الذباب وضجة الآلات التي تحركها بغال. كانت عمليات التصنيع حساسة، وتوكل إلى أكثر العبيد مهارة، إذ عليهم أن يحددوا بدقة كمية الكلس المستخدمة، وكم يجب أن يغلي الرحيق من أجل الحصول على سكر جيد النوعية. وفي المعصرة كانت تقع أسوأ الحوادث، وفي هذه الحالة كانت الضحية سرافين مغطاة بالدم إلى حدّ ظن معه بارمونتيه أن شيئاً قد تمزق في صدرها، ولكنه رأى بعد ذلك أن الدم يقطر من بقية من ذراعها تشده فوق بطنها المكور. وبحركة سريعة نزعت تانت روز المنديل عن رأسها وربطته فوق مرفق المصابة وهي تردد ابتهالات. سقط رأس سرافين على ركبتي الدكتور وتحركت تانت روز لتوسدها على حضنها، ثم فتحت فمها وسكبت فيه دفقة سائل قاتم من قارورة صغيرة أخرجتها من حقيبتها. «إنه بعض الدبس فقط، من أجل إنعاشها»، قالت للطبيب،

بالرغم من أنه لم يسألها. وأوضح أحد العبيد أن الفتاة كانت تدفع قصباً في المهرسة، وسهت للحظة، فأمسكت التروس المسننة بيدها. وقد نبهته صرخاتها وتمكن من إيقاف البغال قبل أن تسحب الآلة ذراعها كله حتى الكتف. ومن أجل إفلاتها اضطر إلى بتريدها بالفأس التي يستبقيها معلقة بخطاف من أجل مثل هذه الحالات. «يجب وقف الدم. وسوف تعيش إذا لم يلتهب الجرح» قال الدكتور، وأمر العبد بأن يذهب إلى البيت الكبير ويحضر له حقيبته. تردد الرجل لأنه لا يتلقى أوامر إلا من *الكومندور*، ولكنه بعد كلمة من تانت روز خرج راكضاً. كانت سرافين قد فتحت عينيها قليلاً وبدأت تقول شيئاً من بين أسنانها لا يكاد الدكتور يسمعه. انحنت تانت روز نحوها كي تسمع ما تقوله، ثم ردّت عليها بصوت هامس: «لا أستطيع يا صغيرتي، الأبيض موجود هنا، لا أستطيع». حمل عبدان سرافين ونقلاها إلى براكة خشبية، حيث مددوها على طاولة خشبية خشنة. أخرجت تيتي من هناك دجاجات وخنزير كان يشم بين القمامة على الأرض، بينما الرجال يثبتون سرافين، والمداوية تغسلها بماء من دلو. «لا يمكنني يا صغيرتي، لا يمكنني»، كانت تكرر لها بين لحظة وأخرى في أذنها. أحضر رجل آخر بعض الجمار المتوقدة من المعصرة. ولحسن الحظ أن سرافين غابت عن الوعي عندما بادرت تانت روز إلى كيّ مكان البتر. لاحظ الدكتور أنها حامل في الشهر السادس أو السابع، وفكر في أنها ستجهض بالتأكيد بعد فقدانها كل تلك الدماء.

وفي أثناء ذلك ظهرت عند عتبة العنبر هيئة فارس، فسارع أحد العبيد إلى إمساك الأعنة وقفز الرجل إلى الأرض. إنه بروسبير كامبري، يحمل مسدساً في حزامه وسوطه في يده، يرتدي بنطالاً قاتماً وقميصاً من قماش عادي، ولكنه ينتعل جزمة من الجلد وقبعة أمريكية جيدة الصناعة، مماثلة تماماً لقبعة فالموران. ولانبهاره بالضوء الذي في الخارج، لم يتعرف على الدكتور بارمونتيه. «ما هذه الضجة؟»، سأل بصوته الناعم، لكنه بدا متوعداً وهو يضرب جزمته بالسوط، مثلما يفعل عادة. ابتعد الجميع كي يرى بنفسه، عندئذ تبين وجود الدكتور،

فتبدلت نبرة صوته.

ـ لا تزعج نفسك بهذه الحماقة يا دكتور. تانت روز ستتكفل بكل شيء. اسمح لي أن أرافقك إلى البيت الكبير. أين هو حصانك؟ ـ سأله بلطف.

ـ احملوا هذه الشابة إلى كوخ تانت روز كي تعتني بها. إنها حبلى ـ ردّ الدكتور.

ـ ليس هذا بالأمر الجديد علينا ـ قال كامبري ضاحكاً.

ـ إذا ما أصيب الجرح بالغرغرينا سنضطر إلى بتر الذراع كله ـ أصر بارمونتيه وقد احمر من الغضب ـ. أكرر أنه لا بد من نقلها فوراً إلى كوخ تانت روز.

ـ ولكن المستشفى موجود من أجل هذه الأمور يا دكتور ـ أجابه كامبري.

ـ هذا ليس مستشفى بل إسطبل قذر!

جال رئيس رؤساء العمال على العنبر بنظرة مستغربة كما لو أنه يراه أول مرة.

ـ ليس هناك ما يستحق الاهتمام بهذه المرأة يا دكتور، فهي لم تعد تنفع على أي حال في صنع السكر وسيكون عليّ أن أشغلها في شيء آخر...

ـ لم تفهمني يا كامبري ـ قاطعه الطبيب بتحد ـ. أتريدني أن ألجأ إلى المسيو فالموران لحلّ هذا الأمر؟

لم تتجرأ تيتي على النظر إلى وجه رئيس رؤساء العمال، فهي لم تسمع أحداً يكلمه بهذه النبرة، ولا حتى السيد نفسه، وخشيت أن يرفع قبضته ضد الأبيض، ولكنه عندما تكلم جاء صوته ذليلاً، كأنه صوت خادم.

ـ معك حق يا دكتور. إذا أنقذتها تانت روز، فسيكون لدينا الوليد على الأقل ـ قرر وهو يلمس بذراع السوط بطن سرافين الملطخ بالدم.

كائن غير بشري

حديقة سان لازار التي ظهرت كفكرة محفزة من فالموران بعد زواجه بقليل، تحولت مع مرور السنوات إلى مشروع يتمتع بأفضلية. صممها باستنساخ رسوم من كتب عن قصور لويس الرابع عشر، ولكن أزهار أوروبا لا تتفتح في الأنتيل، فاضطر إلى التعاقد مع متخصص بالنباتات من كوبا، صديق لسانتشو غارثيا دل سولار، كي يساعده. فصارت الحديقة وافرة ومتعددة الألوان، وكان لابد من حمايتها من قسوة المناخ المداري بالاستعانة بثلاثة عبيد لا يكلون، عليهم أن يعنوا كذلك بأزهار الأركيدا المزروعة في الظل. كانت تيتي تخرج كل يوم، قبل اشتداد الحر، لتقطف باقات أزهار للبيت. وفي ذلك الصباح، كان فالموران يتمشى مع الدكتور بارمونتيه في ممر الحديقة الضيق الذي يفصل بين البقع الهندسية حيث تتوزع الأشجار والأزهار، ويشرح له أنه بعد إعصار العام الفائت اضطر إلى زرع كل شيء من جديد، ولكن عقل الطبيب كان يهيم في مكان آخر. لم يكن بارمونتيه يتمتع بعين فنية تقدر نباتات الزينة، ويعتبرها تبذيراً من الطبيعة. فهو يهتم أكثر بالشجرات القبيحة في بستان تانت روز، لأن لها القدرة على الشفاء أو القتل. كما كانت تدهشه تعاويذ المداوية التي تأكد من فعاليتها على العبيد. واعترف لفالموران بأنه أحس أكثر من مرة بإغواء علاج أحد المرضى بأساليب السحرة الزنوج، ولكن براغماتيته الفرنسية والخوف من أن يبدو مضحكاً منعته من ذلك.

ـ إنها شعوذات لا تستحق اهتمام عالم مثلك يا دكتور ـ قال فالموران ساخراً.

ـ لقد رأيت حالات علاج عجيبة يا صديقي، مثلما رأيت أناساً يموتون دون أي سبب، اللهم إلا اعتقادهم بأنهم ضحايا سحر أسود.

ـ الأفارقة كثيرو الوساوس.
ـ البيض أيضاً. ودون الذهاب بعيداً، لدينا حالة زوجتك...
ـ هناك فرق أساسي بين زنجي وزوجتي، مهما بدت متوعكة يا دكتور! ولا أظنك تعتقد أن الزنوج مثلنا، أليس كذلك؟ ـ قاطعه فالموران.
ـ من الناحية البيولوجية، هناك أدلة جلية على أنهم مثلنا.
ـ يبدو أنك قليل التعامل معهم. فالزنوج يتمتعون ببنية مناسبة للأعمال الشاقة، إحساسهم بالألم والتعب أقل، ودماغهم محدود، وهم غير قادرين على التمييز، كما أنهم عنيفون وفوضويون وكسالى، ولا طموح أو مشاعر نبيلة.
ـ يمكن قول الشيء نفسه عن أبيض مخبول بالعبودية يا مسيو.
ـ يا للتعلل السخيف ـ ابتسم الآخر بازدراء ـ. العبيد يحتاجون لقبضة حازمة. ولاحظ أنني أقول حزم وليس همجية.
ـ لا وجود لمصطلحات وسطية في هذا الشأن. فعند تقبل مفهوم العبودية، تصبح المعاملة شيئاً ثانوياً ـ دحض الدكتور قوله.
ـ لستُ متفقاً معك. فالعبودية شر لا بد منه، إنها الطريقة الوحيدة لإدارة مزرعة، غير أنه يمكن عمل ذلك بطريقة إنسانية.
ـ لا يمكن أن يكون امتلاك شخص واستغلاله عملاً إنسانياً ـ ردّ بارمونتيه.
ـ ألم تمتلك عبداً قطّ يا دكتور؟
ـ لا. ولن أملكه في المستقبل أيضاً.
ـ أهنئك. فأنت محظوظ بعدم كونك مالك مزارع ـ قال فالموران ـ. العبودية لا تروقني، أؤكد لك، وأقل من ذلك يروقني العيش هنا، ولكن لا بد لأحد من إدارة المستعمرات كي تتمكن حضرتك من تحلية القهوة وتدخين سيجار. إنهم يستفيدون في فرنسا من منتجاتنا، ولكن لا أحد يريد أن يعرف كيفية الحصول عليها. إنني أفضل نزاهة الإنكليز والأمريكيين الذين يتقبلون العبودية بحس عملي ـ اختتم فالموران.
ـ في إنكلترا والولايات المتحدة يوجد أيضاً من يطرحون مسألة

العبودية بجدية ويمتنعون عن استهلاك منتجات الجزر، لاسيما السكر ـ ذكّره بارمونتيه.

ـ هؤلاء عددهم ضئيل يا دكتور. فقد قرأت للتو في مجلة علمية أن الزنوج ينتمون إلى جنس مختلف عنا.

ـ وكيف يفسر الكاتب أن جنسين مختلفين يمكن لهما التزاوج والإنجاب؟ ـ سأله الطبيب.

ـ عند مصالبة حصان وأتان يتم الحصول على بغلة، وأحدهما ليس من جنس الآخر. ومن تزاوج البيض والزنوج يولد خلاسيون ـ قال فالموران.

ـ ولكن البغال لا تستطيع التكاثر يا مسيو، بينما يستطيع الخلاسيون ذلك. قل لي، هل سيعتبر ابنا تنجبه من عبدةٍ إنساناً؟ أتكون له روح فانية؟

أدار له فالموران ظهره غاضباً وتوجه إلى البيت. ولم يعودا للقاء حتى الليل. ارتدى بارمونتيه ملابسه من أجل العشاء وحضر إلى الصالة بوجع رأسه اللجوج الذي يعذبه منذ مجيئه إلى المزرعة، قبل ثلاثة عشر يوماً. لقد كان يعاني من الصداع والإنهاك، ويقول إن جسده لا يتحمل مناخ الجزيرة؛ ومع ذلك لم يُصب بعدوى أي من الأمراض التي تعصف ببيض آخرين. كانت أجواء سان لازار تثقل عليه، والجدال مع فالموران خلّفه معكر المزاج. كان يرغب في العودة إلى لوكاب، حيث ينتظره مرضى آخرون وسلوى آديل الحلوة، ولكنه التزم برعاية إوخينيا ويفكر في الوفاء بكلمته. لقد فحصها في صباح ذلك اليوم بالذات، وقدر أن الولادة ستكون قريبة جداً. كان مضيفه ينتظره واستقبله باسماً، كما لو أن المشادة المؤسفة في الظهيرة لم تحدث قطّ. وخلال تناول الطعام تحدثا عن الكتب وعن سياسة أوروبا التي تصير كل يوم عصية أكثر على الفهم، وكانا متفقين على أنه كان للثورة الأمريكية عام ١٧٧٦ تأثير كبير في فرنسا، حيث صارت بعض الجماعات تهاجم النظام الملكي بمصطلحات قوية كتلك المستخدمة في إعلان الاستقلال الأمريكي. لم يخف بارمونتيه إعجابه بالولايات

المتحدة وكان فالموران يشاطره ذلك الإعجاب، وإن كان يراهن على أن إنكلترا ستستعيد سيطرتها على مستعمرتها الأمريكية بالبارود والدم، مثلما تفعل أي إمبراطورية كي تبقى إمبراطورية. وماذا لو استقلت سان دومانغ عن فرنسا مثلما استقل الأمريكيون عن إنكلترا؟ راهن فالموران موضحاً على الفور أنه سؤال كلامي، وليس بأي حال دعوة إلى التمرد. وتحدثا كذلك عن حادث معصرة القصب، وأكد الطبيب أنه يمكن تجنب الحوادث لو أن ورديات العمل أقصر زمناً، لأن العمل البهيمي لعمال هرس القصب وحرارة مراجل الغلي تشوش الذهن. وقال إنه تم وقف نزيف سرافين وإنه مازال من المبكر تلمس إشارات التهاب، غير أنها فقدت الكثير من الدم، وكانت مشوشة وضعيفة جداً لا تأتي بأي ردّ فعل، ولكنه امتنع عن أن يضيف بأنه متأكد من تانت روز تبقيها نائمة بأشربتها. فهو لا يفكر في العودة إلى موضوع العبودية الذي أزعج مضيفه كثيراً، ولكن بعد انتهاء العشاء، عندما جلسا على الشرفة للاستمتاع ببرودة الليل، مع كأس كونياك وسيجار، كان فالموران هو من جاء على ذكر الموضوع.

ـ اعذرني على فظاظتي صباحاً يا دكتور. أخشى أنني فقدت في هذه العزلات عادات التحاور الحميدة. لم أشأ إغضابك.

ـ لم تغضبني يا مسيو.

ـ لن تصدقني يا دكتور، ولكنني قبل المجيء إلى هنا كنتُ من المعجبين بفولتير وديدرو وروسو ـ قال له فالموران.

ـ ولم تعد كذلك الآن؟

ـ إنني أضع الآن تأملات أولئك الإنسانيين موضع الشك. لقد صلبتني الحياة في هذه الجزيرة، أو لنقل إنها جعلتني واقعياً. لا يمكنني تقبل أن يكون الزنوج بشرا مثلنا، وإن كانوا يمتلكون الذكاء والروح. العرق الأبيض هو الذي أبدع حضارتنا. وأفريقيا قارة قاتمة وبدائية.

ـ هل كنتَ هناك يا مسيو؟

ـ لا.

ـ أنا كنت هناك. أمضيت سنتين متنقلاً من مكان إلى آخر في أفريقيا، ـ قال الدكتور ـ. إنهم لا يعرفون في أوروبا إلا القليل عن تلك الأراضي الشاسعة والمتنوعة. في أفريقيا وُجدت حضارة معقدة عندما كان الأوروبيون يعيشون في مغاور مغطاة بالحجارة. إني أتفقٍ معك على تفوق العرق الأبيض بطريقة ما: إننا أكثر عدوانية وجشعا. وهذا يفسر قوتنا وتمدد إمبراطورياتنا.

ـ قبل زمن طويل جداً منٍ وصول الأوروبيين إلى أفريقيا، كان الزنوج يستعبدون بعضهم بعضاً ومازالواٍ يفعلون ذلك ـ قال فالموران.

ـ مثلما يستعبد البيضٍ بعضهم بعضا يا مسيو ـ فند الطبيب قوله ـ. ليس جميع الزنوج عبيداً ولا جميع العبيد زنوجاً. أفريقيا قارة بشر أحرار. هناك ملايين الأفارقة الخاضعين للعبودية، ولكن هناك أحرار أكثر بكثيرٍ. ليست العبودية قدرهم المحتوم، مثلما أن ملايين البيض ليسوا عبيداً كذلك.

ـ أتفهم مقتك للعبودية يا دكتور ـ قال فالموران ـ. أنا أيضاً تجتذبني فكرة استبدالها بنظام آخر للعمل، ولكنني أخشى أنه لا وجود لنظام عمل آخر في بعض الشؤون، مثل مزارع القصب. إن اقتصاد العالم يرتكز على العبودية، ولا سبيل إلى إلغائه.

ـ ربما لا يمكن إلغاوه بين ليلة وضحاها، ولكن يمكن عمل ذلك بصورة متدرجة. في سان دومانغ يحدث العكس، فعدد العبيد هنا يزداد كل عام. هل تتصور ما الذي سيحدث إذا ما انتفضوا؟ ـ سأل بارمونتيه.

ـ حضرتك متشائم ـ علق الآخر وهو يرتشف بقية كأسه.

ـ وكيف يمكنني ألا أكون كذلك؟ إنني منذ زمن طويل في سان دومانغ يا مسيو، ولكي أكون صريحاً معك: لقد ضجرت. رأيتُ فظائع. ودن الذهاب بعيداً، لقد كنتُ قبل وقت قصير في مزرعة لاكروا، حيث انتحر في الشهور الأخيرة عدد من العبيد. اثنان منهم ألقيا بنفسيهما في مراجل الدبس التي تغلي، إلى أي حد وصل بهم اليأس.

ـ لا شيء يستبقيك هنا يا دكتور. فبشهادتك الملكية تستطيع ممارسة

علمك أينما ترغب.

ـ أعتقد أنني سأذهب ذات يوم ـ أجاب الطبيب مفكراً في أنه لا يستطيع ذكر السبب الوحيد لبقائه في الجزيرة: آديل والأطفال.

ـ وأنا أيضاً أرغب في الانتقال بأسرتي إلى باريس ـ أضاف فالموران، ولكنه يعرف أنه احتمال بعيد. ففرنسا في أزمة. وقد دعا المدير العام للمالية في تلك السنة إلى جمعية أعيان لإجبار النبلاء والأكليروس على دفع ضرائب والمشاركة في تحمل العبء الاقتصادي، ولكن مبادرته وقعت على آذان صماء. ومن بعيد، كان فالموران قادرا على رؤية كيف أن النظام السياسي الفرنسي آخذ بالانهيار. لم يكن الوقت مناسباً للعودة إلى فرنسا ولا يمكنه كذلك ترك المزرعة بين يدي بروسبير كامبري. إنه لا يثق به، ولكنه لن يطرده لأنه أمضى سنوات طويلة في خدمته واستبداله سيكون أسوأ من تحمله. أما الحقيقة التي لم يشأ الاعتراف بها قطّ، هي أنه يخافه.

شرب الدكتور أيضاً ما تبقى في كأسه من كونياك مستمتعاً بالتنميل في حلقه والوهم بالرفاه الذي داهمه للحظات قصيرة. كان صدغاه ينبضان وتركز الألم في محجري عينيه. فكر في كلمات سرافين التي تمكن من سماعها في معصرة القصب طالبة من تانت روز أن تساعدها على الذهاب مع طفلها الذي لم يولد بعد إلى مكان الموتى والأسرار، لتعود من هناك إلى غينيا. «لا يمكنني يا صغيرتي.» وتساءل عما كانت ستفعله المرأة لو لم يكن موجودا. ربما كانت ستساعدها، ولو جازفت بانكشاف أمرها ودفع الثمن غالياً. هناك طرق متكتمة لعمل ذلك، فكر الدكتور وهو متعب جداً.

ـ اعذرني على إلحاحي على ما تحدثنا فيه صباحاً يا مسيو. امرأتك تعتقد أنها ضحية الفودو، تقول إن العبيد قد سحروها. وأنا أظن أنه يمكننا استخدام هذا الوسواس لمصلحتها.

ـ لست أفهمك ـ قال فالموران.

ـ يمكننا إقناعها بأن تانت روز قادرة على قلب السحر الأسود. ولن

نخسر شيئاً بذلك.

ـ سأفكر في الأمر يا دكتور. بعد أن تضع إوخينيا الوليد سنهتم بمسألة أعصابها ـ أجاب فالموران متنهداً.

في تلك اللحظة مرّ شبح تيتي في الفناء، مضاء بنور القمر والمشاعل التي تبقى مشتعلة في الليل من أجل الحراسة. لاحقتها نظرات الرجلين. واستدعاها فالموران بصفير، وبعد لحظات حضرت إلى الشرفة برشاقة هر وخفته. كانت تلبس تنورة تخلت عنها سيدتها، حائلة اللون ومرقعة، ولكنها جيدة الصنعة، وعمامة متقنة فيها عدة عقد تضيف شبرا إلى طول قامتها. كانت شابة رشيقة، لها وجنتان بارزتان، وعينان متطاولتان بأهداب ناعسة وحدقتين ذهبيتين، وفيها ظرافة طبيعية وحركات دقيقة وسيالة. تشع طاقة جبارة أحسها الدكتور في جلدها. وخمن أنه تحت مظهرها المتجهم تختفي الطاقة المكبوحة لحيوان سنوري كامن. أشار فالموران إلى الكأس، فذهبت هي إلى صوان قاعة الطعام ورجعت حاملة زجاجة الكونياك وسكبت لكليهما.

ـ كيف حال المدام؟ ـ سألها فالموران.

ـ إنها هادئة يا سيدي ـ أجابت وهي تتراجع لتنسحب.

ـ انتظري يا تيتي. فلنر إن كنت تساعديننا في حل معضلة. الدكتور بارمونتيه يؤكد أن الزنوج بشر كاملين مثل البيض وأنا أقول العكس. ما رأيكِ أنت؟ ـ سألها فالموران بنبرة بدت للدكتور أبوية أكثر منها تهكمية.

ظلت الفتاة صامتة تنظر إلى الأرض ويداها مضمومتان.

ـ هيا يا تيتي، أجيبي دون خوف. إنني أنتظر...

ـ السيد على حق دائماً ـ تمتمت أخيرا.

ـ هذا يعني أنكِ ترين أن الزنوج ليسوا بشراً تماماً...

ـ الكائن غير البشري لا رأي له يا سيدي.

لم يستطع الدكتور بارمونتيه كبح قهقهة تلقائية، وضحك تولوز فالموران أيضا، بعد لحظة من التردد. وبإيماءة من يده صرف العبدة التي اختفت في العتمة.

زاريتيه

في اليوم التالي، عند العصر، وضعت إوخينيا وليدها. حدث ذلك بسرعة، على الرغم من أنها لم تتعاون في الأمر إلا في اللحظة الأخيرة. كان الدكتور إلى جانبها، ينظر وهو جالس على الكرسي، لأن إخراج المواليد ليس من شؤون الرجال، مثلما قال هو نفسه. أما السيد فالموران فكان يعتقد أن شهادة طبيبٍ ممهورة بالخاتم الملكي أهم من الخبرة، ولم يشأ استدعاء تانت روز، أفضل قابلة في شمالي الجزيرة؛ حتى إن النساء البيض يلجؤون إليها عندما يحين موعدهن. أسندتُ سيدتي، بردّتُها، صليتُ بالإسبانية معها، وقدمتُ إليها الماء الإعجازي الذي أرسلوه من كوبا. كان الدكتور قادراً على سماع نبضات قلب الطفل بوضوح، ولكن دونيا إوخينيا رفضت التعاون. أوضحتُ له أن سيدتيٍ ستضع «زومبي» وأن **البارون ساميدي** قد جاء ليأخذه فضحك مقهقهاً بشهية سالت معها دموعه. لقد أمضى هذا الأبيض سنوات في دراسة الفودو، وهو يعرف أن **البارون ساميدي** هو خادم وشريك «غيدي»، **لوا** عالم الموتى، ولم أدرِ ما الذي جعله يضحك. لكنه قال: «يا للفكرة الغبية! أنا لا أرى أي بارون!». البارونِ لا يظهر أمام من لا يحترمونه. وسرعانِ ما أدرك أن المسألة ليست مزاحاً لأن دونيا إوخينيا كانت مضطربة جداً. أمرني بأنِ أذهب لإحضار تانت روز. وجدتُ السيد على أريكة في الصالة غافياً بعد عدة كؤوس من الكونياك، وقد سمح لي باستدعاء عرابتي، فخرجتُ راكضة لإحضارها. كانت تنتظرني متأهبة بثوبها الأبيض المخصص للطقوس، وحقيبتها، وعقودها، و**الآسون**. مضت باتجاه البيت الكبير دون أن توجه إليّ أسئلة، ثم صعدت إلى الشرفة ودخلت من باب العبيد. ومن أجل أن تصل إلى حجرة دونيا إوخينيا كان عليها المرور من الصالة،

وقد أيقظت ضربات عكازها على خشب الأرضية السيد. «توخي الحذر في ما تفعلينه للمدام»، نبهها بصوت أخن، ولكنها لم توله اهتماماً وواصلت قدماً. اجتازت الممر بالتلمس ووصلت إلى الحجرة التي كانت قد جاءت إليها مرات كثيرة للعناية بدونيا إوخينيا. لم تأتي في هذه المرة كمداوية وإنما باعتبارها **مامبو**، وهي مستعدة للمواجهة مع شريك الموت.

ومن العتبة رأت تانت روز البارون ساميدي وهزتها قشعريرة، ولكنها لم تتراجع. حيَّته بانحناءة احترام وهي تهز **الآسون** وصنجيها المصنوعين من عظام صغيرة، وطلبت منه الإذن لتقترب من السرير. تنحى **لوا** المقابر ومفارق الطرق جانباً، بوجهه الأبيض كجمجمة وقبعته السوداء، مفسحاً لها الطريق لتقترب من دونيا إوخينيا التي كانت تفتح فمها وتطبقه مثل سمكة، وكانت مبللة، وعيناها حمراوين من الخوف، تناضل ضد جسمها الذي يسعى لإفلات الطفل بينما هي تضغط بقوة لاستبقائه. وضعت لها تانت روز حول عنقها عقداً من بذور وأصداف وقالت لها بضع كلمات مواساة، كررتُها أنا بالإسبانية. ثم التفتت بعد ذلك إلى البارون.

كان الدكتور بارمونتيه يراقب المشهد بافتتان، مع أنه لم يكن يرى سوى الجزء الخاص بتانت روز، أما أنا فكنت أرى كل شيء. أشعلت عرابتي سيجاراً وهزته مالئة الهواء بسحابة دخان تخنق الأنفاس، فالنافذة تظل مغلقة دائماً لقطع الطريق على البعوض، ثم رسمت على الفور بقطعة كلس دائرة حول السرير وراحت تصرخ متحركة بخطوات رقص ومشيرة إلى الزوايا الأربع بالـ **الآسون**. وبعد إنهاء تحيتها إلى الأرواح، أقامت مذبحاً بعدة أشياء مقدسة من حقيبتها، حيث وضعت قرابين من الروم والحصى، ثم جلست أخيراً على طرف السرير مستعدة للتفاوض مع البارون. انهمك كلاهما في مساومة بلغة **الكريولي** المغلقة والسريعة التي لم أفهم منها إلا القليل، وإن كنتُ قد سمعت عدة مرات اسم سرافين. كانا يتجادلان، يغضبان، يضحكان،

هي تدخن السيجار وتنفث الدخان فيبتلعه هو في جرعات. استمر ذلك لوقت طويل وبدأ الدكتور يفقد صبره. حاول فتح النافذة، ولكنها لم تُفتح لأنها لم تستخدم منذ زمن طويل. وبينما هو يسعل وعيناه تدمعان من الدخان جس نبض دونيا إوخينيا من معصمها.

وأخيراً توصلت تانت روز إلى اتفاق مع البارون. فتوجهت إلى الباب وودعت **لوا** بانحناءة احترام عميق، فخرج بقفزات ضفدع. بعد ذلك شرحت تانت روز الوضع للسيدة: ما هو في بطنها ليس لحم مقبرة، بل طفل طبيعي لن يأخذه البارون ساميدي. توقفت دونيا إوخينيا عن المقاومة وركزت على الدفع بكل قوة، وسرعان ما تدفق سائل أصفر ودم لوث الملاءات. وعندما أطل رأس الوليد، أمسكته عرابتي برفق وساعدت بقية الجسم على الخروج. سلمتني الوليد وأخبرت الأم بأنه ذكر، ولكن هذه لم تشأ حتى رؤيته، بل أدارت وجهها نحو الجدار وأغمضت عينيها مستنفدة. شددتُ الوليد إلى صدري وأنا أثبته جيداً، لأنه كان مغطى بدهن وينزلق مني. أحسستُ بيقين مطلق أنه عليّ أن أحب هذا الطفل كما لو أنه لي. والآن، بعد سنوات كثيرة وكثير من الحب، أعرف أنني لم أكن مخطئة. وانفجرتُ في البكاء.

انتظرت تانت روز أن تقذف السيدة ما تبقي داخلها ثم نظفتها، وبعد ذلك شربت في جرعة واحدة روم القربان الموضوع على المذبح، وجمعت أشياءها في الحقيبة وخرجت من الغرفة مستندة إلى عكازها. كان الدكتور يكتب بسرعة في دفتره، بينما واصلتُ أنا البكاء وغسل الطفل الذي بدا خفيفاً مثل قط صغير. دثرته باللحاف الذي قمتُ بحياكته في أمسيات جلوسي على الشرفة وحملته إلى أبيه ليتعرف إليه، ولكن السيد كان قد أفرغ الكثير من الكونياك في بدنه ولم يستطع الاستيقاظ. وفي الممر كانت تنتظر عبدة منتفخة الثديين، مستحمة للتو وحليقة الشعر للتخلص من القمل، إنها من ستقدم الحليب إلى ابن السيدين في البيت الكبير، بينما سينمو ابنها على ماء الرز في قطاع

الزنوج. لم تكن أي امرأة بيضاء تربي أبناءها، هذا ما كنتُ أظنه أنا آنذاك. جلست المرأة متقاطعة الساقين على الأرض، فتحت قميصها وتلقت الصغير الذي تعلق بثديها. فأحسست ببشرتي تتوقد وبتصلب حلمتي نهديّ: لقد كان جسمي جاهزاً لهذا الطفل.

في ذلك الوقت بالذات، في كوخ تانت روز، ماتت سرافين وحيدة، ودون أن تنتبه إلى موتها، لأنها كانت نائمة. هكذا حدث.

الخليلة

سموه موريس. كان أبوه متأثراً حتى النخاع بهديته غير المتوقعة من السماء، والتي جاءت لمقارعة عزلته وتحريكٍ طموحه. فهذا الابن سيواصل سلالة آل فالموران. أعلن اليوم عيداً، فلم يعمل أحد في المزرعة، وأمر بأن تشوى عدة بهائم، وخصص ثلاث مساعدات للطاهية تانت ماتيلد كيلا تنقص الذرة المطبوخة بالفلفل الحار وتشكيلة من الخضروات والحلوى للجميع. وسمح بإقامة حفلة *الكاليندا* في الفناء الرئيسي، قبالة البيت الكبير، الذي امتلأ بحشد صاخب. تزين العبيد بالقليل الذي يملكونه ـ خرقة حمراء، عقد أصداف، زهرة ـ، وحملوا طبولهم وآلات موسيقية أخرى مرتجلة، وبعد قليل كانت هناك موسيقى وأناس يرقصون أمام نظرات كامبري الساخرة. أمر السيد بتوزيع برميلين من خمر التافيا وتلقى كل عبد في قرعته جرعة جيدة للنخب. ظهرت تيتي على الشرفة ومعها الطفل ملفوفاً بدثار فتناوله الأب ليرفعه فوق رأسه ويريه للعبيد. «هذا هو وريثي! اسمه موريس فالموران، مثل اسم أبي!»، هتف مبحوحاً من الانفعال ومن الأثر القليل المتبقي من سكرة الليلة الفائتة. ساد صمت كصمت أعماق البحر بعد كلماته. حتى كامبري نفسه أحس بالذعر. فهذا الأبيض الجاهل اقترف تهوراً لا يصدق حين أطلق على ابنه اسم جد ميت، فإذا ما ناداه يمكن أن يخرج ذاك من القبر ويختطف الحفيد ليحمله إلى عالم الموتى. ظن فالموران أن الاحترام هو سبب ذلك الصمت، فأمر بتقديم جولة أخرى من التافيا ومواصلة اللهو. استعادت تيتي الوليد وحملته راكضة وهي ترش وجهه بوابل من اللعاب لحمايته من النكبة التي تسبب بها تهور أبيه.

في اليوم التالي، بينما كان العبيد المنزليون ينظفون فضلات كرنفال

الفناء ورجع الآخرون إلى عملهم في حقول القصب، استعد الدكتور بارمونتيه للعودة إلى المدينة. كان موريس الصغير يمص ثدي مرضعته كعجل ولم تلحظ إوخينيا أعراض حمى بطنها المشؤومة. كانت تيتي قد فركت ثديّي سيدتها بمزيج من الدهن والعسل ثم ضمدتهما بقطعة قماش حمراء، وهذه طريقة من تانت روز كي يجف الحليب قبل بدء تدفقه. وعلى المنضدة الصغيرة المجاورة لسرير إوخينيا كانت تصطف قوارير نقاط النوم، وبرشامات مضادة للغم، وشراب لتحمل الخوف، وما كان يمكن لشيء أن يشفيها، مثلما أقر الدكتور نفسه، ولكنها عقاقير تخفف من وطأة حياتها. كانت الإسبانية شبحاً ببشرة رمادية ووجه ممتقع، بسبب صبغة الأفيون أكثر مما هو من اختلال ذهنها. وقد أوضح الطبيب لفالموران أن موريس عانى في أحشاء أمه من تأثير المخدر، لهذا ولد ضئيلاً جداً وضعيف البنية، وسيعيش عليلاً بكل تأكيد، وأنه بحاجة إلى هواء وشمس وغذاء جيد. فأمر بأن تُقدم للمرضع ثلاث بيضات نيئة يومياً لتعزيز حليبها. وأضاف: «لقد صارت سيدتكِ والطفل الآن تحت مسؤوليتك يا تيتي. ولا يمكن لهما أن يكونا بين يدين أفضل منكِ». دفع له تولوز فالموران بسخاء مقابل خدماته وودعه بحزن، لأنه كان يُقدّر حقاً هذا الرجل المثقف وطيب الطبع الذي استمتع معه بلعب الورق في أمسيات سان لازار الطويلة. وسيفتقد المحادثات معه، وخاصة تلك الأحاديث التي لا يتوافقان بشأنها، لأنها تجبره على فن استنباط الحجج المنسي. وخصص اثنين من رؤساء العمال المسلحين لمرافقة الطبيب في عودته إلى لوكاب.

كان بارمونتيه يحزم أمتعته، وهي مهمة لا يعهد بها للعبيد، لأنه شديد الحرص في التعامل مع ممتلكاته، عندما طرقت تيتي الباب بتكتم وسألت بصوت خافت إن كان بإمكانها التحدث معه على انفراد. لقد كان بارمونتيه يلتقي بها بكثرة، ويستفيد منها في التواصل مع إوخينيا التي بدا أنها قد نسيت الفرنسية، ومع العبيد، وخاصة مع تانت روز. «إنك ممرضة جيدة يا تيتي، ولكن لا تعاملي سيدتك كما لو أنها

مقعدة. عليها أن تعتمد على نفسها»، قال لها محذراً حين رآها تُطعمها هلاماً بملعقة تضعها لها في فمها، وكان قد علم قبل ذلك أنها هي من تُجلسها على المبولة وتنظف لها مؤخرتها كيلا توسخ نفسها. وكانت الفتاة ترد على أسئلته بدقة، وبفرنسية صحيحة، ولكنها لم تكن تبدأ معه حواراً ولا تنظر إليه مباشرة، مما أتاح له تفحصها على هواه. قدّر أنها في حوالي السادسة عشرة، وإن كان جسدها لا يبدو جسد مراهقة، وإنما امرأة. وكان فالموران قد روى له قصة تيتي في إحدى رحلات الصيد التي قاما بها معاً. فهو يعرف أن أم العبدة قد وصلت إلى الجزيرة حبلى واشتراها خلاسي يملك تجارة خيول في لوكاب. حاولت المرأة الإجهاض، فتلقت عقوبة جلد شديدة ما كان يمكن لأخرى في مثل حالتها أن تتحملها، ولكن الطفلة التي في بطنها كانت عنيدة، وحين جاء موعدها ولدت سليمة. وما إن تمكنت الأم من النهوض حتى حاولت ضرب الطفلة بالأرض، ولكنهم انتزعوها منها في الوقت المناسب. تولت عبدة أخرى العناية بالوليدة لأسابيع، إلى أن قرر المالك أن يسدد بها ديناً في لعب القمار لموظف فرنسي كنيته باسكال، ولكن الأم لم تعرف ذلك، لأنها كانت قد ألقت بنفسها في البحر من فوق حاجز مرتفع. وقال له فالموران إنه اشترى تيتي لتكون وصيفة لامرأته وقد كانت صفقة رابحة، لأن الفتاة صارت تقوم بدور الممرضة ومدبرة المنزل. وسوف تصبح الآن كما يبدو مربية موريس.

ـ ما الذي تريدينه يا تيتي ـ سألها الدكتور بينما هو يرتب بحذر أدوات عمله الفضية والبرونزية في حقيبة خشبية مصقولة.

أغلقت الفتاة الباب وروت له بأقل قدرٍ من الكلمات ودون أي تعبير على وجهها أن لها ابناً عمره يزيد قليلاً على السنة، وأنها لم تره سوى لحظات عند ميلاده. بدا لبارمونتيه أن صوتها قد انكسر، ولكنها حين عادت للكلام كي توضح أن الطفل أعيد إليها خلال وجود سيدتها في دير في كوبا للراحة، استخدمت الصوت المحايد السابق.

ـ لقد حظر عليّ السيد أن أذكر الطفل. ودونيا إوخينيا لا تعرف شيئاً

عنه ـ أنهت تيتي كلامها.

ـ لقد أحسنٍ فالموران الصنع. لأن زوجته التي لم تكن قادرة على إنجاب أبناء، تتوتر كثيراً عندما ترى أطفالاً. وهل هناك من يعرف بأمر ابنك؟

ـ تانت روز فقط. وأظن أن رئيس مراقبي العمال يشك في الأمر، ولكنه غير متأكد.

ـ الآن، بعد أن صار للسيدة ابنها، تبدل الوضع. ولابد أن سيدكِ يرغب في استعادة الطفل يا تيتي. فهو ملك له في نهاية المطاف، أليس كذلك؟ ـ قال بارمونتيه.

ـ أجل، إنه ملك له. وهو ابنه أيضاً.

«كيف لم يخطر لي ما هو جلي!»، فكر الدكتور. لم يكن قد لمح أي إشارة حميمية بين فالموران والعبدة، ولكن لا بد من توقع أن الرجل، مع زوجة مثل زوجته، يواسي نفسه مع أي امرأة في متناول يده. وتيتي جذابة جداً، فيها شيء غامض وحسيّ. وفكر: مثل هؤلاء النساء جواهر لا تميزها بين الأحجار سوى عين مدربة، إنهن علب مغلقة يتوجب على العشيق فتحها شيئاً فشيئاً كي يكشف أسرارها. يمكن لأي رجل أن يشعر بأنه محظوظ بحبها، ولكنه يشك في قدرة فالموران علي تقدير قيمتها. تذكر حبيبته آديل بحنين. فقد كانت هي أيضاً ماسة خاما. لقد منحته ثلاثة أبناء وسنوات طويلة من الصحبة المتكتمة، ولم يكن بحاجة قطّ إلى تقديم تفسيرات للمجتمع الدنيء الذي يمارس فيه علمه. لأنهم لو عرفوا أن له خليلة وأبناء ملونين، لنبذه البيض، ولكنهم يتقبلون بالمقابل، وبصورة طبيعية، أنه مخنث وأن هذا هو سبب بقائه عازباً واختفائه في أحيان كثيرة في حي الخلاسيين، حيث يوفر القوادون فتياناً لكل النزوات. وبسبب حبه لآديل والأطفال لا يمكنه العودة إلى فرنسا، على الرغم من شدة قنوطه في الجزيرة. «إن لموريس الصغير أخا إذا... في مهنتي يطلع المرء على كل شيء»، دمدم بين أسنانه. وفالموران لم يرسل زوجته إلى كوبا كي تسترد عافيتها، مثلما أعلن آنذاك، وإنما ليخفي عنها ما يحدث في بيتها. لماذا كل هذا التصنع؟ إنه وضع عادي

ومقبول، فالجزيرة تغص بأبناء زنا من أعراق مختلطة، بل يظن أنه رأى خلاسيين اثنين بين عبيد سان لازار. التفسير الوحيد هو أن إوخينيا ما كانت تتحمل أن يضاجع زوجها تيتي، وسيلتها الوحيدة في اضطراب جنونها. ولا بد أن فالموران قد أدرك أن ذلك سيميتها، ولم تصل به الصفاقة إلى القول لنفسه إنه من الأفضل لزوجته أن تكون ميتة. وانتهى الطبيب إلى التفكير في أن الأمر ليس من اختصاصه في نهاية المطاف. ولا بد أن لدى فالموران أسبابه، وليس من اختصاصه التحري عنها، ولكنه يتحرق لمعرفة إذا ما كان قد باع الطفل أم أنه ينوي الاحتفاظ به بعيداً لبعض الوقت فقط.

ـ وما الذي يمكنني عمله يا تيتي؟ ـ سألها بارمونتيه.

ـ أرجوك يا دكتور، ألا يمكنك أن تسأل مسيو فالموران عنه؟ أريد أن أعرف إذا ما كان ابني حياً، أم أنه باعه ومن يدري...

ـ ليس من اختصاصي عمل ذلك، سيكون تصرفاً غير لائق. ولو كنتُ مكانك لما واصلتُ التفكير فيه.

ـ أجل يا دكتور ـ أجابت بصوت يكاد لا يُسمع.

ـ لا تقلقي، أنا متأكد من أنه في أيدٍ أمينة ـ أضاف بارمونتيه محزوناً.

خرجت تيتي من الغرفة وأغلقت الباب دون ضجة.

مع ولادة موريس تغير روتين البيت. فإذا ما استيقظت إوخينيا هادئة، تقوم تيتي بإلباسها وتُخرجها لتمشي بضع خطوات في الفناء، ثم تُجلسها على الشرفة وموريس إلى جانبها في مهده. ومن بعيد، كانت إوخينيا تبدو أماً عادية تسهر على نوم ابنها، باستثناء الكلّتين اللتين تغطيانهما، ولكن ذلك الوهم يتلاشى لدى الاقتراب ورؤية ملامح المرأة الساهية. فبعد أسابيع قليلة من وضعها الوليد عانت من أزمة أخرى ولم تعد تريد الخروج إلى الهواء الطلق، مقتنعة بأن العبيد يترصدونها لقتلها. كانت تقضي اليوم في حجرتها متأرجحة بين غيبوبة مخدر اللودانيوم وهذيان جنونها، ضائعة لا تتذكر ابنها إلا نادراً. لم تسأل قط كيف يطعمونه، ولم يقل لها أحد أن موريس ينمو متعلقاً بثدي امرأة أفريقية،

لأنها ستستنتج أنه يرضع حليباً مسمماً. كان فالموران يأمل أن تتمكن غريزة الأمومة من إعادة العقل إلى امرأته، كهَبَّة تصل إلى العظام والقلب، وتخلّفها نظيفة من الداخل، ولكنه عندما رآها تهز موريس كما لو أنه دمية لإسكاته، مع ما في ذلك من مجازفة بكسر رقبته، أدرك أن التهديد الأكثر جدية ضد الطفل يأتي من أمه. فانتزعه منها، ودون أن يتمكن من كبح نفسه وجه صفعة إلى وجهها طرحتها أرضاً على ظهرها. لم يكن قد ضرب إوخينيا من قبل، وقد فوجئ هو نفسه بعنفه. هرعت تيتي إلى سيدتها التي كانت تبكي دون أن تدري ما الذي حدث، وساعدتها في النهوض عن الأرض، ثم وسدتها على السرير وذهبت لتُعدّ لها مغلي أعشاب للأعصاب. وجدها تولوز في منتصف الطريق، فوضع الطفل بين ذراعيها، وقال مزمجرا:

ـ ستتولين منذ الآن مسؤولية ابني. وإذا حدث له أي شيء ستدفعين الثمن غالياً. لا تسمحي لإوخينيا أن تلمسه.

ـ وماذا أفعل عندما تطلب السيدة طفلها ـ سألت تيتي وهي تشد موريس الضئيل إلى صدرها.

ـ لا يهمني ما ستفعلينه! موريس هو ابني الوحيد ولن أترك هذه المجنونة تؤذيه.

نفذت تيتي الأوامر بصورة وسطية. فكانت تأخذ الطفل إلى إوخينيا لوقت قصير وتسمح لها بأن تحمله وهي تراقبها. وتظل الأم دون حراك بينما الحزمة على ركبتيها، تنظر إليها نظرات ذاهلة سرعان ما تتحول إلى ضجر. وبعد لحظات قليلة تعيد الطفل إلى تيتي وتسهو في النظر باتجاه آخر. فخطرت لتانت روز فكرة لفّ دمية بخرقة في دثار موريس، وتبين لهما أن الأم لا تلحظ الفرق، وصارتا تزيدان الوقت بين زيارة وأخرى إلى أن لم تعد تلك الزيارات ضرورية. فنقلتا موريس إلى حجرةٍ أخرى، وصار ينامِ مع مرضعته، وخلال النهار تحمله تيتي معلقاً على ظهرها وملفوفاً بمنديل كبير، مثلما تفعل الأفريقيات. وإذا كان فالموران في البيت، تضعه في مهده في الصالون أو على الشرفة،

كي يتمكن من رؤيته. كانت رائحة تيتي هي الشيء الوحيد الذي تعرف إليه موريس خلال الشهور الأولى من حياته، وكان على المرضعة أن ترتدي قميصاً استخدمته تيتي كي يتقبل الرضيع ثديها.

في الأسبوع الثاني من تموز، خرجت إوخينيا قبيل الفجر حافية وبقميص النوم، واتجهت متعثرة باتجاه النهر عبر درب أشجار جوز الهند الذي يشكل الطريق إلى البيت الكبير. أطلقت تيتي صرخة الإنذار، وعلى الفور تشكلت فرق للبحث عنها، وانضمت إليها دوريات حراسة الملكية. قادتهم كلاب تتبع الأثر إلى النهر، حيث اكتشفوا وجودها وقد وصل الماء حتى عنقها بينما قدماها ملتصقتان بوحل القاع. لم يفهم أحد كيف تمكنت من الوصول إلى تلك المسافة البعيدة، لأنها كانت تخاف الظلام. ففي الليل تصل ولولاتها الشيطانية حتى أكواخ العبيد، وتجعل أبدانهم تقشعر. واستنتج فالموران أن تيتي لا تعطيها ما يكفي من قطرات القارورة الصغيرة الزرقاء، لأنها لو كانت مخدرة لما استطاعت الهرب، فهددها بالجلد أول مرة. وقد ظلت تنتظر العقاب بخوف عدة أيام، ولكنه لم يُصدر الأمر بجلدها.

سرعان ما انفصلت إوخينيا عن العالم تماماً، ولم تعد تتسامح إلا مع تيتي التي تنام في الليل متكورة إلى جانبها على الأرض، وجاهزة لإنقاذها من كوابيسها. وعندما يشتهي فالموران العبدة، يومئ لها بإشارة أثناء تناول العشاء. فتنتظر إلى أن تنام المريضة، وتجتاز البيت بخفة إلى حجرة النوم الرئيسية في أقصى البيت. وفي مناسبة مثل هذه، استيقظت إوخينيا ووجدت نفسها وحيدة في غرفتها، وهربت إلى النهر. وربما كان هذا هو السبب في أن السيد لم يجعل تيتي تدفع ثمن تغيبها. تلك المعانقات الليلية وراء باب مغلق بين السيد والعبدة في الفراش الزوجي الذي اختارته قبل سنوات فيوليت بواسيير، لم تكن تُذكر في ضوء النهار، ولم يكن لها وجود إلا في مستوى الأحلام. وعند محاولة انتحار إوخينيا الثانية، وكانت هذه المرة بحريق كاد يودي بالبيت كله، تكشف الوضع ولم يعد هناك من يحاول الحفاظ على المظاهر. عُرف في

المستعمرة أن مدام فالموران مختلة الذهن، ولم يكن الاستغراب كبيراً، لأن إشاعات كانت تدور منذ سنوات عن أن الإسبانية تتحدر من أسرة مجنونات. أضف إلى ذلك أنه لم يكن من النادر في المستعمرة أن تختل عقول النساء البيض الآتيات من خارجها. فكان أزواجهن يرسلونهن لاستعادة عافيتهن في أجواء أخرى بينما يواسون أنفسهم مع تشكيلة من فتيات التدرجات الخلاسية التي توفرها الجزيرة. أما *الكريوليون* بالمقابل، فكانوا يزدهرون في أجواء الانحطاط، حيث بإمكانهم الغرق في الإغراءات دون تحمل تبعة النتائج. وفي حالة إوخينيا، كان وقت إرسالها إلى أي مكان قد فات، اللهم إلا إرسالها إلى ملجأ، وهو خيار ما كان يمكن لفالموران أن يأخذه في الاعتبار بسبب حسه بالمسؤولية والكرامة: فالغسيل الوسخ يجب أن يُغسل في البيت. وفي بيته حجرات كثيرة، وصالون، وصالة طعام، ومكتب، ومستودعين، بحيث يمكنه قضاء أسابيع دون أن يرى امرأته. فعهد بها إلى تيتي وتحول هو إلى ابنه. لم يكن يتصور قطّ أن بإمكانه أن يحب كائناً آخر أكثر من مجمل عواطفه السابقة، وأكثر من حبه لنفسه. لا وجود لأي مشاعر مشابهة لتلك التي أثارها فيه موريس. يمكنه أن يقضي ساعات وهو يتأمله، وكان يفاجئ نفسه في كل حين وهو يفكر فيه. وفي إحدى المرات قفل راجعاً بينما هو في طريقه إلى لوكاب وعاد بأقصى سرعة يؤرقه هاجس مشؤوم بأن مصيبة قد حلّت بابنه. وقد كانت راحته هائلة عندما تبين له أن شيئاً من ذلك لم يحدث، فانفجر في البكاء. كان يجلس على المتكأ والطفل بين ذراعيه، شاعراً بثقل الرأس العذب على كتفه، والأنفاس الدافئة على رقبته، يشم رائحة الحليب الحامض والعرق الطفولي. ويرتجف حين يفكر بالحوادث أو الأوبئة التي يمكن لها أن تنتزعه منه. فنصف أطفال سان دومانغ يموتون قبل بلوغهم الخامسة. فهم أول الضحايا في أي جائحة، دون حساب الأخطار غير الملموسة كاللعنات التي يسخر هو نفسه منها ولكن ظاهرياً، أو تمرد للزنوج يموت فيه البيض عن بكرة أبيهم، مثلما تنبأت إوخينيا لسنوات.

عبدة لكل الخدمات

منح مرضُ الزوجة فالموران ذريعة جيدة لتجنب الحياة الاجتماعية وما تسببه له من ضجر، وبعد ثلاث سنوات من ميلاد ابنه تحول إلى حبيس. كانت أعماله تضطره إلى الذهاب إلى لوكاب، وإلى كوبا بين حين وآخر، ولكن التنقل كان خطراً آنذاك بسبب عصابات الزنوج الكثيرة التي تنزل من الجبال وتعيث خراباً في الدروب. فحرق العبيد الآبقين في العام ١٧٨٠ وعمليات حرق تالية لم تتمكن من دفع الرقيق إلى اليأس من الهرب ولا الآبقين من مهاجمة المزارع والمسافرين. فكان فالموران يفضل البقاء في سان لازار. «لستُ بحاجة إلى شيء»، يقول لنفسه بالكبرياء الماكرة لأولئك الذين يميلون إلى الوحدة. وكانت خيبة أمله بالناس تزداد مع مرور السنوات، فالجميع، باستثناء الدكتور بارمونتيه يبدون له حمقى وتافهين. ولم تكن له سوى علاقات عمل، إما مع وكيله اليهودي في لوكاب أو مع مصرفيّه في كوبا. والاستثناء الآخر، إلى جانب بارمونتيه، هو صهره سانتشو غارثيا دل سولارٍ الذي يواظب على مراسلات مكثفة معه، ولكنهما لا يلتقيان إلا قليلا جدا. كان سانتشو يسليه، وتبين أن الأعمال التجارية التي تشاركا فيها مربحة لكليهما. وكان ذلك معجزة حقيقة، حسب ما يقوله سانتشو بمزاج طيب، لأن شيئاً لم يكن مواتياً له قبل التعرف على فالموران. «استعد يا صهري، لأنه يمكن لك أن تغرق ذات يوم في الإفلاس»، يقول مازحاً، ولكنه يواصل طلب ديون، ويعيدها بعد بعض الوقت مضاعفة.

كانت تيتي توجه العبيد المنزليين بلطف وحزم، وتصغّر المشاكل لتتجنب تدخل السيد. وتبدو كما لو أنها في الأمكنة كلها في الوقت نفسه، بهيئتها النحيلة، مرتدية تنورة قاتمة، وبلوزة قطنية وعمامة تيغنون

منشاة على رأسها، ترافقها صلصلة المفاتيح المعلقة على خصرها، وموريس المحمول فرشخة على ردفها، أو المتعلق بأذيال تنورتها بعد أن تعلم المشي. لم يكن يفلت شيء من اهتمامها، لا التعليمات إلى الطاهية، ولا تبيض الثياب، ولا قطب الخياطة، ولا احتياجات السيد أو الطفل. وكانت تعرف كيف تنتدب للمهمات، واستطاعت أن تدرب عبدة لم تعد قادرة على العمل في حقول القصب لتساعدها في الاهتمام بإوخينيا وتحررها من النوم في حجرة المريضة. فصارت المرأة ترافقها، بينما تتولى تيتي تقديم الأدوية لها، لأن إوخينيا لا تسمح لأحد سواها أن يمسها. والأمر الوحيد الذي لم تكلف تيتي أحداً به قطّ هو العناية بموريس. لقد تعلقت بذلك الطفل كثير النزوات، الحساس والعاطفي بغيرة أم. كانت المرضع في تلك الأثناء قد عادت إلى زقاق العبيد وصارت تيتي هي من تقاسمه الحجرة. تنام على فراش على الأرض، وإلى جانبها موريس الذي يرفض أن ينام في مهده، ملتصقاً بجسدها الكبير والدافئ، وبثدييها الوافرين. كانت تستيقظ أحياناً على تنفس الطفل، فتداعبه في الظلام، متأثرة إلى حدّ البكاء برائحته، بتجاعيد شعره المشعث، بيديه الصغيرتين الرخوتين، ببدنه المستغرق في النوم، مفكرة في ابنها وفي ما إذا كانت هناك امرأة أخرى في مكان ما تغدق عليه الحنان. كانت تمنح موريس كل ما لا تستطيع إوخينيا منحه إياه: حكايات، أغنيات، ضحكات، قبلات وضربة على الرأس بين حين وآخر كي ينصاع. وفي المرات النادرة التي تعنفه فيها، يرتمي الصغير منبطحا على الأرض، ويضرب بقدميه متوعداً أن يشكوها إلى أبيه، ولكنه لم يفعل ذلك قط، لأنه يهجس بطريقة ما أن النتائج ستكون خطرة على هذه المرأة التي هي كل عالمه.

لم يتوصل بروسبير كامبري إلى فرض قانون رعبه على خدم البيت، لأن حدودا خفية تنتصب بين ميدان عمل تيتي الصغير وبقية المزرعة. فكان القسم الذي تتولى مسؤوليته يدار كأنه مدرسة، بينما يدار القسم الذي يشرف عليه ذاك كأنه سجن. ففي البيت هناك مهمات

محددة لكل عبد، ينجزها بانسيابية وهدوء. أما في حقول القصب فيمضي العبيد في أرتال تحت سياط ***الكومندورات*** الجاهزة دوماً، يطيعون دون أن ينبسوا بكلمة، ويعيشون في حذر، لأن أي إهمال يُدفع ثمنه دماً. كان كامبري شخصياً يتولى فرض النظام. أما فالموران فلا يرفع يده أبداً ضد الزنوج، ويرى في ذلك حطاً من مكانته، ولكنه يحضر تنفيذ العقوبات ليفرض سلطته ويؤكد أن رئيس مراقبي العمال ليس مطلق الصلاحيات. لم يكن يؤنبه علناً، ولكن وجوده أمام عمود التعذيب يفرض على كامبري بعض التروي. لقد كان البيت والحقول عالمين منفصلين، ولكن فرص تلاقي تيتي ورئيس مراقبي العمال لم تكن معدومة، وعندئذ يُشحن الجو باحتدام عاصفة متوعد. كان كامبري يبحث عنها مستثاراً بازدراء الشابة الجلي، بينما هي تتجنبه، قلقة من شهوانيته السافرة. «إذا ما تجاوز كامبري الحدود معكِ، عليك أن تخبريني فوراً، هل تفهمينني؟»، نبهها فالموران أكثر من مرة، ولكنها لم تبدي قط ما يشير إلى أنها معنية بما يقوله؛ فمن غير المناسب لها إثارة غضب رئيس مراقبي فرق العمل.

وبأمر من سيدها الذي لا يتسامح مع سماع موريس يتكلم لغة زنوج، كانت تيتي تستخدم على الدوام الفرنسية في البيت. وتتفاهم مع بقية الناس في المزرعة بالكريولي، ومع إوخينيا بإسبانية تُختزل إلى كلمات قليلة ضرورية. فقد كانت المريضة غارقة في كآبة راسخة وبلادة في الحواس، ولو لم تكن تيتي تغذيها وتنظفها، لانتهت إلى الموت من الجوع والقذارة مثل خنزير، ولو لم تكن تحركها وتغير أوضاعها لتكلست عظامها، ولو لم تكن تحثها على الكلام، لأصابها البكم. لم تعد تعاني نوبات رعب، وكانت تقضي أيامها ساهية على كرسي وبعينين ثابتتين، مثل دمية كبيرة. وتظل تصلي بالمسبحة التي تحملها على الدوام في الجراب الجلدي المعلق حول عنقها، وإن لم تعد تدقق بكلمات صلواتها. وكانت تقول لتيتي: «عندما أموت، احتفظي لنفسك بمسبحتي، ولا تسمحي لأحد بأن ينتزعها منك، لأن البابا باركها». وفي

لحظات صحوها النادرة، تتضرع إلى الله أن يأخذها. وحسب قول تانت روز، فإن روحها عالقة في هذا العالم، وإنها بحاجة إلى طقوس خاصة تحررها، وهي طقوس غير مؤلمة أو معقدة، ولكن تيتي لم تحسم أمرها للإقدام على حل لا رجوعٍ عنه. كانت راغبة في مساعدة سيدتها، ولكن مسؤولية موتها ستكون عبئاً ثقيلاً، حتى لو تقاسمته مع تانت روز. ربما كان مازال لروح دونيا إوخينيا ما يفعله في بدنها؛ ويتوجب منحها الوقت لتنفصل عنه من تلقاء ذاتها.

كان تولوز فالموران يكثر من فرض معانقاته على تيتي بحكم العادة وليس بدافع العاطفة أو الرغبة، ويفعل ذلك دون إكراه أو قسر، كما كان يحدث في فترة دخولها سن البلوغ. ولابد أن خبل إوخينيا وحده هو ما يفسر عدم انتباهها لما يحدث تحت نظرها. «الشكوك تخامر السيدة، ولكن ماذا يمكنها أن تفعل؟ لا يمكنها منع ذلك»، أعربت تانت روز عن رأيها، وهي الشخص الوحيد الذي تجرأت تيتي على الاعتراف له عندما حبلت. كانت تخشى ردّ فعل سيدتها عندما تلاحظ حملها. ولكن فالموران، وقبل حدوث ذلك، أخذ امرأته إلى كوبا، حيث يمكن له أن يتركها بكل رغبة إلى الأبد لو أن راهبات الدير وافقن على تحمل مسؤوليتها. وعندما أعادها إلى المزرعة، كان ابن تيتي حديث الولادة قد اختفى، ولم تتساءل إوخينيا قط عن سبب تساقط دموع عبدتها كالحصى. كانت حسية فالموران شرهة ومتعجلة في الفراش. فهو يُشبع رغبته دون إضاعة الوقت في المقدمات. فهو لا يرى جدوى في المداعبات الغرامية، ويتضايق منها مثلما كانت تضايقه من قبل طقوس إوخينيا بمدّ السماط الطويل على المائدة ووضع الشمعدانات عند العشاء.

أما بالنسبة إلى تيتي فكان ذلك أشبه بمهمة أخرى من مهماتها، تنجزها في دقائق قليلة، اللهم إلا في المناسبات التي يهيمن فيها الشيطان على سيدها، وهو ما لم يكن يحدث بكثرة، وإن كانت تنتظره بخوف على الدوام. وتحمد حسن حظها لأن لاكروا، مالك المزرعة المجاورة

لمزرعة سان لازار، يحتفظ بمجموعة طفلات مقيدات في عنبر لإشباع نزواته، وكان يشاركه في ذلك ضيوفه وبعض الزنوج الذين يسميهم «أحصنتي». وقد حضر فالموران واحدة من سهرات القسوة تلك وأصابه اضطراب عميق لم يعد معه ثانية. لم يكن رجلاً موسوساً، ولكنه يرى أن ثمن الجرائم الكبرى سيُدفع عاجلاً أو آجلاً، ولم يكن يرغب في أن يكون قريباً من لاكروا عندما يتوجب على هذا الأخير تسديد حساب أعماله. إنه صديقه، ولديهما مصالح مشتركة، ابتداء من تربية المواشي وحتى استئجار العبيد في موسم الحصاد؛ وكان يحضر حفلاته، ومصارعاته للحيوانات، ولكنه لم يعد يرغّب في وضع قدميه في ذلك العنبر. وكان لاكروا يثق به ثقة مطلقة ويسلّم إليه ما يوفره من الأموال، دون أي ضمانة سوى إيصال موقع، كي يودعها له في حساب سري في كوبا، بعيداً عن براثن زوجته وأقاربه الجشعين. وكان فالموران يلجأ، مرة بعد أخرى، إلى أساليب لبقة لرفض دعوات جاره إلى حفلات مجونه الجماعية.

تعلمت تيتي الاستسلام لاستعمالها بسلبية نعجة واستكانتها. بجسد متراخ، ودون إبداء أية مقاومة، بينما ذهنها وروحها يحلقان في أمكنة أخرى، وهكذا ينتهي سيدها بسرعة وينهار في إغفاءة موت. كانت تعرف أن الكحول هو حليفها إذا تناوله السيد بجرعات محددة. فبعد كأس واحدة أو كأسين يتهيج، ومع الكأس الثالثة عليها أن تتوخى الحذر، لأنه يصير عنيفاً، أما مع الكأس الرابعة فيغيبه السكر، وإذا ما تجنبته عندئذ برفق فإنه ينام دون أن يلمسها.

لم يتساءل فالموران قطّ عما تشعر به الفتاة في تلك اللقاءات، مثلما لم يكن يتساءل عما يشعر به حصانه عندما يمتطيه. لقد كان معتاداً عليها ونادراً ما يبحث عن نساء أخريات. ففي بعض الأحيان يستيقظ وهو يشعر بضيق غامض في فراشه الفارغ، حيث مازال أثر جسد تيتي الدافئ، وعندئذ يتذكر لياليه القديمة مع فيوليت بواسيير أو بعض غراميات شبابه في فرنسا التي تبدو كما لو أنها حدثت لرجل آخر،

لشخص تنطلق مخيلته محلقة لمرأى كاحل نسائي، وقادر على العودة للمضاجعة بحيوية متجددة. أما الآن فيبدو له ذلك مستحيلاً. لم تعد تيتي تستثيره كما في السابق، ولكن لم يخطر له استبدالها، لأنه يجدها مريحة، ولأنه رجل عادات متجذرة. قد ينقض أحياناً بصورة خاطفة على عبدة شابة، ولكن المسألة لا تصل إلى ما هو أبعد من عملية اغتصاب متعجلة وأقل متعة من صفحة في الكتاب الذي يقرأه. كان يعزو فقدانه الشهية إلى نوبة ملاريا كادت أن تودي به إلى العالم الآخر وخلفته ضعيفاً. لقد حذره الدكتور بارمونتيه من تأثير الكحول، وأنه لا يقل ضرراً عن الحمى المدارية، ولكنه لم يكن يكثر من الشرب، وهذا أمر متأكد منه، فهو لا يشرب إلا ما يكفي للتخفيف من ضيقه ووحدته. ولم يكن يلحظ إصرار تيتي على ملء كأسه. ففي السابق، عندما كان يكثر من الذهاب إلى لوكاب، كان يستغل تلك الرحلات للاستمتاع مع إحدى المومسات الرائجات، واحدة من أولئك الجميلات اللاتي يؤججن ولهه، ولكنهن يخلّفنه محبطاً. ففي طريق الذهاب يعد نفسه بمتع لا يستطيع تذكرها بعد الانتهاء منها، لأنه كان يسكر حقاً في تلك الرحلات. وكان يدفع لأولئك الفتيات كي يمارس معهن ما يمارسه في نهاية المطاف مع تيتي، المضاجعة الفظة نفسها، التعجل نفسه، والخروج متعثراً في النهاية مع الشعور بأنه وقع ضحية خداع. لقد كان الأمر مختلفاً مع فيوليت، ولكنها تركت المهنة مذ بدأت تعيش مع روليه. لقد صار فالموران يرجع إلى سان لازار قبل الموعد المقرر، مفكراً في موريس ومتلهفاً لاستعادة أمان روتينه المعهود.

«إنني أشيخ»، يقول فالموران لنفسه وهو ينظر في المرآة بينما عبده يحلق له ذقنه ويرى شبكة التجعدات الناعمة حول عينيه وبداية بروز لغد تحت عنقه. كان في الأربعين من عمره، وهي سن بروسبير كامبري نفسها، ولكنه لا يتمتع بمثل نشاطه، كما أنه آخذ بالبدانة. «السبب هو هذا المناخ اللعين»، يضيف. إنه يشعر أن حياته إبحار بلا دفة ولا بوصلة، انقياد على غير هدى مع التيار، بانتظار شيء لا يعرف كيف

يسميه. إنه يكره هذه الجزيرة. ففي النهار يظل مشغولاً بتسيير أمور المزرعة، ولكن الأمسيات والليالي لا نهائية. تغيب الشمس، ويحل الظلام، فتبدأ الساعات بالتجرجر مع شحنتها من الذكريات والمخاوف والندم والأشباح. كان يخادع الوقت بالقراءة أو لعب الورق مع تيتي. وتلك هي اللحظات الوحيدة التي تهمل فيها الفتاة دفاعاتها وتستسلم لحماسة اللعب. في البدء، عندما بدأ تعلمها اللعب، كان يكسب دوماً، ولكنه لاحظ أنها تخسر متعمدة خوفاً من إغضابه. فقال لها: «ليس في هذا أي متعة لي. حاولي أن تكسبي»، عندئذ بدأ يخسر بصورة متتالية. فكان يتساءل بذهول كيف يمكن لهذه الخلاسية أن تواجهه مواجهة الند في لعبة تحتاج إلى المنطق والمكر والحساب. لم يُعلّم أحدٌ تيتي الحساب، ولكنها تحسب قيمة أوراق اللعب من الرموز التي عليها، مثلما تحسب نفقات البيت. وكانت احتمالات كونها ماهرة مثله تشوشه وتسبب له الاضطراب.

اعتاد السيد على تناول العشاء باكراً في قاعة الطعام، ثلاثة أطباق بسيطة وحاسمة، هي وجبته اليومية الأساسية، يقدمها خادمان صامتان. وكان يشرب كؤوساً من نبيذ فاخر، النبيذ نفسه الذي يرسله مهرباً إلى صهره سانتشو ويباع في كوبا بسعر يساوي ضعف ما يكلفه في سان دومانغ. بعد الحلوى تأتيه تيتي بزجاجة الكونياك وتطلعه على مستجدات الأوضاع المنزلية. كانت الشابة تنسل بقدميها الحافيتين كما لو أنها تطفو، ولكنه يسمع رنة المفاتيح الخافتة، وحفيف تنانيرها، ودفء حضورها قبل أن تدخل. «اجلسي، لا أحب أن تكلميني من فوق رأسي»، كان يقول لها كل ليلة. وتنتظر هي صدور هذا الأمر لتجلس على مقربة منه، مستوية تماماً على الكرسي، يداها على تنورتها ورموشها مسبلة. وعلى ضوء الشموع يبدو وجهها المتناسق وعنقها النحيل كأنهما منحوتان من الخشب. عيناها الناعستان تلمعان بانعكاسات ذهبية. ترد على أسئلته دون تفخيم، اللهم إلا عندما تتكلم عن موريس؛ عندئذ تتحمس، محتفلة بكل شيطنة يقوم بها الصغير كما

لو أنها مأثرة. «جميع الأطفال يلاحقون الدجاجات يا تيتي»، كان يسخر منها، ولكنه في أعماقه يشاطرها اعتقادها بأنهما يربيان طفلاً نابغة. ولهذا السبب، أكثر من أي شيء آخر، كان فالموران يقدرها: لا يمكن لابنه أن يكون بين يدين أفضل منها. وعلى الرغم منه، لأنه لم يكن مؤيداً للإفراط في التدليل، كان يتأثر حين يراهما معاً في تلك المداعبات والأسرار التي تنشأ بين الأمهات وأبنائهن. وكان موريس يقابل عاطفة تيتي بوفاء متفرد يشعر معه أبوه بالغيرة. لقد حظر فالموران عليه مناداتها *ماما*، ولكن موريس لم يطعه. «*ماما*، أقسمي لي أننا لن نفترق أبداً، أبداً»، سمع ابنه يهمس من وراء ظهره. «أقسم لك يا صغيري.» ولعدم وجود مُحاورٍ آخر، اعتاد فالموران البوح لتيتي بهمومه التجارية، وإدارته للمزرعة والعبيد. لم تكن أحاديث متبادلة، لأنه لا ينتظر منها أجوبة، وإنما مونولوج بوح للتفريج عن نفسه وسماع صوت بشريٍ، حتى لو كان صوته وحسب. وفي بعض الأحيان كانا يتبادلان أفكارا ويبدو له أنها لا تضيف شيئاً، لأنه لا يلحظ كيف أنها تدير الأمر بعبارات قليلة.

ـ هل رأيتِ دفعة العبيد التي جاء بها كامبري أمس؟

ـ أجل يا سيدي. ساعدتُ تانت روز في فحصهم.

ـ وماذا وجدتِ؟

ـ لا يبدون في حالة جيدة.

ـ إنهم حديثو الوصول، وخلال الرحلة يفقدون الكثير من وزنهم. لقد اشتراهم كامبري كقطيع، جميعهم بالسعر نفسه. هذا أسلوب سيئ، لا يمكن فحصهم، ويبيعون لأحدنا في هذه الحالة قطاً على أنه أرنب. النخاسون خبراء في ألاعيب الاحتيال. وماذا قالت تانت روز؟

ـ يوجد اثنان مصابان بإسهال شديد، لا يستطيعان معه الوقوف. وتقول إنه يتوجب تركهما لها أسبوعاً لمعالجتهما.

ـ أسبوع!

ـ هذا أفضل من فقدانهم يا سيدي. هكذا تقول تانت روز.

ـ هل توجد امرأة في الصفقة؟ إننا بحاجة إلى واحدة أخرى في المطبخ.
ـ لا ، ولكن يوجد فتى في حوالي الرابعة عشرة...
ـ أهو الذي جلده كامبري في الطريق؟ قال لي إنه أراد الهرب وكان عليه أن يلقنه درساً هناك بالذات.
ـ هذا ما يقوله كامبري يا سيدي.
ـ وأنتِ يا تيتي ، ما الذي تظنين أنه حدث؟
ـ لا أدري يا سيدي ، ولكنني أظن أن الفتى سيكون أفضل مردوداً في المطبخ مما في الحقل.
ـ سيحاول الهرب من جديد ، لأن هنا الحراسة قليلة.
ـ لم يهرب أي عبد من البيت بعد يا سيدي.

ظل الحوار بلا قرار نهائي ، ولكن بعد ذلك ، عندما يفحص فالموران مقتنياته الجديدة ، يميز الفتى ويتخذ القرار. عند انتهاء العشاء ، تذهب تيتي للتأكد من أن إوخينيا نظيفة وهادئة في فراشها ، ولترافق موريس إلى أن ينام. ويستقر فالموران على الشرفة إذا كان المناخ يسمح بذلك ، أو في الصالون المعتم ، مداعباً كأس كونياكه الثالثة ، وعلى إضاءة سيئة تنبعث من مصباح زيت ، يقرأ في كتاب أو جريدة. كانت الأخبار تصله متأخرة أسابيع ، ولكنه لا يهتم بذلك ، فالأحداث تقع في عالم آخر. يصرف الخدم المنزليين ، لأنه يكون في نهاية اليوم متضايقا ويخشى أن يخمنوا أفكاره ، ويظل يقرأ وحيداً. وفي ما بعد ، عندما تصبح السماء دثاراً أسود ولا يُسمع إلا صفير حقول القصب الدائم ، وهمهمة الظلال داخل البيت ، وفي بعض الأحيان التوتر السري لطبول نائية ، يذهب إلى حجرته ويخلع ملابسه على ضوء شمعة وحيدة. وبعد قليل تأتي تيتي.

زاريتيه

هكذا أتذكر. الجداجد في الخارج ونعيب البوم، وفي الداخل ضوء القمر ينير بخطوط دقيقة جسده النائم. إنه صغير جداً! احفظيه لي يا إرزولي، يا لوا أعمق المياه، أتضرع وأنا ألمس دميتي التي أعطاني إياها جدي هونوري، وكانت لا تزال ترافقني في ذلك الحين. تعالي يا إرزولي، أيتها الأم العاشقة، بعقودك التي من ذهب خالص، وعباءتك التي من ريش طائر الطوقان، بتاجك أزهارك وخواتمك الثلاثة، كل واحد منها لزوج. ساعدينا يا لوا الأحلام والآمال. احميه من كامبري، اجعليه غير مرئي لعيني السيد، اجعليه حذراً أمام آخرين، ومتكبراً بين ذراعي، أسكتي قلبه، قلب الزنجي الغر في ضوء النهار، كي يظل حياً، وامنحيه الشجاعة في الليل كيلا يفقد الرغبة في الحرية. انظري إلينا بعطف يا إرزولي، يا لوا السموات. لا تحسدينا، لأن هذه السعادة هشة مثل جناحي ذبابة. سوف يذهب. وإن لم يذهب سيموت، وأنت تعرفين، ولكن لا تنتزعينه مني بعد، دعيني أداعب ظهره الفتي النحيل قبل أن يتحول إلى ظهر رجل.

لقد كان حبيبي هذا محارباً، مثلما يعني الاسم الذي منحه إياه أبوه: غامبو، أي محارب. وكنتُ أهمس باسمه المحظور عندما نكون وحدنا، غامبو، فترن الكلمة في عروقي. لقد تكلف الكثير من أجل أن يستجيب للاسم الذي أطلقوه عليه هنا ويخفي اسمه الحقيقي. غامبو، هكذا قال لي وهو يلمس صدره، أول مرة تحابينا فيها. غامبو، غامبو، كرر إلى أن تجرأتُ على قول ذلك. كان يتكلم حينئذ بلسانه وأنا أرد عليه بلساني. تأخر طويلاً في تعلم الكريولي وفي تعليمي شيئاً من لغته، اللغة التي لم تتوصل أمي إلى تلقيني إياها، ولكننا لم نكن منذ البدء بحاجة إلى كلام. فللحب كلمات بكماء، أشد شفافية من النهر.

كان غامبو حديث المجيء، يبدو كطفل، وقد وصل مثل هيكل عظمي، وكان مرعوباً. أسرى آخرون أكبر وأقوى منه ظلوا يطفون على غير هدى في البحر المالح، باحثين عن الطريق إلى غينيا. كيف تحمَّل هو عبور المحيط؟ وصل بجسم شققته السياط، إنه أسلوب كامبري لكسر شوكة الجدد، الأسلوب نفسه الذي يستخدمه مع الكلاب ومع الخيول. في صدره، فوق القلب، كان الوسم في اللحم الحي، وسم بالحروف الأولى لشركة النخاسة، وسموه به في افريقيا قبل الإبحار، ولم يلتئم بعد. أشارت إليّ تانت روز أن أغسل جراحه بماء وفير، وأغطيها بلزقات من عشبة مورا والألوة والشحم. يجب أن تندمل من الداخل إلى الخارج. وألا أضع على الحرق شيئاً من الماء، وإنما الدهن فقط. لا أحد يعرف العلاج مثلها، حتى الدكتور بارمونتيه يحاول تحري أسرارها، وكانت تقدمها إليه، وإن كانت ستُستخدم في التخفيف من آلام بيض آخرين، لأن المعرفة تأتي من بابا بونديي، وتنتمي للجميع، وإذا لم يجر تقاسمها ستضيع. هكذا هي الأمور. في تلك الأيام كانت تانت روز مشغولة بالعبيد الذين وصلوا مرضى وكان عليّ أن أتولى معالجة غامبو.

أول مرة رأيته فيها كان مطروحاً على بطنه في المستشفى، يغطيه الذباب. أجلسته بصعوبة لأقدم له جرعة تافيا وملعقة من نقاط السيدة، سرقتُها من قارورتها الزرقاء. وعلى الفور بدأتُ بمهمة تنظيفه المزعجة. لم تكن الجراح ملتهبة بشدة، لأن كامبري لم يستطع أن ينثر فيها ملحاً وخلاً، ولكن الألم كان رهيباً دون شك. كان غامبو يعض شفتيه، دون شكوى. بعد ذلك جلستُ إلى جانبه لأغني له، لأنني لم أكن أعرف كلمات تعزية بلغته. أردت أن أوضح له ما عليه عمله كيلا يستفز اليد التي تحمل السوط، وكيف يتوجب عليه العمل والطاعة، بينما هو يغذي الثأر، تلك النار التي تتأجج في الداخل. وقد تمكنت عرابتي من إقناع كامبري بأن الفتى مصاب بالطاعون ومن الخير عزله وتركه وحيداً، كيلا ينقل العدوى إلى الجماعة كلها. فسمح لها رئيس

مراقبي فرق العمال أن تنقله إلى كوخها، لأنه لم يفقد الأمل في أن تنتقل إلى تانت روز عدوى حمى وبيلة، ولكنها كانت محصنة، لديها اتفاق مع ليغبي، **لوا** أعمال السحر. وفي أثناء ذلكٍ بدأتُ أوحي للسيد بفكرة وضع غامبو في المطبخ. فهو لن يعيش طويلاً في حقول القصب، لأن رئيس مراقبي فرق العمال وضعه نصب عينيه منذ البداية.

أزمنة مكفهرة

لقد انقضى أكثر من ثلاثين عاماً على زرع ماكاندال، ذلك الساحر الأسطورة، بذرة التمرد. ومنذ ذلك الحين تجوب روحه الجزيرة مع الريح من جانب إلى آخر، تتغلغل في العنابر، في الأكواخ، في الأكواخ الموتدة، في معاصر القصب، يغري العبيد بوعد الحرية. كان يتخذ هيئة أفعى، خنفساء، قرد، ببغاء، يواسي في همس المطر، ينادي في دوي الرعد، يحث على التمرد في هدير العاصفة. وكان البيض يشعرون به أيضاً. فكل عبد هو عدو، وقد صار هناك أكثر من نصف مليون منهم، ثلثاهم آتون مباشرة من أفريقيا مع شحنة حقدهم الهائلة ولا يعيشون إلا ليكسروا قيودهم وينتقموا. آلاف العبيد يصلون إلى سان دومانغ، ولكن عددهم لم يكن كافياً لتلبية طلبات المزارع النهمة. سوط، جوع، عمل. لا يمكن للحراسة ولا لأشد أشكال القمع وحشية أن تحول دون هرب الكثيرين؛ بعضهم يفعلون ذلك في الميناء، فور إنزالهم إلى البر وفك قيودهم من أجل تعميدهم. يتدبرون أمرهم ليركضوا وهم عراة ومرضى، وليس لديهم سوى فكرة واحدة: الهرب من البيض. يجتازون سهولاً زاحفين بين الأعشاب، يتوغلون في الأدغال ويتسلقون جبال تلك الأراضي المجهولة. وإذا ما تمكنوا من الانضمام إلى إحدى عصابات الآبقين، فإنهم ينجون من العبودية. حرب، حرية. الزنوج حديثي الوصول، من ولدوا أحراراً في أفريقيا ومن هم مستعدون للموت من أجل أن يكونوا أحراراً، ينقلون عدوى شجاعتهم إلى العبيد المولودين في الجزيرة، ممن لم يعرفوا الحرية ومن لا تشكل غينيا لهم سوى مملكة غامضة في أعماق البحر. أصحاب المزارع يعيشون مسلحين، منتظرين. وقد جرى تعزيز نظام لوكاب بأربعة آلاف جندي فرنسي، ما كادوا يطؤون اليابسة حتى سقطوا صرعى الكوليرا والملاريا والزحار.

كان العبيد يؤمنون أن أسراب البعوض التي تسبب تلك الميتات إنما هي جيوش ماكاندال، تقاتل ضد البيض. فقد تحرر ماكاندال من المحرقة بالتحول إلى بعوضة. ورجع ماكاندال مثلما وعدهم. كان عدد العبيد الهاربين من سان لازار أقل من أمكنة أخرى، وكان فالموران يعزو ذلك إلى أنه لا يستثير حقد زنوجه، فلا شيء من طليهم بدبس القصب وعرضهم للنمل الأحمر، مثلما يفعل لاكروا. وفي مونولوجاته الليلية الغريبة كان يقول لتيتي إنه لا يمكن لأحد أن يتهمه بالقسوة، ولكن إذا ما استمر تردي الأوضاع فسوف يقدم لكامبري صكاً على بياض. وكانت هي تحاذر من التفوه بكلمة تمرد بحضوره. فقد أكدت لها تانت روز أن قيام انتفاضة عامة للعبيد هي مسألة زمن وحسب وأن سان لازار، مثلها مثل مزارع الجزيرة الأخرى كلها، ستختفي في اللهيب.

كان بروسبير كامبري قد تحدث عن تلك الإشاعة غير المحتملة مع سيده. فإلى حيث تصل به الذاكرة، كان هناك حديث حول الأمر نفسه، ولكنه لم يتبلور أبداً. ما الذي يمكن أن يفعله بعض العبيد البائسين ضد الميليشيا وضد رجال مثله مصممين على أي شيء؟ كيف سينتظمون ويتسلحون؟ من سيقودهم؟ مستحيل. إنه يقضي النهار على حصانه وينام ومسدسين في متناول يده وإحدى عينيه مفتوحة، متأهب على الدوام. السوط امتداد ليده، وهو أفضل لغة يعرفها والجميع يخشونه، وليس هناك ما يروقه أكثر من الخوف الذي يبثه في النفوس. وساوس سيده وحدها هي التي منعته من استخدام أساليب قمع مبتكرة، ولكن ذلك آخذ بالتبدل منذ تعددت بذور التمرد. وقد حانت الفرصة كي يثبت أنه قادر على إدارة المزرعة حتى في أسوأ الظروف، وهو ينتظر منذ سنوات طويلة نيل منصب الوكيل. لا يمكنه الشكوى، لأنه جمع رأس مال معتبر من خلال الرشوة والاختلاس والتهريب. وفالموران لا يشك في كمية الأشياء التي تختفي من مستودعاته. وهو يتبجح بفحولته، لا تفلت فتاة واحدة من خدمته في أرجوحة نومه، ولا أحد يتدخل في ذلك. فما دام لا يضايق تيتي،

يمكنه مضاجعة الأخريات على هواه، ولكنها الوحيدة التي تؤججه بالشبق والغيظ، لأنها بعيدة عن متناول يده. إنه يتأملها من بعيد، يتجسس عليها عن قرب، يمسكها بسرعة عند أدنى سهو، ولكنها تفلت منه دوماً. «كن حذراً يا سيد كامبري. إذا ما لمستني فسوف أخبر السيد المالك»، تحذره تيتي محاولة السيطرة على ارتعاش صوتها. «أنتِ من عليها أن تكون حذرة أيتها العاهرة، لأنني عندما أمتلكك بين ذراعي سأجعلك تدفعين الثمن غالياً. من تظنين نفسك أيتها التعيسة؟ لقد صرتِ في العشرين، وعما قريب سيستبدلك سيدكِ بأخرى أصغر منك، وعندئذ يأتي دوري. سوف أشتريكِ. سأشتريك بسعر بخس، لأنك لا تساوين شيئاً، حتى إنكِ لست ولوداً جيدة. أم أن سيدك بلا خصيتين؟ سترين معي ما هو الجيد. وسيكون سيدك سعيداً ببيعك»، كان يهددها وهو يلعب بسوط الجلد المجدول.

في أثناء ذلك وصلت الثورة الفرنسية إلى الجزيرة كضربة من ذيل تنين هزت الركائز. نظر *البيض الكبار*، وهم محافظون وملكيون، بخوف إلى الأحداث، أما *البيض الصغار* فأيدوا الجمهورية التي وضعت حداً للفروقات الطبقية: حرية، ومساواة، وأخوة لجميع البشر البيض. وأرسل الخلاسيون الأحرار من جانبهم وفداً إلى باريس للمطالبة بحقوق المواطنية أمام الجمعية العامة، لأنه لا وجود في سان دومانغ لأبيض واحد، سواء أكان غنياً أم فقيراً، يوافق على منحهم تلك الحقوق. أجّل فالموران عودته إلى فرنسا إلى أجل غير مسمى حين أدرك أن لا شيء يربطه بتلك البلاد. فمن قبل، كان يستشيط غضباً ضد تبذير الملكية، وهو يفعل ذلك الآن ضد الفوضى الجمهورية. فبعد كل تلك السنوات الاضطرارية الطويلة في المستعمرة، انتهى به الأمر إلى تقبل أن مكانه هو العالم الجديد. وقد كتب إليه سانتشو غارثيا دل سولار بصراحته المعهودة مقترحاً عليه أن ينسى أوروبا عامة وفرنسا خاصة، حيث لا مكان للرجال المبادرين، وأن المستقبل في لويزيانا. وأن له اتصالات جيدة مع نيو أورلينز، ولا ينقصه إلا رأس المال ليبدأ

مشروعاً هناك، ولديه عدد من المهتمين به، ولكنه يرغب في إعطاء الأفضلية له بالذات بسبب الروابط العائلية ولأنهما حيث يضعان إصبعهما معاً يتدفق الذهب. وشرح له أن لويزيانا كانت في البداية مستعمرة فرنسية، وأنها تحولت منذ حوالي عشرين سنة إلى مستعمرة إسبانية، ولكن السكان ظلوا أوفياء لأصولهم. فالحكومة إسبانية، ولكن الثقافة واللغة مازالتا فرنسيتين. والمناخ شبيه بمناخ الأنتيل، وتدر الزراعات نفسها محاصيل وفيرة، مع ميزة اتساع المكان الشاسعة ورخص أسعار الأراضي؛ وبالتالي يمكن لهما شراء مزارع كبيرة جداً واستغلالها دون مشاكل سياسية ودون تمرد عبيد. ووعده بأنهما سيجمعان ثروة خلال سنوات قليلة.

بعد فقدان ابنها الأول، رغبت تيتي في أن تكون عاقر مثل بغلات معصرة القصب. ومن أجل أن تحب وتعاني كأم يكفيها موريس، ذلك الطفل الحساس الذي يمكن له أن يبكي تأثراً بالموسيقى، والتبول على نفسه غماً حيال القسوة. كان موريس يخاف كامبري، ويكفيه أن يسمع وقع كعبي جزمته على الشرفة كي يهرع للاختباء. وكانت تيتي تلجأ إلى أدوية تانت روز لتجنب حبل آخر، وهو ما تفعله عبدات أخريات، ولكن ذلك لم يكن يعطي النتيجة المنشودة على الدوام. وكانت المداوية تقول إن بعض الأطفال يصرون على المجيء إلى الدنيا، لأنهم لا يعرفون ما الذي ينتظرهم فيها. وهذا ما حدث لابن تيتي الثاني. لم تنفع في شيء مُشاقة القنب المضمخة بالخل لتفادي الحمل، كما لم ينفع منقوع أوراق لسان الثور، ولا التبخير بالخردل، ولا الديك المقدم قرباناً *للوات* من أجل إجهاضها. ومع اكتمال القمر الثالث على التوالي دون أن يأتيها الطمث، ذهبت إلى عرابتها متوسلة أن تخلصها من مشكلتها بعود مدبب الرأس، ولكن العجوز رفضت: المجازفة بالالتهاب كبيرة جداً، وإذا ما فوجئتا وهما تعتديان على ممتلكات السيد فسوف يجد كامبري سبباً مناسباً لسلخهما بالسوط.

ـ أفترضُ أن هذا الابن أيضاً من السيد ـ علقت تانت روز.

ـ لستُ واثقة يا عرابتي. يمكن أن يكون أيضاً من غامبو ـ تلعثمت تيتي بخوف.
ـ ممن؟
ـ المعاون في المطبخ. اسمه الحقيقي غامبو.
ـ إنه صغير، ولكنني أرى أنه يعرف أن يعمل ما يعمله الرجال. لا بد أنه أصغر منك بخمس أو ست سنوات.
ـ وما أهمية ذلك؟ المهم هو أنه إذا جاء الوليد أسود تماماً فسوف يقتلنا السيد كلينا!
ـ في أحيان كثيرة يأتي الأطفال المختلطين سوداً كأجدادهم ـ أكدت لها تانت روز.
ولرعبها من النتائج المحتملة لذلك الحمل، صارت تيتي تتخيل أن ما فيها هو ورم داخلي، ولكنها أحست في الشهر الرابع بخفقة حمامة، هبة لجوجة، أول إشارة مؤكدة على وجود حياة، ولم تستطع تجنب العاطفة والشفقة على الكائن المتكور في بطنها. وفي الليل، بينما هي مستلقية إلى جانب موريس، تطلب من جنينها العفو هامسة للخطأ الشنيع بإخراجه عبداً إلى هذه الدنيا. لم تكن ثمة حاجة في هذه المرة إلى إخفاء بروز بطنها، ولا إلى أن يسارع السيد بزوجته إلى كوبا، لأن الزوجة التعيسة لا تلحظ أي شيء. فمنذ زمن طويل لم يعد لإوخينيا أي اتصال بزوجها، والمرات القليلة التي لمحته فيها وهي في أجواء خبلها الضبابية، كانت تسأل من هو ذلك الرجل. ولم تكن تتعرف على موريس أيضاً. وفي لحظات تحسنها تعود إلى مرحلة مراهقتها، حين كانت في الرابعة عشرة تلعب مع تلميذات صاخبات في دير الراهبات في مدريد بينما هن ينتظرن شكولاته الفطور الكثيفة. أما بقية الوقت فتهوم في مشهد ضبابي بلا حدود واضحة حيث لا تعاني كما في السابق. قررت تيتي على مسؤوليتها التخفيف شيئاً فشيئاً من جرعة الأفيون التي تعطيها إياها، ولكن ذلك لم يؤد إلى أي اختلاف في سلوك إوخينيا. وحسب قول تانت روز، فإن السيدة قد أنجزت مهمتها في

الدنيا بإنجاب موريس ولم يبق لديها ما تفعله في هذا العالم.
كان فالموران يعرف جسد تيتي أفضل من معرفته جسد إوخينيا أو أي واحدة أخرى من العشيقات العابرات، وسرعان ما انتبه ازدياد سمنة خصرها وانتفاخ ثدييها. فسألها بينما هما في الفراش، بعد واحدة من تلك المجامعات التي تتحملها مستسلمة، والتي لم تكن بالنسبة إليه سوى تفريج نوستالجي عن النفس، فانفجرت تيتي في البكاء. فاجأه ذلك، لأنه لم يرها تذرف دموعاً منذ انتزع منها ابنها الأول. كان قد سمع أن الزنوج أقل إحساساً بالمعاناة، والدليل أن أياً من البيض لا يمكنه تحمل ما يتحملونه، وأنه مثلما تُنتزع الجراء من الكلبة، أو العجل من البقرة، يمكن فصل العبدات عن أبنائهن، وبعد وقت قصير يتقبلن الخسارة ولا يعدن إلى تذكرها بعد ذلك. لم يكن قد فكر قط بمشاعر تيتي، منطلقاً من قاعدة أنها مشاعر محدودة. فخلال غيابها، تتلاشى وتمحي وتظل غارقة في العدم إلى أن يحتاج إليها، عندئذ تتجسد من جديد. فهي غير موجودة إلا لخدمته. صحيح أنها لم تعد صبية، ولكن يبدو له أنها لم تتغير. إنه يتذكر بصورة غائمة الطفلة النحيلة التي سلمتها إليه فيوليت بواسيير قبل سنوات، والصبية اليانعة التي انبثقت من تلك الشرنقة غير الواعدة، والتي افتض بكارتها بسرعة خاطفة في الحجرة نفسها التي تنام فيها إوخينيا مخدرة، والشابة التي أنجبت طفلا دون أن تصدر عنها أنّة واحدة وهي تعض على قطعة خشب بين أسنانها، والأم التي ودعت الطفل الذي لن تراه أبدا بقبلة على جبينه، والمرأة التي تهدهد موريس برقة لامتناهية، من تغمض عينيها وتعض شفتيها عندما يتوغل فيها، من تنام أحياناً إلى جانبه مستنفدة من أعمال النهار المنهكة، ولكنها سرعان ما تستيقظ فجأة واسم موريس على شفتيها وتخرج راكضة. وتنصهر صور تيتي تلك كلها في صورة واحدة، كما لو أن الزمن لا يمضي بالنسبة لها. في تلك الليلة التي تلمس فيها التبدلات في جسدها، أمرها أن تشعل المصباح كي يراها. أعجبه ما رآه، ذلك الجسم بخطوطه الطويلة والثابتة، والبشرة ذات اللون

البرونزي، والردفين السخيين، والشفتين الحسيتين، وقدر أنها في أثمن أوضاعها. التقط بإصبعه دمعة انزلقت على أنفها، ودون أن يفكر في الأمر حملها إلى شفتيه. كانت مالحة، مثل دموع موريس.

ـ ماذا أصابك؟ ـ سألها.

ـ لا شيء يا سيدي.

ـ لا تبكي. يمكنك الاحتفاظ بطفلك هذه المرة، لأن إوخينيا ما عادت تهتم بذلك.

ـ إذا كان الأمر هكذا يا سيدي، لماذا لا تعيد لي ابني؟

ـ سيكون ذلك متعباً جداً.

ـ أخبرني إن كان حياً...

ـ إنه حي بالطبع يا امرأة! يجب أن يكون في الرابعة أو الخامسة من عمره، أليس كذلك؟ واجبك هو الاهتمام بموريس. ولا تعودي إلى ذكر ذلك الولد أمامي، واقنعي بسماحي لك بتربية الذي في أحشائك.

زاريتيه

غامبو يفضل قطع القصب على العمل المهين في المطبخ. «إذا ما رآني أبي، فسوف ينهض من بين الموتى ليبصق على قدميّ ويوبخني، فأنا ابنه الأكبر، وأقوم بأعمال امرأة. لقد مات أبي وهو يقاتل ضد من هاجموا ضيعتنا، مثلما يجب أن يموت الرجال.» هذا ما كان يقوله لي. فقد كان صيادو العبيد من قبيلة أخرى، آتين من بعيد، من الغرب، مع خيول وبنادقٍ مثل رئيس مراقبي فرق العمل. قرى أخرى اختفت من الوجود حرقاً، وكانوا يأخذون الشباب، ويقتلون المسنين والأطفال الصغار، ولكن أباه كان يظن أنهم بمنجى، وأنهم محميون بالبعد والغابة. كان الصيادون يبيعون أسراهم لمخلوقات لها أنياب ضباعٍ ومخالب تماسيح، يتغذون على اللحم البشري. لا أحد يرجع أبداً. وغامبو هو الوحيد من أسرته الذي أمسكوا به حياً، وهذا حُسن طالع لي ونكبة له. صمدٍ في القسم الأول من الرحلة، وقد استغرق قمرين كاملين، وكان مقيداً مع الآخرين بحبال ونيرٍ خشبي على رقبته، يُدفع على المشي بالضرب، دون طعام أو ماء تقريبا. وعندما لم يعد بإمكانه أن يخطو خطوة أخرى، ظهر أمام عينيه البحر الذي لم يكن أي ممن هم معه في الصف الطويل يعرفه، وظهرت قلعة مهيبة على الرمل. لم يتوصلوا إلى الدهشة حيال لون ذلك الماء وامتداده الذي يختلط بالسماء عند الأفق، لأنهم حبسوهم. عندئذ رأى غامبو البيض أول مرة، وظن أنهم شياطين؛ ثم عرف بعد ذلك أنهم أناس، ولكنه لم يصدق قط أنهم بشر مثلنا. كانوا يلبسون خرقاً مضمخة بالعرق، وصدريات حديدية وجزمات من الجلد، يصرخون ويضربون دون سبب. ليس فيهم شيء من الأنياب أو المخالب، ولكن لهم شعر في وجوههم، ولديهم أسلحة وسياط، ولهم رائحة مقرفة تدوخ العصافير المحلقة في

السماء. هكذا أخبرني. فصلوه عن النساء والأطفال، وحشروه في زريبة، حارة في النهار وباردة في الليل، مع مئات من الرجال الذين لا يتكلمون لغته. لا يدري كم من الوقت ظل هناك، لأنه نسي متابعة مراحل القمر، ولا كم من الرجال ماتوا، لأنه لم يكن لأيٍ منهم اسم ولم يكن هناك من يعدّهم. في البدء كانوا مزدحمين جدا بحيثٍ لا يمكنهم الاستلقاء على الأرض، ولكنهم كلما أخرجوا مزيداً من الجثث، كان المكان يتسع أكثر. بعد ذلك جاء ما هو أسوأ، ما لا يود أن يتذكره، ولكنه كان يعيشه من جديد وهو نائم: السفينة. كانوا ممددين واحداً إلى جانب الآخر، مثل جذوع الحطب، على عدة طبقات من الألواح الخشبية، وكانوا مقيدين والحديد يطوق أعناقهم، لا يعرفون إلى أين يأخذونهم، ولا لماذا يتأرجحون في تلك القرعة المجوفة الهائلة، جميعهم يئنون، يتقيؤون، يتبرزون، يوشكون على الموت. كانت رائحة النتانة قوية تصل حتى عالم الأموات ويشمها أبوه. ولم يستطع غامبو أن يقدّر الوقت هناك أيضاً، مع أنه رأى الشمس والنجوم مرات عديدة، عندما كانوا يخرجونهم في جماعات إلى سطح السفينة لغسلهم بدلاء من ماء البحر ويجبرونهم على الرقص كيلا ينسوا استخدام سيقانهم وأذرعهم.

كان البحارة يرمون الموتى والمرضى من حافة السفينةٍ، ثم يأخذون بعض الأسرى ويجلدونهم للمتعة. ويربطون أشدهم تمادياً من المعصمين ويُنزلونهم ببطء إلى الماء الذي يعج بأسماك القرش، وعندما يرفعونهم لا يكون قد بقي منهم سوى الذراعين. وقد رأى غامبو أيضاً ما كانوا يفعلونه بالنساء. وتحين فرصة لإلقاء نفسه من حافة السفينة، مفكراً في أن روحه، بعد وليمة أسماك القرش التي رافقت السفينة من أفريقيا حتى الأنتيل، ستذهب سابحة إلى الجزيرة تحت البحر لتجتمع مع أبيه وبقية أفراد أسرته. «إذا ما عرف أبي أنني أحاول الموت دون قتال، فسوف يبصق مجدداً على قدميّ.»، هكذا قال لي.

مسوغه الوحيد للبقاء في المطبخ مع تانت ماتيلد هو أنه يعدّ العدة

للهرب. إنه يعرف المخاطر. ففي سان لازار يوجد عبيد بلا أنوف ولا آذان، أو بأصفاد وكرات حديدية مثبتة بكواحل أقدامهم، لا يمكنهم نزعها ومن المستحيل الركض بها. أظن أنه كان يؤخر هروبه بسببي، بسبب النظرات التي نتبادلها، رسائل الحصى في حظيرة الدجاج، الحلويات التي كان يسرقها لي من المطبخ، وترقب معانقاتنا التي أشبه بدغدغة حكة في سائر أنحاء الجسم، وبسبب تلك اللحظات النادرة التي ظللنا فيها على انفراد أخيراً وتلامسنا. «سنكون أحراراً يا زاريتيه، وسنكون معاً طوال الوقت. إنني أحبكِ أكثر من أي شيء، أكثر من إخوتي وأخواتي، أكثر منهم جميعهم معاً، ولكن ليس أكثر من شرفي.» على المحارب أن يفعل ما يتوجب عليه فعله، وهذا أهم من الحب. كيف يمكن لي ألا أفهمه. نحن النساء نحب بصورة أعمق وأطول، وهذا أعرفه أيضاً. لقد كان غامبو متكبراً، وليس هناك من خطر على العبد أشد من الكبرياء. كنت أتوسل إليه أن يظل في المطبخ إذا أراد البقاء على قيد الحياة، وأن يصير غير مرئي من أجل تجنب كامبري، ولكن طلب ذلك كان كثيراً عليه، إنه كالطلب إليه أن يعيش جباناً. الحياة مكتوبة في **نجمنا** ولا يمكننا تغييرها. «أتأتين معي يا زاريتيه؟» لا يمكنني الذهاب معه، كنت حبلى وثقيلة جداً، وما كان يمكن لنا أن نصل بعيداً ونحن معاً.

كانت فيوليت بواسيير قد غادرت حياة لوكاب الليلية منذ سنوات عديدة، ليس لأنها ذوت، إذ مازال بالإمكان مقارنتها بأي واحدة من منافساتها، وإنما بسبب علاقتها بإيتيان روليه. كانت العلاقة قد تحولت إلى تواطؤ غرامي مُطيّب بعاطفته وطيب مزاجها. وكانا يعيشان معاً منذ نحو عقد من السنوات، وبدا لهما ذلك الزمن قصيراً جداً. في البدء كانا يعيشان منفصلين، لا يلتقيان إلا خلال زيارات روليه القصيرة ما بين حملاته العسكرية. واصلت هي مهنتها لبعض الوقت، ولكنها صارت تقدم خدماتها العظيمة لحفنة صغيرة من أشد الزبائن سخاء. وصارت شديدة انتقائية، فكان على لولا أن تشطب العنيفين من القائمة، وكذلك القبيحين جداً وكريهي الأنفاس؛ وأن تعطي الأفضلية بالمقابل لكبار السن، لأنهم الأكثر امتناناً. بعد سنوات قليلة من تعرفه على فيوليت، جرت ترقية روليه إلى رتبة مقدّم وكُلّف بمهمة الأمن في الشمال؛ عندئذ صار يسافر لفترات أقصر. وما كاد يتمكن من الاستقرار في لوكاب حتى تخلى عن النوم في الثكنة وتزوج منها. وقد فعل ذلك بتحدٍ، وفي حفلة صاخبة وطقوس في الكنيسة وإعلان في الجريدة، مثل حفلات زفاف *البيض الكبار*، أمام حيرة رفاقه في السلاح غير القادرين على فهم أسباب زواجه من امرأة ملونة، وذات سمعة مشكوك بها فوق ذلك، مادام بإمكانه الاحتفاظ بها كعشيقة؛ ولكن أياً منهم لم يسأله عن ذلك مباشرة، ولم يقدم هو بدوره أي تفسير. وكان يعتمد على أن أحداً لن يتجرأ على توجيه إهانات إلى امرأته. وأعلمت فيوليت «أصدقائها» أنها لم تعد متاحة، ووزعت على مومسات أخريات أثوابها الاحتفالية التي لم تستطع تحويلها إلى ملابس محتشمة، وباعت شقتها وذهبت مع لولا للعيش في بيت استأجره روليه في حي *البيض الصغار والمولدين*. وصارت صداقاتها الجديدة مع خلاسيين، بعضهم أغنياء، ومع مالكي أراضي وعبيد كاثوليكيين،

وإن كانوا يلجؤون سراً إلى ممارسة طقوس البودو. وهم يتحدرون من البيض أنفسهم الذين يعاملونهم بازدراء، إنهم أبناؤهم أو أحفادهم، يقلدونهم في كل شيء، ولكنهم ينكرون قدر ما يستطيعون ما في عروقهم من دم أمهاتهم الأفريقي. لم يكن روليه ودوداً، فهو لا يشعر بالراحة إلا في خشونة رفاق الثكنة، ولكنه يرافق زوجته بين حين وآخر إلى اللقاءات الاجتماعية. «ابتسم يا إيتيان، كي يتخلص أصدقائي من خوفهم من كلب سان دومانغ الشرس»، كانت تطلب منه. وقد قالت فيوليت للولا إنها تحن إلى بريق الحفلات والاستعراضات التي كانت تملأ لياليها سابقاً. «لقد كنت تملكين المال في تلك الأثناء وكنتِ تستمتعين يا ملاكي، أما الآن فأنت فقيرة وتضجرين. ما الذي جنيته مع زوجك الجندي؟» كانتا تعيشان على راتب المقدم، ولكنهما تمارسان من وراء ظهره بعض الصفقات التجارية: عمليات تهريب صغيرة، منح قروض بفوائد. فتزيدان بذلك رأس المال الذي كانت فيوليت قد كسبته وعملت لولا على استثماره.

لم ينسَ إيتيان روليه خططه بالعودة إلى فرنسا، لاسيما وأن الجمهورية منحت الآن سلطات للمواطنين العاديين من أمثاله. لقد ضجر من الحياة في المستعمرة، ولكنه لم يتوصل إلى توفير ما يكفي من المال ليتقاعد من الجيش. لم يكن يمقت الحربٍ، فهو مسخ معارك، اعتاد المعاناة والتسبب بالمعاناة، ولكنه كان متعباً من الصخب. لم يعد يفهم الوضع في سان دومانغ: التحالفات تُعقد وتنفرط في ساعات، والبيض يتصارعون ضد بعضهم بعضاً، وضد *المولدين*، وليس هناك من يهتم بتمرد الزنوج المتعاظم الذي يرى فيه الأخطر بين المخاطر كلها. وعلى الرغم من الفوضى والعنف، وجد الزوجان سعادة وادعة لم يعرفها أي منهما من قبل. كانا يتجنبان الحديث عن أبناء، لأن فيوليت غير قادرة على إنجابهم، ولم يكن هو يهتم بهم، ولكن عندما جاء تولوز فالموران إلى بيتهم في مساء أحد الأيام ومعه طفل حديث الولادة ملفوف بدثار، استقبلاه كما لو أنه عوذة الحظ التي ستملأ ساعات

فراغ فيوليت ولولا، دون أن يخطر لهما أنه سيتحول إلى الابن الذي لم يتجرأا على الحلم به. لقد حمله فالموران إلى فيوليت لأنه لم يخطر له حلّ آخر لإخفائه قبل أن ترجع زوجته إوخينيا منٍ كوبا. كان عليه أن يحول دون أن تعرف امرأته أن ابن تيتي هو ابنه أيضا. لا يمكن للطفل أن يكون ابن رجل آخر، لأن فالموران هو الرجل الأبيض الوحيد في سان لازار. كان يجهل أن فيوليت قد تزوجت من العسكري. ولم يجدها في الشقة في ساحة كلوني التي صار لها الآن مالك آخر، ولكنه لم يجد صعوبة في التحري عن مكان إقامتها الجديد، وإلى هناك ذهب مع الطفل ومرضع حصل عليها من صديقه لاكروا. طرح الموضوع على الزوجين كترتيب مؤقت، دون أن تكون لديه فكرة عن الكيفية التي سيحل بها المسألة في ما بعد؛ وقد أحس بالراحة حين تقبلت فيوليت وزوجها الطفل دون أي استفسارات سوى السؤال عن اسمه. فقال لهما: «لم أُعمده بعد، يمكنكما أن تطلقا عليه الاسم الذي ترغبان فيه».

كان إيتيان روليه لا يزال حديدياً، متين البنية ومعافى كما في شبابه. إنه حزمة عضلات وألياف، مع لمة شعر رمادي وطبع حديدي ساعده على الترقية في الجيش وأكسبه عدة ميداليات. لقد خدم الملك من قبل وسيخدم الآن الجمهورية بالإخلاص نفسه. وهو مازال يرغب في ممارسة الحب مع فيوليت لمرات متتالية، وترافقه هي بموهبة بارعة في شقلبات العشاق تلك التي ترىٍ لولا أنها غير لائقة بالأزواج الناضجين. وقد كان التناقض بارزا بين شهرته بالقسوة، والرقة الخفية التي يغدقها على المرأة والطفل الذي سرعان ما كسب قلبه، هذا العضو غير الموجود لديه، مثلما كان يؤكد في الثكنة. وكثيراً ما كان يقول: «يمكن لهذا الصغير أن يكون حفيدي»، وقد كان لديه في الحقيقة خرفُ جد. كانت فيوليت والطفل هما الشخصان الوحيدان اللذان أحبهما في حياته، وعند التشديد عليه أكثر قليلاً، يوافق على أنه يحب لولا أيضاً، تلك الأفريقية المتطلبة التي أرهقته جداً في البداية،

حين كانت تسعى لأن تحصل فيوليت على زوج أكثر ملاءمة لها. عرض عليها روليه أن يعتقها، فكان ردّ فعل لولا الارتماء على الأرض وهي تئن قائلة إنهما يريدان التخلص منها مثل ما يحدث لعبيد كثيرين عندما يصيرون غير نافعين بسبب الشيخوخة أو المرض، فيهجرهم أسيادهم في الشارع كيلا يضطروا إلى إطعامهم، وتقول إنها أمضت حياتها تعنى بفيوليت، وعندما لم يعودا بحاجة إليها سيحكمون عليها بتسول الصدقات أو الموت جوعاً، والصراخ على هذا النحو بغضب واحتدام. وأخيراً تمكن روليه من جعلها تسمعه ليؤكد لها أنه يمكنها أن تبقى عبدة حتى نفسها الأخير إذا كان هذا هو ما ترغب فيه. ومنذ ذلك الوعد تبدل سلوك المرأة، وبدلاً من أن تضع له تحت السرير دمى تخترقها دبابيس، صارت تسعى جاهدة لتُعدّ له مأكولاته المفضلة.

كانت فيوليت قد نضجت ببطء، مثل ثمار المانجا. ومع مرور السنوات لم تفقد طزاجتها، ولا هيئتها المتكبرة أو ضحكتها المتدفقة، لقد سمنت قليلاً فقط، وهذا يفتن زوجها. وهي تتصرف بثقة من تتمتع بالحب. ومع مرور الزمن وإستراتيجية لولا، تحولت إلى أسطورة، تلاحقها الأبصار والهمسات أينما ذهبت، بمن في ذلك أبصار وهمسات من لا يستقبلونها في بيوتهم. فكانت فيوليت تقول ضاحكة: «لا بد أنهم يتساءلون عن بيضة الحمامة». كان أشد الرجال تكبراً يخلعون قبعاتهم لدى مرورها عندما يكونون وحدهم، وكثيرون منهم يتذكرون الليالي المتأججة في شقة ساحة كلوني، ولكن النساء من أي لون كنّ يشحن ببصرهن عنها حسداً. كانت فيوليت ترتدي ملابس ذات ألوان بهيجة، وتقتصر زينتها الوحيدة على خاتم الأوبال الذي أهداها زوجها إياه، وقرطين ذهبيين ثقيلين في أذنيها، يبرزان ملامحها البديعة وعاج بشرتها، حصيلة حياة لم تتعرض لشعاع شمس. لم تكن تضع مجوهرات أخرى، فقد باعتها كلها لتزيد رأس المال الضروري لصفقاتها الربوية، إلى أن حان موعد الرحيل. كانا مستلقيين على السرير ذات يوم أحد، في موعد القيلولة، دون أن يلمس أحدهما

الآخر بسبب شدّة الحر، عندما قالت إنه إذا كان يرغب حقاً في العودة إلى فرنسا، مثلما ظل يقول منذ زمن طويل، فإنها تملك الموارد اللازمة لذلك. وفي تلك الليلة بالذات، في كنف الظلام، نبشت عن كنزها مع لولا. وعندما راز المقدم جراب القطع النقدية، تجاوز المفاجأة وترك جانباً اعتراضاته كذكر مهان بمكر المرأتين، وقرر تقديم استقالته من الجيش. فقد أدى واجبه وأكثر تجاه فرنسا. عندئذ بدأ الزوجان التخطيط للرحلة، وكان على لولا أن تستسلم لفكرة تحولها إلى حرة، لأن العبودية كانت قد ألغيت في فرنسا.

ابنا السيد

في ذلك المساء كان الزوجان روليه ينتظران أهم زيارة في حياتهما، مثلما أوضحت فيوليت للولا. كان بيت الضابط أكثر اتساعاً إلى حدّ ما من الشقة ذات الغرف الثلاث في ساحة كلوني، إنه بيت مريح، ولكن دون ترف. البساطة التي تبنتها فيوليت في الملبس امتدت إلى مسكنها المفروش بأثاث من صنع حرفيين محليين ودون الابتذال الذي كان يروقها من قبل. أول الواصلين في ذلك المساء كان الكاتب بالعدل ومعه معاونه الشاب يحمل سجلاً ضخماً أزرق الغلاف. أجلستهما فيوليت في حجرة مجاورة للصالون الرئيسي تُستخدم مكتباً لروليه، وقدمت إليهما قهوة وفطائر متقنة من صنع الراهبات، هي على حدّ قول لولا مجرد عجين مقلي، وأنها تصنع أفضل منها بكثير. بعد قليل من ذلك طرق الباب تولوز فالموران. كان وزنه قد ازداد عدة كيلوغرامات، ويبدو أكثر إنهاكاً وبدانة مما تتذكره فيوليت، ولكنه مازال يحتفظ بعجرفة *البيض الكبار* التي بدت لها مضحكة على الدوام، لأنها معتادة على تعرية الرجال بنظرة واحدة، وفي عريهم لا قيمة لألقابهم وثرواتهم وأعراقهم، إنما لحالتهم البدنية ونواياهم فقط. حياها فالموران بحركة لتقبيل يدها، ولكن دون لمسها بشفتيه، لأن عمل ذلك بحضور روليه ينطوي على عدم لياقة. ووافق على اتخاذ مجلس وتناول عصير الفاكهة الذي قدمته إليه.

ـ لقد مضت عدة سنوات منذ المرة الأخيرة التي التقينا بها يا مسيو ـ قالت بنبرة رسمية جديدة بينهما، محاولة إخفاء اللهفة التي تضغط على صدرها.

ـ لقد توقف الزمن بالنسبة لحضرتكِ يا مدام، فأنتِ ما تزالين مثلما كنت.

ـ لا تغضبني، لأني أرى نفسي أفضل ـ قالت مبتسمة، وفوجئت بأن وجه الرجل قد احمر خجلاً.. ربما كان في حالة عصبية مثلها.

ـ مثلما علمتَ من خلال رسالتي يا مسيو فالموران، نحن نفكر في الذهاب إلى فرنسا خلال وقتٍ قصير ـ بدأ إيتيان روليه الذي يرتدي الزي العسكري، ويجلس متيبساً كعمود على كرسيه.

ـ أجل، أجل ـ قاطعه فالموران ـ يتوجب عليّ قبل كل شيء أن أشكركما على رعايتكما الصغير خلال هذه السنوات. ما هو اسمه؟

ـ جان مارتن ـ قال روليه.

ـ أظن أنه صار رجلاً صغيراً. أرغب في رؤيته إذا كان ذلك ممكناً.

ـ سيأتي بعد لحظات. إنه يتنزه مع لولا وسيرجعان قريباً.

شدّت فيوليت تنورة ثوبها البسيط من الكريب الأخضر الغامق مع حواشٍ بنفسجية وقدمت مزيداً من العصير في الكؤوس. كانت يداها ترتجفان. وخلال دقيقتين بدتا أبديتين لم يتكلم أحد. بدأ طير كناري يغرد في قفصه كاسراً الصمت الثقيل. كان فالموران يراقب فيوليت خلسة مسجلاً التبدلات التي طرأت على ذلك الجسد الذي تمادى في حبه ذات يومٍ. تساءل كم هو عمرها يا ترى، وهل تراها تستخدم إكسيراً سحرياً للحفاظ على جمالها، مثلما قرأ في مكان ما أن الفرعونات القديمات كن يفعلن، ولكنهن كنّ ينتهين إلى التحول على أي حال إلى موميات محنطة. أحس بالحسد وهو يتخيل سعادة روليه معها.

ـ لا يمكننا أن نأخذ جان مارتن معنا في الظروف الحالية يا تولوز ـ قالت فيوليت أخيراً بنبرة أليفة كانت تستخدمها عندما كانا عاشقين، ووضعت يديها على كتفه.

ـ إنه ليس لنا ـ أضاف المقدم بتكشيرة في الفم وبعينين ثابتتين على منافسه القديم.

ـ لقد أحببنا هذا الطفل كثيراً، وهو يظن أننا أبواه. وقد رغبتُ على الدوام في أن يكون لي أبناء يا تولوز، ولكن الرب لم يمنحني إياهم.

لهذا نحن راغبان في شراء جان مارتن، وعتقه وأخذه معنا إلى فرنسا حاملاً كنية روليه، كابن شرعي لنا ـ قالت فيوليت، وانفجرت في البكاء فجأة وراحت تختلج بالنحيب.

لم يقم أي من الرجلين بحركة لمواساتها. ظلا ينظران إلى طيور الكناري بعصبية، إلى أن تمكنت هي من استعادة الهدوء، وكان ذلك في اللحظة نفسها التي دخلت فيها لولا ممسكة الصغير من يده. كان جميلاً. ركض إلى حيث روليه ليريه شيئاً يضمه في قبضته، متكلماً بانفعال، وقد اصطبغ خداه بالحمرة. أشار له روليه باتجاه الزائر، فاقترب الصبي ومد إليه يداً سمينة وصافحه بخجل. تأمله فالموران بسعادة وتأكد من أنه لا يشبهه ولا يشبه ابنه موريس في شيء.

ـ ما الذي لديك؟ ـ سأله.

ـ حلزون.

ـ ألا تهديني إياه؟

ـ لا أستطيع، لأنه لبابا ـ أجاب جان مارتن وهو يرجع إلى جانب روليه ليصعد على ركبتيه.

ـ اذهب مع لولا يا بني ـ أمره العسكري. وانصاع الطفل فوراً، فأمسك بتنورة المرأة وانصرفا معاً.

ـ إذا كنت موافقاً... حسن، لقد دعونا كاتباً بالعدل في حال موافقتك على اقتراحنا يا تولوز. وسيكون علينا الذهاب بعد ذلك إلى قاضٍ ـ تلعثمت فيوليت وهي توشك على البكاء من جديد.

لقد جاء فالموران إلى اللقاء دون خطة مسبقة. كان يعرف ما سيطلبانه منه، لأن الزوجين روليه أوضحا ذلك في رسالتهما، ولكنه لم يتخذ قراراً في الأمر، وكان راغباً في رؤية الصبي أولاً. لقد خلف فيه انطباعاً جيدا، فهو جميل ولا تنقصه قوة الشخصية كما يبدو، إنه يساوي الكثير من المال، ولكنه سيكون مصدر إزعاج له. لقد دللاه منذ مولده، وهذا يبدو واضحاً، وهو لا يعرف مكانته الحقيقية في المجتمع. ما الذي سيفعله بهذا الصغير ابن الزنا ذي الدم المختلط؟ عليه أن يرعاه

في البيت خلال السنوات الأولى. ولا يمكنه تصور كيف سيكون رد فعل تيتي. لا بد أنها ستتحول إلى ابنها، وسيشعر موريس عندئذ بأنه مهمل، بعد أن كان يظن حتى هذه اللحظة أنه الابن الوحيد. ويمكن لتوازن بيته الهش أن ينهار. وفكر أيضاً في فيوليت بواسيير، وذكرى حبه الغائمة، والخدمات التي قدمها كل منهما للآخر على امتداد سنوات، والحقيقة البسيطة في أنها أم جان مارتن أكثر بكثير من تيتي. كما أن آل روليه سيقدمون للطفل ما لا يفكر هو في تقديمه إليه: الحرية، التعليم، لقب الأسرة، والوضع الاجتماعي المحترم.

ـ أرجوك يا مسيو أن تبيعنا جان مارتن. سندفع لك ما تطلبه، وإنٍ كنا، كما ترى، لسنا واسعي الثراء ـ رجاه إيتيان روليه متشنجاً ومتوتراً، بينما فيوليت ترتعش وهي تستند إلى عتبة الباب الذي يفصلها عن الكاتب بالعدل.

ـ أخبرني يا سيد، كم أنفقتما عليه خلال هذه السنوات؟ ـ سأله فالموران.

ـ لم أفكر في مثل هذه الحسابات قط ـ ردّ روليه متفاجئاً.

ـ حسن، هذا هو ما يساويه الصبي. لقد تعادلنا. لقد صار ابنكما.

سار حمل تيتي دون أي تغيير بالنسبة لها، فقد واصلت عملها من طلوع الشمس حتى مغيبها كالعادة، والمجيء إلى سرير سيدها كلما شاءت نزوته ليفعلا كما الكلاب بعد أن تحول بطنها إلى عائق. كانت تيتي تلعنه في نفسها، ولكنها تخشى في الوقت نفسه أن يستبدلها بعبدة أخرى ويبيعها لكامبري، وهو أسوأ مصير يمكن لها تصوره.

ـ لا تقلقي يا زاريتيه، إذا ما جاءت تلك اللحظة فسوف أتولى أنا أمر رئيس مراقبي فرق العمل ـ وعدتها تانت روز.

ـ لماذا لا تفعلين ذلك الآن يا عرابتي؟ ـ سألتها الفتاة.

ـ لأنه يجب عدم القتل دون سبب معقول.

في ذلك المساء كانت تيتي منتفخة، بإحساس من تحمل بطيخة في بطنها، وكانت تخيط في أحد الأركان على بعد خطوات من فالموران

الجالس على أريكة يقرأ ويدخن. رائحة التبغ اللاذعة التي كانت تروقها، صارت تقلب معدتها الآن. منذ شهور لم يأتِ زائر إلى سان لازار، وحتى الدكتور بارمونتيه، الضيف المثابر، صار يخشى الطريق؛ فالسفر غير مأمون في المنطقة الشمالية من الجزيرة دون حراسة قوية. وكان فالموران قد فرض عادة أن ترافقه تيتي بعد العشاء، إنه واجب آخر يضاف إلى الواجبات المفروضة عليها. في تلك الساعة لم تكن ترغب في شيء سوى الاستلقاء والنوم متكورة إلى جانب موريس. فهي تكاد لا تستطيع تحمل جسمها الحار والمتعب والمتعرق مع ضغط الوليد على عظامها، وآلام ظهرها، وتصلب ثدييها، وتأجج حلمتيهما. وقد كان ذلك اليوم هو الأسوأ. فالهواء يبدو قليلاً بحيث لا يمكنها تنفسه. والوقت مازال باكراً، ولكن العاصفة التي سرّعت مجيء الليل أجبرتها على إحكام النوافذ، وصار البيت يبدو ضاغطاً كسجن. لقد نامت إوخينيا منذ نصف ساعة ترافقها ممرضتها، وموريس ينتظرها، ولكنه تعلّم عدم مناداتها لأن ذلك يغضب أباه.

توقفت العاصفة فجأة مثلما بدأت، وصمت وقع ماء المطر وعصف الرياح مفسحين المجال لكورال ضفادع. توجهت تيتي إلى إحدى النوافذ وفتحتها، وراحت تستنشق بعمق نفحة الرطوبة والبرودة التي كنست الجزيرة. بدا لها النهار أبدياً. كانت قد أطلت مرتين على المطبخ بذريعة التكلم إلى تانت ماتيلد، ولكنها لم تر غامبو. أين تراه اختفى ذلك الفتى؟ كانت ترتجف من أجله. فشائعات الجزيرة تصل إلى سان لازار، تتناقلها أفواه الزنوج سراً ويعلق عليها علانية البيض الذين لا يتوخون الحذر أبداً مما يقولونه أمام عبيدهم. الخبر الأخير هو إعلان حقوق المواطن الصادر في فرنسا. كان البيض على أحر من الجمر، بينما كان المولدون المهمشون دائماً يأملون بإمكانية الحصول على المساواة مع البيض. حقوق الإنسان لا تشمل الزنوج، مثلما أوضحت تانت روز للعبيد المجتمعين في حفلة *كاليندا*، فالحرية ليست مجانية، لا بد من القتال من أجلها. الجميع يعرفون أن مئات العبيد قد اختفوا من المزارع

القريبة لينضموا إلى عصابات المتمردين. لقد هرب عشرون عبداً من سان لازار، غير أن بروسبير كامبري ورجاله طاردوهم وتمكنوا من العودة بأربعة عشر عبداً منهم. الستة الآخرون ماتوا بالرصاص على حدّ قول رئيس مراقبي فرق العمل، ولكن أحداً لم ير أجسادهم، وتانت روز تعتقد أنهم تمكنوا من الوصول إلى الجبال. وقد عزز ذلك تصميم غامبو على الهرب. لم يعد بإمكان تيتي كبحه، وقد بدأت تعاني عذاب فراقه وانتزاعه من قلبها. ليس هناك ما هو أسوأ من عذاب الحب بخوف، كما تقول تانت روز.

رفع فالموران عينيه عن الصفحة ليتناول رشفة أخرى من الكونياك، واتجهت عيناه إلى عبدته التي تقف منذ بعض الوقت إلى جانب النافذة المفتوحة. وعلى ضوء المصباح الخافت رآها تلهث متعرقة، كانت يداها تشدان على بطنها. وفجأة أخمدت تيتي آنّة ورفعت ذيل تنورتها فوق الكاحلين ناظرة بارتباك إلى البركة الصغيرة التي تتسع على الأرض وتبلل قدميها الحافيتين. «لقد حان الوقت»، تمتمت ثم خرجت مستندة إلى قطع الأثاث باتجاه الشرفة. بعد دقيقتين هرعت عبدة أخرى لتمسح الأرضية.

- اذهبي لاستدعاء تانت روز - أمرها فالموران.

- لقد ذهبوا بحثاً عنها يا سيدي.

- أخبريني عندما تضع المولود. وأحضري لي الآن مزيداً من الكونياك.

زاريتيه

ولدت روزيت في اليوم نفسه الذي اختفى فيه غامبو. هذا ما حدث. وقد ساعدتني روزيت على تحمّل كرب أن يقبضوا عليه حياً والفراغ الذي خلّفه في جسدي. كنت مستغرقة في طفلتي. ولم يكن غامبو الذي يركض في الغابة، تطارده كلاب كامبري، يشغل إلا جزءاً من تفكيري. إرزولي، أيتها اللوا الأم، احمي هذه الطفلة. لم أشعر من قبل قطّ بمثل هذا الحب، لأني لم أتوصل إلى وضع ابني الأول على صدري. فقد نبه السيدُ تانت روز إلى أنني يجب ألا أراه، فهكذا يكون فصله عني أسهل، ولكنها سمحت لي بحمله لحظة قبل أن يأخذه. وقد أخبرتني بعد ذلك، بينما هي تنظفني، أنه ولد معافى وقوي. ومع روزيت، عرفت بصورة أفضل ما ضيعته. إذا ما انتزعوها مني فسوف أصاب بالجنون، مثل دونيا إوخينيا. كنت أحاول عدم تخيل ذلك، لأن تخيل الأمور يجعل حدوثها ممكناً، ولكن كل عبدة تعيش هذا القلق على الدوام. لا يمكننا حماية أبنائنا ولا التعهد إليهم بأن نظل معهم ماداموا بحاجة إلينا. لأننا سرعان ما نفقدهم، ولهذا من الأفضل عدم المجيء بهم إلى الحياة. لقد سامحتُ أخيراً أمي التي لم تشأ المرور بهذا العذاب.

كنت أعرف طوال الوقت أن غامبو سيبتعد عني. وقد تقبلنا كلانا ذلك في العقل، ولكن ليس في القلب. يمكن لغامبو أن ينجو بنفسه وحيداً، إذا ما كان ذلك مقدراً في نجمه وسمح **اللوات** بذلك، ولكن لا يمكن لكل **اللوات** مجتمعين أن يحولوا دون القبض عليه لو أنني ذهبت معه. كان غامبو يضع يده على بطني ويشعر بحركة الطفل واثقاً من أنه منه وأنه سيُسميه هونوري، تكريماً للعبد الذي رباني في بيت مدام ديلفين. لا يمكن له أن يسميه باسم أبيه الذي صار في عالم **الموتى والأسرار**. اسم هونوري مناسب لمن يضع الشرف فوق كل

الاعتبارات، بما في ذلك الحب. «من دون الحرية لا شرف للمحارب. تعالي معي يا زاريتيه.» لم يكن بإمكاني مرافقته ببطني المنتفخ، كما لا يمكنني ترك دونيا إوخينيا التي لم تعد سوى دمية في فراشها، وأقل منها ترك موريس، طفلي، الذي وعدته بعدم الانفصال عنه أبداً.

لم يعلم غامبو بأنني وضعت وليدي، لأني بينما كنت أدفع بقوة في كوخ تانت روز، كان هو يركض كأنه الريح. لقد خطط للأمر جيداً. هرب عند الغروب، قبل خروج الحراس مع كلابهم. ولم تطلق تانت ماتيلد صوت الإنذار إلا في اليوم التالي ظهراً، على الرغم من أنها انتبهت إلى غيابه منذ الفجر، فمنحته بذلك بضع ساعات إضافية. لقد كانت عرابة غامبو. ففي سان لازار، كما في المزارع الأخرى، يخصصون لكل من العبيد حديثي المجيء من أفريقيا عبداً آخر يعلمه الطاعة والانصياع ويسمونه العراب، وبما أنهم وضعوا غامبو في المطبخ، فقد خصصوا له تانت ماتيلد التي تقدمت في السن، وكانت قد فقدت أبناءها، فأحبته، ولهذا السبب ساعدته. كان بروسبير كامبري يمضي مع جماعة من الدرك في مطاردة عبيد هربوا قبل قليل من ذلك. ولأنه كان قد أعلن عن قتله لهم، لم يفهم أحد سبب إصراره على مواصلة البحث عنهم. لقد انطلق غامبو في اتجاه معاكس، واحتاج رئيس مراقبي فرق العمال لبعض الوقت من أجل تنظيم المطاردة. ذهب غامبو في تلك الليلة لأنه تلقى إشارة من **اللوات**. وتوافق الأمر مع غياب كامبري ومع اكتمال القمر، لأن الركض غير ممكن في ليلة غير مقمرة. هكذا فكر.

ولدت ابنتي بعينين مفتوحتين ومتطاولتين، لهما لون عينيَّ. تأخرت في البدء بالتنفس، ولكنها عندما فعلت ذلك جعلت أنفاسها لهب الشمعة يرتعش. وقبل أن تغسلها تانت روز، وضعتها على صدري، وكانت لا تزال متصلة بي بمصران ثخين. سميتها روزيت تكريماً لتانت روز التي طلبتُ منها أن تكون جدتها، لأنه ليس لنا أسرة. وفي اليوم التالي عمّدها السيد برش ماء مبارك على جبهتها والتمتمة بكلمات

مسيحية، ولكن تانت روز نظمت في الأسبوع التالي طقوس **رادا** حقيقية من أجل روزيت. وسمح لنا السيد بإقامة حفلة **كاليندا** وقدم لنا عنزتين للشواء. وهكذا كان. وفي ذلك تشريف خاص، لأنهم لا يحتفلون في المزرعة بمولد العبيد. أعدّت النساء طعاماً وأشعل الرجال موقداً ومشاعل وقرعوا الطبول على شرف تانت روز. رسمت عرابتي على الأرض، بخط نحيل من دقيق الذرة، الكتابة المقدسة **ستحيا** حول العمود المركزي، عمود الوسط، وإلى هناك نزل **اللوات** وامتطوا عددا من الخدم، ولكن ليس أنا. ذبحت تانت روز دجاجة: كسرت جناحيها أولاً ثم انتزعت بعد ذلك رأس الدجاجة بأسنانها، مثلما يتوجب عمل ذلك. قدمتُ ابنتي إلى إرزولي. رقصتُ ورقصت. الثديان ثقيلان، الذراعان مرفوعتان، الردفان مجنونان، الساقان منفصلتان عن تفكيري، في استجابة للطبول.

في البدء لم يُبدِ السيد أي اهتمام بروزيت. كان يتضايق من سماعها تبكي ومن اهتمامي بها، ولم يكن يسمح لي كذلك بحملها معلقة على ظهري، مثلما فعلتُ بموريس من قبل، فكان عليّ أن أتركها في صندوق بينما أنا أعمل. وسرعان ما استدعاني السيد إلى غرفته من جديد، لأن ثدييّ كانا يهيجانه، فقد تضاعف حجمهما، وكان مجرد النظر إليهما كافيا لأن يفلتا حليباً. وفي ما بعد بدأ السيد الانتباه إلى روزيت لأن موريس تعلق بها. عندما ولد موريس لم يكن أكثر من جرذ صغير شاحب وصامت تتسع له راحة يدي كاملاً، وكان مختلفا جدا عن ابنتي الضخمة والصاخبة. وقد أفاد موريس من قضاء الشهور الأولى ملتصقاً بي، مثل الأطفال الأفارقة الذين قيل لي إنهم لا يلمسون الأرض ويظلون محمولين طوال الوقت إلى أن يتعلموا المشي. وعلى رائحة جسدي وحسن شهيته كبر سليماً ونجا من الأمراض التي تقتل الأطفال. كان ذكياً يفهم كل شيء، ومنذ الثانية من عمره صار يوجه أسئلة لا يستطيع حتى أبوه الإجابة عليها. لم يعلمه أحد لغة **الكريولي**، ولكنه يتكلمها مثلما يتكلم الفرنسية. لم يكن السيد يسمح

له بالاختلاط بالعبيد، لكنه يهرب ليلعب مع الأطفال الزنوج القليلين في المزرعة، ولم أكن أؤنبه لأنه لا وجود في الدنيا لما هو أشد حزناً من طفل متوحد. منذ البدء، تحول موريس إلى حارس لروزيت. لا يبتعد عنها إلا عندما يأخذه أبوه للتجول في المزرعة ليريه أملاكه. لقد بذل السيد على الدوام جهداً من أجل وراثته، ولهذا عانى كثيراً في ما بعد من خيانة ابنه. كان موريس يبقى وحيداً لساعات وهو يلعب بمكعباته وحصانه الخشبي إلى جانب صندوق روزيت، يبكي إن بكت، ويدغدغها ويموت ضحكاً إن هي استجابت له. منعني السيد من القول إن روزيت هي ابنته، وهو أمر لم يكن قد خطر لي على بال، ولكن موريس أدرك ذلك أو اختلقه، لأنه كان يدعوها أخته. كان أبوه يفرك له فمه بالصابون، ولكنه لم يستطع تخليصه من تلك العادة، مثلما انتزع منه عادة مناداتي **مامان**. لقد كان يخاف أمه الحقيقية، لا يريد رؤيتها، ويسميها «السيدة المريضة». تعلم موريس مناداتي تيتي، مثل الجميع، باستثناء قلة كانوا يعرفونني من الداخل ويدعونني زاريتيه.

المحارب

بعد قضاء عدة أيام في مطاردة غامبو، صار وجه بروسبير كامبري أحمر من الغضب. لم يجد أثراً للفتى، وكان بين يديه سرب كلاب مخبولة، نصف عمياء، تملأ القروح أنوفها. ألقى المسؤولية على تيتي. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتهمها مباشرة ويعرف أن هوة كبيرة ستنفتح بينه وبين السيد. فحتى ذلك الحين كانت كلمة واحدة منه كافية لأن تكون إدانة العبد مؤكدة والعقوبة فورية، ولكنه لم يتجرأ على تيتي من قبل قطّ.

ـ البيت لا يدار كما المزرعة يا كامبري ـ تعلل فالموران.

ـ إنها المسؤولة عن الخدم المنزليين! ـ أصر الآخر ـ وإذا نحن لم نعاقبها، فسوف يهرب آخرون.

ـ سأحل هذه المسألة على طريقتي ـ ردّ المالك، وهو غير مستعد لتوجيه يده إلى تيتي التي وضعت طفلة للتو، وكانت على الدوام مدبرة للبيت لا تشوبها شائبة. فأعمال البيت تجري بسلاسة والخدم ينجزون واجباتهم على أحسن وجه. ثم إن هناك موريس بالطبع، والمحبة التي يشعر بها الطفل لهذه المرأة. وجلدها مثلما يرغب كامبري سيكون كأنه جلد لموريس.

ـ لقد نبهتك منذ زمن أيها السيد إلى أن هذا الزنجي خبيث المنشأ. ولسبب كان عليّ أن أكسر شوكته عند شرائه بالذات، ولكن شدة العقاب لم تكن كافية.

ـ لا بأس يا كامبري، عندما تقبض عليه يمكنك أن تفعل به ما تشاء

ـ فوضه فالموران بينما تيتي التي تستمع وهي واقفة في أحد الأركان كمتهمة تحاول إخفاء غمها.

كان فالموران قلقاً جداً على تجارته وعلى حال المستعمرة بحيث لا

يمكن له الانشغال بعبد ناقص أو عبد زائد. إنه لا يتذكره بالمطلق، فمن المستحيل تمييز واحد بين مئات. لقد أشارت تيتي في مناسبتين إلى «الولد الذي في المطبخ»، فتشكلت لديه فكرة أنه طفل صغير، ولكنه لا يمكن أن يكون صغيراً إلى ذلك الحد إذا كان قد تجرأ على ما أقدم عليه، فالهرب يحتاج لمن يمتلك خصيتين. وهو متأكد من أن كامبري لن يتأخر طويلاً في القبض عليه، لما لديه من خبرة في اصطياد الزنوج. ورئيس رؤساء فرق العمل على حق: عليهم أن يزيدوا الانضباط، ففي الجزيرة ما يكفي من المشاكل بين الناس الأحرار بحيث لا يمكن السماح للعبيد بالتجاوز في الجرأة. والجمعية العمومية في فرنسا انتزعت من المستعمرة سلطة الحكم الذاتي الضئيلة التي كانت تتمتع بها، هذا يعني أن بعض الموظفين البيروقراطيين في باريس، ممن لم تطأ أقدامهم جزر الأنتيل قط ويكادون لا يعرفون كيف ينظفون مؤخراتهم، مثلما يؤكد، يتخذون القرارات الآن في مسائل شديدة الخطورة. لا أحد من *البيض الكبار* مستعد لأن يتقبل المراسيم التي تخطر لهم. لا بد من رؤية مدى جهل أولئك الناس! لقد كانت النتيجة ضرراً وفوضى، مثل الذي جرى للمدعو فينسنت أوغي، الخلاسي الغني الذي ذهب إلى باريس ليطالب بالمساواة في الحقوق للخلاسيين ورجع وذيله بين ساقيه، كما هو منتظر، لأننا إلى أين سننتهي إذا ما امحت الفروق الطبيعية بين الطبقات والأعراق. فأوغي وزميله شافانس، بمساعدة بعض دعاة إلغاء العبودية، من أولئك الأشخاص المتوافرين دوماً، حرضوا على تمرد في الشمال، على مقربة من سان لازار. ثلاثمئة خلاسي مسلحين جيداً! تطلب الأمر ثقل جيش لوكاب بكامله من أجل إلحاق الهزيمة بهم، قال فالموران لتيتي في واحدة من محادثاتهم الليلية. ثم أضاف إن بطل تلك العملية هو شخص من معارفه، يدعى المقدم إيتيان روليه، عسكري مجرب وجريء، ولكنه ذو أفكار جمهورية. وقد جرى اعتقال الناجين في مناورة خاطفة، ونُصبت في الأيام التالية مئات المشانق في وسط المدينة، غابة من المشنوقين الذين

راحت أبدانهم تتمزق بعد قليل بفعل القيظ، فتحولوا إلى وليمة لنسور الرخمة. أما الزعيمان فعذبوهما تعذيباً بطيئاً في الساحة العامة دون أن يشفقوا عليهما بضربة فأس الرحمة. وهذا لا يعني أنه من مؤيدي العقوبات القاسية، ولكنها قد تكون بناءة أحياناً بالنسبة للجمهور.
كانت تيتي تستمع وهي صامتة، مفكرة فيمن كان آنذاك الكابتن روليه الذي تكاد لا تتذكره، ولا يمكنها التعرف عليه إذا ما رأته، لأنها التقت به مرتين فقط في الشقة في ساحة كلوني منذ سنوات. وإذا كان الرجل لا يزال يحب فيوليت، فيجب ألا يكون من السهل عليه مقاتلة أنصار تحرر العبيد، لأنه يمكن لأوغي أن يكون صديقه أو قريبه.

قبل هروب غامبو، كانوا قد عهدوا إليه بمهمة رعاية الرجال الذين قبض عليهم كامبري ووضعهم في المزبلة التي تُستخدم كمستشفى. وكانت نساء المزرعة يطعمنهم ذرة وبطاطا ويُكة وموز من مؤونتهم. ولأن التعامل مع كامبري لن يُجدي، فقد مثلت تانت روز أمام السيد لتقول له إنهم لن يعيشوا دون تناول حساء عظام وأعشاب وأكباد الحيوانات التي تُستهلك في البيت الكبير. رفع فالموران بصره عن كتاب حول حدائق الملك الشمس، متضايقاً من المقاطعة، ولكن هذه المرأة الغريبة تتمكن من إخافته، فأجابها بعد أن استمع إليها: «لقد تلقى هؤلاء الزنوج عقابهم. أعطهم حساءك الذي تقولين يا امرأة، وإذا هم نجوا فلن تكون خسارتي كبيرة». في الأيام الأولى كان غامبو يطعمهم بيده، لأنهم لم يكونوا قادرين على الأكل بأنفسهم، ويوزع عليهم عجينة من أوراق الكينوا، يتوجب عليهم، حسب تعليمات تانت روز، أن يواظبوا على تحريك كرة منها في أفواههم كي يتحملوا الألم وتمنحهم الطاقة. إنها سر من أسرار زعماء هنود أراهواكو الذين تمكنوا من العيش ثلاثمئة سنة، ولا يعرف هذا السر إلا بعض المداوين. كانت النبتة نادرة جداً، ولا تباع في أسواق السحر، كما لم تتمكن تانت روز من زراعتها في بستانها، ولهذا تحتفظ بها لأسوأ الحالات.

وقد استغل غامبو أوقات الانفراد تلك بالعبيد المعاقبين ليتقصى

منهم كيف تمكنوا من الهرب، ولماذا أمسكوا بهم، وما الذي جرى للستة الآخرين. ومن كانوا قادرين منهم على الكلام أخبروه أنهم قد تفرقوا عند خروجهم من المزرعة وسار بعضهم باتجاه النهر وفي نيتهم السباحة صعوداً، إلا أنه من غير الممكن الصراع عكس التيار إلا لبعض الوقت، لأن التيار ستغلب أخيراً. وقالوا إنهم سمعوا صوت إطلاق نار، ولكنهم ليسوا متأكدين من أن الآخرين قد قتلوا، وأياً يكن المصير الذي تلقاه أولئك فإنه أفضل من مصيرهم هم دون شك. سألهم عن الغابة، والأشجار، والنباتات المتسلقة، والوحل، والأحجار، وقوة الرياح، ودرجة الحرارة، والضوء. كان كامبري وغيره من صيادي الزنوج يعرفون المنطقة شبراً شبراً، ولكن هناك أمكنة يتجنبونها، مثل المستنقعات وتقاطعات دروب الموتى، فهي أماكن لا يدخلها الهاربون مهما بلغ بهم اليأس، والأمكنة التي لا يمكن للبغال والخيول التوغل فيها. فهم يعتمدون بالكامل على بهائمهم وأسلحتهم النارية التي تتحول إلى مصدر ضيق لهم. فالخيول تنكسر كواحلها، ويضطرون إلى قتلها. وشحن البندقية يتطلب عدة ثوان، ويمكن أن تتعطل أو أن تصل الرطوبة إلى البارود وتتلفه، وفي أثناء ذلك يمكن لرجل عار يحمل سكين تقطيع القصب أن يستغل الفرصة وينقض عليهم. أدرك غامبو أن الخطر الأكبر هو الكلاب القادرة على تمييز رائحة إنسان عن بعد كيلومترات. وأنه ليس هناك ما يخيف مثل كورال نباح يقترب.

توجد حظائر الكلاب في سان لازار وراء الإسطبلات، في أحد أفنية البيت الكبير. وكانت كلاب الصيد والحراسة تُحبس خلال النهار كيلا تتآلف مع الناس، ويُخرجونها في الدوريات الليلية. أما الكلبان الضاريان المجلوبان من جامايكا اللذان تغطيهما القروح والمدربان على القتل، فهما من ممتلكات بروسبير كامبري. وقد اقتناهما لمصارعات الكلاب التي تتميز بمنفعة مزدوجة، إذ أنها ترضي إعجابه بالقسوة من جهة، وتوفر له أرباحاً من جهة أخرى. وقد أحلَّ هذه الرياضة محل مبارزات العبيد التي اضطر إلى هجرها بسبب حظر فالموران لها. وفيها يمكن لبطل أفريقي،

قادر على قتل خصمه بيديه العاريتين، أن يكون مصدر ربح وفير لسيده. وقد كانت لدى كامبري حيله الخاصة، فهو يطعمهم لحماً نيئاً، ويخبلهم بمزيج من خمر التافيا مع البارود والفلفل الحار قبل كل مبارزة، وكان يكافئ العبيد بنساء بعد فوزهم ويجعلهم يدفعون الثمن غالياً عندما يخسرون. وبفضل بطلين لديه، أحدهما كونغي والآخر مانديينغا، تضاعف أجره عندما كان يعمل صياد زنوج. ولكنه باعهما فيما بعد واشترى الكلبين الضاريين اللذين وصلت شهرتهما حتى مدينة لوكاب. كان يبقيهما جائعين وعطشين ومقيدين كيلا يقتل أحدهما الآخر. فكان لا بد لغامبو من تصفيتهما، ولكنه إذا ما دس لهما سماً فإن كامبري سيعذب خمسة عبيد مقابل كل كلب إلى أن يعترف أحدهم.

في موعد القيلولة، وهو الوقت الذي يذهب فيه كامبري للتبرد في النهر، توجه الفتى نحو كوخ رئيس رؤساء فرق العمل القائم في أقصى ممر أشجار جوز الهند والمنفصل عن البيت الكبير ومأوى العبيد المنزليين. وقد تحرى قبل ذلك عن اسميّ الخليلتين اللتين اختارهما رئيس رؤساء فرق العمال لهذا الأسبوع، وكانتا طفلتين حديثتي البلوغ فوجدهما تقبعان منزويتين كحيوانين مضروبين. استقبلتاه بخوف، ولكنه طمأنهما بقطعة حلوى سرقها من المطبخ، وطلب منهما قهوة لتناولها مع الحلوى. بدأتا بإضرام النار بينما انسل هو إلى داخل المسكن، وقد كان محدود الأبعاد، ولكنه مريح، ومشيد بحيث يتلقي النسيم، وفوق مرتفع من الأرض، مثل البيت الكبير، لدرء خطر الفيضانات. وكان الأثاث قليلاً وبسيطاً، بعضه مما تخلى عنه فالموران عندما تزوج. جاب غامبو البيت في أقل من دقيقة. كان يفكر في سرقة بطانية، ولكنه رأى في أحد الأركان سلة فيها ملابس متسخة فسارع إلى تناول أحد قمصان لرئيس رؤساء فرق العمال وكوره ورماه من النافذة على الشجيرات، ثم شرب القهوة دون تسرع وودّع البنتين واعداً إياهما بأن يأتيهما بمزيد من الحلوى عندما يتمكن من ذلك. وعند الغروب رجع للبحث عن القميص. وفي مستودع المؤونة الذي تظل

مفاتيحه معلقة دوماً على خصر تيتي، كان يُحتفظ بجراب فلفل حار، ومسحوق خانق لمكافحة العقارب والقوارض، ما إن تشمه حتى يطلع عليها الصباح متيبسة. ومع أن تيتي لاحظت أنه يستهلك الكثير من الفلفل الحار، إلا أنها لم تقل شيئا.

وفي اليوم الذي حددته *اللوات*، ذهب الفتى عند الغروب، مع الضوء الأخير. كان عليه أن يمر من قرية العبيد التي ذكرته بالضيعة التي عاش فيها السنوات الخمس عشرة الأولى من حياته، وكانت تتأجج محترقة في آخر مرة رآها. لم يكن الناس قد رجعوا من الحقول، وكانت القرية شبه خاوية. مرت امرأة تحمل دلوي ماء كبيرين، ولم تستغرب رؤية وجه غير مألوف، فالعبيد كثيرون ودائماً يصل آخرون جدد. ولسوف تكون تلك الساعات الأولى هي مؤشر غامبو الفاصل بين الحرية والموت. كما أن تانت روز التي يمكنها التجول ليلاً حيث لا يتجرأ آخرون على التجول نهارا، كانت قد وصفت له طبيعة الأرض بحجة أنها تحدثه عن النباتات الطبية، وما عليه تجنبه منها كذلك: الفطور العفنة، أشجار تتلف أوراقها الجلد وتنتزعه اجتثاثاً، وشقائق نعمان تختبئ فيها ضفادع تسبب العمى ببصقة من لعابها. وشرحت له كيفية البقاء حياً في الغابات على الثمار، وأصناف الجوز، والجذور، والسوق المغذية مثل قطعة لحم ماعز مشوية، وكيفية الاستدلال والتوجه بواسطة الحباحب والنجوم وصفير الريح. لم يكن غامبو قد خرج من سان لازار، ولكنه بفضل تانت روز صار قادرا على أن يحدد في ذهنه منطقة أشجار المانغلار والمستنقعات، حيث جميع الأفاعي سامة، ومواقع مفترقات الطرق بين عالمين، حيث ينتظر اللامرئيون. «لقد كنتُ هناك ورأيت بعيني كالفو وغيدي، ولكنني لم أخف. يجب تحيتهما باحترام، وطلب الإذن منهما بالمرور وسؤالهما عن الطريق. فإذا لم تكن ساعة موتك قد حانت، فإنهما يساعدانك. هما من يقرران»، قالت له المداوية. سألها الفتى عن الزومبيات الذين سمع عنهم أول مرة في الجزيرة؛ ولم يكن هناك من يشك بوجودهم في

أفريقيا. فأوضحت له أنه يمكن التعرف عليهم من مظهرهم الجثثي، ورائحتهم النتنة، وطريقتهم في المشي بسيقان وأذرع متيبسة، وأضافت: «يجب الخوف من بعض الأحياء، مثل كامبري، أكثر من الخوف من الزومبيات». ولم تفلت الرسالةٍ من غامبو.

عندما ظهر القمر انطلق الفتى راكضاً بصورة متعرجة. وبين فترة وأخرى كان يترك مزقة من قميص رئيس رؤساء العمال على الآجام لتضليل الكلبين الضاريين اللذين يتعرفان على رائحته فقط، لأنه الوحيد الذي يقترب منهما، ولتشتيت انتباه بقية الكلاب. بعد ساعتين من ذلك وصل إلى النهر، فتوغل فيٍ الماء البارد حتى الرقبة وهو يطلق آهة راحة، ولكنه أبقى الجراب جافاً فوق رأسه. غسل العرق والدم عن الخدوش التي أحدثتها الأغصان والأحجار، وانتهز الفرصة ليشرب ويبول. تقدم في الماء دون أن يقترب من الضفة، وإن كان ذلك لا يضلل الكلاب القادرة على الشم في دوائر أكثر فأكثر اتساعاً إلى أن تجد الأثر، ولكنه يستطيع تأخيرها على الأقل. لم يحاول العبور إلى الضفة الأخرى. فالتيار المندفع لا يرحم، وهناك أمكنة قليلة يمكن لسباح ماهر أن يجازف بالتوغل فيها، ولكنه لا يعرف تلك الأمكنة، ولا يعرف السباحة أيضاً. ومن خلال موضع القمر قدر أن الوقت صار منتصف الليل تقريباً وقدّر المسافة التي قطعها. عندئذ خرج من الماء وبدأ بنثر مسحوق الفلفل. لم يكن يشعر بالتعب، لأنه كان ثملاً بالحرية.

سار ثلاثة أيام بلياليها دون تناول طعام سوى أوراق تانت روز السحرية. فكانت كرةٍ تلك الأوراق السوداء التي يضعها في فمه تخدر لثته وتبقيه مستيقظاً وبلا شعور بالجوع. ومنٍ حقول قصب السكر انتقل إلى الغابة، والأدغال، والمستنقعات، محاذياً السهب باتجاه الجبال. لم يكن يسمع نباح كلاب، وكان ذلك يبث فيه الحماسة. يشرب ماء من المستنقعات عندما يجدها، ولكنه اضطر إلى تحمل اليوم الثالث بجفاف، مع شمس نارية صبغت الدنيا بلون أبيض متوهج. وعندما لم يعد بإمكانه التقدم خطوة أخرى، هطل وابل من السماء، قصير وبارد،

بعث فيه الحياة. وكان في أثناء ذلك يمضي في أرض مكشوفة، عبر طريق لا يتجرأ إلا معتوه على السير فيه، وللسبب نفسه كان كامبري يستبعد البحث فيه. لم يكن بإمكانه إضاعة الوقت في البحث عن شيء يأكله، وإذا استراح لن يكون بمقدوره النهوض من جديد. كانت ساقاه تتحركان تلقائياً، مدفوعتين بهذيان الأمل وبكرة الأوراق التي في فمه. لم يعد قادراً على التفكير، ولا الشعور بالألم، وقد نسي الخوف وكل ما خلّفه وراءه، بما في ذلك شكل جسد زاريتيه. إنه لا يتذكر سوى اسمه كمحارب: مشى بعض مقاطع الطريق بخطوات متحمسة، ولكن دون أن يركض، متجاوزاً عقبات الأرض بهدوء، كيلا يستنزف قواه ولا يضل الطريق، مثلما قالت له تانت روز. بدا له في إحدى اللحظات أنه يبكي ذارفا الدموع، ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك، يمكن أن تكون ذكرى الندى أو المطر على بشرته. رأى نعجة تثغو بين الصخور وإحدى قوائمها مكسورة، وقاوم إغواء ذبحها وشرب دمها، مثلما قاوم إغواء الاختباء في الجبال التي تبدو في متناول اليد، أو النوم للحظات في سلام الليل. فهو يعرف إلى أين يتوجب عليه الوصول. ويجب أن تكون كل خطوة، وكل لحظة، محسوبة.

وصل أخيراً إلى قاعدة الجبل وبدأ الصعود الشاق، حجراً فحجراً، دون النظر إلى أسفل كيلا يهزمه الدوار، ودون النظر إلى أعلى كيلا تخمد همته. بصق آخر لقمة من الأوراق وداهمه الظمأ من جديد. كانت شفتاه متورمتين ومشققتين. وكان الهواء يغلي، وبدا مشوشاً، دائخاً، يكاد لا يتذكر تعليمات تانت روز، يتوسل ظلاً وماءً، ولكنه واصل التسلق متشبثا بالصخور والجذور. وفجأة وجد نفسه بالقرب من ضيعته، في السهوب الفسيحة، يرعى الأبقار ذات القرون الطويلة ويتعجل الطعام الذي تقدمه أمهاته في بيت أبيه، مركز الجمع العائلي. وكان هو وحده، غامبو، الابن الأكبر، من يأكل مع الأب، جنباً إلى جنب، كندين. فقد كان يتحضر منذ مولده ليحل محله، فذات يوم سيكون هو أيضاً قاضياً وزعيماً. اصطدم بصخرة، وأعاده ألم الصدمة

الحاد إلي سان دومانغ، اختفت الأبقار، وضيعته، وأسرته، وروحه. وجد نفسه عالقاً من جديد في الحلم الخبيث عن أسره الذي مضى عليه حول. تسلق السفوح الوعرة لساعات وساعات، إلى أن لم يعد هو من يتحرك، وإنما شخص آخر: إنه أبوه. كان صوت أبيه يكرر اسمه، غامبو. وكان أبوه هو من يكبح الطائر الأسود ذا الرأس الأصلع الذي يحلق تحليقاً دائرياً فوقه.

وصل إلى درب عال جداً وضيق على حافة هاوية، يتلوى بين بروزات وصدوع صخرية. وعند أحد المنعطفات واجه إيحاءً بدرجات منحوتة في الصخر، إنه أحد دروب الزعماء القدماء الذين لم يختفوا، كما تقول تانت روز، عندما قتلهم البيض، لأنهم خالدون. وقد نبهته العلامات قبل أن يراه: صليب من عودين متقاطعين، وجمجمة بشرية، وعظام، وحزمة من الريش والشعر، ثم صليب آخر. كانت الريح تحمل أصداء عواء ذئاب بين الصخور، وطائران جارحان انضما إلى الأول، ترصده من أعلى. الخوف الذي ظل وراءه ثلاثة أيام، هاجمه الآن من أمام، ولكن لم يعد بمقدوره التراجع. اصطكت أسنانه وتجمد عَرَقه. لقد اختفى درب الزعماء القدماء الهش فجأة أمام رمح مغروس في الأرض، يسنده كوم أحجار: إنها علامة «*البيتو ميتا*»، نقطة اللقاء بين السماء والمكان السفلي، بين عالم *اللوات* وعالم البشر. عندئذ رآهما. بديا في البدء شبحين، وبعد ذلك ظهر بريق المعدن، سكاكين أو مناجل ماتشيتي. لم يرفع عينيه. حيّاهما بتواضع مكرراً كلمة السر التي أعطته إياها تانت روز. لم يأته جواب، لكنه أحس بدفء ذينك الكائنين القريبين جداً، بحيث يمكن له لو مدّ يده أن يلمسهما. لم تكن تنبعث منهما رائحة عفونة ولا رائحة مقبرة، بل الرائحة نفسها التي تنبعث ممن يعملون في حقول القصب. طلب الإذن من كالفو وغيدي كي يواصل طريقه، ولم يأته جواب أيضاً. وأخيراً، بالصوت الضعيف الذي تمكن إخراجه من بين الرمل الخشن الذي يطبق على حنجرته، سأل عن الطريق الذي عليه إتباعه. وأحس أنهما أمسكا به من ذراعيه.

استيقظ غامبو بعد وقت طويل في الظلام. أراد النهوض ولكنه شعر بألم في ألياف جسده كلها ولم يستطع التحرك. أفلتت منه أنّة، وأعاد إغماض عينيه وغرق في عالم الأسرار الذي يدخل فيه ويخرج منه فاقداً الإرادة، منطوياً على نفسه من الألم أحياناً، أو طافياً في أحيان أخرى في فضاء مظلم وعميق مثل القبة السماوية في ليلة بلا قمر. استعاد الوعي قليلاً قليلاً وهو في حالة من الخدر، يلفه الضباب. ظل جامداً وصامتاً، محاولاً أن يرى في الظلام. لم يكن هناك قمر ولا نجوم، ولم تكن تسمع أي همسة في النسيم. صمتٌ، برد. استطاع أن يتذكر الحربة المغروسة عند التقاطع وحسب. وفي أثناء ذلك لمح ضوءا متذبذباً يتحرك على مسافة قريبة منه، وبعد قليل رأى هيئة بشرية تحمل مصباحاً وتنحني إلى جانبه، وصوت امرأة تقول له شيئاً غير مفهوم، ساعده ذراعٌ على النهوض ومدّت يدٌ قرعةً مملوءة بالماء إلى شفتيه. شرب كل ما تحتويه: إنه في إحدى مغاور الأراهواكو المقدسة التي يستخدمها العبيد الآبقين مواقع للحراسة.

في الأيام والأسابيع والشهور التالية، سيكتشف غامبو عالم العبيد الهاربين الموجود في الجزيرة نفسها وفي الزمن نفسه، ولكن في بُعد آخر، إنه عالم مثل أفريقيا، وإن يكن أشد بدائية وبؤساً، وسيسمع لغات أفريقية وقصصاً معروفة، وسيأكل الفوفو الذي كانت تطهوه أمهاته، وسيعود للجلوس إلى جانب موقد ليشحذ أسلحته الحربية، مثلما كان يفعل مع أبيه، ولكن تحت نجوم أخرى. كانت المعسكرات منتشرة في أشد أمكنة الجبال وعورة وأصعبها منالاً، دساكر حقيقية، آلاف وآلاف الرجال والنساء الهاربين من العبودية مع أبنائهم المولودين أحراراً. يعيشون في حالة تأهب ويرتابون بالعبيد الهاربين من المزارع، لأنهم قد يخونونهم، ولكن تانت روز كانت قد أخبرتهم عبر وسائل غامضة أن غامبو في طريقه إليهم. من بين هاربي سان لازار العشرين، وصل ستة فقط حتى المفترق، وكان اثنان منهم يعانيان من جراح خطرة ولم يعيشا. عندئذ تأكدت شكوك غامبو بأن تانت روز هي صلة وصل بين العبيد وعصابات الآبقين. وما كان يمكن لأي تعذيب أن ينتزع اسم تانت روز من الرجال الذين اعتقلهم كامبري.

المؤامرة

بعد ثمانية شهور من ذلك، وفي بيت مزرعة سان لازار الكبير، ماتت إوخينيا غارثيا دل سولار دون صراخ ودون غم. كانت قد بلغت الحادية والثلاثين من العمر، أمضت سبعاً منها في اختلال ذهني وأربعاً في غيبوبة الأفيون. ظلت ممرضتها مستغرقة في النوم في ذلك الصباح، وقد دخلت تيتي كعادتها لتطعمها عصيدتها وتنظفها، وهي من وجدتها متكورة على نفسها كطفلة حديثة الولادة بين الوسائد. كانت سيدتها تبتسم وقد أعادت إليها سعادة الموت بعضاً من جمالها وشبابها. وكانت تيتي هي الوحيدة التي حزنت لموتها، لأنها بعد كل عنايتها بها انتهت إلى أن تحبها حقاً. نظفتها، وألبستها ثيابها، وسرحت شعرها لآخر مرة، ثم وضعت كتاب الصلوات بين يديها المتقاطعتين على صدرها. وحفظت المسبحة المباركة في جراب جلد الغزال، وهي الإرث الذي تركته لها، ثم علقتها حول عنقها، تحت صدارها. وقبل أن تودعها نزعت منها ميدالية ذهبية صغيرة عليها رسم العذراء لتعطيها لموريس. وذهبت بعد ذلك لاستدعاء فالموران.

لم ينتبه موريس الصغير إلى موت أمه لأن «السيدة المريضة» كانت حبيسة حجرتها منذ شهور، وقد منعوه من رؤية الجثة. وبينما هم يُخرجون من البيت تابوت خشب الجوز ذي المسامير الفضية الذي اشتراه أبوه من مُهرّب أمريكي في الفترة التي حاولت الانتحار فيها، كان موريس في الفناء مع روزيت يرتجلان جنازة لهر ميت. لم يشهد من قبل طقوساً من هذا النوع، ولكنه كان واسع المخيلة واستطاع دفن الحيوان بمشاعر محبة ووقار أكبر مما نالته أمه.

لقد كانت روزيت جريئة ومبكرة النضج. تزحف على الأرض بسرعة مفاجئة على ركبتيها السمينتين، يتبعها موريس الذي لا يبتعد

عنها ولا يفارقها في الشمس والظل. قامت تيتي بإقفال أبواب وأدراج قطع الأثاث التي يمكن أن تعلق بها أصابع الصغيرين، وأغلقت أبواب الخروج إلى الشرفة بسياج حظيرة دجاج لتمنعهما من الزحف خارج البيت. لقد كانت طفلة جميلة. وأمها توافق على ذلك بأسى، لأن جمال العبدة نكبة، والمناسب أكثر هو ألا تلفت الانتباه. فتيتي التي تمنت بشدة وهي في العاشرة من عمرها أن تكون مثل فيوليت بواسيير، تبينت بدهشة أن روزيت، بفعل حيلة وهم من القدر، تشبه كثيراً تلك المرأة الجميلة، بشعرها المتموج وابتسامتها الآسرة ذات الغمازتين. في تصنيفات الجزيرة العرقية المعقدة، كانت الطفلة تعتبر خلاسية ربعة، ابنة رجل أبيض وأم خلاسية، وقد خرجت بلون أقرب إلى الأب منها إلى الأم. وكانت روزيت في تلك السنة تلوك رطانة لها وقع لغة مارقين يتمكن موريس من فهمها دون صعوبة. كان الصبي الصغير يتقبل نزواتها بصبر جد عجوز، وقد تحول ذلك في ما بعد إلى عاطفة دؤوبة ستسم حياتيهما. فسوف يكون صديقها الوحيد، يواسيها في أحزانها ويعلمها ما لا بد من تعلمه، ابتداء من تجنب الكلاب المسعورة وحتى حروف الأبجدية، ولكن هذا سيأتي فيما بعد. وكان أول ما دلها عليه منذ البدء هو الطريق المباشر إلى قلب أبيه. فقد تمكن موريس من تحقيق ما لم تستطع تيتي تحقيقه، إذ فرض الطفلة على تولوز فالموران بطريقة لا رجعة عنها. فلم يعد السيد يعتبرها واحدة أخرى من ممتلكاته، وبدأ يبحث في ملامحها وطبعها عن شيء منه. لم يجد شيئاً من ذلك، ولكنه أحسن نحوها بتلك العاطفة المتسامحة التي توحي بها التعاويذ جلابة الحظ وحسن الطالع، وسمح لها بالعيش في البيت الكبير بدل إرسالها إلى قطاع العبيد. وخلافاً لأمها التي تبدو صرامة جديتها أشبه بنقيصة، كانت روزيت ثرثارة ومغوية، دوامة حركة ونشاط تبعث البهجة في البيت، وأفضل ترياق ضد القلق المنفلت من عقاله في تلك السنوات.

عندما حلّت فرنسا الجمعية الاستعمارية في سان دومانغ، أعلن «الوطنيون»، كما كان المستوطنون المناصرون للملكية يسمون

أنفسهم، رفضهم الخضوع للسلطات في باريس. وبعد أن ظل فالموران معزولا لزمن طويل في مزرعته، بدأ يتآمر مع أمثاله. وبما أنه صار يكثر من الذهاب إلى لوكاب، فقد استأجر بيتا مفروشاً هناك من تاجر برتغالي ثري رجع مؤقتاً إلى بلاده. كان البيت قريباً من الميناء ومريحا، ولكنه راح يفكر في شراء منزل خاص بسرعة وبمساعدة الوكيل الذي يتولى المفاوضة على إنتاجه من السكر، وهو العجوز اليهودي النزيه الذي خدم أباه من قبل.

لقد كان فالموران هو من بدأ المحادثات السرية مع الإنكليز. ففي شبابه تعرف على بحار صار يقود اليوم الأسطول البريطاني في الكاريبي، ولديه تعليمات بالتدخل في المستعمرة الفرنسية فور توافر فرصة لذلك. كانت المواجهات بين البيض والخلاسيين قد بلغت آنذاك حداً من العنف لا يمكن تصوره، بينما كان الزنوج يستغلون فرصة الفوضى ليتمردوا، في غرب الجزيرة أولاً ثم في الشمال، في ليمبيه، بعد ذلك. كان الوطنيون يتابعون الأحداث باهتمام كبير، وينتظرون بلهفة أن تحين الفرصة المناسبة ليخونوا الحكومة الفرنسية.

مضى شهر على استقرار فالموران في لوكاب مع تيتي والطفلين وتابوت إوخينيا. فقد صار يسافر دوما مع ابنه، وكان موريس بدوره لا يذهب إلى أي مكان دون روزيت وتيتي. كان الوضع السياسي مزعزعاً جداً بحيث لا يمكن له الابتعاد عن الطفل، ولم يكن يريد ترك تيتي كذلك تحت رحمة بروسبير كامبري الذي وضع عينه عليها، بل إنه رغب في شرائها. وقد افترض فالموران أنه كان يمكن لشخص آخر في مثل وضعه أن يبيعها إليه ليرضيه وليتخلص في أثناء ذلك من عبدة لم تعد تستثيره، ولكن موريس يحبها كما لو أنها أمه، أضف إلى ذلك أن هذه المسألة قد تحولت إلى صراع إرادات صامت بينه وبين رئيس رؤساء فرق العمال. لقد شارك خلال تلك الأسابيع في اجتماعات الوطنيين السياسية التي كانت تعقد في بيته في أجواء سرية وتآمرية، بالرغم من أن أحداً لم يكن يتجسس عليهم في الواقع. كان يفكر في البحث عن

وصي على موريس الذي يوشك أن يبلغ الخامسة وهو لا يزال في حالة بربة. عليه أن يوفر له مبادئ التربية التي تتيح له الذهاب في ما بعد إلى مدرسة في فرنسا. وكانت تيتي تتضرع ألا تأتي تلك اللحظة أبداً، موقنة من أن موريس سيموت إذا ابتعد عنها وعن روزيت. ولا بد له أيضاً من أن يتخلص من تابوت إوخينيا. فقد اعتاد الطفلان على وجود التابوت في ممرات البيت وتقبلا بتلقائية أنه يضم الرفات الفاني للسيدة المريضة. لم يسألا عن المعنى الدقيق للرفات الفاني، ووفرا بذلك على تيتي ضرورة تفسير شيء سيتسبب في كوابيس جديدة لموريس، ولكن عندما فاجأهما فالموران يحاولان فتح التابوت بسكين مطبخ، أدرك أن الوقت قد حان لاتخاذ قرار. أمر وكيله بأن يرسل التابوت إلى مقبرة الراهبات في كوبا، حيث اشترى سانتشو مدفناً، لأن إوخينيا كان قد أجبرته على أن يقسم لها إنه لن يدفنها في سان دومانغ، حيث يمكن لعظامها أن تتحول إلى مقارع طبل زنوج. وكان الوكيل يفكر في تحين فرصة انطلاق سفينة إلى تلك الأنحاء، فوضع التابوت واقفاً في أحد أركان المستودع، حيث ظل منسياً إلى أن التهمته النيران بعد سنتين من ذلك.

تمرد في الشمال

استيقظ بروسبير كامبري، في المزرعة، عند الفجر على حريق في أحد الحقول وعلى صراخ العبيد، كثيرون منهم لم يكونوا يعرفون ما الذي يحدث، لأنهم لم يطلعوا على سر الانتفاضة. انتهز كامبري فرصة الاضطراب العام ليحاصر قطاع أكواخ العبيد ويسيطر على من لم يجدوا الوقت للإتيان بأي ردّ فعل. لم يشارك الخدم المنزليون في أي شيء، وظلوا متجمعين حول البيت الكبير بانتظار الأسوأ. أمر كامبري باحتجاز النساء والأطفال وباشر بنفسه عملية التطهير بين الرجال. لم تكن الخسائر كبيرة، إذ تمت السيطرة على الحريق بسرعة، ولم يحترق سوى مربعين من حقول القصب الجاف. وكان الوضع أشد خطورة بكثير في مزارع الشمال. وعندما وصلت أولى مفارز الدرك بمهمة إعادة الأمن إلى المنطقة، اكتفى بروسبير بتسليمهم من قدّر أنهم مشبوهون. فهو يفضل أن يتعامل مع العبيد شخصياً، ولكن الفكرة كانت تتطلب تنسيق الجهود وسحق التمرد من جذوره. اقتيد المشبوهين إلى لوكاب لانتزاع أسماء زعماء التمرد منهم.

لم ينتبه رئيس رؤساء فرق العمل إلى اختفاء تانت روز إلا في اليوم التالي، عندما كان لا بد من البدء بمعالجة من عوقبوا بالجلد في سان لازار.

وفي أثناء ذلك، في لوكاب، كانت فيوليت بواسيير ولولا قد انتهيتا من توضيب ممتلكات الأسرة وحفظها في أحدٍ مستودعات الميناء بانتظار السفينة التي ستقل الأسرة إلى فرنسا. فأخيراً، وبعد قرابة عشر سنوات من الانتظار والعمل والتوفير والربى والصبر، ستتحقق الخطة التي وضعها إيتيان روليه عند بدء علاقته بفيوليت. وكانوا قد بدؤوا بتوديع الأصدقاء عندما استُدعي الضابط إلى مكتب الحاكم، الفيكونت

بلانشلاند. كان المبنى يفتقر إلى فخامة المُعتَمدية المدنية، ويبدو بتقشف ثكنة عسكرية، تفوح فيه رائحة جلد ومعادن. كان الفيكونت رجلاً ناضجاً، وذا سجل عسكري حافل، فقد كان مارشالاً ميدانياً وحاكم ترينيداد قبل نقله إلى سان دومانغ التي وصلها حديثاً وبدأ بتلمس الأجواء فيها. ولم يكن يعلم أنه يجري التحضير لثورة خارج المدينة. كان يحمل أوراق اعتماد من الجمعية العمومية في باريس التي يمكن لنزوات أعضائها أن تنزع عنه الثقة بالسرعة نفسها التي منحته إياها. وكان أصله النبيل وثروته عاملاً مضاداً له بين أشد الجماعات راديكالية، اليعاقبة، ممن يسعون إلى القضاء على كافة مظاهر النظام الملكي. اقتيد إيتيان روليه إلى مكتب الفيكونت عبر عدة قاعات شبه عارية، فيها لوحات غامضة لمعارك حاشدة سوّدها هباب المصابيح. كان الحاكم الذي يرتدي ملابس مدنية، وبلا باروكة، مختفياً وراء منضدة عسكرية خشنة ومثقلة بسنوات طويلة من الاستخدام. وقد عُلق وراء ظهره علم فرنسا متوجاً بشعار الثورة، وإلى اليسار، على جدار آخر، خريطة بديعة لجزر الأنتيل مع رسوم توضيحية لكائنات بحرية خرافية وسفن شراعية قديمة.

ـ المقدم إيتيان روليه، من فوج لوكاب ـ قدّم الضابط نفسه وهو ببدلة المراسم وبكل أوسمته، وأحس بأنه مضحك أمام بساطة قائده.

ـ اجلس أيها المقدم، أظن أنك ترغب في تناول فنجان قهوة ـ تنهد الفيكونت الذي بدا عليه أنه أمضى ليلة سيئة.

خرج من وراء منضدته وقاده إلى مقعدين مهترئين من الجلد. وعلى الفور ظهر حاجب يتبعه ثلاثة عبيد. أربعة أشخاص لتقديم فنجانين صغيرين من القهوة: أحد العبيد كان يحمل الصينية، وآخر سكب القهوة، والثالث قدم السكر. وبعد تقديم الخدمة، انسحب العبيد الثلاثة متراجعين القهقرى، أما الحاجب فوقف متأهباً بين المقعدين. كان الحاكم رجلاً متوسط طول القامة، نحيلاً، بتجاعيد عميقة وقليل من الشعر الرمادي. بدا روليه متضايقاً جداً على حافة المقعد، ممسكاً بخراقة

فنجان الخزف الذي يمكن لنفخة بسيطة أن تسقطه فتاتاً. لم يكن معتاداً على التعامل مع الأتكيت العسكري الصارم الذي تفرضه التراتبية.

ـ لا بد أنك تتساءل عن سبب استدعائي لك أيها المقدم روليه ـ قال بلانشلاند وهو يحرك السكر في القهوة ـ ما رأيك بالوضع في سان دومانغ؟

ـ ما رأيي؟ ـ كرر روليه مشوشاً.

ـ هناك مستوطنون يرغبون في الاستقلال، ويوجد أسطول إنكليزي على مرأى من الميناء، متأهب لمساعدتهم. وما الذي تريده إنكلترا أكثر من ضم سان دومانغ إليها! أنت تعرف من الذين أعنيهم، ويمكنك إعطائي أسماء دعاة الفتنة.

ـ القائمة تضم حوالي خمسة عشر ألف شخص أيها المارشال: جميع الملاكين والناس الأثرياء، سواء من البيض أو الخلاسيين الأحرار.

ـ هذا ما كنت أخشاه. إنني أفتقر إلى القوات الكافية للدفاع عن المستعمرة وتنفيذ القوانين الفرنسية الجديدة. سأكون صرحاً معك: بعض المراسيم تبدو لي سخيفة، مثل قانون الخامس عشر من أيار الذي يمنح الخلاسيين حقوقا سياسية.

ـ إنه لا يشمل سوى الخلاسيين الأبناء لآباء أحرار وملاكي أراضي، وهم أقل من أربعمئة رجل.

ـ ليست هذه هي النقطة! ـ قاطعه الفيكونت ـ المسألة أن البيض لن يقبلوا أبداً مساواتهم بالخلاسيين، ولست أجرمهم. لأن ذلك سيزعزع استقرار المستعمرة. لا شيء واضح في سياسة فرنسا، ونحن من نعاني نتائج الإخفاق. المراسيم تتبدل يومياً أيها المقدم. تأتيني سفينة بتعليمات، ثم تأتي السفينة التالية بتعليمات مناقضة.

ـ وهناك مشكلة العبيد المتمردين ـ أضاف روليه.

ـ آه! الزنوج... لا يمكنني أن أشغل نفسي بهذا الأمر الآن. التمرد في ليمبيه تم سحقه وقريباً سيكون زعماء التمرد في قبضتنا.

ـ لم يكشف أي من السجناء عن أسماء الزعماء يا سيدي. إنهم لا يتكلمون.
ـ سوف نرى. فقوات الدرك تعرف هذه الأمور خيراً منا.
ـ مع كل الاحترام أيها المارشال، أظن أن هذه المسألة تستحق أن توليها اهتمامك ـ ألح إيتيان روليه وهو يضع الفنجان على منضدة صغيرة ـ. الوضع في سان دومانغ مختلف عمّا هو عليه في مستعمرات أخرى. فالعبيد هنا لم يتقبلوا قدرهم قطّ، إنهم ينتفضون مرة بعد أخرى منذ ما يقرب من قرن من الزمان، هناك عشرات آلاف العبيد الآبقين في الجبال. لدينا الآن نصف مليون عبد. وهؤلاء يعرفون أن الجمهورية قد ألغت العبودية في فرنسا، وهم على استعداد للنضال من أجل الحصول على ذلك هنا. وليس باستطاعة قوات الدرك كبحهم.
ـ أتقترح استخدام الجيش ضد الزنوج أيها المقدم؟
ـ سيتوجب علينا استخدام الجيش من أجل فرض النظام يا سيدي المارشال.
ـ وكيف تريدنا أن نفعل ذلك؟ إنهم يرسلون إلينا عُشر عدد الجنود الذين أطلبهم، وما أن ينزلوا إلى البر حتى يسقطون مرضى. وهذا ما أود الوصول إليه أيها المقدم روليه: لا يمكنني الموافقة على استقالتك في هذا الوقت.
نهض إيتيان واقفاً وقد شحب لونه. وحذا الحاكم حذوه، وتأمل كل منهما الآخر بضع ثوان.
ـ سيدي المارشال، لقد التحقتُ بالجيش وأنا في السابعة عشرة، وخدمتُ لمدة خمسة وثلاثين عاماً، وقد جُرحت سبع مرات، وأنا الآن في الحادية والخمسين ـ قال روليه.
ـ وأنا في الخامسة والخمسين وأرغب أيضاً في التقاعد في ملكيتي في ديجون، ولكن فرنسا بحاجة إليّ، مثلما هي بحاجة إليك ـ ردّ الفيكونت بجفاء.
ـ لقد وقّع على استقالتي سلفك، الحاكم ديبيرنيه. ولم يعد لدي

بيت يا سيدي المارشال، إنني أقيم مع أسرتي في نزل، وسوف نبحر يوم الخميس القادم في السفينة *ماري تريز*.

حدقت عينا بلانشلاند الزرقاوان بعيني المقدم الذي خفض بصره أخيراً وتأهب.

ـ إنني تحت أمرك يا سيدي الحاكم ـ وافق روليه مذعناً.

تنهد بلانشلاند مجدداً، وفرك عينيه مستنفداً، ثم أشار إلى الحاجب كي يستدعي سكرتيره، وتوجه نحو المنضدة.

ـ لا تقلق، مكتب الحاكم سيؤمن لك بيتاً أيها المقدم روليه. تعال هنا الآن وأرني على الخريطة أشد الأماكن تضررا في الجزيرة. فليس هناك من يعرف الأرض خيرا منك.

زاريتيه

هذا ما رووه لي. هكذا جرت الأمور في غابة التمساح. وهذا ما هو مدون في أسطورة هذا المكان الذي صار يسمى الآن هايتي، أول جمهورية زنوج مستقلة. لا أدري ما الذي يعنيه هذا، ولكنه يجب أن يكون مهماً، لأن الزنوج يقولونه مصفقين ويقوله البيض بغضب. غابة التمساح تقع في الشمال، قريباً من السهول الواسعة، في الطريق إلى لوكاب، على بعد ساعات من مزرعة سان لازار. إنها غابة فسيحة، مكان دروب متقاطعة وأشجار مقدسة، حيث يأوي **دامبالا** في هيئته كأفعى، **لوا** الينابيع والأنهار، حارس الغابة. وفي غابة التمساح تعيش أرواح الطبيعة وأرواح العبيد الميتين الذين لم يجدوا الطريق إلى غينيا. في تلك الليلة وصلت أيضاً إلى الغابة أرواحٌ أخرى كانت مستقرة تماما بين الموتى والأسرار، ولكنها جاءت مستعدة للقتال، لأنها استُدعيت. كان هناك جيش من مئات آلاف الأرواح تقاتل إلى جانب الزنوج، ولهذا هزموا البيض في النهاية. لقد كنا جميعنا متفقين في هذا الشأن، بمن في ذلك الجنود الفرنسيون الذين شعروا بالغضب. السيد فالموران الذي لا يؤمن بما لا يفهمه، ولأنه يفهم قليلاً جداً فإنه لا يؤمن بشيء، اقتنع أيضاً بأن الموتى يساعدون المتمردين. هذا ما يفسر قدرتهم على السيطرة على أفضل جيش في أوروبا كما كانوا يقولون. لقاء العبيد في غابة التمساح جرى في منتصف شهر آب، في ليلة قائظة، يبللها عرق الأرض والرجال. كيف انتشر الخبر؟ يقال إن الرسالة حملتها الطبول من **كاليندا** إلى **كاليندا**، من زعيم إلى زعيم، ومن كوخ إلى كوخ. صوت الطبول يسافر أبعد وأسرع من صخب عاصفة، والجميع يعرفون لغته. العبيد هرعوا من مزارع الشمال، على الرغم من أن المالكين والدرك كانوا متأهبين منذ انتفاضة ليمبيه التي جرت قبل أيام

قليلة. وكانوا قد قبضوا على عدد من المتمردين أحياء، وساد الاعتقاد بأنهم قد انتزعوا منهم معلومات، فليس هناك من لا يعترف في زنازين لوكاب. وخلال ساعات قليلة نقل الآبقون معسكراتهم إلى أعلى القمم لتجنب هجمات خيالة الدرك وعجلوا في عقد جمعية غابة التمساح. لم يعلموا أن أياً من السجناء لم يتكلم، وأنهم لن يتكلموا.

نزل آلاف العبيد الآبقين من الجبال. وجاء غامبو مع جماعة زامبا بوكمان، وهو مارد يوحي باحترام مضاعف لأنه زعيم حرب وكاهن. وكان غامبو قد بلغ حجمه كرجل خلال السنة ونصف السنة التي أمضاها حراً، فقد صار عريض المنكبين، له ساقان لا تكلان ويحمل منجل ماتشيتي للقتل. وقد اكتسب ثقة بوكمان. كان يتوغل في المزارع ليسرق مؤناً وأدوات وأسلحة وبهائم، ولكنه لم يحاول المجيء لرؤيتي قط. لأن في ذلك مجازفة. كانت تصلني أخبار عنه من خلال تانت روز. ولم تكن عرابتي توضح لي كيف تتلقى الرسائل حتى إنني خشيت أنها تختلقها لتطمئنني، لأن حاجتي إلى أن أكون مع غامبو قد عاودتني في ذلك الوقت وكانت حارقة كجمر الفحم. «أعطني دواء مضاداً لهذا الحب يا تانت روز.» ولكن لا وجود لدواء مضاد لما أنا فيه. كنت أستلقي منهوكة من أعمال النهار، والطفلان إلى جانبيَّ، ولكنني لا أستطيع النوم. أظل لساعات أستمع إلى أنفاس موريس القلقة وخرخرة روزيت، وأصوات البيت، ونباح الكلاب، ونقيق الضفادع، وصياح الديكة، وعندما أغفو أخيراً يبدو ذلك كما لو أنني أغرق في دبس القصب. وأقول بخجل إنني عندما اضطجع أحياناً مع السيد، أتخيل أنني مع غامبو. أعض شفتي كي أكبح نفسي من النطق باسمه، وفي فضاء العينين المغمضتين المظلم أتصنع أن رائحة الكحول التي تفوح من الأبيض هي أنفاس عشب أخضر تنبعث من غامبو الذي لم تتعفن أسنانه من أكل السمك الخبيث، وأن الرجل الثقيل كثيف الشعر الذي يلهث فوقي هو غامبو، وأنه نحيل ورشيق، ببشرته الشابة التي تقطعها ندوب، وشفتيه العذبتين، ولسانه الفضولي المتمادي، وصوته

الهامس. عندئذ ينفتح جسدي ويرتعش متذكراً اللذة. ولكن السيد يصفعني بعد ذلك على إليتي وهو يضحك راضياً، فتعود روحي عندئذ إلى هذا السرير وإلى هذا الرجل وأفتح عيني وأنتبه أين أنا. أهرع إلى الفناء وأغتسل بنزق قبل أن أذهب للنوم مع الطفلين.

مشت الجموع ساعاتٍ وساعات لتصل إلى غابة التمساح، خرج البعض من المزارع نهاراً، وجاء آخرون من خلجان الساحل، ووصل الجميع في ظلمة الليل. يقال إن عصبة من الآبقين جاءت من بور آوبرنس، ولكنه مكان بعيد ولم أصدق ذلك. امتلأت الغابة. رجالٌ ونساء رشيقون ينسلون بين الأشجار بصمت كامل، مختلطين مع الموتى والظلال، ولكنهم تحمسوا عندما أحسوا برعشةِ أول الطبولِ في أقدامهم، وغذوا الخطى، صاروا يتكلمون همساً ثم صراخاً بعد ذلك، يتبادلون التحية، ويسمي بعضهم بعضاً. أضيئت الغابة بالمشاعل. كان بعضهم يعرف الطريق فقادوا الآخرين نحو بقعة خالية في الغابة اختارها الزعيم بوكمان. كان الرجال قد أعدوا **البوتاو- ميتان** المقدس، جذع ثخين وطويل، لأن الطريق يجب أن يفتح فسيحاً **للوات**. صف طويل من فتيات يرتدين البياض، إنهنِ الوصيفات ، وصلن يحرسن تانت روز، وكانت ترتدي البياض أيضاً، ومعها **آسو** الطقوس. كان الناس ينحنون ليلمسوا ذيل تنورتها أو الأساور الرنانة في ساعديها. لقد استعادت شبابها، لأن إرزولي يرافقها منذ أن غادرت مزرعة سان لازار: صارت لا تتعب من المشي من مكان إلى آخر دون عكاز، وغير مرئية كيلا يقبض عليها رجال الدرك. كانت الطبول في نصف دائرة تدعو: تام، تام، تام. والناس يتجمعون في جماعات ويعلقون على ما جرى في ليمبيه ومعاناة السجناء في لوكاب. بدأ بوكمان الكلام ليدعو الإله الأعلى، بابا بونديي، ويطلب منه أن يقودهم إلى النصر، ثم صرخ: «اسمعوا صوت الحرية يغني في قلوبنا كلها!» وردّ العبيد بصرخة هزت الجزيرة. هكذا رووا لي ذلك.

بدأت الطبول تتكلم وتجيب، بدأت تضبط الإيقاع للطقوس

الاحتفال. رقصت **الوصيفات** حول العمود المقدس في حركه أشبه برقصة طيور النُحام، ينحنين، ينتصبن، الأعناق تتموج، الأذرع مجنحة، غنين مستدعياتٍ اللواتِ، **اللوا** ليغبي أولاً، كما يحدث عادة، وبعده الآخرون واحداً واحداً. ورسمت **المامبو**، تانت روز، خط الفيفي حول العمود المقدس بمزيج من الدقيق، من أجل إطعام **اللوات**، وبرماد من أجل تكريم الموتى. زادت الطبول من زخمها، وتسارع الإيقاع واهتزت الغابة بكاملها من أعمق الجذور حتى أبعد النجوم. عندئذ نزل أغون بهيئة الحرب، أوغون فيرايل، إله الأسلحة الرجولي، العدواني، النزق، الخطر، فأفلت إرزولي تانت روز ليفسح المجال لأوغون الذي امتطاها. الجميع شهدوا التحول. تانت روز انتصبت مستوية، بضعف حجمها، دون عرج ودون سنوات على كاهلها، بعينين بيضاوين، قفزت قفزة لا مثيل لها وحطت منتصبة على بعد ثلاثة أمتار قبالة أحد المواقد. خرج من فم أوغون هزيم رعد ورقص **اللو** قافزاً عن الأرض وساقطاً وطافراً كطابة بقوة اللوات، يرافقه صخب الطبول. اقترب منه رجلان، أشجع الشجعان، ليقدما إليه السكر من اجل تهدئته، ولكن **اللو** أمسك بهما كدميتين ورماهما بعيداً. لقد جاء لتسليم رسالة حرب وعدالة ودم. تناول أوغون قطعة فحم متوقدة بيديه، وضعها في فمه، ودار دورة كاملة وهو يمص ناراً ثم بصق ما ابتلعه دون أن يحرق شفتيه. وعلى الفور انتزع سكيناً كبيرا من أقرب الرجال إليه، ترك **الآسون** على الأرض، توجه نحو خنزير القربان الأسود المقيد إلى شجرة، وذبحه بضربة واحدة من ذراعه المحارب، فاصلاً رأسه عن الجذع ومضمخاً بالدم. في أثناء ذلك كان كثير من الخدم ممتطين وغصت الغابة بلامرئيين وموتى وأسرار، بلوات وأرواح متشابكة بالبشر، الجميع مختلطين، يغنون، يرقصون، يقفزون ويتقلبون على وقع الطبول، يطؤون الجمار المتأججة، يلحسون نصال السكاكين المحَمَّاة حتى التوهج، ويلتهمون حفنات من الفلفل الحار. كان هواء الليل مشحوناً، كما في عاصفة رهيبة، مع أنه لم تكن تهب

أدنى نسمة. كانت المشاعل تضيء المكان كالنهار، ولكن رجال الدرك الذين يتجولون قريباً لم يروها. هكذا رووا لي ما حدث.

بعد وقت طويل، عندما كان الحشد الهائل يهتز كشخص واحد، أطلق أوغون زئير أسد ليفرض الصمت. وعلى الفور صمتت الطبول، وعاد الجميع باستثناء **المامبو** إلى ما كانوا عليه وانسحب **اللوات** إلى قمم الأشجار. رفع أوغون فيرايل **الآسون** نحو السماء ودوى صوت **اللو** بقوة أكبر من فم تانت روز ليطالب بإنهاء العبودية، ويدعو إلى التمرد الشامل وسمى القادة: بوكمان، وجان فرنسيس، وجانو، وبوسو، وسيلستان وآخرون. ولكنه لم يذكر اسم توسان، لأن الرجل الذي سيتحول إلى روح المتمردين كان لا يزال في ذلك الحين في مزرعة بريدا، حيث يخدم كحوذي. ولن ينضم إلى الانتفاضة إلا بعد عدة أسابيع، وبعد أن يوصل أسرة سيده كلها إلى مكان آمن. أما أنا فلم أسمع باسم توسان إلا بعد سنة من ذلك.

هكذا كانت بداية الثورة. لقد مضت سنوات كثيرة ومازالت الدماء تسيل وتضمخ أرض هايتي، ولكنني لم أعد موجودة هناك لأبكي.

الانتقام

ما إن علم تولوز فالموران بأمر انتفاضة العبيد وسجناء ليمبيه الذين ماتوا دون أن يعترفوا حتى أمر تيتي بأن تعد العدة بسرعة من أجل العودة إلى سان لازار متجاهلا تحذيرات الجميع، لاسيما تحذيرات الدكتور بارمونتيه، حول الخطر الذي يتعرض له البيض في المزارع. «لا تبالغ يا دكتور. فالزنوج كانوا مشاغبين على الدوام. ولكن بروسبير كامبري يراقبهم جيداً»، ردّ عليه فالموران بتفخيم، على الرغم من أن شكوكاً كان تراوده. وبينما كانت أصداء الطبول تدوي في الشمال داعية العبيد إلى اجتماع غابة التمساح، كانت عربة فالموران، تحميها حراسة مشددة، تتوجه بأقصى سرعة إلى المزرعة. وصلوا وسط سحابة من الغبار، يثقل عليهم الحر والجزع، وكان الطفلان منهوكين وتيتي مخدرة من شدة اهتزاز العربة. قفز السيد من العربة وانزوى مع رئيس رؤساء فرق العمل في المكتب ليتلقى تقريراً عن الخسائر التي كانت ضئيلة جداً في الواقع، وخرج بعد ذلك ليجوب أملاكه ويواجه العبيد الذين تمردوا، كما قال له كامبري، ولكن ليس إلى الحد الذي يتوجب فيه تسليمهم إلى الدرك، مثلما فعل بآخرين. لقد كان ذلك النوع من المواقف التي تجعل فالموران يشعر بأنه ليس بالرجل المناسب، وقد صارت تتكرر بكثرة في الأزمنة الأخيرة. كان رئيس رؤساء فرق العمل يدافع عن مصالح مزرعة سان لازار أكثر من مالكها، يتصرف بحزم ودون تهاون، بينما هو يتردد، غير مستعد لتلويث يديه بالدماء. إنه يكشف مرة أخرى عن عجزه وعدم أهليته. فخلال بضع وعشرين سنة من وجوده في المستعمرة لم يتوصل إلى التأقلم، ومازال يشعر أنه مجرد عابر وأن مسألة العبيد هي أشد أعبائه إزعاجاً. فهو غير قادر على أن يأمر بشيّ رجل ببطء على نار هادئة، وإن كان الإجراء في نظر كامبري ضرورة لا بد منها. أما حجته في

مواجهة رئيس مراقبي العمال ***والبيض الكبار*** ـ وقد كان عليه أن يبرر موقفة في أكثر من مناسبة ـ فكانت في أن القسوة غير فعالة، لأن العبيد يعمدون إلى تخريب كل ما يستطيعون تخريبه، ابتداء من تثليم سكاكين تقطيع القصب وحتى صحتهم نفسها، فهم ينتحرون أو يأكلون جيفاً لتضعف أبدانهم من القيء والإسهال، وهي حالات يحاول تجنب حدوثها. وكان يتساءل إن كانت اعتباراته تفيد في شيء، أم أنه مكروه مثل لاكروا. وربما كان بارمونتيه على حق بأن العنف والخوف والحقد أمور ملازمة للعبودية، ولكن لا يمكن لمزارع قصب أن يمنح نفسه ترف الوساوس. وكثيراً ما كان النوم يجافيه وتعذبه الرؤى. فثروة عائلته التي بدأها أبوه وضاعفها هو نفسه أضعافاً ملطخة بالدماء. ولم يكن بمقدوره، خلافاً لغيره من البيض الكبار، أن يتجاهل الأصوات التي تتعالى في أوروبا وأميركا لتدين جحيم مزارع القصب في جزر الأنتيل.

في الأيام الأخيرة من شهر أيلول كانت حركة التمرد قد عمت الشمال بأسره، وصار العبيد يهربون جماعات، وقبل مغادرتهم يضرمون النار في كل شيء. تناقصت الأيدي العاملة في الحقول، ولم يعد أصحاب المزارع يرغبون في شراء عبيد يهربون عند أول سهو. فأصاب الشلل سوق العبيد في لوكاب. ضاعف بروسبير كامبري عدد ***الكوماندرات*** وشدد الحراسة والانضباط، بينما كان فالموران يذعن لقسوة موظفه دون تدخل منه. لم يكن هناك من ينام مطمئناً في سان لازار. والحياة التي لم تكن مريحة قط، تحولت إلى جهد ومعاناة وحسب. أُلغيت ***الكاليندات*** وساعات الراحة، على الرغم من انعدام مردود العمل في قيظ الظهيرة. ومنذ اختفاء تانت روز لم يعد هناك من يعالج العبيد أو يقدم لهم النصائح والعون الروحي. والوحيد الذي كان سعيدا بغياب ***المامبو*** هو بروسبير كامبري الذي لم يحاول مطاردتها، فكلما كانت تلك الساحرة القادرة على تحويل الإنسان الفاني إلى شبح زومبي بعيدة عنه، يكون أفضل. ولماذا تراها كانت تجمع غبار القبور، وأكباد أسماك البالون والضفادع، والنباتات السامة إلا لضلالاتها تلك؟ ولهذا

السببٍ لم يٍكن رئيس مراقبي العمال يخلع جزمته قطّ. إنهم يضعون زجاجاً مفتتاً على الأرض، فيدخل السم من الجروح إلى باطن القدم وفي الليلة التالية لدفن المصاب ينبش العبيد عن جثة الميت المتحول إلى زومبي ويبعثونه حياً بضرب رهيب. «لا أظنك تصدق هذه الأكاذيب!»، قال فالموران ضاحكاً وهما يتحدثان ذات يوم في هذا الموضوع. فأجابه رئيس مراقبي العمال: «بالنسبة للتصديق، لا شيء من التصديق يا مسيو، أما عن وجود الزومبيات، فهم موجودون».

في سان لازار، كما في بقية أنحاء الجزيرة، كانوا يعيشون مترقبين بحذر. فتيتي تسمع إشاعات يكررها سيدها أو يتبادلها العبيد، ولكنها لا تستطيع فهمها بغياب تانت روز. لقد انغلقت المزرعة على نفسها كالقبضة. النهارات تبدو ثقيلة الوطأة والليالي بلا نهاية. صارت تحن حتى إلى سيدتها المجنونة. فموت إوخينيا خلف فراغاً كبيراً، وصار لديها فائض من الزمان والمكان، فالبيت يبدو هائل الاتساع، لا يمكن حتى للطفلين أن يملأاه بصخبهما. وفي هشاشة تلك الفترة تراخت الأنظمة وتقلصت الفوارق. لقد اعتاد فالموران على وجود روزيت وانتهى به الأمر إلى التسامح مع التآلف معها. لم تكن تدعوه سيدي المالك، بل مسيو، وتنطقها كمواء هرّ. وكان موريس يقول له: «عندما أكبر سأتزوج من روزيت». ويفكر أبوه في أن الوقت سيتوفر في المستقبل لوضع الأمور في نصابها. وقد حاولت تيتي أن تلقن الطفلين الفروقات الأساسية بينهما: فلدى موريس امتيازات محظورة على روزيت، مثل الدخول إلى غرفة في البيت دون استئذان أو الجلوس على ركبتي السيد دون استدعاء. وكان الطفل في سن المطالبة بتفسيرات، وتيتي تجيب على أسئلته دوماً بالحقيقة. «لأنك ابن شرعي للسيد، ولأنك ذكر، وأبيض، وحر، وغني. أما روزيت فليست كذلك». ولكن هذا لم يكن يرضي موريس، بل يسبب له نوبات بكاء، فيكرر وهو يجهش في البكاء: «لماذا، لماذا؟». وتجيبه تيتي: «لأن الحياة قوادة يا صغيري. تعال لأنظف مخاطك». كان فالموران يقدر أن ابنه

صار في سن مناسبة لأن ينام وحده، ولكنهم كلما حاولوا إجباره يعاني نوبة عصبية وترتفع حرارته. فواصل النوم مع تيتي وروزيت ريثما تعود الأمور إلى طبيعتها، مثلما حذره أبوه، ولكن أجواء التوتر في الجزيرة كانت أبعد ما يكون عن العودة إلى طبيعتها.

ذات مساء وصل عدد من رجال الشرطة ممن كانوا يجوبون مناطق الشمال في محاولة لضبط الفوضى، وجاء معهم بارمونتيه. قلما كان الدكتور يسافر خارج لوكاب بسبب مخاطر الطرق وواجباته تجاه الجنود الفرنسيين الذين يحتضرون في مستشفاه. فقد ظهرت إصابات بالحمى الصفراء في إحدى الثكنات تمكن من ضبطها قبل أنٍ تتحول إلى وباء، غير أن الملاريا والكوليرا والدينجي كانت تعيث خراباً. وقد انضم بارمونتيه إلى رجال الميليشيا، لأنها الطريقة الوحيدة للسفر بشيء من الأمان، ولم يكن الهدف من رحلته زيارة فالموران الذي يلتقيه عادة في لوكاب، بقدر ما هي الرغبة في استشارة تانت روز. وقد أحس بخيبة أمل حين علم بخبر اختفاء معلمته. عرض فالموران استضافة صديقه ورجال الميليشيا الذين جاؤوا يغطيهم الغبار، عطشى ومنهوكين. وخلال يومين دب النشاط في البيت الكبير، أصوات رجولية وحتى موسيقى، لأن بعض الرجال يعزفون آلات وترية. وقد تمكنوا أخيراً من استخدام الآلات الموسيقية التي اشترتها فيوليت بواسيير لمجرد الشراء عندما أعادت ترتيب البيت قبل ثلاثة عشر عاماً. كانت أوتارها متراخية، ولكنها صالحة للعزف. أمر فالموران بإحضار بعض العبيد البارعين في عزف الطبول وأقيمت حفلة. أفرغت تانت ماتيلد غرفة المونة من أفضل محتوياتها وأعدّت قوالب حلوى بالفاكهة، ومؤكولات كريولية معقدة، حريفة وكثيرة الدسم لم تحضّرها منذ زمن بعيد. وتولى بروسبير كامبري شواء خروف من الخراف القليلة المتبقية، لأنها كانت تختفي بطريقة غامضة. وكانت الخنازير قد تبخرت أيضاً، ولأنه من المستحيل أن يتمكن العبيد الآبقون من سرقة تلك الحيوانات الثقيلة دون تواطؤ من عبيد المزرعة، فقد عمد كامبري، كلما سُرقت بهيمة، إلى اختيار عشرة زنوج بصورة عشوائية يأمر بجلدهم؛ لأنه

لا بد لأحد أن يدفع ثمن تلك السرقة. في تلك الشهور حصل رئيس مراقبي فرق العمل على سلطات لم يتمتع بمثلها من قبل، فكان يتصرف كما لو أنه المالك الحقيقي لمزرعة سان لازار، وزداد تمادياً في وقاحته مع تيتي كطريقة لتحدي سيده الذي انطوى على نفسه منذ اندلاع التمرد. وجاءت زيارة رجال الميليشيا غير المنتظرة، وجميعهم خلاسيين مثله، لتزيد من تبجحه: فكان يوزع خمور فالموران دون أن يستشيره، ويصدر بحضوره أوامر جازمة إلى الخدم المنزليين، ويمزح غامزاً منه. لاحظ الدكتور بارمونتيه ذلك، مثلما لاحظ أن تيتي والطفلين يرتجفون أمام رئيس مراقبي العمال، وكاد أن يكلم مضيفه في الأمر، ولكن التجربة حولته إلى شخص متحفظ. فكل مزرعة هي عالم قائم بذاته، لها نظام علاقاتها الخاص، وأسرارها ورذائلها. فروزيت على سبيل المثال، هذه الطفلة ذات البشرة الفاتحة لا يمكن إلا أن تكون ابنة فالموران. وماذا حدث لابن تيتي الآخر؟ كان راغباً في التحري عن ذلك، ولكنه لم يتجرأ قطّ على سؤال فالموران؛ فعلاقات البيض بعبيدهم كانت موضوعاً محرماً في المجتمع الراقي.

ـ أظن أنك استطعت رؤية الأضرار التي تسبب بها التمرد يا دكتور ـ علق فالموران ـ. لقد عاثت العصابات خراباً في المنطقة.

ـ أجل. بينما نحن في طريقنا إلى هنا، رأينا دخان حريق في مزرعة لاكروا ـ قال بارمونتيه ـ. وعندما اقتربنا لاحظنا أن حقول القصب مازالت تحترق. ولم يكن هناك أحد. كان الصمت مفزعاً.

ـ أعرف يا دكتور، فقد كنتُ أحد أول من وصلوا إلى مزرعة كروا بعد الهجوم ـ أوضح فالموران ـ أسرة لاكروا ابيدت كلها، ومعها رؤساء العمال والخدم المنزليين، واختفى بقية العبيد. لقد حفرنا قبراً جماعياً دفنا فيه الجثث مؤقتاً، إلى أن تحقق السلطات في ما حدث. لم يكن بإمكاننا تركهم مرميين كالجيف. لقد اقترف الزنوج حمام دم.

ـ ألا تخشى أن يحدث شيء مماثل هنا؟ ـ سأله بارمونتيه.

ـ إننا مسلحون ومتأهبون، وأنا أثق بقدرة كامبري ـ أجاب فالموران

ـ. ولكنني أعترف لك بأنني قلق جداً. لقد نكل الزنوج بلاكروا وأسرته.
ـ صديقك لاكروا اشتُهر بقوته ـ قاطعه الطبيب ـ. وقد أجج ذلك من حقد المهاجمين، ولكن ليس هناك في هذه الحرب من يأخذ أحداً في الاعتبار يا صديقي. لا بد من الاستعداد للأسوأ.
ـ أتعرف أن راية المتمردين تحمل صورة طفل أبيض مرفوع على حربة يا دكتور؟
ـ الجميع يعرفون ذلك. هناك رعب في فرنسا من هذه الأحداث. لم يعد للعبيد أي نصير في الجمعية العمومية، وحتى جمعية أصدقاء الزنوج صمتت، ولكن هذه الفظاعات هي الرد المنطقي على الفظاعات التي اقترفناها ضدهم.
ـ لا تشملنا جميعاً يا دكتور! ـ هتف فالموران ـ. فأنت وأنا لم نقترف قطّ أية تجاوزات!
ـ لستُ أشير إلى أحد بعينه، وإنما إلى العرف الذي فرضناه. وانتقام الزنوج أمر لا مفر منه. إنني خجل من كوني فرنسياً ـ قال بارمونتيه بحزن.
ـ إذا كانت المسألة مسالة انتقام، فقد وصلنا إلى نقطة الخيار بيننا وبينهم. فمن واجبنا نحن أصحاب المزارع أن ندافع عن أرضنا واستثماراتنا. وسوف نستعيد المستعمرة مهما كان الثمن. لن نبقى مكتوفي الأيدي!
ولم يكونوا مكتوفي الأيدي. فالمستوطنون، والدرك، والجيش كانوا يخرجون للصيد وأي زنجي متمرد يمسكون به يمزقونه إرباً. لقد استوردوا خمسمئة كلب من جامايكا وضعف العدد بغالاً من المارتينيك مدربة على صعود الجبال وهي تجر مدافعاً.

الرعب

راحت مزارع الشمال تحترق واحدة بعد أخرى. استمر الحريق شهوراً، وكان وميض اللهب يُرى في الليل من كوبا، بينما الدخان الكثيف يخنق مدينة لوكاب ويصل، على حدّ قول العبيد، حتى غينيا. كان المقدم إيتيان روليه مكلفاً بإطلاع الحاكم على أعداد القتلى، وقد أحصى حتى نهاية شهر كانون الأول أكثر من ألفي قتيل من البيض، وإذا كانت تقديراته صحيحة، فقد كان هناك أكثر من عشرة آلاف قتيل من الزنوج. أما في فرنسا فقد انقلبت المعنويات حين عُرف ما يتعرض له المستوطنون في سان دومانغ، فألغت الجمعية الوطنية المرسوم الصادر حديثاً بمنح الحقوق السياسية للمولدين. وكان هذا القرار، كما قال روليه لفيوليت، يخلو تماماً من المنطق، لأنه ليست للخلاسيين أية علاقة بالتمرد، وهم أسوأ أعداء للزنوج وحلفاء طبيعيون للبيض الكبار، يشاركونهم في كل شيء باستثناء لون البشرة. وفي أثناء ذلك، اضطر الحاكم بلانشلاند الذي لم يكن يتعاطف مع الجمهوريين، إلى استخدام الجيش لإخماد فتنة العبيد التي راحت تتخذ أبعادا كارثية، والتدخل في النزاع الوحشي بين البيض والخلاسيين الذي اندلع في بور آوبرنس. فقد بدأ *البيض الصغار* باقتراف مجزرة ضد المولدين، فرد هؤلاء باقتراف أعمال وحشية أشد سوءاً مما يقترفه الزنوج والبيض معاً. لم يكن أحد بمنجى. كانت الجزيرة تهتز في آوار حقد قديم ينتظر هذه الذريعة ليندلع لهيباً. فالرعاع البيض في لوكاب الهائجين لما حدث في بور آوبرنس، هاجموا الملونين في الشوارع واقتحموا بيوتهم بالكسر والخلع، فامتهنوا النساء، وذبحوا الأطفال وشنقوا الرجال على شرفات منازلهم نفسها. كانت رائحة الجثث المتعفنة تصل حتى السفن الراسية بعيداً عن الميناء. وفي ملاحظة أرسلها بارمونتيه إلى فالموران، روى له

أخبار المدينة معلقاً: «لا وجود لما هو أخطر من انعدام العقاب يا صديقي، فالناس يصابون بمس من الجنون عندئذ ويقترفون أسوأ الفظائع، بغض النظر عن لون البشرة، لأن الجميع متشابهون. ولو أنك رأيتَ ما رأيتُه لوجدت نفسك مضطراً إلى طرح مسألة تفوق العرق الأبيض للنقاش، وهي المسألة التي طالما تبادلنا الرأي حولها».

الرعب الذي أحس به الدكتور من انفلات ذلك العنف، دفعه إلى طلب مقابلة مع إيتيان روليه الذي يعرفه من خلال عمله في المستشفى العسكري، وقد ذهب إليه في مكتبه الإسبارطي. كان يعرف أن الضابط قد تزوج من امرأة ملونة وأنه يظهر متأبطاً ذراعها أمام الملأ دون التفات إلى ألسنة السوء، وهذا ما لم يتجرأ هو على فعله قط في علاقته مع آديل. قدّر أن الرجل سيفهم وضعه خيراً من سواه وقرر أن يُطلعه على سره. دعاه الضابط إلى الجلوس على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة.

ـ اعذرني لجرأتي على إزعاجك في موضوع شخصي أيها المقدم... ـ تلعثم بارمونتيه.

ـ كيف يمكنني مساعدتك يا دكتور؟ ـ ردّ عليه روليه بلطف وهو المدين للدكتور بإنقاذ حياة عدد من مرؤوسيه.

ـ الحقيقة أن لي أسرة. زوجتي تدعى آديل. إنها ليست زوجتي بالضبط... حضرتك تفهمني، أليس كذلك؟ ولكننا نعيش معاً منذ سنوات طويلة ولدينا ثلاثة أبناء. إنها خلاسية.

ـ أعرفُ ذلك يا دكتور ـ قال له روليه.

ـ كيف تعرفه؟ ـ هتف الآخر مرتبكاً.

ـ منصبي يتطلب مني معرفة هذه المعلومات، كما أن زوجتي فيوليت بواسيير تعرف آديل. فقد اشترت منها عدة فساتين.

ـ آديل خياطة بارعة ـ أضاف الدكتور.

ـ افترضُ أنك جئت لتكلمني عن الهجمات ضد المولدين. لا أستطيع أن أعدك بأن الأمور ستتحسن قريباً يا دكتور. إننا نحاول ضبط

الأهالي، ولكن الجيش يفتقر إلى الموارد الكافية. إنني قلق جداً. فزوجتي لم تخرج من البيت منذ أسبوعين.

ـ إنني خائف على آديل والأطفال...

ـ بالنسبة إلي، أرى أن الطريقة الوحيدة لحمايةٍ أسرتي هي في إرسالها إلى كوبا إلى أن تمر العاصفة. سيغادرون غداً في سفينه. يمكنني أن أعرض عليك إرسال أسرتك أيضاً إذا كنت راغباً في ذلك. لن يكون سفرهم مريحاً، ولكنها رحلة قصيرة.

في تلك الليلة بالذات قامت كوكبة من الجنود بمرافقة النساء والأطفال إلى السفينة. كان آديل خلاسية قاتمة البشرة وبدينة بلا جاذبية كبيرة للوهلة الأولى، ولكنها تتمتع بعذوبة كبيرة وطيب مزاج لا ينضب. وما كان يمكن لأحد ألا يلحظ الفرق بينها، وهي تلبس كخادمة وتحاول البقاء في الظل لتحافظ على سمعة أبي أبنائها، وبين فيوليت الجميلة بمظهرها كملكة. لم تكونا من الطبقة الاجتماعية نفسها، بل تفصل بينهما بضع درجاتٍ في اللون، وهي تدرجات تحدد مصير المرء في سان دومانغ، فضلاً عن أن إحداهما خياطةٍ والأخرى زبونة عندها. ولكنهما تعانقتا بمودة، لأنهما ستواجهان معاً مصادفات المنفى. كانت لولا تبكي بينما جان مارتن متشبث بيدها. وكانت قد علقت تمائم كاثوليكية وأفريقية تحت قميصه كيلا يراها روليه العقلاني الحازم. لم تكن العبدة قد ركبت زورقاً من قبل، ناهيك عن ركوبها سفينة، وقد أرعبتها مجازفة السفر في بحر يغص بأسماك قرش، على متن تلك الحزمة من الأخشاب سيئة الالتحام وذات الأشرعة الشبيهة بالتنانير النسائية. وبينما كان الدكتور بارمونتيه يومئ بتلويحات وداع خفية من بعيد لأسرته، ودّع إيتيان روليه فيوليت، المرأة الوحيدة التي أحبهاٍ في حياته، بقبلة يائسة أمامٍ جنوده، وأقسم لها أنهما سيلتقيان قريباً. ولكنه لن يراها بعد ذلك أبداً.

لم يعد هناك في معسكر زامبو بوكمان من يعاني الجوع، ولم تعد أضلاع الرجال بارزة، ولم يعد الأطفال القليلون مجرد هياكل عظمية

ببطون منتفخة وعيون قبورية، وصارت النساء يحبلن. فقبل التمرد، عندما كان العبيد الآبقون يعيشون مختبئين في مغاور الجبال، كان الجوع يُسكّن بالنوم، والظمأ بقطرات المطر. وتزرع النسوة شتلات ذرة هزيلة، يضطررن إلى هجر المكان قبل أن يحين موعد حصادها، ويدافعن بحياتهن عن العنزات القليلة المتوفرة، لأن هناك عدداً من الأطفال، ممن ولدوا في الحرية، ولكنهم لن يعيشوا طويلاً إذا ما افتقدوا حليب تلك الحيوانات الثمينة. وكان غامبو وخمسة أخرين من أشد الرجال جرأة مكلفين بالحصول على المؤن. أحدهم يحمل بندقية، ويمكنه اصطياد أرنب بري وهو يركض على مسافة كبيرة، ولكن الذخائر القليلة تُدخر للطرائد الكبيرة فقط. وكان أولئك الرجال يتوغلون ليلاً في المزارع، حيث يتقاسم العبيد مؤونتهم معهم بالحسنى أو بالإكراه، ولكنهم يكونون معرضين لخطر الخيانة الرهيب أو مفاجأتهم بالانقضاض عليهم بغتة. وإذا ما تمكنوا من الوصول إلى قطاع المطابخ أو الخدم المنزليين، فبإمكانهم الاستيلاء على كيسين من الدقيق أو برميل أسماك مجففة، وهو ليس بالشيء الكثير، ولكنه أفضل من مضغ السحالى. وقد اعتاد غامبو الذي له يد سحرية في معاملة البهائم أن يقود بغلة طاحون هرمة، يُستفاد منها بعد ذلك حتى آخر عظم فيها. وتحتاج تلك العمليات إلى كثير من حسن الحظ والجرأة، لأن البغلة إذا ما حرنت لن تكون هناك قوة قادرة على تحريكها، أما إذا كانت وديعة، فلا بد له من اقتيادها خفية حتى الوصول بها إلى ظلال الغابة، حيث يطلب منها المغفرة لأنه سينتزع حياتها، مثلما علمه أبوه حين كانا يخرجان إلى الصيد، ثم يذبحها على الفور. ويحملون جميعهم اللحم ويصعدون به إلى الجبل، ويطمسون آثارهم كي يضللوا مطارديهم. تلك التوغلات اليائسة اتخذت الآن مظهراً آخر. فلم يعد هناك من يعترضهم في المزراع التي هُجرت جميعها تقريباً، وصار بإمكانهم أن يأخذوا منها كل ما نجا من الحريق. وهكذا لم يعد المعسكر يفتقد الخنازير والدجاج، وأكثر من مئة معزى، وأكياس من الذرة

واليُّكة والبطاطا والفاصوليا، وحتى الروم، وكل ما يرغبون فيه من البن والسكر الذي لم يتذوقه من قبل عبيد كثيرون ممن أمضوا سنوات في إنتاجه. لقد تحوّل آبقو الأمس إلى ثوارٍ الآن. ولم يعودوا قطاع طرق ضامرين، بل محاربين أشداء حازمين، لاً سبيل لهم إلى التراجع : فإما أن يموتوا وهم يقاتلون أو يموتوا تحت التعذيب. ولا رهان لهم سوى النصر.

كان المعسكر محاطاً بأوتاد علقت عليها جماجم وأجساد متتالية تيبست تحت الشمس. وفي حوش كبير كانوا يحتفظون بالأسرى البيض بانتظار دورهم في الإعدام. أما النساء فيحولوهن إلى عبدات ومحظيات، مثلما كانت تُعامل النساء الزنجيات في المزارعِ من قبل. لم يكن غامبو يشعر بالشفقة على الأسرىٍ، وكان مستعدا لقتلهم إذا ما استدعت الحاجة، ولكنه لم يتلقَ أمراً بذلك، لأن تمتعه بساقين سريعتين ورؤية صائبة، جعل الزعيم بوكمان يكلفه أيضاً بنقل الرسائل إلى زعماء آخرين والقيام بأعمال التجسس. كانت المنطقة مزروعة بالعصابات التي يعرف الشاب مواقعها جيداً. وأسوأ تلك المعسكراتٍ في معاملة البيض هو معسكر جانو، حيث يختارون في كل يوم عدداً منهم لقتلهم في تعذيب بطئ وجهنمي يستوحونه من تقاليد الفظاعات التي بدأها المستوطنونٍ البيض أنفسهم. وقد كان جانو، مثله مثل بوكمان، زعيماً متنفذاً، ولكن الحرب غيّرته وجعلته شهوة القسوة لا يرتوي. فكان يفاخر بأنه يشرب دم ضحاياه في جمجمة بشرية، حتى إن رجاله كانوا يخافونه. وقد سمع غامبو زعماء آخرين يناقشون وجوب تصفيته قبل أن تستثير انحرافاته غضب بابا بونديي، ولكنه لم يذكر ذلك لأحد، لأنه كان يقدر التكتم بوصفه جاسوساً.

وفي أحد المعسكرات تعرف على توسان الذي يقوم بعمل مزدوج كمستشار حربيٍ وطبيب، لمعرفته الواسعة بأعشاب العلاج، وكان يمارس تأثيراً قوياً على الزعماء، مع أنه كان لا يزال في ذلك الحين في مكانة ثانوية. لقد كان واحداً من القلة القادرين على القراءة والكتابة ؛

وهكذا كان يطلع، وإن بصورة متأخرة، على أحداث الجزيرة وفرنسا. وليس هناك من يعرف ذهنية البيض خيراً منه. فقد ولد وعاش عبداً في إحدى مزارع بريدا، تعلم وحده، واعتنق الديانة المسيحية بحماسة، وكسب تقدير سيده الذي عهد إليه بأسرته عندما حانت لحظة اضطراره إلى الهرب. وكانت تلك العلاقة تستثير الشكوك، فكثيرون يرون أن توسان يخضع للبيض كخادم، ولكن غامبو سمعه مرات كثيرة يقول إن هدف حياته هو القضاء على العبودية في سان دومانغ ولا يمكن لأحد أو لشيء أن يصرفه عن ذلك الهدف. لقد اجتذبت شخصيته منذ البدء غامبو الذي قرر أنه إذا ما تحوّل توسان إلى زعيم، فسوف يبدل عصابته دون تردد. صحيح أن بوكمان، ذلك المارد ذو الصوت الراعد والمختار من أوغون فيرايل، هو الشرارة التي أشعلت نار الانتفاضة في غابة التمساح، غير أن غامبو أدرك أن النجم الأكثر تألقاً في السماء هو نجم توسان، هذا الرجل القبيح، ذو الفك الناتئ والساقين المعوجتين الذي يتكلم كواعظ ويصلي ليسوع البيض. ولم يكن مخطئاً، لأن بوكمان الذي لا يُهزم، والذي يواجه النيران المعادية مبعداً عنه طلقات الرصاص بضربات سوط من ذيل ثور كأنها ذباب، وقع بعد شهور من ذلك أسيراً في يد الجيش أثناء مناوشة. وقد أمر إيتيان روليه بإعدامه فوراً لاستباق ردّ فعل المتمردين في معسكرات أخرى. وحملوا رأسه مغروساً على رمح ورفعوه في وسط ساحة لوكاب، حيث لم يتخلف أحد عن رؤيته. كان غامبو هو الوحيد الذي أفلت من الموت في ذلك الكمين بفضل سرعته المذهلة وتمكن من نقل الخبر. انضم بعد ذلك إلى المعسكر حيث كان توسان، على الرغم من أن معسكر جانو أكبر عدداً. كان يعرف أن أيام جانو صارت معدودة. وبالفعل، فقد هاجموه عند الفجر وشنقوه دون أن يعذبوه مثلما عذب ضحاياه لأنه لم يتوافر لهم الوقت لذلك؛ إذ أنهم كانوا يستعدون للتفاوض مع العدو. وبعد مقتل جانو وعدد من ضباطه، اعتقد غامبو أن ساعة الأسرى البيض قد حانت أيضاً، غير أن فكرة توسان بإبقائهم أحياء واستخدامهم

كرهائن للتفاوض هي التي تغلبت.

وبالنظر إلى الوضع الكارثي في المستعمرة، أرسلت فرنسا لجنة للتفاوض مع قادة الزنوج الذين أبدوا استعدادهم لإعادة الرهائن كبادرة حسن نية. وتحدد الموعد في مزرعة في الشمال. وعندما وجد الأسرى أنفسهم قريبين من بيوتهم، بعد أن ظلوا أحياء لشهور في الجحيم الذي اخترعه لهم جانو، أدركوا أنهم لا يقتادونهم لقتلهم بطريقة رهيبة، وإنما لإطلاق سراحهم، فحدث هرج ومرج وتدافع أسقط أطفالاً ونساء على الأرض، فداسهم وصرعهم الرجال المتراكضين سعياً للنجاة. تدبر غامبو الأمر ليكون قريباً من توسان والآخرين المكلفين في التفاوض مع المندوبين البيض. كان ستة من *البيض الكبار* يمثلون المستوطنين يرافقون وفد السلطة الآتي حديثاً من باريس، والذي لم تتكون لديه بعد فكرة شاملة عن إدارة الأمور في سان دومانغ. وفجأة تعرف غامبو بين المندوبين على سيده القديم وتراجع ليختبئ، ولكنه سرعان ما تبين أن فالموران لم ينتبه إليه، ولو أنه انتبه فلن يتعرف عليه.

جرت المباحثات في الهواء الطلق، تحت أشجار الفناء، ومنذ اللحظات الأولى بدا التوتر ملموساً. كان انعدام الثقة والحقد يسيطر على المتمردين، والغطرسة العمياء على المستوطنين. وبذهول استمع غامبو إلى مقترحات زعمائه للتوصل إلى السلام: منح الحرية لهم ولحفنة من أتباعهم مقابل عودة جميع المتمردين الآخرين بهدوء إلى العبودية في المزارع. وافق موفدو باريس على الأمر فوراً ـ فالاتفاق لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك ـ ولكن *كبار بيض* سان دومانغ لم يكونوا مستعدين لتقديم أي شيء. فهم يطالبون بأن يستسلم العبيد بصورة جماعية دون شروط. وقد صاح أحدهم: «ما الذي تظنونه! أتحسبون أننا سنعقد صفقة مع الزنوج؟ فليقنعوا بموافقتنا على الإبقاء على حياتهم!». حاول فالموران عقلنة زملائه، ولكن الغلبة كانت لصوت الأكثرية في النهاية، وقرروا عدم منح أي شيء لأولئك الزنوج

المتمردين. انسحب زعماء التمرد مستائين ولحق بهم غامبو متأججاً بالغضب حين عرف أنهم مستعدون لخيانة أناسهم الذين يعيشون ويناضلون معهم. «فور توفر الفرصة لي سأقتلهم واحداً واحداً»، تعهد بينه وبين نفسه. فقد الإيمان بالثورة. ولم يكن بإمكانه تصور أن مستقبل الجزيرة سيتحدد في تلك اللحظات، لأن تشدد المستوطنين سيجبر العبيد على مواصلة الحرب لسنوات طويلة حتى النصر وإنهاء العبودية.

انتهى الأمر بالمبعوثين إلى مغادرة سان دومانغ حين وجدوا أنفسهم عاجزين حيال الفوضى المستشرية، وبعد قليل من ذلك حضر ثلاثة مندوبين آخرين يترأسهم سونتوناكس، وهو محامٍ شاب وسمين، وقد جاء المندوبون ومعهم ستة آلاف جندي لتعزيز القوات وتعليمات من باريس. وكان قد أعيد استبدال القانون لمنح الخلاسيين الأحرار حقوق جميع المواطنين الفرنسيين التي أنكروها عليهم قبل قليل من ذلك. وجرى تعيين عدد من المولدين ضباطاً في الجيش ورفض عسكريون بيض كثيرون الخدمة تحت أمرتهم وانشقوا عن الجيش. أجج ذلك كله الخواطر ووصل الحقد القديم بين البيض والخلاسيين إلى أبعاد توراتية. وجمعية المستعمرة التي كانت تشرف حتى ذلك الحين على إدارة شؤون المستعمرة الداخلية، استُبدلت بلجنة مؤلفة من ستة بيض، وخمسة مولدين، وزنجي حر. ووسط العنف المتزايد الذي لم يعد أحد قادراً على كبحه، أُتهم الحاكم بلانشلاند بأنه لا ينصاع لأوامر الحكومة الجمهورية ويعطي الأفضلية لأنصار النظام الملكي. فتم إبعاده إلى فرنسا والسلاسل في قدميه، وفقد رأسه بعد قليل من ذلك على المقصلة.

طعم الحرية

هكذا كانت الأمور في صيف السنة التالية عندما استيقظت تيتي فجأة في إحدى الليالي على يد قوية تطبق فمها. ظنت أن الهجوم على المزرعة، المرهوب من زمن، قد وقع أخيراً، وتمنت أن يكون الموت سريعاً، على الأقل موت موريس وروزيت النائمين إلى جانبها. انتظرت دون أن تحاول الدفاع عن نفسها كيلا توقظ الطفلين، متعللة بالاحتمال البعيد في أن يكون ذلك مجرد كابوس، إلى أن تمكنت من تمييز الهيئة المنحنية فوقها على انعكاس ضوء مشاعل الفناء الخافت الذي يتسرب من خلال ورق النوافذ المشمع. لم تتعرف عليه، لأن الفتى بعد سنة ونصف من فراقهما لم يعد هو نفسه، ولكنه همس عندئذ باسمها، زاريتيه، فأحست بنار في صدرها، ليس من الخوف الآن، وإنما من السعادة. رفعت يديها لتجذبه إليها وأحست بمعدن السكين الذي يمسك به بين أسنانه. انتزعته منه، فأطلق آهة وانهار فوق ذلك الجسد الذي راح يستوي ليتلقاه. بحثت شفتا غامبو عن شفتيها بالظمأ المتراكم خلال الغياب الطويل، شق لسانه الطريق إلى فمها وتشبثت يداه بنهديها عبر القميص الخفيف. أحست به صلباً بين فخذيها وانفتحت له، ولكنها تذكرت الطفلين اللذين نسيتهما لحظة، فدفعته عنها. «تعال معي»، قالت هامسة.

نهضا بحذر ومرّا فوق موريس. استعاد غامبو سكينه ودسه في الغمد المصنوع من جلد معزى في حزامه بينما هي تسحب الكلّة لحماية الطفلين. أومأت له تيتي أن ينتظر وخرجت لتتأكد من أن السيد في غرفته مثلما تركته قبل ساعتين، ثم نفخت على مصباح الممر وعادت بحثاً عن حبيبها. قادته بالتلمس حتى حجرة المجنونة، في الجانب الآخر من البيت، والخاوية منذ موتها.

سقطا متعانقين على الفراش المتحول إلى رطوبة وهجران، وتحابّا في الظلام، بكل صمت، مختنقين بكلمات بكماء وصرخات لذة تذوي في تنهدات. في أثناء فراقهما كان غامبو يفرج عن نفسه مع نساء أخريات في المعسكرات، ولكنه لم يستطع تهدئة شهيته إلى حب غير مشبع. كان في السابعة عشرة، يعيش متأججاً بالرغبة الملحة إلى زاريتيه. إنه يتذكرها طويلة القامة، وافرة، سخية. ولكنها الآن أقصر منه، وهذين النهدين الذين كانا يبدوان ضخمين من قبل، صارت يداه تتساعان لهما الآن. كان زاريتيه تتحول زبداً تحته. وفي قلق ونهم الحب المكبوح طويلاً لم يتمكن من الدخول فيها، وخلال لحظة واحدة غادرته الحياة في دفعة واحدة. غاص في الخواء إلى أن أعادته أنفاس زاريتيه الحارة في أذنه إلى حجرة المجنونة من جديد. هدلت له مربتة على ظهره، مثلما تفعل مع موريس لمواساته، وعندما أحست أنه انبعث ثانية قلبته على السرير، وثبتته بيد على بطنه بينما يدها الأخرى وشفتيها الفاترتين ولسانها الجائع تمسده وتمصه رافعة إياه إلى القبة السماوية، حيث تاه بين نجوم الحب المتخيل العابرة في كل لحظة راحة، وفي كل هدنة في المعارك، وفي كل فجر ضبابي في كهوف زعماء السكان الأصليين الألفية، حيث كان يقوم بالحراسة مرات كثيرة. ولعجزه عن كبح نفسه لوقت أطول، رفعها الفتى من خصرها؛ فامتطته غارسة نفسها في ذلك العضو الحارق الذي طالما اشتاقت إليه، وانحنت لتغطي وجهه بالقبلات، وتلحس أذنيه، وتدغدغه بحلمتيها، متأرجحة بإليتها النزقتين، عاصرة إياه بفخذي الأمازونية اللذين لها، متلوية مثل ثعبان ماء في أعماق البحر الرملية. تقلبا كما لو أنها أول وآخر مرة، مخترعين خطوات جديدة في رقصة قديمة. تضمخ هوء الحجرة بعبق المني والعرق، بالعنف الحذر للمتعة وتمزقات الحب، بتأوهات مخنوقة، ضحكات مكتومة، بالتحامات يائسة ولهاث محتضر يتحول في لحظة إلى قبلات سعيدة. وربما لم يفعلا شيئاً لم يفعله آخرين، ولكن ممارسة الحب عن حب مختلفة جداً. ومستنفدين من السعادة ناما متلاحمين في

عقدة متشابكة من الأذرع والسيقان، ذاهلين في حر تلك الليلة التموزية القائظة. استيقظ غامبو بعد دقائق قليلة وقد أرعبه تخليه عن الحذر بتلك الطريقة، ولكنه حين أحس بالمرأة المستغرقة التي تخرخر نائمة، منح نفسه وقتاً لتلمسها برفق، دون إيقاظها، والتعرف على التبدلات التي طرأت على ذلك الجسد الذي كان مشوهاً بالحبل عند مغادرته. كان لا يزال هناك حليب في الثديين، ولكنهما أشد رخاوة وحلميتهما أكثر لدونة، وبدا له الخصر نحيلا جداً، لأنه لا يتذكر كيف ما عليه قبل حبلها، وكان البطن والردفين والإليتين والفخذين تكورات ونعومة محضة. وقد تبدلت رائحة تيتي أيضا، فهي لم تعد تعبق برائحة صابون، بل برائحة حليب، وتفوح منها في تلك اللحظة بالذات رائحتيهما معاً. دسّ أنفه في عنقها متحسساً مرور الدم في أوردتها، وإيقاع تنفسها، ونبض قلبها. تمطت تيتي متنهدة بسعادة. كانت تحلم بغامبو وانتبهت للحظة أنهما معاً حقاً ولا حاجة بها إلى تخيل ذلك.

ـ جئتُ بحثاً عنك يا زاريتيه. لقد حان الوقت لنذهب معاً ـ همس غامبو.

أوضح لها أنه لم يتمكن من المجيء من قبل لأنه لم يكن لديه مكان يأخذها إليه، ولكنه لم يعد قادراً على الانتظار أكثر. وهو لا يدري إذا كان البيض سيتمكنون من سحق التمرد، ولكن سيكون عليهم قتل الزنوج عن بكرة أبيهم قبل أن يعلنوا انتصارهم. لأن أحداً من المتمردين لم يعد مستعدا للعودة إلى العبودية. الموت يمضي طليقاً ومترصدا في الجزيرة. لا وجود لأي ركن آمن، ولكن الأسوأ من الخوف والحرب هو بقاءهما منفصلين. أخبرها أنه لا يثق بالزعماء، ولا حتى بتوسان، وأنه لا يدين لهم بشيء، ويفكر في النضال على طريقته، بتغيير العصبة أو الانشقاق عنها، حسب الظروف. وقال لها إنه يمكن لهما أن يعيشا لبعض الوقت في معسكره، وأنه بنى كوخا من الأغصان وسعف النخيل، وأنهما لن يفتقدا الطعام. لا يمكنه أن يقدم لها إلا حياة قاسية وهي معتادة على وسائل الراحة في بيت البيض ذاك، ولكنها لن تندم

أبداً لأنها عندما تتذوق طعم الحرية لن تعود إلى الوراء. أحس بدموع دافئة على وجه تيتي.

ـ لا يمكنني ترك الطفلين يا غامبو ـ قالت.

ـ سنأخذ ابني معنا.

ـ هذه الطفلة، تدعي روزيت، وهي ليست ابنتك وإنما ابنة السيد.

نهض غامبو متفاجئا. لقد كان يفكر خلال تلك السنة ونصف السنة في ابنه، في الطفل الزنجي الذي سيسميه هونوري، دون أن يخطر في باله خيار أن يكون الوليد طفلة خلاسية وابنة للسيد.

ـ لا يمكننا أن نأخذ موريس، لأنه أبيض، ولا يمكننا كذلك أخذ روزيت، لأنها صغيرة جدا على تحمل المشقات والعوز ـ أوضحت له تيتي.

ـ عليك الذهاب معي يا زاريتيه. ويجب أن تفعلي ذلك هذه الليلة بالذات، لأن الوقت سيكون قد فات غداً. أما هذان الطفلان فهما ابنا الابيض. انسيهما. فكري فينا وفي الأبناء الذين سننجبهما، فكري في الحرية.

ـ لماذا تقول إن الوقت سيكون قد فات في الغد؟ ـ سألته وهي تمسح دموعها بظاهر كفها.

ـ لأنهم سيهاجمون المزرعة. إنها الأخيرة المتبقية بعد أن دُمرت المزارع الأخرى كلها.

عندئذ أدركت هول ما يطلبه منها غامبو، أنه يطلب ما أكثر من فراق الطفلين، يريد منها التخلي عنهما لمصير رهيب. واجهته بغضب لا يقل زخماً عن العاطفة التي تلقته بها قبل قليل: لن تتخلى عن الطفلين أبداً، لا من أجله ولا من أجل الحرية. ضمها غامبو إلى صدره كما لو أنه يريد أن يحملها. قال لها إن موريس ضائع في كافة الأحوال، أما روزيت فيمكنهم تقبلها في المعسكر لو لم تكن بشرتها أقرب إلى البياض.

ـ لا يمكن لأي من الطفلين أن يظل حياً بين المتمردين يا غامبو.

الطريقة الوحيدة لإنقاذهما هي في أن يأخذهما السيد. إنني واثقة من أنه سيحمي موريس بحياته، ولكن ليس روزيت.

ـ لا مجال لذلك يا زاريتيه، فسيدك شخص ميت لا محال... إنه جثة ـ أجابها.

ـ إذا مات السيد فسوف يموت الطفلان. علينا أن نُخرج الثلاثة من سان لازار قبل الفجر. إذا كنت لا تريد مساعدتي فسوف أفعل ذلك وحدي ـ قررت تيتي وهي ترتدي ثوبها في الظلام.

لقد كانت خطتها سذاجة صبيانية، ولكنها عرضتها بتصميم شديد اضطر معه غامبو إلى التنازل. فهو لا يستطيع إجبارها على الذهاب معه ولا يمكنه كذلك أن يتركها لمصيرها هناك. إنه يعرف المنطقة جيداً، وكان معتاداً على الاختباء والتخفي، ويمكنه التحرك في الليل، وتجنب المخاطر والدفاع عن النفس، أما هي فلا.

ـ وهل تظنين أن الأبيض سيوافق على ذلك؟ ـ سألها أخيراً.

ـ وهل لديه خيار آخر؟ إذا بقي هنا سيمزقونه هو وموريس. لن يوافق فقط، بل سيدفع ثمناً لذلك. انتظرني هنا ـ قالت.

زاريتيه

كان جسدي ساخناً ورطباً، ووجهي منتفخاً من القبلات والدموع، وبشرتي تعبق برائحة ذاك الذي فعلتُه مع غامبو، ولكن ذلك كله لم يعد يهمني. أشعلتُ في الممر أحد قناديل الزيت، توجهتُ إلى حجرة السيدِ ودخلت دون طرقِ الباب، وهو ما لم أفعله من قبل قط. وجدته مخموراً بالشراب، مستلقياً على ظهره، فمه مفتوح وخيط من اللعابٍ يسيل على ذقنه، لحية لم تُحلق منذ يومين، وشعره الشاحب مشعثاً. تحرك فيَّ الاشمئزاز كله الذي أشعر به تجاهه حتى ظننت أنني سأتقيأ. تأخر حضوري والضوء الذي أحمله بضع لحظات في إزاحة غمامة الكونياك؛ وعندها استيقظ مطلقاً صرخة، وبحركة سريعة من يده أخرج المسدس المخبأ تحت الوسادة. ولكنه أنزل فوهة المسدس عندما تعرف إليّ دون أن يفلت السلاح. «ماذا جرى يا تيتي؟»، انتهرني وهو يخرج من السرير قافزاً. فقلت له: «جئتُ لأقترح أمراً يا سيدي». دون أن يرتجف صوتي أو يهتز القنديل فيٍ يدي. لم يسألني كيف أوقظه في منتصف الليل، فقد خمن أن ثمة شيئاً خطيراً جداً. جلس على السرير والمسدس على ركبتيه، وأوضحتُ له أن المتمردين سيهاجمون سان لازار بعد ساعات. وأن عبيده سينضمون إلى المهاجمين، مثلما حدث في أمكنة أخرى، وستقع مذبحة وحريق، ولهذا علينا الهرب فوراً مع الطفلين وإلا سنموت في اليوم التالي. وسوف نكون محظوظين إذا حدث ذلك دون احتضار طويل، هذا ما قلته له. وكيف تعرفين ذلك؟ أحد عبيدك، وكان قد هرب منذ أكثر من سنة، رجع ليحذرني. وهذا الرجل سيكون دليلنا، لأننا لن نتمكن وحدنا من الوصول إلى لوكاب أبداً، فالمنطقة كلها تحت سيطرة المتمردين.

ـ ومن يكون هذا الرجل؟ ـ سألني بينما هو يرتدي ثيابه بسرعة.

ـ اسمه غامبو، وهو حبيبي...

قلب وجهي بصفعة شوشتني، ولكنه عندما أراد ضربي من جديد أمسكت يده بقوة كنت أجهل أنا نفسي أنني قادرة عليها. ولم أكن قد نظرت قبل تلك اللحظة إلى وجهه مباشرة، ولم أكن أعلم أن عينيه زرقاوين، مثل سماء غائمة.

ـ سنحاول انقاذ حياتك وحياة موريس، ولكن الثمن سيكون حريتي وحرية روزيت ـ قلت له وأنا أنطق كل كلمة بوضوح كي يفهمني.

غرس أصابعه في ذراعي وقرّب وجهه مني متوعداً. كان يضغط أسنانه بينما هو يشتمني وقد أفقده الغضب صوابه. مرت لحظة طويلة، كأنها أبدية، وعدتُ أشعر بالغثيان، لكنني لم أزح عينيّ عنه. وأخيراً عاد للجلوس مهزوماً ووضع رأسه بين يديه.

ـ انصرفي مع ذلك اللعين. لم تعودي بحاجة إليَّ كي أمنحك الحرية.

ـ وماذا عن موريس؟ أنت لا تستطيع حمايته. وأنا لا أريد أن أعيش هاربة على الدوام، أريد أن أكون حرة.

ـ حسن، ستحصلين على ما تطلبين. هيا بنا، أسرعي، ألبسي الطفلين وجهزيهما. أين هو ذلك العبد؟ ـ سألني.

ـ لم يعد عبداً. سأستدعيه، ولكنك عليك أن تكتب لي وثيقة حريتي وحرية روزيت.

ودون أن يضيف كلمة واحدة جلس إلى المنضدة وراح يكتب على ورقة بسرعة، ثم نشف الحبر بمسوق بودرة، ونفخ على الورقة ومهرها بختم خاتمه مع شمع، مثلما كنت أراهم يختمون الوثائق المهمة. قرأها لي بصوت عالٍ، لأنني لا أستطيع القراءة. أحسست بانحباس في حلقي، وبدأ قلبي يخفق بقوة في صدري: لهذه الورقة سلطة تبديل حياتي وحياة ابنتي. طويتها بحذر أربع طيات ووضعتها في جراب مسبحة دونيا إوخينيا التي أحملها على الدوام معلقة حول عنقي وتحت قميصي. كان علي أن أترك المسبحة، وآمل أن تغفر لي دونيا إوخينيا

ذلك.

ـ أعطني المسدس الآن ـ قلت له.

لم يشأ التخلي عن السلاح. وأوضح لي أنه لا ينوي استخدامه ضد غامبو، لأنه وسيلتنا الوحيدة للنجاة. لا أتذكر جيداً كيف رتبنا أمورنا، ولكنه تسلح خلال دقائق قليلة بمسدسين آخرين وأخرج نقوده الذهبية كلها من المكتب، بينما كنت أعطي الطفلين منوماً من زجاجات دونيا إوخينيا الزرقاء التي مازلنا نحتفظ بها. ناما كميتين، وخشيت أن أكون قد أعطيتهما أكثر من المطلوب. لم أهتم بعبيد الحقول، فيوم غد سيكون يوم حريتهم الأول، ولكن مصير الخدم المنزليين في مثل تلك الهجمات لا يقل فظاعة عن مصير السادة. ولهذا قرر غامبو أن يخبر تانت ماتيلد. لقد وفرت له الطاهية عند هروبة عدة ساعات إضافية قبل الإبلاغ عن اختفائه، وقد عوقبت على ذلك؛ وعليه الآن أن يعيد لها الجميل. بعد نصف ساعة، عندما نكون قد ابتعدنا كفاية، يمكنها أن تجمع الخدم المنزليين وتنضم إلى عبيد الحقول. ربطتُ موريس على ظهر أبيه، وحملت غامبو كيسي مؤونة وحملت أنا روزيت. رأى السيد أنه من الجنون الرحيل مشياً على الأقدم، وأننا نستطيع إحضار خيول من الاسطبل، ولكن غامبو قال إن ذلك سيجتذب الحراس وإن الطريق الذي سنتخذه لا تنفع فيه الخيول. اجتزنا الفناء مستترين بظل المباني، وتجنبنا درب أشجار جوز الهند، حيث يتمشى حارس، وتوجهنا نحو حقول القصب. كانت تمر من أمامنا الفئران ذات الذيول المقرفة التي تعيث خراباً في الحقول. تردد السيد، ولكن غامبو وضع السكين على عنقه ولم يقتله لأنني أمسكت بذراعه. وذكّرته أننا بحاجة إليه من أجل حماية الطفلين.

توغلنا وسط الصفير المخيف الذي يحدثه اهتزاز القصب مع الهواء. صفير، وخزات، شياطين مختبئة في النباتات، أفاع، عقارب، متاهة تتشوه فيها الأصوات وتلتف الأبعاد بعضها علي بعض. لهذا تقسم حقول القصب إلى مساكب أو مربعات تُقطع دائما من الضفاف باتجاه

المركز. وكانت إحدى عقوبات كامبري تتمثل في ترك العبد ليلاً في حقول القصب وإفلات الكلاب للبحث عنه عند الفجر. لا أدري كيف قادنا غامبو، ربما بالغريزة أو بالخبرة المكتسبة من السرقة في مزارع أخرى. كنا نمضي في رتل، ملتصقين أحدنا بالآخر كيلا نضيع، محتمين كيفما استطعنا من شفرات ورق القصب المرهفة، إلى أن خرجنا أخيراً، وبعد مسير طويل، من حقول القصب وتوغلنا في الغابة. مشينا لساعات، ولكننا لم نقدم إلا قليلاً. وعند الفجر رأينا بوضوح السماء البرتقالية بحريق سان لازار، واختنقنا بالدخان اللاذع والحلو الذي تحمله الريح. كان الطفلان النائمان ثقيلان كالأحجار على كاهلينا. يا إرزولي، أيتها اللوا الأم، ساعدينا.

كنتُ أمشي حافية دوماً، ولكنني لم أعتد على مثل هذه الأرض، فكانت قدماي تنزفان. رحت أتهاوى منهوكة، أما السيد بالمقابل، وهو يكبرني بعشرين سنة، فكان يمشي دون توقف، وثقل موريس على كاهله. وأخيرا توقف غامبو، أصغرنا نحن الثلاثة وأقوانا، وقال إنه علينا أن نستريح. ساعدنا في فك الطفلين عن ظهرينا ووضعهما على كومة من الأوراق بعد أن نبشناها بعصا لإبعاد الثعابين. أراد غامبو أخذ مسدسات السيد، ولكن هذا الأخير أقنعه بأنها ستكون أكثر فائدة بين يديه، لأن غامبو لا يعرف شيئاً عن الأسلحة. واتفقا أخيراً على أن يحمل غامبو واحداً ويستبقي السيد المسدسين الآخرين معه. كنا قد أصبحنا قريبين، ولم يكن يتسرب إلى قليل من أشعة الشمس من خلال الخضرة. بدا الهواء أشبه بماء ساخن. كان يمكن لوحول المستنقعات المتحركة أن تبتلع رجلاً في دقيقتين، ولكن غامبو لم يكن قلقاً. وجد بركة ماء عذب، فشربنا وبللنا ثيابنا وثياب الطفلين اللذين مازالا غائبين عن الوعي، وتقاسمنا قطع خبز من المؤونة واسترحنا قليلا.

وسرعان ما أمرنا غامبو بالانطلاق في المسير من جديد، فانصاع السيد بصمت، وهو الذي لم يتلق أوامر من أحد قط. لم تكن

المستنقعات مخاضات وحول مثلما تخيلتها، وإنما مياه ساكنة وأبخرة نتنة. أما الوحل ففي القاع. تذكرت دونيا إوخينيا التي كان يمكن لها أن تفضل الوقوع في أيدي المتمردين على المرور عبر هذه السحابة الكثيفة من البعوض؛ لحسن الحظ أنها انتقلت إلى سماء المسيحيين. كان غامبو يعرف كل المعابر، غير أنه لم يكن من السهل علينا اللحاق به ونحن نحمل الطفلين. إرزولي، يا **لوا** المياه، أنقذينا. مزق غامبو عمامتي، ولف قدمي بأوراق ثبتها القماش. أما السيد فكان ينتعل جزمة عالية، وكان غامبو من جهته يعتقد أن أنياب الضواري لا تنغرز في قدميه الخشنتين القاسيتين. وهكذا سرنا.

استيقظ موريس سريعاً، حين كنا لا نزال في المستنقعات، وأصابه الرعب. وعندما استيقظت روزيت وضعتها للحظات على صدري دون أن أتوقف عن المشي، فرضعت قليلاً ونامت من جديد. مشينا طيلة النهار ووصلنا إلى غابة التمساح، حيث لا وجود لخطر الغوص في الوحل، ولكننا قد نتعرض لهجمات. هناك شهد غامبو بداية التمرد، عندما دعت عرابتي إلى الحرب، بينما أوغون يمتطيها، واختارت الزعماء. هذا ما أخبرني به غامبو. ومنذ ذلك الحين صارت تانت روز تتنقل من معسكر إلى آخر لعلاج المصابين، وإقامة الطقوس **للوات** وقراءة المستقبل، حيث الجميع يخافونها ويحترمونها، منجزة القدر الذي خصها به نجمها. وهي من طلبت من غامبو أن ينضم إلى جناح توسان، لأنه سيكون ملكاً عندما تنتهي الحرب. فسألها غامبو إذا ما كنا سنصير أحراراً عندئذ، فأكدت له أن نعم، ولكن لا بد قبل ذلك من قتل البيض جميعهم، بمن فيهم الصغار حديثي الولادة، وستكون هناك دماء كثيرة في الأرض إلى حد أن عرانيس الذرة ستنمو حمراء.

أعطيتُ الطفلين قطرات إضافية من المخدر ووضعناهما بين جذور شجرة ضخمة. كان غامبو يخشى قطعان الكلاب المتوحشة أكثر من خشيته من البشر والأرواح، ولكننا لم نجرؤ على إشعال نار لإبقاء الأرواح بعيدة. تركنا السيد مع الطفلين، والمسدسات الثلاثة المحشوة،

وكنا متأكدين من أنه لن يبتعد عن موريس، بينما ابتعدنا أنا وغامبو قليلاً لنفعل ما نرغب في فعله. شوه الحقد وجه السيد عندما قررت اللحاق بغامبو، ولكنه لم يقل شيئاً. خشيت ما سيحدث لي في ما بعد، لأنني أعرف قسوة البيض عند الانتقام، وهو ما سيصلني عاجلاً أو آجلاً. كنت منهوكة وموجوعة من ثقل روزيت، ولكن الشيء الوحيد الذي كنت أرغب فيه هو معانقة غامبو. ولم يكن يهمني أي شيء آخر في تلك اللحظة. إرزولي، يا **لوا** المتعة، اجعلي هذه الليلة تستمر إلى الأبد. هكذا أتذكر ما جرى.

هاربون

انقض المتمردون على سان لازار في الساعة التي يبدأ فيها تراجع الليل، قبل لحظات من قرع أجراس العمل لإيقاظ الناس. في البدء ظهر ذيل لامع كشهاب، نقط ضوء تتحرك بسرعة: إنها المشاعل. كانت حقول القصب تخفي الهيئات البشرية، ولكنهم عندما بدؤوا بالخروج من بين الخضرة الكثيفة تبين أنهم بالمئات. تمكن أحد الحراس من الوصول إلى الناقوس، ولكن عشرين يداً تهز السكاكين حولته إلى كتلة عجينية لا يمكن التعرف إليها. اشتعل القصب الجاف أولاً، ومع الحرارة انتقلت النار القصب الآخر، وخلال أقل من عشرين دقيقة كان الحريق يغطي الحقول متقدماً باتجاه البيت الكبير. كانت ألسنة اللهب تتقافز في كل الاتجاهات عالية وقوية، لم تستطع حواجز قطع النار في الأفنية من وقفها. وأضيف إلى دوي الحريق صراخ المهاجمين الباعث على الصمم، والولولة الكئيبة الصادرة عن النفخ في القواقع معلنة الحرب. كانوا يتراكضون عراة أو بأسمال ممزقة، مسلحين بمناجل الماتشتي والسلاسل والسكاكين والعصي والخناجر، وبنادق بلا رصاص يحملونها كهراوى. كثيرون منهم رسموا على أبدانهم خطوطاً بالسناج، وكان آخرون مخمورين أو مخدرين. ولكن وسط كل تلك الفوضى كان هناك هدف وحيد: تدمير كل شيء. عبيد الحقول، ومعهم الخدم المنزليون الذين نبهتهم الطاهية مسبقاً، غادروا أكواخهم وانضموا إلى الحشود ليشاركوا في حفلة الانتقام والتخريب. لقد تردد بعضهم في البدء، فهم يخافون عنف المتمردين الجامح من جهة، وعقوبات السيد المؤكدة من جهة أخرى، ولكن لم يعد أمامهم من خيار. لأنهم إذا تراجعوا سيموتون.

تساقط *الكومندورات* واحداً بعد الآخر في يد الشراذم الهائجة،

ولكن بروسبير كامبري ورجلين آخرين تحصنوا في مستودع البيت الكبير ومعهم أسلحة وذخائر تكفي للدفاع عن أنفسهم عدة ساعات. كانوا واثقين من أن الحريق سيجتذب رجال الدرك أو الجنود الذين يجوبون المنطقة. كما أن لهجمات الزنوج اندفاع الإعصار وسرعته، فهم يستمرون في هجومهم حوالي ساعتين ثم يتفرقون بعد ذلك. استغرب رئيس رؤساء فرق العمل خلو البيت، وظن أن فالموران قد أعدّ بصورة مسبقة مخبأ تحت الأرض وأنه قابع فيه مع ابنه وتيتي والطفلة. ترك رجاله وذهب إلى المكتب الذي يظل مقفلا على الدوام، ولكنه وجده مفتوحاً. لم يكن يعرف توليفة رموز صندوق الخزنة السرية وتأهب لخلعها بالرصاص، ولن يعرف أحد في ما بعد من سرق الذهب، ولكنها كانت مفتوحة أيضاً، عندئذ خامرته أولى الشكوك في أن فالموران قد هرب دون إخباره، فهتف غاضباً: «يا للجبان اللعين! لقد غادر المزرعة لينجو بجلده البائس». ولأنه لم يكن لدى كامبري متسع من الوقت للتأسف، فقد انضم إلى الرجلين الآخرين في الوقت الذي صار فيه صخب الهجوم فوقهم.

سمع كامبري صهيل الخيول ونباح الكلاب وتمكن من تمييز صوت كلبيه الضاريين وكان أشد خشونة وضراوة. قدّر أن حيوانيه الباسلين سيحصدان عددا من الضحايا قبل أن يموتا. كان البيت محاصراً، وكان المهاجمون قد اقتحموا أفنية البيت وداسوا الحديقة، ولم تبق زهرة واحدة من أزهار الأوركيديا التي زرعها السيد. أحس رئيس رؤساء فرق العمل بأن المهاجمين صاروا على الشرفة، وأنهم يخلعون الأبواب ويدخلون من النوافذ ويهشمون كل ما يواجهونه، يحطمون الأثاث الفرنسي، ويمزقون السجاجيد الهولندية، ويفرغون الصناديق الإسبانية، ويكسرون الباربانات الصينية، ويفتتون الخزف، والساعات الألمانية، والأقفاص المذهبة، والتماثيل الرومانية والمرايا الفنيسية، وكل ما اشترته في حينه فيوليت بواسيير. وعندما ملوا من التخريب بدؤوا البحث عن الأسرة. كان كامبري و*الكومندوران* قد عزما إغلاق

باب المستودع بأكياس وبراميل وقطع أثاث، وبدؤوا بإطلاق النار من بين القضبان الحديدية التي تحمي النوافذ الضيقة. كانت الجدران الخشبية وحدها تفصلهم عن المتمردين المتغطرسين بالحرية وغير المبالين بالرصاص. وعلى ضوء الفجر رأوا سقوط العديد منهم على مسافة قصيرة يمكن لهم معها أن يشموا رائحتهم على الرغم من نتانة دخان القصب المحروق. يسقط بعضهم فيمر آخرون فوقهم قبل أن يتمكن كامبري ورجلاه من إعادة شحن بنادقهم. سمعوا الضربات على الباب، وكانت الأخشاب تهتز بإعصار حقد راكم قواه في الكاريبي على امتداد مئة عام. بعد عشر دقائق من ذلك راح البيت الكبير يحترق في نار هائلة. انتظر العبيد المتمردون في الفناء، وعندما خرج *الكومندران* هاربين من اللهيب، اعتقلوهما حيين. أما بروسبير كامبري بالمقابل، فلم يستطيعوا جعله يدفع ثمن التعذيب الذي يدين لهم به، لأنه فضّل أن يدس فوهة المسدس في فمه ويفجر رأسه.

وفي أثناء ذلك كان غامبو وجماعته الصغيرة يصعدون متشبثين بصخور وجذوع وجذور ونباتات متسلقة، ويجتازون جروفاً، ويتوغلون حتى الخصر في أنهار جارفة. لم يكن غامبو مبالغاً في ما قاله، فالطريق ليس طريق خيول وإنما هو طريق قرود. ففي تلك الخضرة العميقة تظهر فجأة لطخات ملونة: منقار أصفر وبرتقالي لطائر طوقان، أو ألوان ببغاء قزحية، أو أزهار مدارية معلقة بالأغصان. هناك ماء في كل الأنحاء، مسيلات، وبرك، وأمطار، وشلالات بلورية يخترقها قوس قزح وتهوي لتضيع في الأسفل وسط كتلة كثيفة ومتماسكة من السرخس. بللت تيتي منديلاً وربطته على رأسها لتغطي العين المزرقة من صفعة فالموران. لقد قالت لغامبو إن حشرة لسعتها في جفنها، لتتجنب مواجهة بين الرجلين. خلع فالموران جزمته المبللة بالماء لأن قدميه كانتا مسلوختين، فضحك غامبو لرؤيتهما دون أن يفهم كيف يمكن للأبيض أن يمضي في الحياة بهاتين القدمين الطريتين والورديتين اللتين تبدوان كأرنبين مسلوخين. وبعد خطوات قليلة اضطر

فالموران إلى انتعال جزمته من جديد. ولم يعد قادراً على حمل موريس. فكان الصبي يمشي ممسكاً بيد أبيه مسافة ومحمولاً على كتفي غامبو مسافة أخرى، وهو متشبث بشعره القاسي.

اضطروا إلى الاختباء عدة مرات من المتمردين الذين يتجولون في كل الأنحاء. وفي إحدى المناسبات تركهم غامبو في مغارة وخرج وحيداً ليلتقي بجماعة صغيرة يعرف أفرادها لأنهم كانوا معاً في معسكر بوكمان. أحد أولئك الرجال كان يضع حول عنقه عقداً من آذان، بعضها متيبس كالجلود وبعضها طري ووردي. تقاسموا معه ما لديهم من مؤن: بطاطا مسلوقة، وبضع شرائح من لحم الماعز المدخن، واستراحوا قليلاً معلقين على صروف الحرب والشائعات عن زعيم جديد يدعى توسان. قالوا إنه لا يبدو من البشر، وإن له قلب كلب من كلاب البراري، ماكر ومتوحد، وإنه لا يكترث بإغراءات الكحول والنساء والميداليات المذهبة التي يطمع بها زعماء آخرون؛ وإنه لا ينام، ويتغذى على الثمار وبإمكانه البقاء يومين كاملين وليلهما على صهوة جواد. ولا يرفع صوته أبداً، ولكن الناس يرتجفون في حضرته. وهو دكتور أعشاب ومنجم، يعرف فك رموز الطبيعة، وإشارات النجوم، وأشد نوايا الرجال سرية؛ وهو ينجو بذلك من الخيانات والكمائن. وعند الغروب، فور بدء الجو بالبرودة، ودّع بعضهم بعضاً. تأخر غامبو بعض الشيء في تحديد مكانه، لأنه ابتعد كثيراً عن المغارة، ولكنه وصل أخير إلى فالموران والآخرين الذين كانوا واهنين من الظمأ والحر، ولكنهم لم يتجرؤوا على الخروج من المغارة أو البحث عن ماء. فقادهم إلى بركة قريبة وتمكنوا من الشرب حتى التخمة، ولكنهم اضطروا إلى تقنين المؤن القليلة.

كانت قدما فالموران متقرحتان تماماً في الجزمة، فصارت وخزات الألم تذرع ساقيه وتُبكيه من الغيظ. راودته نفسه أن يستسلم للموت، ولكنه واصل المشي قدماً من أجل موريس. وعند غروب اليوم التالي رأوا رجلين عاريين، دون أي زينة سوى شريط من الجلد حول

خصريهما لتثبيت السكين. وكانا مسلحين بمناجل ماتشيتي. تمكنوا من الاختباء بين بعض السرخس، وانتظروا هناك أكثر من ساعة، إلى أن اختفى الرجلان في الأدغال. توجه غامبو إلى شجرة جوز هند، ترتفع عدة أمتار فوق الخضرة، تسلق الجذع المستقيم متشبثاً بحراشف اللحاء وقطع ثمرتي جوز هند سقطتا دون ضجة على السراخس. تمكن الطفلان من شرب حليب الثمرتين، وتقاسموا لبابهما. قال إنه رأى السهل من أعلى الشجرة، وأن مدينة لوكاب صارت قريبة. أمضوا تلك الليلة تحت الأشجار واحتفظوا ببقية المؤن القليلة لليوم التالي. نام موريس وروزيت متكورين يحرسهما فالموران الذي هرم في تلك الأيام ألف عام، كان يشعر بأنه قد تمزق، وأنه فقد الشرف، ورجولته، وروحه، واختُزل إلى مجرد حيوان، إلى لحم وعذاب، إلى مزقة لحم دامية تمضي مثل كلب وراء زنجي لعين يضاجع عبدته على بُعد خطوات منه. كان بإمكانه سماعهما في تلك الليلة، كما في الليالي السابقة. إنهما لا يعيرا انتباهاً حتى للاحتشام أو الخوف منه. تصله بوضوح تأوهات اللذة، وتنهدات الرغبة، والكلمات المخترعة، والضحكات المخنوقة. إنهما يباضعان مرة، ثم أخرى وأخرى كالبهائم، فليس من خصائص البشر كل تلك الشهوة وكل تلك الطاقة، كان السيد يبكي من المهانة. إنه يتخيل جسد تيتي الذي يعرفه، ساقيها المشاءتين، مؤخرتها المتينة، خصرها النحيل، نهديها السخيين، بشرتها الملساء، الناعمة، العذبة، الرطبة بالعرق، بالشهوة، بالخطيئة، بالوقاحة والإثارة. بدا له أنه يرى وجهها في تلك اللحظة، يرى عينيها نصف المغمضتين، شفتيها الرطبتين بالأخذ والعطاء، لسانها الجريء، منخريها الواسعين يشمان ذلك الرجل. وعلى الرغم من كل شيء، على الرغم من آلام قدميه، والإنهاك العظيم، الكرامة المداسة، والخوف من الموت، أحس فالموران بالتهيج.

ـ سنترك الأبيض وابنه في السهل غداً. ومن هناك لن يكون عليه سوى السير قدماً ـ قال غامبو لتيتي بين قبلة وقبلة في الظلام.

ـ وماذا لو وجده المتمردون قبل أن يصل إلى لوكاب؟
ـ أنا أنجزت ما عليّ، لقد أخرجتهما حيين من المزرعة. فليتدبرا أمرهما الآن وحدهما. وسنذهب نحن إلى معسكر توسان. فنجمه هو الأكثر تألقاً في السماء.
ـ وماذا عن روزيت؟
ـ ستأتي معنا إذا كنت ترغبين.
ـ لا يمكنني يا غامبو، عليّ أن أذهب مع الأبيض. اعذرني... ـ همست منحنية من الحزن.
أبعدها الفتى عنه غير مصدق. وكان عليها أن تكرر ذلك مرتين كي يدرك أن قرارها راسخ، وأنه القرار الوحيد الممكن، لأن روزيت ستكون بين المتمردين خلاسية ربعة فاتحة لون البشرة، مرفوضة، جائعة، معرضة لصروف الثورة، أما مع فالموران فستكون أكثر أماناً. أوضحت له أنها لا تستطيع الانفصال عن الطفلين، ولكن غامبو لم يستمع إلى حججها ولم يفهم إلا أن زاريتيه تفضل الأبيض عليه.
ـ والحرية؟ ألا تهمك الحرية؟ ـ أمسكها من كتفيها وهزها.
ـ إنني حرة يا غامبو. لدي الورقة في جرابي، مكتوبة وممهورة. إننا حرتان، أنا وروزيت. سأواصل خدمة السيد لبعض الوقت، إلى أن تنتهي الحرب، وبعد ذلك سأذهب معك إلى حيث تشاء.
افترقوا في السهل. استولى غامبو على المسدسات، ثم استدار واختفى راكضاً باتجاه الدغل، دون وداع ودون أن يلتفت ليلقي نظرة أخيرة، كيلا يستسلم للإغواء المتسلط عليه بقتل فالموران وابنه. كان بإمكانه عمل ذلك دون تردد، ولكنه يعرف أنه سوف يفقد تيتي إلى الأبد إذا ما ألحق الأذى بموريس. وصل فالموران والمرأة والطفلين إلى الطريق، درب عريض يتسع لمرور ثلاثة أحصنة، ومكشوف تماماً في حال مصادفتهم لزنوج متمردين أو خلاسيين ناقمين على البيض. لم يعد بمقدور فالموران التقدم خطوةً أخرى بقدمية المسلوختين، فكان يتجرجر متأوهاً، يتبعه موريس باكياً مثله. وجدت تيتي ظلاً تحت بعض

الشجيرات، قدمت لقيمات المؤونة الأخيرة المتبقية لموريس وأوضحت له أنها ستعود للبحث عنه، ولكنها لن تتأخر وعليه أن يتحلى بالشجاعة. قبّلته وتركته إلى جانب أبيه، ومضت على الدرب حاملة روزيت على ظهرها. فالمسألة منذ الآن هي مسألة حظ. كانت الشمس تنزل كالرصاص على رأسها العاري. وكانت تتخلل رتابة الأرض المضجرة بعض الصخور البارزة والشجيرات الواطئة المسحوقة بقوة الريح، وتغطيها أعشاب كثيفة، قصيرة وقاسية. إنها أرض حبيبية جافة، ولا وجود للماء في أي مكان. وذلك الطريق الذي كان مطروقاً بكثرة في الأزمنة العادية، لم يعد يستخدمه أحد منذ التمرد سوى الجيش والدرك. كانت لدى تيتي فكرة غامضة عن المسافة، ولكنها لا تستطيع أن تقدر كم ساعة عليها أن تمشي كي تصل إلى التحصينات القريبة من لوكاب، لأنها اعتادت على القيام بالرحلة دوماً في عربة فالمروان. «إرزولي، يا *لوا* الأمل، لا تخذليني». مشت مصممة، دون أن تفكر في ما تبقى أمامها وإنما في ما قطعته من الطريق. كان المشهد محزناً، ولم تكن هناك نقاط استدلال، فكل شيء متشابه، وأحست كما لو أنها مسمرة في المكان نفسه، كما في الأحلام الخبيثة. وكانت روزيت تطلب ماء بشفتيها المتيبستين وعينيها الزجاجيتين. أعطها مزيداً من نقاط القارورة الزرقاء وهدهدتها إلى أن نامت، وتمكنت من مواصلة المسير.

مشت ثلاث أو أربع ساعات دون توقف وبذهن خاو. «ماء، لا يمكنني أن أواصل دون ماء.» خطوة، وأخرى، ثم خطوة أخرى. «إرزولي، يا *لوا* المياه العذبة والمالحة لا تميتنا ظمأ.» الساقان تتحركان من تلقاء ذاتهما. سمعت طبولاً: إنه نداء طبل *البولا* يجاوب طبل *السيغون*، ثم تنهدة طبل *المامان* تكسر الإيقاع، وعادت الطبول الأخرى لتبدأ من جديد، توترات، رشاقة، قفزات، وفجأة جاء صوتٍ خشخاشات *الماراكا* البهيج، ثم راحت أيد غير مرئية تضرب مجدداً جلود الطبول المشدودة. بدأ الصوت يملؤها من الداخل وراحت

تتحركٍ مع الموسيقى. ساعة أخرى. إنها تطفو في فضاء متوهج. وتزداد انفصالاً عما يحيط بها، لم تعد تشعر بضربات سياط في عظامها ولا قرقعة أحجار في رأسها. خطوة أخرى، ساعة أخرى. «إرزولي، يا *لوا* الرحمة، ساعدني.» وفجأة، عندما انثنت ركبتيها، هزها وميض برق سرى من رأسها حتى قدميها، نار، جليد، ريح، صمت. وعندئذ جاءت الربة إرزولي مثل وابل متسلط وامتطت زاريتيه، خادمتها.

كان إيتيانٍ روليه هو أول من رآها، لأنه كان يمضي على رأس كتيبة فرسانه. خطّ قاتم ونحيل على الطريق، وهم، شبح متأرجح في انعكاسات ذلك الضوء العاتي. همز حصانه وتقدم ليرى من الذي خطر له القيام برحلة شديدة الخطورة في تلك القفار ووسط ذلك الحر. وحين اقترب رأى المرأة مديرة ظهرها، منتصبة، متكبرة، ذراعيها ممدوين لتطير، تتلوى على إيقاع رقصة سرية ومجيدة. لاحظ الحزمة التيٍ تحملها معقودةٍ على ظهرها، واستنتج أنها طفل، وربما يكون ميتاً. نادها صارخاً فلم ترد عليه، وظلت تطفو كسراب إلى أن اعترضها بالحصان. وحين رأى عينيها البيضاوين أدرك أنها مخبولة أو مخمورة غائبة عن الوعي. لقد رأى مثل تلك الملامح الهائجة في حفلات *الكاليندا*، ولكنه كان يظنٍ أنها لا تتبديٍ إلا فيٍ هستيريا الطبول الجماعي. وباعتباره عسكرياً فرنسياً براغماتياً وملحداً، كان روليه يشمئز من حالات المس الشيطاني تلك، ويرى فيها دليلاً آخر على بدائية الأفارقة. انتصبت إرزولي أمام الفارس مغوية، جميلة، لسانها الأفعواني بين شفتيها الحمراوين، وجسدها شعلة لهب واحدة. رفع الضابط سوطه ولمس به أحد كتفيها، وعلى الفور انفك السحر. تلاشت إرزولي وتهاوت تيتي منهارة دون نفس، كومة من الخرق على تراب الدرب. كان الجنود الآخرون قد لحقوا بقائدهم وأحاطت الخيول بالمرأة خائرة القوى. قفز إيتيان روليه مترجلاً وانحنى عليها وبدأ بحلّ حزم جرابها المرتجل إلى أن حرر حمولتها: طفلة نائمة أو غائبة عن الوعي. قلب حزمة الخرق ورأى خلاسية مختلفة تماماً عمن كانت ترقص على الطريق، إنها مجرد

شابة بائسة تغطيها القذارة والعرق. وجهٌ ممتقع، وعين شبه مغمضة، وشفتان مشققتان من العطش، وقدمان داميتان تطلان من بين الأسمال. ترجل أحد الجنود وانحنى ليسكب رشفة ماء من زمزميته في فم الطفلة وأخرى في فم المرأة. فتحت تيتي عينيها، ولبضع دقائق لم تتذكر شيئاً، لا مسيرتها الاضطرارية، ولا ابنتها، ولا الطبول، ولا إرزولي. ساعدوها على النهوض وقدموا إليها مزيداً من الماء إلى أن ارتوت واكتسبت الرؤى في رأسها بعض المعنى. «روزيت...» تلعثمت. فقال لها روليه: «إنها حية، ولكنها لا تستجيب ولم نستطع إيقاظها». عندئذ عاد رعب الأيام الأخيرة إلى ذاكرة العبدة: المخدر، المزرعة المحترقة، غامبو، السيد وموريس ينتظرانها.

رأى فالموران سحابة الغبار تقترب على الطريق، فانزوى بين الشجيرات يخنقه خوف عميق بدأ منذ رؤيته جثة جاره لاكروا الممزقة، وراح يتفاقم حتى اللحظة التي فقد فيها الوعي بالزمان والمكان والأبعاد، ولم يعد يدري لماذا هو منزوٍ بين شجيرات كأنه أرنب بري، ولا من هو ذلك الطفل الغائب عن الوعي إلى جانبه. توقفت الجماعة قربه وناداه أحد الفرسان باسمه صارخا، عندئذ تجرأ على التطلع ورأى الملابس العسكرية. انطلقت ولولة راحة من أعمق أعماقه. خرج زاحفاً، مشعث الشعر، مهلهل الثياب، تغطيه الخدوش والقروح والوحل الجاف، باكياً مثل طفلٍ، وظل جاثياً على ركبتيه أمام الخيول وهو يردد: شكراً، شكراً، شكراً. ولأن نظره منبهر بشدة الضياء وبدنه جف من السوائل، لم يستطع التعرف على روليه ولم ينتبه إلى أن جميع رجال الفصيلة خلاسيين، اكتفى برؤية زي الجيش الفرنسي ليدرك أنه قد نجا. أخرج الجراب الذي يحمله مربوطاً إلى خصره وأفلت حفنةً من النقود الذهبية أمام الجنود. ظل الذهب يلمع على الأرض، شكراً، شكراً. أحس إيتيان روليه بالاشمئزاز من ذلك المشهد، فأمره بأن يلتقط نقوده، وأومأ إلى مرؤوسيه فترجل أحدهم ليقدم إليه ماء ويتنازل له عن حصانه. وتيتي التي كانت وراء فارس آخر ترجلت

بصعوبة، لأنها غير معتادة على ركوب الخيل وتحمل روزيت على ظهرها، وذهبت تبحث عن موريس. وجدته مكوراً على نفسه بين الشجيرات، ويهذي من الضمأ.

كانوا قريبين من لوكاب، وبعد ساعات قليلة سيدخلون إلى المدينة دون التعرض لمصاعب جديدة. وفي أثناء ذلك استفاقت روزيت من غيبوبة المخدر، ونام موريس منهوكاً بين ذراعي أحد الفرسان، واستعاد تولوز فالموران السيطرة على نفسه. راحت صور تلك الأيام الثلاثة تمحي من مخيلته والقصة تتبدل في ذهنه. وعندما أتيحت له فرصة شرح ما حدث، لم تكن روايته تشبه بالرواية التي سمعها روليه من تيتي: فقد استبعد غامبو من اللوحة، وقال إنه هو نفسه من توقع هجوم المتمردين مسبقاً، وحيال استحالة القدرة على الدفاع عن مزرعته هرب ليحمي ابنه، وحمل معه العبدة التي ربت موريس وطفلتها. وكان هو، هو وحده، من أنقذ الجميع. فلم يعلق روليه بأي شيء.

باريس جزر الأنتيل

كانت مدينة لوكاب تغص باللاجئين الذين هجروا المزارع. وظل دخان الحرائق الذي تحمله الريح يطفو في الجو لأسابيع. كانت باريس جزر الأنتيل تعبق بنتانة القمامة والبراز، بجثث المعدومين تتعفن على المشانق، وبالقبور الجماعية لضحايا الحرب والأوبئة. كان التزود بالمؤن غير منتظم ويعتمد الأهالي في توفير غذائهم على السفن وزوارق الصيد، أما *البيض الكبار* فمازالوا يعيشون بالترف السابق نفسه، ولكنه صار يكلفهم أكثر من السابق فقط. فهم لا يفتقدون شيئاً على موائدهم، والتقنين للآخرين. وتواصلت الحفلات مع وجود حراس مسلحين على الأبواب، والمسارح لم تُغلق وكذلك البارات، ومازالت المومسات المبهرات يبهجن الليالي. لم تبق غرفة فارغة واحدة يمكن للمرء أن يؤوي إليها، ولكن فالموران لديه بيت البرتغالي الذي استأجره قبل الانتفاضة، وفيه استقر ليتعافى من الرعب والتوعكات البدنية والمعنوية. كان يقوم على خدمته ستة عبيد مستأجرين تقودهم تيتي؛ فلم يكن يناسبه شراءهم في الوقت الذي يفكر فيه بتغيير حياته. واكتفى بشراء طاهٍ مدرب في فرنسا يمكن له أن يبيعه في ما بعد دون أن يخسر نقوداً؛ فثمن طاهٍ جيد هو أحد الأشياء القليلة التي بقيت مستقرة. كان واثقاً من أنه سيستعيد ملكيته، لأن ذلك التمرد لم يكن الأول الذي يقوم به عبيد جزر الأنتيل، وقد جرى سحق جميع أعمال التمرد من قبل، ولن تسمح فرنسا لبعض قطاع الطريق الزنوج بتخريب المستعمرة. وحتى لو عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه من قبل، فسوف يرحل عن سان لازار، وقد صمم على ذلك. لقد علم بموت بروسبير كامبري، لأن رجال الميليشيا وجدوا جسده بين أنقاض المزرعة. وفكر: «ما كنتُ سأتخلص منه بطريقة أخرى». لقد كانت

ملكيته رماداً وحسب، ولكن الأرض موجودة، لا يمكن لأحد أن يحملها. سيحصل على وكيل يدير المزرعة، شخص معتاد على المناخ ولديه خبرة، فالزمن غير مناسب لإحضار وكلاء من فرنسا، كما أوضح لصديقه بارمونتيه، بينما هو يعالج له قدميه بأعشاب للئم الجروح رأى تانت روز تستخدمها.

ـ وهل سترجع إلى باريس يا صديقي؟ ـ سأله الدكتور.

ـ لا أظن ذلك. فمصالحي موجودة في الكاريبي وليس في فرنسا. لقد تشاركت مع سانتشو غارثيا دل سولار، شقيق إوخينيا، فلترقد روحها بسلام، وقد اشترينا أراضي في لويزيانا. وأنت يا دكتور، ما هي مخططاتك؟

ـ إذا لم تتحِسن الأوضاع هنا فسوف أذهب إلى كوبا.

ـ وهل لكَ أسرة هناك؟

ـ أجل ـ أكد الدكتور مبتسماً.

ـ السلام في الجزيرة يعتمد على الحكومة الفرنسية. الجمهوريون يتحملون مسؤولية كل ما جرى هنا، لأن الملك ما كان ليسمح بأن تصل الأمور إلى هذا الحد.

ـ أظن أن الثورة الفرنسية لا رجوع عنها ـ أجابه الطبيب.

ـ ليس لدى الجمهورية أية فكرة عن كيفية إدارة هذه المستعمرة يا دكتور. لقد أبعد المندوبون نصف فوج من لوكاب واستبدلوه بخلاسيين. إنه تصرف استفزازي، ولن يوافق أي جندي أبيض على العمل تحت أمرة ضابط ملون.

ـ ربما هذه هي اللحظة المناسبة ليتعلم البيض والخلاسيين كيف يتعايشون، لأن عدوهما المشترك هم الزنوج.

ـ إنني أتساءل ما الذي يريده هؤلاء المتوحشون ـ قال فالموران.

ـ الحرية يا صديقي ـ أوضح بارمونتيه ـ أحد الزعماء، وأظن أن اسمه توسان، يؤكد أنه بالإمكان استمرار العمل في المزارع بأيد عاملة حرة.

ـ الزنوج لن يعملوا حتى لو دفعنا لهم أجوراً! ـ هتف فالموران.

ـ لا يمكن لأحد أن يؤكد ذلك، لأن الأمر لم يُجرب. توسان يقول إن الأفارقة فلاحون، وهم متآلفون مع الأرض، والزراعة هي ما يعرفونه وما يريدون عمله ـ ألح بارمونتيه.

ـ ما يعرفونه ويريدون عمله هو القتل والتدمير يا دكتور! ثم إن هذا المدعو توسان قد انتقل إلى الجانب الإسباني.

ـ لقد طلب الحماية تحت العلمِ الإسباني لأن المستوطنين الفرنسيين يرفضون التحاور مع المتمردين ـ ذكره الطبيب.

ـ أنا كنت حاضراً يا دكتور. وقد حاولتُ دون جدوى أن أقنع مزارعين آخرين بأن نوافق على شروط السلام التي اقترحها الزنوج، وكانوا يطالبون بالحرية للزعماء وقادتهم فقط، حوالي مئتي شخص بالإجمال ـ أخبره فالموران.

ـ مسؤولية الحرب لا تقع إذاً على عدم كفاءة الحكومة الجمهورية في فرنسا، وإنما تقع على عاتق عجرفة المستوطنين في سان لازار ـ استنتج بارمونتيه.

ـ أوافقك على أننا يجب أن نكون أكثر عقلانية، ولكننا لا نستطيع التفاوض بندية مع العبيد، لأن ذلك سيكون سابقة سيئة.

ـ كان لا بد من التفاهم مع توسان الذي يبدو الأكثر عقلانية بين زعماء المتمردين.

كانت تيتي تنصت باهتمام عندما يدور الحديث عن توسان. لقد حفظت في أعماق روحها حبها لغامبو، مستسلمة لفكرةٍ أنها لن تراه لزمن طويل، وربما إلى الأبد، ولكنها ستحمله مغروساً في قلبها، وتوقعت أن يكون ضمن صفوف ذلك المدعو توسان. سمعت ما قاله فالموران عن عدم نجاح أي ثورة عبيد في التاريخ، ولكنها تجرأت على أن تحلم عكس ذلك والتساؤل عنٍ كيف ستكون الحياة دون عبودية. رتبت البيت مثلما كانت تفعل دوماً، ولكن فالموران أوضح لها أنه لا يمكن للأمور أن تستمر على ما كانت عليه في سان لازار، حيث لم

تكن وسائل الراحة مهمة ولا فرق في خدمة المائدة بقفازات أو من دونها. ففي لوكاب يجب العيش بأسلوب راقٍ. ومهما ازداد تأجج الثورة عند أبواب المدينة، يتوجب عليه أن يردَّ على لطف العائلات التي تدعوه بكثرة والتي تولت مهمة البحث له عن زوجة.

قام السيد بتحريات وتوصل إلى معلم لتيتي: قهرمان المعتمدية. إنه الأدونيس الأفريقي نفسه الذي كان يخدم في منزل المعتمد عندما وصل فالموران وإوخينيا مريضة ليطلب الضيافة في عام ١٧٨٠، والاختلاف الوحيدِ هو أنه صار أكثر جاذبية، لأن ظرافته الاستثنائية ازدادت نضوجاً. اسمه زاشاريه وقد ولد وترعرع بين تلك الجدران. كان أبواه عبدان لمعتمدين آخرين باعوهم لمن خلفهم عندما توجب عليهم العودة إلى فرنسا: وهكذا وصلا إلى أن يكونا جزءاً من قائمة الممتلكات. والد زاشاريه الوسيم مثله، دربه منذ صباه على منصب القهرمان الشهير، لأنه رأى أن ابنه يتمتع بمزايا أساسية لهذا المنصب: الذكاء، والدهاء، والوقار، والحذر. وكان زاشاريه يحذر النساء البيض لأنه يعرف ما ينطوي عليه الأمر من مجازفة؛ فتجنب بذلك مشاكل كثيرة. وقد عرض فالموران على المعتمد أن يدفع له مقابل خدمات قهرمانه، ولكن المعتمد لم يشأ سماع كلام في الموضوع. وقال له «أعطِ زاشاريه إكرامية وكفى، إنه يدخر نقوداً كي يشتري حريته، وإن كنت لا أفهم لماذا يرغب فيها. فوضعه الحالي يبدو أكثر فائدة». واتفقا على أن تأتي تيتي كل يوم إلى المعتمدية كي تتلقى التدريب.

استقبلها زاشاريه بفتور، فارضاً منذ البداية مسافة حذر بينه وبينها، فهو يشغل أعلى منصب في تراتبية الخدم المنزليين في سان دومانغ، بينما هي عبدة بلا مرتبة، ولكن ما لبث أن خانه انكبابه الدؤوب وانتهى به الأمر إلى تسليمها أسرار المهنة بسخاء يتجاوز كثيراً المكافأة المقدمة من فالموران. فاجأه أن هذه الشابة لا تبدو مبهورة به، وهو المعتاد على الإعجاب الأنثوي. فقد كان عليه التصرف بكثير من الحكمة ليتجنب المغازلات ويصد تجاوزات النساء، أما مع تيتي فبإمكانه التبسط في

علاقة لا وجود فيها لنوايا ثانوية مستترة. وقد كانا يتعاملان بالصيغ الرسمية: مسيو زاشاريه ومدموزيل زاريتيه.

كانت تيتي تنهض منذ الفجر، تنظم عمل الخدم، توزع الأعمال المنزلية، تترك الطفلين برعاية المربية المؤقتة التي استأجرها السيد، ثم تنطلق إلى دروسها بأفضل بلوزة لديها وبعمامتها المنشاة للتو. لم تعرف قطّ كم هو عدد الخدم في منزل المعتمد؛ فقد كان في المطبخ وحده ثلاثة طهاة وسبعة مساعدين، ولكنها قدّرت أن العدد لا يقل عن خمسين. وكان زاشاريه يتولى أمور الميزانية ويقوم بدور صلة الوصل بين السيد والخدم، وهو الأعلى سلطة في ذلك التنظيم المعقد. ولا يتجرأ أي عبد على التوجه إليه دون أن يكون قد استدعاه، ولهذا السبب كانوا جميعهم مستائين من زيارات تيتي التي تجاوزت الأنظمة بعد أيام قليلة وصارت تدخل مباشرة إلى قدس الأقداس، مكتب القهرمان الضيق. ودون أن يلحظ ذلك، بدأ زاشاريه ينتظر قدومها، لأنه أحب تعليمها. كانت تصل في الموعد الدقيق، فيتناولان قهوة ثم يبدأ على الفور بتلقينها معارفه. كانا يجولان على ملحقات المنزل لمراقبة الخدم. وكانت تتعلم بسرعة، وسرعان ما صارت تعرف الكؤوس الثماني التي لا بد منها في مأدبة، والفرق بين شوكة تناول الصدف البحري والأخرى الشبيهة بها الخاصة بتناول جراد البحر، وإلى أي جانب توضع جفنة الماء، وتوالي تقديم مختلف أنواع الأجبان، وكذلك أشد الطرق تكتماً لتهيئة المباول في حفلة، وما الذي تفعله لسيدة مخمورة، وتنظيم تراتبية المدعوين على المائدة. وبعد انتهاء الدرس، كان زاشاريه يدعوها لتناول فنجان قهوة آخر وينتهز الفرصة ليحدثها في السياسة، الموضوع الذي يستهويه أكثر من أي شيء. في البدء كانت تستمع إليه بدافع اللياقة، فما الذي يمكن أن تعنيه مشاحنات الأحرار لعبد، إلى أن أتى مرة على ذكر إمكانية إلغاء العبودية. «تصوري يا مدموزيل، إنني أدخر منذ سنوات لشراء حريتي، ومن الممكن أن يمنحوني إياها قبل أن أتمكن من شرائها»، قال زاشاريه ضاحكاً. إنه يعلم بكل ما يجري الحديث عنه في

المعتمدية، بما في ذلك الاتفاقيات السرية. فهو يعلم أن الجمعية الوطنية في باريس تناقش عدم التناسب غير المسوغ في إستبقاء العبودية في المستعمرات بعد إلغائها في فرنسا. «هل تعرف شيئاً عن توسان يا مسيو؟»، سألته تيتي. فسرد لها القهرمان سيرة حياته التي قرأها في ملف سري لدى المعتمد، وأضاف أنه يتوجب على المندوب سونتوناكس والحاكم أن يتوصلا إلى اتفاق معه، لأنه يقود جيشاً منظماً جداً، ويستند إلى دعم الإسبان في الجانب الآخر من الجزيرة.

ليلة نكبة

بفضل دروس زاشاريه، صار منزل فالموران يدار بعد شهرين بأسلوب مرهف لم يتمتع بمثله منذ سنوات صباه في باريس. فقرر إقامة حفلة مع خدمة غالية، ولكن مشهورة، توفرها مؤسسة تنظيم مآدب يديرها المسيو أدريان، وهو خلاسي حرّ نصح به زاشاريه. وقبل يومين من الحفلة اقتحم أدريان البيت مع فريق من عبيده، أزاح الطاهي جانباً وأحلّ محله خمس بدينات آمرات حضّرن قائمة من أربعة عشر طبقاً مستوحاة من مأدبة أقيمت في بيت المعتمد. ومع أن البيت لم يكن مناسباً لمأدبة رفيعة المنزلة، فقد بدا انيقاً عندما أضيئت زينات المالك البرتغالي الفجة وجُمِّل بأشجار نخيل قزمة في أصص، وباقات زهر ومصابيح صينية. وفي الليلة الموعودة، حضر منظم المآدب مع عشرات الخدم بزيهم الأزرق، واحتل آخرون مواقعهم بانضباط كتيبة عسكرية. لم تكن المسافة بين بيوت *البيض الكبار* تزيد عن شارعين إلا نادرا، ومع ذلك فقد حضر المدعوون بعرباتهم، وعندما انتهى استعراض العربات، كان الشارع قد تحول إلى مخاضة من روث الخيول سارع الخدم إلى تنظيفها كيلا تخلط نتانتها برائحة عطور السيدات.

«كيف أبدو؟»، سأل فالموران تيتي. وكان يرتدي صداراً حريرياً تتخلله خيوط من الذهب والفضة، وكثير من الدانتيلا في المعصمين والياقة كما في سماط، وجوربين ورديين وحذاء رقص. لم تجب الفتاة المذهولة أمام الباروكة التي بلون زهر الخزامى. فقال فالموران: «اليعاقبة الأفظاظ يريدون القضاء على استخدام الباروكات، مع أنها لمسة الأناقة التي لا غنى عنها في حفلات الاستقبال. هذا ما يقوله مصفف شعري».

كان المسيو أدريان قد قدم الجولة الثانية من الشمبانيا للمدعوين، وكانت الأوركسترا قد عزفت مقطوعات أخرى من موسيقى المينويه

الوقورة، عندما جاء أحد أمناء مقر الحاكم راكضاً يحمل الخبر غير المعقول بأنه قد تم في فرنسا قطع رأس لويس السادس عشر وماري أنطوانيت على المقصلة. وأن الرأسين الملكيين قد عُرضا في شوارع باريس، بالطريقة نفسها التي عُرض فيها رأس بوكمان ورؤوس كثيرة أخرى في لوكاب. تلك الأحداث التي جرت في فرنسا في شهر كانون الثاني، لم يصل خبرها إلى سان دومانغ إلا في آذار. كانت الصدمة أشد من الهلع، فراح المدعوون يغادرون مسرعين وهكذا انتهت حفلة تولوز فالموران الأولى والوحيدة في ذلك البيت، قبل أن يُقدم الطعام.

في تلك الليلة بالذات، وبعد أن انسحب المسيو أدريان، الملكي المتعصب، مع جماعته باكياً، التقطت تيتي الباروكة الخزامية التي ركلها فالموران على الأرض، وتأكدت من أن موريس ينام بهدوء، ثم أغلقت الأبواب والنوافذ لتستريح في الحجرة التي تشغلها مع روزيت. كان فالموران قد انتهز فرصة استبدال البيت ليُخرج ابنه من حجرة تيتي، وجعله ينام وحيداً، ولكن موريس تحول إلى حفنة أعصاب، ولخشية أبيه من أن تعاوده الحمى، وضع له سريرا ضيقاً مؤقتاً في أحد أركان حجرته بالذات. ومنذ وصولهم إلى لوكاب، لم يأتِ فالموران على ذكر غامبو، ولكنه لم يعد يستدعي تيتي إليه ليلاً. لقد كان شبح العاشق يقف بينه وبينها. وقد احتاج لأسابيع من أجل شفاء قدميه، وفور استعادته القدرة على المشي، صار يخرج كل ليلة لينسى تلك اللحظات السيئة. ومن خلال ملابسه العابقة بروائح عطور أزهار دبقة، خمنت تيتي أنه يزور المومسات وتوقعت أن معانقاتها المذلة مع سيدها قد انتهت؛ ولهذا تكدرت حين وجدته ينتعل خفاً ويرتدي روباً مخملياً أخضر، ويجلس على حافة سريرها، حيث كانت روزيت تشخر متباعدة الساقين في طهارة الأبرياء. «تعالي معي!»، أمرها وهو يسحبها من ذراعها نحو إحدى حجرات الضيوف. طرحها بقوة، وانتزع عنها ملابسها بضربات خاطفة، واغتصبها باندفاع في الظلام، وبتعجل أقرب إلى الحقد منه إلى الرغبة.

تذكّر مضاجعات تيتي وغامبو كانت تُغضب فالموران، ولكنها تستثير فيه رؤى لا تقاوَم أيضاً. فقد تجرأ ذلك الشيطان القاسي على لمس ممتلكاته بيديه الدنستين. سوف يقتله عندما يمسك به. والمرأة نفسها تستحق كذلك عقوبة نموذجية، ولكن شهرين انقضيا دون أن يجعلها تدفع ثمن وقاحتها غير المعقولة. إنها كلبة. كلبة حامية. لا يمكنه مطالبة عبدة بالأخلاق والوقار، ولكن واجبه يتطلب منه أن يفرض عليها إرادته. لماذا لم يفعل ذلك؟ لا عذر لديه. لقد تحدته ولا بد له من تصحيح انحرافها ذاك. ولكنه مدين لها أيضاً. فالعبدة تخلت عن حريتها لتنقذ حياته وحياة موريس. وللمرة الأولى تساءل عن مشاعر تلك الخلاسية نحوه. يمكنه أن يستعيد ليالي المهانة في الغابة، عندما كانت تتقلب مع عشيقها، ومعانقاتهما، وقبلاتهما، والتأجج المتجدد، وحتى رائحة جسديهما عندما يرجعان. لقد تحولت تيتي إلى شيطان، إلى شهوة خالصة، تلحس وتتعرق وتتأوه. وبينما هو يغتصبها في الحجرة المخصصة للضيوف، لم يستطع أن ينتزع ذلك المشهد من مخيلته. انقض عليها مرة أخرى، واخترقها بغضب، متفاجئاً من طاقته. تأوهت المرأة، فراح يوجه إليها اللكمات بغضب الغيرة ولذه الانتقام، «كلبة صفراء، سوف أبيعك أيتها العاهرة، قحبة، وسوف أبيع ابنتك أيضاً». أغمضت تيتي عينيها وغابت عن الوعي، تهدل جسدها، ولم تحاول المقاومة أو تجنب الضربات، بينما روحها تحلق إلى جهة أخرى. «إرزولي، يا *لوا* الرغبة، اجعليه ينتهي سريعاً.» تهاوى فالموران فوقها للمرة الثانية وقد بلله العرق. انتظرت تيتي دون حراك عدة دقائق. راح تنفسهما يهدأ، وبدأت تنسل شيئاً فشيئاً عن السرير، ولكنه أوقفها.

ـ لا يمكنك الذهاب بعد ـ أمرها.

ـ أتريدني أن أشعل شمعة يا مسيو؟ ـ سألته بصوت متهدج، لأن الهواء كان يتأجج بين أضلاعها المغطاة بالكدمات.

ـ لا، أفضّل البقاء هكذا.

كانت تلك هي أول مرة تدعوه فيها مسيو وليس سيدي المالك،

وقد لاحظ فالموران ذلك، ولكنه ترك المسألة تمر. جلستِ تيتي على السرير تمسح الدم عن فمها وأنفها بقميصها الذي تمزق نتفاً في الهجوم.

ـ منذ الغد ستُخرجين موريس من حجرتي ـ قال فالموران ـ يجب أن ينام وحده. لقد بالغتِ في تدليله.

ـ عمره خمس سنوات فقط.

ـ في مثل هذه السنِ تعلمتُ القراءة، وكنت أخرج للصيد على حصاني وأتلقى دروساً في المبارزة.

ظلا في الوضع نفسه لبعض الوقت، وأخيراً قررت أن توجه إليه السؤال الذي كان على شفتيها منذ وصولهم إلى لوكاب.

ـ متى سأكون حرة يا مسيو؟ ـ سألته وهي تتكور على نفسها بانتظار مزيد من الضرب، ولكنه نهض دون أن يلمسها.

ـ لا يمكنك أن تكوني حرة. ممَ ستعيشين؟ إنني أوفر لك القوت وأحميك، وتعيشين أنت وابنتك بأمان. لقد عاملتك على الدوام معاملة جيدة. ما الذي تشكين منه؟

ـ لستُ أشكو...

ـ الوضع خطير جداً. هل نسيتِ الأهوال التي مررنا بها؟ والفظائع التي ارتُكبت؟ أجيبيني!

ـ لا يا مسيو.

ـ أتقولين حرية؟ وهل تريدين هجر موريس؟

ـ إذا كنت ترغب، يمكنني مواصلة العناية بموريس مثلما فعلتُ دوماً، إلى أن تتزوج حضرتك من جديد على الأقل.

ـ أتزوج؟ ـ ضحك ـ لقد كان زواجي من إوخينيا درساً! والزواج هو آخر ما يمكن أن أفكر في الإقدام عليه. ولماذا تريدين مني أن أعتقك إذا كنت ترغبين في البقاء في خدمتي؟

ـ الجميع يريدون أن يكونوا أحراراً.

ـ النساء لن يعرفن الحرية أبداً يا تيتي. إنهن بحاجة لرجل يرعاهن. عندما يكنّ عازبات يعتمدن على الأب، وعندما يتزوجن يعتمدن على

الزوج.

ـ الورقة التي أعطيتني إياها... هي حريتي، أليس كذلك؟ ـ ألحت.

ـ طبعاً.

ـ ولكن زاشاري يقول إنه لا بد أن يوقّع عليها قاضٍ كي تصير صالحة.

ـ ومن هو هذا الشخص؟

ـ قهرمان منزل المعتمد.

ـ إنه على حق. ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب. فلننتظر عودة الهدوء إلى سان دومانغ. ولا أريد حديثاً في هذا الشأن. إنني متعب. لقد صرتِ تعرفين: أريد أن أنام وحدي غداً وأن يعود كل شيء كما في السابق، هل تفهمينني؟

جاء حاكم الجزيرة الجديد، الجنرال جالبو، مكلفاً بمهمة وضع حدّ للفوضى في المستعمرة. كان يتمتع بصلاحيات عسكرية مطلقة، غير أن السلطة الجمهورية كانت ممثلة بالموفد سونتوناكس والمندوبين الآخرين. وكان على إيتيان روليه أن يقدم إليه التقرير الأول. إنتاج الجزيرة اختُزل إلى لا شيء، والشمال تحول إلى سحابة دخان هائلة، وفي الجنوب مذابح متواصلة، ومدينة بور أوبرنس أُحرقت عن بكرة أبيها. لا وجود لحركة نقل، ولا لموانئ فعالة، ولا أمان لأحد. العبيد المتمردون يعتمدون على دعم إسبانيا، والأسطول البريطاني يتحكم بالكاريبي ويتهيأ للانقضاض على مدن الساحل. إنهم محاصرون، لا يستطيعون تلقي قوات أو مؤن من فرنسا، وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم شبه مستحيلة. «لا تقلق أيها المقدم، سنجد حلاً دبلوماسياً»، ردّ عليه جالبو. فقد كان يدير مباحثات سرية مع تولوز فالموران ونادي الوطنيين المؤيدين المتحمسين لاستقلال المستعمرة ووضعها تحت حماية إنكلترا. وكان الحاكم متفقاً مع المتآمرين على أن الجمهوريين في باريس لا يفهمون شيئاً مما يحدث في الجزيرة ويقترفون خطأً لا سبيل إلى إصلاحه بعد آخر. ومن أكبر أخطائهم حل الجمعية الاستعمارية؛ مما أضاع

السلطة كلها وصار لا بد الآن من انتظار أسابيع كي يصل أي قرار من فرنسا. كان جالبو يملك أراضي في الجزيرة، وهو متزوج من كريولية لا يزال مغرماً بها بعد سنوات عديدة من زواجهما؛ ويمكن له أن يفهم أكثر من سواه التوترات بين الأعراق والطبقات الاجتماعية.

وجد أعضاء نادي الوطنيين حليفاً مثالياً في الجنرال الذي يقلقه الصراع بين البيض والمولدين أكثر مما يقلقه تمرد الزنوج. وقد كان لكثيرين من *البيض الكبار* أعمال ومصالح في الكاريبي والولايات المتحدة، ولم يكونوا بحاجة إلى الوطن الأم، ويعتبرون الاستقلال خيارهم المفضل، اللهم إلا إذا تبدلت الأمور وأعيد نظام ملكي قوي إلى فرنسا. وقد كان إعدام الملك أمراً مأساوياً، ولكنه شكل في الوقت نفسه فرصة رائعة للحصول على عاهل أقل بلاهة. بينما لم يكن الاستقلال مناسباً بأي حال للمولدين، لأن الحكومة الجمهورية في فرنسا وحدها هي المستعدة لتقبلهم كمواطنين، وهو ما لن يتحقق قط إذا ما وُضعت سان دومانغ تحت حماية إنكلترا أو الولايات المتحدة أو إسبانيا. كان الجنرال جالبو يرى أنه بالتوصل إلى حلّ للمشكلة بين البيض والخلاسيين سيكون من السهل سحق الزنوج، وتقييدهم من جديد، وفرض النظام، ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك لإيتيان روليه. بل طلب منه:

ـ حدثني عن المندوب سونتوناكس أيها المقدم.

ـ إنه ينفذ أوامر الحكومة أيها الجنرال. مرسوم الرابع من نيسان منح حقوقاً سياسية للملونين الأحرار. لقد جاء المندوب إلى هنا ومعه ستة آلاف جندي لتنفيذ هذا المرسوم.

ـ أجل، أجل... أعرف ذلك. ولكن أخبرني، بصورة سرية بالطبع، أي نوع من الرجال هو سونتوناكس هذا؟

ـ معرفتي به قليلة أيها الجنرال، ولكنهم يقولون إنه ذكي جداً ويأخذ مصالح سان دومانغ على محمل الجد.

ـ لقد أعلن سونتوناكس أنه لا ينوي تحرير العبيد، ولكنني سمعت

إشاعات عن أنه قد يفعل ذلك ـ قال جالبو وهو يدرس ملامح وجه الضابط التي تستحيل قراءتها ـ. أنت ترى أن ذلك سيكون نهاية الحضارة في الجزيرة، أليس كذلك؟ تصور الفوضى: الزنوج طلقاء، والبيض منفيون، والخلاسيون يفعلون ما يشتهون، والأرض مهجورة.

ـ لا أعرف شيئاً من هذا أيها الجنرال.

ـ ما الذي ستفعله في هذه الحالة؟

ـ سأنفذ الأوامر، كالعادة، أيها الجنرال.

كان جالبو بحاجة إلى ضباط موثوقين في الجيش لمواجهة سلطة المتروبول في فرنسا، ولكنه لا يستطيع الاعتماد على إيتيان روليه. فقد تقصى عنه وعرف أنه متزوج من خلاسية، وربما هو متعاطف مع قضية المولدين، ومن الواضح أنه معجب بسونتوناكس. بدا له رجلاً قليل الدراية، له عقلية موظف وبلا طموحات، ولا بد أنه يفتقر تماماً إلى أية تطلعات وطموح، وإلا لما كان تزوج من امرأة ملونة. إنه لأمر لافت أن يكون قد ارتقى في وظيفته العسكرية ولديه مثل ذلك العائق. ولكن استمالة روليه إليه أمر مهم جداً، لأنه يستند إلى ولاء جنوده: فهو الوحيد القادر على أن يمزج في صفوف وحدته جنوداً من البيض والخلاسين وحتى الزنوج، دون مشاكل. وتساءل كم يساوي هذا الرجل؛ فهناك ثمن للجميع.

في مساء ذلك اليوم بالذات حضر تولوز فالموران إلى الثكنة للتحدث مع روليه حديث صديق لصديق، مثلما قال. وبدأ بشكره لأنه أنقذ حياته عندما اضطر إلى الهرب من مزرعته.

ـ إنني مدين لك أيها المقدم ـ قال له بنبرة بدت متعجرفة أكثر منها شاكرة.

ـ لست مديناً لي يا مسيو، وإنما لعبدتك. أنا كنتُ ماراً من هناك وحسب، وهي من أنقذتك ـ أجابه روليه بضيق.

ـ حضرتك شخص متواضع. أخبرني، كيف حال أسرتك؟

اشتبه روليه فوراً بأن فالموران قد جاء ليرشوه وأنه ذكر أسرته ليُذكّره

بأنه قد أعطاه جان مارتن. إنهما متعادلان، حياة فالموران مقابل الابن المتبنى. أحس بالتوتر، كما يحدث له قبل دخول معركة، صوب إليه عينيه ببرود يجعل مرؤوسيه يرتجفون وظل ينتظر ليرى ما الذي يريده زائره بالضبط. تجاهل فالموران النظرة التي كسكين والصمت.

ـ لا يمكن لأي خلاسي أن يكون بمأمن في هذه المدينة ـ قال بلطف ـ زوجتك معرضة للخطر، لهذا جئت أعرض عليك مساعدتي. أما بالنسبة للطفل... ما اسمه؟

ـ جانٍ مارتن روليه ـ أجابه الضابط بفك مشدود.

ـ طبعاً، جان مارتن. أعذرني، فكثرة المشاكل في رأسي أنستني اسمه. لدي بيت مريح قبالة الميناء، في حي جيد لا قلاقل فيه. يمكنني استقبال السيدة زوجتك وابنك...

ـ لا تقلق عليهما يا مسيو. إنهما بمأمن في كوبا ـ قاطعه روليه.

ارتبك فالموران، فقد فقد ورقة رابحة في لعبته، ولكنه استعاد تماسكه فوراً.

ـ آه! هناك يعيش صهري، دون سانتشو غارثيا دل سولار. سأكتب إليه اليوم ليوفر الحماية لزوجتك.

ـ لا حاجة إلى ذلك يا مسيو، أشكرك.

ـ بل هناك حاجة بالطبع أيها المقدم. فامرأة وحيدة تحتاج على الدوام إلى سيد، لاسيما إذا كانت باهرة الجمال مثل زوجتك.

شحب لونٍ إيتيان روليه من الحنق حيال تلك الإهانة المستترة، ونهضٍ واقفاً ليشير إلى أن المقابلة قد انتهت، لكن فالموران ظل جالساً واضعاً ساقاً على ساق كما لو أنه في مكتبه وبادر إلى الشرح، بعبارات لبقة، ولكنها مباشرة، أن ***البيض الكبار*** سيستعيدون السيطرة على الجزيرة بتعبئة كافة الوسائل المتوافرة، ولا بد من تحديد المواقف. لأنه لا يمكن لأحد، وخاصة ضابط عالي المرتبة، أن يبقى غير مبال أو محايد حيال الأحداث الرهيبة التي توالت، وتلك التي ستحدث في المستقبل، وستكون أسوأ دون ريب. على الجيش أن يمنع وقوع حرب أهلية.

والإنكليز قد نزلوا في الجنوب وما هي إلا أيام حتى تعلن سان دومانغ استقلالها وتنضوي تحت العلم البريطاني. ويمكن لذلك أن يحدث بطريقة متحضرة أو بالدم والنار، هذا يعتمد على الجيش. والضابط الذي سيدعم قضية الاستقلال النبيلة سيحصل على سلطة واسعة، وسيكون الذراع اليمنى للحاكم جالبو، وهذا الموقع يحمل معه بالطبع مكانة اقتصادية واجتماعية. ولا يمكن لأحد توجيه إهانات إلى رجل متزوج من امرأة ملونة، إذا كان هذا الرجل، على سبيل المثال، القائد العام الجديد للقوات المسلحة في الجزيرة.

ـ وبكلمات قليلة، أنت تدعوني إلى الخيانة يا مسيو ـ أجابه إيتيان روليه دون أن يتمكن من كبح ابتسامة ساخرة رأى فيها فالموران باباً مشرعاً لمواصلة الحوار.

ـ ليس في المسألة خيانة لفرنسا إيها المقدم، وإنما تقرير ما هو أفضل لسان دومانغ. إننا نعيش مرحلة تبدلات عميقة، ليس هنا وحسب، وإنما في أوروبا وأميركا أيضاً. لا بد من التكيف. قل لي على الأقل ما هو رأيك في ما تحدثنا فيه ـ قال فالموران.

ـ سأفكر في الأمر بتمعن يا مسيو ـ أجابه روليه وهو يقوده نحو الباب.

زاريتيه

احتاج السيد أسبوعين كي يتوصل إلى جعل موريس ينام وحده. اتهمني بأنني ربيته جباناً كامرأة، فأجبته بغضب أننا نحن النساء لسنا جبناء. رفع يده، ولكنه لم يضربني. لقد حدث تغير ما. أظن أنه صار يحترمني. ذات يوم في سان لازار، أفلت أحد كلاب الحراسة الضخمة، فمزق دجاجة في الفناء وكان على وشك مهاجمة دجاجة أخرى عندما خرج لمواجهته كلب تانت ماتيلد الصغير. تصدى الكلب الذي له هيئة هر للمزمجر ذي الأنياب البارزة والبوز المريل. لا أدري ما الذي دار في رأس الكلب الضخم، ولكنه استدار وخرج راكضاً وذيله بين قائمتيه بينما الكلب الصغير يطارده. لقد قتله بروسبير كامبري كلب الحراسة الضخم برصاصة بعد ذلك لأنه جبان. والسيد المعتاد على النباح بقوة وبث الخوف، انكمش على نفسه مثل كلبٍ ضخم أمام أول مواجهه: المواجهة مع غامبو. أظن أنه كان يهتم كثيراً بشجاعة موريس لأنه هو نفسه يفتقر إلى الشجاعة. ما إن يحل المساء حتى يصير موريس عصبياً من فكرة أنه سيظل وحيداً. فكنت أضعه في الفراش مع روزيت إلى أن يناما. كانت روزيت تغفو خلال دقيقتين، ملتصقة بأخيها، بينما يبقى موريس مصغياً إلى ضجة البيت والشارع. ففي الساحة كانت تنصب المشانق للعبيد المدانين وكانت الصرخات تنفذ عبر الجدران وتظل في الغرف. «أتسمعينهم يا تيتي؟»، يسألني موريس مرتجفاً. أنا أيضاً كنت أسمعهم، ولكن كيف يمكنني قول ذلك له. «لا أسمع شيئاً يا صغيري، نم الآن»، وأغني له. وعندما ينام أخيراً، مستفدا، أحملُ روزيت إلى حجرتنا. ذكر موريس أمام أبيه أن العبيد المعدومين يتمشون في البيت، فحبسه السيد في خزانة، ووضع المفتاح في جيبه وخرج من البيت. جلست أنا وروزيت إلى جانب الخزانة لنكلمه عن أشياء

مبهجة، لم نتركه لحظة واحدة، ولكنِ الأشباح دخلت إليه داخلاً وعندما رجع السيد وأخرجه كان محموماً من كثرة البكاء. أمضى يومين وهو يغلي بالحمى بينما أبوه يلازمه إلى جانب سريره وأنا أحاول تبريده بكمادات ماء بارد وشراب الزيزفون.

كان السيد يعبد موريس، ولكن قلبه التوى في تلك الفترة؛ لم يعد يهتم إلا بالسياسة، ولا يتكلم عن أي شيء آخر، وتخلى عن العناية بابنه. صار موريس يرفض الطعام ويبلل فراشه في الليل. الدكتور بارمونتيه، وهو الصديق الحقيقي الوحيد للسيد، قال إن الطفل مريض بالرعب ويحتاج إلى حنان؛ عندئذ لان أبوه واستطعتُ نقله إلى حجرتي. وفي تلك المناسبة بقي الدكتور مع موريس ريثما تنخفض حرارته، واستطعنا تبادل الحديث وحدنا. وجه إليّ أسئلة كثيرة. فقد أخبره إيتيان روليه بأنني ساعدت السيد على الهرب من المزرعة، ولكن هذه الرواية لا تتوافق مع رواية السيد. أراد أن يعرف التفاصيل. فكان عليّ أن أذكر اسم غامبو، ولكنني لم أخبره بالحب الذي بيننا. وأريته ورقة حريتي. فقال لي بعد أن قرأها: «احفظيها جيداً يا تيتي، لأنها تساوي ذهباً». وقد كنتُ أعرف ذلك.

صار السيد يجتمع في البيت مع بيض آخرين. لقد علمتني مدام ديلفين، سيدتي الأولى، أن أظل صامتة، متيقظة، وأن أستبق رغبات السادة؛ يجب على العبدة أن تكون غير مرئية، هذا ما كانت تقوله لي. وهكذا تعلمتُ التجسس. لم أكن أفهم جيداً ما يتحدث فيه السيد مع الوطنيين، والحقيقة أنني لم أكن أهتم إلا بأخبار المتمردين، ولكن زاشاري الذي ظللتُ صديقة له بعد دروسه في منزل المعتمد كان يطلب مني أن أعيد على مسمعه كل ما يقولونه. «البيض يظنون أننا نحن الزنوج صم وأن نساءنا بلهاوات. وهذا يناسبنا جداً. انصتي إلى ما يقولونه وأخبريني به يا مدموزيل زاريتيه.» ومنه عرفت أن هناك آلاف المتمردين يعسكرون خارج مدينة لوكاب. غواية الذهاب للبحث عن غامبو لم تكن تسمح لي بالنوم، ولكنني كنت أعرف أنني لن أتمكن

من الرجوع بعد ذلك. وكيف يمكن لي أن أتخلي عن طفليَّ؟ طلبتُ من زاشاري، الذي له اتصالات حتى في القمر، أن يتحرى إذا ما كان غامبو بين المتمردين، ولكنه أكد لي أنه لا يعرف شيئاً عنهم. فكان عليّ أن أكتفي بأن أبعث رسائل ذهنية إلى غامبو. كنتُ أُخرج في بعض الأحيان ورقة حريتي من الجراب، وأفتح طياتها الثماني برؤوس أصابعي كيلا أتلفها، وأتأملها كما لو أنني قادرة على حفظها عن ظهر قلب، ولكنني لم أكن أعرف الحروف.

اندلعت الحرب الأهلية في لوكاب. وقد شرح لي السيد أن الجميع في حالة الحرب يقاتلون ضد عدو مشترك، أما في الحرب الأهلية فينقسم الناس ـ وكذلك الجيش ـ ويقتتلون فيما بينهم، مثلما يحدث الآن بين البيض والمولدين. أما الزنوج فلا يدخلون في الحساب، لأنهم ليسوا أناساً، بل ممتلكات. لم تبدأ الحرب الأهلية بين ليلة وضحاها، بل احتاجت لأكثر من أسبوع، وعندئذ انتهت أسواق وكاليندات الزنوج وحياة البيض الاجتماعية، ومتاجر قليلة ظلت تفتح أبوابها، حتى مشانق الساحة صارت فارغة. كانت الكارثة تحوم في الجو. «استعدي يا تيتي، لأن الأمور على وشك التبدل»، قال لي السيد. فسألته: «وكيف تريدني أن أستعد؟»، ولكنه هو نفسه لم يكن يعرف ذلك. فعلتِ مثل زاشاري الذي كان يراكم المؤن، ويغلف الأشياء الحساسة تحسباً لإمكانية أن يقرر المعتمد وزوجته الإبحار فجأة إلى فرنسا.

وفي إحدى الليالي أحضروا من بوابة الخدم صندوقاً مملوءاً بمسدسات وبنادق. لدينا ذخائر تكفي لفوج، هذا ما قاله السيد. كان الحر يشتد، فعمدنا إلى إبقاء بلاط البيت مغطى بالماء والطفلين عاريين. وفي هذه الأثناء جاء دون سابق إنذار الجنرال جالبو الذي لم أكد أتعرف عليه، مع أنني ذهبت مرات كثيرة إلى اجتماعات الوطنيين، لأنه لم يكن بزيه العسكري المتصلب بالميداليات، وإنما ببدلة سفر قاتمة. لم يعجبني هذا الأبيض قط، فهو متغطرس جداً، وسيئ المزاج على الدوام، ولا يلين إلا عندما تحط عيناه اللتان كعيني فأر على زوجته،

وهذه شابة ذات شعر أحمر. وبينما أنا أقدم إليهم النبيذ والجبن واللحوم الباردة، سمعت أن المندوب المفوض سونتوناكس قد أقال الحاكم جالبو من منصبه متهماً إياه بالتآمر ضد الحكومة الشرعية في المستعمرة. وأن سونتوناكس يخطط لإبعاد جماعي لخصومه السياسيين، وأن خمسمئة منهم صاروا محتجزين في عنابر السفن في الميناء بانتظار أوامره بالإبحار. وأعلن جالبو أن ساعة العمل قد دقت.

وبعد قليل حضر وطنيون آخرون ممن جرى إبلاغهم. وسمعت أن الجنود البيض في الجيش النظامي وقرابة ثلاثة آلاف بحار في الميناء جاهزون للقتال إلى جانب جالبو. وليس لدى سونتوناكس سوى دعم الحرس الوطني وقوات المولدين. وقد تعهد الجنرال بحسم المعركة خلال ساعات قليلة ستكون سان دومانغ مستقله بعدها، وسيشهد سونتوناكس يومه الأخير، وسيجري إلغاء الحقوق الممنوحة للخلاسيين، ويعود الزنوج إلى المزارع. نهضوا جميعهم واقفين ليشربوا نخباً. وأعدت أنا ملء الكؤوس، ثم خرجت بصمت، وركضت إلى حيث زاشاري الذي جعلني أعيد على مسمعه كل شيء، كلمة كلمة. لدي ذاكرة جيدة. قدم لي جرعة من الليمونادة لتخفيف قلقي ثم أمرني بالعودة مع تعليمات بأن أطبق فمي تماماً، وأن أُحكم إغلاق باب البيت بعارضة خشبية. وهذا ما فعلته.

حرب أهلية

كان المندوب المفوض سونتوناكس يتعرق من الحر والعصبية وهو محشور في سترته السوداء وقميصه ذي الياقة المشدودة، وشرح الوضع بكلمات قليلة لإيتيان روليه. ولكنه تجاهل مع ذلك إخباره بأنه لم يعلم بأمر مؤامرة جالبو من خلال شبكة جواسيسه المعقدة، وإنما من خلال ثرثرة قهرمان مقر المعتمد. فقد جاء إلى مكتبه زنجي طويل القامة ووسيم، يلبس كما *البيض الكبار*، شديد النضارة ومعطر كمن هو خارج لتوه من الحمّام، وقدم نفسه باسم زاشاري، وأصر على التحدث إليه على انفراد. قاده سونتوناكس إلى غرفة مجاورة، أشبه بجحر خانق بلا نوافذ بين أربعة جدران عارية، فيها سرير عسكري، وكرسي، وإبريق ماء وطست على الأرض. إنه ينام هناك منذ شهور. جلس على السرير وأشار للزائر إلى الكرسي الوحيد، ولكن هذا فضّل البقاء واقفاً. ولاحظ سونتوناكس، قصير القامة، بشيءمن الحسد قامة الآخر الطويلة المتميزة، ورأسه الذي يكاد يلامس السقف. كرر زاشاري ما قالته له تيتي.

ـ ولماذا تخبرني بهذا كله؟ ـ سأله سونتوناكس بارتياب. دون أن يتمكن من تصنيف ذلك الرجل الذي قدم نفسه باسمه الأول ودون أي كنية، كعبد، ولكنه يتمتع بثقة بالنفس، كشخص حر، وبأساليب الطبقة الراقية.

ـ لأني متعاطف مع الحكومة الجمهورية ـ أجابه زاشاري ببساطة.

ـ وكيف حصلت على هذه المعلومات؟ ألديك أدلة؟

ـ المعلومات آتية مباشرة من الجنرال جالبو. أما الأدلة فستحصل عليها خلال أقل من ساعة، عندما تسمع أول إطلاق نار.

بلل سونتوناكس منديلاً من إبريق الماء ومسح به وجهه ورقبته. كان

يشعر بألم في بطنه، الألم الأصم والثابت نفسه الذي يعاني منه، مثل مخلب في الأحشاء، حين يكون تحت ضغط، أي منذ وصوله أول مرة إلى سان دومانغ.

ـ عدّ لمقابلتي إذا ما علمت بشيء جديد. سأتخذ الإجراءات الضرورية ـ قال ذلك مشيراً إلى انتهاء المقابلة.

ـ إذا احتجت إليّ أيها السيد المفوض، فأنت تعلم الآن أنني في مقر المعتمد ـ قال زاشاري مودعاً.

وعلى الفور أمرسونتوناكس باستدعاء إيتيان روليه واستقبله في الحجرة نفسها، لأن بقية أنحاء المبنى كانت تغص بموظفين مدنيين وعسكريين. وكان روليه، الأعلى رتبة بين الضباط الذين يمكنه الاعتماد عليهم في مواجهة جالبو، يتصرف على الدوام بإخلاص لا تشوبه شائبة للحكومة الفرنسية القائمة.

ـ هل انشق بعض جنودك البيض أيها المقدم؟ ـ سأله.

ـ لقد تأكدتُ للتو من أنهم قد انشقوا جميعاً عند الفجر أيها المفوض. لم يبق لدي سوى الجنود الخلاسيين.

ـ هذا يعني أنه علينا أن نقاتل البيض جميعاً، المدنيين منهم والعسكريين، فضلاً عن بحارة جالبو الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف ـ قال.

ـ إننا في وضع مختلّ التوازن جداً، أيها المفوض. نحتاج إلى تعزيزات ـ قال روليه.

ـ لا تتوافر أية تعزيزات. أنت ستتولى مسؤولية الدفاع أيها المقدم. وبعد الانتصار، سأتولى أمر ترقيتك ـ وعده سونتوناكس.

وافق روليه على المهمة بهدوئه المعهود، بعد أن تفاوض مع المندوب المفوص على أن يسمح له بالتقاعد من الجيش بدل الترقية. فقد أمضى سنوات طويلة في الخدمة، ولم يعد بإمكانه، بصراحة، أن يقدم المزيد؛ وقال له إن زوجته وابنه ينتظرانه في كوبا، وهو في شوق للقاء بهم. أكد له سونتوناكس أنه سيفعل ذلك، وإن لم تكن لديه أي نية لتنفيذ

وعده؛ فالوضع لا يسمح بالاهتمام بالشؤون الشخصية لأحد.

وفي أثناء ذلك كان الميناء قد تحول إلى خلية نحل يعج بالزوارق المحملة ببحارة مسلحين انقضوا على لوكاب مثل عصابة قراصنة. كانوا تشكيلة غريبة وعجيبة من جنسيات متعددة، رجال بلا قانون أمضوا شهوراً في أعالي البحار وينتظرون بلهفة بضعة أيام من اللهو والانفلات. إنهم لا يقاتلون لقناعات يؤمنون بها، فهم غير واثقين حتى من ألوان رايتهم، بل يسعون إلى متعة النزول إلى البر والاستسلام للتدمير والنهب. لم تُدفع لهم أجور منذ زمن طويل، وهذه المدينة الغنية توفر لهم ما يريدون، ابتداء من النساء والخمر، حتى الذهب إذا ما تمكنوا من العثور عليه. كان جالبو يعتمد على خبرته العسكرية لتنظيم الهجوم، مدعوماً بالقوات النظامية من البيض الذين انحازوا إليه فوراً وقد أضجرتهم المهانة التي أذاقهم إياها الجنود الملونون. ظل *البيض الكبار* مختبئين، بينما *البيض الصغار* والبحارة يجوبون شوارع الأحياء حياً بعد آخر، يخوضون مواجهات مع مجموعات من العبيد الذين استغلوا حالة الفوضى ليخوجوا للسلب والنهب أيضاً. كان الزنوج قد أعلنوا تأييدهم لسونتوناكس في تحد لأسيادهم وكي يستمتعوا ببضع ساعات من السكر واللهو، وإن كان لا يهمهم من سيكسب ذلك الصراع الذي لا يشملهم. اقتحم فريقا الأوغاد مستودعات الميناء، حيث تخزن براميل روم القصب للتصدير، وسرعان ما سال الخمر في الشوارع المرصوفة. وكانت تجول بين السكارى أسراب من الجرذان والكلاب المترنحة والمتعثرة بعد أن لحست الخمر. وتحصنت أسر المولدين في بيوتها لتدافع عن نفسها كيفما تستطيع.

صرف تولوز فالموران العبيد، لأنهم سيهربون على أي حال، مثلما فعل معظمهم. ولأنه لا يفضل وجود أعداء داخل البيت، كما قال لتيتي. ثم إن أولئك العبيد ليسوا ملكاً له، وإنما هم مستأجرون، ومشكلة استعادتهم ستقع على عاتق مالكيهم. وعلق قائلاً: «سيرجعون زاحفين على بطونهم عندما يستتب النظام. وسيكون هناك

شغل كثير في السجن». فقد كان مالكو العبيد في المدينة يفضلون عدم تلويث أيديهم، ويرسلون العبيد المذنبين إلى السجن كي يتولى جلادو الدولة تطبيق العقوبة عليهم مقابل سعر متواضع. رفض الطاهي الذهاب، واختبأ في مستودع الحطب في الفناء. ولم تستطع كل التهديدات إخراجه من الجحر الذي تكور فيه، ولم يستطيعوا الاعتماد عليه كذلك في إعداد حساء، ولأن تيتي تكاد لا تعرف كيفية إشعال الموقد، إذ أن المطبخ لم يكن قطّ ضمن أعمالها الكثيرة، فقد قدمت للطفلين خبزاً وفواكه وجبناً. وجعلتهما ينامان باكراً متظاهرة بالهدوء، كيلا تخيفهما، مع أنها كانت ترتجف. وخلال الساعات التالية علّمها فالموران شحن الأسلحة النارية، وهي مهمة معقدة يمكن لأي جندي إنجازها في ثوانٍ قليلة، بينما كانت تستغرق منها عدة دقائق. وكان فالموران قد وزع جزءاً من أسلحته على وطنيين آخرين، ولكنه استبقى دزينة منها للدفاع عن نفسه. لقد كان واثقاً في أعماقه من أنه لن يحتاج إلى استخدامها، لأن القتال ليس من مهامه، فمن أجل القتال هناك جنود جالبو وبحارته.

بعد قليل من غياب الشمس جاء ثلاثة شبان من المتآمرين الذين كانت تيتي تراهم بكثرة في الاجتماعات السياسية، وكانوا يحملون خبر أن الجنرال جالبو قد استولى على الترسانة وحرر السجناء الذين وضعهم سونتوناكس في سفن لإبعادهم، وقد وضعوا جميعهم أنفسهم بالطبع تحت أمرة الجنرال. قرروا استخدام البيت كثكنة، بسبب موقعه المتميز، وإطلالته الواسعة على الميناء، حيث يمكن رؤية مئة سفينة وما لا حصر له من الزوارق التي تذهب وتجيء محملة بالرجال. وبعد أن تناولوا وجبة خفيفة انطلقوا للقتال كما قالوا، ولكن حماستهم لم تدم طويلاً ورجعوا قبل انقضاء ساعة ليتقاسموا زجاجات نبيذ ويناموا بالتناوب.

ومن خلال النوافذ كانوا يرون مرور شراذم المهاجمين، ولكنهم اضطروا مرة واحدة إلى استخدام الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، ولم

يكن ذلك ضد عصابات العبيد ولا ضد جنود سونتوناكس، وإنما ضد حلفائهم بالذات، بعض البحارة الساعين إلى النهب. أخافوهم بإطلاق النار في الهواء، وهدأهم فالموران بتقديم خمرٍ التافيا لهم. وكان على أحد الوطنيين أن يخرج إلى الشارع مدحرجاً برميل الخمر، بينما يوجه الآخرون بنادقهم من النوافذ باتجاه عصبة المشاغبين. فتح البحارة البرميل هناك بالذات، ومع الجرعة الأولى سقط عدد منهم على الأرض في أقصى حالات التسمم الكحولي، لأنهم كانوا يشربون منذ الصباح. وأخيراً انصرفوا معلنين بأصوات صارخة أن المعركة المزعومة كانت فشلاً ذريعاً، لأنه لا وجود لمن يواجههم. وكان ذلك صحيحاً. فالقسم الأعظم من قوات سونتوناكس غادر الشوارع دون أية مواجهة وتمركز خارج المدينة.

وعند ضحى اليوم التالي، ذهب إيتيان روليه الجريح برصاصة في كتفه، ولكنه ثابت ببدلته العسكرية الملطخة بالدم، للقاء سونتوناكس الملتجئ مع هيئة أركانه في مزرعة قريبة، وأوضح له مرة أخرى أنهم لن يستطيعوا هزيمة العدو ما لم يحصلوا على عون. فالهجوم لم يعد مجرد كرنفال كما في اليوم الأول، لأن الجنرال جالبو تمكن من تنظيم رجاله وصار على وشك السيطرة على المدينة. والمفوض النزق الذي رفض الاستماع إلى مسوغات إيتيان في اليوم السابق، حين كان تفوق القوات المعادية جليا، استمع هذه المرة حتى النهاية. فقد كانت معلومات زاشاري تتحقق بحذافيرها.

ـ علينا التفاوض على مخرج مشرف أيها المفوض، لأنني لا أعرف من أين سنأتي بتعزيزات ـ أنهى روليه كلامه بشحوب وعينين محمرتين، بينما ذراعه مربوط إلى صدره بعصابة مرتجلة وذرع قميصة تتدلى فارغة.

ـ أما أنا فأعرف أيها المقدم. لقد فكرتُ في الأمر جيداً. يعسكر على مقربة من لوكاب أكثر من خمسة عشر ألف متمرد. هؤلاء سيكونون التعزيزات التي نحتاج إليها ـ ردّ عليه سونتوناكس.

ـ المتمردون الزنوج؟ لا أظن أنهم يريدون التدخل في هذا الأمر ـ أجاب روليه.

ـ بل سيفعلون مقابل اعتاقهم. منحهم الحرية هم وأسرهم.

لم تكن فكرته، بل خطرت الفكرة لزاشاري الذي تدبر أمر اللقاء به مرة أخرى. وفي أثناء ذلك كان سونتوناكس قد تحرى عن زاشاري وعرف أنه عبد وأدرك أنه يقامر بكل شيء، لأنه في حال خروج جالبو منتصراً، مثلما يبدو واضحاً، وتوصل إلى معرفة دوره كمخبر، فسوف يجري تمزيقه ضرباً بهراوة الدبوس على منصة الإعدام في الساحة العامة. ومثلما شرح له زاشاري، فإن المساعدة الوحيدة التي يمكن لسونتوناكس الحصول عليها هي من الزنوج المتمردين. ويتوجب عليه منحهم دافعاً كافياً.

ـ وسيكون لهم أيضاً حق النهب في المدينة. ما رأيك أيها المقدم؟ ـ قال سونتوناكس لروليه بنبرة ظافرة.

ـ إنها مجازفة.

ـ هناك مئات آلاف الزنوج المتمردين المنتشرين في الجزيرة، وسوف أسعى لجعلهم ينضمون إلينا.

ـ ولكن معظمهم في الجانب الإسباني ـ ذكّره روليه.

ـ مقابل الحرية سيضعون أنفسهم تحت العلم الفرنسي، أؤكد لك. أنا أعرف أن توسان وآخرين غيره يرغبون في العودة إلى أحضان فرنسا. اختر فصيلة صغيرة من الجنود الزنوج ورافقني للتفاوض مع المتمردين. إنهم على مسير ساعة من هنا. وانتبه لذراعك يا رجل، وإلا ستصاب بالتهاب.

لم يكن إيتيان روليه واثقاً من الخطة، وقد فوجئ حين رأى السرعة التي وافق بها المتمردون على العرض. فقد جرت خيانتهم مرة بعد أخرى من قبل البيض؛ ومع ذلك تمسكوا بذلك الوعد الضعيف بإعتاقهم. وقد كان السماح لهم بالنهب صنارة لا تقل قوة عن منحهم الحرية، لأنهم كانوا معطلين منذ أسابيع، وبدأ الاستياء يخلخل معنوياتهم.

دماء ورماد

كان تولوز فالموران هو أول من رأى، من شرفة بيته، الكتلة القاتمة المتقدمة من الجبل باتجاه المدينة. لم يستطع تبين حقيقتها، لأن بصره لم يعد حاداً كما في السابق، كما أن سحابة كثيفة كانت تتصاعد، وكان الهواء يتخلخل بفعل الحر والرطوبة.

ـ تيتي! تعالي هنا وأخبريني ما هذا! ـ أمرها.

ـ إنهم زنوج يا مسيو. آلاف الزنوج ـ أجابت دون أن تتمكن من كبح رعشة فيها مزيج من الخوف مما سيحدث والأمل بأن يكون غامبو بينهم.

أيقظ فالموران الوطنيين الذين كانوا يشخرون في الصالة وأرسلهم ليطلقوا صوت الإنذار. وسرعان ما دخل الجيران إلى بيوتهم وأحكموا إغلاق الأبواب والنوافذ، بينما كان رجال الجنرال جالبو يستفيقون من سكرهم ويتعجلون لخوض معركة بدت خاسرة قبل أن تبدأ. ما يكونوا يعرفون ذلك بعد، غير أنه كان هناك خمسة زنوج مقابل كل جندي أبيض، وهم يأتون ممتلئين بشجاعة مجنونة يبثها فيهم **أوغون**. في البدء سمعوا ضجة ولولاتٍ تبعث القشعريرة في النفس، وصفير قواقع الحرب الحاد، وراح صوت ذلك الصخب يتعالى. لقد كان المتمردون أكثر عدداً بكثير، وأقرب مما ظنه الجميع. انقضوا على لوكاب وسط ضجيج يبعث على الصمم، وكانوا شبه عراة وسيئي التسلح، بلا نظام ولا انسجام، مستعدين لاكتساح كل شيء. بإمكانهم الانتقام والتدمير على هواهم دون عقاب. وفي لحظة واحدة ظهرت آلاف المشاعل وتحولت المدينةٍ إلى كتلة من اللهب. كانت البيوت الخشبية تشتعل بالعدوى، شارعاً بعد شارع، وتلتهم النار أحياء بكاملها. صار الحر لا يطاق، واصطبغت السماء والبحر بالأحمر والبرتقالي. ووسط

فرقعة النيران وضجة المباني التي تنهار وقد لفها الدخان، كانت تُسمع بوضوح صرخات انتصار الزنوج ورعب الضحايا. امتلأت الشوارع بأجساد هاربين مذعورين يدوسها المهاجمون ومئات الخيول الجامحة التي هربت من الاسطبلات. لم يستطع أحد مقاومة تلك الاندفاعة. فمعظم البحارة أبيدوا خلال الساعات الأولى، بينما قوات جالبو النظامية تحاول انقاذ المدنيين البيض. كان آلاف اللاجئين يركضون نحو الميناء. بعضهم يحاول حمل حزم، ولكنهم لا يلبثون أن يتخلوا عنها بعد خطوات في هروبهم المتعجل.

ومن إحدى نوافذ الطابق الثاني تمكن فالموران من تقدير الوضع بنظرة واحدة. لقد صار الحريق قريبا جدا، تكفي شرارة لتحويل بيته إلى شعلة نار متأججة. وفي الشوارع الجانبية تتراكض عصابات زنوج مبللين بالعرق والدم، يواجهون دون تردد أسلحة الجنود القليلين الذين مازالوا يقفون على أقدامهم. كان المهاجمون يتساقطون بالعشرات، ولكن آخرين يأتون بعدهم، قافزين فوق أجساد رفاقهم المتراكمة. رأى فالموران جماعة منهم تحاصر أسرة تحاول الوصول إلى الميناء، كانت الأسرة مؤلفة من امرأتين وعدة أطفال يحميهم رجل متقدم في السن، لا بد أنه الأب، وصبيين. تمكن كل واحد من البيض المسلحين بمسدسات من إطلاق طلقة عن قرب، وعلى الفور أحاطت بهم شرذمة المتمردين واختفوا. وبينما حمل بعض الزنوج الرؤس من شعورها، حطم آخرون باب بيت كان سقفه يحترق، ودخلوه وهم يطلقون الصرخات. ألقوا امرأة مذبوحة من النافذة، وراحوا يرمون الأثاث والمؤن إلى أن أجبرتهم النار على الخروج. وبعد لحظات سمع فالموران أولى الضربات على باب بيته الرئيسي. الرعب الذي شلّه لم يكن غريباً عليه، لقد عانى ذلك الرعب بالذات عندما هرب من مزرعته يقوده غامبو. لم يفهم كيف أمكن للأمور أن تنقلب رأساً على عقب، وكيف أن عملية البحارة المخمورين والجنود البيض في الشوارع لن تستمر، على حد قول جالبو، إلا بضع ساعات وتنتهي بنصر

مؤكد، قد تحولت إلى كابوس الزنوج الهائجين هذا. يضغط على الأسلحة بأصابعه المتصلبة، ولا يستطيع إطلاق النار منها. يغمره عرق حامض يمكنه التعرف على نتانته: إنها رائحة عجز العبيد حين يعذبهم كامبري. كان يشعر بأن قدره قد تحدد، وليس له مهرب مثل ما هي حال العبيد في مزرعته. ناضل ضد الغثيان وضد إغواء لا يطاق بأن يتكور مشلولاً في أحد الأركان بخسة وجبن. بلل سائل دافئ بنطاله.

وقفت تيتي في منتصف الغرفة والطفلان مختبئان بين طيات تنورتها، كانت تمسك مسدساً بكلتا يديها موجهة فوهته إلى أعلى. لقد فقدت الأمل بلقاء غامبو، لأنه إذا كان في المدينة، فلن يتمكن من الوصول إليها قبل الرعاع. ولا يمكنها وحدها الدفاع عن موريس وروزيت. وحين رأت فالموران يبول من الخوف، أدركت أن تضحيتها بالانفصال عن غامبو لم تكن مجدية، لأن السيد أعجز من أن يحميهم. كان من الأفضل لها أن تذهب مع المتمردين وتجازف بأخذ الطفلين معها. منحتها رؤية ما هو على وشك الحدوث لطفليها قوة عمياء، وأحست بالسكينة الرهيبة التي يشعر بها الموشكون على الموت. الميناء لا يبعد أكثر من شارعين، وعلى الرغم من أن اجتياز المسافة يبدو مستحيلاً في هذه الظروف، إلا أنه لا وجود لمنفذ نجاة آخر. «فلنخرج من الخلف، من باب الخدم المنزليين»، قالت تيتي بصوت حاسم. كان الباب الرئيسي يتداعى ويُسمع تكسر زجاج النوافذ في الطابق الأول، ولكن فالموران كان يظن أنهم أكثر أماناً في الداخل، وربما يستطيعون الاختباء في مكان ما. «سيحرقون البيت. أنا سأخرج مع الطفلين»، ردت عليه وهي تدير له ظهرها. وفي تلك اللحظة أخرج موريس وجهه الصغير المتسخ بالدموع والمخاط من بين طيات تنورة تيتي وركض ليعانق ساقي أبيه. هزت فالموران موجة حب للصغير ووعى وضعه المخجل. لا يمكنه السماح بأن يتذكره ابنه كجبان، إذا ما قيضت له النجاة. تنفس بعمق محاولاً كبح ارتعاش جسده، ثبت مسدساً في حزامه، وهيأ الآخر، ثم أمسك بيد موريس وقاده محمولاً تقريباً وراء تيتي التي كانت تحمل

روزيت وتنزل السلّم الحلزوني الضيق الذي يصل الطابق الثاني بغرف العبيد في القبو.

أطلوا من باب الخدم على الزقاق الخلفي المغطى بالرماد وأنقاض الأبنية المشتعلة، ولكنه كان خالياً. أحس فالموران بالضياع، فهو لم يستخدم قطّ ذلك الباب ولا يعرف إلى أين يؤدي، ولكن تيتي كانت تتقدمه دون تردد، متوجهة مباشرة إلى خضم المعركة. وفي تلك اللحظة، عندما بدت مواجهة الرعاع محتمة، سمعوا تبادل إطلاق نار ورأوا فصلة صغيرة من قوات جالبو النظامية التي لم يعد يهمها الدفاع عن المدينة، تصارع من أجل الانسحاب نحو السفن. كانوا يطلقون النار بانتظام، هادئين، ودون أن تتشتت صفوفهم. كان الزنوج المتمردين يحتلون جزءاً من الشارع، ولكن إطلاق الرصاص يكبح تقدمهم. عندئذ تمكن فالموران من التفكير بشيء من الوضوح لأول مرة، ورأى أنه ليس لديه متسع من الوقت للتردد. فصرخ: «هيا بنا! اركضوا!». اندفعوا وراء الجنود محتمين بهم، وراحوا يقفزون بين أجساد القتلى والأنقاض المشتعلة مجتازين مسافة الشارعين تلك، الأطول في حياتهم، بينما الأسلحة النارية تشق الطريق. ودون أن يدروا كيف، وجدوا أنفسهم في الميناء المضاء بالحرائق كما في وضح النهار، حيث يتراكم آلاف اللاجئين، ويتواصل مجيء المزيد. وكانت عدة صفوف من الجنود تحمي البيض بإطلاق النار على الزنوج الذين يهاجمون من ثلاث جهات، بينما الجموع تصارع كالحيوانات من أجل الصعود إلى الزوارق المتوافرة. لم يكن هناك من يتولى تنظيم الانسحاب، إنها حشود مذعورة. وفي يأس اللحظة، راح البعض يقفزون إلى الماء ويحاولون السباحة باتجاه السفن، ولكن البحر يعج بأسماك قرش اجتذبتها رائحة الدم.

وفي أثناء ذلك ظهر الجنرال جالبو ممتطياً حصاناً، وقد أردف زوجته خلفه، يحيط به عدد من حراس الحاكمية لحمايته وشق الطريق له ضاربين الجمع بأسلحتهم. لقد فاجأ هجوم الزنوج جالبو، لأن ذلك

كان آخر ما يمكن له توقعه، ولكنه أدرك على الفور أ الموقف قد انقلب ولم يبق له سوى محاولة النجاة. وقد وجد الوقت اللازم بالضبط لإخراج زوجته التي كانت طريحة الفراش منذ يومين تتعافى من إصابة بالملاريا، دون أن تدري بما يحدث في الخارج. كانت ملتفة بشال فوق قميص النوم، وحافية القدمين، وشعرها مجموع في ضفيرة تتدلى على ظهرها، وبملامح غير مبالية، كما لو أنها لا تلحظ المعركة الدائرة والحرائق. وقد وصلت بطريقة ما سليمة إلى هناك، أما زوجها بالمقابل فكان بذقن غير حليقة وشعر أصابته حروق طفيفة وملابس ممزقة، وملوثة بدم وسناج.

ركض فالموران نحو الجنرال شاهراً مسدسه، وتمكن من تجاوز الحراس، ووقف أمامه وأمسك ساقه بيده الطليقة. «زورق! أريد زورقاً!»، قال متوسلاً من كان يعتبره صديقه، ولكن جالبو رد عليه بإبعاده بركلة في صدره. أعمت فالموران نوبة غضب ويأس. انهارت سقالة أساليب السلوك الحميد التي ميزته خلال سنوات عمره الثلاث والأربعين وتحول إلى وحش محاصر. قفز بقوة ورشاقة غير معهودتين، وأمسك زوجة الجنرال من خصرها وأنزلها عن الحصان بعنف. سقطت السيدة منفرجة الساقين على حجارة الشارع الساخنة، وقبل أن يتمكن الحراس من الإتيان بأي ردّ فعل، وضع المسدس على رأسها. «أريد زورقاً وإلا قتلتها هنا!»، قال متوعداً بتصميم لم يخامر الشك معه أحداً في أنه سيفعل ذلك. أوقف جالبو جنوده. «لا بأس يا صديقي، اهدأ، سأحصل لك على زورق»، قال بصوت أبح بفعل الدخان والبارود. أمسك فالموران المرأة من شعرها، أنهضها عن الأرض وأجبرها على السير أمامه والمسدس على رقبتها. ظل شالها على الأرض، ومن خلال قميص نومها الشفاف، وعلى الضوء البرتقالي لتلك الليلة الشيطانية، كان يظهر جسدها النحيل وهو يتقدم متعثرا، على رؤوس أصابعها، ومعلقة في الهواء من ضفيرتها. وهكذا وصلوا إلى الزورق الذي ينتظر جالبو. حاول الجنرال التفاوض في اللحظة الأخيرة: لا

يوجد متسع إلا لفالموران وابنه، قال متعللاً، ولا يمكن إعطاء أفضلية للخلاسية بينما آلاف البيض يتدافعون للصعود. دفع فالموران زوجة الجنرال إلى حافة رصيف الميناء فوق المياه الحمراء بانعكاسات النار والدم. أدرك جالبو أن أدنى تردد منه سيجعل ذلك الرجل المختل يلقي بها إلى أسماك القرش، فتنازل. وصعد فالموران مع جماعته إلى الزورق.

مساعدة على الموت

بعد شهر من ذلك، وفوق أنقاض لوكاب التي يتصاعد منها الدخان وقد تحولت إلى أطلال ورماد، أعلن سونتوناكس تحرير العبيد في سان دومانغ. فمن دونهم ما كان يمكن له أن يقاتل ضد أعدائه الداخليين وضد الإنكليز الذين يحتلون الجزء الجنوبي من الجزيرة. في ذلك اليوم بالذات أعلن توسان أيضاً عن تحرير العبيد من معسكره في أراضي الشطر الإسباني. ووقّع الوثيقة باسم توسان لوفيرتور، الاسم الذي سيدخل فيه التاريخ. كانت صفوف قواته آخذة بالازدياد، واتسع نفوذه أكثر من نفوذ أي زعيم آخر من زعماء المتمردين، وكان يفكر في استبدال الراية، لأن فرنسا الجمهورية وحدها من تعترف بحرية أناسه، وهو ما لا يمكن لأي بلد آخر أن يتسامح فيه.

لقد انتظر زاشاري تلك الفرصة مذ وعى على الدنيا، وعاش مهووساً بفكرة الحرية، على الرغم من سعي أبيه إلى إلى أن يرسخ فيه، منذ المهد، شعور الفخر بأن يكون قهرمان المعتمدية، وهو منصب يحتله عادة شخص أبيض. خلع زاشاري زي أميرال الأوبريت الذي يرتديه، وأخذ مدخراته وأبحر في أول سفينة انطلقت من الميناء في ذلك اليوم دون أن يسأل عن وجهتها. لقد أدرك أن تحرير العبيد ليس سوى ورقة سياسية يمكن لها أن تتبدل في أي لحظة وقرر ألا يكون هناك عند حدوث ذلك. فلطول معايشته للبيض توصل إلى معرفتهم بعمق وافترض أنه إذا فاز أنصار الملكية في انتخابات الجمعية العامة المقبلة في فرنسا، فإنهم سيخلعون سونتوناكس من منصبه، وسيصوتون ضد تحرير العبيد، ويكون على عبيد المستعمرة أن يواصلوا النضال من أجل حريتهم. ولكنه لا يرغب في التضحية، فالحرب تبدو له هدر للموارد والحيوات، وأقل الطرق عقلانية لحل النزاعات. وتجربته كقهرمان تخلو

على كل حال من أي قيمة في هذه الجزيرة الممزقة بالعنف منذ أزمنة كولومبس، وعليه أن ينتهز الفرصة للبحث عن آفاق أخرى. فهو في الثامنة والثلاثين من العمر، ومستعد لتغيير حياته.

علم إيتيان روليه بالإعلانين قبل ساعات من موته. فقد ساءت حال جرح كتفه بتسارع في الأيام التي تعرضت فيها لوكاب للنهب والحرق من أساسها، وعندما تمكن أخيراً من الاهتمام بالجرح، كانت الغرغرينا قد بدأت. والدكتور بارمونتيه الذي أمضى تلك الأيام منهمكاً في معالجة مئات الجرحى بمساعدة الراهبات المتبقيات على قيد الحياة في موجة العنف، قام بفحصه بعد فوات الأوان. كان عظم الترقوة مفتتاً، ولم يكن حلّ البتر ممكناً بسبب موقع الجرح. كما أن أساليب العلاج التي تعلمها من تانت روز وغيرها من المداوين لم تعد مجدية. لقد رأى إيتيان روليه خلال حياته العسكرية جراحاً من كل الأنواع، ومن خلال رائحة جرحه عرف أنه يموت؛ وكان أكثر ما أسف له أنه لن يستطيع حماية فيوليت من نوائب المستقبل. وبينما هو مستلق في المستشفى على لوح خشبي دون فراش، كان يتنفس بصعوبة، يبلله عرق احتضار لزج. كان يمكن للألم أن يكون غير محتمل لشخص آخر، أما هو فقد جُرح عدة مرات من قبل، وعاش حياة حرمان، وكان يشعر بازدراء رواقي لتعاسات جسده. لم يكن يشكو. فهو يغمض عينيه ويستحضر فيوليت: يديها الناعمتين، ضحكتها المبحوحة، خصرها المتفلت، إذنيها البراقتين، حلمتيها القاتمتين، فيبتسم شاعراً أنه أكثر الرجال حظاً في هذا العالم، لأنه عاش معها أربعة عشر عاماً، وكانت فيوليت العاشقة، الجميلة الأبدية، له هو وحده. لم يحاول بارمونتيه شغله عن أفكاره، بل اكتفى بإعطائه أفيوناً، المهدئ الوحيد المتوافر، أو شراباً صاعقاً يُنهي ذلك العذاب في دقائق. إنه خيار يتوجب عليه عدم طرحه كطبيب، ولكن ما شهده من آلام في هذه الجزيرة جعل قَسَمَهُ بالحفاظ على الحياة مهما كان الثمن أمراً بلا معنى؛ وأن المساعدة على الموت في بعض الحالات تكون أكثر أخلاقية. وقد كان الجريح هو من اختار:

«أعطني سماً، شريطة ألا يكون هناك جندي بحاجة إليه أكثر مني»، انحنى الدكتور قريباً منه ليسمعه، لأن الصوت كان همهمة وحسب. «ابحث عن فيوليت، وقل لها إنني أحبها»، أضاف إيتيان روليه قبل أن يُفرغ الآخر زجاجة صغيرة في فمه.

وفي كوبا، في تلك اللحظة بالذات، ارتطمت يد فيوليت بواسيير اليمنى بالنافورة الحجرية التي ذهبت إليها لجلب ماء، فتفتت حجر الأوبال الكريم الذي في الخاتم بعد أن ظلت تضعه في إصبعها أربعة عشر عاماً. تهاوت جالسة إلى جانب النافورة بصرخة مكبوحة ويد على صدرها. ظنت آديل التي كانت معها أن عقرباً قد لدغها. ولكن فيوليت تلعثمت وهي تبكي: «إيتيان، إيتيان...».

وعلى بُعد خمس كوادرات عن النافورة، حيث علمت فيوليت أنها صارت أرملة، كانت تيتي تقف تحت مظلة في أفخم فندق في هافانا، إلى جانب منضدة يجلس إليها موريس وروزيت وهما يتناولان عصير أناناس. لم يكن مسموحاً لها الجلوس بين الزبائن، مثلما لم يكن مسموحاً لروزيت، ولكن الطفلة تبدو كإسبانية، ولا يمكن لأحد الشك في حقيقة وضعها العرقي. وكان موريس يساهم في الخدعة بتعامله معها على أنها أخته الصغرى. وإلى منضدة أخرى كان يجلس تولوز فالموران ويتبادل الحديث مع صهره سانتشو ووكيله المصرفي. فأسطول اللاجئين الذين أخرجهم الجنرال جالبو من مدينة لوكاب في تلك الليلة المشؤومة أبحر باتجاه بالتيمور بأشرعة مفتوحة إلى أقصاها، تحت مطر من رماد، ولكن عدداً من تلك السفن حولت مسارها إلى كوبا وفيها *البيض الكبار* الذين لهم أقرباء أو مصالح هناك. فبين ليلة وضحاها، نزلت آلاف العائلات الفرنسية في جزيرة كوبا هرباً من العاصفة السياسية في سان دومانغ. استقبلهم الكوبيون والإسبان بكرم ضيافة، دون أن يدور في خلدهم أن الزائرين المرتعبين سيتحولون إلى لاجئين مؤبدين. وبينهم كان فالموران وتيتي والطفلين. أخذهم سانتشو غارثيا دل سوتو إلى بيته الذي ازداد خلال تلك السنوات تردياً عما كان

عليه دون أن يهتم أحد بترميمه. ولكثرة الصراصير في البيت، فضّل فالموران الإقامة مع جماعته في أفضل فندق في هافانا، حيث شغل هو وموريس جناحاً له شرفتين بإطلالة على البحر، بينما صارت تيتي وروزيت تنامان في مأوى العبيد المرافقين لأسيادهم، وهي غرف ضيقة أرضيتها ترابية وبلا نوافذ.

كان سانتشو يعيش حياة رخاء كعازب مصمم على عوزبته؛ ينفق أكثر مما هو مناسب على الحفلات والنساء والخيول وموائد القمار، ولكنه مازال يحلم، كما في شبابه، بأن يجمع ثروة ويعيد لاسمٍ أسرته السمعة التي كانت له في أزمنة أجداده. يقتنص الفرص دوماً لكسب المال؛ وهكذا خطر له منذ نحو سنتين أن يشتري أراضي في لويزيانا بالموارد التي وفرها له فالموران. أما مساهمته فتمثلت في الرؤية التجارية، والعلاقات الاجتماعية، والعمل... على ألا يكون كثيرا، كما قال هو نفسه ضاحكاً، بينما يقدم صهره رأس المال. ومذ تبلورت الفكرة سافر عدة مرات إلى نيو أورلينز، واشترى أراضي على ضفة نهر الميسيسبي. في البدء كان فالموران يتحدث عن المشروع كمغامرة جنونية، ولكن ذلك المشروع الآن هو الشيء المؤكد الوحيد بين يديه، فقرر تحويل تلك الأراضي إلى مزرعة قصب كبرى. لقد فقد الكثير في سان دومانغ، ولكنه لا يفتقر إلى الموارد بفضل استثماراته، وتجارته مع سانتشو وحكمة وكيله اليهودي ومصرفيه الكوبي. كان هذا هو التفسير الذي قدمه إلى سانتشو وإلى أي فضولي سأله. أما عندما يكون وحيدا أمام المرآة، فلا يمكنه تجنب الحقيقة التي تحاصره من أعماق عينيه: القسم الأكبر من رأس المال ذاك لم يكن له، وإنما هو للاكروا. ولكنه كان يكرر أن ضميره نظيف، لأنه لم يحاول قط الاستفادة من نكبة صديقه ولا الاستيلاء على تلك الأموال، وإنما هي التي سقطت عليه من السماء. فعندما أقدم متمردو سان دومانغ على قتل أسرة لاكروا واحترقت الإيصالات الموقعة بيده عن الأموال التي كان يتلقاها من صديقه، وجد أن بحوزته حساباً بالبيزوات الذهبية فتحه هو نفسه في هافانا لحفظ مدخرات لاكروا، وهو حساب لا يعلم بحقيقته أحد سواه.

ففي كل رحلة له إلى هافانا كان يحمل الأموال التي يسلمها إليه جاره، ويودعها مصرفيه في حساب خاص محدد برقم وحسب. لم يكن المصرفي يعرف شيئاً عن لاكروا، ولم يضع في ما بعد أية إعتراضات عندما نقل فالموران تلك الأموال إلى حسابه الخاص، انطلاقاً من قاعدة أنها أمواله. والحقيقة أن هناك ورثة للاكروا في فرنسا ولهم كامل الحق بتلك الثروة، ولكن فالموران حلل الوقائع وقرر أنه ليس مسؤولاً عن الخروج للبحث عنهم، وأنه سيكون أبله إذا ما ترك تلك الأموال مدفونة في خزائن المصرف. إنها حالة من تلك الحالات النادرة التي تطرق بها الثروة الباب، ولا يمكن إلا لأبله أن يفوت الفرصة.

بعد أربعة عشر يوماً على وصوله إلى كوبا، وعندما كانت الأخبار الآتية من سان دومانغ لا تترك مجالاً للشك حول اشتداد الفوضى السائدة في المستعمرة، قرر فالموران الذهاب مع سانتشو إلى لويزيانا. كانت الحياة في هافانا ممتعة ومسلية لشخص مستعد للإنفاق ببذخ، ولكنه لا يستطيع إضاعة الوقت. فقد أدرك أنه إذا ما واصل التنقل مع سانتشو من مقمرة إلى مقمرة، ومن ماخور إلى ماخور، فسوف ينتهي به الأمر إلى تبديد مدخراته وصحته. وأنه من الأفضل أخذ ذلك الصهر الفاتن بعيداً عن أصدقائه اللاهين وأن يقدم إليه مشروعاً على مقاس طموحاته. وفكر في أنه يمكن لمزرعة لويزيانا أن تؤجج في سانتشو جمار التماسك الأخلاقي الذي يمتلكه الجميع تقريباً. وكان خلال تلك السنوات قد أحب كأخ كبير ذلك الرجل الذي يفتقر هو إلى مثل عيوبه وفضائله. ولهذا سارت علاقتهما على ما يرام. لقد كان سانتشو ثرثارا، مغامراً، واسع المخيلة، باسلاً، ونموذجاً للرجل القادر على تأبط أذرع أمراء أو قراصنة على السواء، ولا يمكنه مقاومة النساء، وأزعر بقلب رعن. لم يكن فالموران يعتبر أنه فقد مزرعة سان لازار، ولكنه مادام غير قادر على استردادها عليه أن يركز جهوده على مشروع سانتشو في لويزيانا. فالسياسة لم تعد تهمه، وإخفاق الجنرال جالبو خلفة محبطاً. لقد حان الوقت كي يعود إلى انتاج السكر، وهو الشيء الوحيد الذي يحسن عمله.

العقاب

أخبر بالمورين تيتي بأنهم سيغادرون بعد يومين في سفينة شراعية أمريكية، وأعطاها نقوداً كي تشتري ملابس للأسرة.

ـ هل أصابكِ شيء؟ ـ سأل المرأة حين رأى أنها لم تتحرك لتأخذ جراب النقود.

ـ المعذرة يا مسيو، ولكنني... لستُ راغبة في الذهاب إلى ذلك المكان ـ قالت متلعثمة.

ـ ما الذي تقولينه أيتها البلهاء؟ اطيعي واصمتي!

ـ وهل ورقة حريتي صالحة هناك أيضاً؟ ـ تجرأت تيتي على السؤال.

ـ أهذا هو ما يقلقك؟ إنها صالحة طبعاً، هناك وفي أي مكان آخر. عليها توقيعي وخاتمي، إنها شرعية حتى في الصين.

ـ لويزيانا بعيدة جداً عن سان دومانغ، أليس كذلك؟ ـ ألحت تيتي.

ـ إذا كان هذا ما يهمك، فإننا لن نرجع إلى سان دومانغ. ألم يكفيكِ كل ما عانيناه هناك؟ إنك أشد غباء مما كنت أظن! ـ صاح فالموران غاضباً.

انصرفت تيتي مطأطأة الرأس للتحضير للرحلة. الدمية الخشبية التي نحتها لها هونوري في طفولتها ظلت في سان لازار، وهي تفتقد الآن ذلك الوثن جالب حسن الطالع. «هل سأعود للقاء غامبو يا إرزولي؟ إننا ذاهبون بعيداً، ومزيد من المياه تفصل بيننا.» وبعد القيلولة، انتظرت إلى أن برّد نسيم البحر جو المساء، وخرجت مع الطفلين للمشتريات. وبأمر من السيد الذي لا يريد رؤية موريس يلعب مع طفلة رثة الثياب، ألبست الصغيرين ثياباً من النوعية نفسها، فكانا يبدوان لعيني أي شخص كطفلين غنيين برفقة مربيتهما. وحسب ما خطط له سانتشو، سوف يستقرون في نيو أورلينز، لأن المزرعة الجديدة لا تبعد إلا أربعة

مراحل عن المدينة. ذلك أنهم يملكون الأراضي، ولكن ينقصهم كل شيء آخر: المعاصر، والآلات، وأدوات العمل، والعبيد، وأماكن المبيت، والبيت الرئيسي. ولا بد من تهيئة الأرض وزراعتها، ولا يمكن انتظار أي إنتاج قبل عامين، ولكنهم لم يمروا بأي ضيق بفضل مدخرات فالموران. لأن النقود، كما قال سانتشو، لا تشتري السعادة، ولكنها تشتري كل ما عدا ذلك تقريباً. وهو لا يريد لهم أن يصلوا إلى نيو أورلينز بمظهر من يأتون هاربين من مكان آخر، لأنهم مستثمرون وليسوا لاجئين. لقد خرجوا من لوكاب بما كانوا يلبسونه، واشتروا في كوبا أقل المشتريات، ولكنهم قبل السفر إلى نيو أورلينز يحتاجون إلى ألبسة كاملة، وصناديق وحقائب. «اشتري كل شيء من أفضل نوعية يا تيتي، واشتري فستانين لك أنت أيضاً، لا أريد رؤيتك مثل متسولة. وانتعلي حذاء!»، أمرها، ولكن الحذاء الوحيد الذي انتعلته كان عذاباً لها. اشترت تيتي الضروريات من متاجر مركز المدينة، بعد كثير من المساومة، كما هي العادة في سان دومانغ، ومثلما توقعت أن تكون الحال في كوبا. لقد كان الحديث في الشارع يدور بالإسبانية، ومع أنها كانت قد تعلمت شيئاً من هذه اللغة مع إوخينيا، إلا أنها لم تكن تفهم اللهجة الكوبية الزلقة والمغناة، والمختلفة جداً عن القشتالية القاسية والرنانة التي كانت تتكلمها سيدتها المتوفاة. ولو أنها ذهبت إلى سوق شعبي لما تمكنت من المساومة، أما في متاجر مركز المدينة، فيتكلمون الفرنسية أيضاً.

عندما انتهت من الشراء، طلبت إرسال كل شيء إلى الفندق، وفقاً لتعليمات سيدها. كان الطفلان جائعين، وكانت هي متعبة، ولكنهم سمعوا قرع طبول عند خروجهم ولم تستطع تيتي مقاومة النداء. وبالتنقل من زقاق إلى آخر، وصلوا إلى ساحة صغيرة اجتمع فيها حشد من الناس الملونين الذين يرقصون بهياج على إيقاعات فرقة موسيقية. منذ زمن طويل لم تشعر تيتي بدافع بركاني للرقص في حفلة ***كاليندا***، فقد أمضت أكثر من سنة مرعوبة في المزرعة، تحاصرها صرخات

المحكومين في لوكاب، هاربة، ومودعة، ومنتظرة. لقد صعد الإيقاع من باطن قدميها الحافيتين حتى عقدة عمامتها، تملكت الطبول جسدها كله بالبهجة نفسها التي كانت تشعر بها لدى ممارسة الحب مع غامبو. أفلتت الطفلين وانضمت إلى جلبة الراقصين: العبد الذي يرقص عبدٌ حر طالما هو يرقص، مثلما علمها هونوري. ولكنها لم تعد عبدة، إنها حرة، لا ينقصها إلا توقيع قاض. حرة! حرة! ونمضي متحركين بقدمين ملتصقتين بالأرض، وبحماسة في الساقين والردفين، بينما الإليتان تدوران بإثارة، والذراعان كجناحي نورس، والنهدان يتأرجحان، والرأس تائه. دماء روزيت الأفريقية استجابت أيضاً لدعوة الموسيقى المهيبة، فقفزت الطفلة ذات الثلاثة أعوام بين الراقصين مهتزة بالمتعة والاستسلام نفسيها اللذين يحركان أمها. أما موريس بالمقابل، فقد تراجع إلى أن التصق بأحد الجدران. لقد شهد من قبل بعض رقصات العبيد في مزرعة سان لازار كاستعراض وهو يمسك بيد أبيه، ولكنه كان وحيداً في تلك الساحة المجهولة، محاطاً بكتلة بشرية مهووسة، ذاهلاً من دوي الطبول، منسياً من تيتي، تيتته، وقد تحولت إلى إعصار تنانير وأذرع، ومنسياً أيضاً من روزيت التي اختفت بين سيقان الراقصين، إنه منسي من الجميع. انفجر ببكاء صارخ. وقف أمامه زنجي ساخر يكاد لا يستره بدنه سوى خرقة على وسطه وثلاث لفات بديعة من العقود، وراح يقفز ويهز خشاخشة ماراكا بنية تسليته، ولكنه لم يتوصل إلا إلى إخافته أكثر. خرج موريس مندفعاً بأقصى ما تستطيعه ساقاه. واصلت الطبول دويها لساعات، وكان يمكن لتيتي أن تواصل الرقص إلى أن يصمت آخر الطبول عند الفجر لو لم تمسك أربع أيد قوية بذراعيها وتسحبها خارج الحفلة.

كانت قد مضت ثلاث ساعات تقريباً منذ ابتعاد موريس راكضاً تدفعه الغريزة نحو البحر الذي كان قد رآه من خلال نافذة جناحه في الفندق. كان مضطرباً من الخوف، ولم يكن يتذكر الفندق، ولكن طفلاً أشقر وحسن الملبس، يبكي منزوياً في الشارع، لا يمكن إلا أن

يلفت الانتباه. توقف أحدهم لمساعدته، سأله عن اسم أبيه، ثم سأل في عدة مؤسسات إلى أن وصل إلى تولوز فالموران الذي لم يكن قد فكر في ابنه، لأنه متأكد من أنه في مأمن مع تيتي. وعندما تمكن من استجواب الصبي الباكي عما حدث، انطلق والغضب يملؤه بحثا عن المرأة، ولكنه قبل أن يبتعد كثيراً انتبه إلى أنه لا يعرف المدينة ولن يستطيع تحديد مكانها؛ عندئذ لجأ إلى حراس الشرطة. خرج رجلان منهم لاصطياد تيتي مستفيدين من المعلومات الغامضة التي قدمها موريس، وسرعان ما وصلوا إلى حفلة الرقص في الساحة من خلال دوي الطبول. فحملاها وهي تخبط بقدميها إلى السجن، وبما أن روزيت لحقت بهم صارخة أن يفلتوا أمها، فقد حبسوها أيضاً.

وفي عتمة الزنزانة الخانقة، والنتنة بروائح البول والبراز، تكورت تيتي في أحد الأركان وروزيت بين ذراعيها. انتبهت إلى أن هناك أشخاصاً آخرين، ولكنها احتاجت بعض الوقت كي تميز في الظلمة وجود امرأة وثلاثة رجال، صامتين وجامدين، ينتظرون دورهم لتلقي الجلد بالسوط الذي طلبه أسيادهم. وكان أحد أولئك الرجال يستعيد قواه منذ عدة أيام من خمس وعشرين جلدة تلقاها كي يتلقى ما تبقى من العقوبة عندما يصير قادرا على تحملها. سألتها المرأة شيئا بالإسبانية، ولكن تيتي لم تفهمه. وعندما بدأت تقدر ما فعلته: تذكرت أنها تركت موريس وهي مستغرقة في دوامة الرقص. إذا ما حدث شيء خبيث للطفل، فسوف تدفع حياتها ثمن ذلك، لهذا السبب اعتقلوها وهي الآن في هذا الجحر القذر. ولكن مصير طفلها أهم إليها من حياتها. «إرزولي، أيتها *اللوا* الأم، انقذي موريس.» وماذا سيحلّ بروزيت؟ تلمست الجراب الذي تحت صدارها. ليستا حرتين بعد، لأن الورقة لم يوقعها أي قاض، ويمكن لابنتها أن تُباع. أمضيتا بقية تلك الليلة في الزنزانة، وكانت أطول ليلة تتذكرها تيتي. تعبت روزيت من البكاء وطلب الماء ونامت محمومة أخيراً. وعند الفجر دخل ضوء الكاريبي الساطع من بين القضبان الحديدية الثخينة وتوقف

غراب لينقر الحشرات على الحافة الحجرية للكوة الوحيدة. بدأت المرأة تئن ولم تدري تيتي إن كان أنينها تطيراً من ذلك الطائر الأسود أم لأن دورها في الجلد يأتي في ذلك اليوم. مضت ساعات، ازداد الحر، وصار الهواء قليلاً وحاراً إلى حدّ أحست معه تيتي أن رأسها مملوء بقطن. لم تعرف كيف يمكنها إطفاء ظمأ ابنتها، وضعتها على ثديها، ولكن لم يعد فيه حليب. وفي حوالي منتصف النهار فتحت البوابة الحديدية وسدت هيئة ضخمة المدخل ونادتها باسمها. تمكنت تيتي من النهوض في المحاولة الثانية؛ كانت ساقاها رخوتين والظمأ يجعلها ترى رؤى. ودون أن تفلت روزيت، تقدمت متعثرة نحو المخرج. سمعت خلفها المرأة تودعها بكلمات تعرفها، لأنها كانت تسمعها من إوخينيا: يا قديسة مريم، يا أم الرب، صلي من أجلنا نحن الخطأة. فردت عليها تيتي في نفسها، لأن صوتها لم يخرج من بين شفتيها المتبستين: «إرزولي، يا *لوا* الرحمة، احفظي روزيت». اقتادوها إلى فناء صغير، له باب واحد للدخول ومحاط بسور عال، حيث توجد منصة إعدام تعلوها مشنقة، وعمود، وقرمة من جذع شجرة سوداء بدم جاف تستخدم لبتر الأعضاء. كان الجلاد كنغولياً عريضاً كخزانة، على خديه ندوب جروح طقوسية متقاطعة، أسنانه حادة، وصدره عارٍ مع وزرة من جلد تغطيها بقع قاتمة. وقبل أن يلمسها الرجل، دفعت تيتي ابنتها روزيت جانباً وأمرتها أن تقف بعيداً عنها. انصاعت الطفلة باكية، وكانت أضعف من أن تتمكن من توجيه أسئلة. «إنني حرة! إنني حرة!»، صرخت تيتي بالقليل الذي تعرفه من الإسبانية عارضة على الجلاد الجراب المعلق حول عنقها، ولكن حركة خاطفة من الرجل جردتها من بلوزتها وصدارها معاً، وقد تمزقا بشدةٍ واحدة. وجردتها ضربة اليد الثانية من تنورتها وأبقتها عارية. لم تحاول ستر نفسها. قالت لروزيت أن تدير وجهها إلى الجدار ولا تلتفت لأي سبب، ثم استسلمت لاقتيادها إلى العمود المغروس في الأرض، ومدت هي نفسها يديها ليقيدوا معصميها بحبل ليفي. سمعت صفير السوط الرهيب

في الهواء وفكرت في غامبو.

كان تولوز فالموران ينتظر في الجانب الآخر من الباب. لقد أعطى الجلاد تعليمات، مقابل الأجر المتعارف عليه وإكرامية إضافية، بأن يخيف عبدته خوفاً لا يُنسى دون أن يُلحق بها أي أذى. فموريس، لحسن الحظ، لم يتعرض لأي سوء، وبعد يومين سينطلقون في الرحلة؛ ولسوف يكون بحاجة إلى تيتي أكثر من أي وقتٍ آخر، ولا يمكنه أن يأخذها معه وهي مجلودة للتو. فرقع السوط مطلقاً الشرر على أرض الفناء المرصوفة، ولكن تيتي أحست به في ظهرها، في قلبها، في أحشائها، في روحها. خارت ركبتاها وظلت معلقة من معصميها. ومن بعيد جداً وصلتها ضحكة الجلاد وصرخة روزيت: «مسيو! مسيو!». وبجهد رهيب تمكنت من فتح عينيها والالتفات. كان فالموران على بعد خطوات وروزيت تضمه إليها من ركبتيه بينما وجهها مختف بين ساقيه وهي مختنقة بالبكاء. داعب رأسها وحملها بين ذراعيه، حيث استسلمت الطفلة خامدة. ودون أن يوجه أي كلمة إلى العبدة، أومأ إلى الجلاد، واستدار متوجهاً نحو الباب. فك الكونغولي تيتي، وجمع ثيابها الممزقة وأعطاها إياها. وهي التي كانت غير قادرة على التحرك قبل لحظات، لحقت فالموران مترنحة، بالنشاط الذي ولده الرعب، عارية، ضامة ثيابها إلى صدرها. رافقها الجلاد حتى المخرج وسلمها جراب الجلد مع حريتها.

القسم الثاني

لويزيانا

1793 ـ 1810



كريوليون بدم جيد

البيت في قلب نيو أورلينز، في المنطقة التي يعيش فيها *الكريوليون* المتحدرون من فرنسيين ذوي دم قديم، وقد كان لقية توصل إليها سانتشو غارثيا دل سولار. كل أسرة تشكل مجتمعاً بطريركياً، كثيرة العدد ومغلقة، ولا تختلط إلا بآخرين من مستواها. لم يكن المال قادرا على فتح تلك الأبواب، خلافاً لما يؤكده سانتشو، وكان يتوجب عليه أن يكون أكثر اطلاعاً، لأن المال لم يكن يفتح كذلك أبواب الإسبان المنتمين إلى فئة اجتماعية مماثلة؛ ولكن عندما بدأ لاجئو سان دومانغ بالمجيء حدث شرخ يمكن التسلل منه. في البدء، وقبل أن يتحول وصولهم إلى سيل بشري، عمدت بعض الأسر *الكريولية* إلى احتضان *البيض الكبار* ممن فقدوا مزارعهم. فقد استثارت شفقتهم ورعبهم الأخبارُ المأساوية التي تصل من الجزيرة، لأنهم لا يستطيعون تصور شيء أفظع من تمرد زنوج. نفض فالموران الغبار عن لقب *فارس* كي يقدم نفسه في المجتمع، وتولى صهره الحديث عن *القصر* في باريس، والذي هُجر لسوء الحظ منذ أن استقرت أم فالموران في إيطاليا هرباً من الرعب الذي فرضه اليعقوبي روبسبير. فالنزوع إلى قطع رؤوس الناس بسبب أفكارهم أو ألقابهم، مثلما يحدث في فرنسا، كان يقلب أحشاء سانتشو. صحيح أنه لا يتعاطف مع النبلاء، ولكنه لا يتعاطف مع الرعاع أيضاً؛ والجمهورية الفرنسية لا تقل ابتذالاً في رأيه عن الديمقراطية الأمريكية. وعندما علم أنهم قد قطعوا رأس روبسبير بعد بضعة شهور على المقصلة نفسها التي قضى عليها مئات من ضحاياه، احتفل بالحدث في سكرة استمرت يومين. وكانت تلك آخر سكرة له، لأنه ليس هناك من هو ممتنع عن الشرب بين *الكريوليين*، ولكنهم لا يتسامحون مع السكر؛ فالرجل الذي يفقد اتزانه في الشرب لا يستحق

أن يلقى القبول في أي مكان. وحتى فالموران الذي تجاهل لسنوات تحذيرات الدكتور بارمونتيه حول الكحول، اضطر أيضاً إلى عدم المبالغة في الشرب، وقد اكتشف عندئذ أنه لم يكن يشرب بسبب الإدمان، مثلما كان يعتقد في أعماقه، وإنما للتخفيف من وطأة الوحدة.

ومثلما كان الصهران قد خططا، لم يصلا إلى نيو أورلينز مختلطين باللاجئين الآخرين، وإنما كمالكي مزرعة قصب سكر، وهي المكانة الأسمى في سلم الفئات الاجتماعية. لقد تبين أن رؤية سانتشو في شراء تلك الأراضي كانت ومضة عناية إلهية. «لا تنسَ أن المستقبل في القطن يا صهري. لأن السكر اكتسب سوء السمعة»، قال سانتشو محذرا فالموران. فقد كان يجري تداول قصص مرعبة عن العبودية في جزر الأنتيل، وكان دعاة تحرير العبيد منهمكين في حملة دولية لإتلاف السكر الملطخ بالدم. «صدقني يا سانتشو أن استهلاك السكر سيستمر في الازدياد حتى لو كان معجوناً بالدم. فإدمان الذهب الحلو أشد قوة من إدمان الأفيون»، طمأنه فالموران. لم يكن هناك من يتكلم في هذه الأمور في المجتمع الراقي. وكان *الكريوليون* يؤكدون أنه لا يمكن لفظائع الجزر أن تحدث في لويزيانا. فبين أولئك الناس المتحدين بروابط أسرية معقدة، وحيث لا يمكن الحفاظ على سر ـ فكل شيء يُعرف عاجلاً أو آجلاً ـ كان يُنظر إلى القسوة باستياء باعتبارها عملاً غير ملائم، إذ لا يمكن إلا لمغفل أن يُلحق الأذى بممتلكاته. أضف إلى ذلك أن الإكليروس، وعلى رأسه رجل الدين الإسباني فراي أنطونيو دي سيديلا، المعروف باسم الأب أنطونيو، والمرهوب بسمعته كقديس، كان يصر على مسؤوليته أمام الرب عن أجساد العبيد وأرواحهم.

عند بدء الإجراءات من أجل شراء أيد عاملة للمزرعة، وجد فالموران نفسه أمام واقع مختلف تماماً عما هي عليه الحال في سان دومانغ، لأن ثمن العبيد مرتفع جداً. وهذا يعني استثماراً أكبر مما هو مقدر، ويستدعي توخي الحذر في النفقات، ولكنه أحس في سره بالراحة. فهناك الآن مسوغ عملي للاهتمام بالعبيد، وليس مجرد

هواجس إنسانية يمكن تفسيرها على أنها ضعف. فأسوأ ما في السنوات الثلاث والعشرين التي أمضاها في سان لازار، أسوأ من جنون زوجته، ومن المناخ الذي ينهك الصحة ويقوض مبادئ أشد الرجال وقاراً، وأسوأ من الوحدة والجوع إلى الكتب والأحاديث، كانت السلطة المطلقة التي يمارسها على حيوات أخرى، مع ما يعنيه ذلك من الإغواء والإهانة. فثورة سان دومانغ، مثلما يؤكد الدكتور بارمونتيه، هي انتقام العبيد المؤكد ضد وحشية المستوطنين. كان لويزيانا توفر لفالموران فرصة إحياء مُثل شبابه الهاجعة على جمار الذاكرة. بدأ يحلم بمزرعة نموذجية قادرة على إنتاج الكثير من السكر كما في سان لازار، ولكن العبيد يعيشون فيها حياة إنسانية. وسوف يتوخى الكثير من الحذر هذه المرة في اختيار مراقبي العمال ورئيسهم. فهو لا يرغب في بروسبير كامبري آخر.

انهمك سانتشو في عقد صداقات مع الكريوليين، وهي صداقات لا يمكن الازدهار من دونها، وتحول خلال وقت قصير إلى روح حفلات السمر، فبصوته الحريري في الغناء على أنغام الجيتار، وموهبة الجيدة في الخسارة على موائد اللعب، وعينيه الناعستين ومزاجه المرهف مع السيدات اللواتي يبذل قصارى جهده في ملاطفتهن، لأنه لا يمكن لأحد أن يجتاز عتبة بيوتهن دون رضاهن. كان يلعب البلياردو، وطاولة النرد، والدمينو، ويرقص بظرف، ولا يعييه التحدث في أي موضوع، ويتقن فن الحضور دوماً في المكان واللحظة المناسبين. ومكان نزهته المفضل هو الطريق المشجر على الرصيف البحري الذي يحمي المدينة من الفيضانات، حيث يختلط الجميع، ابتداء من العائلات المتميزة وحتى جموع السوقة الصاخبين من البحارة، والعبيد، والملونين الأحرار، و*الكينوك* الحاضرين دوماً بسمعتهم كسكيرين وقتلة وملاحقي نساء. كان هؤلاء الرجال ينزلون عبر المسيسبي من كنتاكي ومناطق أخرى في الشمال ليبيعوا منتجاتهم من التبغ والقطن والجلود والخيش، مصطدمين في الطريق مع الهنود العدائيين وألف خطر آخر؛ ولهذا كانوا يتجولون مسلحين جيداً. وفي أورلينز يبيعون مراكبهم

كحطب، ويلهون نحو أسبوعين ثم ينطلقون في رحلة العودة الشاقة.

ولمجرد أن يُرى في المجتمع، واظب سانتشو على حضور عروض المسرح والأوبرا، وعلى الذهاب إلى القداس في أيام الآحاد. وكانت بدلته السوداء البسيطة، وشعره المربوط كذيل على ظهره، وشاربه المصمغ، تتناقض كلها مع ملابس الفرنسيين التي من الحرير والدانتيلا، وتمنحه مظهراً على شيء من الخطورة في اجتذاب النساء. ولم تكن تشوب أساليبه شائبة، وهو مطلب أساسي لدى الطبقة الراقية، حيث الاستخدام المتقن والدقيق لشوكة الطعام أهم من شروط الشخص الأخلاقية. وما كان لكل تلك المزايا الباهرة أن تفيد في شيء ذلك الإسباني غريب الطبع لولا صلة قرابته بفالموران الفرنسي ذي الأصل النبيل والغني، ولكنه ما إن يدخل الصالونات حتى لا يعود هناك من يفكر في طرده. لقد كان فالموران أرمل، في الخامسة والأربعين فقط، ومظهره غير سيئ بأي حال، وإن كانت لديه بضعة كيلوغرامات زائدة، ومن الطبيعي أن يحاول بطرياركات ***الفيو كاريه*** اجتذابه لإحدى بناتهم أو بنات إخوتهم. وكان الإسباني الذي يصعب نطق كنيته مرشحاً أيضاً، فصهر إسباني يظل خيراً من ابنة عانس.

كانت هناك تعليقات ـ ولكن ليس معارضة ـ عندما استأجر هذان الأجنبيان منزلاً في الحي وعندما باعه إليهما مالكه بعد ذلك. كان المنزل مؤلفاً من طابقين وعلية، ولكنه بلا قبو، لأن نيو أورلينز مشيدة فوق الماء، ويكفي حفر شبر في الأرض كي يصل البلل. فكانت مدافن المقبرة مرفوعة كيلا يخرج الموتى عائمين مع كل عاصفة. ومثل بيوت كثيرة أخرى، كان بيت فالموران من القرميد والخشب، على الطراز الإسباني، مع مدخل فسيح للعربة، وفناء مرصوف بالبلاط، ونافورة من القيشاني، وشرفات بقضبان حديدية تغطيها أزهار متسلقة عطرة للتمتع بالبرودة. وقد أثثه فالموران متجنباً التباهي، لأنه يشير إلى حداثة النعمة. ومع أنه لا يتقن حتى الصفير، فقد اشترى آلات موسيقية مختلفة، لأن الآنسات في السهرات الاجتماعية يعزفن على البيانو أو

القيثارة أو الكلافيكوريو، بينما الرجال على الجيتار.

كان على موريس وروزيت أن يتعلما الموسيقى والرقص على يد معلمين خاصين، مثل غيرهم من الأطفال الأغنياء. فكان لاجئ من سان دومانغ يلقنهما دروس الموسيقى بالعصا، بينما يتولى بدين متظارف تعليمهما الرقصات الرائجة بالعصا أيضاً. وستكون هذه الدروس في المستقبل نافعة لموريس بقدر نفع تعلمه المبارزة في المنافسة وألعاب الصالونات، وستنفع روزيت في إمتاع الزائرين، ولكن دون المنافسة قط مع البنات البيض. لقد كانت ظريفة وحسنة الصوت. أما موريس فورث عن أبيه أذناً غير مرهفة، وكان يحضر الدروس باستسلام عبد تجديف. فهو يفضل الكتب التي لن تنفعه كثيراً في نيو أورلينز، حيث يبدو المثقف مشبوهاً؛ وحيث التقدير أكبر لموهبة تبادل الأحاديث الخفيفة، والتودد والحياة المريحة.

فالموران المعتاد على حياة الزهد في سان دومانغ، بدت له ساعات الأحاديث التافهة في المقاهي والبارات التي يجرجره إليها سانتشو مضيعة للوقت. وكان عليه أن يبذل جهداً للمشاركة في اللعب والمراهنات، على الرغم من مقته لمصارعات الديوك التي تخلف الحضور ملطخين بالدم، ومسابقات الخيول والكلاب التي يخسر فيها دائماً. وفي كل أسبوع تقام سهرة في صالون مختلف، تترأسها سيدة ترعى الحضور وتدير حديث الإشاعات والنميمة. وكان الرجال العازبون يذهبون من بيت إلى بيت حاملين هدية على الدوام، هي في أغلب الأحيان قالب حلوى ضخم من السكر والجوز، ثقيل كرأس بقرة. وقد كانت السهرات، حسب قول سانتشو، إجبارية في ذلك المجتمع المغلق. رقص، سهر، نزهات، ودائماً الوجوه نفسها دون أن يكون هناك ما يقال. كان فالموران يفضل المزرعة، ولكنه أدرك أن انزواءه وابتعاده عن الناس في لويزيانا قد يفسر على أنه بخل.

كان الصالون وقاعة الطعام في بيت المدينة في الطابق الأول، وغرف النوم في الطابق الثاني، والمطبخ ومأوى العبيد في الفناء الخلفي

منفصلينٍ عن البيت. وتطل النوافذ على حديقة صغيرة، ولكنها معتنى بها جيداً. وكانت قاعة الطعام هي أوسع الحجرات، كما في كل البيوت الكريولية، حيث تدور الحياة حول المائدة والتفاخر بكرمٍ الضيافة. فأي أسرة محترمة تملك أدوات مائدة لأربع وعشرين مدعواً على الأقل. ويكون لإحدى غرف الطابق الأول مدخل منفصل وتخصص للأبناء العازبين؛ يمكنهم الصخب فيها دون أن يغضبوا سيدات الأسرة. أما في المزارع فكانت هذه الحجرة التي يسمونها غارسونيه عبارة عن سرادق ثماني الأضلاع على مقربة من الطريق. وكان موريس لا يزال بحاجة لاثنتي عشرة سنة أخرى كي يطالب بمثل ذلك الامتياز. أما الآن فهو ينام وحيداً للمرة الأولى في حجرة بين غرفة أبيه وغرفة سانتشو.

لم تكن تيتي وروزيت تبيتان مع العبيد السبعة الآخرين - طاهية، وغسالة، وحوذي، وخياطة، وخادمتان وصبي لنقل الرسائل - بل كانتا تنامان معاً في العلّية، بين صناديق ملابس الأسرة. وكانت تيتي، كالعادة، هي التي تدير شؤون البيت. وكان هناك جرس مربوط بحبل يتصل بكل الغرف، يستخدمه فالموران لاستدعائها في الليل.

لقد أدرك سانتشو علاقة صهره بالعبدة فور رؤيته روزيت، وقد استبقِ المشكلة. «ما الذي ستفعله بتيتي عند زواجك؟»، توجه بالسؤال همساً إلى فالموران الذي لم يتحدث في الموضوع مع أحد، ولكنه أُخذ على حين غرة بالسؤال، فتلعثم بأنه لا يفكر في الزواج. فقال سانتشو: «إذا واصلنا العيش تحت السقف نفسه، فعلى أحدنا أن يتزوج، وإلا فإن الجميع سيظنون أننا مثليّان».

في فوضى الهرب مِن لوكاب في تلك الليلة المشؤومة، فقد فالموران طاهيه الذي ظل مختبئاً عند هروبه مع تيتي والطفلين، ولكنه لم يتحسر عليه، لأنه يحتاج في نيو أورلينز إلى خبير في الطهو الكريولي. وقد نبهه أصدقاؤه إلى أن الأمر ليس في شراء أول طاهٍ يُعرض عليه في **ماسبرو للمقايضة**، على الرغم من أنه أفضل سوق للعبيد في أميركا، أو في محلات شارع شارت، حيث يُلبسون العبيد ثياباً أنيقة لإبهار الزبائن،

دون توافر أي ضمانة في النوعية. وأن أفضل العبيد هم الذين يجري تداولهم بين الأقارب والأصدقاء. وبهذه الطريقة اقتنى سيلستين، وهي في حوالي الأربعين من عمرها، لها يدان سحريتان في الطبخ والحلويات، مدربة على يد أحد أفضل الطهاة الفرنسيين لدى المركيز ديمارينيه، وقد بيعت لأنه لم يعد هناك من يتحمل نوبات غضبها. حتى إنها ألقت بطبق بامية عند قدمي المركيز المتهور لأنه تجرأ على طلب مزيد من الملح. لم ترعب هذه الحكاية فالموران، لأن الصراع من الطاهية سيكون مهمة تيتي. كانت سليستين نحيلة، جافة وغيورة، لا تسمح لأحد بدخول المطبخ ومستودع مؤنه، وهي نفسها من تختار الأنبذة المشروبات، ولا تتقبل اقتراحات بشأن قائمة الطعام. أوضحت لها تيتي أنه عليها التقليل من التوابل لأن السيد يعاني آلاماً في معدته. فردّت عليها: «فليتحمل. أما إذا أراد حساء مرضى، فأعديه أنت له»، ولكن فالموران تعافى تماماً مذ فرضت سلطتها بين القدور. كانت سليستين تعبق برائحة قرفة، وتحضّر للطفلين في السر، كيلا ينتبه أحد إلى نقطة ضعفها، فطائر خفيفة كالتنهدات، وتورتة التفاح المغطس بالكريم، وفطائر اليوسفي بالكريما، ورغوة الشكولاته بالبسكويت والعسل ولذائذ أخرى تؤكد نظرية أن البشرية لن تتوقف أبداً عن استهلاك السكر. وكان موريس وروزيت هما الوحيدان اللذان لا يخافان الطاهية بين سكان البيت.

كانت حياة أي سيد كريولي تمضي بكسل، لأن العمل رذيلة في نظر البروتستانت عموماً والأمريكيين بصورة خاصة. فكان فالموران وسانتشو يجدان نفسيهما في وضع حرج لإخفاء الجهود التي يتطلبها إطلاق العمل في المزرعة، وهي مزرعة مهجورة منذ أكثر من عشر سنوات، بعد موت صاحبها السابق وإفلاس الورثة.

أول ما حققاه هو الحصول على عبيد، حوالي مئة وخمسين عبداً من أجل البدء، وهو عدد أقل بكثير مما كان عليه الحال في سان لازار. استقر فالموران في ركن من البيت المدمر، ريثما يشيدوا بيتاً آخر حسب

مخططات مهندس فرنسي. أما براكات العبيد المنخورة بالسوس والرطوبة، فهُدمت واستُبدلت بأكواخ خشبية ذات سقوف بارزة لمنح ظل والحماية من المطر، كل كوخ منها مؤلف من ثلاث غرف لإيواء أسرتين، وتصطف الأكواخ في أزقة متوازية ومتعامدة، مع ساحة مركزية صغيرة. وقام الصهران بزيارة مزارع أخرى في عطلات نهاية الأسبوع مستغلين تقاليد الضيافة. وقد توصل فالموران إلى أنه لا يمكن لعبيد لويزيانا التذمر إذا ما قورنوا بعبيد سان دومانغ، ولكن سانتشو عرف أن بعض السادة يُبقون عبيدهم شبه عراة، ويطعمونهم عصيدة تُسكب في مذود، مثل علف الحيوانات، ويأكل كل عبد حصته بأصداف محار، أو بقطع قرميد أو باليد، لأنهم لا يملكون ولو ملعقة.

احتاجوا لسنتين من أجل انجاز الأساسيات: زراعة القصب، بناء المعصرة، وتنظيم العمل. كانت لدى فالموران خطط كبرى، ولكن عليه أن يركز على الضروريات المباشرة، وسيكون لديه في ما بعد متسع من الوقت لتنظيم حديقته المتخيلة، والشرفات والعرائش، وجسر مبهرج على النهر وأشياء مبهجة صغيرة. كان يعيش مهووساً بالتفاصيل، يناقشها مع سانتشو، ويعلق عليها مع موريس.

ـ انظر يا بني، هذا كله سيكون لك ـ كان يقول له مشيراً إلى حقول القصب من فوق صهوة حصانه ـ. السكر لا ينزل من السماء، والحصول عليه يتطلب الكثير من الجهد والعمل.

ـ الزنوج هم من يقومون بالعمل ـ قال موريس.

ـ لا تنخدع. إنهم يقومون بالعمل اليدوي، لأنهم لا يعرفون عمل شيء آخر، ولكن السيد هو المسؤول الوحيد. نجاح المزرعة يعتمد عليّ، وعلى خالك سانتشو إلى حدّ ما. لا يمكن قطع قصبة واحدة دون معرفتي. انتبه جيداً، لأنه سيكون عليك ذات يوم اتخاذ القرارات وقيادة عبيدك.

ـ ولماذا لا يقودون أنفسهم بنفسهم يا بابا؟

ـ لا يستطيعون ذلك يا موريس. لا بد من إصدار الأوامر لهم، إنهم

عبيد يا بني.

ـ لا أحب أن أكون مثلهم.

ـ لن تكون مثلهم أبداً يا موريس ـ ابتسم الأب ـ أنت من آل فالموران.

لم يستطع، في حينه، أن يُري ابنه مزرعة سان لازار بالاعتزاز نفسه. وكان مصمماً على إصلاح أخطاء الماضي ونقاط الضعف والإهمال، وأن يُكفِّر سراً عن خطايا لاكروا الفظيعة، لاسيما وأنه استخدم رأس مال جاره ذاك في شراء هذه الأراضي. فمقابل كل رجل عذبة لاكروا وكل طفلة امتهنها سيكون هناك عبد معافى يلقى معاملة جيدة في مزرعة فالموران. وبهذا يبرر استيلاءه على أموال جاره التي لا يمكن أن يجد لها استثماراً أفضل.

لم يكن سانتشو يولي اهتماماً كبيراً لخطط صهره، لأنه لا يشعر بثقل الوزر نفسه في ضميره، ولا يفكر إلا في التسلية واللهو. فهو لا يهتم بما يتضمنه حساء العبيد أو بأي لون تطلى أكواخهم. لقد كان فالموران يسعى إلى تغيير حياته، أما صهره الإسباني فلا يرى في هذه المغامرة إلا واحدة أخرى من مغامراته الكثير التي يبدأ خوضها بحماسة ثم يهجرها دون أسف أو ندم. وبما أنه لن يخسر شيئاً لأن شريكه هو من يتحمل المجازفات، فقد كانت تخطر له أفكار جريئة تعطي في العادة نتائج مفاجئة، مثل مصفاة تنقية تتيح لهم بيع سكر أبيض وأعلى مردوداً بكثير من دبس القصب الذي يبيعه مزارعون آخرون.

اختار سانتشو رئيساً لفرق العمل، وهو شخص أيرلندي ساعده في شراء الأيدي العاملة يدعى أوين مورفي. وقد طرح منذ البدء وجوب أن يواظب العبيد على حضور القداديس. وقال إنه لا بد من بناء كنيسة صغيرة، واستدعاء كهنة رحالة من أجل تعزيز الديانة الكاثوليكية قبل أن يتدخل الأمريكيون للتبشير بهرطقتهم ويُحكم على هؤلاء الناس المساكين بالجحيم. وأعلن: «الأخلاق هي الأهم». وكان مورفي على اتفاق تام مع فكرة فالموران في عدم التعسف في استخدام السياط. ذلك

الرجل الذي له هيئة إنكشاري، والذي يغطي بدنه شعر أسود، وشعر رأس ولحية باللون نفسه، كان عذب الروح. استقر مع أسرته كبيرة العدد في خيمة، ريثما ينتهي من بناء مسكنه. كان طول قامة زوجته، لين، يصل إلى خصره، وتبدو مراهقة سيئة التغذية لها وجه ذبابة، ولكن تبين أن هشاشة بنيتها مخادعة. فقد أنجبت ستة أبناء ذكور وهي تنتظر السابع. تعرف أنه سيكون ذكراً، لأن الرب أراد اختبار صبرها. ولم تكن ترفع صوتها أبداً: بنظرة واحدة منها ينصاع الأبناء والزوج. ظن فالموران أنه سيكون لدى موريس من يلعب معهم أخيراً ولا يظل يتبع روزيت؛ فذلك القطيع من الأيرلنديين ينتمي إلى طبقة اجتماعية أدنى من طبقته، ولكنهم بيض وأحرار. ولم يتصور أن أبناء مورفي الستة بدورهم سوف يتبعون روزيت كالمخبولين، فالبنت التي أكمل الخامسة من عمرها تتمتع بشخصية قوية كان أبوها يتمناها لموريس.

لقد بدأ أوين مورفي العمل في قيادة العبيد مذ كان في السابعة عشرة من عمره، وهو يعرف عن ظهر قلب أخطاء ذلك العمل الكريه وإصاباته. «يجب معاملتهم كالأبناء: سلطه وعدالة، قواعد واضحة، عقوبة، مكافأة، وبعض وقت الفراغ؛ وإلا فإنهم سيمرضون»، قال لرب عمله وأضاف أن للعبيد الحق باللجوء إلى سيدهم إذا فرضت عليهم عقوبة تزيد على خمس عشرة جلدة بالسطو. «إنني أثق بك يا سيد مورفي، ولا حاجة لتدخلي»، أجابه فالموران غير المستعد لتولي دور القاضي. فأوضح له الأيرلندي: «إنني أفضل مشاركتك يا سيدي، من أجل طمأنينتي الخاصة. لأن التمتع بكثير من السلطة يدمر روح أي مسيحي، وروحي أنا بالذات ضعيفة».

تكاليف الأيدي العاملة في لويزيانا تعادل ثلث قيمة الأراضي، ولا بد بالتالي من العناية بها. ويبقى الإنتاج تحت رحمة كوارث طارئة: أعاصير، جفاف، فيضانات، أوبئة، فئران الحقول، تقلبات أسعار السكر، مشاكل في الآلات والبهائم، القروض من المصارف، وغيرها من المفاجآت غير المتوقعة. ولا داعي لإضافة سوء الصحة العبيد أو

ضعف معنوياتهم، قال مورفي موضحاً الأمور. لقد كان مختلفاً تماماً عن كامبري إلى حدّ جعل معه فالموران يتساءل إذا لم يكن قد أخطأ في اختياره، ولكنه تأكد من أنه يعمل دون راحة، وأنه يفرض هيبته بحضوره، دون قسوة. وكان مراقبو العمال، وهم مراقبون بدورهم عن قرب، يحذون حذوه، والنتيجة أن مرود العبيد صار أكبر مما كان عليه في نظام رعب بروسبير كامبري. لقد نظمهم مورفي في ورديات لمنحهم استراحة في أيام العمل المنهكة في الحقول. كان رب عمله السابق قد صرفه من الخدمة لأنه أمره بمعاقبة عبدة، وبينما هي تصرخ بأعلى صوتها لخلق انطباع بالألم، كان سوط مورفي يفرقع على الأرض دون أن يمسها. فقد كانت العبدة حبلى، وقد طرحوها على الأرض وبطنها فوق حفرة، مثلما يفعلون في هذه الحالات. «لقد عاهدت زوجتي على عدم جلد الأطفال أو النساء الحوامل»، كان هذا هو التفسير الذي قدمه الايرلندي عندما سأله فالموران عن سببٍ صرفه من عمله السابق.

منحوا العبيد يومي عطلة أسبوعياً كي يهتموا بزراعة جنائن خضرواتهم والعناية بحيواناتهم وإنجاز مهماتهم المنزلية، ولكنهم كانوا مجبرين في أيام الآحاد على حضور القداس الذي فرضه مورفي. ويمكن لهم عزف الموسيقى والرقص في أوقات فراغهم، كما يُسمح لهم بين حين وآخر ـ تحت مراقبة رئيس رؤساء فرق العمل ـ بحضور حفلات *البامبوسيس*، وهي حفلات متواضعةٍ يقيمها العبيد بمناسبة زفاف أو مأتم أو طقوس أخرى. لم يكن مسموحاً للعبيد في البدء أن يزوروا مزارع أخرى، ولكن قلة من الملاكين في لويزيانا كانوا يهتمون بتطبيق تلك القاعدة. كان الفطور في مزرعة فالموران يتألف من حساء مع اللحم أو شحم الخنزير ـ لا شيء من سمك سان لازار النتن المجفف ـ، ويتألف الغداء من عجة الذرة واللحم المملح أو الطازج وحلوى البودين، والعشاء حساء مغذ. وجرى تأهيل كوخ ليكون مستشفى، وتوصلوا إلى اتفاق مع طبيب يأتي مرة في الشهر بانتظام، وعندما يستدعونه لعلاج حالة مستعجلة. وكانوا يقدمون للنساء الحوامل مزيداً من الطعام

والراحة. لم يكن فالموران يعلم، لأنه لم يسأل عن ذلك قط، أن العبدات في سان لازار كن يضعن مواليدهن وهن مقرفصات في حقول القصب، وأن حالات الإجهاض كانت أكثر من الولادات، وأن معظم الأطفال كانوا يموتون قبل أن يكملوا شهرهم الثالث. أما في المزرعة الجديدة فكانت لين مورفي تقوم بدور القابلة وتسهر على رعاية الأطفال.

زاريتيه

بدت لي نيو أورلينز من السفينة أشبه بهلال متناقص يطفو في البحر، بيضاء ومشعة. وعندما رأيتها عرفت أنني لن أرجع إلى سان دومانغ. تنتابني أحياناً مثل هذه الهواجس المسبقة ولا أنساها، وهكذا أكون مهيأة لها عندما تحدث. لقد كانت حسرة فقدان غامبو أشبه بحربة في صدري. وجدنا دون سانتشو، شقيقِ دونيا إوخينيا، بانتظارنا في الميناء، وكان قد وصل قبلنا بأيام ووجد بيتاً سنعيش فيه. رائحة الشارع تعبق بالياسمين، وليس بالدخان والدم مثل لوكاب عندما أحرقها المتمردون الذين انسحبوا منها بعد ذلك ليواصلوا ثورتهم في أماكن أخرى. خلال الأسبوع الأول في نيو أورلينز قمت بالعمل وحدي، يساعدني أحياناً عبدٌ أعارتنا إياه أسرةٍ من معارف دون سانتشو، ولكن السيد وصهره اشتريا بعد ذلك خدماً. وجاءا بمعلم لموريس يدعى غاسبار سيفران، وهو لاجئ مثلنا من سان دومانغ، ولكنه فقير. كان اللاجئون يتوافدون بأعداد قليلة، يأتي الرجال في البدء للاستقرار بطريقة ما، ثم تأتي النساء والأبناء. وكان البعض يأتون بأسرهم الملونة وعبيدهم. وقد بلغت أعدادهم آنذاك آلافاً وكان أهالي لويزيانا يرفضونهم. لم يكن المعلم يوافق على العبودية، وأظن أنه أحد أولئك الداعين إلى إلغاء العبودية الذين يمقتهم مسيو فالموران. كان في السابعة والعشرين، يعيش في نُزل للزنوج، ويرتدي على الدوام البدلة نفسها، ويده ترتجف من الرعب الذي مرّ به في سان دومانغ. وفي بعض الأحيان، عندما يكون السيد غائباً، كنت أغسل قميصه وأنظف البقع عن سترته، ولكنني لم أستطع أن أنزع عن ثيابه رائحة الذعر. كنت أقدم إليه أطعمة كذلك، وأفعل ذلك بطريقة مواربة كيلا أجرح مشاعره. فيتلقاها كما لو أنه يقدم لي جميلاً، ولكنه كان ممتناً ويعبر عن

ذلك بالسماح لروزيت بحضور دروسه. توسلت إلى السيد أن يسمح لها بالدراسة، ووافق أخيراً، بالرغم من أن تعليم العبيد محظور، لأن لديه خططاً من أجلها: يريد لها أن تعنى به في شيخوخته وتساعده عندما لا يعود نظره يساعده على القراءة. هل نسي أنه قد منحنا الحرية؟ لم تكن روزيت تعرف أن السيد هو أبوها، ولكنها كانت تحبه، وأظن أنه هو أيضاً يحبها على طريقته، لأنه ليس هناك من هو قادر على مقاومة سحر ابنتي. منذ صباها كانت روزيت مغوية. تحب الإعجاب بنفسها في المرآة، وهي عادة خطرة.

في تلك الفترة كان هناك الكثير من الناس الملونين الأحرار في نيو أورلينز، لأن الحصول على الحرية أو شرائها لم يكن صعباً تحت الحكم الإسباني؛ ولم يكن الأمريكيون قد فرضوا علينا قوانينهم بعد. كنت أقضي معظم الوقت في المدينة للاهتمام بالبيت وبموريس الذي عليه أن يدرس، بينما يظل السيد في المزرعة. لم أكن أضيع حفلات البامبوسيس أيام الآحاد في ساحة الكونغو، وكذلك حفلات الرقص، طبول ورقص، على بعد خطوات من المنطقة التي نعيش فيها. كانت البامبوسيس مثل حفلات الكاليندا في سان دومانغ، ولكن دون طقوس **اللوات**، لأن الجميع في لويزيانا كانوا كاثوليكيين آنذاك. أما الآن فكثيرون صاروا معمدانيين، لأنهم يستطيعون الغناء والرقص في كنائسهم، وبهذا تصبح عبادة يسوع ممتعة. أما طقوس البودو فمستجدة، جلبها عبيد سان دومانغ واختلطت كثيراً بمعتقدات المسيحيين حتى صرت أجد صعوبة في التعرف إليها. كنا نرقص في ساحة الكونغو منذ منتصف النهار حتى الليل، وكان البيض يروننا مستنكرين، لأننا نحرك مؤخراتنا كالزوابع الدوامة لاستثارة سوء ظنونهم، ونحتك بعضنا ببعض كالعاشقين لنستثير حسدهم.

في الصباح، بعد تلقي الماء والحطب اللذين توزعهما عربة من بيت إلى بيت، كنت أخرج للشراء. لم يكن قد مضى أكثر من سنتين على وجود السوق الفرنسي، ولكنه صار يشغل عدة شوارع، وتحول إلى

المكان المفضل للحياة الاجتماعية، بعد رصيف الحاجز البحري. ومازال على تلك الحال. فحتى الآن يباع فيه كل شيء، ابتداء من المأكولات وحتى المجوهرات، ويتوزع فيه عرافون وسحرة وأطباء أعشاب. ولا يُعدم وجود المشعوذين الدجالين الذين يعالجون بماء ملون وشراب الفُشاغ للعقم، وآلام المخاض، وداء المفاصل، وتقيؤ الدم، وإنهاك القلب، وكسور العظام، ولكل نكبات الجسد البشري الأخرى. أنا لا أثق بذلك الشراب. ولو أنه يتمتع بكل تلك القدرات الإعجازية، لكانت تانت روز قد استخدمته، ولكنها لم تُبد إي اهتمام قط بشجيرة الفُشاغ، بالرغم من وجودها في محيط مزرعة سان لازار.

أقمتُ في السوق صداقات مع عبدات أخريات، وهكذا تعلمتُ عادات لويزيانا. فكما في سان دومانغ، كان هناك أشخاص كثيرون من الخلاسيين الأحرار المتعلمين، يعيشون من مهنهم الحرفية، وبعضهم يملكون مزارع. ويقال إنهم يكونون عادة أكثر قسوة من البيض مع عبيدهم، لقد أخبروني بذلك، ولكن لم يقدر لي أن أراه. وتُرى في السوق سيدات بيض وملونات مع خدمهم المنزليين المحملين بالسلال، بينما هن لا يحملن شيئاً في أيديهم باستثناء القفازات وجراب مطرزٍ بالخرز يضعن فيه النقود. أما الخلاسيات فيلبسن بتواضع، عملا بالقانون، كيلا يستثرن حفيظة النساء البيض؛ ولكنهن يحتفظن بثيابهن الحريرية ومجوهراتهن لليل. ويستخدم السادة ربطات عنق بثلاث لفات، وبناطيل طويلة، وجزمات عالية، وقفازات فروسية، وقبعات من فراء الأرانب. وعلى حد قول دون سانتشو، فإن خلاسيات نيو أورلينز هن أجمل نساء العالم. وكان يقول لي: «أنتِ يمكنك أن تصيري مثلهن يا تيتي. لاحظي كيف يمشين بخفة، المؤخرات رجراجة، والرؤوس منتصبة، والأرداف مرتفعة، والصدور متحدية. إنهن أشبه بأفراس أصيلة. لا يمكن لأي امرأة بيضاء أن تمشي مثلهن».

أنا لن أستطيع أن أكون مثل أولئك النساء، أما روزيت فيمكنها ذلك. ما الذي سيؤول إليه حال ابنتي؟ هذا السؤال نفسه سألني إياه

السيد عندما عدت للتحدث إليه عن حريتي. «أتريدين لابنتك أن تعيش في البؤس؟ لا يمكن عتق عبدة قبلٍ أن تبلغ الثلاثين من العمر. مازالت أمامك ست سنوات، فتوقفي إذا عن إزعاجي بهذا الشأن.» ست سنوات! لم أكن أعرِف ذلك القانون. إنها أبدية بالنسبة إلي، ولكنها ستمنح روزيت مزيدا من الوقت لتكبر في كنف أبيها.

الأفراح

في العام ١٧٩٥ جرى افتتاح مزرعة فالموران بحفلة ريفية استمرت ثلاثة أيام، وبكل بذخ وتبذير، مثلما أرادها سانتشو ومثلما هي العادة في لويزيانا. كان البيت المستوحى من الطراز الإغريقي مؤلفاً من طابقين، تحيط به أعمدة،مع مصطبة في الطابق الأرضي وشرفة مسقوفة في الطابق العلوي، تحيط بالبيت من الجهات الأربع، الغرف مضيئة وأرضيتها من خشب المهاجوني. وكان البيت مطلياً بألوان الباستيل، مثلما يفضل الكريوليين الفرنسيين والكاثوليك، خلافاً لبيوت الأمريكيين البروتستانت المطلية بالأبيض دوماً. وقد بدا البيت، حسب قول سانتشو، نسخة مجملة عن الأكروبول، ولكن الرأي العام صنفه على أنه أحد أجمل البيوت في الميسيسيبي. كانت لا تزال تنقصه بعض الزينات، ولكنه لم يكن عارياً تاماً، لأنهم ملؤوه بأزهار وأشعلوا الكثير من الأنوار، بدت معها ليالي الاحتفال الثلاث مضيئة كما في النهار. حضرت الأسرة كلها بمن في ذلك المعلم غاسبار سيفران الذي جاء بسترة جديدة، أهداه إياها سانتشو، وبمزاج أقل إثارة للشفقة، لأنه صار يأكل في الريف ويتلقى أشعة الشمس. وفي فصول الصيف، عندما بدؤوا يأخذونه إلى المزرعة كي يواصل موريس دروسه، صار يرسل أجره كاملاً إلى إخوته في سان دومانغ. وقد استأجر فالموران عبّارتين باثني عشر مُجَذِّفاً في كل منهما، ومزينتين بمظلات ملونة، من أجل نقل مدعويه الذين حضروا ومعهم صناديق ملابسهم وعبيدهم الشخصيين، وحتى مصففي شعورهم الخاصين. وتعاقد مع فرقة موسيقية من عازفين خلاسيين أحرار كيلا تغيب الموسيقى عن الحفلة، وحصل على كميات من الأطباق الخزفية وأدوات المائدة الفضية تكفي لكتيبة. وكانت الدعوة تتضمن نزهات،

وجولات على الخيول، ورحلات صيد، وألعاب صالونات، وحفلات رقص، وكان سانتشو الذي لا يعرف الكلل هو روح اللهو والمرح وأكثر تكريماً بكثير للضيوف من فالموران، وقادر على الشعور بأنه على ما يرام سواء أكان في حفلة عربدة مع خارجين على القانون في منطقة المستنقع أو في حفلات الإتيكيت. كانت النساء يمضين النهار في الراحة، يخرجن إلى الهواء الطلق بعد القيلولة بخمارات سميكة وقفازات، ويلبسن في الليل أفضل ملابسهن الاحتفالية. وعلى ضوء المصابيح الخافت، يبدون جميعهن حسناوات طبيعيات بعيون قاتمة، وشعور لامعة، وبشرة صدفية، لا شيء من الوجوه الملطخة بأصباغ التجميل، ولا من الشامات المستعارة كما في فرنسا، ولكنهن في حميمية صالون السيدات يُسوّدن حواجبهن بقطع من الفحم، ويدعكن خدودهن ببتلات ورود حمراء، ويطلين شفاههن بأحمر الشفاه، ويخفين الشيب في شعورهن، إن وجد، بتفل القهوة، وكان نصف الشعر المجعد الذي يحملنه على رؤوسهن ينتمي في الأصل لرؤوس أخرى. يلبسن ألواناً فاتحة وأقمشة خفيفة؛ أما الملابس السوداء فلا تلبسها حتى الأرامل، لأنه لون كئيب لا يجمل ولا يواسي.

وفي حفلات الرقص الليلية، تنافست النسوة في الأناقة، وكان يتبع بعضهن صبية زنوج لرفع أذيال أثوابهن. قدم موريس وروزيت، وهما في الثامنة والخامسة من العمر، عرضاً لرقصة الفالس، بطريقتيها البولونية والفرنسية، وقد برر العرض ضربات عصا المعلم واستثار هتافات إعجاب الحاضرين. وسمعت تيتي تعليقان عن أن الطفلة لا بد أن تكون إسبانية، وأنها ابنة الصهر، ما هو اسمه؟ سانتشو أو شيء من هذا القبيل. كانت روزيت ترتدي ثوباً من الحرير الأبيض، وحذاء أسود، وتربط شريطة وردية في شعرها الطويل، وترقص بثقة بالنفس، بينما موريس يتعثر خجلاً في بدلته الرسمية وهو يعدّ الخطوات: خطوتان إلى اليسار، خطوة إلى اليمين، انحناء ونصف التفافة، خطوة إلى الوراء، خطوة إلى الأمام، انحناءة احترام. تكرار. وكانت الطفلة

تقوده مستعدة لأن تداري عثرات رفيقها في الرقص بحركة دوران سريعة ملهمة. فقد كانت تنبهه أثناء التدريب: «عندما أصير كبيرة، سأذهب للرقص كل ليلة يا موريس. فإذا كنت ترغب في الزواج مني، عليك أن تتعلم الرقص».

كان فالموران قد حصل على قهرمان لبيت المزرعة، بينما ظلت تيتي تمارس المهمة نفسها بصورة لا تشوبها شائبة في بيت نيو أورلينز، بفضل الدروس التي تلقتها من زاشاري الرائع في لوكاب. وكان كل منهما يحترم حدود السلطة المشتركة، وتوجب عليهما التعاون في الحفلة كي تسير الأمور بسلاسة. خصصا ثلاث عبدات من أجل جلب الماء وإخراج المباول فقط، وصبي لتنظيف فضلات كلبي أورتينس غيزو اللذين مرضا. وتعاقد فالموران من طاهيين من الخلاسيين الأحرار، وخصص عدة مساعدين لطاهية البيت سليستين. وكادوا جميعهم معاً أن يعجزوا عن تحضير كل الأسماك وثمار البحر، والدواجن وطيور الصيد، والمأكولات الكريولية والحلويات. ذبحوا عجلاً، وأشرف أوين مورفي على عملية الشواء. وأرى فالموران ضيوفه مصنع السكر وورشة تقطير الروم والإسطبلات، ولكن ما عرضه عليهم باعتزاز كبير هو أمكنة إقامة العبيد. وكان مورفي قد منحهم ثلاثة أيام عطلة، وملابس وحلوى، ثم جمعهم لينشدوا أغنيات تكريم لمريم العذراء. تأثرت بعض السيدات حتى البكاء بحماسة الزنوج الدينية. وهنأ المدعوون فالموران، وإن يكن أكثر من واحد منهم قد علق من وراء ظهره بأن كل تلك المثالية ستودي به إلى الإفلاس.

لم تميز تيتي في البدء أورتينس غيزو بين السيدات الأخريات إلا بسبب كلبيها كثيري التبرز؛ وقد خانتها غريزتها ولم تتكهن بالدور الذي سيكون لهذه المرأة في حياتها. كانت أورتينس قد بلغت الثامنة والعشرين من العمر وهي لا تزال عزباء، ليس لأنها قبيحة أو فقيرة، وإنما لأن خطيبها وهي في العشرين سقط عن الحصان ودق عنقه وهو يقوم بحركات بهلوانية لإبهارها. لقد كانت خطوبة نادرة قوامها الحب

وليس المصلحة مثلما هو شائع بين **الكريوليين** ذوي الأصول العريقة. وقد قامت خادمتها الخاصة دينس بإخبار تيتي بأن أورتينس هي أول من هرعت إليه ورأته ميتاً. وأضافت: «لم تتمكن حتى من وداعه». وعند انتهاء فترة الحداد الرسمي، بدأ أبو أورتينس البحث لها عن خطيب آخر. كان اسم الفتاة قد صار على كل لسان بسبب موت خطيبها المبكر، ولكنها كانت تتمتع بماض لا تشوبه شائبة. فهي طويلة القامة، شقراء، متوردة وممتلئة مثل الكثير من نساء لويزيانا اللاتي يأكلن بشهية ويتحركن قليلاً. وكان صدارها يرفع نهديها كثمرتي شمام في تقويرة فستانها، لمتعة النظرات الذكورية. وقد أمضت أورتينس تلك الأيام وهي تبدل ملابسها كل ساعتين أو ثلاث ساعات، وبدت سعيدة، لأن ذكرى خطيبها الميت لم تلحق بها إلى الحفلة. لقد استحوذت على البيانو، وغنت بصوت سوبرانو، ورقصت بحيوية حتى الفجر، مستنفدة قوى جميع مراقصيها باستثناء سانتشو الذي لم تكن قد ولدت بعد المرأة القادرة على إنهاكه، كما يقول هو نفسه، ولكنه أقر بأن أورتينس منافسة مهيبة.

وفي اليوم الثالث، بعد أن غادرت المراكب بحمولتها من المدعوين والموسيقيين والخدم المنهوكين ترافقهم كلاب السيدات المدللة، وبينما العبيد يجمعون القمامة المتناثرة، جاء أوين مورفي مفزعاً يحمل خبر أن عصابة من العبيد الآبقين آتية عبر النهر تقتل البيض وتحرض الزنوج على التمرد. كان معروفاً أن هناك عبيداً هاربين يحظون بحماية قبائل هنود أمريكيين، ولكن عبيداً آخرين كانوا يعيشون في المستنقعات متحولين إلى كائنات من وحل وماء وطحالب، لديهم مناعة ضد البعوض وسمّ الأفاعي، غير مرئيين لعيون مطارديهم، ومسلحين بسكاكين ومناجل ماتشيتي صدئة، وبأحجار مشذبة، بهم مس من جنون الجوع والحرية. وعُرف في البدء أن عدد المهاجمين حوالي ثلاثين شخصاً، ولكن الحديث، بعد ساعتين من ذلك، بدأ يدور عن مئة وخمسين شخصاً.

ـ هل سيأتون إلى هنا يا مورفي؟ وهل تظن أنه يمكن لزنوجنا أن يتمردوا؟ ـ سأله فالموران.
ـ لا أدري يا سيدي. إنهم قريبون من هنا ويمكن لهم أن يهاجمونا. أما بشأن زنوجنا، فلا أحد يمكنه التنبؤ بما ستكون عليه ردّة فعلهم.
ـ كيف لا يمكن التنبؤ؟ إنهم يتلقون هنا كل أنواع الرعاية والاهتمام، ولن يكونوا أفضل حالاً في أي مكان آخر. اذهب وتحدث إليهم! ـ هتف فالموران وهو يمشي في محيط الصالون.
ـ لا يمكن ترتيب هذا الأمر بالتحدث إليهم أيها السيد ـ أوضح له مورفي.
ـ هذا الكابوس يلاحقني! لا جدوى من معاملتهم معاملة جيدة! فهؤلاء الزنوج جميعاً لا سبيل إلى تقويمهم!
ـ اهدأ يا صهري ـ قاطعه سانتشو ـ. لم يحدث أي شيء بعد. إننا في لويزيانا وليس في سان دومانغ، حيث كان هناك نصف مليون زنجي وحفنة صغيرة من البيض المتفرقين.
ـ يجب عليّ إنقاذ موريس. جهز لي مركباً يا مورفي، سوف أذهب إلى المدينة فوراً ـ أمره فالموران.
ـ هذا ما لا يمكن السماح به! ـ صرخ سانتشو ـ. لن يتحرك أحد من هنا. لن نخرج هاربين مثل الفئران. أضف إلى ذلك أن النهر غير آمن، لأن لدى الثائرين زوارق. أيها السيد مورفي، سوف ندافع عن الملكية. أحضر لي كل الأسلحة النارية المتوافرة لدينا.
صفوا الأسلحة متجاورة فوق منضدة غرفة الطعام، وتولى حشوها ابنا مورفي الكبيران، أحدهما في الثالثة عشرة والآخر في الحادية عشرة، ثم وزعاها على الرجال البيض الأربعة، بمن فيهم غاسبار سيفران الذي لم يضغط على زناد في حياته ولا يمكنه تصويب السلاح بيديه المرتجفتين. وتولى مورفي أمر العبيد، فحبس الرجال في الإسطبلات، وجاء بالأطفال إلى بيت السيد؛ أما النساء فلن يتحركن من أكواخهن دون ابنائهن. وتكفل القهرمان وتيتي أمر الخدم المنزليين الذين أثار الخبر

اضطرابهم. كان جميع عبيد لويزيانا قد سمعوا البيض يتحدثون عن خطر ثورة، ولكنهم كانوا يظنون أن ذلك لا يحدث إلا في أمكنة غريبة ولا يمكنهم تصوره. كلفت تيتي امرأتين للعناية بالأطفال، ثم ساعدت القهرمان في إحكام الأبواب والنوافذ. وكان ردّ فعل سليستين أفضل مما هو متوقع من طبعها. كانت قد عملت كثلاثة أشخاص خلال الحفلة، بتذمر وسخط، منافسة الطاهيين المجلوبين من خارج البيت، وهما ضعيفان ووقحان يتلقيان أجراً مقابل ما يمكنها القيام به مجاناً، كما كانت تدمدم. وقد كانت تنقع قدميها عندما جاءت تيتي لتخبرها بما يجري. «لن يجوع أحد هنا»، أعلنت باقتضاب وبدأت العمل مع مساعدتيها من أجل إطعام الجميع.

انتظروا طيلة ذلك اليوم، وكان فالموران وسانتشو وغاسبار سيفران المذعور يحملون الأسلحة في أيديهم، بينما يتولى مورفي الحراسة قبالة الإسطبلات ويراقب أبناؤه النهر ليطلقوا صوت الإنذار عند الضرورة. هدأت لين مورفي من ورع النساء بالوعد بأن أطفالهن سيكونون بأمان في بيت السيد، حيث توزع عليهم فناجين من الشكولاتة. وفي الساعة العاشرة ليلا، عندما لم يعد بمقدور أحدٍ البقاء واقفاً من التعب، جاء براندانٍ، أكبر أبناء مورفي، ممتطياً حصاناً وحاملاً مشعلاً في يده ومعلقاً مسدساً على خصره، وأعلن أن جماعة من جنود الدوريات الجوالة يقتربون. وبعد عشر دقائق من ذلك كان أولئك الرجال يترجلون أمام البيت. وفالموران الذي كان قد استعاد في تلك الأثناء ذكرى الأهوال التي عاشها في سان لازار ولوكاب، استقبلهم بمشاعر راحة جعلت سانتشو يشعر بالخجل منه. تلقى تقرير رجال الدورية، وأمر بفتح أفضل زجاجات الخمر لديه من أجل الاحتفال. فقد انتهت الأزمة: جرى اعتقال تسعة عشر زنجياً متمرداً، قُتل منهم أحد عشر، وسيُشنق الآخرون عند الفجر. أما البقية فتفرقوا وربما يكونون في طريقهم إلى مخابئهم في المستنقعات.

أحد رجال الدورية، وهو فتى أحمر الشعر، في الثامنة عشرة من

عمره، استثارته ليلة المغامرة والخمر، أكد لغاسبار سيفران أن المشنوقين، لطول ما عاشوا في وحل المستنقعات، كانت لهم قوائم ضفادع، وخياشيم سمك، وأسنان تماسيح. وكان عدد من أصحاب مزارع المنطقة قد انضموا بحماسة إلى رجال الدورية في المطاردة، وهي رياضة قلما تتاح لهم فرصة ممارستها على مستوى واسع. وقد أقسموا على سحق أولئك الزنوج المتمردين عن بكرة أبيهم. أما خسائر البيض فكانت ضئيلة جداً: قتل أحد رؤساء فرق العمال، وجرح صاحب مزرعة وثلاثة جنود، وكسرت قائمة أحد الأحصنة. وقد جرى إخماد التمرد بسرعة لأن أحد العبيد المنزليين أطلق صوت الإنذار. «غداً، عندما يُعلق المتمردون على المشانق، سيُمنح ذلك الرجل حريته»، فكرت تيتي.

النبيل الإسباني

كان سانتشو غارثيا دل سولار يذهب ويجيء ما بين المزرعة والمدينة، ويقضي في المركب أو على متن الحصان وقتاً أطول مما يقضيه في المكانين. لم تكن تيتي تعلم متى يمكن له أن يظهر في بيت المدينة، في النهار أو الليل، حصانه منهوك، بينما هو على الدوام باسم وصاخب ونهم. في فجر يوم اثنين تبارز مع إسباني آخر، موظف حكومي، في حدائق سان أنطوان، وهو المكان المعهود الذي يقتل فيه السادة بعضهم بعضاً أو يصابون بجروح على الأقل، بالطريقة الوحيدة لغسل الشرف. لقد كان المكان المفضل لتسجية الوقت، حيث توفر الحدائق بأشجارها الوارفة العزلة المنشودة. لم يُعرف خبر المبارزة في البيت حتى موعد تناول الفطور، حين جاء سانتشو وقميصه ملطخ بالدم ليطلب فنجان قهوة وكأس كونياك. «لماذا تبارزتما؟»، سألته تيتي وهي تنظف مكان الطعنة القريبة جداً من القلب، والتي لو أوغلت أعمق قليلاً لكان عليها أن تتولى الآن تجهيزه للقبر بدل تنظيف جرحه. «لأنه نظر إليّ مواربة»، كان هذا هو تفسيره. وكان سعيداً لأن خصمه لم يمت، ولم يُلقِ بالتالي وزر مِيتة على كاهله. وقد تحرت تيتي في ما بعد وعرفت أن آدي سوبير هي السبب في المبارزة، وأنها فتاة خلاسية ذات تكورات مهيجة يخطب الرجلان ودها.

اعتاد سانتشو على إيقاظ الطفلين في منتصف الليل ليعلمهما خدعاً بورق اللعب، وإذا ما عارضته تيتي حملها من خصرها ودار بها دورتين في الهواء، ثم يوضح لها أنه من غير الممكن العيش في هذا العالم دون غش وتحايل، وأنه من الأفضل تعلم ذلك في أبكر وقت ممكن. وفجأة يخطر له أن يأكل خنوصاً مشوياً في السادسة صباحاً، فيكون عليه أن يذهب طيراناً عندئذ إلى السوق لإحضار الحيوان، أو

يقول إنه ذاهب إلى الخياط، فيختفي ليومين ويرجع مخموراً بالكحول، يرافقه عدد من ندمائه الذين استضافهم. يلبس بتأنق، ولكن ببساطة واتزان، ويتفحص كل تفصيل في مظهره في المرآة. وقد درب العبد المكلف بإيصال الرسائل، وهو صبي في الرابعة عشرة، على تصميغ شاربه وحف خديه بموسى إسبانية ذات مقبض ذهبي تداولها آل دل سولار طوال ثلاثة أجيال. «هل ستتزوجني عندما أكبر أيها العم سانتشو؟»، كانت روزيت تسأله. «غداً بالذات إن كنت ترغبين في ذلك أيتها الفاتنة»، ويطبع على خديها قبلتين مدويتين. كان يعامل تيتي كما لو أنها قريبة له جار عليها الزمان، بمزيج من الألفة والاحترام، مع بعض المزاح. وفي بعض الأحيان، عندما يشعر أنها بلغت أقصى حدود الصبر، يأتيها بهدية يقدمها إليها مع عبارة غزل وقبلة على يديها، تتلقاها بخجل. فيتوعد روزيت مازحا: «اكبري بسرعة يا روزيت، وإلا سأتزوج من أمك».

في الصباح، كان سانتشو يتردد على مقهى المهاجرين، حيث يلعب الدومينو مع آخرين. وكانت تبجحاته الساخرة كنبيل وتفاؤله الثابت تتناقض مع طبع المهاجرين الفرنسيين الذين أدى المنفى إلى تضاؤلهم وإفقارهم، فكانوا يقضون حياتهم في التحسر على خسارة ممتلكاتهم الحقيقية أو المبالغ بها، وفي المجادلات السياسية. وكانت أسوأ الأخبار تأتي من سان دومانغ التي لا تزال غارقة في العنف، فقد اقتحم الإنكليز عدة مدن على الساحل، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال وسط البلاد، وضعفت بالتالي إمكانية استقلال المستعمرة. فتوسان، كيف هو اسم ذلك اللعين؟ لوفيرتور؟ يا للاسم الذي اخترعه لنفسه! لا بأس، توسان ذاك الذي كان مع الإسبان، بدّل الراية وهو يقاتل الآن إلى جانب الفرنسيين الجمهوريين الذين كانوا سيضيعون لولا مساعدته. وقبل أن يبدل موقفه، أباد توسان القوات الإسبانية التي تحت قيادته. فاحكموا بأنفسكم إن كان بالإمكان الثقة بهذا الحثالة! لقد رفّعه الجنرال لافاو إلى رتبة جنرال وقائد للشريط الساحلي الغربي، وها هو ذلك القرد يتجول

الآن بقبعة من الريش، في مشهد يُميت من الضحك. يا للدرك الذي وصلنا إليه يا مواطنينا! فرنسا حليفة للزنوج! يا للمذلة التاريخية!، هذا ما كان يصرخ به اللاجئون بين دور دومينو وآخر.

غير أنه كانت هناك بعض الأخبار المتفائلة للمهاجرين أيضاً، منها أن نفوذ المستوطنين المؤيدين للملكية في فرنسا آخذ بالتزايد ولم يعد الجهور راغباً في سماع أي كلمة أخرى عن حقوق الزنوج. فإذا ما حصل المستوطنون على الأصوات الضرورية في الانتخابات، فسوف تضطر الجمعية الوطنية إلى إرسال ما يكفي من القوات إلى سان دومانغ والقضاء على الثورة. إن للجزيرة حجم ذبابة على الخريطة، يقولون، ولا يمكن لها بأي حال مواجهة جبروت الجيش الفرنسي. وبعد الانتصار، يمكن للاجئين أن يعودوا وأن يعود كل شيء إلى ما كان عليه من قبل. وعندئذ لن تكون هناك رحمة بالزنوج، سيقتلونهم جميعاً ويجيئون بلحم طازج من أفريقيا.

وبدورها كانت تيتي تعلم بالأخبار من حلقات الثرثرة والنميمة في السوق الفرنسي. حيث يقال إن توسان ساحر ومنجم، يمكنه أن يطلق لعنة من بعيد وأن يُميت بفكره. توسان يكسب معركة بعد أخرى ولا يمكن للرصاص أن يخترقه. توسان يتمتع بحماية يسوع الذي كان شديد القوة. ولأن تيتي لم تكن تجرؤ على طرح الموضوع مع فالموران، فقد سألت سانتشو عما إذا كانوا سيرجعون ذات يوم إلى سان لازار، فأجابها بأنه لا بد أن يكون مجنوناً من يفكر في إدخال نفسه في تلك المجزرة. وقد أكد ذلك هواجسها بأنها لن تعود لرؤية غامبو، وإن كانت قد سمعت سيدها يضع خططاً لاستعادة ممتلكاته في المستعمرة.

كان فالموران يركز اهتمامه على المزرعة التي انبعثت من الخراب السابق، حيث كان يقضي فيها شطراً لا بأس به من العام. وفي فصل الشتاء ينتقل دون رغبة منه إلى بيت المدينة، لأن سانتشو يلح على أهمية العلاقات الاجتماعية. أما تيتي والطفلين فكانوا يعيشون في نيو أورلينز ولا يذهبون إلى المزرعة إلا في شهور الحر وفترات انتشار

الأوبئة، عندما تهرب سائر الأسر الغنية من المدينة. كان سانتشو يقوم بزيارات متعجلة إلى الريف، لأنه ظل يحتفظ بفكرة زراعة القطن. لم يكن قد رأى القطن في حالته الخام، وإنما في قمصانه الداخلية المنشاة فقط، وكانت لديه رؤية شاعرية للمشروع لا تتضمن الجهد الشخصي. تعاقد مع أمريكي مختص بالزراعة، وقبل أن يزرع شتلة واحدة في الأرض، كان يطرح شراء آلة جني القطن المخترعة حديثا، والتي ستُحدث، حسب اعتقاده، ثورة في السوق. اقترح الأمريكي ومورفي تناوب الزراعات؛ فعندما تتعب الأرض من زراعة القصب، يُزرع القطن، والعكس بالعكس.

العاطفة الوحيدة الثابتة في قلب سانتشو غارثيا دل سولار كثير النزوات هي التي يكنها لابن أخته. لقد كان موريس، عند ولادته، ضئيلاً وهشا، ولكن تكشف في ما بعد أن صحته أفضل مما تنبأ به الدكتور بارمونتيه، والحمى الوحيدة التي تعرض لها هي حمى الأعصاب. وما يفيض لديه في الصحة كان ينقصه في الصلابة. لقد كان منكباً على الدراسة، وحساساً، وبكّاء، يفضل البقاء مستغرقاً في تأمل جحر نمل في الحديقة أو قراءة قصص لروزيت على المشاركة في ألعاب أبناء مورفي الخشنة. وكان سانتشو الذي تختلف طباعه تماماً عن طباع ابن أخته يدافع عنه في مواجهة انتقادات فالموران. وكيلا يخذل أباه، كان موريس يستحم في مياه جليدية، ويمتطي أحصنة غير مروضة، وكان يتجسس على العبدات وهن يستحممن، ويتصارع وسط الغبار مع أبناء مورفي إلى أن ينزف من أنفه، ولكنه لم يكن قادرا على قتل أرانب برية بأعيرة نارية أو انتزاع أحشاء ضفدع حيّ ليرى كيف هو من الداخل. ولم يكن فيه شيء من التبجح أو الاستهتار أو الشغب، مثلما هي حال أطفال آخرين يترعرعون في أجواء التساهل نفسها. كان فالموران قلقاً لأن ابنه صموت ولين القلب، ومستعد على الدوام لحماية أشد الضعفاء؛ وكان ذلك يبدو له إشارات ضعف في الشخصية.

كانت العبودية تصدم موريس، ولم تستطع أي حجة أن تدفعه إلى

تغيير رأيه. فكان أبوه يتساءل: «من أين يخرج بهذه الأفكار وقد عاش على الدوام محاطاً بالعبيد؟». لقد كان الصبي يتمتع بميل عميق وثابت إلى العدالة، ولكنه تعلم منذ الصغر عدم توجيه الكثير من الأسئلة حول المسألة، لأن الموضوع يقابل باستياء ولا تشفي الإجابات غليله. «هذا ليس عدلاً!»، كان يكرر حيال أي شكل من أشكال التعسف. «ومن قال لك إن الحياة عادلة يا موريس؟»، يرد عليه خاله سانتشو. وهي الكلمات نفسها التي تقولها له تيتي. وكان أبوه يوجّه إليه خُطباً معقدة حول التصنيفات التي فرضتها الطبيعة، والتي تفرق بين الكائنات البشرية، والضرورية من أجل توازن المجتمع، وأنه سوف يدرك في ما بعد أن القيادة مسألة شاقة جداً، وأن الانصياع والطاعة أسهل بكثير.

لم يكن لدى الطفل ما يكفي من النضوج والمفردات لدحض تلك الآراء. وكان لديه إحساس غامض بأن روزيت ليست حرة مثله، وإن تكن الفروق بينهما غير ملموسة عملياً. ولم يكن يربط بين الطفلة، أو تيتي، وبين العبيد المنزليين الآخرين، وأقل من ذلك عبيد الحقول. ولكثرة ما فركوا فمه بالصابون توقف عن مناداتها بأخته، ولكنه لم يفعل ذلك بسبب كثرة العقوبات التي تلقاها وإنما لأنه كان متعلقاً بحبها. كان يشعر نحوها بذلك الحب الرهيب والاستحواذي المتسلط الذي يشعر به الأطفال المتوحدون، وكانت روزيت تقابله بعاطفة لا غيرة فيها ولا ضيق. ما كان بمقدور موريس أن يتخيل وجوده من دونها، دون ثرثرتها المتواصلة، دون فضولها، دون مداعباتها الطفلية والإعجاب الأعمى الذي تنظر به إليه. فإلى جانب روزيت يشعر أنه قوي وحامٍ وحكيم، لأنها هي أيضاً تراه هكذا. وكان أي شيء يستثير غيرته. فهو يعاني إذا ما أبدت الطفلة اهتماماً، ولو للحظة واحدة، بأحد أبناء مورفي، وإذا ما اتخذت مبادرة دون أن تستشيره، وإذا ما أخفت عنه سرا. فهو بحاجة إلى أن يشاطرها أدنى أفكارها ومخاوفها ورغباتها، وأن يسيطر عليها، وأن يخدمها في الوقت نفسه بنكران

كامل للذات. فارق السنوات الثلاث بين عمريهما لم يكن ملحوظاً، بل كانت تبدو أنها الأكبر وهو الأصغر؛ فهي طويلة القامة، قوية، ماكرة، متوقدة الذهن، جريئة، بينما هو ضئيل، ساذج، تأملي، خجولٍ. تبدو هي كما لو أنها تسعى إلى ابتلاع الدنيا، بينما يعيش هو مثقلاً بالواقع. كان يتحسر مسبقاً للنكبات المستقبلية التي يمكن لها أن تفرق بينهما، أما هي فكانت أصغر من أن تتخيل المستقبل. كلاهما كان يدرك بالغريزة أن تواطؤهما محظور، فهو تواطؤ من زجاج، شفاف وقابل للكسر، وعليهما حمايته بالمداراة الدائمة. فكانا يحافظان أمام الكبار على تحفظ يبدو لتيتي مريباً، فكانت تراقبهما. وإذا ما فاجأتهما منزويين في أحد الأركان يتبادلان المداعبات، تشد أذنيهما بغضب جامح، ولكنها لا تلبث أن تندم بعد قليل وتأكلهما بالقبلات. لم يكن بمقدورها أن تشرح لهما لماذا هي تلك الألعاب الخاصة محظورة عليهما، وأنها خطيئة بالنسبة إليهما، مع أنها عادية لأطفال آخرين. في الفترة التي كانوا ثلاثتهم يتقاسمون الحجرة نفسها، كان كل من الطفلين يبحث عن الآخر متلمساً في الظلام، وفيما بعد، عندما صار موريس ينام وحده، كانت روزيت تذهب إليه في سريره. تستيقظ تيتي في منتصفِ الليل ولا تجد روزيت إلى جانبها، فتذهب على رؤوس أصابعها بحثاً عنها في حجرة الصبي. كانت تجدهما نائمين متعانقين، وهما في أوج الطفولة، بريئين، ولكن ليس إلى حدّ تجاهل ما يفعلانه. «إذا وجدتكِ مرة أخرى في سرير موريس فسوف أضربك بالعصا ضرباً لن تنسيه طوال ما تبقى من حياتك. هل تفهمينني؟»، كانت تيتي تتوعد ابنتها وهي مذعورة مما قد تؤدي إليه تلك المحبة. «لا أدري كيف وصلتُ إلى هناك يا أماه»، تقول روزيت باكية، وبقناعة جعلت أمها تظن أنها تسير في نومها.

كان فالموران يراقب ابنه عن قرب، ويخشى أن يكون ضعيفاً أو يعاني من اختلال ذهني مثلٍ أمه. بدت هذه الشكوك سخيفة لسانتشو. ففرض على ابن أخته دروساً في المبارزة، وتأهب لتعليمه الملاكمة على

طريقته المتمثلة بتوجيه لكمات وركلات دون التعرض للخطر. «من يبدأ الضرب أولاً يضرب مرتين يا موريس. لا تنتظر إلى أن يستفزوك، ابدأ بتوجيه الضربة الأولى إلى الخصيتين مباشرة»، كان يشرح له بينما الطفل يتباكى محاولا تفادي الضربات. لقد كان موريس سيئا في الألعاب الرياضية، ولكن به شغف بالمقابل إلى المطالعة، ورثه عن أبيه، المزارع الوحيد في لويزيانا الذي ضمَّن مخططات بيته حيزاً لمكتبة. لم يكن فالموران معارضا للكتب من حيث المبدأ، فهو نفسه يجمع الكتب، ولكنه يخشى أن تحوّل كثرة القراءة ابنه إلى متأنق مدعٍ. «تشجع يا موريس! عليك أن تصير رجلا!»، ويبادر إلى تلقينه أن النساء يلدن نساء، أما الرجال فلا بد من صياغتهم بالشجاعة والصلابة. فيقول سانتشو ساخرا: «دعه يا تولوز. عندما تحين اللحظة سأتولى بنفسي تعليمه شؤون الرجال»، ولكن ذلك لم يكن يبدو ظريفاً لتيتي.

زوجة الأب

بعد عام من الحفلة في المزرعة، تحولت أورتينس غيزو إلى زوجة أبي موريس. لقد أمضت شهوراً في التخطيط لإستراتيجيتها بتواطؤ ستٍ من الأخوات والخالات وبنات العمومة المصممات على حل مأساة عزوبيتها، ومعهن أبوها المفتون بإمكانية اجتذاب فالموران إلى حظيرته. كان آل غيزو يتمتعون باحترام واسع، ولكنهم ليسوا بالثراء الذي يحاولون الظهور به، ويمكن للمصاهرة مع فالموران أن توفر لهم فوائد كثيرة. لم ينتبه هذا الأخير في أول الأمر إلى خطةِ اصطياده، وظن أن اهتمام الأسرة موجه إلى سانتشو، وهو أكثر شباباً ووسامة منه. وعندما نبهه سانتشو نفسه إلى خطئه، أراد الهرب إلى قارة أخرى؛ فقد كان مرتاحاً إلى روتين عزوبيته، ويمكن لأمر لا رجعة عنه مثل الزواج أن يُرعبه.

ـ أكاد لا أعرف هذه الآنسة، ولم أرها إلا مرات قليلة ـ قال متذرعاً.

ـ ولم تكن تعرف أختي أيضاً، ولكنك تزوجت منها على أحسن حال ـ ذكره سانتشو.

ـ وانظر كم كانت النهاية سيئة!

ـ الرجال العازبون يثيرون الريبة يا تولوز. وأورتينس امرأة رائعة.

ـ إذا كانت تعجبك كثيراً، فتزوج أنت بها ـ أجابه فالموران.

ـ لقد شمني آل غيزو يا صهري. وهم يعرفون أنني مجرد شيطان بائس ذي عادات متهتكة.

ـ ولكنك أقل تهتكاً من آخرين هنا يا سانتشو. وعلى كل حال، أنا لا أفكر في الزواج.

ولكن الفكرة كانت قد طُرحت وبدأ خلال الأسابيع التالية يفكر في

الأمر، في البدء على أنه حماقة، وبعد ذلك على أنه احتمال. فمازال بإمكانه إنجاب مزيد من الأبناء، وقد كان يرغب على الدوام في أسرة كبيرة العدد، وبدت له شهوانية أورتينس علامة جيدة، فهي شابة جاهزة للأمومة. ولم يكن يدري أنها تقلل من سنوات عمرها: فهي في الحقيقة في الثلاثين.

لقد كانت أورتينس ***كريولية*** من سلالة نقية وعلى قدر كافٍ من التعليم، فقد علمتها الراهبات الأورسوليات أسس القراءة والكتابة، والجغرافية والتاريخ، والفنون المنزلية، والتطريز، والتعاليم المسيحية، وهي ترقص بظرافة ولها صوت لطيف. ليس هناك من يشكك بفضيلتها، وتحظى بتعاطف عام بسبب ذلك الخطيب الأخرق والعاجز عن تثبيت نفسه على صهوة جواد مما خلّفها أرملة قبل أن تتزوج. لقد كان آل غيزو من دعائم الحفاظ على التقاليد، فالأب ورث مزرعة، ولدى أخوي أورتينس الكبيرين مكتب محاماة مشهور، وهي المهنة الوحيدة المقبولة في طبقتهم. ونجابة أصل أورتينس يعوض ضآلة دوطتها، كما أن فالموران يرغب في أن يكون مقبولاً في المجتمع، ليس من أجله هو بالذات، وإنما ليمهد الطريق أمام موريس.

ولوقوعه في شباك العنكبوت التي حاكتها له النساء، تقبل فالموران أن يقوده سانتشو في وعورة درب التودد، وهي أكثر مداورة مما هي عليه في سان دومانغ أو كوبا التي عشق فيها إوخينيا. وقد نبهه سانتشو: «لا شيء من الهدايا ولا الرسائل الآن إلى أورتينس، عليك أن تركز على أمها. فموافقة الأم هي الأساسية». لم تكن الفتيات اللاتي في سن الزواج يكثرن من الظهور أمام الملأ، إنهن يكتفين بالظهور مرتين في دار الأوبرا برفقة الأسرة مجتمعة، لأنهن إذا ما أكثرن من الظهور فسوف «يحترقن» ويمكن لهن أن يبقين عازبات يعتنين بأبناء أخواتهن، ولكن أورتينس كانت تتمتع بهامش أكبر من الحرية. فقد خلّفت وراءها سن الجدارة ـ ما بين السادسة عشرة والرابعة والعشرين ـ ودخلت في مرتبة «البائتة».

رتب سانتشو والخاطبات الأمور لدعوة فالموين وأورتينس إلى حفلة **سوبيه**، كما كانوا يطلقون على حفلات العشاء الراقص التي تقام للأقارب والأصدقاء في حميمية المنازل، حيث يمكن لهما تبادل بعض الكلمات، على ألا يكون ذلك على انفراد بأي حال. وكانت المراسم تتطلب من فالموران أن يعلن نواياه بسرعة. رافقه سانتشو للتحدث إلى السيد غيزو، وطرحوا في جلسة خاصة الشروط الاقتصادية للزواج بمودة، ولكن بصورة واضحة. وبعد قليل من ذلك جرى الاحتفال بالخطوبة في، ***غداء خطوبة*** قدم فيه فالموران لخطيبته الخاتم الذهبي الرائج المرصع بحجر ياقوت أحمر محاط بقطع الماس.

زوَّجهما الأب أنطوان، أبرز كاهن في لويزيانا، ذات ثلاثاء في الكاتدرائية، بحضور اقتصر على أسرة غيزو حصراً، فكان العدد اثنين وتسعين شخصاً فقط. لأن العروس تفضل حفلة زفاف خاصة. دخلوا إلى الكنيسة يحرسهم حراس الحاكم، وتألقت أورتينس بفستان حرير مطرز بلآلئ استخدمته من قبل جدتها، وأمها، وعدد من أخواتها. وقد كان ضيقاً عليها بالرغم من توسيع خياطته. وبعد انتهاء المراسم أُرسلت باقة زهر البرتقال والياسمين إلى الراهبات ليضعنها عند قدمي السيدة العذراء في المصلى. وأقيم حفل الاستقبال في بيت آل غيزو بتقديم أطباق فاخرة حضّرها معدّو الولائم أنفسهم الذين تعاقد معهم فالموران للحفلة في مزرعته: طيور تدرج محشوة بالكستناء، وبط بالخل، وسرطانات مشتعلة بالخمر، وأصداف بحرية طازجة، وأسماك متنوعة، وحساء سلاحف، وأكثر من أربعين صنفاً من الحلوى، فضلاً عن قالب تورتة الزفاف، وكان بناء عالياً من اللوز والسكر والثمار المجففة.

وبعد أن غادر الأقارب، انتظرت أورتينس في حجرة عزوبيتها بجلباب من الموسلين وشعرها الأشقر مفلت على كتفيها، وكان أبواها قد استبدلا سريرها بسرير آخر ذي قبة ومظلة. وقد شاعت في تلك السنوات أسرّة للعرائس بمظلات حريرية ذات لون أزرق سماوي، في محاكاة لسماء صافية، مزينة برسوم كوبيدوات ممتلئين يحملون أقواسهم

وسهامهم، وباقات زهور اصطناعية وشرائط دانتيلا.

أمضى العروسان ثلاثة أيام محبوسين في تلك الحجرة، مثلما تتطلب العادات، يقوم على خدمتهما عبدان يحملان إليهما الطعام ويُخرجان المباول من الغرفة. فقد كان من المخجل أن تخرج العروس أمام الملأ، أو حتى أمام أسرتها، وهي مبتدئة في أسرار الحب. وبينما فالموران يختنق من الحر، ويعاني ضجر الحبس، ويشعر بآلام في الرأس من كثرة الحركات البهلوانية الشبابية وهو في سنه تلك، ومعرفته أن عشرات الأقارب يلصقون آذانهم بالجدران، أدرك أنه لم يتزوج من أورتينس وحدها، وإنما من قبيلة آل غيزو بأسرها. وأخيراً، في اليوم الرابع، استطاع الخروج من ذلك السجن والهرب مع زوجته إلى المزرعة، حيث يمكن لهما أن يتعلما التعرف أحدهما على الآخر في مكان أكثر اتساعاً وهواء أفضل. وتصادف أن ذلك الأسبوع كان بداية فصل الصيف، وكان الجميع يهربون من المدينة.

لم يخامر الشك أورتينس قطّ في قدرتها على اقتناص فالموران. فقبل أن تبدأ الخاطبات المتصلبات مساعيهن، كانت قد أوصت الراهبات على تطريز ملاءات تحمل الحرفين الأولين من اسميهما متشابكين. أما الملاءات المحفوظة منذ سنوات في صندوق أمل، معطرة بالخزامى، وتحمل الحرفين الأولين من اسمها واسم خطيبها السابق، فلم تضع؛ فقد أمرت ببساطة أن تلصق زخارف زهور فوق الحرفين وأن تخصص تلك الملاءات لغرف الضيوف الزائرين. وكجزء من جهاز عرسها، أخذت معها دينس، العبدة التي خدمتها مذ كانت في الخامسة عشرة، والوحيدة التي تعرف كيف تسرح شعرها وتكوي أثوابها وفق رغبتها، كما أخذت عبيداً آخرين قدمهم إليها أبوها هدية زفاف عندما أبدت شكوكاً حول قهرمان مزرعة فالموران. فقد كانت ترغب في أشخاص يتمتعون بثقتها المطلقة.

عاد سانتشو إلى سؤال فالموران عما ينوي فعله بتيتي وروزيت، لأنه من غير الممكن إخفاء الوضع. لقد كان لدى كثير من البيض نساء

ملونات، ولكنهم يبقونهن بعيدات عن الأسرة الشرعية على الدوام. أما مسألة الخليلة العبدة فمختلف. فعندما يتزوج السيد تنتهي العلاقة ويكون من المحتم التخلص من المرأة، إما ببيعها أو بإرسالها للعمل في الحقول، حيث لا تراها الزوجة. أما استبقاء العشيقة وابنتها في البيت نفسه، مثلما ينوي فالموران، فلم يكن مقبولاً. لأنه يمكن لأسرة غيزو وأورتينس نفسها أن يتفهموا أنه كان يواسي نفسه مع عبدة في سنوات ترمله، أما الآن فعليه أن يحل المشكلة.

لقد رأت أورتينس روزيت وهي ترقص مع موريس في الحفلة، وربما خامرتها بعض الشكوك، وإن كان فالموران يظن أنها لا تدقق كثيراً في فوضى اللهو والمرح. «لا تكن ساذجاً أيها الصهر، فلدى النساء غريزة في هذه الأمور»، ردّ عليه سانتشو. وفي اليوم الذي ذهبت فيه أورتينس للتعرف على بيت المدينة يرافقها موكب من أخواتها، أمرٍ فالموران تيتي أن تختفي مع روزيت إلى أن تنتهي الزيارة. لم يكن راغبا في الإقدام على تصرف متسرع، كما أوضح لسانتشوٍ. وفي وفاء لطبعهِ، فضّل تأجيل اتخاذ القرار بانتظار أن تجد الأمور حلاً من تلقاء نفسها. ولم يأتِ على ذكر المسألة لأورتينس.

واصل السيد، لبعض الوقت، مضاجعة تيتي وهما يعيشان تحت سقف البيت نفسه، ولكنه لم يرَ ضرورة في إخبارها بأنه يفكر في الزواج: لقد علمت تيتي بالأمر من الأقاويل التي تنتشر كزوبعة. كانت قد تبادلت الحديث خلال حفلة المزرعة مع دينس، وهي امرأة منفلتة اللسان، ثم رأتها أكثر من مرة في السوق الفرنسي، ومنها عرفت أن سيدتها المقبلة حادة المزاج وغيورة. وكانت تعرف أن أيٍ تبدل سيكون غير مناسب ولن يوفر الحماية لروزيت. وأدركت مجددا، وهي مثقلة بالغضب والخوف، مدى عمق عجزها. لو أن سيدها قدم لها إشارة، لكانت جثت عند قدميه، ولخضعت بامتنان لكل نزواته، ولفعلت أي شيء من أجل إبقاء الوضع على ما هو عليه، ولكنه منذ إعلان خطوبته على أورتينس غيزو، لم يعد يستدعيها إلى فراشه. «إرزولي،

أيتها *اللوا* الأم، احفظي روزيت على الأقل.» وبضغوط من سانتشو، خطر لفالموران الحلّ المؤقت ببقاء تيتي مع الطفلة للعناية ببيت المدينة من حزيران حتى تشرين الثاني، بينما يذهب هو وأسرته إلى المزرعة؛ وهكذا يتوافر له الوقت لتهيئة أورتينس نفسياً. وهذا يعني ستة شهور أخرى من القلق بالنسبة إلى تيتي.

استقرت أورتينس في حجرة مطلية ومزينة باللون الأزرق الإمبراطوري، حيث صارت تنام وحدها، لأنها لم تكن هي، ولا زوجها، معتادين على النوم برفقة أحد؛ وبعد شهر العسل الخانق احتاج كل منهما إلى مكانه الخاص. صارت تزين حجرتها بألعاب طفولتها من الدمى المريعة ذات العيون الزجاجية والشعور البشرية، وكان كلباها المرقطان ينامان على سريرها، وهو قطعة أثاث عرضها مترين، له أعمدة منحوتة ومظلة ومساند وستائر وأزهار وشربات، إضافة إلى مخدة كبيرة طرزتها هي نفسها بقطبة متصالبة حين كانت في مدرسة الراهبات الأورسوليات. ومن أعلى تتدلى سماء الحرير نفسها المزينة بملائكة ممتلئين قدمها إليها أبواها كهدية زفاف.

لم تكن الزوجة تستيقظ إلا بعد الغداء، وتُمضي ثلثي حياتها في الفراش، ومنه توجه مصائر آخرين. وفي ليلتهما الأولى كزوجين، حين كانت لا تزال في بيت أبويها، استقبلت زوجها بجلبابٍ بيتي مزين بريشٍ إوز حول فتحة الصدر، ومع أنه ريش ناعم جداً، إلا أنه كان وبالاً عليه، لأنه تسبب له بنوبة عطاس جامحة. غير أن تلك البداية السيئة لم تحل دون تحقيق الزواج، وكانت مفاجأة فالموران السعيدة أن زوجته تتجاوب مع رغباته بسخاء لم تقدمه إليه قطّ إوخينيا أو تيتي.

لقد كانت أورتينس عذراء، ولكنها ذات خبرة. فقد تمكنت، بطريقة ما، من تدبر مغافلة أسرتها ومعرفة أمور لا تخطر عادة لذهن العازبات. فقد ذهب خطيبها المتوفى إلى القبر دون أن يدري أنها استسلمت له بحرقة في مخيلتها، وستواصل عمل ذلك في السنوات التالية في حميمية فراشها، معذبة بالرغبة غير المشبعة والحب المحبط. وكانت أخواتها

المتزوجات قد وفرن لها معلومات تعليمية. لم يكن خبيرات، ولكنهن يعرفن عليٍ الأقل أن أيٍ رجل يُقدر بعض مظاهر الحماسة، دون المضي بعيداً في ذلك تجنباً لإثارة شكوكه. وقد قررت أورتينس من جانبها أنها هي وزوجها لم يعودا في سن التصنع والنفاق. لقد قالت لها أخواتها إن أفضل طريقة للتحكم بالزوج هي التظاهر بالبلاهة وإرضائه في الفراش. ولا بد أن الأمر الأول سيكون بالنسبة إليها أصعب بكثير من الثاني، لأنها لا تجد في نفسها مقدار شعرة من البلاهة.

تقبل فالموران حسية زوجته كهدية دون أن يوجه إليها أسئلة يُفضّل عدم معرفة الأجوبة عليها. كان جسد أورتينس الحاسم، بتكوراته وانحناءته، يُذكّره بجسد إوخينيا قبل جنونها، عندما كانت لا تزال تطفح من ثوبها، وتبدو وهي عارية كما لو أنها مصنوعة من عجينة اللوز: شاحبة، لدنة، شذية، كل ما فيها وفرة وعذوبة. ولكن التعيسة اختُزلت في ما بعد إلى فزاعة عصافيرٍ، ولم يعد يستطيع مضاجعتها إلا عندما يكون مخبولاً بالخمر ويائساً. لقد كانت أورتينس، تحت بريق الشموع الذهبي، متعة للنظر، حورية ممتلئة كحوريات الرسوم الميثولوجية. أحس بالتعرف على فحولته التي ظن أنها تضاءلت بصورة لا رجعة عنها. فقد صارت زوجته تستثيره مثلما فعلت ذات يوم فيوليت بواسيير في شقتها في شارع كلوني، وتيتي في شهوانية مراهقتهاٍ. أذهله ذلك التأجج المتجدد كل ليلة، وحتى في منتصف النهار أحياناً، عندما يأتي فجأة، وجزمته ملطخة بالوحٍل ويفاجئها وهي تطرز بين وسائد سريرها، فيطرد الكلبين ضارباً إياهما بيديه ويرتمي فوقها بسعادة العودة إلى الإحساس بأنه في الثامنة عشرة. وفي واحدة من تلك التقلبات أفلت أحد الكوبيدوات من سماء السرير الصافية وسقط على رقبته مبلبلاً إياه للحظات قصيرة. نهض وقد غطاه عرق جليدي بارد، إذ بدا له في ضبابية اللاوعي أن صديقه القديم لاكروا يطالبه بأن يعيد إليه كنزه الذي سرقه منه.

كانت أورتينس تكشف في الفراش أفضل جانب في شخصيتها: مزاح

خفيف، مثل حياكتها بصنارة معقوفة قلنسوة بديعة ذات شرائط لعضو زوجها. ومزاح أثقل وزناً، مثل تثبيت قطعة من معي دجاجة في شرجها والقول لزوجها إن أمعاءها تخرج من مؤخرتها. ولكثرة تشابكهما بين ملاءات الراهبات التي تحمل الحرفين الأولين من اسميهما متشابكين انتهيا إلى حب كل منهما الآخر، مثلما توقعت أورتينس. كانا مخلوقين لممارسات الزواج المتواطئة، لكنهما مختلفان في الجوهر، فهو كثير المخاوف ومتردد وسهل القياد، وبينما تتمتع هي بتصميم لا يلين يفتقر إليه. ويمكن لهما معاً أن يزيحا جبالاً من مكانها.

وسانتشو الذي دافع بحماسة عن زواج صهره، كان أول من التقط شخصية أورتينس وأحس بالندم. فخارج حجرتها الزرقاء، كانت أورتينس تتحول إلى شخصية أخرى دنيئة، بخيلة ومزعجة. الموسيقى وحدها هي القادرة على السمو بها لوقت وجيز إلى ما فوق حسها العام، ويضيئها ببريق ملائكي حين يمتلئ البيت بالتغريد. رجرجة صوت مرتعشة تنتقل إلى العبيد وتستثير نباح الكلاب الأليفة. لقد أمضت سنوات عديدة في دور العانس غير المرغوب وملت من معاملتها بازدراء مقنع؛ كانت ترغب في أن تكون محط حسد الآخرين، وهذا يتطلب وصول زوجها عالياً. فكان لا بد لفالموران من امتلاك أموال كثيرة كي يعوض عن افتقاره إلى جذور بين العائلات ***الكريولية*** القديمة، وعن الواقع المؤسف بأنه يتحدر من سان دومانغ.

استعد سانتشو لتفادي أن تتمكن هذه المرأة من تقويض الأخوة الرفاقية بينه وبين صهره وعكف على تملقها بحيله. ولكن أورتينس تكشفت عن امرأة عصية على ذلك الهدر في التزلف الذي يخلو في نظرها من أي هدف عملي مباشر. لم يكن سانتشو يروقها وكانت تحافظ على مسافة حذر بينها وبينه، وإن كانت تعامله بلباقة كيلا تجرح مشاعر زوجها الذي لم تكن قادرة على فهم ضعفه تجاه أخي زوجته السابقة ذاك. ما حاجته إلى سانتشو؟ فالمزرعة والبيت في المدينة ملكه هو، ويمكنه التخلص من هذا الشريك الذي لا يساهم في شيء. «خطة المجيء إلى

لويزيانا كانت من أفكار سانتشو، خطرت له قبل الثورة في سان دومانغ، واشترى الأرض. وما كنتُ لأفكر في المجيء إلى هنا لولا سانتشو»، أوضح لها فالموران عندما سألته. ولكنها كانت ترى أن ذلك الوفاء الرجولي مكلف، وشعور غير ذي جدوى. كانت المزرعة قد بدأت بالإقلاع، وكانت بحاجة إلى ثلاث سنوات على الأقل من أجل اعتبارها ناجحة، وبينما كان زوجها يوظف رأس المال ويعمل ويقتصد، كان الآخر ينفق مثل دوق. «سانتشو مثل أخ لي»، قال لها فالموران بنية إغلاق الكلام في الموضوع. فردت عليه: «ولكنه ليس كذلك».

أحكمت أورتينس إقفال كل شيء انطلاقاً من قاعدة أن الخدم يسرقون، وفرضت إجراءات توفير صارمة شلّت البيت. فقطع السكر التي تقتطع بإزميل من مخروط صلب كالحجر معلق بخطاف إلى السقف، كانت تُعدّ قبل وضعها في السكريات ويتولى أحدهم حساب ما يُستهلك منها. والطعام الذي يزيد على المائدة لم يعد يوزع على العبيد، كما هي العادة، وإنما صار يُحوّل إلى أطباق أخرى. فاستشاطت سيلستين غضباً وأعلنت: «إذا كنتم تريدون أكل بقايا البقايا وأقل القليل، فلن تكونوا بحاجة إليّ، ويمكن لأي زنجي من العاملين في حقول القصب أن يعمل طاهياً لكم». لم تكن سيدتها تتحملها، ولكن الأخبار كانت قد شاعت عن تفوق تحضيرها لأفخاذ الضفادع مع الثوم، ولحم الدجاج بالبرتقال، والبامية بلحم الخنزير ورقائق العجين مع جراد البحر. وعندما ظهر شخصان مهتمان بشراء سيلستين بسعر مرتفع جداً، قررت أن تتركها بسلام والتفتت باهتمامها إلى عبيد الحقول. قدّرت أنه بإمكانهم اختزال الطعام تدريجياً بالتناسب مع ازدياد الانضباط، دون التأثير كثيراً على الإنتاجية. فإذا كان ذلك يعطي نتيجة مع البغال، فلا بأس من تجريبه مع العبيد. عارض فالموران هذه الإجراءات في البدء، لأنها لا تتوافق مع مشروعه الأصلي، ولكن زوجته تذرعت بأنهم يفعلون ذلك في لويزيانا. دامت الخطة أسبوعا واحداً، إلى أن انفجر أوين مورفي في نوبة غضب زعزعت الأشجار،

واضطرت السيدة إلى أن تتقبل، مكرهة، أن الحقول، مثلها مثل مطبخ بيتها، ليست من اختصاصها. لقد فرض مورفي إرادته، ولكن أجواء المزرعة تبدلت. كان عبيد البيت يمشون على رؤوس أصابعهم وعبيد الحقول يخشون أن تصرف السيدة مورفي من العمل.

راحت أورتينس تستبدل خدم المنزل وتصفيهم كما في لعبة شطرنج متواصلة، فلم يعد يعرف ممن سيُطلب شيء ما، ولم يعد هناك من يعرف واجباته بوضوح. فكان ذلك يستثير غضبها وتنهال عليهم بسوط حصان تحمله في يدها مثلما تحمل سيدات أخريات مراوحهن اليدوية. أقنعت فالموران ببيع القهرمان واستبدلته بعبد جاءت به من بيت أبويها. فكان ذلك الرجل يجوب البيت ومعه حزمة مفاتيح، ويتجسس على بقية العاملين ويطلعها على كل شيء أولاً بأول. ولم تستغرق عملية التحول إلا قليلاً، لأن أورتينس كانت تتمتع برضى غير مشروط من زوجها الذي تخبره بقراراتها بين جولتي تقلبات بهلوانية في الفراش، «تعال يا حبي وأرني كيف يفرِّج رهبان الأديرة عن أنفسهم». عندئذ، حين صارت شؤون البيت تجري وفق رغبتها، تأهبت أورتينس لبحث المشاكل الثلاث المعلقة: موريس، وتيتي، وروزيت.

زاريتيه

تزوج السيد، وذهب مع زوجته وموريس إلى المزرعة وظللتُ بضعةِ شهور وحيدة مع روزيت في بيت المدينة. ضرب الطفلان الأرض غضباً عندما أبعدوا أحدهما عن الآخر، وظلا متبرمين بسخط لأسابيع وحَمَّلا مدام أورتِينس المسؤولية. لم تكن ابنتي تعرفها، ولكن موريس وصفها لها ساخراً من أغنياتها، ومن كلبيها، ومن ملابسها وعاداتها. فهي الساحرة الشريرة، والدخيلة، وزوجة الأب، والبدينة. رفض مناداتها **ماما**، ولأن أباه لم يسمح له بمنادتها بطريقة أخرى، تخلى عن التكلم إليها. فُرض عليه أن يحييها بقبلة، فتدبر الأمر في أن يخلّف على وجهها في كل مرة بقايا لعاب أو طعام، إلى أن حررته مدام أورتينس نفسها من ذلك الواجب. كان موريس يكتب رسائل قصيرة ويرسل هدايا إلى روزيت تصلها من خلال دون سانتشو، فترد عليه برسوم وبالكلمات القليلة التي تعرف كتابتها.

كانت أزمنة قلق، ولكنها أزمنة حريةٍ أيضاً، لأنه لم يكن هناك من يراقبني. كان دون سانتشو يقضي شطراً لا بأس به من الوقت في نيو أولينز، ولكنه لا يدقق في التفاصيل؛ ويكتفي بأن يقدِّم إليه الشيء القليل الذي يطلبه. لقد تعلق بالخلاسية التي خاض المبارزة من أجلها، وتدعى آديس سوبير، وكان يقضي معها وقتاً أطول مما يقضيه معنا. قمتُ بتحريات عن المرأة ولم يرقني ما سمعته. فمنذ الثامنة عشرة من عمرها اشتهرت بالطيش والطمع، وبأنها استولت على ثروات عدد من خاطبي ودها. هذا ما قيل لي. لم أتجرأ على تحذير دون سانتشو، لأن ذلك سيُغضبه. كنت أخرج في الصباح مع روزيت إلى السوق الفرنسي، حيث ألتقي بعبدات أخريات ونجلس معاً في الظل لتبادل الحديث. بعضهن كن يتحايلن لاختلاس بعض النقود القليلة الزائدة

التي يجب إعادتها إلى أسيادهن، ويشترين كأس شراب مرطب أو دستة أصداف بحرية متبلة بالليمون، أما أنا فليس هناك من يطلب مني كشفاً بحساب المشتريات، ولهذا لم أكن بحاجة للسرقة. كان ذلك قبل أن تأتي مدام أورتينس إلى بيت المدينة. أناسٌ كثيرون كانوا يمعنون النظر إلى روزيت التي تبدو ابنة أسرة ميسورة بفستانها الحريري وحذائها الأسود اللامع. لقد أحببت السوق على الدوام، بأكشاكه المترعة بالفاكهة والخضروات، والمأكولات الحريفة المقلية، وصخب جموع المشترينٍ، والمنادين، والمشعوذين، والهنود القذرين الذين يبيعون سلالا، والمتسولين مبتوري الأطراف، والقراصنة الموشومين، والرهبان والراهبات، والموسيقيين الجوالين.

وصلتُ ذات خميس إلى السوق بعينين منتفختين، لأنني كنت قد بكيت كثيراً في الليلة السابقة وأنا أفكر في مستقبل روزيت. وقد ألحت صديقاتي بالسؤال طويلا، وانتهيت إلى البوح لهن بالمخاوف التي تحرمني من النوم. نصحتني العبدات بأن أحصل على تميمة غريس - غريس للحماية، ولكنني كنت أملك واحدة من تلك التمائم، عبارة عن جراب أعشاب وعظام وجذامات من أظفاري وأظفار ابنتي، أعدّها لي أحد كهنة الفودو. ولكنها لم تنفعني في شيء. حدثني أحدهم عن الأب أنطوان، وهو رجل دين إسباني كبير القلب يقدم خدماته للسادة والعبيد على السواء. وكان الناس يحبونه. وقد قالوا لي: «اذهبي للاعتراف لديه، إن له سحراً». لم أكن قد اعترفت أمام كاهن من قبل قطّ، لأن العبيد الذين كانوا يفعلون ذلك في سان دومانغ ينتهي بهم الأمر إلى دفع ثمن خطاياهم في هذا العالم وليس في العالم الآخر، ولكن لم يكن لدي من ألجأ إليه، ولهذا ذهبتُ مع روزيت لمقابلته. انتظرت لوقت طويل، فقد كنتُ الأخيرة في صف متوسلي العون، كل واحد بخطاياه التي يلتمس لها الغفرانٍ. وعندما جاء دوري لم أدرِ ما الذي عليّ عمله، فأنا لم أقترب يوماً من كاهن كاثوليكي. كان الأَب أنطوان شاباً، ولكن بوجه عجوز، له أنف طويل، وعينان سوداوان

وطيبتان، ولحية كأنها عرف حصان، وقائمتا سلحفاة وينتعل صندلاً مهترئاً. استدعانا بإيماءة، حمل روزيت وأجلسها على ركبتيه. لم تمانع ابنتي بالرغم من رائحة الثوم التي تفوح منه ومن مسوحه الكهنوتي المتسخ.

ـ انظري يا أماه! له شعر في أنفه وفتات خبز عالق في ذقنه ـ قالت روزيت مستثيرة رعبي.

ـ إنني قبيح جداً ـ ردّ عليها الكاهن ضاحكاً.

ـ أما أنا فجميلة ـ قالت.

ـ هذا صحيح يا صغيرتي، والرب يغفر في مثل حالتك خطيئة الغرور.

بدت رنة نطقه الفرنسية كمصاب بالزكام يتكلم الإسبانية. وبعد بضع لحظات من المزاح مع روزيت، سألني كيف يمكنه مساعدتي. أرسلتُ ابنتي لتلعب في الخارج كيلا تسمع ما سأقوله. إرزولي، أيتها **اللوا** الصديقة، سامحيني، فأنا لم أكن أنوي التقرب من مسيح البيض، ولكن صوت الأب أنطوان الحاني جردني من مقاومتي وبدأت أبكي من جديد، بالرغم من أنني كنت قد أنفقت الكثير من الدموع في الليل. ولكن الدموع لا تنتهي أبداً. قلت له إن مصيرنا معلق بخيط، وإن السيدة الجديدة قاسية المشاعر، وعندما تشك في أن روزيت هي ابنة زوجها لن تنتقم منه، وإنما ستنتقم منا نحن.

ـ وكيف تعلمين ذلك يا ابنتي؟ ـ سألني.

ـ كل شيء يُعرف يا أبتاه.

ـ لا أحد يعلم المستقبل إلا الرب. وأشد ما نخشاه في بعض الأحيان يتمخض عن بركة. أبواب هذه الكنيسة مفتوحة على الدوام، ويمكنك المجيء عندما تشائين. وربما يتيح لي الرب مساعدتك عندما يحين الوقت.

ـ إله البيض يخيفني أيها الأب أنطوان. إنه أشد قسوة من بروسبير كامبري.

ـ من؟

ـ رئيس رؤساء فرق العمال في سان دومانغ. لستُ ممن يخدمن يسوع أيها الأب. آلهتي هم **اللوات** الذين رافقوا أمي من غينيا. إنني من أتباع إرزولي.

ـ أجل يا ابنتي، أعرف إرزولي ديانتك ـ ابتسم الكاهن ـ. إلهي هو إلهك بابا بوندي نفسه، ولكن باسم آخر. **لوات** معتقدك هم مثل القديسين في ديانتي. وفي القلب الإنساني متسع لكل الألوهات.

ـ ديانة الفودو كانت محظورة في سان دومانغ يا أبتِ.

ـ يمكنك هنا أن تواصلي طقوس الفودو يا ابنتي، ولن يهتم أحد بذلك طالما لا تُرتكب فضائح. يوم الأحد هو يوم الرب، تعالي إلى القداس في الصباح، وفي المساء اذهبي إلى ساحة الكونغو لترقصي مع **اللوات**. أين هي المشكلة في ذلك؟

قدم لي خرقة متسخة، منديله، كي أمسح دموعي، ولكنني فضلت استخدام طرف تنورتي. وعندما كنا على وشك المغادرة حدثني عن الراهبات الأورسوليات. وفي تلك الليلة بالذات تكلم إلى سانتشو. هكذا كان.

موسم أعاصير

كانت أورتينس غيزو هبَّة تجديد ملأت حياة فالموران بالتفاؤل، خلافاً لما أحس به بقية أفراد الأسرة والناس في المزرعة. كان الزوجان يستقبلان في عطلة نهاية بعض الأسابيع ضيوفاً في الريف، مثلما هي عادات الضيافة *الكريولية*، ولكن الزيارات تقلصت وسرعان ما توقفت عندما تبدى بجلاء استياء أورتينس كلما جاءهم ضيف دون دعوة مسبقة. صار آل فالموران يقضون أيامهم متوحدين. كان سانتشو يعيش، رسمياً، معهم، مثل عازبين آخرين كثيرين مرتبطين ببعض العائلات، ولكنهم لا يظهرون إلا في أحيان قليلة. وكان سانتشو يبحث عن ذرائع لتجنب الزوجين بينما فالموران يحن إلى الرفاقية التي تقاسماها على الدوام. فهو يمضي الساعات الآن في لعب الورق مع امرأته، والاستماع إليها تعزف على البيانو، أو القراءة بينما هي ترسم لوحة بعد أخرى لآنسات في أراجيح أو لهررة وكرات صوف. كانت أورتينس تطير في أشغال الصنارة وتطريز مناديل وشراشف لتغطية كل السطوح المتوافرة. لها يديان بيضاوان حساستان وسمينتان بأظفار لا تشوبها شائبة. يدان نشيطتان في أشغال الحياكة والتطريز، رشيقتان في العزف، وجريئتان في الحب. كانا يتبادلان القليل من الكلام، ولكنهما يتفاهمان بنظرات ودودة وقبلات مهموسة من كرسي إلى آخر في قاعة الطعام الفسيحة، حيث يتناولان العشاء منفردين لأن سانتشو نادراً ما يظهر في البيت، ولأنها اقترحت، عندما كان موريس معهما، أن يتناول الصغير الطعام مع معلمه في عريشة الحديقة، إذا كان الطقس يسمح بذلك، أو في غرفة الطعام الصغرى، لاستغلال فترة تناول الطعام في مواصلة الدروس. كان عمر موريس تسع سنوات، ولكنه يتصرف كطفل صغير، على حدّ قول أورتينس التي لديها دستة من أبناء الإخوة

والأخوات وتعتبر نفسها خبيرة في تربية الأطفال. وترى أنه بحاجة إلى التمرس مع صبيانٍ آخرين من طبقته الاجتماعية، وليس فقط مع أبناء مورفي العاديين جداً. وتقول إنه مدلل جداً، ويبدو مثل طفلة، ولا بد من تعريضه لمصاعب الحياة.

استعاد فالموران شبابه، فقصّر سالفيه، وخفض وزنه قليلاً ببهلوانيات الفراش الليلية والوجبات الشحيحة التي صارت تقدم على المائدة. لقد وجد السعادة الزوجية التي لم يجدها مع إوخينيا. وحتى الخوف من تمرد الزنوج الذي لاحقه من سان دومانغ تراجع إلى مكانة ثانوية. ولم تعد أعمال المزرعة تؤرق أحلامه، فلدى أوين مورفي كفاءة تستحق الثناء وما لا يتمكن من إنجازه، يحققه ابنه براندان، وهو مراهق قوي مثل أبيه وعملي مثل أمه، وقد عمل منذ السادسة من عمره على صهوة حصان.

كانت لينٍ مورفي قد وضعت مولودها السابع، وكان شبيهاً تماماً بأخوته، قوياً وأسود الشعرِ، ولكنها كانت تجد الوقت لمتابعة مستشفى العبيد، حيث تذهب يومياً مع رضيعها في عربة. ولم تكن قادرة على رؤية سيدتها ولو في رسم. في أول مرة حاولت فيها أورتينس الدخول إلى ميدان لين، انتصبت هذه أمامها متقاطعة الذراعين وبملامح هدوء جليدي. وهي الطريقة التي سيطرت بها على عصابة آل مورفي طوال أكثر من خمسة عشر عاما، وقد أعطت نتيجةً كذلك مع أورتينس. ولو لم يكن رئيس مراقبي العمال موظفاً جيداً جداً، لكانت أورتينس تخلصت من الأسرة كلها كي تسحق هذه الحشرة الأيرلندية، ولكن اهتمامها بمصالحها كان أكبر. فأبوها المزارع ذو الأفكار القديمة يقول إن السكر قد حقق المكاسب لآل غيزو لأجيال ولا حاجة لتجارب جديدة، أما هي فتقصت عن منافع زراعة القطن بالتشاور مع خبير زراعي أمريكي، وكانت مثلها مثل سانتشو تقدر فوائد زراعته. ورأت أنه لا يمكن لها التخلي عن أوين مورفي.

أغرق إعصار هائل في شهر آب جزءاً كبيراً من نيو أورلينز. لم يكن

الأمر خطيراً، فالأعاصير تحدث بكثرة وليس هناك من يهتم بالشوارع المتحولة إلى قنوات، وبالمياه القذرة التي تتدفق إلى أفنية بيوتهم. فحياة الناس تتواصل كالعادة، والفرق الوحيد أنهم يبتلون بالماء. كانت الأضرار في تلك السنة ضئيلة، فالموتى الفقراء وحدهم ظهروا من قبورهم طافين في حساء من الطين، أما الموتى الأغنياء فظلوا راقدين بسلام في ضرائحهم، دون أن يجدوا أنفسهم معرضين لخزي فقدان عظامهم في أشداق الكلاب الضالة. وصل الماء في بعض الشوارع حتى مستوى الركبتين، ووجد بعض الرجال عملاً بنقل الناس على ظهورهم من جانب إلى آخر، بينما استمتع الأطفال باللعب في برك الماء بين الفضلات وروث الخيول.

حذر الأطباء، مثيرو الذعر على الدوام، من وجود وباء رهيب، ولكن الأب أنطوان نظم موكباً دينياً يتقدمه تمثال للمسيح كلي القداسة ولم يتجرأ أحد على السخرية من ذلك الأسلوب لكبح جماح المناخ، لأنه يعطي نتيجة على الدوام. في تلك الأثناء كان الكاهن قد اكتسب سمعة قديس، بالرغم من أنه لم يمضِ على استقراره في المدينة سوى ثلاث سنوات. كان قد عاش هناك لفترة وجيزة في العام ١٧٩٠، عندما أرسله ديوان محاكم التفتيش إلى نيو أورلينز بمهمة طرد اليهود، ومعاقبة الهراطقة، ونشر الدين بالدم والنار، ولكنه لم يكن متعصباً بأي حال، وقد ابتهج حين قام مواطنو لويزيانا الساخطون، وغير المستعدين لتقبل حاكم تفتيش بينهم، بإعادته إلى إسبانيا دون أي اعتبار. ولكنه عاد في العام ١٧٩٥ رئيساً لكاتدرائية سان لويس التي شيدت حديثاً بعد حريق الكاتدرائية السابقة. جاء مستعداً للتسامح مع اليهود، وغض النظر عن الهراطقة، ونشر الدين بالرحمة والإحسان. كان يخدم الجميع على قدم المساواة، دون تمييز بين أحرار وعبيد، بين مجرمين ومواطنين مثاليين، بين سيدات فاضلات وسيدات حياة مرحة، بين لصوص، وقراصنة، محامين وجلادين، مرابين ومحرومين كنسياً. فللجميع متسع، جنباً إلى جنب، في كنيسته. كان المطارنة يمقتونه باعتباره متمردا، ولكن رعيته من

المؤمنين يدافعون عنه بإخلاص. لقد كان الأب أنطوان، برداء الكهنة الكبوشيين الذين ينتمي إليهم وبلحيته الرسولية، المشعل الروحي لتلك المدينة الآثمة. في اليوم التالي لموكبه الديني، تراجعت المياه من الشوارع ولم ينتشر وباء في تلك السنة.

بيت آل فالموران هو الوحيد الذي تضرر بالفيضان. لم يدخله الماء من الشارع، بل انبثق من تحت الأرض متدفقاً مثل عرق كثيف. فقد تحملت الأساسات الرطوبة الوبيلة ببطولة لسنوات طويلة، غير أن هذه الهجمة اللجوجة هزمتها. أحضر سانتشو معلم بناء وفريق بنائين ونجارين اقتحموا الطابق السفلي ونصبوا سقالات ورافعات وبكرات. نقلوا الأثاث إلى الطابق الثاني، حيث وضعوا الصناديق وقطع الأثاث وغطوها بملاءات. كان لا بد لهم من نزع بلاط الفناء، وتمديد أنابيب لتصريف الماء، وهدم مهاجع مبيت العبيد المنزليين التي غرقت في الوحل.

وعلى الرغم من الإزعاجات والنفقات، كان فالموران سعيداً، لأن تلك الفوضى منحته مزيداً من الوقت للتأمل في مسألة تيتي. ففي الزيارات التي قام بها مع زوجته إلى نيو أورلينز ـ هو من أجل صفقاته وهي لممارسة حياة اجتماعية ـ كانا يقيمان في بيت آل غيزو، وهو بيت ضيق بعض الشيء، ولكنه أفضل من الإقامة في فندق. لم تبد أورتينس أي فضول لرؤية أعمال البناء، ولكنها طالبت بأن يكون البيت جاهزا في شهر تشرين الأول؛ بحيث يمكن للأسرة أن تقضي فترةٍ الموسم الاجتماعي في المدينة. صحيح أن العيش في الريف صحي جدا، ولكن لا بد لها من أن تفرض حضورها بين الناس الراقين، أي أناس طبقتها. فقد غابت عن المدينة وقتاً طويلاً.

وصل سانتشو إلى المزرعة بعد انتهاء إصلاحات البيت، جاء صاخباً كعادته، ولكن بجزع مكبوت كمن يتوجب عليه حلّ مسألة غير مستحبة. لاحظت أورتينس ذلك وعرفت بالغريزة أن المسألة تتعلق بالعبدة التي يحوم اسمها في الهواء: إنها الخليلة. ففي كل مرة يسأل موريس عنها أو

عن روزيت، يحمر وجه فالموران. أطالت أورتينس أمد العشاء ولعب الدومينو كيلا تتيح للرجلين فرصة التحدث على انفراد. كانت تخشى تأثير سانتشو الذي تعتبره مشؤوماً، وتحتاج إلى تهيئة معنويات زوجها في الفراش لمواجهة أي احتمال طارئ. في الساعة الحادية عشرة ليلاً تمطى فالموران متثائباً وأعلن أن موعد النوم قد حان.

ـ أريد التحدث معك على انفراد يا تولوز ـ قال سانتشو وهو ينهض واقفاً.

ـ على انفراد؟ لا أسرار أخفيها عن أورتينس ـ أجاب الآخر بمزاج طيب.

ـ معك حق بالطبع، ولكنني أريد التحدث إليك في موضوع يخص الرجال. فلنذهب إلى حجرة المكتبة. اعذريني يا أورتينس ـ قال سانتشو متحدياً المرأة بنظراته.

وفي غرفة المكتبة كان بانتظارهما القهرمان وهو يضع قفازين أبيضين بذريعة تقديم الكونياك لهما، غير أن سانتشو أمره بالانسحاب وإغلاق الباب، ثم التفت إلى صهره وطالبه باتخاذ قرار بشأن مصير تيتي. فلم يبق سوى أحد عشر يوماً لمجيء شهر تشرين الأول، وقد صار كل شيء في البيت جاهزاً لاستقبال الأسرة.

ـ لا أفكر في إجراء تغييرات. ستظل هذه العبدة في الخدمة كالعادة ومن الأفضل لها أن تفعل ذلك بطيب مزاج ـ أوضح فالموران وهو منزو.

ـ لقد وعدتها بمنحها الحرية يا تولوز، بل إنك وقّعت لها وثيقة بذلك أيضاً.

ـ أجل، ولكنني لا أريدها أن تضغط عليّ. سأفعل ذلك في وقته المناسب. وعندما يحين الوقت سأخبر أورتينس بكل شيء. إنني واثق من أنها ستتفهم الأمر. ولماذا أنت مهتم بهذه المسألة يا سانتشو؟

ـ لأنه سيكون من المؤسف أن يؤثر الأمر على حياتك الزوجية.

ـ لن يحدث ذلك. بالله عليك يا سانتشو! من يسمعك يظن أنني

الرجل الوحيد الذي ضاجع عبدته.

ـ وماذا عن روزيت؟ وجودها سيكون مهيناً لأورتينس ـ ألح سانتشو ـ. من الواضح أنها ابنتك. ولكن لدي فكرة لإزاحتها من طريقك. الراهبات الأورسوليات يتقبلن طفلات ملونات ويقمن بتربيتهن على أحسن وجه مثل بنات البيض، ولكنهن منفصلات عنهن بالطبع. ويمكن لروزيت أن تقضي السنوات القادمة في الدير مع الراهبات.

ـ لا يبدو لي ذلك ضرورياً يا سانتشو.

ـ الوثيقة التي أرتني إياها تيتي تتضمن روزيت أيضاً. وعندما تصير روزيت حرة سيكون عليها أن تكسب عيشها، وهذا يتطلب شيئاً من التعليم يا تولوز. أم أنك تفكر في مواصلة الإنفاق عليها إلى الأبد؟

في تلك الأيام أُعلن في سان دومانغ أن جميع المستوطنين المقيمين خارج الجزيرة، في أي مكان غير فرنسا، يُعتبرون خونة وتصادر ممتلكاتهم. وكان بعض المهاجرين مستعدين للعودة من أجل المطالبة بأراضيهم، لكن فالموران ظل متشككاً. فليس هناك ما يسوغ افتراض أن العداء العرقي قد تناقص. وقرر قبول نصيحة وكيله السابق في لوكاب الذي اقترح عليه، في رسالة، أن يسجل مؤقتاً مزرعة سان لازار باسمه، لتجنب مصادرتها. بدا الأمر لأورتينس مضحكاً؛ فمن الجلي أن الرجل سيستولي على المزرعة، ولكن فالموران كان يثق بوكيله العجوز الذي خدم أسرته طوال أكثر من ثلاثين عاماً، ولأن أورتينس لم تستطع تقديم خيار آخر، فقد قدم إليه التنازل المطلوب.

كان توسان لوفيرتور قد تحول إلى قائد عام للقوات المسلحة؛ وكان يتفاهم مباشرة مع حكومة فرنسا، وأعلن أنه سيقلص عدد قواته إلى النصف كي يعود النصف الآخر إلى العمل في المزارع كأحرار. وقد تبين أن تلك الحرية نسبية: يتوجب عليهم أن يقدموا ثلاث سنوات على الأقل من أعمال السخرة تحت رقابة عسكرية، فبدا ذلك لزنوج كثيرين عودة مستترة إلى العبودية. فكر فالموران في القيام برحلة سريعة إلى سان

دومانغ ليقوّم الوضع بنفسه، ولكن أورتينس أطلقت صرخة رعب بلغت عنان السماء. كانت حبلى في شهرها الخامس؛ ولا يمكن لزوجها أن يفارقها وهي في تلك الحال ويعرّض حياته للخطر في تلك الجزيرة التعيسة، وأن يبحر فوق ذلك في أعالي البحر في ذروة موسم الأعاصير. أجّل فالموران موعد الرحلة ووعدها بأنه إذا استعاد ممتلكاته في سان دومانغ فسوف يضعها بتصرف وكيل أعماله ويظلان في لويزيانا. طمأن ذلك المرأة بضعة شهور، ولكنها وضعت في رأسها فكرة أنه يتوجب عليهم عدم امتلاك استثمارات في سان دومانغ. وكان سانتشو متفقاً معها في ذلك هذه المرة. فقد كان لديه أسوأ رأي بالجزيرة التي ذهب إليها مرتين من قبل لزيارة أخته إوخينيا. اقترح بيع مزرعة سان لازار لأول مشترٍ، وتمكن بمساعدة أورتينس من ليّ ذراع فالموران الذي انتهى إلى التنازل بعد أسابيع من التردد. فتلك الأراضي، كما قال، مرتبطة بأبيه وباسم الأسرة وبشبابه. ولكن حججه اصطدمت بواقع أن الجزيرة منطقة صراع أناس من كل الألوان يقتل بعضهم بعضاً.

رجع غاسبار سيفران البائس إلى سان دومانغ دون أن يهتم بتحذيرات لاجئين آخرين ممن مازالوا يصلون إلى لويزيانا في توافد متتال محزن. وكانت الأخبار التي يأتون بها تقبض النفوس، ولكن سيفران لم يستطع التكيف مع العيش في لويزيانا وفضّل العودة للاجتماع بأسرته على الرغم من معاناته من كوابيس الدم وارتعاش يديه. وكان يمكن له أن يرجع بالبؤس الذي كان عليه عند مجيئه لو لم يقدم إليه سانتشو غارثيا دل سولار، سراً، مبلغاً على سبيل الدين، كما قال له، وإن كان كلاهما يعرف أنه دين لن يُرد أبداً. حمل سيفران إلى الوكيل تصريحاً من فالموران لبيع الأرض. وقد وجده في العنوان نفسه، ولكن البناء كان جديداً، لأن البناء السابق تحول إلى رماد في حريق لوكاب. وبين المواد المخزنة للتصدير التي احترقت في المستودعات كان نعش إوخينيا غارثيا دل سولار المصنوع من خشب الجوز والفضة. وكان الوكيل العجوز ما يزال يواصل أعماله، يبيع القليل الذي تنتجه

المستعمرة ويستورد بيوتاً من خشب الأرز من الولايات المتحدة، تصله أجزاء مفككة، وجاهزة للتركيب مثل ألعاب الأطفال. لقد كان الطلب عليها كبيراً، لأن كل اشتباك بين الأعداء المتحاربين ينتهي بحريق. لم يعد هناك مشترون للأشياء التي وفرت له أرباحاً كثيرة في الماضي: أقمشة، قبعات، أدوات عمل، أثاث، سروج خيول، سلاسل وأصفاد، مراجل لغلي عصير القصب...

بعد شهرين من سفر المعلم سيفران، تلقى فالموران رداً من وكيله: لقد وجد مشترياً لمزرعة سان لازار: إنه خلاسي، ضابط في جيش توسان. يمكنه دفع مبلغ ضئيل، ولكنه الوحيد المهتم بالشراء، وقد نصح الوكيل فالموران بأن يقبل العرض، لأنه لم يعد هناك من يدفع شيئا مقابل الأرض منذ تحرير العبيد ونشوب الحرب الأهلية. وكان على أورتينس أن تتقبل أنها أخطأت تماماً بحق الوكيل الذي تبين أنه أكثر نزاهة مما يمكن انتظاره في تلك الأزمنة المضطربة التي اختلت فيها البوصلة الأخلاقية. باع الوكيل الملكية، وتقاضى عمولته وأرسل بقية المبلغ إلى فالموران.

الجلد بالسوط

مع رحيل سيفران انتهت دروس موريس الخاصة وبدأ عذابه في مدرسةٍ لأطفال الطبقة الراقية في نيو أورلينز، حيث لا يتعلم شيئاً، ولكن عليه الدفاع عن نفسه في مواجهة المشاغبين الذين يتعلمون معه. لم يجعله ذلك أكثر جرأة، مثلما كان يأمل أبوه وزوجة أبيه، بل أشد حذراً، مثلما كان يخشى خاله سانتشو. عاد إلى معاناة كوابيسه عن العبيد المعدومين في لوكاب وبال في مناسبتين في الفراش، ولكن أحدا لم يعلم بذلك لأن تيتي تولت غسل ملاءات السرير خفية. بل إنه لم يعد يحظى بالعزاء الذي توفره له روزيت التي لا يسمح له أبوه بزيارتها عند الراهبات الأورسوليات وحظر عليه أن يأتي على ذكرها بحضور أورتينس.

انتظر تولوز فالموران بتوجس مبالغ فيه لقاء أورتينس بتيتي، لأنه لم يكن يعرف أنه لا مبرر في لويزيانا لإثارة المشاكل من أجل أمر تافه. ففي أسرة آل غيزو، كما في جميع العائلات الكريوليية الأخرى، لا أحد يتجرأ على مجادلة بطريرك العائلة؛ فالنساء يتحملن نزوات الزوج ما دامت متكتمة، وهي متكتمة على الدوام. والزوجة والأبناء الشرعيون وحدهم هم الذين يُؤخذون بالاعتبار في هذا العالم، وفي العالم الآخر كذلك؛ وسيكون من المعيب تبديد مشاعر الغيرة من أجل عبدة؛ ومن الخير الاحتفاظ بهذه الغيرة لمواجهة خلاسيات نيو أورلينز الحرائر، القادرات على السيطرة على إرادة الرجل حتى النفس الأخير. ولكن، حتى في حالة هؤلاء الخليلات، يمكن لأي سيدة طيبة النشأة أن تتظاهر بالجهل وتظل صامتة؛ وهكذا تربت أورتينس. كما أن قهرمانها الذي ظل في المزرعة على رأس الخدم المنزليين العديدين، كان قد أكد لها شكوكها حول تيتي.

- لقد اشتراها مسيو فالموران عندما كانت في حوالي التاسعة من

العمر وجاء بها معه من سان دومانغ. ولم تعرف له خليلة أخرى يا سيدتي ـ قال لها.

ـ وماذا عن الطفلة؟

ـ قبل الزواج كان مسيو فالموران يعاملها كابنة له، والفتى موريس يحبها كأخت.

ـ ابن زوجي هذا بحاجة إلى تعلم الكثير ـ دمدمت أورتينس.

رأت علامة سيئة في أن زوجها قد لجأ إلى استراتيجيات معقدة من أجل إبقاء تلك المرأة بعيدة عنهما لشهور عديدة؛ ربما كانت لا تزال تؤرقه، ولكنها شعرت بالطمأنينة يوم دخلا بيت المدينة. فقد استقبلهما الخدم في صف متأنق، وتيتي على رأسهم. قام فالموران بتقديمهم بمودة عصبية، بينما زوجته تتفحص العبدة من أعلى إلى أسفل ومن الداخل إلى الخارج، كي تقرر أخيراً أنها لا تمثل إغواء لأحد، وأقل من ذلك لزوجها الذي تطعمه هي نفسها بيدها. فتلك الخلاسية تصغرها بثلاث سنوات، ولكنها مستنزفة بالعمل وانعدام العناية. قدماها خشنتان، وثدياها متهدلان، وملامحها مكدرة. وافقت بينها وبين نفسها على أنها رشيقة القوام وجديرة بأن تكون عبدة، ولها وجه مثير للاهتمام. وأسفت لكون زوجها بذلك الضعف؛ لأن رأس تلك المرأة ممتلئ بالزهو. وفي الأيام التالية تمادى فالموران في إغداق الاهتمام بأورتينس التي فسرت ذلك على أنه رغبة منه في إذلال خليلته السابقة، وفكرت: «لا حاجة بك لأن تزعج نفسك، سأتولى أنا وقفها عند حدها»، ولكن تيتي لم توفر لها سبباً للشكوى. فقد كان البيت ينتظرهما دون أية شائبة، لم يبق فيه من ذكرى لدوي المطارق، أو وحل الفناء، أو سحب الغبار وعرق البنائين. كل شيء كان في مكانه، المداخن نظيفة، والستائر مغسولة، والشرفات مزدانة بأزهار، والحجرات مهواة.

في البدء كانت تيتي تخدم المائدة بفزع وصمت، ولكنها بدأت بالاسترخاء بعد أسبوع، لأنها تعلمت روتين ونزوات سيدتها الجديدة وعملت جاهدة على عدم استفزازها. كانت أورتينس متطلبة ومتصلبة:

ففور إصدارها أي أمر، مهما بدا غير عقلاني، يجب أن ينفذ فوراً. تفحصت يديّ تيتي الطويلتين والأنيقتين، فكلفتها بغسل الملابس، بينما الغسالة تقضي النهار متكاسلة في الفناء، لأن سيلستين لم تقبل بها معاونة لها، لأنها عظيمة الخراقة وتنبعث منها رائحة صودا الغسيل. ثم قررت السيدة بعد ذلك أنه لا يمكن لتيتي أن تنسحب للراحة قبل ذهابها هي نفسها للنوم، وعليها أن تنتظر وهي بكامل ملابسها إلى أن يعود السيدان إلى البيت، حتى لو كان على العبدة أن تستيقظ في الفجر والعمل طيلة النهار متعثرة من النعاس المتراكم. فقال فالموران بضعف إن ذلك غير ضروري، لأن صبي الطلبات يتولى إطفاء المصابيح وإغلاق البيت، ودينس هي التي تساعد السيدة في خلع ملابسها، ولكن أورتينس أصرت على موقفها. كانت مستبدة مع الخدم الذين عليهم تحمل صراخها وضربها لهم، ولكنها تفتقر إلى الرشاقة والوقت كي تضربهم بالسوط، كما في المزرعة، لأنها منتفخة بحبلها ومشغولة جدا بحياتها الاجتماعية، وحفلات العشاء الراقص والاستعراضات، إضافة إلى اهتمامها بالعناية بجمالها وصحتها.

كانت أورتينس تشغل بضع ساعات بعد الغداء في تمارين الصوت، وفي ارتداء ملابسها وتسريح شعرها. ولا تظهر حتى الرابعة أو الخامسة مساء، حين تكون متبرجة من أجل الخروج وجاهزة لتكريس كلٍ اهتمامها لفالموران. كانت الموضة المفروضة من فرنسا تناسبها تماما: فساتين من أقمشة خفيفة ذات ألوان زاهية، حواشيها مزينة بزركشة إغريقية، وخصرها مرتفع، والتنورة مدورة وواسعة من طيات، وشالٍ الدانتيلا الذي لا بد منه على الكتفين. وكانت القبعات بناء متيناً من ريش النعام، وشرائط وتول تشتغله بنفسها. فكما حاولت استخدام فضلات الطعام، كانت تدور أجزاء القبعات، فتسحب خصلة ريش أو شريطة من إحداها لتضعها على قبعة أخرى، وتنزع زهرة من الثانية لتضيفها إلى الأولى، بل إنها كانت تصبغ الريش دون أن يفقد شكله، بحيث تظهر في كل يوم بمظهر مختلف.

في منتصف إحدى ليالي السبت، بعد انقضاء أسبوعين على وجودهما في المدينة، وبينما هما عائدان من المسرح في العربة، سألت أورتينس زوجها عن ابنة تيتي.

ـ أين هي تلك الخلاسية الصغيرة يا عزيزي؟ لم أرها منذ مجيئنا وموريس لا يمل من السؤال عنها ـ قالت بلهجة بريئة.

ـ أتعنين روزيت؟ ـ تلعثم فالموران وهو يحل ربطة عنقه.

ـ أهذا هو اسمها؟ لا بد أنها في مثل عمر موريس، أليس كذلك؟

ـ ستكمل سبع سنوات. إنها طويلة القامة. لم أكن أظن أنك ستتذكرينها، فأنت لم تريها سوى مرة واحدة ـ أجابها فالموران.

ـ بدت ظريفة وهي ترقص مع موريس. لقد صارت في سن العمل. ويمكننا الحصول على سعر جيد لها ـ علقت أورتينس وهي تداعب عنق زوجها.

ـ لا أفكر في بيعها يا أورتينس.

ـ ولكنني وجدت مشترية لها! أختي أوليفيا تعلقت بها حين رأتها في الحفلة وتريد أن تهديها إلى ابنتها عند بلوغها الخامسة عشرة، بعد حوالي شهرين. كيف سننكر عليها ذلك؟

ـ روزيت ليست للبيع ـ كرر الرجل.

ـ آمل ألا يأتي وقت تندم فيه يا تولوز. هذه البنت لا تنفعنا في شيء ويمكن لها أن تسبب لنا المشاكل.

ـ لا أريد التحدث أكثر في هذا الموضوع! ـ صرخ الزوج.

ـ أرجوك، لا تصرخ بي... ـ دمدمت أورتينس موشكة البكاء وهي تمسك بطنها المكور بيديها المحشورتين في قفازين.

ـ اعذريني يا أورتينس. كم هو الحر شديد هذه الليلة! في ما بعد سنتخذ قرارا يا عزيزتي، لا حاجة إلى التسرع.

أدركت أنها ارتكبت رعونة. كان عليها أن تتصرف مثل أمها وأخواتها اللاتي يحركن خيوطهن في الظل، بخبث، دون مواجهة مباشرة مع أزواجهن وجعلهم يعتقدون أنهم هم من اتخذوا القرار.

فالزواج كالمشي على البيض: لا بد من السير فيه بحذر شديد.

عندما صار بطنها واضحاً وصار عليها الاعتكاف في البيت ـ ليس هناك من سيدة تظهر أمام الملأ مع الدليل على أنها جامعت رجلاً ـ، ظلت أورتينس مضطجعة تحوك مثل عنكبوت. ودون أن تتحرك من مكانها كانت تعرف بالضبط ما يجري في المدينة: نمائم المجتمع، الأخبار المحلية، أسرار صديقاتها وكل خطوة يخطوها موريس التعيس. سانتشو وحده كان يفلت من مراقبتها لأنه فوضوي ويصعب تعقب أثره. وضعت أورتينس مولودها في عيد الميلاد، تحت إشراف الطبيب الأوسع شهرة في نيو أولينز، وفي البيت الذي اجتاحته نساء آل غيزو. ووجدت تيتي وبقية الخدم أن لديهم نقصاً في العاملين لتوفير الخدمة للزائرين. وعلى الرغم من أن الفصل شتاء، فقد كان الجو خانقاً وخصصوا عبدين لتحريك المراوح في الصالون وفي حجرة السيدة.

كانت أورتينس قد تجاوزت مرحلة الشباب الأول، وحذر الطبيب من إمكانية حدوث بعض المضاعفات، ولكنها وضعت في أقل من أربع ساعات طفلةً شقراء ضاربة إلى الحمرة مثل آل غيزو كلهم. وقد أعلن تولوز فالموران الجاثي إلى جانب سرير زوجته أن الصغيرة ستُسمى ماري أورتينس، مثلما يجب أن تسمى الابنة البكر، فصفق الجميع متأثرين باستثناء أورتينس التي انخرطت في بكاء غضب لأنها كانت تنتظر مولودا ذكراً ينافس موريس على الميراث.

وضعوا المرضع في العلية وأبعدوا تيتي إلى حجرة ضيقة في الفناء تتقاسمها مع عبدتين أخريين. وهذا الإجراء، حسب قول أورتينس، كان يجب أن يُتخذ من زمن طويل لتخليص موريس من العادة السيئة في الانتقال للنوم في فراش العبدة.

رفضت الصغيرة ماري أورتينس الثدي بإصرار شديد، فنصح الطبيب باستبدال المرضع قبل أن تموت الطفلة من الجوع. وتوافق تعميدها مع أفضل ما في قائمة مأكولات سيلستين: خنوص مع الخوخ، وفراخ بط بالخل، وثمار بحر بالفلفل الحار، وعدة أصناف من

البامية، وقوقعة سلحفاة مملوءة بالصدف البحري، وحلويات مستوحاة من الحلوى الفرنسية، وقالب تورتا من عدة طبقات متوجة بمهد من الخزف. كانت العادة تقتضي أن تكون العرابة من أسرة الأم، فكانت في هذه الحالة واحدة من أخواتها، وأن يكون العراب من أسرة الأب، ولكن أورتينس لم تقبل أن يكون رجل متهتك مثل سانتشو، وهو القريب الوحيد لزوجها، الحارس الأخلاقي لابنتها، فحط ذلك الشرف على أحد إخوتها. في ذلك اليوم حصل كل مدعو على هدية ـ علبة من الفِضة منقوش عليها اسم الطفلة ومملوءة باللوز المغطى بالسكر ـ وقُدمت قطعة نقدية لكل عبد. وبينما كان المدعوون يأكلون في صفين، كانت المحتفى بتعميدها تجأر من الجوع، لأنها لم تتقبل كذلك ثدي المرضع الثانية. أما الثالثة فلم تتمكن من الاستمرار أكثر من يومين.

حاولت تيتي أن تتجاهل ذلك البكاء اليائس، ولكن إرادتها وهنت وذهبت إلى فالموران لتخبره أن تانت روز كانت قد عالجت حالة مشابهة فيٍ سان لازار بحليب ماعز. وريثما يحصلون على عنزة، راحت تغلي أرزاً إلى أن تحلل، وأضافت إليه قليلاً من الملح وملعقة سكر، ثم صفته وقدمته للطفلة. بعد أربع ساعات من ذلك طهت وجبة أخرى مماثلة، ولكن من الشوفان في هذه المرة، وهكذا بوجبة بعد أخرى من هذا الخليط، مع العنزة التيٍ صارت تحلبها في الفناء، أنقذت الطفلة. وقد علق الطبيب مذهولاً: «هؤلاء الزنجيات يعرفن أحياناً أكثر مما يعرفه أحدنا». عندئذ قررت أورتينس أن تعود تيتي إلى العلية لتعنى بابنتها طوال الوقت. وبما أن السيدة مازالت معتكفة، لم يكن على تيتي أن تنتظر صياح الديك كي تنام، ولأن الطفلة لم تعد مزعجة في الليل، فقد تمكنت تيتي من التمتع بالراحة أخيراً.

أمضت السيدة قرابة ثلاثة شهور في الفراش، ومعها كلباها، والمدفأة مشتعلة والستائر مفتوحة للسماح بدخول شمس الشتاء، تعزي ضجرها باستقبال زيارات نسائية وبأكل الحلويات. لم تقدّر الطاهية سيلستين

مثلما قدرتها في ذلك الحين. وعندما وضعت حداً لراحتها أخيراً، بإلحاح من أمها وأخواتها القلقات من خمول الحريم ذاك، لم تجد ثوباً واحداً يتسع لها فواصلت استخدام فساتين الحمل نفسها، مع بعض التعديلات الضرورية كي تبدو فساتين أخرى مختلفة. خرجت من سباتها بزهو جديد، مستعدة لاستغلال متع المدينة قبل أن ينتهي الموسم ويضطروا للذهاب إلى المزرعة. كانت تخرج برفقة زوجها أو صديقاتها للتمشي على الحاجز البحري العريض، والمسمى بحق أطول طريق في العالم، بصفوف أشجاره وأركانه الفاتنة، حيث توجد على الدوام عربات تنزه، وفتيات مع وصيفاتهن وشبان على أحصنتهم ينظرون إليهن بطرف عيونهم، إضافة إلى الرعاع غير المرئيين لها. كانت ترسل في بعض الأحيان عبدين قبلها يحملان وجبة خفيفة والكلبين، بينما هي تستمتع بشم الهواء تتبعها تيتي حاملة بين ذراعيها الصغيرة ماري أورتينس.

في تلك الفترة قدم المركيز دوماريني ضيافته الرائعة للويس فيليب، أمير فرنسا المنفي منذ العام ١٧٩٣، خلال زيارته الطويلة للويزيانا. لقد ورث دوماريني ثروة هائلة قبل إكماله الخامسة عشرة من عمره ويقال إنه كان أغنى رجل في أميركا. وإن لم يكن كذلك، فإنه يفعل كل ما بوسعه كي يبدو ذلك صحيحاً: يشعل سيجاره بأوراق مالية. وقد بلغ تبذيره وشططه حداً جعل الأب أنطوان يستنكر ذلك التباهي بالثراء من منبره، مذكّراً المؤمنين بأن دخول جمل من ثقب إبرة أسهل من دخول غني من بوابة السماء، ولكن دعوته إلى التواضع كانت تدخل إحدى أذني الرعية وتخرج من الأخرى. فأشد العائلات زهواً كانت تزحف من أجل الحصول على دعوة من دوماريني، ولا يمكن لأي جمل، مهما كان وارداً في الإنجيل أن يجعلهم يتخلون عن تلك الحفلات.

لم تُدعى أورتينس وتولوز بسبب رفعة أسم أسرتيهما، مثلما كانا يتوقعان، وإنما بفضل سانتشو الذي تحول إلى رفيق سهر لدوماريني، وبين جرعتي خمر همس له أن صهره وزوجته يرغبان في التعرف على الأمير. كانت هناك أشياء كثيرة مشتركة تجمع بين سانتشو والمركيز

الشاب: لديهما الشجاعة البطولية نفسها للمجازفة بجلديهما في مبارزة بسبب إهانة متخيلة، وطاقة لا تنضب في اللهو، واستمتاع لا حدود له في المقامرة والخيل والنساء والطعام الجيد والشراب، ولديهما الازدراءِ الإلهيٍ نفسه للمال. فسانتشو غارثيا دل سولار يستحق أن يكون سيداً كريولياً صافياً، على حدّ قول دوماريني الذي يفاخر بأنه يتعرف وهو مغمض العينين على السادة الحقيقيين.

في يوم الحفلة، عمت حالة التأهب بيت آل فالموران. الخدم يتراكضون منذ الفجر لينفذوا أوامر أورتينس القاطعة، يصعدون الأدراج، وينزلون الأدراج حاملين دلاء ماء ساخن من أجل الحمام، وكريمات التدليك، ومغلى أعشاب للتنحيف من أجل التخلص في ثلاث ساعات من مشاكل عدة سنوات، ومرهم لتبيض البشرة، وأحذية، وأثواب، وشالات، وأحزمة، ومجوهرات، ومساحيق تجميل. الخيّاطة لا تهدأ، ومزين الشعر الفرنسي أصيب بِالإغماء وكان لا بد من إيقاظه بتدليكه بالخل. أما فالموران المنزوي جانبا بسبب الهياج الجماعي الجنوني، فخرج مع سانتشو لقتل الوقت في مقهى المهاجرينٍ، حيث لا يعدم وجود أصدقاء للمراهنة معهم بورق اللعب. وأخيرا، بعد أن انتهى مصفف الشعر ودينس من رفع برج شعر أورتينسٍ الأجعد، وتزيينه برياش ديك بريّ ومشبك ذهبي وماسة مطابقة تماما لماسات العقد والقرطين، جاءت اللحظة الحاسمة لإلباسها الفستان المجلوب من باريس. ألبستها إياه دينس والخيّاطة من أسفل إلى أعلى كيلا تُفسدا تسريحة الشعر. كان الفستان أعجوبة من السُّدل الحريرية والطيات العميقة مما منح أورتينس مظهر تمثال إغريقي رٍوماني مثيرٍ وعندما حاولتا إغلاقه من الخلف بوساطة ثمانية وثلاثين زرا صغيراً جدا من الصدف، تبين لهما أنه لا يتسع لها مهما بذلن من جهد، لأن التوتر العصبي زاد من وزنها في ذلك الأسبوع كيلوغرامين آخرين على الرغم من أعشاب التنحيف التي تناولتها. أطلقت أورتينس صرخة كادت أن تفتت المصابيح شظايا وجمعت حولها كل سكان البيت.

تراجعت دينس والخيّاطة إلى أحد الأركان وتكورتا على الأرض بانتظار الموت، ولكن تيتي التي لا تعرف السيدة مثلهما اقترحت فكرة سيئة خطرت، بتثبيت الفستان بدبابيس تُخبأ تحت شريطة الحزام. فردت أورتينس بصرخة أخرى غاضبة، وتناولت السوط الذي تحتفظ به دوماً في متناول يدها ورفعته عالياً وهي تطلق شتائم بحارة وتضربها بالحقد المتراكم ضدها، ضد الخليلة، وبالاستياء الذي تشعر به ضد نفسها لأنها ازدادت سمنة.

سقطت تيتي جاثية، متكورة على نفسها، مغطية رأسها بذراعيها. شاس! شاس! كان السوط يفرقع، وكل أنّة من العبدة تزيد من أوار نار السيدة. ثماني، تسع، عشر جلدات هوت مدوية كألسنة لهب متوقدة دون أن يشفي ذلك غليل أورتينس المحمرة والمتعرقة التي راح برج شعرها يتفكك في خصل مثيرة للشفقة.

في تلك اللحظة اندفع موريس إلى الحجرة مثل ثور، مزيحاً من يرون المشهد مشلولين، وبدفعة قوية، غير متوقعة من صبي تجاوزٍ الحادية عشرة من العمر ويحاول تفادي العنف، طرح زوجةٍ أبيه أرضاً. انتزع منها السوط ووجه إليها ضربة أراد لها أن تترك أثراً في وجهها، ولكنها أصابت رقبتها، فقطعت عنها الهواء والصرخة التي في صدرها. رفع يده لمواصلة ضربها خارجاً عن طوره مثلما كانت هي نفسها قبل لحظات، ولكن تيتي زحفت كيفما استطاعت، وأمسكت بساقيه وأوقعته إلى الخلف. فهوت ضربة السوط الثانية على طيات موسلين فستان أورتينس.

ضيعة العبيد

أرسلوا موريس إلى النظام الداخلي في مدرسة ببوسطن، حيث سيتولى المعلمون الأمريكيون الصارمون تحويله إلى رجل عن طريق مناهج تعليمية وانضباط مستوحى من الأساليب العسكرية. ذهب موريس بأمتعته القليلة في صندوق، يرافقه مرافق جرى التعاقد معه لهذا الغرض، وقد تركه عند بوابة المؤسسة التعليمية مربتاً على كتفه تربيتة مواساة. لم يتمكن الطفل من وداع تيتي، لأنها أُرسلت دون تروٍ، في الصباح التالي لضربها، إلى المزرعة مع تعليمات إلى أوين مورفي بأن يحولها فورا إلى قطع القصب في الحقول. رآها رئيس مراقبي العمال تصل مغطاة بآثار الضرب، كل أثر منها بثخانة حبل جر الجواميس، ولكن دون أي ندبة في الوجه لحسن الحظ، فأرسلها إلى مستشفى زوجته. كانت لين مشغولة بعملية ولادة معسرة، فأشارت إليها أن تستخدم مرهماً من الألوة، وظلت مركزة على المرأة الشابة التي كانت تصرخ مرعوبة من العذاب الذي يهز جسدها منذ ساعات طويلة.

لين التي أنجبت سبعة أبناء بسرعة ودون كثير من التصنع، ولفظتهم من بدن الفروج الذي لها ما بين ترديد أبانا الذي في السماء مرتين، لاحظت أن لديها مصيبة بين يديها. اقتادت تيتي جانباً وأوضحت لها بصوت خافت، كيلا تسمعها المرأة الأخرى، أن الطفل عالق بالعرض ولا سبيل إلى إخراجه. «لم تمت امرأة بين يدي أثناء المخاض قط، وستكون هذه هي الأولى»، قالت هامسة. فردت عليها تيتي: «دعيني أر يا سيدتي». أقنعت المرأة بأن تسمح لها بفحصها، طلت يدها بالزيت وتأكدت بأحد أصابعها الرفيعة والخبيرة أن موعد الوضع قد حان وأن تشخيص لين صائب. ومن خلال جلد البطن المشدود أدركت الوضع

الذي يتخذه الطفل كما لو أنها تراه. طلبت من المرأة أن تركع على ركبتيها وتسند رأسها إلى الأرض رافعة مؤخرتها، من أجل تخفيف الضغط عن الحوض، وراحت في أثناء ذلك تدلك بطن المرأة ضاغطة بكلتا يديها لتدير وضع الطفل من الخارج. لم تقم بمثل هذه العملية من قبل، ولكنها كانت قد رأت تانت روز تفعل ذلك، ولم تنسه. وفي تلك اللحظة أطلقت لين صرخة: لقد أطلت يدٌ صغيرة مطبقة من قناة الولادة. دفعتها تيتي إلى الداخل برفق كيلا تخلع الكتف إلى أن اختفت اليد داخل الأم، وواصلت مهمتها بصبر. وبعد وقت بدا طويلاً جداً، أحست بحركة الصغير الذي راح ينقلب ببطء إلى أن اتخذ رأسه الوضع السليم. لم تستطع كبح إجهاشة امتنان، وبدا لها أنها ترى تانت روز مبتسمة إلى جانبها.

أسندت هي ولين الأم التي أدركت ما الذي يحدث وأبدت تعاونها بدل أن ترثي لحالها مجنونة بالخوف، وجعلتاها تمشي بصورة دائرة وهما تحدثانها وتداعبانها. كانت الشمس قد غابت في الخارج وانتبهن إلى أنهن في الظلام. أشعلت لين مصباح شحم، وواصلن المشي إلى أن حانت لحظة استقبال الوليد. «إرزولي، أيتها *اللوا* الأم، ساعديه على الولادة»، توسلت تيتي بصوت عالٍ. «أيها القديس رامون نوناتو، قدم عنايتك، لا أريدك أن تسمح لقديسٍ أفريقي أن يسبقك»، ردّت لين بالنبرة المتوسلة نفسها وانفجرت كلتاهما في الضحك. أجلستا الأم القرفصاء فوق قطعة قماش نظيفة، وثبتتاها من ذراعيها، وبعد عشر دقائق كانت تيتي تحمل بين ذراعيها وليداً مُزرقاً، أجبرته على التنفس بصفعة على مؤخرته بينما كانت لين تقطع الحبل السري.

بعد تنظيف الأم ووضع الابن على صدرها، جمعتا الخرق الملوثة بالدم وبقايا عملية الولادة وجلستا على مقعد طويل عند المدخل لتستريحا تحت سماء سوداء مرصعة بالنجوم. وهكذا وجدهما أوين مورفي الذي جاء يؤرجح قنديلا في إحدى يديه وفي يده الأخرى إبريق قهوة ساخنة.

ـ كيف تمضي هذه المسألة؟ ـ سأل الرجل الضخم وهو يقدم إليهما القهوة دون أن يقترب أكثر، لأن الأسرار النسائية تُخجله.

ـ لقد صار لدى رب عملك عبد آخر، وصار لديّ مساعدة ـ أجابت زوجته مشيرة إلى تيتي.

ـ لا تسببي لي المشاكل يا لين. لدي أمر بوضعها ضمن فريق عمل في حقول القصب ـ تلعثم مورفي.

ـ منذ متى تطيع أوامر الآخرين أكثر من أوامري؟ ـ ابتسمت وهي تقف على رؤوس أصابعها لتطبع قبلة على رقبته، حيث تنتهي لحيته السوداء.

وهذا ما جرى دون أن يسأل أحد عن الأمر، لأن فالموران لا يريد معرفة شيء، ولأن أورتينس اعتبرت موضوع الخليلة المزعج منتهياً وانتزعته من رأسها.

وفي المزرعة، صارت تيتي تتقاسم كوخاً مع ثلاث نساء وطفلين. تستيقظ مثل الجميع مع قرع جرس الفجر وتقضي النهار مشغولة في المستشفى والمطبخ، وفي العناية بالحيوانات الداجنة، وألف عمل آخر يكلفها به رئيس مراقبي فرق العمال وزوجته لين. وقد بدا لها العمل خفيفاً بالمقارنة مع نزوات أورتينس. لقد عملت طوال حياتها في البيت، وعندما أرسلوها إلى الريف ظنت أنه قد حُكم عليها بالموت البطيء، مثلما كانت ترى في سان دومانغ. لم تتصور أنها ستجد شيئاً أقرب إلى السعادة.

كان هناك حوالي مائتي عبد، بعضهم مجلوبين من أفريقيا أو من جزر الأنتيل، ولكن معظمهم ممن ولدوا في لويزيانا، توحدهم الحاجة إلى المساندة المتبادلة، ونكبة كونهم ملكاً لشخص آخر. فبعد أن يُقرع جرس المساء، وعندما ترجع فرق العمل من الحقول، تبدأ حياة الجماعة الحقيقية. تجتمع الأسر، ويظلون في الخارج مادام هناك ضوء، لأنه لا وجود في الأكواخ لمتسع أو هواء. الحساء يُرسل من مطبخ المزرعة ويوزع عليهم بعربة يدوية، ويضيف الناس خضروات،

وبيضاً، وإذا كانت هناك مناسبة يُحتفل بها، يضيفون دجاجاً أو أرانب. لديهم على الدوام أعمال ينجزونها: الطبخ، الخياطة، سقاية مزروعات الحديقة، إصلاح سقف. وما لم يهطل المطر أو يشتد البرد، تجد النساء وقتاً لتبادل الحديث والرجال للعب بحصى صغيرة على رقعة مرسومة على الأرض أو العزف على البانجو. الفتيات يسرحن شعور بعضهن بعضاً، والأطفال يتراكضون، ويشكلون حلقة ليسمعوا قصة. الحكايات المفضلة هي التي تُروى عن «براس كوبي» الذي يرعب الصغار والكبار على السواء، وهو زنجي أبتر وعملاق، يطوف حول المزارع، وقد نجا من الموتِ أكثر من مئة مرة.

لقد كان مجتمعاً تراتبياً. من ينالون أعلى تقدير فيه هم الصيادون الذين يرسلهم مورفي للحصول على اللحم: لحم غزلان، وطيور، وخنازير برية من أجل الحساء. في أعلى الهرم يستقر من يتقنون مهنة، كالحدادة أو النجارة، والأقل قيمة هم حديثو الوصول. الجدات يأمرن، ولكن من يتمتع بأوسع الصلاحيات هو الواعظ، في حوالي الخمسين من عمره وله بشرة شديدة السواد إلى حدّ تبدو معه زرقاء، وهو المكلف بالبغال والأفراس وأحصنة الجر. يقود التراتيل الدينية بصوت رفيع لا يُقاوَم، ويستشهد بأقوال لقديسين من اختراعه، ويكون الحكم في المنازعات، لأنه ليس هناك من يرغب في عرض مشاكله خارج الجماعة. ومع أن مراقبي العمال من العبيد، ويعيشون مع الآخرين، فإن لهم قلة من الأصدقاء. ومن عادة الخدم المنزليين زيارة أكواخ العبيد، ولكن ليس هناك من يحبهم، لأنهم يتباهون، ويلبسون ويأكلون أفضل من الآخرين، ويمكن أن يكونوا جواسيس للسادة. لقد استقبلوا تيتي باحترام حذر، فقد عُرف أنها قلبت وضع الطفل داخل رحم أمه. وقد قالت إن ذلك كان معجزة توافقت فيها إرزولي مع القديس رامون نوتانو، فأعجب تفسيرها الجميع، بمن فيهم أوين مورفي الذي لم يكن قد سمع بإرزولي من قبل، وظن أنها قديسة كاثوليكية.

وفي ساعات الراحة كان رؤساء فرق العمل يتركون العبيد وشأنهم، فلا وجود لرجال مسلحين يقومون بالدورية، ولا لكلاب شديدة الضراوة، ولا لأوين مورفي في الظلال حاملاً سوطاً ملفوفاً يطلب فتاة عذراء في الحادية عشرة من عمرها لمرافقته في أرجوحة نومه. وبعد العشاء يمر أوين مورفي مع ابنه براندان ليلقي نظرة أخيرة ويتحقق من استتباب النظام قبل أن ينسحب إلى بيته، حيث تنتظره أسرته من أجل تناول الطعام والصلاة. ويتجاهل الأمر حين يشم في منتصف الليل رائحة اللحم المشوي التي تدل على أن أحدهم قد خرج واصطياد يرابيعاً في الظلام. فهو لا يتخذ أية إجراءات مادام الرجل يحضر إلى العمل بدقة عند الفجر.

وكما في كل مكان، كان العبيد المستاؤون يكسرون أدوات العمل، ويشعلون حرائق، ويلحقون الأذى بالبهائم، ولكنها تظل تصرفات فردية معزولة. وكان بعضهم يسكرون، ولا يعدم من يذهب إلى المستشفى متصنعاً المرض ليستريح لبعض الوقت. أما المريضون فعلاً فيثقون بالأدوية التقليدية: شرائح بطاطا توضح على مواضع الألم، شحم تمساح لالتهابات مفاصل العظام، أشواك مغلية للتخلص من ديدان الأمعاء، وجذور نباتات هندية لحالات المغص. ولم تتمكن تيتي من إدخال بعض أساليب تانت روز في العلاج. فلا أحد منهم يرغب في تجريب تلك الأساليب على صحته.

تبين لتيتي أن قلة قليلة جداً من رفاقها يعانون هاجس الهرب كما في سان دومانغ، وإذا ما أقدموا على ذلك، فإنهم يرجعون وحدهم عموماً بعد يومين أو ثلاثة أيام وقد تعبوا وهم يهيمون على وجوههم في المستنقعات، أو يعتقلهم حراس الدروب. فيتلقون عقوبة جلد بالسوط، ويعودون مذلين مهانين للانضمام إلى الجماعة، ولا يجدون الكثير من التعاطف معهم، لأن أحداً لا يريد المشاكل. وكان الكهنة الجوالون وأوين مورفي يرددون على مسامعهم الحديث عن فضيلة الانصياع والاذعان، وعن الثواب عليها في السماء، حيث تتمتع جميع

الأنفس بالسعادة نفسها. فكانت تيتي ترى أن ذلك أكثر ملاءمةً للبيض منه للزنوج، وأنه من الأفضل أن تكون السعادة موزعة جيداً في هذا العالم، ولكنها لم تتجرأ على طرح الأمر على لين للأسباب نفسها التي تجعلها تشارك في الصلوات بحبور كيلا تُغضبها. لم تكن تثق بديانة السادة. وكانت ديانة الفودو التي تمارسها على طريقتها جبرية أيضاً، ولكنها تستطيع بها اختبار السلطة الإلهية على الأقل حين تتلبسها *اللوات*.

قبل معايشتها أناس الريف، لم تكن العبدة تدري مدى توحد حياتها، حيث لم يكن لها من حب سوى حب موريسٍ وروزيت، ودون أحد تتبادل معه ذكرياتها وتطلعاتها. اعتادت سريعا على ذلك المجتمع الريفي، ولم تكن تشتاق إلاً إلى الطفلين. تتخيلهما وحيدين في الليل، مرتعبين، فتنشطر روحها حزناً.

ـ عندما يذهب أوين في المرة القادمة إلى نيو أورلينز سيأتيك بأخبار عن ابنتك ـ وعدتها لين.

ـ متى سيحدث ذلك يا سيدتي؟

ـ حين يستدعيه رب عمله يا تيتي. فالذهاب إلى المدينة مكلف جداً، ونحن نحاول ادخار كل سنت نكسبه.

كان الزوجان مورفي يحلمان بشراء أرض والعمل فيها جنباً إلى جنب مع أبنائهم، مثل مهاجرين آخرين كثيرين، ومثل بعض الخلاسيين والزنوج الأحرار. كانت المزارع الكبيرة، مثل مزرعة فالموران، قليلة جدا؛ فمعظم الملكيات تقتصر على حقول متوسطة أو صغيرة تزرعها أسر متواضعة، يكون لديها بعض العبيد، ويعيش هؤلاء الحياة نفسها التي يعيشها أسيادهم. لقد روت لين لتيتي أنها وصلت إلى أميركا محمولة بين أذرع والديها اللذين تعاقدا مع مزرعة كفلاحين أقنان لمدة عشر سنوات من أجل تسديد قيمة تذكرة السفر في السفينة من أيرلندا، وهو أمر لا يختلف عملياً عن العبودية.

ـ أتدرين أن هناك رقيق أبيض كذلك يا تيتي؟ وهم أقل قيمة من

الزنوج، لأنهم لا يتمتعون بمثل قوتهم. ولكن السادة يدفعون سعراً أعلى مقابل النساء البيض. وأنت تعلمين لماذا يستخدمونهم.

ـ لم أرَ عبيداً من البيض قط يا سيدتي.

ـ هناك كثيرون منهم في بربادوس، وكذلك هنا.

لم يحسب أبوا لين أن أرباب عملهما سيتقاضون ثمن كل لقمة خبز يأكلانها وسيحسمون أجر كل يوم لا يعملان فيه، حتى لو كان سوء المناخ هو السبب، وهكذا كانت دِيونهما تتزايد بدل أن تنقص.

ـ مات أبي بعد اثني عشر عاماً من العمل الشاق، وواصلنا أنا وأمي الخدمة عدة سنوات أخرى، حتى أرسل لنا الله أوين الذي وقع في حبي وأنفق كل مدخراته في تسديد ديوننا. هكذا استعدنا أنا وأمي حريتنا.

ـ لم أتصور قط أنكِ كنت عبدة ـ قالت تيتي متأثرة.

ـ كانت أمي مريضة، وقد ماتت بعد قليل من ذلك، ولكنها تمكنت من رؤيتي حرة. إنني أعرف ما الذي تعنيه العبودية. فالمرء يفقد كل شيء: الأمل، والكرامة، والإيمان ـ أضافت لين.

ـ السيد مورفي... ـ تلعثمت تيتي دون أن تدري كيف تطرح سؤالها.

ـ زوجي رجل طيب يا تيتي، إنه يحاول التخفيف من وطأة حياة الزنوج. وهو لا يحب العبودية. عندما نمتلك أرضنا الخاصة، سنزرعها وحدنا مع أبنائنا. سنذهب إلى الشمال، وهناك ستكون الأمور أكثر سهولة.

ـ أتمنى لكم التوفيق يا سيدة مورفي، ولكننا سنحزن جميعنا هنا إذا ما غادرتم.

الكابتن «ليبرتيه»

وصل الدكتور بارمونتيه إلى نيو أورلينز في بداية العام ١٨٠٠ ، بعد ثلاثة شهور من تنصيب نابليون بونابرت نفسه بنفسه قنصلاً أول لفرنسا. كان الطبيب قد خرج من سان دومانغ عام ١٧٩٤ ، بعد المجزرة التي ذهب ضحيتها أكثر من ألف مدني أبيض على يد المتمردين، وكان له عدد من المعارف بينهم. لهذا، وليقينه بأنه لن يستطيع العيش بعيداً عن آديل وأبنائه، قرر المغادرة. فبعد أن أرسل أسرته إلى كوبا واصل العمل في مستشفى لوكاب يراوده الأمل غير العقلاني بأن عاصفة الثورة ستهدأ وسيتمكن أفراد أسرته من العودة. لقد نجا من مداهمات ومؤامرات وهجمات ومجازر لأنه أحد الأطباء القليلين الذين ظلوا في الجزيرة، ولأن توسان لوفيرتور كان يحترم هذه المهنة أكثر من أي مهنة أخرى، ووفر له حمايته الشخصية. ولكن تلك الحماية كانت أشبه بأمر موارب بالاحتجاز، تمكن بارمونتيه من خرقه بتواطئ سري مع أحد أكثر الضباط المقربين من توسان، والرجل الذي يحظى بثقته، الكابتن ليبرتيه«حرية». كان الكابتن، على الرغم من فتوته ـ فقد أكمل العشرين من عمره للتو ـ قد قدم أدلة على الولاء المطلق، وكان إلى جانب الجنرال توسان في الليل والنهار منذ عدة سنوات، فكان توسان يشير إليه على أنه النموذج المثالي الحقيقي للمحارب الشجاع والفطن. ويقول: ليس الأبطال المتهورون الذين يتحدون الموت هم من سيكسبون هذه الحرب، وإنما رجال يرغبون في الحياة من أمثال الكابتن ليبرتيه. وكان يكلفه بأشد المهمات حساسية بسبب تكتمه، وأكثرها جسارة بسبب برودة أعصابه. لقد كان الكابتن مراهقاً عندما وضع نفسه تحت أمرته، وصل شبه عارٍ ودون أي رأس مال سوى ساقيه السريعتين، وسكين قطع قصب مرهفة مثل شفرة، والاسم الذي

أطلقه عليه أبوه في أفريقيا. رفّعه توسان إلى رتبة كابتن بعد أن أنقذ الشاب حياته للمرة الثالثة، عندما نصب له زعيم متمرد آخر كميناً بالقرب من ليمبيه، حيث تم قتل أخيه جان بيير. فكان انتقام توسان فورياً وحاسماً: دمر معسكر الخائن تماماً. وخلال محادثة امتدت حتى الفجر، بينما المتبقون أحياء يحفرون قبراً جماعياً والنساء يكوّمن الجثث قبل أن تتخاطفها نسور الرخمة، سأل توسان المحارب الشاب عن دافعه إلى القتال.

ـ إنه السبب الذي يدفعنا جميعنا إلى القتال يا سيدي الجنرال، من أجل الحرية ـ أجابه.

ـ لقد توصلنا إليها، فالعبودية قد أُلغيت. ولكننا قد نخسر حريتنا في أي لحظة.

ـ لن نخسرها إلا إذا خان بعضنا بعضاً أيها الجنرال. وباتحادنا سنكون أقوياء.

ـ طريق الحرية شديد الوعورة يا بني. يبدو لنا أحياناً أننا نتراجع، نتحالف، وتضيع عن نظرنا مبادئ الثورة... ـ دمدم الجنرال وهو يتأمله وعيناه على الخنجر.

ـ أنا كنت موجوداً عندما عرض الزعماء على البيض إعادة الزنوج إلى العبودية مقابل حصولهم هم وأسرهم وبعض ضباطهم على الحرية ـ ردّ الشاب مدركاً أنه يمكن لكلماته أن تُفسر على أنها تأنيب أو استفزاز.

ـ في إستراتيجية الحرب تكون الأمور الواضحة قليلة جداً، إننا نتحرك وسط ظلال ـ أوضح توسان دون أن يطرأ عليه أي تبدل ـ. وفي بعض الأحيان لا بد من التفاوض.

ـ أجل يا سيدي الجنرال، ولكن ليس بمثل ذلك الثمن. لن يقبل أي من جنودك العودة إلى العبودية، فجميعنا نفضل الموت على ذلك.

ـ وأنا أيضاً يا بني ـ قال توسان.

ـ إنني متأسف لموت أخيك جان بيير أيها الجنرال.

ـ أنا وجان بيير كنا متحابين جداً، ولكن يتوجب التضحية بالحيوات الشخصية في سبيل القضية المشتركة. أنت جندي جيد أيها الفتى. سوف أُرقيك إلى رتبة كابتن. أتحب أن يكون لك لقب؟ أي لقب تحب على سبيل المثال؟

ـ «حرية» يا سيدي الجنرال ـ أجاب الآخر دون تردد، وتأهب بانضباط عسكري استنسخته قوات توسان من الفرنسيين.

ـ حسن. ستكون منذ الآن الكابتن «ليبرتيه» ـ قال توسان.

قرر الكابتن ليبرتيه مساعدة الدكتور بارمونتيه على الخروج سراً من الجزيرة، فقد وضع في الميزان قيامه الصارم بالواجب الذي لقنه أياه توسان، والشكر الذي يدين به للطبيب. فوجد أن كفة الشكر هي الراجحة. كان البيض يغادرون فور تمكنهم من الحصول على جواز سفر وتدبر أمر أموالهم. وكان معظم النساء والأطفال قد ذهبوا إلى جزر أخرى أو إلى الولايات المتحدة، ولكن الرجال كانوا يجدون صعوبة كبيرة في الحصول على جواز سفر، لأن توسان بحاجة إليهم لتوسيع صفوف قواته وإدارة المزارع. فقد كانت المستعمرة شبه مشلولة، تفتقر إلى الحرفيين والمزارعين والتجار والموظفين والمهنيين في كافة الفروع، ولم يكن يفيض عن الحاجة هناك سوى قطاع الطرق والمومسات الذين يستطيعون العيش في كل الظروف. كان غامبو «ليبرتيه» يدين للطبيب المتكتم بإنقاذ إحدى يدي الجنرال توسان، وبحياته هو بالذات. فبعد رحيل الراهبات عن الجزيرة، ظل بارمونتيه يدير المستشفى العسكري مع فريق ممرضات دربهن بنفسه. لقد كان الطبيب الوحيد والأبيض الوحيد في المستشفى.

أثناء الهجوم علي حصن بلار، هشمت قذيفة مدفع أصابع يد توسان، وكان جرحاً معقداً وقذراً، وتمثل الحل الوحيد الجلي في البتر، ولكن الجنرال رأى أنه يتوجب ترك ذلك كوسيلة أخيرة. فخلال تجربته كـ «طبيب أعشاب»، كان توسان يفضل الحفاظ على كمال مرضاه الجسدي مادام ذلك ممكناً. لف يده بلبخة أعشاب، وامتطى جواده

الأصيل «بيل أرجنت»، وقاده غامبو ليبرتيه بأقصى سرعة إلى مستشفىٍ لوكاب. فحص الدكتور بارمونتيه الجرح وأدهشه أنه لم يكن ملتهبا على الرغم من عدم تلقيه العلاج وتعرضه لغبار الطريق. طلب نصف لتر روم لتغييب المصاب عن الوعي، وجنديين لتثبيته، ولكن توسان رفض ذلك العون. فهو لا يشرب الخمر، ولا يسمح أن يمسه أحد غير أفراد أسرته. قام بارمونتيه بمهمة تنظيف الجراح الشاقة وأعاد العظام واحداً فواحداً إلى أماكنها تحت النظرات المتنبهة للجنرال الذي كان عزاؤه الوحيد الضغط بأسنانه على قطعة جلد سميكة. وعندما انتهى الطبيب من تضميد الجرح وثبت الذراع بحمالة إلى عنقه، بصق توسان قطعة الجلد الممضوغة، وشكره بتهذيب وطلب منه أن يعالج الكابتن. عندئذ التفت بارمونتيه أول مرة نحو الرجل الذي جاء بالجنرال حتى المستشفى ووجده يستند إلى الجدار بعينين زجاجيتين، وتحته بركة من الدم.

وصلت إحدى قدمي غامبو إلى حافة القبر مرتين خلال الأسابيع الخمسة التي استبقاه فيها بارمونتيه في المستشفى، وفي كل مرة كان يعود إلى الحياة مبتسماً وبذكرى واضحة عما رآه في فردوس غينيا، حيث ينتظره أبوه وحيث تصدح الموسيقى على الدوام، وتنحني الأشجار مثقلة بالثمر، وتنمو الخضرة من تلقاء ذاتها، وتتقافز الأسماك من الماء ويمكن الإمساك بها دون جهد، وحيث الجميع يمضون أحراراً: إنها الجزيرة تحت البحر. كان قد فقد الكثير من الدم من خلال الثقوب الثلاثة التي أحدثها الرصاص في جسده. ثقبان في أحد الفخذين وثالث في الصدر. أمضى بارمونتيه أياماً وليالي بكاملها إلى جانبه، يصارع بكل قوة لانتزاعه من الموت، دون أن يستسلم، لأنه أحس بالتعاطف مع الكابتن الذي يتمتع بشجاعة استثنائية يرغب هو نفسه في امتلاكها.

ـ يبدو لي أنني رأيتك من قبل في مكان ما أيها الكابتن ـ قال له خلال مرحلة العلاج الرهيبة.

ـ آه! أرى أنك لست من أولئك البيض غير القادرين على تمييز

زنجي عن آخر ـ قال غامبو ساخراً.

ـ لون البشرة في مهنتنا هذه هو آخر ما يهمنا، فكل الدماء متماثلة، ولكنني أعترف لك بأنني أجد صعوبة في التمييز بين أبيض وآخر في بعض الأحيان ـ أجابه بارمونتيه.

ـ إن لك ذاكرة جيدة يا دكتور. لا بد أنك رأيتني في مزرعة سان لازار. لقد كنتُ مساعد الطاهية هناك.

ـ لست أتذكر ذلك، ولكن وجهك يبدو مألوفاً لي ـ قال الطبيب ـ. لقد كنتُ أزور في ذلك الحين صديقي فالموران والمداوية تانت روز. أظن أنها هربت قبل أن يهاجم المتمردون المزرعة. لم أعد إلى رؤيتها، ولكنني أفكر فيها دوماً. لو أنني عالجتك قبل تعرفي عليها أيها الكابتن، لكنتُ بدأت ببتر ساقك، ولحاولت بعد ذلك معالجة النزيف. ولكنتُ قتلتُكَ على الفور وبأطيب النوايا. وإذا كنتَ لا تزال حياً فإن الفضل يعود للأساليب التي علمتني إياها تانت روز. هل لديك أخبار عنها؟

ـ إنها «طبيبة أعشاب» و*مامبو*. لقد رأيتها عدة مرات، فحتى جنرالنا توسان يستشيرها. إنها تتنقل من معسكر إلى آخر، تعالج وتقدم النصائح. وأنت يا دكتور، هل تعرف شيئاً عن زاريتيه؟

ـ عمن؟

ـ عبدة عند الأبيض فالموران. يدعونها تيتي.

ـ أجل، لقد تعرفتُ إليها. وقد غادرت مع سيدها بعد حريق لوكاب، وأظن أنها ذهبت إلى كوبا ـ قال بارمونتيه.

ـ لم تعد عبدة يا دكتور. إنها تملك حريتها في ورقة موقعة ومختومة.

ـ لقد أرتني تيتي الورقة، ولكنهم عند خرجوا من هنا لم يصادقوا على إعتاقها ـ أوضح له الدكتور.

خلال تلك الأسابيع الخمسة، اعتاد توسان لوفيرتور السؤال عن الكابتن، وفي كل مرة كان جواب بارمونتيه هو نفسه: «إذا كنتَ راغباً في أن أعيده إليك، فلا تستعجلني أيها الجنرال». وكانت الممرضات مغرمات بكابتن **الحرية**، وما إن تمكن من الجلوس، حتى كانت أكثر

من واحدة منهن تندس ليلاً في فراشه، وتمتطيه دون أن تسحقه وتقدم إليه، بجرعة محسوبة، أفضل علاج مضاد لفقر الدم، بينما هو يدمدم باسم زاريتيه. لم يكن بارمونتيه يجهل ذلك، ولكنه توصل إلى أنه إذا كان الجريح سيشفى بتلك الوسيلة، فليواصلن حبه. وأخيرا استرد غامبو عافيته بما يكفي لامتطاء فرسه وحمل بندقية على كتفه والانطلاق للاجتماع بجنراله.

ـ أشكرك أيها الدكتور. لم أكن أظن أنني سأتعرف على أبيض محترم ـ قال له عند الوداع.

ـ وأنا لم أكن أظن أنني سأتوصل إلى التعرف على زنجي يقدم الشكر ـ رد عليه الدكتور مبتسماً.

ـ أنا لا أنسى أبداً المعروف ولا الإساءة. وآمل أن أتمكن يوماً أن أرد لك ما فعلته من أجلي. فاعتمد عليّ.

ـ يمكنك عمل ذلك الآن بالذات إن كنتَ راغباً في ذلك. فأنا بحاجة إلى الاجتماع بأسرتي في كوبا، وأنت تعلم أن الخروج من هنا شبه مستحيل.

بعد أحد عشر يوماً من ذلك، حمل زورق صياد سمك الدكتور بارمونتيه بضربات مجذاف في ليلة بلا قمر حتى فرقاطة راسية على مسافة من الميناء. فقد حصل له الكابتن حرية على تصريح مرور وبطاقة سفر، وكانت تلك إحدى التدابير القليلة التي أقدم عليها من وراء ظهر توسان لوفيرتور في مسيرته العسكرية اللامعة. وقد اشترط على الطبيب أن ينقل إلى تيتي، إذا ما عاد للقاء بها، رسالة منه: «قل لها إن اختصاصي هو الحرب وليس الحب. فلا تنتظرني، لأنني نسيتها». ابتسم بارمونتيه حيال تناقض الرسالة.

دفعت رياح معاكسة نحو جاميكا الفرقاطة التي سافر بها بارمونتيه ولاجئون فرنسيون آخرون، ولكنهم لم يسمحوا لهم هناك بالنزول إلى البر، وبعد دوران طويل في تيارات الكاريبي الغادرة، متفادين أعاصير وقراصنة، وصلوا إلى سنتياغو دي كوبا. ذهب الدكتور براً إلى هافانا

للبحث عن آديل. فخلال فترة بعادهما لم يستطع أن يرسل إليها نقوداً، ولم يكن يدري في أي حالة من البؤس سيجد أسرته. كان لديه عنوان أرسلته هي نفسها إليه في رسالة قبل بضعة شهور، وهكذا وصل إلى حي بيوت متواضعة، ولكنها في حالة جيدة من الصيانة، في شارع مرصوف بالحجارة، حيث البيوت تشكل ورشاً لمهن مختلفة: سروج، صناع باروكات شعر، اسكافيون، صانعو أثاث، رسامون، وطاهيات يحضرن مأكولات في بيوتهن لبيعها في الشارع. زنجيات كبيرات ومهيبات بملابسهن القطنية المنشاة وعماماتهن ذات الألوان البراقة يعبقن براوئح التوابل والسكر، يخرجن من بيوتهن يؤرجحن سلالاً وصواني بمأكولاتهن وحلوياتهن اللذيذة، يحيط بهن أطفال عراة وكلاب. لم تكن للبيوت أرقام، ولكن كان لدى بارمونتيه وصفاً للمكان ولم يجد صعوبة في الوصول إلى بيت آديل المطلي بلون أزرق كوبالتي، وله سقف قرميد أحمر، وباب ونافذتان مزينة بأصص بيغونيا. ولافتة معلقة على الواجهة تعلن بحروف سميكة بالإسبانية: «مدام آديل، أزياء باريسية». طرق الباب بقلب يخفق بشدة، وسمع نباحاً، وبضع خطوات راكضة، فتح الباب ووجد نفسه أمام ابنته الصغرى وقد صارت أطول شبراً مما يتذكرها عليه. أطلقت الطفلة صرخة وقفزت إلى عنقه مجنونة بالسعادة، وخلال ثوان قليلة أحاط به بقية أفراد العائلة، أما هو فخارت ركبتاه من الإنهاك والحب. لقد تصور في مرات كثيرة أنه لن يعود لرؤيتهم أبداً.

لاجئون

لم يطرأ على آديل سوى تبدل طفيف جداً، حتى إنها كانت ترتدي الثوب نفسه الذي غادرت به سان دومانغ قبل سنة ونصف السنة. كانت تكسب قوتها من الخياطة، مثلما فعلت على الدوام. وكان دخلها المتواضع يكفيها بشق النفس لدفع الإيجار وإطعام أبنائها، ولكن لم يكن من طبعها الشكوى والتحسر على ما تفتقر إليه وإنما الحمد على ما تملكه. تأقلمت مع أطفالها على العيش بين زنوج المدينة الأحرار الكثيرين، وسرعان ما صار لديها زبائن أوفياء. كانت تتقن مهنة الخيط والإبرة على أحسن وجه، ولكنها لا تعرف مجاراة الموضة الدارجة. فكانت فيوليت بواسيير تتولى وضع التصاميم. وقد تقاسمتا تلك الصحبة الحميمة التي توحد في المنفى عادة من لم يتكلفوا إلقاء نظرة ثانية في مسقط رأسهم.

كانت فيوليت قد استقرت مع لولا في بيت متواضع في حي للبيض والخلاسيين، أعلى بعدة درجات في التراتبية الطبقية من حي آديل، بفضل هيبتها وبفضل النقود التي ادخرتها في سان دومانغ. وقد أعتقت لولا رغماً عنها، ووضعت جان مارتن في مدرسة داخلية للراهبات لتوفر له أفضل تربية ممكنة. فقد كانت لديها مخططات طموحة من أجله. وكانت للطفل الخلاسي ذي اللون البرونزي ملامح وحركات محببة، ولولا قَصَّة شعره القصير جداً لبدا بنتاً لمن يراه. ولم يكن هناك ـ بمن في ذلك هو نفسه ـ من يعلم أنه ابن بالتبني؛ فقد ظل هذا الأمر سراً تطبق عليه فيوليت ولولا بإحكام.

بعد أن صار ابنها آمناً بين أيدي الرهبان، رمت فيوليت شِباكها للتواصل مع أناس متنفذين يمكن لهم تسهيل حياتها في هافانا. كانت تتحرك بين الفرنسيين، لأن الإسبان والكوبيين يزدرون اللاجئين الذين غزو الجزيرة في السنوات الأخيرة. فالبيض الكبار الذين وصلوا ومعهم

أموال انتهى بهم الأمر إلى الذهاب إلى الأقاليم حيث يوجد فائض من الأراضي ويمكن لهم زراعة البن وقصب السكر، أما بقية اللاجئين فكانوا يعيشون بصعوبة في المدن، بعضهم على مداخيلهم أو تأجير عبيدهم، وآخرون يعملون أو يعقدون صفقات، ليست شرعية على الدوام، بينما الجريدة المحلية تندد بمنافسة الأجانب غير المتكافئة، وتهديدهم للاستقرار في كوبا.

لم تكن فيوليت بحاجة إلى القيام بأعمال قليلة الأجر، مثل كثيرين من مواطنيها، ولكن تكاليف الحياة غالية وعليها أن تكون حذرة في التصرف بمدخراتها. لم تكن تتوافر لها الرغبة ولا السن المناسبة للعودة إلى مهنتها القديمة. وكانت لولا تسعى لإقناعها بأن تصطاد زوجاً ثرياً، ولكن فيوليت كانت ما تزال على حبها لإيتيان روليه، ولا ترغب في أن تأتي بزوج أم ليكون أباً بديلاً لجان مارتن. لقد أمضت حياتها في تعاطي فن التلاؤم والتحبب، وسرعان ما صارت لديها جماعة من الصداقات النسائية تبيعهن كريمات التجميل التي تحضرها لولا وفساتين تخيطها آديل؛ وبهذا راحت تكسب قوتها. وقد تحولت هاتان المرأتان إلى صديقتيها الحميمتين، والأختين اللتين لم تلدهما أمها. تتناول معهما طعامها يوم الأحد وهي بالخف، تحت المظلة في الفناء، بينما هن يضعن الخطط ويراجعن الحسابات.

ـ عليّ أن أخبر مدام روليه أن زوجها قد مات ـ قال بارمونتيه لآديل عندما سمع قصتها.

ـ لا حاجة بك إلى إخبارها، فقد عرفت ذلك.

ـ كيف عرفته؟

ـ لأن حجر الأوبال في خاتمها انكسر ـ أوضحت له آديل وهي تقدم له كمية أخرى من الرز مع موز مقلي وشرائح لحم.

الدكتور بارمونتيه الذي نوى في ليالي توحده أن يعوض آديل عن حبها غير المشروط الذي منحته إياه لسنوات وهي في الظل، كرر في هافانا حياته المزدوجة التي عاشها في لوكاب، فقد استقر في بيت

منفصل، مخفياً أسرته عن عيون الآخرين. لقد تحول إلى أحد أكثر الأطباء المقصودين من اللاجئين، وإن لم يتمكن من ولوج المجتمع *الكريولي* الراقي. فهو الطبيب الوحيد القادر على علاج الكوليرا بالماء والحساء والشاي، والوحيد الذي لديه ما يكفي من النزاهة ليعترف بعدم وجود علاج مضاد للسفلس ولا للقيء الأسود، والوحيد القادر على وقف الالتهاب في جرح والحيلولة دون أن تنتهي لسعة عقرب إلى مأتم. وكان يرتكب سوء سلوك بعلاج أناس من كل الألوان بمساواة ودون تمييز. فكان زبائنه البيض يتحملونه لأن الفروقات الطبيعية تكاد تمحى في المنفى، ولأنهم ليسوا في وضع يتيح لهم المطالبة بالحصرية، ولكنهم ما كانوا ليغفروا له أن تكون له زوجة خلاسية وأبناء دمهم مختلط. هذا ما قاله لآديل، مع أنها لم تطلب منه تفسيراً قطّ.

استأجر بارمونتيه بيتاً من طابقين في حيّ للبيض، حوّل الطابق السفلي إلى عيادة وخصص الطابق الثاني لسكنه. ولم يكن هناك من يعرف أنه يُمضي الليل على بُعد عدة شوارع، في بيت صغير مطلي باللون الأزرق الكوبالتي. وهناك، في بيت آديل، كان يلتقي بفيوليت بواسيير أيام الآحاد. كانت فيوليت قد بلغت السادسة والخمسين من عمرها، ولكنها مازالت جميلة وتتمتع بسمعة طيبة كأرملة فاضلة في مجتمع المهاجرين. وإذا ما ظن أحدهم أنه يتعرف فيها على مومس مشهورة في لوكاب، فإنه يستبعد هذه الشكوك باعتبارها أمراً مستحيلاً. وكانت فيوليت لا تزال تلبس الخاتم الذي كُسر حجره الكريم، ولا يمضي عليها يوم دون التفكير في إيتيان روليه.

لم يستطع أي منهما التكيف في كوبا، وظلا بعد عدة سنوات أجنبيين مثلما كانا في اليوم الأول، مع ما رافق ذلك من أن حدّة استياء الكوبيين من اللاجئين قد تفاقمت، لأن أعدادهم ظلت تتزايد، ولم يعودوا من **البيض الكبار** الأثرياء، وإنما أناس مفلسين يتكدسون في أرباض تختمر فيها الجرائم والأمراض. لم يكن هناك من يحبهم. وكانت السلطات الإسبانية تضايقهم وتزرع طريقهم بالعقبات القانونية على

أمل أن يتبدلوا مرة واحدة وإلى الأبد. فقد ألغى مرسوم حكومي التراخيص المهنية التي لم يتم الحصول عليها في إسبانيا، ووجد بارمونتيه نفسه يمارس الطب بصورة غير شرعية. ولم ينفعه في شيء الخاتم الملكي الفرنسي على رقٍ شهادته، وهو ما لا يتيح له سوى معالجة العبيد والفقراء الذين نادراً ما يتمكنون من دفعٍ أتعابه. وعقبة أخرى تمثلت في أنه لم يتعلم كلمة إسبانية واحدة، خلافاً لآديل وأبنائه الذين كانوا يتكلمونها بسرعة قصوى وباللكنة الكوبية.

انتهى الأمر بفيوليت بواسيير، من جانبها، إلى الرضوخ لضغوط لولا وكانت على وشك الزواج من صاحب فندق، غاليسي ستيني، غني وعليل الصحة. إنه الشخص المناسب تماماً على حدّ قول لولا، لأنه سينتهي على جناح السرعة بموت طبيعي أو بمساعدة ضئيلة منها ويتركهما في وضع مضمون. ولمٍ يكن صاحب الفندق، وقد افقده ذلك الغرام المتأخر رشده، راغباً في التأكد من الإشاعاتِ عن أن فيوليت ليست بيضاء، لأن الأمر لا يهمه. فهو لمٍ يشته أحداً قطّ مثلما اشتهى هذه المرأة الشهية، وعندما احتضنها أخيرا بين ذراعيه، اكتشف أنها تستثير فيه حنان جد أخرق، وهي حالة أرضتها لأنها لا تنافس ذكرى إيتيان روليه. فتح لها الغاليسي كيس نقوده لتنفق كسلطانة، إذا كانت ترغب في ذلك، ولكنه نسي أن يخبرها أنه متزوج. وأن زوجته قد بقيت في إسبانيا مع ابنهما الوحيد، وهو كاهن دومينكاني، ولم يكن أي من الأم وابنها مهتماً بذلك الرجل الذي لم يرياه منذ سبع وعشرين سنة، وحين علما أنه يعيش في خطيئة مميتة، وأنه يستمتع مع نساء لهن مؤخرات ضخمة في مستعمراتٍ الكاريبي الفاسقة، لم يهتما بوضعه الروحي مادام يرسل إليهما نقوداً بانتظام. وقد ظن صاحبٍ الفندق أنه إذا تزوج من أرملة روليه، فلن تعلم أسرته بذلك أبداً، وكان يمكن للأمر أن يكون كذلك فعلاً لولا تدخل محامٍ جشع تقصى عن ماضيه وتأهب لابتزازه. أدرك رجلنا أنه لن يستطيع شراء صمت ذلك الحقوقي، لأن الابتزاز سيتكرر ألف مرة. فبدأت زحمة مراسلات،

وبعد بضعة شهور ظهر فجأة الابن الكاهن مستعداً لإنقاذ أبيه من براثن الشيطان وإنقاذ الميراث من مخالب تلك العاهرة. وبنصيحة من بارمونتيه تخلت فيوليت عن مسألة الزواج، ولكنها واصلت زيارة عشيقها بين حين وآخر كيلا يموت حزناً.

في تلك السنة أكمل جان مارتن الثالثة عشرة من عمره، وكان يردد منذ خمس سنوات أنه يريد دخول السلك العسكري في فرنسا، مثل أبيه. وبكبريائه وعناده، مثلما هي حاله على الدوام، رفض الاستماع إلى مسوغات فيوليت التي لا تريد الابتعاد عنه وتخاف حتى الهول من دخوله الجيش، حيث يمكن لفتى شديد الوسامة مثله أن يتعرض للاغتصاب على يد أحد الرقباء. كان إصرار جان مارتن حاسماً لا رجعة عنه، مما اضطر أمه إلى التراجع. وقد استغلت فيوليت صداقتها لقبطان إحدى السفن، تعرفت عليه في لوكاب، من أجل إرساله إلى فرنسا. وهناك استقبله أحد أخوة إيتيان روليه، وهو عسكري أيضاً، وأخذه إلى مدرسة تلاميذ الضباط في باريس، حيث تدرب جميع رجال أسرته. كان يعرف أن أخاه قد تزوج من امرأة أنتيلية ولم يستغرب لون الفتى؛ كما أنه لن يكون ذو الدماء المختلطة الوحيد في الأكاديمية العسكرية.

ونظراً إلى أن وضع اللاجئين في كوبا كان يزداد صعوبة، فقد قرر الدكتور بارمونتيه أن يجرب حظه في نيو أورلينز، وإذا ما سارت أموره على ما يرام، سيأخذ أسرته إلى هناك في ما بعد. عندئذ اعترضت آديل أول مرة خلال ثمانية عشر عاماً من وجودهما معاً وقررت أنهما لن يعودا إلى الانفصال: فإما أن يذهبوا جميعهم معاً أو لا يذهب أحد. كانت مستعدة لمواصلة العيش متخفية، كأنها خطيئة للرجل الذي تحبه، ولكنها لن تسمح لأسرتها بأن تتفرق. اقترحت عليه أن يسافروا في السفينة نفسها، على أن تكون هي والصغار في الدرجة الثالثة، وأن ينزلوا إلى البر منفصلين، بحيث لا يراهم أحد معاً. وقد حصلت هي نفسها على أذون سفر برشوة السلطات المختصة، مثلما هي العادة،

وعلى وثيقة تثبت أنها امرأة حرة وتعيل أبناءها من عملها. فهي ليست ذاهبة إلى نيو أورلينز لطلب الصدقات، كما قالت للقنصل بعذوبتها المتميزة، وإنما هي ذاهبة لتخيط ثياباً نسائية.

عندما علمت فيوليت بواسيير أن صديقيها يفكران في الهجرة للمرة الثانية، أصيبت بواحدة من نوبات الغضب والبكاء المفاجئة التي كانت تصيبها في شبابها ولم تعد تعانيها منذ سنوات. لقد أحست بأن آديل قد خانتها.

ـ كيف يمكنك اللحاق بهذا الرجل الذي لا يعترف بك أماً لأبنائه ـ قالت منتحبة.

ـ إنه يحبني قدر استطاعته ـ أجابت آديل دون تأثر.

ـ لقد علّم أبناءه الصغار أن يتظاهروا أمام الملأ بأنهم لا يعرفونه! ـ صرخت فيوليت.

ـ ولكنه يعيلهم، يعلمهم ويحبهم كثيراً. إنه أب طيب. حياتي مرتبطة بحياته يا فيوليت، ولن ننفصل أبدا.

ـ وأنا؟ ماذا سيحل بي وحدي هنا؟ ـ سألتها فيوليت يائسة.

ـ يمكنك المجيء معنا... ـ اقترحت صديقتها.

بدت الفكرة لفيوليت رائعة. فقد سمعت أن هناك في نيو أورلينز مجتمعاً متفتحاً لأناس ملونين أحرار، حيث يمكن للجميع أن يزدهروا. ودون إضاعة للوقت، ناقشت الأمر مع لولا وقررت كلتاهما أنه لا وجود لمسوغ يبقيهما في كوبا. وأن نيو أورلينز ستكون الفرصة الأخيرة لترسيخ جذورهما والتخطيط لشيخوختهما.

كان تولوز فالموران يحافظ خلال تلك السنوات السبع على اتصال مع الدكتور بارمونتيه من خلال رسائل متباعدة، فعرض عليه المساعدة والضيافة، ولكنه نبهه إلى أن الأطباء في نيو أورلينز أكثر من الخبازين، وأن المنافسة معهم ستكون صعبة. ولحسن الحظ أن الشهادة الملكية الفرنسية صالحة في لويزيانا. وأضاف في رسالته: «وهنا لن تكون بحاجة إلى تكلم الإسبانية يا عزيزي الدكتور، لأن اللغة الشائعة هي

الفرنسية». نزل بارمونتيه من السفينة وسقط بين ذراعي صديقه الذي كان ينتظره في المرفأ. لم يلتقيا منذ العام ١٧٨٣. ولم يكن فالموران يتذكره ضئيلا وهشاً إلى ذلك الحدّ، ولم يكن بارمونتيه بدوره يتذكر صديقه بمثل ذلك الحبور. فقد بدا فالموران بمزاج جديد من الرضا، لم يبق فيه شيء من الرجل المعذب الذي كان يتبادل معه مناقشات فلسفية وسياسية لا تنتهي في سان دومانغ.

بينما كان بقية المسافرين ينزلون إلى البر، وهما ينتظران الأمتعة، لم ينتبه فالموران إلى وجود آديل، الخلاسية القاتمة التي يرافقها صبيان اثنان وطفلة، وتحاول الحصول على عربة أجرة لنقل صناديق أمتعتها، ولكنه ميّز بين الحشد امرأة ترتدي فستان سفر فاخر قرمزي اللون، وقبعة وحقيبة وقفازين من اللون نفسه، امرأة باهرة الجمال من المحال عدم الانتباه إليها. تعرف عليها فوراً، وإن كان ذلك المكان هو آخر مكان في الدنيا يمكن أن يعود لرؤيتها فيه. أفلت من فمه اسمها في صرخة، وركض لتحيتها بحماسة صبي. «مسيو فالموران، يا للمفاجأة!»، هتفت فيوليت بواسيير وهي تمد يدها في القفاز لمصافحته، ولكنه أمسك بكتفيها وطبع ثلاث قبل على وجهها، على الطريقة الفرنسية. وتأكد بسعادة من أن تبدلاً طفيفاً طرأ على فيوليت وجعلها التقدم في العمر شهية أكثر. أخبرته بكلمات قليلة أنها قد ترملت وأن جان مارتن يدرس في فرنسا. لم يتذكر فالموران من هو ذلك المدعو جان مارتن، ولكنه حين عرف أنها جاءت وحدها داهمته شهوات شبابه. وودعها باللهجة الحميمة التي لم يعاملها بها منذ عشر سنوات: «آمل أن تمنحيني شرف زيارتك». وفي تلك اللحظة قاطعته لولا التي كانت تتجادل بكلمات بذيئة مع حمالين من أجل نقل صناديق الأمتعة. «الأنظمة لم تتبدل، عليك أن تقف في الدور إذا كنت ترغب في أن تستقبلك المدام»، قالت له وهي تزيحه جانباً بمرفقها.

استأجرت آديل شاليه في شارع رامبار، حيث تعيش نساء ملونات نلن حريتهن، معظمهن يعتمدن في إعالتهن على حامٍ أبيض، حسب

نظام ***مساكنة المتعة*** أو «الترتيب» الذي بدأ مع بدايات العهد الاستعماري، عندما لم يكن سهلاً إقناع فتاة أوروبية بالرحيل مع الرجال حتى هذه الأراضي المتوحشة. كان هناك قرابة ألفي «ترتيب» من هذا النوع في المدينة. المسكن الذي أقامت فيه آديل شبيه بالبيوت الأخرى في الشارع نفسه، إنه بيت صغير، مريح، جيد التهوية، وله فناء خلفي جدرانه مغطاة بأزهار الجهنمية المتسلقة. وأقام الدكتور بارمونتيه في شقة على مسافة قريبة، وفيها أقام عيادته أيضاً، ولكنه كان يقضي ساعات فراغه مع أسرته بطريقة أكثر انفتاحاً بكثير مما كانت عليه الحال في لوكاب أو هافانا. الشيء الغريب الوحيد في ذلك الوضع هو سن الشريكين، لأن مساكنة المتعة كانت ترتيباً بين رجال بيض ونساء خلاسيات في الخامسة عشرة؛ بينما كان بارمونتيه على وشك بلوغ الستين وآديل تبدو جدة لأي واحدة من جاراتها.

حصلت فيوليت ولولا على بيت أكبر في شارع شارت. وكانت تكفيهما جولة في ساحة السلاح، وعلى رصيف الحاجز البحري في موعد النزهات، والذهاب إلى كنيسة الأب أنطوان يوم الأحد ظهراً، لتدركا مدى اعتداد النساء بأنفسهن. فقد تمكنت النساء البيض من تمرير قانون يحظر على الملونات استخدام القبعات أو المجوهرات أو الملابس الباذخة في الأماكن العامة تحت طائلة التعرض لعقوبة الجلد. فكانت النتيجة أن الخلاسيات صرن يعقدن عماماتهن بظرافة تفوق أفخم قبعات باريس، ويرتدين فساتين مقورة تكشف الصدر بصورة مغرية يمكن معها لأي حلي أن تبدو مجرد لهو، ويمشين بمهابة إذا ما قورنت بها مشية النساء البيض فإنهن سيبدون غسالات. قدرت فيوليت ولولا على الفور المنافع التي يمكنهما الحصول عليها من كريمات التجميل، لاسيما كريما لعاب الحلزونات واللؤلؤ المذاب بعصير الليمون لتبيض البشرة.

مدرسة بوسطن

ضربة السوط التي تلقتها أورتينس غيزو من موريس لم تمنعها من حضور حفلة الرقص المشهورة في بيت دوماريني، لأنها أخفت أثرها بطرحة تنسدل على ظهرها حتى الأرض، وتغطي الدبابيس التي تغلق الفستان من الخلف، ولكن الضربة خلفت أثراً بنفسجيا قبيحاً استمر عدة أسابيع. وبذلك الأثر أقنعت فالموران بإرسال ابنه إلى بوسطن. وكانت لديها ذريعة أخرى: فالطمث لم يأتها سوى مرة واحدة منذ ولادة ابنتها ماري أورتينس، وهي حبلى من جديد وعليها أن تهتم بأعصابها، ومن الأفضل إبعاد الصبي لبعض الوقت. لم تكن خصوبتها إعجازية، مثلما حاولت أن تُشيع بين صديقاتها، لأنها بعد أسبوعين من وضع مولودتها بدأت مضاجعاتها مع زوجها بالتصميم نفسه الذي كانت عليه في شهر العسل. سيكون الوليد هذه المرة ذكراً، كانت واثقة من ذلك، كي يواصل سلالة العائلة ولقبها. ولم يتجرأ أحد على تذكيرها بأن موريس فالموران موجود.

كره موريس المدرسة منذ اللحظة التي اجتاز فيها العتبة وأُغلقت وراءه البوابة الخشبية الثقيلة المزدوجة. واستمر استياؤه حتى السنة الثالثة، عندما التقى بمعلم استثنائي. لقد وصل إلى بوسطن في الشتاء، تحت مطر جليدي، ووجد نفسه في عالم رمادي بالكامل. سماء ملبدة، ساحات مغطاة بالصقيع، وأشجار عجفاء وبضعة عصافير مخدرة من البرد على الأغصان الجرداء. لم يكن يعرف البرد الحقيقي. وقد بدا له الشتاء أبدياً، فكان يمضي بعظام موجوعة، وأذنين زرقاوين، ويدين حمراوين من شَرَث الأصابع، ولم يكن يخلع معطفه حتى عند النوم، ويعيش مراقباً السماء بانتظار شعاع شمس رحيم. كانت هناك مدفأة فحم في أقصى مهجع نوم التلاميذ، لا يشعلونها إلا ساعتين بعد الظهر

ليجفف الصبية جواربهم. وكانت ملاءات الأسرة جليدية دوماً، والجدران ملطخة ببقع فطور ضاربة إلى الخضرة، ولا بد من كسر طبقة من الصقيع في الطسوت قبل الاغتسال في الصباح.

الصبية الصاخبون والمشاكسون، بزيهم الذي لا يقل رمادية عن المشهد العام، كانوا يتكلمون لغة يحل موريس رموزها بمشقة بفضل ما تعلمه من معلمه غاسبار سيفران الذي كان يعرف كلمات إنكليزية قليلة، أما ما تبقى فيرتجله في دروسه مستعيناً بمعجم. انقضت شهور قبل أن يتمكن من الإجابة على أسئلة المعلمين، وسنة قبل أن يتمكن من المشاركة في مزاح زملائه الأمريكيين الذين صاروا يسمونه «المتفرنس» ويعذبونه بمضايقات بارعة. وقد كانت تصورات خاله سانتشو بوجوب الإلمام بالملاكمة مفيدة له، لأنها أتاحت له الدفاع عن نفسه بتوجيه ركلات إلى خصى خصومه، كما أفادته دروس المبارزة في الخروج ظافراً في المباريات التي يفرضها مدير المدرسة الذي كان يعقد مراهنات مع المعلمين ثم يعاقب التلميذ الخاسر بعد ذلك.

أما الطعام فكان يحقق تماماً الهدف التربوي في تصليب الطباع. فمن هو قادر على ابتلاع كبد مسلوق أو أعناق دجاج مع بقايا ريش، ويرفق ذلك بقرنبيط وأرز محروق، يمكن له مواجهة صروف الحياة، بما في ذلك الحرب التي يواظب الأمريكيون دوماً على الاستعداد لها. لقد أمضى موريس، وهو المعتاد على مطبخ سيلستين المرهف، ثلاثة عشر يوماً من الصيام مثل فقير هندي دون أن يبدي أحد أي قدر من الاهتمام. وأخيراً، عندما أغمي عليه من الجوع، لم يبق أمامه من خيار سوى أكل ما يضعونه في طبقه.

وكان الانضباط صارماً بقدر ما هو سخيف. فعلى الصبية التعساء أن يقفزوا من الفراش عند الفجر، والتمطي في ماء جليدي، والجري ثلاث لفات في الفناء منزلقين في برك الماء كي يدخلوا في الدفء ـ إن كان بالإمكان تسمية تنميل اليدين دفئاً ـ، ودراسة اللاتينية ساعتين قبل تناول فطور مؤلف من الكاكاو والخبز اليابس والشوفان مع خثارة، ثم

تحمل عدة ساعات من الدروس وممارسة الرياضة التي كان موريس غير كفء فيها. وفي نهاية النهار، عندما يكون الضحايا مستنفدين من التعب، يقدمون لهم محاضرة توجيه معنوي لساعة أو اثنتين، حسب إلهام المدير. وينتهي التعذيب بترديدهم **إعلان الاستقلال** معاً في كورال.

وموريس الذي ترعرع تحيطه تيتي بالتدليل، خضع لنظام السجن ذاك دون تذمر. فقد كان مشغولاً تماماً ببذل الجهد لمجاراة الصبية الآخرين والدفاع عن نفسه في مواجهة المشاغبين، حتى إنه تخلص من الكوابيس ولم يعد يفكر في مشانق لوكاب. كان محباً للتعلم. وقد أخفى أول الأمر نهمه إلى الكتب كيلا يتهم بالتكبر، ولكنه سرعان ما بدأ بمساعدة الآخرين في واجباتهم المدرسية، وهكذا فرض احترامه. لم يعترف لأحد بأنه يعزف على البيانو، ويرقص الكوادريا، وينظم الشعر المقفى، لأنه يمكن لهم أن يمزقوه. كان رفاقه يرونه يكتب رسائل بانهماك كاهن من القرون الوسطى، ولكنهم لا يسخرون منه علناً لأنه قال لهم إن الرسائل موجهة إلى أمه المشلولة. فالأم والوطن لا يمكن المزاح فيهما: إنهما مقدسان.

أمضى موريس الشتاء وهو يسعل، ولكنه تنشط مع مجيء الربيع. لقد ظل قابعاً لشهور داخل معطفه، ورأسه غاطس بين كتفيه، منحنياً، غير مرئي. وعندما دفأت الشمس عظامه وتمكن من خلع الكنزتين والسروال الداخلي الطويل ولفاع العنق والقفازين والمعطف والسير منتصباً، انتبه إلى أن ملابسه صارت ضيقة وقصيرة عليه. فقد تمدد في واحدة من نوبات تمطط البلوغ، وتحول أنحل تلاميذ صفه إلى أحد أطولهم قامة وأقواهم بنية. وقد منحه تأمله العالم من علو عدة سنتميترات زائدة عنهم الإحساس بالأمان.

لم يؤثر الصيف بحرارته الرطبة على موريس المعتاد على مناخ الكاريبي الحار. خلت المدرسة بعد مغادرة التلاميذ ومعظم المعلمين في إجازة، وظل موريس وحده عملياً ينتظر التعليمات بالعودة إلى أسرته. ولكن التعليمات لم تصل قطّ، بل أرسل أبوه بالمقابل جول بيلوش،

المرافق نفسه الذي اصطحبه في الرحلة المنهكة والطويلة في السفينة من بيته في نيو أولينز، عبر مياه خليج المكسيك، ثم بمحاذاة ساحل فلوريدا، وخوض غمار بحر سارغازوس ومواجهة أمواج المحيط الأطلسي، حتى الوصول إلى المدرسة في بوسطن. وكان المرافق من أقارب آل غيزو البعيدين حل به الفقر، وهو رجل متوسط العمر، أشفق على الصبي وحاول أن يجعل الرحلة البحرية لطيفة قدر الإمكان، ولكنه سيظل مرتبطاً في ذاكرة موريس بنفيه من منزل أبيه.

حضر بيلوش إلى المدرسة ومعه رسالة من فالموران يشرح فيها لابنه الأسباب التي تحول هذه السنة دون ذهابه إلى البيت، ونقود كافية ليشتري بها ملابس وكتب وأي نزوة أخرى تخطر له. وكانت أوامر الأب تتلخص في أخذ موريس في رحلة ثقافية إلى مدينة فيلادلفيا التاريخية التي يتوجب على كل فتى أمريكي في مثل وضعه أن يعرفها، فهناك تفتحت بذرة الأمة الأمريكية، مثلما تعلن رسالة فالموران بتفخيم. انطلق موريس مع بيلوش، وظل خلال تلك الأسابيع من السياحة الاضطرارية صامتاً ولا مبالياً، محاولاً مواراة الاهتمام الذي تثيره فيه الرحلة ومقاومة التعاطف الذي بدأ يشعر به تجاه ذلك البائس بيلوش.

وفي الصيف التالي ظل الصبي ينتظر مرة أخرى أسبوعين في المدرسة وصندوق أمتعته جاهز، إلى أن سارع المرافق نفسه لأخذه إلى واشنطن ومدن أخرى لم يكن راغباً في زيارتها.

كان هاريسون كوب أحد الأساتذة القليلين الذين يبقون في المدرسة خلال أسبوع أعياد الميلاد، وقد انتبه إلى موريس فالموران، لأنه التلميذ الوحيد الذي لا يتلقى زيارات ولا هدايا ويقضي فترة الأعياد في القراءة وحيداً في المبنى شبه المقفر. كان كوب ينتمي إلى إحدى عائلات بوسطن التي استقرت في المدينة منذ منتصف القرن السابع عشر، وهي أسرة نبيلة الأصول، مثلما يعرف الجميع، ولكنه ينكر ذلك. وكان مدافعاً متعصباً عن الجمهورية الأمريكية، ويمقت فئة النبلاء. وكان أول داعية لتحرير العبيد عرفه موريس، وسوف يترك فيه أثراً عميقاً. فالدعوة إلى

تحرير العبيد كان يُنظر إليها في لويزيانا على أنها أسوأ من السفلس، بينما كانت مسألة العبودية تناقش في ماساشوستس باستمرار، لأن دستور الولاية الذي وضع قبل عشرين سنة يتضمن بنداً يحظر العبودية.

وجد كوب في موريس دارساً نهماً وقلباً متحمساً، ضربت فيه حججه الإنسانية جذورا على الفور. ومن الكتب التي قدمها إليه ***القصة المشوقة لحياة أوليدا إكيانو***، المنشورة بنجاح كبير في لندن عام ١٧٨٩. هذه القصة المأساوية لعبد أفريقي، مكتوبة بضمير المتكلم، أثرت في الجمهور الأوروبي والأمريكي، ولكن قلة عرفوا بها في لويزيانا، ولم يكن الصبي قد سمع بها. كان الأستاذ وتلميذه يقضيان فترة بعد الظهر في الدراسة والتحليل والمناقشة. واستطاع موريس أخيراً أن يصوغ القلق الذي طالما سببته له العبودية.

ـ أبي يملك أكثر من مئتي عبد، ستؤول ملكيتهم إلي ذات يوم ـ اعترف موريس للأستاذ كوب.

ـ أهذا هو ما تريده يا بني؟

ـ أجل، كي أتمكن من عتقهم.

ـ عندئذ سيكون هناك أكثر من مئتي زنجي مهجورين لمصيرهم وشاب غير فطن يعاني الفقر. ما الذي ستكسبه بذلك؟ ـ فند الأستاذ قوله ـ. النضال ضد العبودية لا يتحقق في مزرعة بعد أخرى يا موريس، لا بد من تغيير طريقة تفكير الناس والقوانين في هذه البلاد وفي العالم. عليك أن تدرس وتهيئ نفسك وتشارك في السياسة.

ـ أنا لا أنفع في هذه الأمور يا سيدي!

ـ وكيف تعرف ذلك؟ جميعنا لدينا في داخلنا احتياطي مؤكد من العزيمة يتكشف عندما تُخضعنا الحياة لمحنة.

زاريتيه

ظللتُ في المزرعة قرابة السنتين، حسب تقديراتي، قبل أن يعيدني السيدان إلى العمل من جديد مع الخدم المنزليين. وطوال تلك الفترة لم أرَ موريس ولو مرة واحدة لأن أباه لم يكن يسمح له بالعودة إلى البيت في العطلة المدرسية؛ ويرتب الأمور دوماً لإرساله في رحلات إلى أمكنة أخرى. وأخيراً، حين أنهى الدراسة، أخذه إلى فرنسا للتعرف على جدته. ولكن هذا حدث بعد وقت طويل. كان السيد يسعى إلى إبقائه بعيداً عن مدام أورتينس. ولم أتمكن كذلك من رؤية روزيت، ولكن السيد مورفي كان يأتيني بأخبارها في كل مرة يذهب فيها إلى نيو أورلينز. وكان يقول لي مازحاً: «ما الذي ستفعلينه بهذه الطفلة باهرة الجمال يا تيتي؟ ستضطرين إلى إبقائها محبوسة كيلا تُسبب ازدحاماً وفوضى في الشوارع».

وضعت مدام أورتينس ابنتها الثانية، ماري لويز التي ولدت مطبقة الصدر. فالمناخ لم يناسبها، ولأن أحداً لا يستطيع تغيير المناخ، ماعدا الأب أنطوان في حالاتٍ استثنائية، فقد كان ما يمكن عمله من أجل التخفيف عنها قليل جداً. ومن أجلها استدعوني مجدداً إلى بيت المدينة. في ذلك العام جاء الدكتور بارمونتيه بعد أن أمضى وقتاً طويلاً في كوبا، وحلّ محل طبيب أسرة غيزو. وكان أول ما فعله هو المعالجة بالعلق والتدليك بالخردل، وكانت طريقتا العلاج تنهكان الطفلة. وقد أقنع السيد بأني الأصلح للعناية بماري لويز، لأنني تعلمت الكثير من تانت روز. عندئذ أمروا رئيس مراقبي فرق العمال أن يرسلني إلى المدينة. ودّعت أصدقائي وآل مورفي بحزن شديد وسافرت وحدي للمرة الأولى ومعي تصريح كيلا أُعتقل.

أشياء كثيرة كانت قد تبدلت في نيو أولينز خلال غيابي: هناك مزيد

من القمامة، عربات وناس وحمى بناء بيوت وإطالة امتداد شوارع. حتى السوق نفسه ازداد امتدادا. ودون سانتشو لم يعد يعيش في بيت فالموران، لقد انتقل إلى شقة في الحي نفسه. وكان قد نسي آدي سوبير على حدّ قول سيلستين، وهو مغرم الآن بكوبية لم يُتح لأحد ممن في البيت رؤيتها. استقر مقامي في العلية مع ماري لويز، إنها طفلة شاحبة وضعيفة جداً إلى حد لا تستطيع معه البكاء. فكرتُ في أن أربطها إلى بدني، لأن هذه الطريقة أعطت نتيجة جيدة مع موريس الذي ولد معتل الصحة أيضاً، ولكن مدام أورتينس قالت إن ذلك جيد للزنوج وليس لابنتها. لم أشأ وضعها في مهد، لأن ذلك قد يميتها، واخترت أن أحملها طوال الوقت بين ذراعي.

فور تمكني من التحدث إلى السيد ذكّرته بأنني سأكمل في تلك السنة ثلاثين عاماً من العمر، وأنني أستحق نيل حريتي.

ـ ومن سيهتم بابنتي؟ ـ سألني.

ـ أنا، إذا كنتَ ترغب يا مسيو.

ـ هذا يعني أن كل شيء سيبقى على حاله.

ـ ليس على حاله يا مسيو، لأنني إذا كنت حرة فيمكنني الذهاب إن أردت، ولا يعود بإمكانك أن تضربني، وسيكون عليكم أن تدفعوا لي شيئاً قليلاً كي أتمكن من العيش.

ـ ندفع لكِ! ـ هتف متفاجئا.

ـ هكذا يعمل الحوذيون، والطهاة، والممرضات، والخياطات وغيرهم من الأشخاص الأحرار يا مسيو.

ـ أرى أن لديك معلومات وافية. ولا بد أنك تعلمين إذاً أنه ليس هناك من يوظف مربية أطفال، بل يجب أن تكون المربية شخصاً من الأسرة، مثل أم ثانية ثم مثل جدة بعد ذلك يا تيتي.

ـ أنا لستُ من أسرتك يا مسيو. إنني من أملاكك.

ـ لقد عاملتُكِ على الدوام كما لو أنك من الأسرة! ولكن إذا كانت هذه هي رغبتك، فإنني بحاجة إلى وقت كي أقنع مدام أورتينس،

فالمهمة عسيرةٌ وستحتاج إلى حديث طويل. سوف أفعل ما أستطيعه.

منحني إذناً بالذهاب لرؤية روزيت. لقد كانت ابنتي طويلة القامة على الدوام، وقد بدت وهي في الحادية عشرة كأنها في الخامسة عشرة من عمرها. لم يكذب عليّ السيد مورفي، فهي جميلة جداً بالفعل. لقد تمكنت الراهبات من ترويض جموحها، ولكنهن لم يستطعن محو غمازتي ابتسامتها أو نظرتها المغوية. حيتني بانحناءة رسمية، وعندما عانقتها تصلبت. أظن أنها كانت خجلة من أمها العبدة التي بلون القهوة بالحليب. ابنتي هي أكثر ما يهمني في هذه الدنيا. لقد عشنا متلاصقتين كأننا جسد واحد، وروح واحدة، إلى أن أجبرني على الانفصال عنها الخوف من أن يبيعونها أو أن يُقدم أبوها نفسه على اغتصابها عند وصولها سن البلوغ، مثلما فعل بي. فأكثر من مرة رأيت السيد يتحسسها كما يفعل الرجال بالصغيرات ليروا إن كنّ قد نضجن. كان ذلك قبل زواجه من مدام أورتينس، عندما كانت روزيت لا تزال مخلوقة لا تعرف الخبث وكان يُجلسها على حضنه بحنان. آلمتني البرودة التي قابلتني بها ابنتي: ربما أكون قد فقدتها وأنا أسعى لحمايتها.

لم يبق في روزيت من جذورها الأفريقية أي شيء. لقد كانت تعرف شيئاً عن **اللوات** وعن غينيا من قبل، ولكنها نسيت في المدرسة ذلك كله وتحولت إلى كاثوليكية؛ فالراهبات يشعرن بالهول من ديانة الفودو قدر رعبهم من البروتستانتيين واليهود و**الكينتوك**. كيف يمكن لي تأنيبها على تطلعها إلى حياة أفضل من حياتي؟ فهي تريد أن تصير مثل آل فالموران وليس مثلي. كانت تكلمني بتهذيب زائف، بنبرة لم أعرفها بها، كما لو كنتُ غريبة عنها. هكذا أتذكر. قالت لي إنها تحب المدرسة، وإن الراهبات طيبات ويعلمنها الموسيقى، والديانة، والكتابة بخط جميل، ولكن لا شيء من الموسيقى، لأن الموسيقى تغوي الشيطان. سألتها عن موريس وقالت لي إنه على ما يرام، ولكنه يشعر أنه وحيد ويريد العودة. إنها تعرف أخباره لأنهما يتراسلان بصورة دائمة منذ افتراقهما. كانت الرسائل تتأخر طويلاً، ولكنهما يرسلان

رسائل متواصلة، دون انتظار الرد، مثل محادثة مجانين. وقد أخبرتني روزيت بأنها تتلقى في بعض الأحيان نصف دزينة من الرسائل في يوم واحد، ولكن أسابيع تمضي بعد ذلك دون أخبار. والآن، بعد انقضاء خمس سنوات على ذلك، أعرف أنهما كانا يتعاملان في الرسائل كأخوين من أجل تضليل الراهباتٍ اللواتي كن يفتحن مراسلات التلميذات. وكانا يستخدمان رموزاً دينية للإشارة إلى عواطفهما: فالروح القدس تعني الحب، وعن القبلات يقولان صلوات، وروزيت هي الملاك الحارس، ويمكن له هو أن يكون أي قديس أو شهيد في سجل القداسة الكاثوليكي، أما الراهبات الأورسوليات فيمثلن الشيطان بالطبع. ويمكن لأي رسالة من رسائل موريس أن تقول إن الروح القدس يزوره في الليل، بينما هو يحلم بالملاك الحارس، وإنه يستيقظ وبه رغبة في الصلاةِ والصلاة. فتردُّ هي عليه بأنها تصلي من أجله وعليه أن يكون حذراً لأن جحافل قوات الشيطان تترصد البشر الفانين على الدوام. إنني أحتفظ الآن بتلك الرسائل في علبة، ومع أنني لا أستطيع قراءتها إلا أنني أعرف ما تتضمنه، لأن موريس قرأ لي مقاطع منها... المقاطع غير المتمادية في الجرأة

شكرتني روزيت على هدايا الحلوى والشرائط الملونة والكتب التي كانت تصلها، ولكنني لم أكن من أرسلتها. كيف يمكنني فعل ذلك دون نقود؟ فتوقعتُ أن السيد فالموران هو من يحملها إليها، ولكنها قالت لي إنه لم يزرها قطّ. وإن دون سانتشو هو من يأتي إليها بالهدايا ويقدمها باسمي. فليبارك **بونْدي** دون سانتشو الطيب! إرزولي، أيتها **اللوا** الأم، أنا لا أملك شيئاً أقدمه إلى ابنتي. هكذا كانت الحال.

وعد مُستحق التنفيذ

في أول فرصة توافرت لها، ذهبت تيتي للتحدث إلى الأب أنطوان. كان عليها أن تنتظره ساعتين، لأنه ذهب إلى السجن لزيارة السجناء. فقد كان يحمل إليهم طعاماً وينظف جراحهم دون أن يتجرأ الحراس على منعه، لأن قداسته كانت قد شاعت بين الجميع، وكانت هناك شهادات عن أنه شوهد في أمكنة عديدة في آن واحد، وأنه يمشي أحياناً وهالة فضية تطفو فوق رأسه. وأخيراً وصل الكاهن الكبوشي إلى البيت الحجري الصغير الذي يستخدمه كمسكن ومكتب، وكان يحمل سلته الفارغة وبه رغبة كبيرة في الاستلقاء للراحة، ولكن واجبات أخرى كانت بانتظاره ومازال الوقت مبكراً على مغيب الشمس، يكفيه ساعة من الصلاة كي تستريح عظامه بينما روحه تصعد إلى السماء. «يؤسفني جداً أيتها الأخت لوسي أن حالتي المعنوية لا تكفيني لأصلي لوقت أطول وبصورة أفضل»، اعتاد أن يقول للراهبة التي تخدمه. «ولماذا ستصلي أكثر يا أبتاه وقد صرت قديساً منذ الآن؟»، ترد عليه لوسي على الدوام. استقبل الكاهن تيتي بذراعين مفتوحتين، مثلما يستقبل الجميع. لم يكن قد تبدل، فما زالت له النظرة الوديعة لكلب كبير، وتنبعث منه رائحة الثوم، ويرتدي الغفارة المتسخة نفسها، وصليبه الخشبي ولحية النبي التي له.

ـ ما الذي فعلتِه يا تيتي! ـ هتف.

ـ لدى حضرتك رعية من آلاف المؤمنين يا أبتاه، وما زلتَ تتذكر اسمي ـ لاحظت متأثرة.

أوضحت له أنها كانت في المزرعة، وأرته للمرة الثانية وثيقة حريتها الصفراء والمتيبسة التي تحتفظ بها منذ سنوات دون أن تنفعها في شيء، لأن سيدها يجد سبباً على الدوام لتأجيل ما وعد به. وضع الأب أنطوان نظارة

فلكي سميكة، وقرّب الورقة من الشمعة الوحيدة في الغرفة وقرأ ببطء.
ـ من غيرك يعرف بأمر هذه الورقة يا تيتي؟ أعني ممن يعيشون في نيو أورلينز.
ـ الدكتور بارمونتيه رآها عندما كنا في سان دومانغ، ولكنه يعيش هنا الآن. وأريتها كذلك لدون سانتشو، صهر سيدي.
جلس الكاهن إلى منضدة صغيرة مزعزعة القوائم وكتب بصعوبة، لأنه يرى أمور هذا العالم مغطاة بضبابية خفيفة، وإن كان يرى أمور العالم الآخر بوضوح. ثم سلمها رسالتين ملطختين ببقع حبر، مع تعليمات بتسليمهما إلى السيدين باليد مباشرة.
ـ وما الذي تقوله هاتان الرسالتان يا أبتاه؟ ـ أرادت تيتي أن تعرف.
ـ أريد منهما أن يأتيا إليّ لأتحدث معهما. وأنتِ أيضاً يجب أن تأتي إلى هنا يوم الأحد القادم بعد القداس. وحتى ذلك الحين سأحتفظ بهذه الوثيقة معي ـ قال الكاهن.
ـ أعذرني يا أبتِ، ولكنني لم أترك هذه الورقة قطّ... ـ ردّت تيتي متوجسة.
ـ ستكون هذه هي المرة الأولى إذاً ـ ابتسم الكاهن الكبوشي وهو يضع الورقة في درج المنضدة ـ لا تقلقي يا ابتي، إنها في مأمن هنا.
بدا لها أن تلك المنضدة المخلعة ليست المكان المثالي لأفضل مقتنياتها، ولكن تيتي لم تتجرأ على الإعراب عن شكوكها.
في أيام الآحاد يجتمع نصف المدينة في الكاتدرائية، وبينهم أسرتا غيزو وفالموران مع عدد من خدمهم المنزليين. فالكاتدرائية هي المكان الوحيد في نيو أورلينز، إذا استثنينا السوق، حيث يختلط أناس بيض وملونون، أحرار وعبيد، وإن كانت النساء يجلسن في جانب ويجلس الرجال في الجانب الآخر. وقد كتب كاهن بروتستانتي، لدى زيارته المدينة، في إحدى الصحف يقول إن كنيسة الأب أنطوان هي المكان الأكثر تسامحاً في ديار المسيحية. لم تكن تيتي قادرة على المواظبة على حضور القداديس دوماً؛ فهي مرتبطة بربو ماري لويز، ولكن الصغيرة

استيقظت في ذلك اليوم في حالة جيدة وتمكنوا من إخراجها من البيت. وبعد انتهاء طقوس القداس عهدت بالطفلتين إلى دينس، وأخبرت سيدتها أنها ستتأخر قليلاً لأن عليها أن تتحدث إلى القديس.

لم تعارض أورتينس، معتقدة أن تلك المرأة ستذهب للاعتراف أخيراً. فتيتي حملت معها من سان دومانغ شعوذاتها الشيطانية، وليس هناك من هو أقدر من الأب أنطوان على إنقاذ روحها من ديانة البودو. كثيراً ما كانت تتحدث هي وأخواتها عن أن العبدات الآتيات من الأنتيل ينشرن أيضاً تلك الديانة الأفريقية في لويزيانا، وقد تأكدن من ذلك عند ذهابهن مع أزواجهن والأصدقاء إلى ساحة الكونغو ليشهدوا، بدافع الفضول الصحي، حفلات مجون الزنوج. وقد كانت تلك الحفلات من قبل محض اهتزاز وضجيج، أما الآن فهناك ساحرة ترقص كمن بها مسّ ومعها أفعى طويلة وثخينة ملتفة على جسدها، ونصف المشاركين يغيبون عن الوعي. تلك المرأة تدعى القديسة ديدي، وقد جاءت من سان دومانغ كغيرها من الزنوج حاملة الشيطان في جسدها. وكان لا بد من رؤية مشهد أولئك الرجال والنساء الفاحش وهم مطروحون أرضاً يطلقون زبداً أحمر من أفواههم بينما عيونهم بيضاء بالكامل، وهم أنفسهم من يزحفون بعد ذلك خلف الأشجار ليتباضعوا كالبهائم. هؤلاء الناس يعبدون خليطاً من الآلهة الأفريقية، والقديسين الكاثوليك، وموسى، والكواكب، ومكان يدعونه غينيا. والأب أنطوان وحده هو من يفهم ذلك الخلط ويسمح به للأسف. ولو لم يكن قديساً، لبدأت هي نفسها حملة عامة لإزاحته من الكاتدرائية، هذا ما كانت تؤكده أورتينس غيزو. فقد روي لها عن طقوس فودو يشربون فيها دماء بهائم قرابين، ويظهر الشيطان شخصيا ليضاجع النساء من أمام والرجال من وراء. وهي لن تستغرب أن تكون العبدة التي تعهد إليها برعاية ابنتيها، ممن يشاركون في حفلات العربدة تلك.

اجتمع الكاهن الكبوشي وبارمونتيه وسانتشو وفالموران في البيت الحجري الصغير، وكانوا يجلسون على كراسيهم ذاهلين لأنهم لا

يعرفون سبب دعوتهم إلى الاجتماع. فقد كان الكاهن يعرف القيمة الاستراتيجة للهجوم المفاجئ. دخلت الأخت لوسي العجوز تجرجر خفها وتحمل صينية توازنها بصعوبة، وقدمت إليهم نبيذاً عادياً في فناجين خزفية مقشرة ثم انسحبت خارجة. وكانت تلك هي الإشارة التي تنتظرها تيتي كي تدخل، كما أمرها الكاهن.

ـ لقد استدعيتكم إلى بيت الرب هذا من أجل تصويب سوء تفاهم يا أبنائي ـ قال الأب أنطوان وهو يُخرج الورقة من درج المنضدة ـ. هذه المرأة الطيبة، تيتي، كان يجب أن تُعتق منذ سبع سنوات، وفق ما تبينه هذه الوثيقة. أليس كذلك يا مسيو فالموران؟

ـ سبع سنوات؟ ولكن تيتي أكملت الثلاثين من عمرها للتو! وليس بالإمكان عتقها قبل بلوغها هذه السن! ـ هتف المعني.

بحسب **القانونِ الزنجي**، العبد الذي ينقذ حياة فرد من أسرة سيده له الحق بالحرية فوراً، مهما كان عمره. وتيتي أنقذت حياتك وحياة ابنك موريس.

ـ هذا أمر لا يمكن إثباته يا أبتاه ـ أجاب فالموران بتكشيرة استخفاف.

ـ مزرعتك في سان دومانغ أُحرقت، ورؤساء فرق عمالك قُتلوا، وهرب عبيدك جميعهم لينضموا إلى المتمردين. أخبرني إذاً يا بني، هل تظن أنك كنت ستنجو دون مساعدة هذه المرأة؟

تناول فالموران الورقة وألقى عليها نظرة، وأجاب من فوقها:

ـ ولكنها بلا تاريخ محدد يا أبتِ.

ـ صحيح، يبدو أنك نسيت كتابة التاريخ في تعجل الهرب وغمه. هذا أمر مفهوم جيداً. ولحسن الحظ أن الدكتور بارمونتيه رأى هذه الورقة عام ١٧٩٣ في لوكاب، وهكذا يمكننا الافتراض أنها تعود إلى ذلك التاريخ. ولكن هذا الأمر غير مهم. فنحن نتحدث كسادة مسيحيين محترمين، ورجال إيمان طيبي النوايا. أطالبك يا مسيو فالموران، باسم الرب، أن تنفذ وعدك ـ وعرّت عينا القديس الغائرتان روحه.

التفت فالموران نحو بارمونتيه الذي ركز نظره على فنجان النبيذ،

مشلولاً ما بين الوفاء لصديقه الذي يدين له بالكثير من جهة، ونبل أخلاقه الذي لجأ إليه الكاهن للتو بطريقة بارعة من جهة أخرى. أما سانتشو بالمقابل، فلم يستطع إخفاء ابتسامة تحت شاربه الوقح. فالمسألة تبدو له ممتعة، لأنه منذ سنوات يُذَكِّر صهره بضرورة حلّ مشكلة الخليلة، ولكنه كان بحاجة إلى تدخل إلهي، لا أقل، من أجل العملِ بنصيحته. إنه لا يفهم سبب احتجازه لتيتي إذا كانت لا تروقه، فضلا عن أنها مصدر إزعاج لأورتينس. وبإمكان آل فالموران أن يختاروا مربية أخرى لابنتيهما من بين عبيدهم الكثيرين.

ـ لا تقلق يا أبتاه، فصهري سيفعل ما هو عادل وصحيح ـ تدخل سانتشو بعد صمت قصير ـ. وسأكون أنا والدكتور بارمونتيه شاهديه. غداً سنذهب إلى القاضي من أجل إضفاء الشرعية على عتق تيتي.

ـ موافق يا أبنائي. ومبروك يا تيتي، فمنذ الغد ستكونين حرة ـ أعلن الأب أنطوان وهو يرفع كأسه لشرب نخب.

تظاهر الرجال بأنهم أفرغوا كؤوسهم، ولكن أياً منهم لم يستطع ابتلاع ذلك الشراب، ثم نهضوا واقفين ليغادروا. فأوقفتهم تيتي.

ـ لحظة واحدة، أرجوكم. ماذا عن روزيت؟ فهي أيضاً لها الحق بالحرية. هذا ما تقوله الوثيقة.

صعد دم فالموران حتى رأسه وشح الهواء بين أضلاعه. ضغط على مقبض عكازه بفقرات أصابعه البيضاء، وتحكم بنفسه بصعوبة كيلا يرفع العكاز ضد تلك العبدة الوقحة، ولكن قبل أن يصل إلى الفعل، تدخل القديس.

ـ طبعا يا تيتي. مسيوٍ فالموران يعرف أن روزيت متضمنة. وستكون حرة مثلك في الغد أيضاً. وسيرى الدكتور بارمونتيه ودون سانتشو أن كل شيء سيتم وفقاً للقانون. فليبارككم الرب يا أبنائي...

خرج الرجال الثلاثة، ودعا الكاهنُ تيتي لتناول فنجان من الشكولاته للاحتفال بالاتفاق. وبعد ساعة من ذلك، عندما رجعت إلى البيت، كان سيداها ينتظرانها في الصالون، مثل قاضيين صارمين يجلسان

جنباً إلى جنب على كرسيين عاليي المسند. كانت أورتينس حانقة وفالموران مستاء، لأن دماغه لم يستوعب أن هذه المرأة، من اعتمد عليها طوال عشرين سنة، قد أذلته أمام الكاهن وأقرب صديقين إليه. أعلنت أورتينس أنها سترفع القضية أمام المحاكم، وأن هذه الوثيقة قد كُتبت تحت الضغط وهي بالتالي غير صالحة، لكن فالموران لم يسمح لها بمواصلة الذهاب في هذا الطريق. فهو غير راغب بإثارة فضيحة.

تنازع السيدان الكلمات لتغطية العبدة بتأنيب لم تكن تسمعه لأن ضجة صنوج سعادة كانت تدوي في رأسها. «يا لكِ من جاحدة! إذا كان الذهاب من هنا هو ما تريدينه، فلتنصرفي الآن فوراً. حتى ملابسك التي عليكِ ملك لنا، ولكنك تستطيعين أخذها كيلا تخرجي عارية. إنني أمنحك نصف ساعة لتغادري هذا البيت، وأمنعك من العودة لدخوله. ولنر ما الذي سيحل بكِ عندما تصبحين في الشارع! قدمي نفسك للبحارة مثل أي سافلة، وهذا هو الشيء الوحيد الذي تستطيعين عمله!»، زمجرت أورتينس هي تضرب قوائم كرسيها بالسوط.

انسحبت تيتي، أغلقت الباب بحذر وذهبت إلى المطبخ، حيث كان بقية الخدم قد علموا بما حدث. وعلى الرغم من المجازفة باستدعاء غضب سيدتها، فقد دعتها دينس إلى النوم معها والمغادرة عند الفجر، كيلا لا تكون في الشارع خلال الليل وليس معها تصريح بالتجوال. فهي ليست حرة بعد، وإذا ما قبض عليها الحراس فسوف تذهب إلى السجن، ولكن تيتي كانت تتحرق للمغادرة. عانقت كل واحد من الخدم ووعدتهم بأنها ستلتقي بهم في القداس، أو في ساحة الكونغو، أو في السوق؛ وقالت إنها لا تفكر في الذهاب بعيداً، وإن نيو أورلينز هي المدينة المناسبة تماماً لها. «لن يكون لك سيد يحميك يا تيتي، ويمكن أن يحدث لك أي شيء، فالأخطار كثيرة في الخارج. وممَ ستعيشين؟»، سألتها سيلستين.

ـ ممَ عشتُ عليه دوماً، من عملي.

لم تتوقف في حجرتها لتجمع ممتلكاتها التعيسة، ولم تحمل معها

سوى ورقة حريتها وسلة طعام أعدتها لها سيلتين. اجتازت الساحة ماشية بخفة، ودارت حول الكاتدرائية وطرقت باب بيت القديس. فتحت لها الأخت لوسي حاملة شمعة في يدها، وقادتها دون أسئلة، عبر الدهليز الذي يصل المسكن بالكنيسة، إلى قاعة سيئة الإضاءة، حيث يوجد نحو عشرة من السكان الأصليين يجلسون إلى المائدة، وأمامهم أطباق حساء وخبز. كان الأب أنطوان يأكل معهم، وقال لها: «اجلسي يا ابنتي، لقد كنا بانتظارك. وستتدبر لك الأخت لوسي حالياً ركناً تنامين فيه».

وفي اليوم التالي رافقها القديس إلى المحكمة. وحضر فالموران وبارمونتيه وسانتشو في الموعد الدقيق للتصديق على إعتاق «الشابة زاريتيه، المدعوة تيتي، خلاسية، ثلاثون عاماً، حسنة السيرة والسلوك، بسبب خدمات مخلصة. وبهذه الوثيقة تصبح ابنتها روزيت، في الحادية عشرة، عبدة لزاريتيه المذكورة». وأمر القاضي بتعليق بلاغ عام يدعو «كل من لديهم اعتراض قانوني أن يحضر إلى هذه المحكمة خلال مدة أقصاها أربعين يوماً من تاريخ اليوم». وبانتهاء الإجراءات، ولم تستغرق أكثر من تسع دقائق، خرج الجميع بمزاج طيب، بمن فيهم فالموران، لأنه خلال الليل، وبعد أن نامت أورتينس متعبة من الغضب والشكوى، حصل على وقت للتفكير بعمق وأدرك أن سانتشو على حق، وأنه عليه التخلص من تيتي. وعند بوابة مبنى المحكمة أوقفها بإمساك ذراعها.

ـ على الرغم من أنكِ تسببتِ لي بضرر كبير، إلا أنني لا أكن لك أي حقد يا امرأة ـ قال لها بنبرة أبوية، راضياً عن كرمه ـ. أعتقد أن الأمر سينتهي بكِ إلى التسول، ولكنني سأنقذ روزيت على الأقل. فسوف تواصل الدراسة عند الراهبات الأورسوليات إلى أن تنهي تعليمها.

ـ ستكون ابنتك شاكرة لك يا مسيو ـ ردت عليه، ومضت إلى الشارع راقصة.

قديس نيو أورلينز

خلال الأسبوعين الأولين حصلت تيتي على طعامها وعلى فراش من القش تنام عليه بفضل مساعدتها الأب أنطوان في مهمات إحسانه المتعددة. كانت تنهض قبل الفجر، في الوقت الذي يكون هو فيه قد أمضى فترة لا بأس بها في الصلاة، فترافقه إلى السجن، إلى المستشفى، إلى مأوى المجانين، إلى ملجأ الأيتام، وإلى بعض البيوت لتقديم مناولة خبز القربان لبعض المسنين أو المرضى العاجزين. كان الكاهن الدؤوب بعباءته البنية ولحيته المشعثة، يجول في المدينة طوال اليوم، تحت الشمس أو المطر؛ يُرى في منازل الأغنياء وفي الأكواخ البائسة، في الأديرة وفي المواخير، يطلب الصدقات في السوق وفي المقاهي، ويقدم الخبز للمتسولين مبتوري الأطراف، وماء للعبيد في مزاد النخاسة في ماسبيرو إتشانج، وتتبعه على الدوام كلاب أليفه. لا ينسى أبداً مواساة من يُعذبون على آلات التعذيب في الشارع، وراء الكاتدرائية، إنهم أشد النعاج تعاسة في قطيعه، ينظف جراحهم بخراقة شديدة، نظراً لضعف بصره، مما يضطر تيتي إلى التدخل.

ـ يا ليدك الملائكية يا تيتي! لقد اختارك الرب لتكوني ممرضة. عليك البقاء للعمل معي ـ اقترح عليها القديس.

ـ لستُ راهبة يا أبتِ، ولا يمكنني العمل مجاناً إلى الأبد، فعلي الإنفاق على ابنتي.

ـ لا تغرقي في الجشع يا ابنتي، فخدمة الآخرين يُدفع أجرها في السماء، مثلما وعدنا يسوع.

ـ قل له إنه من الأفضل الدفع هنا بالذات، حتى ولو كان ما يدفعه قليلاً.

ـ سأخبره يا ابنتي، ولكن لدى يسوع نفقات كثيرة جداً ـ يرد عليها

الكاهن مرفقاً كلامه بابتسامة ماكرة.

وعند الغروب يرجعان إلى البيت الحجري الصغير، حيث تنتظرهما الأخت لوسي بالماء والصابون ليغتسلا قبل أن يتناولا الطعام مع السكان الأصليين. تذهب تيتي لتنقع قدميها في دلو ماء وتقص شرائط قماشية لتصنع منها أضمدة، بينما الكاهن يستمع إلى الاعترافات، ويعمل كحكم، ويحل مشاكل، ويبدد أوهاماً. لم يكن يقدم نصائح، لأنه اكتشف من خلال تجاربه أنها إضاعة للوقت، فكل شخص يرتكب أخطاءه ويتعلم منها.

وفي الليل يتدثر القديس ببطانية تملؤها العثة، ويخرج مع تيتي ليرافق أشد الرعاع خطراً، وكان يحمل مصباحاً لأنه لا وجود لمصباح واحد من مصابيح المدينة الثمانين في مكان يمكن أن يفيده. كان الجانحون يتسامحون معه لأنه يرد على البذاءات بمباركات تهكمية، ولا يمكن لأحد أن يخيفه. لا يأتيهم متوعداً بالعذاب الأبدي ولا بنية إنقاذ الأرواح، وإنما ليضمد جراح من طُعنوا بالمدى، والفصل بين العنيفين، ومنع عمليات انتحار، وإنقاذ نساء، والتقاط جثث، واقتياد أطفال إلى ملجأ الراهبات للأيتام. وإذا ما تجرأ أحد ***الكينتوك*** على لمسه، فإن مئة قبضة ترتفع كي تعرّف الغريب من هو الأب أنطوان. كان يدخل إلى حي المستنقع، أسوأ وكر للفسق في منطقة الميسيسيبي، دون حماية سوى براءته الراسخة وهالة قداسته غير المؤكدة. هناك يجتمع، في جحور القمار ومواخير عاهرات المراكب، قراصنة وقوادون ومومسات، وفارون من الجيش وبحارة سكارى، ولصوص وقتلة. وكانت تيتي المذعورة تتقدم وسط الطين والقيء والبراز والفئران، متشبثة بمسوح الكاهن الكبوشي، مستحضرة إرزولي بصوت عال، بينما الكاهن يتذوق متعة الخطر. «إن يسوع يحمينا يا تيتي»، يؤكد لها بسعادة. «وماذا إذا سها لحظة عنا يا أبتاه؟».

مع انتهاء الأسبوع الثاني كانت قدما تيتي مجرحتين، وظهرها منهوك، وقلبها مثقل بالبؤس البشري وبالشك في أن قطع القصب

أسهل بكثير من توزيع الإحسان على الجاحدين. وذات يوم ثلاثاء التقت في ساحةِ السلاح مع سانتشو غارثيا دل سولار، وكان يرتدي السوادِ، ومعطراً بزخم لا يمكن معه حتى للذباب أن يقترب منه، وبدا سعيداً جداً لأنه كسب للتو لعبة ورق مع أمريكي شديد الثقة بنفسه. حياها بانحناءة احترام أنيقة وقبلة على يدها أمام عدة مارة مذهولين، ثم دعاها لتناول فنجان قهوة.

ـ لا بد من تناوله بسرعة يا دون سانتشو، لأنني أنتظر الأب أنطوان الذي يعالج بثور رجل آثم ولا أظنه سيتأخر طويلا.

ـ ألا تساعدينه يا تيتي؟

ـ بلى، ولكن الآثم مصاب بالداء الإسباني والأب لا يسمح لي برؤية الأعضاء الخاصةِ. وكأنها شيء جديد بالنسبة لي!

ـ القديس محق تماماً يا تيتي. فلو أصابني ذلك الداء ـ لا سمح الله! ـ لن يروقني أن تمتهن امرأة حسناء مثلك حيائي.

ـ لا تسخر يا دون سانتشو، فقد تصيب هذه النكبة أي شخص... باستثناء الأب أنطوان طبعاً.

جلسا إلى منضدة صغيرة قبالة الساحة. ولم يخفِ صاحب المقهى ـ وهو خلاسي حر من معارف سانتشو ـ استغرابه حيال التناقض البادي على الإسباني ومرافقته. فهو يبدو بهيئة ملكية، بينما هي أشبه بمتسولة. وقد انتبه سانتشو أيضاً إلى مظهر تيتي المزري، وعندما أخبرته بما صارت إليه حياتها في الأسبوعين الأخيرين، أطلق قهقهة مدوية.

ـ إن القداسة ثقيلة الوطأة حقاً يا تيتي. عليك أن تهربي من الأب أنطوان وإلا ستنتهين إلى عجوز هرمة مثل الأخت لوسي ـ قال.

ـ لا يمكنني استغلال كرم ونبل الأب أنطوان لوقت طويل يا دون سانتشو. سأغادره عندما تنقضي أيام بلاغ القاضي الأربعين وأنال حريتي. عندئذ سأرى ما سأفعل، يتوجب عليّ الحصول على عمل.

ـ وماذا بشأن روزيت؟

ـ ما زالت عند الراهبات الأورسوليات. أعرف أنكَ تزورها وتحمل

إليها هدايا باسمي. كيف سأرد إليك الطيبة التي عاملتنا بها يا دون سانتشو؟

ـ أنت لا تدينين لي بأي شيء يا تيتي.

ـ إني بحاجة إلى ادخار بعض المال كي استقبل روزيت حين تخرج من المدرسة.

ـ وماذا يقول الأب أنطوان بهذا الشأن؟ ـ سألها سانتشو وهو يضع في قهوتها خمس ملاعق سكر ورشفة من الكونياك.

ـ يقول إن الله يرزق.

ـ آمل أن يكون الأمر كذلك، ولكن يجب أن تكون لديكِ خطة بديلة على سبيل الاحتياط. إنني بحاجة إلى مدبرة منزل، فبيتي في حالة مزرية، ولكنني إذا ما منحتكِ هذا العمل، فلن يغفر لي آل فالموران ذلك.

ـ أفهم وضعك يا سيدي. سأجد من يوظفني، إنني متأكدة.

ـ الأعمال الشاقة يقوم بها العبيد، ابتداء من زراعة الحقول حتى تربية الأطفال. هل تعرفين أنه يوجد ثلاثة آلاف عبد في نيو أورلينز؟

ـ وكم عدد الأحرار يا سيدي؟

ـ حوالي خمسة آلاف أبيض وألفين من الملونين الأحرار حسبما يقال.

ـ هذا يعني أن عدد الأحرار أكثر من ضعف عدد العبيد ـ قدرت تيتي ـ كيف لن أجد أحدهم بحاجة إليّ! أحد دعاة تحرير العبيد مثلاً.

ـ داعية لتحرير العبيد في لويزيانا؟ إن كان له وجود فلا بد أن يكون متوارياً بحرص ـ قال سانتشو ضاحكاً.

ـ أنا لا أعرف القراءة والكتابة ولا الطهو يا سيدي، ولكنني أتقن الأعمال المنزلية، وتوليد الحوامل، وخياطة الجروح، ومعالجة المرضى ـ ألحت.

ـ لن يكون الأمر سهلاً يا امرأة، ولكنني سأحاول مساعدتك ـ قال لها سانتشو ـ أحد أصدقائي يؤكد أن العبيد يكلفون غالياً أكثر من

العاملين الأحرار. فالمرء يحتاج إلى عدة عبيد ليقوموا دون رغبة بالعمل الذي يقومٍ به شخص حرّ برغبة. أتفهمينني؟
ـ تقريبا ـ قالت موافقة وهي تحفظ في ذاكرتها كل كلمة قالها كي تكررها على مسمع الأب أنطوان.
ـ العبد يفتقر إلى الحافز. يناسبه أن يعمل ببطء وبصورة سيئة، لأن ثمرة جهده لا تفيد إلا مالكه، أما الأحرار فيعملون ليدخروا ويتقدموا. هذا هو الحافز.
ـ الحافز في سان دومانغ كان سوط السيد كامبري ـ قالت معلقة.
ـ وها أنتِ ترين كيف انتهت تلك المستعمرة يا تيتي. لا يمكن فرض الرعب بالقوة إلى الأبد.
ـ لا بد أنك داعية إلغاء عبودية متوارٍ يا دون سانتشو، لأنك تتكلم مثل المعلم غاسبار سيفران والمسيو زاشاري في لوكاب.
ـ لا تكرري هذا الكلام أمام الناس لأنك ستجلبين لي المتاعب. أريد أن أراكِ هنا يوم غد بالذات، وأن تكوني نظيفة وبملابس لائقة. سنذهب معاً لزيارة صديقتي.
في اليوم التالي انطلق الأب أنطوان وحيداً إلى مهماته، بينما ذهبت تيتي، بفستانها الوحيد المغسول للتو وبعمامة منشاة، برفقة سانتشو للبحث عن عمل أول مرة. لم يمشيا بعيداً، اجتازا بضعة شوارع فقط تتقاطع مع شارع شارت، حيث متاجر القبعات والأحذية والأقمشة وكل ما هو موجود لتغذية الغنج الأنثوي، وتوقفا أمام بيت من طابقين مطلي بالأصفر مع حاجز قضبان حديدية على الشرفات.
طرق سانتشو الباب بمقرعة صغيرة لها شكل ضفدع، وفتحت لهما الباب زنجية بدينة ما إن تعرفت على سانتشو حتى استبدلت ملامح الاستياء بابتسامة عريضة. وخُيل لتيتي أنها قد جالت عشرين سنة في دوائر مغلقة لينتهي بها الأمر في المكان نفسه الذي كانت فيه عندما غادرت بين مدام ديلفين. فقد وجدت أمامها لولا. لم تتعرف المرأة العجوز عليها، وكان من المستحيل أن تتعرف عليها، ولكنها رحبت

بها لأنها آتية مع سانتشو، واقتادتهما إلى الصالون قائلة: «ستأتي المدام حالاً يا دون سانتشو. فقد كانت تنظر مجيئك»، واختفت قارعة خشب الأرضية بخطوات فيل متثاقلة.

بعد دقائق من ذلك، طفر قلب تيتي في صدرها وهي ترى دخول فيوليت بواسيير نفسها التي عرفتها في لوكاب، وقد بدت جميلة مثلما كانت آنذاك وبالثقة التي تمنحها السنوات والذكريات. تبدل سانتشو في لحظة واحدة. فقد تلاشى تبجحه الذكوري الإسباني وتحول إلى فتى خجول ينحني ليقبل يدّ الحسناء، بينما طرف سيفه يقلب وراءه منضدة صغيرة. وقد تمكنت تيتي من التقاط دمية تروبادور قروسطية من الخزف قبل أن تسقط على الأرض وتتهشم، وضمتها إلى صدرها وهي تنظر بذهول إلى فيوليت التي قالت: «أظن أن هذه هي المرأة التي حدثتني عنها يا سانتشو». لاحظت تيتي ألفة المعاملة واضطراب سانتشو، وتذكرت الإشاعات المتداولة، وأدركت أن فيوليت هي الكوبية التي حلّت، حسب قول سيلستين محل آدي سابير في قلب الإسباني كثير الغراميات.

ـ مدام... لقد تعارفنا قبل زمن طويل. حضرتك اشتريتني من مدام ديلفين عندما كنتُ طفلة ـ تمكنت تيتي من القول.

ـ هكذا؟ لست أتذكر ـ تمايلت فيوليت.

ـ في لوكاب. حضرتك اشتريتني للمسيو فالموران... إنني زاريتيه.

ـ أجل، بالطبع! اقتربي من النافذة كي أراك جيداً. وكيف لي أن أتعرف عليكِ؟ لقد كنتِ آنذاك بنتاً هزيلة ومهووسة لا تفكرين إلا في الهرب.

ـ إنني حرة الآن. حسن، شبه حرة.

ـ رباه، هذه مصادفة شديدة الغرابة... لولا! تعالي وانظري من لدينا هنا! ـ صرخت فيوليت.

دخلت لولا مجرجرة بدنها الضخم، وعندما عرفت من تكون المرأة ضمتها إليها بذراعي الغوريلا اللتين لها. سالت دمعتان عاطفيتان من عيني

المرأة العجوز حين تذكرت هونوري المرتبط في ذاكرتها بالطفلة التي كانتها تيتي. أخبرتها أن مدام ديلفِن حاولت أنْ تبيعه قبل عودتها إلى فرنسا، ولكنه لم يكن يساوي شيئاً، كان عجوزاً مريضاً، فاضطرت إلى إطلاقه كي يتدبر أمره بطلب الصدقات.

ـ لقد ذهب إلى المتمردين قبل الثورة. جاء ليودعني، فقد كنا صديقين. إنه رجل محترم حقيقي هونوري ذاك. لا أدري إذا كان قد وصل إلى الجبال، لأن الطريق وعر ومرتفع جداً، وكان هونوري عجوزاً معوج العظام. وإذا كان قد وصل فمن يدري إن كانوا قد قبلوه معهم، لأنه لم يكن في وضع يسمح له بالقتال في أي حرب ـ تنهدت لولا.

ـ لقد قبلوه في صفوفهم بالتأكيد، لأنه يتقن قرع الطبول والطهو. وهذا أهم من حمل السلاح ـ أجابتها تيتي.

ودّعت الكاهن والأخت لوسي العجوز مع الوعد بالمجيء لمساعدتهم في رعاية المرضى كلما استطاعت ذلك، وانتقلت للعيش مع فيوليت ولولا، مثلما تمنت بشدة وهي في العاشرة من عمرها. ولإرضاء فضولها المعلق منذ عقدين، تحرت عن السعر الذي دفعته فيوليت عند شرائها من مدام ديفلن وعلمت أنه يساوي ثمن عنزتين، وإن كان الثمن قد ارتفع بنسبة خمسة عشر بالمئة عندما نُقلت إلى فالموران. «وهذا أكثر مما كنتِ تساوينه يا تيتي. فقد كنتِ طفلة قبيحة وسيئة التربية»، أكدت لها لولا بجد.

خصصوا لها غرفة العبيد الوحيدة في البيت، وهي حجرة ضيقة بلا تهوية، ولكنها نظيفة، وبحثت فيوليت بين ثيابها ووجدت شيئاً مناسباً تُلبسها إياه. كانت مهماتها كثيرة يصعب حصرها، ولكنها تتلخص أساساً في تنفيذ أوامر لولا التي لم تعد في عمر ولا في وضع يسمحان لها بإنجاز الأعمال المنزلية وتقضي النهار في المطبخ لإعداد مراهم للجمال وصابون للحسية. لم تكن هناك يافطة في الشارع يعلن عما يُعرض للبيع بين تلك الجدران؛ فالإشاعة التي تتناقلها الألسن كافية

لاجتذاب أعداد لامتناهية من النساء من كل الأعمار، معظمهن ملونات، وإن كانت تأتي بعض النساء البيض أيضاً مستترات تحت حجب سميكة.

لم تكن فيوليت تستقبل زبائنها إلا بعد الظهر، فهي لم تتخلَ عن عادةِ تخصيص ساعات الصباح للعناية بنفسها والراحة. فبشرتها التي نادراً ما تتعرض مباشرة لضوء الشمس، مازالت شديدة النعومة مثل *الكريم كراميل*، والتجعداتِ الخفيفة حول عينيها تمنحها تميزاً خاصاً، ويداها اللتان لم تغسلا ثياباً ولم تطبخا قطّ تبدوان شبابيتين، وكانت بضعة كيلوغرامات قد أبرزت تكورات جسدها دون أن تمنحها مظهر سيدة بدينة. وحفظت المراهم السرية لون شعرها الأسود الكهرماني الذي واظبت على تسريحه كما في السابق، بعقيصة معقدة مع بعض الخصل المفلتة لإغواء المخيلة. وكانت لا تزالٍ تستثير شهوة الرجال وحسد النساء، وكان هذا اليقين يضيف مزيداً من تأرجح الردفين في مشيتها ومن الخرخرة في ضحكتها. كانت زبوناتها يعهدن إليها ببشرتهن، ويطلبن منها النصائح همساً، ويقتنين عقاقيرها دون مساومة وبتكتم مطلق. كانت تيتي ترافقها لشراء المكونات؛ ابتداء من لألئ تبيض البشرة التي تحصل عليها من القراصنة، وحتى قوارير زجاج ملون يأتيها بها قبطان إحدى السفن من إيطاليا. «العبوة أغلى مما تحتويه. لأن المظهر هو المهم»، كانت فيوليت تقول لتيتي. فتضحك الأخرى قائلة: «الأب أنطوان يؤكد عكس ذلك».

كل أسبوع تذهب فيوليت إلى كاتب عرائض وتملي عليه الخطوط العريضة لرسالة إلى ابنها في فرنسا. ويتولى الكاتب صياغة أفكارها في جمل مزهرة وبخط بديع. كانت الرسائل تحتاج لشهرين فقط كي تصل إلى يدي تلميذ الضابط الشاب الذي يرد عليها فور استلامها بأربع عبارات من الرطانة العسكرية ليقول إنه في حالة إيجابية وإنه يدرس لغة العدو، دون أن يحدد عن أي عدو بالضبط يتكلم، ذلك أن أعداء فرنسا كانوا كثيرين. «جان مارتن مثل أبيه»، كانت فيوليت تتنهد وهي

تقرأ تلك الرسائل القصيرة المشفرة. وقد تجرأت تيتي على سؤالها كيف تمكنت من الحيلولة دون أن تؤدي الأمومة إلى ترهل لحمها، فعزت فيوليت ذلك إلى إرث جدتها السنغالية. لم تعترف لها أنها تبنت جان مارتن، مثلما لم تأت أمامها قطّ على ذكر غرامياتها مع فالموران. ولكنها حدثتها مع ذلك عن علاقتها الطويلة بإيتيان روليه، كعشيق وزوجٍ، وعن وفائها لذكراه إلى أن ظهر سانتشو غارثيا دل سولار، لأن أياً من المتوددين السابقين إليها في كوبا لم يتوصل إلى كسب حبها، بمن فيهم ذلك الغاليسي الذي كان على وشك الزواج منها.

ـ لقد كان لدي من يرافقني على الدوام في فراشي كأرملة كي أحافظ على لياقتي. ولهذا لي بشرة جيدة ومزاج طيب.

وقدّرت تيتي أن التجعد والكآبة سيحلان بها هي بالذات لأنها تعمد منذ سنوات إلى مواساة نفسها بنفسها دون أي محفز آخر سوى ذكرى غامبو.

ـ دون سانتشو سيد طيب يا مدام. وإذا كنتِ تحبينه، لماذا لا تتزوجين منه؟

ـ في أي عالم تعيشين يا تيتي؟ البيض لا يتزوجون من نساء ملونات، فذلك غير شرعي. ثم إنه يتوجب عليّ ألا أتزوج بعد بلوغ هذه السن، وخاصة من رجلٍ لعوب لا شفاء له مثل سانتشو.

ـ يمكنكما العيش معاً.

ـ لا أريد التورط في الإنفاق عليه. سانتشو سيموت فقيراً، بينما أفكر أنا في أن أموت ثرية وأن أُدفن في مدفن يعلوه تمثال ملاك من المرمر.

قبل يومين من انتهاء مهلة إعتاق تيتي، رافقها سانتشو وفيوليت إلى مدرسة الراهبات الأورسوليات لينقلا الخبر إلى روزيت. التقوا في قاعة الزيارات، وهي قاعة فسيحة وشبه عارية، فيها أربعة كراس من خشب خشن، وصليب كبير معلق من السقف. وعلى منضدة صغيرة، كانت قد وضعت فناجين شكولاته دافئة، تعلوها طبقة من الكريما

المخثرة تطفو فوق الشكولاته، وإلى جانبها صندوق تبرعات لإعالة المتسولين الذين يأتون إلى الدير. وكانت راهبة تحضر اللقاء وتراقب بطرف عينها، لأنه لا يمكن للتلميذات البقاء دون مرافقة بحضورٍ رجل، حتى لو كان المطران، فما بالك إذا كان الزائر شخصاً مغوياً مثل ذلك الإسباني.

نادراً ما تحدثت تيتي مع ابنتها حول موضوع العبودية. وكانت روزيت تعرف بصورة غامضة أنها هي وأمها من ممتلكات فالموران وتقارن ذلك بوضع موريس الذي يتبع تماماً لأبيه ولا يمكنه اتخاذ أي قرار بنفسه. ولم يبدُ لها ذلك غريباً. فجميع النساء والأطفال الذين تعرفهم، سواء أكانوا أحراراً أم غير أحرار، يتبعون لرجل: الأب، أو الزوج، أو يسوع. ومع ذلك، فقد كان هذا هو الموضوع الدائم في رسائل موريس الذي يعيش، على الرغم من كونه حراً، في وضع أشد غماً منها بسبب عدم أخلاقية العبودية، كما يقول. ففي الطفولة، عندما كانت الفروقات بين الاثنين أقل ظهوراً بكثير، اعتاد موريس الغرق في حالات معنوية مأساوية بسبب الموضوعين المتسلطين على عقله: العدالة والعبودية. «عندما نكبر، ستكون أنت سيدي، وسأكون أنا عبدتك، وسوف نعيش سعيدين»، هذا ما قالته له روزيت في إحدى المناسبات. فهزها موريس وهو يختنق بالدموع: «لن يكون لي عبيد أبداً! أبداً! أبداً!».

كانت روزيت واحدة من أكثر البنات الملونات بياض بشرة، ولم يكن هناك من يخامره الشك في كونها ابنة أبوين حرين؛ وكانت كبيرة الراهبات وحدها هي من تعرف وضعها الحقيقي، وقد قبلتها في المدرسة بفضل الهبة التي قدمها فالموران للمدرسة والوعد بأنها سوف تُعتق في مستقبل قريب. لقد التقت تيتي بابنتها على انفراد في مرات سابقة دون أن يكون لديهما ما تقولانه، وكانت كلتاهما تبدوان متضايقتين. ولكن روزيت وفيوليت تفاهمتا بسرعة. وحين رأتهما تيتي معاً، فكرت في أنهما متشابهتان بطريقة ما، ليس في الملامح بقدر ما هو

في اللون والموقف. أمضتا ساعة الزيارة في محادثة متحمسة، وبينما هي وسانتشو يراقبانهما صامتين.

ـ يا لابنتك روزيت من طفلة ذكية وجميلة يا تيتي! إنها الابنة التي طالما تمنيت أن أُرزق بها! ـ هتفت فيوليت عندما خرجوا.

ـ ماذا سيحل بها عندما تخرج من المدرسة يا مدام؟ إنها معتادة على العيش كالأثرياء، وهي لم تعمل قطّ في حياتها وتظن أنها بيضاء ـ تنهدت تيتي.

ـ مازال هناك متسع من الوقت للتفكير في الأمر يا امرأة. ولسوف نرى ما يمكن عمله ـ أجابتها فيوليت.

زاريتيه

في اليوم الموعودِ رابطتُ عند باب المحكمة بانتظار القاضي. كان البلاغ لا يزال معلقاً على الباب، مثلما رأيته كل مساء خلال الأيام الأربعين الماضية، عندما كنت أذهب وروحي معلقة بخيط وطوطم حسن طالع في يدي، لأتحرى إن كان هناك من يعارض إعتاقي. كان يمكن لمدام أورتينس أن تحول دون تحريري، وهو أمر تستطيع فعله بسهولة؛ يكفي أن تتهمني بالتهتك أو سوء السلوك، ولكنها لم تتجرأ كما يبدو على تحدي زوجها. فالمسيو فالموران يخشى التقولات. لقد توافر لي خلال تلك الأيام الوقت للتفكير وراودتني شكوك كثيرة. كانت ترن في رأسي تحذيرات سيلستين وتهديدات فالموران: الحرية تعني أنك لا تستطيعين الاعتمادِ على مساعدة، ولن تحصلي على حماية أو أمان. وإذا لم أجد عملاً، أو أصبت بالمرض، فسوف ينتهي بي الأمر إلى الوقوف في صفوف المتسولين الذين تطعمهم الراهباِت الأورسوليات. «اهدئي يا تيتيِ. ثقي بالرب الذي لا يتخلى عنا أبداً»، يقول لي الأب أنطوان مواسياً. لم يحضر أحد إلى المحكمة ليعترض على إعتاقي، وفي الثلاثين من شهر تشرين الثاني ١٨٠٠ وقّعِ القاضي على حريتي وسلمني روزيت. الأب أنطوان وحده كان موجوداً هناك، لأن دون سانتشو والدكتور بارمونتيه وعداني بالمجيء، ولكنهما نسيا. سألني القاضي بأي لقب أريد أن أسجل، فأذن لي القديس أن استخدم لقبه. زاريتيه سيديلا، ثلاثون عاماً، خلاسية، حرة. وروزيت، إحدى عشرة سنة، خلاسية ربعة، تملكها زاريتيه سيديلا. هذا ما جاء في الورقة التي قرأها لي الأب أنطوان كلمة قبل أن يمنحني مباركته ويعانقني بقوة. هذا ما حدث.

انصرف القديس فوراً ليقدم العون لمحتاجيه وجلستُ أنا على مقعد

في ساحة السلاح لأفرج عن نفسي بالبكاء. لا أدري كم من الوقت بقيت على تلك الحال، لأن الشمس انتقلت في السماء، وجف وجهي في الظل. عندئذ أحسستُ بمن يلمس كتفي وسمعتُ صوتاً معروفا هزني فجأة: «أخيراً هدأتِ يا مدموزيل زاريتيه! ظننتُ أنكِ ستذوبين دموعا». إنه زاشاري، وقد كان يجلس على مقعد آخر، يتأملني دون تعجل. إنه أجمل رجل في العالم، ولكنني لم أنتبه إليه من قبل لأني كنت عمياء في حب غامبو. ففي معتمدية لوكاب، بسترته الرسمية كقهرمان، كانت له هيئة مهيبة، وهنا في الساحة، بسترة حريرية مطرزة بلون الطحلب، وقميص قطني رقيق، وجزمة بإبزيم مشغول وعدة خواتم من الذهب، يبدو أفضل مما كان عليه. «زاشاري! أهذا أنت حقا؟» بدا كرؤية، بالغ التميز، مع بعض الشيب على الصدغين وعكاز رفيع بقبضة من العاج.

جلس إلى جانبي وطلب مني التعامل معه دون كلفة، فرفع الكلفة أفضل من التكلم بوقار، بالنظر إلى صداقتنا القديمة. أخبرني أنه غادر سان دومانغ بأقصى سرعة فور الإعلان عن إنهاء العبودية، وأبحر في سفينة شراعية أمريكية تركته في نيويورك، حيث لم يكن يعرف أحدا ويرتجف من البرد ولا يفهم كلمة واحدة من الرطانة التي يتكلمها أولئك الناس، كما قال لي. كان يعرف أن معظم لاجئي سان دومانغ يستقرون في نيو أورلينز، فتدبر أمره كي يصل إلى هنا. أموره تمضي على أحسن حال. وقبل يومين رأى مصادفة البلاغ المعلق في المحكمة بشأن حريتي، تحرى عن الأمر، وعندما تأكد من أن المعنية هي أنا نفسي، زاريتيه التي يعرفها، عبدة مسيو تولوزٍ فالموران، قرر المجيء في الموعد المحدد، لاسيما وأن مركبه سيكون راسيا في نيو أورلينز على أي حال. رآني أدخل مع الأب أنطوان إلى المحكمة، فانتظرني في الساحة، وكان من التهذب بعد ذلك أن تركني أبكي قبل أن يأتي ليسلم عليّ.

ـ لقد انتظرتُ هذه اللحظة ثلاثين سنة، وعندما أتت رحتُ أبكي بدل أن أرقص من السعادة ـ قلت له بخجل.

ـ سيكون لديك متسع من الوقت للرقص يا زاريتيه. سنخرج للاحتفال بالمناسبة هذا المساء ـ عرض عليّ.

ـ لا ملابس لدي أرتديها للاحتفال!

ـ سيكون عليّ أن أشتري لكِ ثوباً؛ وهذا أقل ما يستحقه يوم كهذا، أهم يوم في حياتك.

ـ هل أنت غني يا زاشاري؟

ـ إنني فقير ولكنني أعيش كغني. وهذا أكثر حكمة من أن أكون غنياً وأعيش كفقير ـ وانفجر في الضحك ـ. عندما أموت، سيكون على أصدقائي أن يتعاونوا على جمع تكاليف دفني، ولكن سيكون مكتوباً على لوحة قبري بحروف من ذهب: هنا يرقد زاشاري، أغنى زنجي في الميسيسيبي. لقد أوصيت منذ الآن على لوحة القبر وأحتفظ بها تحت سريري.

ـ هذا بالذات ما تتمناه مدام فيوليت بواسيير: قبر مبهر.

ـ إنه الشيء الوحيد الذي يبقى يا زاريتيه. فبعد مئة سنة سيتمكن زائرو المقبرة من الإعجاب بقبري فيوليت وزاشاري وسيتخيلون أننا عشنا حياة طيبة.

رافقني حتى البيت. وفي منتصف الطريق مررنا برجلين أبيضين، يرتديان ملابس أنيقة مثل زاشاري تقريباً، نظرا إليه من أعلى إلى أسفل بملامح ساخرة. وقذف أحدهما بصقة كبيرة قريباً جداً من قدميّ زاشاري، ولكن هذا لم ينتبه أو أنه فضل أن يزدريه بتجاهله.

لم تكن ثمة حاجة لأن يشتري لي ثوبا، لأن مدام فيوليت رغبت في تجميلي من أجل أول موعد في حياتي. فحممتني مع لولا، ودلكتاني بكريم اللوز، وشذبتا أظفاري، ورتبتا قدمي بأفضل طريقة ممكنة، ولكنهما لم تتمكنا من إخفاء ندوب سنوات طويلة من المشي حافية. مكيجتني المدام، ولكن وجهي لم يظهر في المرآة ملطخاً بالأصباغ، وإنما وجه زاريتيه سيديلا جميلة. ألبستني ثوب موسلين من أثوابها مع عباءة من اللون الدراقي نفسه، وعقدت حول رأسي، على طريقتها،

عمامة من الحرير. وأعارتني خفها الذي من التفتا وقرطيها الذهبيين الكبيرين، وهما حليتها الوحيدة، إضافة إلى خاتم الأوبال المكسور الذي لا تنزعه من إصبعها أبداً. لم يكن عليّ أن أذهب ببابوج عتيق وأحمل الخف في كيس كيلا يتسخ في الشارع، مثلما يفعلون دوماً، لأن زاشاري جاء في عربة مستأجرة. وأظن أن فيوليت ولولا وجارات عديدات هرعن للتلصص بفضول، قد تساءلن عن السبب الذي يجعل سيداً مثله يضيع وقته مع واحدة تافهة مثلي.

أحضر لي زاشاري زهرتي غاردينيا، علقتهما لولا على صدري، وذهبنا إلى مسرح الأوبرا. حضرنا في تلك الليلة عملاً للموسيقي سانت جورج، ابن أحد مزارعي غوادالوبي وعبدته الأفريقية. وكان الملك لويس السادس عشر قد عيّنه مديراً لأوبرا باريس، لكنه لم يستمر طويلاً، لأن مغنيات الأوبرا ومغني التينور رفضوا الغناء تحت إشارات عصاه كماسيترو. هذا ما أخبرني به زاشاري. وربما لم يكن أي من البيض الذين صفقوا كثيراً يعرف أن تلك الموسيقى من تأليف خلاسي. لقد حجز لنا زاشاري أفضل مقعدين في الحيز المخصص للملونين، في منتصف البلكون الثاني. كان هواء المسرح الكثيف يعبق بروائح الكحول والعرق والتبغ، ولكنني لم أكن أشم سوى زهرتي الغاردينيا. وكان هناك في الأروقة عدد من **الكينتوك** يقاطعون العمل بسخريات فظة، إلى أن أخرجوهم أخيراً بالقوة وصار بالإمكان مواصلة الموسيقى. بعد ذلك ذهبنا إلى صالون أورلينز، حيث يعزفون فالسات، وألحان بولكا وكواديّا، الرقصات نفسها التي تعلمها موريس وروزيت بالعصا. قادني زاشاري في الرقص دون أن يدوس قدميّ ودون أن يتعثر براقصين آخرين، وكان علينا أن نرقص دون أن نهز المؤخرة أو نؤرجحها. كان هناك بعض الرجال البيض، ولكن دون وجود أي امرأة بيضاء، وكان زاشاري هو الأشد سواداً، إذا استثنينا الموسيقيين والندل، والأجمل أيضاً. يتجاوز الجميع في طول قامته، ويرقص كما لو أنه يطفو، ويبتسم مظهراً أسنانه التامة.

بقينا في الرقص حوالي نصف ساعة، ولكن زاشاري انتبه إلى أنني لا أتلاءم بأي حال مع ذلك المكان، فغادرناه. وكان أول ما فعلته عند الصعود إلى العربة هو خلع الحذاء.

انتهينا على مقربة من النهر، في شارع ضيق وبعيد عن مركز المدينة. فاجأني وجود عدة عربات هناك يجلس على مقاعد قيادتها حوذيون متناومون، كما لو أنه مضى عليهم وقت طويل في الانتظار. توقفنا قبالة سور تغطية نباتات متسلقة وفيه باب ضيق يضيئه نور فانوس خافت، يحرسه رجل أبيض مسلح بمسدسين حيّا زاشاري باحترام. دخلنا فناء فيه حوالي عشرة أحصنة مسرجة وسمعنا نغمات فرقة موسيقية. البيت الذي لم يكن مرئياً من الشارع بدا كبير الحجم، ولكن دون إدعاءات، تخفي ما بداخله ستائر سميكة تغطي النوافذ.

ـ أهلاً بكِ في شي فلور[بيت زهرة]، أشهر بيت قمار في نيو أورلينز ـ قال لي زاشاري بإيماءة أحاطت بواجهة المبنى كلها.

سرعان ما وجدنا نفسينا في صالون فسيح. ووسط دخان السيجار رأيتُ رجالاً بيضاً وملونين، بعضهم إلى موائد القمار، وآخرون يشربون، ومنهم من يرقصون مع نساء صدورهن شبه مكشوفة. وضع أحدهم كأسي شمبانيا في يدينا. لم نستطع التقدم، لأنهم كانوا يوقفون زاشاري في كل خطوة ليصافحوه.

وفجأة وقع شجار بين عدد من اللاعبين فحاول زاشاري التدخل، ولكن سبقه إلى ذلك شخص ضخم له لبدة شعر خشن كأنه قش أبيض، يضع بين أسنانه سيجاراً، وينتعل جزمة حطاب، وزع بعض الصفعات المدوية فتوقف الشجار. وبعد دقيقتين كان الرجال يجلسون وورق اللعب بين أيديهم، يتمازحون كما لو أنهم لم يُصفعوا للتو. قدمني زاشاري إلى من فرض النظام. ظننت أنه رجل له ثديين، ولكن تبين أنها امرأة لها شعر في وجهها. كان لها اسم مرهف مؤلف من زهرة وعصفور لا يتوافق مع مظهرها: فلور إيرونديل أو زهرة السنونو.

أوضح لي أنه بالأموال التي ادخرها طوال سنوات كي يشتري

حريته، وحملها معه عندما غادر سان دومانغ، إضافة إلى قرضٍ من المصرف، حصل عليه بفضل شريكته فلور إيرونديل، تمكنا معاً من شراء البيت، وكان في ظروف سيئة، ولكنهما أصلحاه وزوداه بكل وسائل الراحة، وحتى بشيء من الترف. لم تكن لديهما مشاكل مع السلطات، لأن قسماً من الميزانية خُصص للرشاوى. إنهم يبيعون المشروبات والطعام، وهناك موسيقى مرحة تقدمها فرقتان موسيقيتان، ويقدمان أفضل نساء الليل في لويزيانا. وهن لسن عاملاتٍ في البيت، بل فنانات مستقلات، لأن محل «**شي فلور**» ليس ماخوراً: فهناك مواخير كثيرة والمدينة لا تحتاج إلى المزيد. على تلك الموائد كانت تُخسر، وأحياناً تُكسب، ثروات كبيرة، ولكن الحصة الكبرى تبقى في محل اللعب. لقد كان «**شي فلور**» تجارة جيدة، على الرغم من أنهما ما زالا يدفعان أقساط القرض ولديهما نفقات كثيرة.

ـ حلمي أن أتمكن من امتلاك عدة بيوت قمار يا زاريتيه. سأحتاج بالطبع إلى شركاء من البيض، مثل فلور إيرونديل، من أجل الحصول على قروض.

ـ أهي بيضاء؟ إنها تبدو أشبه بهندي.

ـ بل فرنسية نقية، ولكنها محروقة بالشمس.

ـ لقد كنتَ محظوظاً معها يا زاشاري. فالشركاء غير مناسبين، ومن الأفضل أن تدفع لأحدهم كي تستخدم اسمه. هذا ما تفعله مدام فيوليت للتملص من عقبات القانون. دون سانتشو يقدم لها كفالته، ولكنها لا تسمح له بالاقتراب من صفقاتها.

رقصتُ في المحل على طريقتي وانقضت الليلة بسرعة خاطفة. عندما أوصلني زاشاري إلى البيت كان الوقت فجراً. وقد اضطر إلى إسنادي من ذراعي، لأن رأسي كان يلف من السعادة والشمبانيا التي لم أشربها من قبل قطّ. «إرزولي، يا لوا الحب، لا تُقدري لي أن أقع في غرام هذا الرجل، لأنني سوف أعاني»، توسلتُ في تلك الليلة وأنا أفكر كيف كانت تنظر إليه النساء في صالون أورلينز ويقدمن أنفسهن

إليه في «**شي فلور**».

ومن نافذة العربة رأينا الأب أنطوان راجعاً إلى الكنيسة يجرجر صندله بعد ليلة من العمل الصالح. بدا منهوكاً، فتوقفنا لنوصله، وإن أكن قد خجلت من رائحة الكحول في أنفاسي ومن ثوبي مفتوح الصدر. «أرى أنكِ احتفلت احتفالاً كبيراً في يوم حريتك الأول يا ابنتي. لا شيء مناسب في حالتك سوى قليل من اللهو»، كان هذا هو كل ما قاله لي قبل أن يمنحني بركته.

ومثلما وعدني زاشاري، كان ذلك اليوم يوماً سعيداً. وهكذا سأتذكره.

السياسة اليومية

في سان دومانغ كان بيير فرانسوا توسان، الملقب لوفيرتور لبراعته في التفاوض، يفرض دكتاتورية عسكرية غير مستقرة، ولكن سنوات العنف السبع خربت المستعمرة وأفقرت فرنسا. وما كان نابليون ليسمح لذلك المعوج، مثلما كان يسميه، أن يفرضٍ عليه شروطاً. كان توسان قد أعلن نفسه حاكماً مدى الحياة مستوحياً لقب نابليون كقنصل أول مدى الحياة، وكان يتعامل معه معاملة الند. لقد فكر بونابرت في سحقه كصرصار، وإجبار الزنوج على العودة إلى العمل في المزارع، وإعادة المستعمرة تحت سيطرة البيض. وفي مقهى المهاجرين في نيو أورلينز، كان الزبائن يتابعون باهتمام حماسي أحداث الشهور التالية المضطربة، لأنهم لم يفقدوا الأمل في العودة إلى الجزيرة. أرسل نابليون حملة كبيرة تحت أمرة صهره الجنرال لوكليرك الذي أخذ معه زوجته الجميلة بولين بونابرت. وقد سافرت شقيقة نابليون يرفقها ندماء وموسيقيون وبهلوانات وفنانون، وأثاث وزينات وكلٍ ما ترغب فيه لتقيم في المستعمرة بلاطاً لا يقل أبهة عن ذاك الذي خلفته في باريس.

خرجوا من برست في أواخر العام ١٨٠١ وبعد شهرين قصفت سفن لوكليرك مدينة لوكاب وحولتها إلى رماد للمرة الثانية خلال عشر سنوات. لم يرف لتوسان لوفيرتور جفن. كان ينتظر بهدوء أعصاب اللحظة المناسبة تماماً ليهاجم أو يتراجع، وعندما يحدث ذلك تُخلّف قواته الأرض خراباً، بلا شجرة واحدة منتصبة. والبيض الذين لا يتمكنون من وضع أنفسهم تحت حماية لوكليرك تتم تصفيتهم. وفي شهر نيسان نزلت الحمى الصفراء كلعنة أخرى على القوات الفرنسية غير المعتادة على المناخ، والمفتقرة إلى حماية من الوباء. فلم يبق من السبعة عشر ألف رجل الذين كانوا مع لوكليرك في بداية الحملة سوى

سبعة آلاف في ظروف يرثى لها؛ أما البقية فكان خمسة آلاف منهم يحتضرون وخمسة آلاف آخرون تحت التراب. ومرة أخرى شكر توسان المساعدة المناسبة التي قدمتها إليه جيوش ماكاندال المجنحة.

أرسل نابليون تعزيزات جديدة، وفي شهر حزيران مات ثلاثة آلاف جندي وضابط بالحمى نفسها؛ لم يعد هناك كلس كافٍ لتغطية الجثث في القبور الجماعية، حيث كانت نسور الرخمة والكلاب تنتزع أجزاء منهم. ومع ذلك، في ذلك الشهر بالذات، انطفأ نجم توسان في القبة السماوية. فقد وقع الجنرال في كمين نصبه له الفرنسيون بذريعة التفاوض، وتم اعتقاله وإرساله إلى فرنسا مع أسرته. لقد انتصر نابليون على «أعظم جنرال زنجي في التاريخ»، مثلما صنفه. وأعلن لوكليرك أن الطريقة الوحيدة لاستتباب السلام هي في قتل جميع زنوج الجبال ونصف زنوج السهول، الرجال منهم والنساء، وترك الأطفال الذين تقل أعمارهم عن اثنتي عشرة سنة أحياء. ولكنه لم يتوصل إلى تنفيذ خطته، لأن المرض أصابه.

المهاجرون البيض في نيو أورلينز، بمن في ذلك أنصار النظام الملكي، رفعوا نخب نابليون، المنتصر، بينما كان توسان لوفيرتور يموت ببطء في زنزانة متجمدة في قلعة في جبال الألب، على ارتفاع ألفين وتسعمئة متر، بالقرب من الحدود مع سويسرا. تواصلت الحرب بلا هوادة طوال العام ١٨٠٢، وقلة هم الذين أجروا الحساب بأن لوكليرك قد خسر خلال تلك الحملة القصيرة قرابة ثلاثين ألف رجل قبل أن يموت بداء سيام نفسه في شهر تشرين الثاني. فوعد القنصل الأول بأن يرسل إلى سان دومانغ ثلاثين ألف جندي آخر.

في مساء أحد أيام شتاء ١٨٠٢، كان الدكتور بارمونتيه وتيتي يتبادلان الحديث في فناء بيت آديل، حيث كانا يلتقيان بكثرة. وكان الدكتور، قبل ثلاث سنوات من ذلك، حين رأى تيتي في بيت فالموران بُعيد مجيئه من كوبا، قد نقل إليها رسالة غامبو، وحدثها عن الظروف التي تعرف فيها عليه، وعن جراحه الفظيعة ومرحلة العلاج الطويلة

التي أتاحت لهما التعارف جيداً. وأخبرها كذلك بالمساعدة التي قدمها إليه الكابتن الشجاع من أجل الخروج من سان دومانغ حين كان ذلك شبه مستحيل. «طلب مني أن أقول لكِ ألا تنتظريه يا تيتي، لأنه قد نسيك، ولكنه إذا كان قد أرسل هذه الرسالة، فلأنه لم ينسكِ»، قال لها الدكتور في تلك المناسبة. وكان يظن أن تيتي قد تحررت من شبح ذلك الحب. فهو يعرف زاشاري، ويمكن لأي شخص أن يلحظ مشاعره نحو تيتي، مع أن الدكتور لم يلمح بينهما قطّ تلك الإيماءات التي تشي بالحميميةِ. ربما كان لعادة الحذر والمداراة التي أفادتهما في أثناء العبودية جذوراً عميقة جداً. كانت صالة القمار تُبقي زاشاري مشغولاً، فضلاً عن أنه كان يسافر بين حين وآخر إلى كوبا وجزر أخرى ليتمون بالمشروبات والسيجار وبضائع أخرى لمحله. وفي كل مرة يظهر فيها زاشاري في بيت شارع شارت، تُفاجأ تيتي بحضوره ولا تكون متهيئة للقائه. كان الدكتور بارمونتيه قد التقى به عدة مرات في دعوات يتلقاها من فيوليت لتناول العشاء. وقد كان زاشاري لطيفاً ورسمياً، يأتي دوماً ومعه قالب حلوى اللوز المعهود ليتوج المائدة. وكان يتحدث معه في السياسة، موضوعه المفضل؛ ويتحدث مع سانتشو عن المراهنات والخيول والصفقات الخيالية، بينما يتحدث مع النساء في كل ما يمتعهن. وبين حين وآخر كانت ترافقه شريكته فلور إيرونديل التي بدا أن لها ألفة غريبة مع فيوليت. كانت تضع أسلحتها عند المدخل وتجلس لتناول الشاي في الصالة، ثم تختفي بعد ذلك داخل البيت في إثر فيوليت. ويمكن للدكتور أن يقسم إنها تعود للظهور وقد اختفى شعر وجهها، وفي إحدى المرات رآها تخبئ قارورة صغيرة في جراب البارود، وهي قارورة عطر بالتأكيد، لأنه سمعها تقول لفيوليت إن لدى كل امرأة جذوة من الغنج في روحها، وتكفي بضع قطرات شذية لتأجيجها. تظاهر زاشاري بأنه لم ينتبه إلى نقاط الضعف تلك في شريكته، بينما كان ينتظر انتهاء تيتي من تأنقها كي تخرج معه.

أخذوا الدكتور في أحد الأيام إلى «***شي فلور***» وهناك استطاع أن

يرى زاشاري وفلور إيروندِيل في بيئتهما، وأن يُقدر سعادة تيتي وهي ترقص حافية. مثلما تخيل بارِمونتيه حين تعرف إليها في مزرعة سان لازار، حين كانت فتية جداً، فقد كان لدى تيتي احتياطي كبير من الحسية، وكانت تخفيه آنذاك وراء ملامح شديدة الصرامة. وحين رآها ترقص، استخلص الدكتور أنه لم يتبدل وضعها القانوني وحسب بعد أن أُعتقت، وإنما تحرر كذلك هذا المظهر من شخصيتها.

صارت علاقة بارمونتيه بآديل طبيعية في نيو أورلينز، ذلك أن عدداً من أصدقائه ومرضاه كانوا يقيمون علاقات أسرية مع ملونات. ولم يعد الدكتور، لأول مرة، بحاجة إلى اللجوء إلى استراتيجيات السكان الأصليين من أجل زيارة امرأته، فلا شيء من المشي في الفجر باحتراسٍ قاطع طريق كيلا يراه أحد. وصار يتناول العشاء معها كل ليلة تقريباً، وينام في فراشها، وفي اليوم التالي يذهب بخطوات متمهلة، في الساعة العاشرة صباحاً، إلى عيادته، ويصم أذنيه عن التعليقات التي يمكن أن يستثيرها. وكان قد اعترف بأبنائه وصاروا يحملون الآن لقبه، وقد ذهب الابنان الذكران للدراسة في فرنسا، بينما تتعلم الابنة الصغرى في دير الراهباتِ الأورسوليات. كانت آديل تمارس عملها في الخياطة وتدخر نقوداً، مثلما فعلت على الدوام. وتساعدها امرأتان في صنع صدارات لفيوليت بواسيير، أشبه بدروعٍ مقواة بأضلاع حيتان، تمنح الانحناءات وتكورات لأشد النساء تسطحاً دون أن يُلحظ ذلك، بحيث تبدو الفساتين كما لو أنها تطفو فوق الجسد العاري. وكانت النساء البيض يتساءلن كيف يمكن لتقليعة مستوحاة من اليونان القديمة أن تبدو أفضل على الأفريقياتِ مما هي عليهن. وكانت تيتي تذهب وتجيء بين البيتين حاملة رسوماً، ومقاسات، وصدارات وأثواب جاهزة تتولى فيوليت بيعها في ما بعد لزبوناتها. وفي واحدة من تلك المناسبات وجد بارمونتيه نفسه يتبادل الحديث مع تيتي وآديل في فناء أزهار الجهنمية التي كانت في تلك الفترة من السنة مجرد أغصان جافة بلا أزهار ولا أوراق.

ـ مذ ستة شهور مات توسان لوفيرتور. إنها جريمة أخرى من جرائم

نابليون. لقد قتلوه من الجوع والبرد والوحدة في السجن، ولكنه لن يُنسى: لقد دخل الجنرال الزنجي التاريخ ـ قال الدكتور.

كانوا يشربون نبيذ شِيرش بعد عشاء من السمكِ مع الخضروات، فمن بين فضائل آديل الكثيرة أنها طاهية جيدة أيضاً. وكان الفناء هو أبهج مكان في البيت، حتى في الليالي الباردة مثل تلك الليلة. وكان الضوء الخافت يأتي من مجمر التدفئة الذي أشعلته آديل للحصول على جمر للمكواة وتدفئة دائرة الأصدقاء الصغيرة في أثناء ذلك.

ـ موت توسان لا يعني نهاية الثورة. فالجنرال ديسالين يتولى القيادة الآن. ويقولون إنه رجل متصلب ـ واصل الدكتور الكلام.

ـ ما الذي تراه حدث لغامبو؟ لِم يكن يثق بأحد، ولا حتى بتوسان نفسه ـ علقت تيتي.

ـ لقد بدّل رأيه في توسان لوفيرتور فيما بعد. وقد جازف بحياته في أكثر من مناسبة لإنقاذه، وكان رِجل الجنرال الموثوق.

ـ لقد كان معه عند اعتقاله إذاً ـ قالت تيتي.

ـ ذهب توسان إلى موعد مع الفرنسيين للتفاوض حول مخرج سياسي من الحرب، ولكنهم خانوه. وبينما كان ينتظر داخل بيت، قاموا في الخارج بقتل حراسه والجنود الذين رافقوه. وأخشى أن يكون الكابتن حرية قد سقط في ذلك اليوم وهو يدافع عن قائده ـ أوضح لها بارمونتيه بأسى.

ـ لقد كان غامبو يأتيني من قبل يا دكتور.

ـ كيف ذلك؟

ـ في الأحلام ـ قالت تيتي بغموض.

لم توضح أنها كانت تستدعيه كل ليلة بتفكيرها، كما في صلاة، وتتمكن في بعض الأحيان من استحضاره قريباً جداً منها، حتى إنها تستيقظ بجسد متثاقل، ساخن، ذاو، وببهجة أنها كانت تنام محتضنة عشيقها. وتشعر بدفء ورائحة غامبو في بشرتها، ولم تكن تغتسل في تلك المناسبات، كي تطيل الوهم بأنها كانت معه. وقد كانت تلك

اللقاءات في ميدان الأحلام هي عزاؤها الوحيد في وحدة الفراش، ولكن ذلك لم يحدث من زمن، وهذا جعلها تتقبل موت غامبو، لأنه لو كان حياً لتواصل معها بطريقة ما. وقد صار لديها الآن زاشاري. ففي الليالي التي يقضيانها معاً، حين يكون موجوداً، تنام سعيدة وشاكرة بعد ممارستهما الحب، بينما يد زاشاري الكبيرة تحتضنها. فمنذ دخل حياتها، لم تعد إلى عادتها السرية بمداعبة نفسها مستحضرة غامبو، لأن الرغبة في قبلات شخص آخر، حتى لو كان شبحاً، سيكون خيانة لا يستحقها زاشاري. فقد كانت المحبة المؤكدة والهادئة التي يتقاسمانها تملأ حياتها، ولم تكن تحتاج إلى مزيد.

ـ لم يخرج أحد حياً من المكيدة التي أعدوها لتوسان. لم يكن هناك أسرى سوى الجنرال، ثم أسرته التي جرى اعتقالها في ما بعد ـ أضاف بارمونتيه.

ـ أعرف أنهم لم يقبضوا على غامبو حياً يا دكتور، لأنه ما كان ليستسلم أبداً. كل تلك التضحيات وكل تلك الحرب من أجل أن يكسب البيض في النهاية!

ـ لم يكسبوا بعد. فالثورة مستمرة. لقد ألحق الجنرال ديسالين قبل قليل هزيمة بقوات نابليون، وقد بدأ الفرنسيون بالجلاء عن الجزيرة. عما قريب ستكون لدينا هنا موجة أخرى من اللاجئين، وسيكونون هذه المرة من البونابرتيين. لقد دعا ديسالين المستوطنين البيض لاستعادة مزارعهم، لأنه يحتاج إليهم من أجل إنتاج الثروة التي كانت تمتلكها المستعمرة من قبل.

ـ لقد سمعنا هذه الحكاية نفسها مرات من قبل يا دكتور، فقد فعل توسان الشيء نفسه. هل ستعود حضرتك إلى سان دومانغ؟ ـ سألته تيتي.

ـ أسرتي في حالة أفضل هنا. وسوف نبقى. وماذا عنكِ أنت؟

ـ أنا أيضاً سأبقى. فأنا حرة هنا، وروزيت ستكون كذلك عما قريب.

ـ ألا ترين أنها مازالت أصغر من أن تُعتق؟

ـ الأب أنطوان يساعدني. إنه يعرف نصف العالم على طول وعرض الميسيسيبي ولا يمكن لأي قاضٍ أن يرفض تقديم جميل إليه.

في تلك الليلةِ سأل بارمونتيه تيتي عن علاقتها بتانت روز. فهو يعرف أنها فضلاً عن مساعدتها في الولادات والعلاج، اعتادت أن تساعدها كذلك في تحضير العقاقير، وكان مهتماً بتلك الوصفات وتركيبها. وقد كانت تتذكر معظمها وأكدت له أنها ليست معقدة وبالإمكان الحصول على مكوناتها من خلال «أطباء الأعشاب» في السوق الفرنسي. تكلما عن أساليب وقف النزيف، وتخفيض الحرارة، وتفادي الالتهابات، وعن مغلى الأعشاب القادرة على تنظيف الكبد، والتخلص من حصى المرارة والكلية، والأملاح المضادة للشقيقة والصداع، وأعشاب الإجهاض وعلاج الإسهال، ومُدِرّات البول والأعشاب الملِّينة، ومركّبات لتقوية الدم، تعرفها تيتي كلها عن ظهر قلب. وضحكا معاً من شراب الفُشاغ الذي يستخدمه الكريوليون لكل أمراضهم، واتفقا على أن هناك حاجة كبيرة لعقاقير تانت روز. وفي اليوم التالي مثل بارمونتيه أمام فيوليت بواسيير ليقترح عليها أن توسع تجارة مراهم تجميلها بقائمة منتجات علاجية من عقاقير تانت روز التي يمكن لتيتي أن تحضّرها في المطبخ ويتعهد هو بشراء الكمية كلها. لم تكن فيوليت بحاجة إلى التفكير في الأمر، فقد بدت لها تجارة رابحة للمعنيين جميعاً: الدكتور سيحصل على أدوية، وتيتي ستتقاضى حصتها، وستحتفظ هي نفسها بما تبقى دون أن تبذل أي جهد.

الأمريكيون

في تلك الأثناء اهتزت نيو أورلينز بإشاعة أبعد ما تكون عن التصديق. ففي المقاهي والحانات، في الشوارع والساحات، اجتمع الناس بحماسة عالية ليعلقوا على الخبر الذي مازال غير مؤكد، بأن نابليون بونابرت قد باع لويزيانا للأمريكيين. ومع مرور الأيام سادت فكرة أن المسألة مجرد افتراء، ولكنهم ظلوا يتكلمون عن الكورسكي اللعين، لأن نابليون، تذكروا ذلك أيها السادة، من كورسيكا، ولا يمكن القول إنه فرنسي، وقد باعنا إلى *الكينتوك*. إنه انتقال الأرض الأضخم والأرخص في التاريخ: أكثر من مليوني كيلومتر مربع مقابل مبلغ خمسة عشر مليون دولار، أي بضعة سنتات مقابل كل هكتار. معظم تلك الأراضي تنتشر فيها قبائل متفرقة من السكان الأصليين، ولم تُستثمر كما يجب من جانب البيض ولا يمكن لأحد تصور أبعادها، ولكن عندما عرض سانتشو غارثيا دل سولار خريطة للمنطقة، تمكن حتى أشد الأغبياء من تقدير أن الأمريكيين قد زادوا مساحة بلادهم إلى الضعف. «والآن، ماذا سيحل بنا؟ كيف دس نابليون يده في هذه الصفقة؟ ألسنا مستعمرة إسبانية؟». قبل ثلاث سنوات من ذلك كانت إسبانيا قد سلّمت لويزيانا إلى فرنسا عبر اتفاقية سان إلديفونسو السرية، ولكن أكثرية الناس لم يكونوا قد علموا بأمر تلك الاتفاقية بعد، لأن الحياة استمرت مثلما كانت. لم يُلحظ تبدل الحكومة، وظلت السلطات الإسبانية في مناصبها، بينما كان نابليون يحارب ضد الأتراك، والنمساويين، والإيطاليين، وكل من يقف أمامه، فضلاً عن المتمردين في سان دومانغ. كان عليه أن يحارب على جبهات كثيرة، بما في ذلك ضد انكلترا، عدوه القديم، وكان بحاجة إلى الوقت والقوات والمال؛ ولم يكن قادراً على احتلال لويزيانا أو حمايتها، فخشي أن تسقط في يد البريطانيين وفضّل

أن يبيعها إلى الوحيد المهتم بها: الرئيس جيفرسون.

تلقى الجميع في نيو أورلينز الخبر برعب، باستثناء كسالى مقهى المهاجرين الذين كانوا يضعون إحدى قدميهم في السفينة من أجل العودة إلى سان دومانغ. فقد كان الجميع يظنون أن الأمريكيين جماعة من الهمج، يغطون أبدانهم بجلود الجواميس التي يأكلونها وهم يرفعون جزماتهم فوق المائدة، ويفتقرون تماماً إلى اللباقة والاتزان والشرف. ولا حاجة بنا إلى الحديث عن طبقتهم الاجتماعية! فهم لا يهتمون إلا بالمراهنات والشرب وتبادل الرصاص أو اللكمات، إنهم فوضى شيطانية، والأدهى من ذلك كله أنهم بروتستانت. ثم إنهم لا يتكلمون الفرنسية. حسن، عليهم أن يتعلموها، وإلا كيف يمكن لهم أن يعيشوا في نيو أورلينز؟ كانت المدينة بأسرها مقتنعة أن الانتماء إلى الولايات المتحدة يعني نهاية العائلة والثقافة والديانة الحقيقية الوحيدة. ولكن فالموران وسانتشو اللذين كانا قد تعاملا مع أمريكيين في أعمالهما، وقد أضافا ملاحظة تصالحية إلى ذلك الصخب بتوضيحهما أن ***الكينتوك*** هم رجال حدود، أي أنهم أشبه بالقراصنة، ولا يمكن الحكم على الأمريكيين جميعاً من خلالهم. وقال فالموران إنه تعرف في رحلاته على أمريكيين كثيرين في الواقع، وهم أناس مؤدبون وهادئون؛ وربما يمكن تأنيبهم لأنهم أخلاقيون وإسبارطيون في عاداتهم، على العكس من ***الكينتوك***. وعيبهم البارز هو في اعتبارهم العمل فضيلة، بما في ذلك العمل اليدوي. وهم ماديون، متفوقون، تحفزهم حماسة دينية لإصلاح من لا يفكرون مثلهم، ولكنهم لا يشكلون خطراً آنياً على الحضارة. لم يشأ أحد الاستماع إليهما، باستثناء زوج من المجانين مثل برنارد ديماريني الذي شم الإمكانيات التجارية الهائلة للتعامل مع الأمريكيين، والأب أنطوان الذي يعيش في السحاب.

جرى أولاً نقل المستعمرة الإسبانية رسمياً إلى السلطات الفرنسية، بعد تأخير ثلاث سنوات. وحسب ما جاء في خطبة الحاكم أمام الحشد الذي حضر مراسم الاحتفال فإن «نشوة السعادة القصوى تغمر أرواح

سكان لويزيانا». احتفلوا بالرقص والحفلات الموسيقية والمآدب والاستعراضات المسرحية، بأفضل التقاليد الكريولية، في منافسة حقيقية في المجاملة والنبل والتبذير بين الحكومةٍ الإسبانية المقالة والحكومة الفرنسية الجديدة التي لم تدم إلا قليلاً. ففي الوقت الذي كانوا يرفعون فيه علم فرنسا، رست سفينة قادمة من بوردو حاملة تأكيد بيع تلك الأراضي للأمريكيين. لقد باعونا كأبقار! حل الإحساس بالمهانة والغضب محل حماسة اليومِ السابق الاحتفالية. فانتقال الملكية الثاني جرى بعد سبعة عشر يوما، في العشرين من كانون الأول ١٨٠٣، وقد قام الفرنسيون هذه المرة بتسليم الأراضي للأمريكيين الذين كانوا يعسكرون على بُعد ميلين من المدينة، وعلى أهبة الاستعداد لاحتلالها. ولمٍ تكن عمليةٍ التسليم «نشوة سعادة قصوى» بأي حال، بل كانت حداداً جماعياً.

في ذلك الشهر بالذات أعلن ديسالين استقلال سان دومانغ باسم جمهورية هايتي السوداء، تحت راية زرقاء وحمراء. هايتي أو «أرض الجبال» هي التسمية التي أطلقها السكان الأصليون الأراهواكو الذين أبيدوا عن بكرة أبيهم في تلك الجزيرة. وبِنِيَّة محو العنصرية التي شكلت لعنة المستعمرة، أُطلقت على جميع المواطنين، بغض النظر عن لون بشرتهم، تسمية «**زنوج**»، وعلى جميع من هم ليسوا مواطنين تسمية «**بيض**».

ـ أظن أن أوربا، وحتى الولايات المتحدة، ستحاول تقويض هذه الجزيرة الفقيرة، لأنه يمكن للمثال أن يحرض مستعمرات أخرى على الاستقلال. ولن يسمحوا كذلك بإلغاء العبودية ـ علق بارمونتيه أمام صديقه فالموران.

ـ نحن في لويزيانا تناسبنا نكبة هايتي، لأننا نبيع مزيداً من السكر وبسعر أفضل ـ استخلص فالموران الذي لم يكن مصير الجزيرة يعنيه، لأن استثماراته كلها كانت خارجها.

لم يتمكن المهاجرون من سان دومانغ مجرد إبداء دهشتهم حيال

تلك الجمهورية السوداء، لأن الأحداث في المدينة كانت تتطلب الانتباه الكامل. ففي يوم شمس مشرقة اجتمع في ساحة السلاح حشد متنوع من ***الكريوليين*** والفرنسيين والإسبان والهنود والزنوج لمشاهدة السلطات الأمريكية تدخل المدينة على أحصنة، تتبعها مفرزة خيالة، وكتيبتين من المشاة وكتيبة درك. لم يشعر أحد بالتعاطف مع أولئك الرجال المختالين وكأن كل واحد منهم قد دفع من جيبه الخاص الخمسة عشر مليون دولار لشراء لويزيانا.

وفي احتفال مقتضب في مبنى البلدية سلموا مفاتيح المدينة للحاكم الجديد ثم جرى بعد ذلك استبدال الأعلام في الساحة، فأنزلوا ببطء راية فرنسا ثلاثية الألوان ورفعوا راية الولايات المتحدة ذات النجوم. وعندما تقاطعت الرايتان في منتصف السارية، أُوقفتا للحظة وأعطت قذيفة مدفع الإشارة التي جاء الرد عليها فوراً بكورال ألعاب نارية من السفن في البحر. وعزفت فرقة موسيقية أغنيةِ شعبية أمريكية بينما الناس يستمعون بصمت؛ وكان كثيرون منهم يذرفون الدموع بغزارة، وأغمي على أكثر من سيدة من الحزن. استعد القادمون الجدد لاحتلال المدينة بأقل ما يمكن من عدوانية، بينما تأهب الأهالي لجعل حياة المحتلين صعبة جداً. كان آل غيزو قد وزعوا رسائل تعليمات إلى معارفهم يدعونهم لإبقاء الأمريكيين مهمشين، وامتناع الجميع عن التعاون معهم أو استقبالهم في بيوتهم. فحتى أسوأ المتسولين حالاً في نيو أورلينز كان يشعر أنه أرقى مكانة من الأمريكيين.

إحدى أولى الإجراءات التي اتخذتها الحاكم كلايبورن تمثلت في إعلان الإنكليزية لغة رسمية، وقد استُقبلِ الإعلان بسخرية ***الكريوليين*** غير المصدقين. إنكليزية؟ لقد عاشوا عقوداً كمستعمرة إسبانية وهم يتكلمون الفرنسية طوال ذلك الوقت؛ لا بد أن الأمريكيين مخبولون تماماً إذا كانوا ينتظرون أن تحل رطانتهم الحلقية محل أكثر اللغات ترنماً في العالم.

والراهبات الأورسوليات اللواتي أرعبهن اليقين بأن البونابرتيين أولاً ثم ***الكينتوك*** بعدهم سيعيثون خراباً في المدينة، ويدنسون الكنسية

ويغتصبونهن، سارعن للإبحار بالجملة نحو كوبا، على الرغم من توسلات ربيباتهن وأيتامهن ومئات السكان الأصليين الذين يتلقون مساعدتهن. لم يبق سوى تسعٍ فقط من الراهبات الخمس والعشرين، أما الست عشرة راهبة الأخريات فانطلق مطأطئات الرؤوس نحو المرفأ، كن متسربلات بحجبهن ويبكين، يحيط بهن موكب من الأصدقاء والمعارف والعبيد الذين رافقوهن حتى السفينة.

تلقى فالموران رسالة خطية مستعجلة تطلب منه أن يبادر إلى سحب ربيبته من المدرسة خلالٍ أربع وعشرين ساعة. في تلك الأثناء كانت أورتينس تنتظر مولوداً آخر آملة أن يكون هذه المرة الابن الذكر المنشود، فأفهمت زوجها، دون إفساح مجال للشك، أنه لا يمكن لتلك الفتاة الزنجية أن تدوس بيتها ولا تريد أن يراه أحد معها. فالناس سيئو الظن، ولسوف تنتشر التقولات والإشاعات ـ وهي زائفة بالطبع ـ بأن روزيت هي ابنته.

مع هزيمة القوات النابليونية في هايتي وصلت دفعة ثانية من اللاجئين إلى نيو أورلينز، مثلما كان قد تنبأ الدكتور بارمونتيه؛ في البدء وصل مئات، وبعد ذلك آلاف. وكانوا بونابرتيين وراديكاليين وملحدين، مختلفين جداً عن أنصار الملكية الكاثوليكيين الذين جاؤوا من قبل. فكان الصدام بين المهاجرين أمراً لا مفر منه، وقد توافق مع دخول الأمريكيين إلى المدينة. وكان الحاكم الأمريكي كلايبورن عسكرياً شاباً، له عينان زرقاوان وشعر أشقر قصير، لا يتكلم الفرنسية ولا يفهم عقلية *الكروليين* الذين يعتبرهم كسولين ومنحطين.

كانت تصل من سان دومانغ سفينة بعد أخرى محملة بمدنيين وجنودٍ مصابين بالحمى، يشكلون خطراً سياسياً بأفكارهم الثورية، وخطراً على الصحة العامة باحتمالات انتشار جائحة. حاول كلايبورن عزلهم في معسكرات بعيدة، ولكن الإجراء تعرض لنقد شديد ولم يحل دون تدفق اللاجئين الذين يتدبرون الأمر بطريقة ما للوصول إلى المدينة. وضعَ في السجن العبيد الذين أحضرهم البيض معهم، خشية أن

يحرضوا العبيد المحليين على الثورة؛ وسرعان ما لم يعد هناك متسع في الزنازين، وتزايدت عليه شكاوى السادة الساخطين من مصادرة ممتلكاتهم. وكانوا يحتجون بأن عبيدهم أوفياء ويتمتعون بحسن الطباع، وإلا لما كانوا أحضروهم معهم. كما أنهم بحاجة ماسة إليهم. وقد كان الطلب كبيراً على العبيد، بالرغم من أن أحداً في لويزيانا لم يكن يحترم الحظر المفروض على استيرادهم، وكان القراصنة يمونون السوق. وبالرغم من أن كلايبورن لم يكن مناصراً للعبودية، إلا أنه تراجع أمام ضغط الجمهور وأبدى استعداده لأن ينظر في كل حالة على حدة، وهو ما يتطلب شهورا، بينما كانت نيو أورلينز على الجمر.

سارعت فيوليت بواسيير إلى التكيف من صدمة الأمريكيين. فقد أدركت أن ***الكريوليين*** اللطيفين، بثقافتهم القائمة على الكسل، لن يصمدوا أمام اندفاع أولئك الرجال المبادرين والعمليين. «انتبه لما أقوله لك يا سانتشو، خلال وقت قصير سوف يمحونا حديثو النعمة هؤلاء عن وجه الأرض»، قالت محذرة عشيقها. وكانت قد سمعت شيئاً عن روح المساواة لدى الأمريكيين، المستوحاة من الديمقراطية، وفكرت في أنه إذا كان هناك متسع للملونين في نيو أورلينز من قبل، فإن مسوغ وجوده سيكون أكبر في المستقبل. «لا تنخدعي، فهم أشد عنصرية من الإنكليز والفرنسيين والإسبان مجتمعين»، أوضح لها سانتشو، ولكنها لم تصدق ذلك.

وبينما كان الآخرون يرفضون الاختلاط بالأمريكيين، انكبت فيوليت على دراستهم عن قرب، لترى ما الذي يمكنها تعلمه منهم، وكيف ستتمكن من البقاء طافية وسط التحولات المؤكدة التي سيجيئون بها إلى نيو أورلينز. لقد كانت سعيدة في حياتها، تتمتع بالاستقلالية والراحة. وكانت تتكلم بجد عندما تقول إنها ستموت ثرية. فبأرباحها من الكريمات ونصائح الموضة والتجميل اشترت خلال أقل من ثلاث سنوات البيت في شارع شارت، وصارت تخطط لشراء بيت آخر. «يجب الاستثمار في العقارات، فهي الشيء الوحيد الذي يبقى،

وما سواه يذهب أدراج الرياح»، كانت تكرر قول ذلك لسانتشو الذي لا يملك شيئاً، لأن المزرعة ملك فالموران. فمشروع شراء الأراضي وجعلها تنتج بدا فاتناً لسانتشو في السنة الأولى، ويمكن تحمله في السنة الثانية، ولكنه تحوّل بعد ذلك إلى عذاب دائم. وما لبثت حماسته إلى زراعة القطن أن تلاشت فور إبداء أورتينس اهتمامها بها، لأنه يفضل عدم التعامل مع تلك المرأة. كان يعرف أن أورتينس تتآمر لإزاحته من الطريق ويعترف بأن المسوغات لن تنقصها: فهو يشكل عبئاً يحمله فالموران على كاهله بدافع الصداقة. وكانت فيوليت تنصحه بأن يحل مشاكله بالزواج من امرأة ثرية. «أتراكِ لا تحبينني؟»، يردد سانتشو غاضباً. «إنني أحبك، ولكن ليس إلى الحدّ الذي أعيلك فيه. تزوج من امرأة ثرية، وسنظل عشيقين».

لم تكن لولا تشاطر فيوليت في حماستها لامتلاك العقارات. وتؤكد أنهم في مدينة الكوارث تلك متعلقين بنزوات المناخ والحرائق، وأنه يتوجب الاستثمار في الذهب والاشتغال في إقراض الأموال، مثلما فعلتا من قبل وتوصلتا إلى نتائج جيدة. ولكن فيوليت لا يناسبها اكتساب عداوات بممارسة الربا. فقد بلغت سن توخي الحذر وهي تصوغ وضعها الاجتماعي. لم يكن يهمها سوى جان مارتن الذي مازال متمسكاً، حسب رسائله القصيرة المشفرة، بنيته في السير على خطى أبيه في احترام لذكراه. لقد كانت تريد شيئاً أفضل لابنها، فهي تعرف جيدا قسوة الحياة العسكرية، ولا حاجة لأكثر من رؤية الظروف الكارثية التي يصل بها الجنود المهزومون من هايتي. لم تستطع إقناعه برسائل تمليها على كاتب عمومي، ولا بد لها من الذهاب إلى فرنسا وإقناعه بأن يدرس مهنة جيدة المردود، مثل المحاماة. فلا يمكن لمحامٍ أن ينتهي إلى الفقر مهما كانت المنافسة شديدة. وليس مهماً واقع أن جان مارتن لا يبدي اهتماماً بالعدالة، فقلة هم المحامون الذين يهتمون بها. وبعد ذلك ستزوجه في نيو أورلينز من فتاة أقرب إلى البياض ما أمكن، فتاة مثل روزيت، ولكن ثرية ومن أسرة جيدة. فالبشرة البيضاء والمال، حسب تجربتها، يسهلان كل شيء. وهي تريد لأحفادها أن يأتوا إلى الدنيا وهم متفوقون.

روزيت

لقد رأى فالموران تيتي في الشارع أكثر من مرة، فمن المستحيل عدم التلاقي صدفة في هذه المدينة، ولكنه تظاهر بأنه لا يعرفها، إلا أنه كان يعرف أنها تعمل في بيت فيوليت بواسيير. وقد كانت اتصالاته بجميلة غرامياته القديمة قليلة جداً، فقبل أن تتجدد علاقته بها، مثلما خطط عندما رآها تصل إلى نيو أورلينز، كان سانتشو قد قطع عليه الطريق بوسامته وحسن مظهره ومزية كونه أعزب. لم يفهم فالموران بعد كيف استطاع صهره كسب الجولة منه. كانت علاقته بأورتينس قد فقدت بريقها منذ إهمالها المعانقات الأكروباتية في الفراش الزوجي الفسيح المزين برسوم ملائكة صغار واستغراقها في الأمومة. فهي حبلى على الدوام، لا تكاد تنتهي من إنجاب طفلة حتى تكون بانتظار التالية، وفي كل مرة تزداد إنهاكاً وبدانة وطغياناً.

كانت الشهور التي يقضيها فالموران في نيو أورلينز مملة، يختنق في أجواء بيته الأنثوية بوجود كتيبة نساء آل غيزو الدائمة؛ ولهذا كان يهرب إلى المزرعة تاركاً أورتينس مع الطفلات في بيت المدينة. وهي نفسها كانت تفضل ذلك أيضاً في أعماقها: فزوجها يحتل حيزاً كبيرا من المكان. إنها تلحظ ذلك أقل في المزرعة، ولكن الحجرات في المدينة تضيق عليهم وتبدو الساعات أطول أمداً. لقد كانت له حياته الخاصة خارج أبواب البيت، ولكنه خلافاً لرجال آخرين في مثل وضعه، لا يحتفظ بعشيقة تملأ بالحلاوة إحدى أمسياته كل أسبوع. وعندما رأى فيوليت بواسيير في الميناء، فكر في أنها ستكون العشيقة المثالية، فهي جميلة ومتكتمة وعاقر. صحيح أن المرأة لم تعد شابة فتية، ولكنه لا يرغب في صبية لا يلبث أن يتعب منها. لقد كانت فيوليت تحدياً على الدوام، ولا شك أنها بنضوجها صارت تحدياً أكبر، ولا يمكن له الملل

منها أبداً. ولكنه، عملاً بتقليد بين الرجال المحترمين، لم يحاول رؤيتها بعد أن أحبها سانتشو. لقد ذهب في ذلك اليوم إلى البيت الأصفر آملاً في رؤيتها ورسالة الراهبات الأورسوليات في جيبه، وفتحت له الباب تيتي التي لم يتبادل وإياها كلمة واحدة منذ ثلاث سنوات.

ـ مدام فيوليتٍ ليست موجودة الآن ـ أخبرته عند العتبة.

ـ ليس مهماً، لقد جئت للتحدث معكِ.

قادته إلى الصالون وعرضت عليه قهوة، فقبل العرض كي يكسب وقتاً لاستردادِ أنفاسه، بالرغم من أن القهوة تسبب له حرقة في المعدة. جلس لاهثاً على كرسي مدور، حيث تمكن مِن إراحة مؤخرته بصعوبة، والعكاز بين ساقيه. لم يكن الحر شديداً، ولكنه بدأ يشعر بافتقادٍ الهواء بكثرة في الفترة الأخيرة. «يتوجب عليّ أن أنحف نفسي قليلاً»، اعتاد القول كل صباح وهو يصارع الحزام وربطة العنق ذات الثلاث لفات؛ وحتى الحذاء صار يضغط على قدميه. رجعت تيتي حاملة صينية، قدمت له القهوة مثلما يحبها: قوية ومرّة، ثم سكبت لنفسها فنجاناً آخرٍ مع كثير من السكر. ولاحظ فالموران، بمزيج من المتعة والغيظ، أثراً من التكبر في عبدته السابقة. فعلى الرغم من أنها لم تنظر إلى عينيه ولم تقترف وقاحة الجلوس، إلا أنها تجرأت على شرب القهوة بحضوره دون أن تطلب الإذن منه، ولم يلحظ في صوتها الخنوع السابق. وافق بينه وبين نفسه على أنها تبدو أفضل مما كانت عليه في أي وقت آخر، وهزت ذكراها قلبه: بشرتها التي كزهرة الغاردينيا، وشعرها الأسود، وعيناها المظللتان بأهداب طويلة. تيتي لا يمكن مقارنتها بما كانت عليه، ولكنه اشتهاها الآن لأنها لم تعد ملكه.

ـ ما سبب زيارتك لي يا مسيو؟ ـ سألته.

ـ الأمر يتعلق بروزيت. لا تفزعي. ابنتك على ما يرام، ولكنها ستغادر المدرسة غداً لأن الراهبات سيذهبن إلى كوبا بسبب مسألة الأمريكيين. إنه ردّ فعل مبالغ فيه ولا شك في أنهن سيرجعن، ولكن عليك أن تتولي مسؤولية روزيت حالياً.

ـ وكيف يمكنني عمل ذلك يا مسيو؟ ـ قالت تيتي مفزعة ـ. لا أدري إن كانت مدام فيوليت ستقبل أن أجيء بها إلى هنا.

ـ هذا لا يعنيني. غداً مع بداية الصباح عليك الذهاب لأخذها. وسترين بنفسك ما الذي ستفعلينه بها.

ـ روزيت هي مسؤوليتك أيضاً يا مسيو.

ـ لقد عاشت هذه الصغيرة كآنسة محترمة وتلقت بفضلي أحسن تعليم. وقد حان الوقت كي تواجه واقعها. عليها أن تعمل، اللهم إلا إذا حصلتِ على زوج.

ـ ولكنها في الرابعة عشرة!

ـ هذه السن كافية للزواج. فالزنجيات ينضجن باكراً ـ ونهض واقفاً بجهد كي ينصرف.

أجج السخط تيتي مثل شعلة لهب، ولكن ثلاثين عاماً من الانصياع لهذا الرجل والخوف الذي يوحي به إليها منعاها من أن تقول له ما كان على طرف لسانها. فهي لم تنس اغتصاب السيد أول مرة لها، عندما كانت طفلة، ولم تنس الألم والعذاب والعار، مثلما لم تنس التعسف التالي الذي تحملته لسنوات. وبصمت، بينما هي ترتجف، قدمت إليه قبعته وقادته حتى الباب. وعند العتبة استدار نحوها.

ـ هل نفعتك حريتك في شيء؟ إنك تعيشين في بؤس أشد من السابق، حتى إنك لا تجدين سقفاً لإيواء ابنتك. لقد كان لروزيت مكانها في بيتي على الدوام.

ـ مكان عبدة يا مسيو. أفضّل لها أن تعيش بائسة وحرة ـ ردت تيتي وهي تكبح دموعها.

ـ الغرور سيكون سبب بلائك يا امرأة. فأنت لا تنتمين إلى أي مكان، وليست لك مهنة، ولم تعودي شابة. ما الذي ستفعلينه؟ إنني أشفق عليكِ، ولهذا سأساعد ابنتك. هذا لروزيت.

وقدم إليها جراب نقود، ثم نزل الدرجات الخمس المؤدية إلى الشارع ومضى في سيره، راضياً عن نفسه، باتجاه بيته. وبعد عشر

خطوات كان قد نسي المسألة، فلديه أمور أخرى يجب التفكير فيها.

في تلك الفترة كانت فيوليت بواسيير تمضي وفي رأسها فكرة ثابتة بدأت تراودها قبل سنة من ذلك وترسخت عندما تخلت الراهبات الأورسوليات عن روزيت وتركنها في الشارع. ليس هناك من يعرف خيراً منها نقاط ضعف الرجال واحتياجات النساء، وقد فكرت في استغلال خبرتها في جمع المال، ومن خلال ذلك تقديم خدمة ضرورية جداً في نيو أورلينز. وبهذا الهدف قدمت ضيافتها لروزيت. جاءت البنت بزيها المدرسي، جدّية ومتكبرة، تتبعها أمها على بعد خطوتين منها، حاملة حزم أمتعة ولا تتوقف عن مباركة فيوليت لأنها احتضنتهما تحت سقفها.

كانت لروزيت عظام نبيلة، ولعينيها وميض عيني أمها الذهبي، وبشرة بلون اللوز مثل بشرة نساء لوحات الرسم الإسبانية، وشفتان بلون الخوخ، وشعر مموج وطويل يصل حتى منتصف ظهرها، وانحناءات وتكورات مراهقة ناعمة. وكانت تعرف تماماً، وهي في الرابعة عشرة، مقدار السلطة الرهيبة لجمالها، وخلافاً لتيتي التي عملت منذ الطفولة، كانت روزيت تبدو كمن خُلقت لتُخدم. «إنها عنيدة، ولدت عبدة وتريد الظهور كملكة. أنا سأتولى وضعها في مكانها الصحيح»، قالت لولا وهي تنفخ بازدراء، ولكن فيوليت أرتها قوة فكرتها: فالاستثمار والربح مفهومان أمريكيان تبنتهما لولا كما لو أنهما من اختراعها، وأقنعتها بأن تتخلى عن حجرتها لروزيت وتذهب لتنام مع تيتي في حجرة الخدم الضيقة، قائلة لها إن الصبية بحاجة إلى الكثير من الراحة.

ـ لقد سألتني ذات يوم عما ستفعلينه بابنتك عندما تخرج من المدرسة. وقد خطر لي الحل ـ قالت فيوليت لتيتي.

ذكّرتها بأن الخيارات أمام روزيت ضئيلة جداً. فتزويجها دون دوطة جيدة يعني الحكم عليها بأشغال شاقة إلى جانب زوج فقير. فلا بد أولاً من استبعاد تزويجها من زنجي، وليس بالإمكان تزويجها إلا من

خلاسي، وهؤلاء يسعون للزواج من أجل تحسين وضعهم الاجتماعي أو المالي، وهو ما لا يمكن لروزيت تقديمه. وليس لديها مؤهلات خياطة أو مصففة شعر أو ممرضة أو أي مهنة أخرى مناسبة لوضعها. ورأس مالها الوحيد حالياً هو جمالها، غير أن هناك الكثير من الفتيات الجميلات في نيو أورلينز.

ـ سوف نرتب الأمور بحيث يمكن لروزيت أن تعيش حياة جيدة دون أن تضطر إلى العمل ـ قالت فيوليت.

ـ وكيف سنفعل ذلك يا مدام؟ ـ ابتسمت تيتي غير مصدقة.

ـ *بمساكنة المتعة*. روزيت بحاجة إلى رجل أبيض ينفق عليها.

كانت فيوليت قد درست عقلية زبوناتها اللاتي يبتعن مراهم تجميلها، ودروع أضلاع الحيتان، والفساتين الفاخرة التي تخيطها آديل. وقد كنّ طموحات مثلها وجميعهن يرغبن في ازدهار ذريتهن. كنّ يؤمِّن مهنة أو وظيفة لأبنائهن، ولكنهن يرتجفن خوفاً على مستقبل بناتهن. وترتيب ربطهن برجل أبيض هو، عادة، أفضل من تزويجهن من رجل ملون، غير أن هناك عشر فتيات جاهزات لكل أبيض عازب، ومن الصعب التوصل إلى ذلك دون توافر علاقات جيدة. والرجل يختار البنت ثم يعاملها بعد ذلك على هواه، إنه تدبير مريح جداً له وينطوي على المجازفة بالنسبة إليها. وتستمر العلاقة عادة إلى أن يحين موعد زواجه بواحدة من طبقته، في حوالي الثلاثين من عمره، ولكن العلاقة تستمر بقية الحياة أيضاً في بعض الحالات، وفي حالات أخرى يظل الأبيض أعزبٍ لشدة حبه للمرأة الملونة. يبقى مصيرها في جميع الأحوال معلقاً بمشيئة حاميها. وقد كانت خطة فيوليت تتلخص في فرض نوع من العدالة: فعلى *فتاة المتعة* أن تطالب بالأمان لها ولأبنائها، لاسيما وأنها تقدم التفرغ الكامل والوفاء لحاميها. فإذا كان الشاب غير قادر على تقديم الضمانات، يتوجب على أبيه تقديمها، مثلما يتوجب على أم الفتاة ضمان فضيلة ابنتها وسلوكها.

ـ وماذا سيكون رأي روزيت بهذا يا مدام...؟ ـ تلعثمت تيتي

مذعورة.

ـ رأيها لا يؤخذ بالحسبان. فكري في الأمر يا امرأة. فهذا أبعد ما يكون عن الدعارة، مثلما يقول البعض. ويمكنني أن أؤكد لك، من خلال تجربتي الشخصية، أن حمايةٍ رجل أبيض أمر لا غنى عنه. فقد كان يمكن لحياتي أن تكون مختلفة جداً دون إيتيان روليه.

ـ ولكنكِ تزوجت منه... ـ تعللت تيتي.

ـ وهذا مستحيل هنا. أخبريني يا تيتي، ما هو الفرق بين بيضاء متزوجة و***فتاة متعة*** ملونة؟ كلتاهما يعيلهما رجل تخضعان له وتكرسان نفسيهما إليه وتمنحانه أبناء.

ـ الزواج يعني الأمان والاحترام ـ تعللت تيتي.

ـ ويجب أن تكون ***مساكنة المتعة*** مثل ذلك ـ قالت فيوليت بتفخيم ـ. يجب أن تكون مفيدة للطرفين، وليس وسيلة لاصطياد الرجال البيض. سوف أبدأ بابنتك، فهي لا تملك أمولاً ولا عائلة غنية، ولكنها جميلة وحرة، والفضل في ذلك يعود إلى الأب أنطوان. ستكون أفضل ***فتاة متعة*** في نيو أورلينز. وخلال سنة سنقدمها إلى المجتمع. لدي الوقت اللازم لإعدادها.

ـ لستُ أدري... ـ وصمتت تيتي، لأنه لم يكن لديها ما هو مناسب أكثر من ذلك لابنتها، فضلاً عن أنها تثق بفيوليت بواسيير.

لم تبحثا الأمر مع روزيت، ولكن الصغيرة كانت أذكى مما هو متوقع، فقد أدركت الأمر ولم تعارض لأنها هي أيضاً كانت لديها خطتها.

قامت فيوليت في الأسابيع التالية بزيارة أمهات المراهقات الملونات من الفئة الراقية واحدة واحدة، سيدات ***السوسيتيه دي كوردون بلو***، وعرضت عليهن فكرتها. لقد كانت لتينك النسوة سلطة الأمر والنهي في وسطهن الاجتماعي، وكثيرات منهن يملكن تجارتهن، وأراضيهن وعبيدهن الذين هم في بعض الحالات أقاربهن بالذات. جداتهن كن مستعبدات أُعتقن وأنجبن أبناء من أسيادهن، وتلقين مساعدة من

أولئك الأسياد ليزدهرن. فالعلاقات الأسرية، حتى لو كانت مختلفة الأعراق، هي الدعامة التي يستند إليها بناء المجتمع *الكريولي* المعقد. وفكرة مشاركة امرأة أخرى أو عدة نساء برجل واحد لم تكن غريبة على أولئك الخلاسيات اللاتي تنحدر جداتهن من عائلات أفريقية متعددة الزوجات. وكان واجبهن توفير حالة رفاهية لبناتهن وأحفادهن، حتى لو كان من يوفر تلك الرفاهية هو زوج امرأة أخرى.

أولئك السيدات المهيباتِ اللاتي يزيد عددهن خمس مرات عن عدد الرجال من طبقتهن، نادراً ما كن يحصلن على صهر مناسب، وكن يعرفن أن أفضل طريقة لرعاية بناتهن هي في ترتيب وضعهن مع شخص قادر على حمايتهن؛ وإلا سيكنّ تحت رحمة أي مغامر. فالاختطاف والعنف الجسدي والاغتصاب لم تكن تعتبر جرائم إن كانت الضحية امرأة ملونة، حتى لو كانت حرة.

أوضحت فيوليت للأمهات أن فكرتها تتمثل في إقامة حفل راقص في أفضل قاعةٍ متوافرة، يمول بحصص متساوية بينهن. وسيكون المدعوون شباناً أثرياء من البيض والمهتمين بمساكنة المتعة بصورة جدية، يرافقهم آباؤهم عند الضرورة، ولا مجال للعشاق اللاهين الباحثين عن متهورة ليستمتعوا بها دون أي التزام. وقد اقترحت أكثر من واحدة من الأمهات أن يدفع الرجال رسم دخول، ولكن فيوليت ارتأت أن ذلك سيفتح الباب لأشخاص غير مرغوب فيهم، مثلما يحدث في حفلات رقص الكرنفال أو حفلات صالون أورلينز والمسرح الفرنسي، حيث يمكن لأي شخص أن يدخل مقابل سعر رمزي، ما لم يكن زنجياً. فهذه الحفلة ستكون حفلاً راقصاً انتقائياً مثل حفلات المبتدئين البيض. وسيكون هناك متسع من الوقت للتحري عن سوابق المدعوين وحيثياتهم، فلا أحد يرغب في تسليم ابنته إلى شخص سيئ العادات أو غارق في الديون. «على البيض أن يتقبلوا شروطنا ولو لمرة واحدة»، قالت فيوليت.

وكيلا تثير قلقهن، تجنبت أن تخبرهن بأنها تفكر في أن تضيف في

المستقبل أمريكيين إلى قائمة المدعوين، على الرغم من أن سانتشو قد حذرها من أنه لا يمكن لأي بروتستانتي أن يتفهم منافع ***مساكنة المتعة***. ففي نهاية المطاف هناك متسع من الوقت لذلك الأمر؛ أما حالياً فعليها التركيز على الحفل الراقص الأول.

يمكن للأبيض أن يراقص الفتاة المختارة مرتين، وإذا ما أعجبته يتوجب عليه أو على أبيه بدء التفاوض فوراً مع أم الفتاة، لا لزوم لإضاعة الوقت في مغازلة غير مجدية. وعلى الحامي أن يؤمن البيت، ومعاش سنوي، وأن تنتقل فتاة المتعة إلى بيتها الجديد وتبدأ المساكنة. وستوفر هي التكتم طيلة الوقت الذي سيعيشانه معاً، والتأكيد على أنه لن تكون هناك أي مأساة عند انتهاء العلاقة، وهذا يعتمد على الرجل بالكامل. «فمساكنة المتعة يجب أن يكون اتفاق شرف، ومن المناسب للجميع احترام القواعد»، قالت فيوليت. لا يمكن للبيض أن يتركوا عشيقاتهم الشابات في العوز، لأن ذلك سيعرض للخطر التوازن الحساس للمساكنة المتوافق عليها. لم يكن هناك عقد مكتوب، ولكن إذا ما خرق أحد الرجال كلمته، فسوف تتولى النساء تدمير سمعته. وسيُطلق على الحفل الراقص اسم ***كوردون بلو*** وتعهدت فيوليت بأن تحوله إلى الحدث المنتظر كل عام للشبان من كافة الألوان.

زاريتيه

انتهى بي الأمر إلى تقبل **مساكنة المتعة** التي تتبناها أمهات فتيات أخريات بصورة طبيعية، ولكنها شكلت صدمة بالنسبة إليّ. لم يرق لي ذلك خياراً لابنتي، ولكن ما هو الخيار الأفضل الذي يمكنني تقديمه إليها؟ وقد تفهمت روزيت ذلك فوراً عندما تجرأتُ على إخبارها به. لقد كانت تتمتع أكثر مني بالحس السليم.

نظمت مدام فيوليت الحفل الراقص بمساعدة بعض الفرنسيين المتخصصين في إقامة العروض. وأنشأت كذلك أكاديمية لتعليم الإتيكيت والتجميل، وهي التسمية التي أطلقتها على البيت الأصفر، حيث صارت تهيئ الفتيات اللواتي واظبن على دروسها. قالت إن هؤلاء الفتيات سيكن مطلوبات أكثر من الجميع ويمكن لهن التمتع باختيار حاميهن، وهكذا أقنعت الأمهات، ولم يشك أحد من التكاليف. ولأول مرة في سنواتٍ عمرها الخمس والأربعين صارت مدام فيوليت تغادر الفراش باكراً. كنت أوقظها بقهوة قوية وأخرج راكضة قبل أن تلقي بها على رأسي. ويستمر تعكر مزاجها حتى الضحى. لم تقبل المدام سوى اثنتي عشرة تلميذة، فليس لديها قدرة على أكثر من ذلك، ولكنها كانت تخطط للعثور على مكان مناسب في العام التالي. تعاقدت مع معلمي غناء ورقص؛ وكانت الفتيات يتنقلن وهن يضعن على رؤوسهن كوب ماء كي يستقيم قوامهن، وعلمتهن تسريح شعورهن والتبرج، وفي ساعات الفراغ كنت أعلمهن كيف يدار منزل، لأنني أعرف الكثير في هذا المجال. وقد صممت المدام فستاناً لكل منهن يتناسب مع هيئتها ولون بشرتها، ثم تولت مدام آديل ومساعداتها بعد ذلك خياطة تلك الفساتين. واقترح الدكتور بارمونتيه بأن تتعلم الفتيات كذلك مواضيع للنقاش، ولكن مدام فيوليتٍ قالت إنه لا وجود لرجل يهتم بما تقوله امرأة، وكان دون سانتشو متفقاً معها

في ذلك. أما الدكتور بالمقابل، فكان يصغي على الدوام إلى آراء آديل ويتبع نصائحها، لأن دماغه لا ينفع في فهم أي شيء سوى علاج المرضى. فهي من تتخذ القرارات في الأسرة. وقد اشتريا البيت في شارع رامبار وتوليا مسؤولية تعليم أبنائهما من عملها واستثماراتها، لأن نقود الدكتور تتبخر.

ومع انتصاف العام كانت التلميذات قد تقدمت إلى حد دفع دون سانتشو إلى مراهنة رفاقه في مقهى المهاجرين على أنهن جميعهن سيحرزن وضعاً جيداً. كنتُ أراقب الدروس خفية، لعل شيئاً منها يفيدني في إرضاء زاشاري. فأنا أبدو خادمة إلى جانبه، ليس لدي مفاتن مدام فيوليت ولا ذكاء آديل؛ لستُ متغنجة مثلما ينصحني دون سانتشو، ولا مسلية مثلما يرغب الدكتور بارمونتيه.

كانت ابنتي تمضي خلال النهار سجينة مشد صدر، وتنام في الليل مطلية بكريمات التبييض، مع رباط لضغط الأذنين وحزام حصان لتضييق خصرها. الجمال وهم، مثلما كانت تقول المدام، فجميع البنات جميلات وهن في الخامسة عشرة، ولكن مواصلة الحفاظ على ذلك الجمال يتطلب انضباطاً. كان على روزيت أن تقرأ بصوت عالٍ قوائم شحنات السفن في المرفأ، فهكذا تتدرب على أن تتحمل رجلاً ضجراً بطيب مزاج، وتكاد لا تأكل، وتُمَلِّس شعرها بقطع حديد محماة، وتنزع شعر بدنها بالسكر المحروق، وتدلكه بالشوفان والليمون، وتقضي ساعات في التدرب على انحناءات الاحترام، وعلى رقصات وألعاب الصالونات. ماذا يفيدها أن تكون حرة إذا كانت ستتصرف على هذا النحو؟ وكنت أقول إنه لا وجود لرجل يستحق كل ذلك العناء، ولكن مدام فيوليت أقنعتني بأنها الطريقة الوحيدة لضمان مستقبلها. ابنتي التي لم تكن وديعة قط، خضعت لذلك التدريب دون شكوى. هناك شيء قد تبدل فيها، فهي لم تعد تجتهد لإرضاء أحد، وتحولت إلى الصمت. لقد كانت تعيش وهي تتأمل نفسها، أما الآن فلم تعد تستخدم المرآة إلا في الدروس، عندما تطلب منها المدام ذلك.

كانت المدام تعلم المداهنة دون تذلل، وإسكات التأنيب، وإخفاء الغيرة، والتغلب على إغراء تجريب قبلات أخرى. والأهم من ذلك كله، حسب رأيها، استغلال النار التي نمتلكها نحن النساء في بطوننا. وهذا هو ما يخشاه الرجال ويرغبون فيه. وكانت تنصح الفتيات بأن يتعرفن على أجسادهن ويمتعن أنفسهن بأصابعهن، لأنه لا مكان للصحة والجمال دون لذة. وهذا بالذات ما حاولت تانت روز أن تعلمني إياه في الزمن الذي بدأت فيه اغتصابات السيد فالموران لي، ولكنني لم أعمل بنصيحتها، فقد كنت طفلة صغيرة يتملكني ذعر شديد. كانت تانت روز تغسلني بمغلى الأعشاب وتضع عجينة صلصال على بطني وفخذي، أشعر بها في البدء باردة وثقيلة، ولكنها تسخن بعد ذلك وتبدو كأنها تغلي، كما لو أن الحياة تدب فيها. هكذا كانت تشفيني. فالتراب والماء يشفيان الجسد والروح. وأظن أنني مع غامبو شعرت أول مرة بهذا الذي تتحدث عنه المدام، ولكننا افترقنا سريعاً جداً. بعد ذلك لم أشعر بشيء لسنوات، إلى أن جاء زاشاري ليوقظ جسدي. إنه يحبني ويتمتع بالصبر. وفضلاً عن تانت روز، كان هو الوحيد الذي أحصى قروحي في الأماكن السرية حيث كان السيد يطفئ سيجاره أحياناً. والمدام فيوليت هي المرأة الوحيدة التي سمعتُ منها هذه الكلمة: متعة. وكانت تقول للفتيات: «كيف ستمنحونها للرجل إذا كنتم أنتم لا تعرفونها؟». متعة هو الحب، وإرضاع طفل، والرقص. ومتعة أيضاً هي انتظار زاشاري وأنا أعرف أنه سيأتي.

لقد كنت خلال تلك السنة مشغولة جداً بعملي في البيت، فإضافة إلى العناية بالتلميذات، كنت أذهب في مهمات إلى بيت مدام آديل، وأحضّر الأدوية للدكتور بارمونتيه. وفي شهر كانون الأول، قبل قليل من حفلة **الكوردون بلو**، قدّرت أنني لم أنزف منذ ثلاثة شهور. المفاجأة الوحيدة هي أنني لم أحبل من قبل، لأنني كنت أنام منذ زمن مع زاشاري دون اتخاذ الاحتياطات التي علمتني إياها تانت روز. وقد رغِب هو في أن نتزوج عندما أخبرته بالأمر، ولكن كان عليّ أن أؤمن أولاً وضع روزيت.

موريس

مع حلول عطلة السنة الرابعة في المدرسة، انتظر موريس كالعادة مجيء جول بيلوش. وكان في أثناء ذلك قد فقد الرغبة في اللقاء بأسرته، والسبب الوحيد الذي يحبب إليه العودة إلى نيو أورلينز هو لقاء روزيت، وإن كانت إمكانية رؤيتها بعيدة جداً. فالراهبات الأورسوليات لا يسمحن بزيارات تلقائية لأحد، فما بالك بزيارة فتى لا يمكنه إثبات أيٍ نوع من القرابة المقربة. كان يعرف أن أباه لن يمنحه الإذن بزيارتها أبداً، ولكنه لم يفقدٍ الأمل بمرافقة خاله سانتشو الذي تعرفه الراهبات، لأنه لا يتوقف أبداً عن زيارة روزيت.

لقد عرف من خلال الرسائل أن تيتي قد أُرسلت إلى المزرعة بعد الحادث مع أورتينس، ولم يستطع إلا تحميل نفسه وزر ذلك. كان يتخيلها تقطع القصب منذ شروق الشمس حتى مغيبها، ويشعر بقبضة تُطبق في أعلى معدته. لم يكن هو وتيتي وحدهما من دفعا ثمن تلك الضربة بالسوط، بل يبدو أن المحنة قد أصابت روزيت أيضاً. لقد كتبت الفتاة عدة مرات إلي فالموران متوسلة إليه أن يذهب لرؤيتها، ولكنها لم تتلق منه أي ردّ قط. «ما الذي فعلته أنا لأفقد محبة أبيك؟ لقد كنتُ من قبل مثل ابنته، لماذا نسيني هكذا؟»، كانت تستصرخ في رسائلها إلى موريس الذي لا يستطيع تقديم جواب نزيه إليها. «إنه لم ينسكِ يا روزيت، بابا مازال يحبك كالعادة، وهو يتابع راحتك. ولكن المزرعة وأعماله تبقيه مشغولاً. فأنا أيضاً لم أره منذ أكثر من ثلاث سنوات.» لماذا القول لها إن فالموران لم يعتبرها ابنته قطّ؟ فقبل نفيه إلى بوسطن، طلب من أبيه أن يأخذه لزيارة أخته في المدرسة، فرد عليه بغضب أن أخته الوحيدة هي ماري أورتينس.

في تلك السنة لم يحضر جول بيلوش إلى بوسطن؛ ومن جاء بالمقابل

هو سانتشو غارثيا دل سولار بقبعة عريضةٍ الحواف، وقد حضر ومعه حصان آخر مربوط إلى حصانه. قفز مترجلاً عن دابته ونفض الغبار عن ملابسه بضربات من قبعته قبل أن يعانق ابن أخته. كان جول بيلوش قد تلقى طعنة سكين بسبب ديون قمار، فتدخل آل غيزو لتجنب النمائم، لأن ألسنة السوء، مهما كانت صلة القرابة التي تربطهم به بعيدة، ستتولى ربط بيلوش بالفرع المحترم من العائلة. ففعلوا ما يفعله أي **كريولي** من طبقتهم في ظروف مماثلة: سددوا الديون، ووفروا له المأوى إلى أن شفي جرحه وصار بإمكانه الاعتماد على نفسه، ثم قدموا إليه نقوداً لنفقاته ووضعوه في سفينةٍ مغادرة مع تعليمات بعدم النزول منها حتى تكساس، وألا يرجع أبداً إلى نيو أورلينز. وقد روى سانتشو ذلك كله لموريس وهو يتلوى من الضحك، ثم أضاف:

ـ كان يمكن لذلك أن يحدث لي يا موريس. لقد حالفني الحظ حتى الآن، ولكنهم قد يحملون إليك في أي يوم خبر أن خالك المحبوب قد طُعن بسكين في بيت قمار سيئ السمعة.

ـ لا قدر الله ذلك يا خالي. هل جئت لتأخذني إلى البيت؟ ـ سأله موريس بصوت يتحول من الخفيض إلى الجهير في الجملة نفسها.

ـ كيف يخطر لك أن تفكر في ذلك يا فتى! أتريد الذهاب لتدفن نفسك طيلة الصيف في المزرعة! أنت وأنا سنذهب في رحلة ـ قال له سانتشو.

ـ أي أنني سأفعل ما فعلته من قبل مع بيلوش.

ـ لا تقارنني به يا موريس. فأنا لا أفكر في أنمي معارف التمدنية بمزيد من النصب التذكارية، بل أفكر في إفساد أخلاقك، ما رأيك؟

ـ كيف ذلك يا خالي؟

ـ في كوبا يا بن أختي. لا يوجد مكان أفضل منها لمحتالين مثلنا. كم صار عمرك؟

ـ خمس عشرة.

ـ ولم يتبدل صوتك بعد؟

ـ بل تبدل يا خالي، ولكنني مصاب بالزكام ـ تلعثم الفتى.

ـ لقد كنتُ شيطاناً وأنا في مثل سنك. إنك متأخر يا موريس. حضّر أشياءك لأننا سنغادر غداً بالذات ـ أمره سانتشو.

كان قد خلّف وراءه في كوبا أصدقاء كثيرين، وغير قليل من العشيقات اللاتي تهيئن لتكريمه خلال إجازته وتحمل مرافقه، ذلك الفتى غريب الأطوار الذي يقضى الوقت في كتابة رسائل ويطرح موضوعات سخيفة في المحادثات، مثل العبودية والديمقراطية، وهي مسائل ليس بينهم من لديه رأي راسخ بشأنها. كانوا يستمتعون برؤية سانتشو يقوم بدور المربية، وينفذه باهتمام لا ريب فيه. فقد كان يمتنع عن الذهاب إلى أفضل حفلات الصخب كيلا يترك ابن أخته وحيداً، وتخلى عن حضور صراع الحيوانات ـ ثيران مع دببة، وحيات مع بنات عرس، وديوك مع ديوك، وكلاب مع كلاب ـ لأن تلك المشاهد تضايق موريس. أراد سانتشو تعليم الفتى الشرب، فكان ينتهي في منتصف الليل إلى تنظيفه من القيء. وكشف له عن حيله كلها في ألعاب الورق، لكن موريس كان يخلو من الخبث، وكان عليه أن يسدد الديون بعد أن يجزه من هم أكثر مكراً. وسرعان ما اضطر الخال إلى التخلي كذلك عن إدخاله في المصارعات الغرامية، لأنه حين حاول ذلك كاد ابن أخته أن يموت هلعاً. فقد رتب التفاصيل مع إحدى صديقاته، ولم تكن شابة فتية بأي حال ولكنها ما تزال جذابة طيبة القلب، وأبدت استعدادها لأن تكون معلمة ابن الأخت لمجرد المتعة بتقديم جميل إلى الخال. «هذا الطفل مازال فجاً جداً...»، تلعثم سانتشو خجلاً عندما خرج موريس هارباً بعد رؤيته المرأة بثوب مثير مرفوع الخصر مستلقية على الأريكة. «لم يوجه إليّ أحد مثل هذه الازدراء من قبل يا سانتشو. أغلق الباب وتعال لمواساتي»، قالت المرأة ضاحكة. وعلى الرغم من هذه العثرات، أمضى موريس صيفاً لا يُنسى ورجع إلى المدرسة أطول قامةً، وأكثر قوة، وببشرة برونزية وصوت جهير نهائي. «لا تدرس كثيراً، لأنك ستؤذي نظرك ومزاجك، واستعد للصيف القادم. لأني سوف آخذك إلى إسبانيا

الجديدة [المكسيك]»، قال له سانتشو مودعاً. وقد أنجز وعده ذاك وصار موريس منذ ذلك الحين ينتظر قدوم الصيف بلهفة.

في العام ١٨٠٥، وهي السنة الأخيرة في المدرسة، لم يحضر الخال سانتشو لمرافقته، كما في مرات سابقة، بل جاء أبوه. استنتج موريس أنه آت ليخبره بمصيبة ما، وأحس بالخوف على تيتي أو روزيت، ولكن المسألة لم تكن كذلك. لقد نظم فالموران رحلة إلى فرنسا لزيارة جدة الفتى وعمتين مفترضتين لم يسمع ابنه أي ذكر لهما من قبل. «وهل سنذهب بعد ذلك إلى البيت يا مسيو؟»، سأله موريس وهو يفكر في روزيت التي يخبئ رسائلها في قعر صندوقه. كان قد كتب إليها بدوره مئة وثلاث وتسعين رسالة دون أن يفكر في التبدلات المؤكدة التي طرأت عليها خلال تلك السنوات السبع من الفراق، فهو يتذكرها على أنها الطفلة التي ترتدي الدانتيلا والشرائط والتي رآها آخر مرة قبل قليل من حفل زفاف أبيه وأورتينس غيزو. لا يمكنه تخيلها في الخامسة عشرة، مثلما لم يكن بإمكانها هي أن تتخيله في الثامنة عشرة. «سوف نذهب إلى البيت طبعاً يا بني؛ فأمك وأخواتك بانتظارك»، كذب فالموران.

الرحلة التي بدأت أولاً في سفينة كان عليها أن تتجاوز عواصف صيفية، الفرار بصعوبة من هجوم شنه الإنكليز، ثم بعد ذلك في عربة حتى باريس، لم تقرّب بين الأب وابنه. كان فالموران قد خطط للرحلة كي يجنب امرأته لبضعة شهور أخرى كدر اللقاء بموريس، ولكنه لم يكن قادراً على تأجيل ذلك اللقاء بصورة لانهائية؛ وسيكون عليه أن يواجه عما قريب وضعاً لم يخفف مرور السنوات منه. فأورتينس لم تكن تفوت فرصة إلا وتفرز سماً ضد ابن زوجها الذي تسعى في كل عام، دون جدوى، أن تنجب ابناً يحل محله، ولكنها تواصل إنجاب البنات. من أجلها أبعد فالموران ابنه موريس عن الأسرة، وبدأ الآن يشعر بالندم. فمنذ عقد من السنوات وهو لا يهتم بصورة جدية بابنه، يظل مستغرقاً بشؤونه، في سان دومانغ أولاً ثم في لويزيانا بعد ذلك،

وأخيراً انشغاله بأورتينس وولادة البنات. لقد كان الفتى شخصاً مجهولاً يردّ على رسائله بجملتين رسميتين حول التقدم في دروسه دون أن يسأل عن أي فرد من الأسرة، كما لو أنه يريد أن يخلف شعوراً بأنه لم يعد ينتمي إليها. حتى إنه لم يُبدِ ما يشير إلى أنه معني عندما أخبره أن تيتي وروزيت قد أعتقتا ولم يعد له اتصال بهما.

خشي فالموران أن يكون قد فقد ابنه في إحدى لحظات تلك السنوات المضطربة. فهذا الشاب المنطوي على نفسه، طويل القامة والوسيم، الذي له ملامح أمه نفسها، لا يشبه في شيء الصبي ذي الخدين المتوردين الذي احتضنه بين ذراعيه متضرعاً إلى السماء أن تحفظه من أي شر. إنه يحبه مثلما أحبه دوماً، وربما أكثر، لأن مشاعره مصبوغة بالإحساس بالذنب. حاول إقناع نفسه بأن عاطفته تقابل بالمثل من موريس، وإن كان بعيداً عنه مؤقتاً، ولكن الشكوك كانت تخامره بذلك. لقد وضع خططاً طموحة من أجله، بالرغم من أنه لم يسأله حتى الآن عما يرغب في عمله في حياته. والحقيقة أنه لم يكن يعرف شيئاً عن اهتمامات ابنه أو خبراته، فهما لم يتبادلا الحديث منذ قرون. كان يرغب في استعادته ويتصور أن قضاء تلك الشهور وحدهما معاً في فرنسا ستفيد في إقرار علاقة شخصين ناضجين بينهما. عليه أن يثبت له عاطفته نحوه والتوضيح أن أورتينس وبناتها لن يبدلا من وضعه كوريث وحيد، ولكنه كلما حاول مقاربة الموضوع ولا يجد أي ردّ. «تقاليد توريث الابن الأكبر بالغة الحكمة يا موريس: يجب عدم تقسيم الأملاك بين الأبناء، لأن كل تقسيم يصيب ثروة الأسرة بالضعف. ولأنك الابن البكر، ستتلقى ميراثي كاملاً وتكون مسؤولاً عن السهر على أخواتك. وعندما لا أعود موجوداً، ستكون أنت رأس عائلة فالموران. وقد حان الوقت للبدء بإعدادك كي تتعلم استثمار الأموال، وإدارة المزرعة، والارتباط بالمجتمع»، قال له. ولكنه يلقى الصمت وحسب. فالمحادثات تموت قبل أن تبدأ. ويبحر فالموران من مونولوج إلى آخر.

راح موريس يتفحص، دون أي تعليق، فرنسا النابليونية التي

تخوض حروباً دائمة، زار متاحفها وقصورها وحدائقها وشوارعها التي رغب أبوه في أن يريه إياها. وزارا القصر الصغير المتداعي الذي تعيش فيه الجدة سنواتها الأخيرة، تعنى بابنتين عانسين أشد تردياً منها بفعل الزمن والوحدة. كانت الجدة عجوزاً متكبرة، ملابسها من طراز عصر لويس السادس عشر، ومصممة على ازدراء تبدلات العالم. لقد كانت تقبع برسوخ في الحقبة السابقة على الثورة الفرنسية، وقد مسحت من ذاكرتها الرعب، والمقصلة، ومنفاها في إيطاليا، والعودة إلى وطن لا تستطيع التعرف عليه. حين رأت تولوز فالموران، ذلك الابن الغائب منذ أكثر من ثلاثين عاماً، مدت له يدها المعروقة التي تضع خاتماً قديماً في كل أصبع منها كي يقبلها، ثم أمرت ابنتيها على الفور أن تقدما الشكولاتة. عرّفها فالموران على حفيدها، وحاول أن يلخص لها قصته منذ أبحر نحو جزر الأنتيل وهو في العشرين من عمره حتى اللحظة الراهنة. استمعت إليه دون أي تعليق، بينما الأختان تقدمان فناجين يتصاعد منها البخار وأطباق حلوى معتقة وهما ترمقان فالموران بحذر. إنهما تتذكران الشاب المتحمس الذي ودّعهما بقبلة ساهية ليذهب مع خادمه الخاص وعدة صناديق ليقضي بضعة أسابيع مع أبيه في سان دومانغ، ولم يرجع بعدها قط. لم تتعرفا على هذا الرجل قليل الشعر، ذي اللغد المترهل والكرش البارز، والذي يتكلم بلكنة غريبة. كانتا تعرفان شيئاً عن تمرد عبيد في المستعمرة، وسمعتا بعض العبارات المتفرقة من هنا وهناك حول الفظائع المرتكبة في تلك الجزيرة المتهاوية، ولكنهما لم تتوصلا إلى ربط ذلك كله بفرد من الأسرة. ولم تبديا قط الفضول لمعرفة من أين تأتي نفقات معيشتهن. أما السكر الدامي، والعبيد الثائرين، والمزارع المحروقة، والمنفى وغيرها من الأمور التي يتحدث عنها أخيهما فتبدو لهما عصية على الفهم مثل محادثة بالصينية.

أما الأم بالمقابل فكانت تعرف بالضبط ما الذي يعنيه فالموران، ولكنها لم تعد تهتم بشيء من شؤون هذا العالم؛ فقد أصاب قلبها الجفاف تجاه العواطف والمستجدات. استمعت إليه بصمت غير مبال،

وكان السؤال الوحيد الذي وجهته إليه أخيراً عما إذا كان بإمكانها الحصول على مزيد من النقود، لأن المبلغ الذي يرسله إليها بانتظام لا يكاد يكفيهن. وقالت إنه لا بد من إصلاح هذا المنزل المتداعي الذي أبلته السنون والمصاعب، وإنها لا تستطيع الموت تاركة أختيه في العراء. بقي فالموران وموريس يومين بين تلك الجدران الكئيبة، وقد بديا طويلين كأسبوعين. «من الأفضل ألا نعود للقاء»، كانت هذه هي كلمات السيدة العجوز عند وداع ابنها وحفيدها.

رافق موريس أباه بوداعة إلى كل الأمكنة التي ذهب إليها، باستثناء الماخور الفاخر حيث قرر فالموران الاحتفاء بابنه مع أغلى المحترفات في باريس.

ـ ماذا أصابك يا بني؟ هذا أمر طبيعي وضروري. لا بد من إفراغ سوائل البدن من أجل صفاء الذهن، وهكذا يتمكن أحدنا من التركيز على شؤونه.

ـ أنا لا أجد صعوبة في التركيز يا مسيو.

ـ قلتُ لك أن تدعوني «**يا أبي**» يا موريس. وأفترض أنك في رحلاتك مع الخال موريس... حسن، أظن أنك لم تعدم الفرص...

ـ هذا شأن خاص ـ قاطعه موريس.

ـ آمل ألا تكون المدرسة الأمريكية قد حولتك إلى متدين أو مخنث ـ علق أبوه بلهجة مازحة، ولكنها خرجت منه أشبه بزمجرة.

لم يقدم الفتى تفسيرات. ولكنه كان قد فقد عذريته بفضل خاله، لأن سانتشو تمكن في الإجازة الأخيرة من إدخاله تلك الممارسات بحيلة أريبة أملتها الضرورة. فقد تصور أن ابن أخته يعاني من الرغبات والتخيلات الخاصة بسنه، ولكنه رومانسي يمقت الحب المختزل إلى صفقة تجارية. وكان لا بد له من مساعدته، وقد اتخذ القرار بذلك. كانا في ميناء سفانا المزدهر، في جورجيا التي أحب سانتشو زيارتها لوسائل المتعة واللهو الكثيرة التي توفرها، وكان موريس راغباً في تلك الزيارة أيضاً لأن البروفيسور هاريسون كوب كان يذكرها كنموذج للتحولات

الأخلاقية.

جورجيا التي تأسست في العام ١٩٣٣، شكلت المستعمرة البريطانية الثالثة عشرة والأخيرة في أميركا الشمالية، وكانت سفانا هي مدينتها الأولى. القادمون الجدد احتفظوا بعلاقات مودّة مع قبائل السكان الأصليين، متجنبين بذلك العنف الذي كان يعصف بمستعمرات أخرى. في بداية تأسيسها، لم تكن العبودية وحدها هي المحظورة في جورجيا، بل الخمور والمحامون أيضاً، ولكن سرعان ما أدرك مستوطنوها أن المناخ ونوعية التربة مثاليان لزراعة الرز والقطن، فشرَّعوا العبودية. وبعد الاستقلال تحولت جورجيا إلى ولاية من ولايات الاتحاد، وازدهرت مدينة سفانا كميناء لإدخال التجارة من أفريقيا من أجل تموين مزارع المنطقة. «هذا يثبت لك يا موريس أن الأخلاق تتهاوى سريعاً أمام الجشع. فعندما يتعلق الأمر بالثراء، لا يتورع معظم البشر عن التضحية بالروح. لا يمكنك أن تتصور كيف يعيش مزارعو جورجيا بفضل عمل عبيدهم»، كان هاريسون كوب يخطب به. ولم يكن الفتى بحاجة إلى تصور ذلك، فقد عاشه في سان دومانغ ونيو أورلينز، ولكنه وافق على اقتراح خاله سانتشو بقضاء الإجازة في سفانا كيلا يخيب أمل معلمه فيه. «لا يكفي حب العدالة لهزيمة العبودية يا موريس، لا بد من رؤية الواقع ومعرفة قوانين السياسة وتروسها ومسنناتها بعمق»، أكد له كوب الذي كان يعدّه كي يفوز حيث أخفق هو نفسه. كان الرجل يعرف نقاط محدوديته، فهو لا يمتلك الطبع ولا الصحة اللازمين للصراع في الكونغرس، مثلما كان في شبابه، ولكنه كان معلماً جيداً قادراً على اكتشاف مواهب التلميذ وقولبة شخصيته.

بينما كان سانتشو غارثيا دل سولار يستمتع على هواه ببهاء سفانا وضيافتها، كان موريس يعاني شعورا بالذنب لأنه يقضي وقتاً ممتعاً. ما الذي سيقوله لأستاذه عندما يرجع إلى المدرسة؟ أيقول له إنه كان في فندق فاخر، يقوم على خدمته جيش من الخدم الودودين، ولم يتسع

له الوقت لأكثر من الاستمتاع كطائش عديم المسؤولية.

لم يكن قد مضى عليهما أكثر من يوم واحد في سفانا عندما أقام سانتشو صداقة مع أرملة اسكتلندية تقيم على بُعد شارعين من الفندق. وقد عرضت عليهما السيدة تعريفهما على المدينة وما فيها من أبنية ونُصب وكنائس وحدائق، بنيت جميعها على أجمل وجه بعد حريقٍ مدمر. وقد وفت الأرملة بوعدها، فحضرت مع ابنتها، جيزيل الرقيقة، وخرج الأربعة للتجول معاً، وهكذا بدأت صداقة ملائمة للخال وابن الأخت. وقد أمضوا ساعات طويلة معاً.

وبينما كانت الأم وسانتشو يلعبان أدواراً لانهائية من ألعاب الورق، ويختفيان بين حين وآخر من الفندق دون أن يقدما تفسيرا، كانت جيزيل تتولى تعريف موريس علىٍ الأمكنة المحيطة. فكانا يقومان مفردين برحلات على الخيول، بعيداً عن رقابة الأرملة الاسكتلندية، وكان ذلك يفاجئ موريس الذي لم ير مثل تلك الحرية لدى فتاة. وقد اقتادته جيزيل، في عدة مناسبات، إلى شاطئ منعزل، حيث كانا يتقاسمان وجبة خفيفة وزجاجة من النبيذ. كانت الفتاة قليلة الكلام، وما كانت تقوله مغرق في التفاهة، مما جعل موريسٍ يفقد الشعور بالرهبة ويتدفق منه بطلاقة الكلام الذي كان حبيساً في صدره. فقد وجد أخيراً مستمعة لا تتثاءب حيال موضوعاته الفلسفية، بل تصغي إليه بإعجاب واضح. وبين حين وآخر تلمسه أصابعها الأنثوية كما لو أنها حركة سهو غير متعمدة، وتتحول الملامسة إلى مداعبة جريئة لم تحتج إلا إلى ثلاثة مغيبات شمس. تلك الهجمات في الهواء الطلق، تحت لسع الحشرات، وهما ملتفين بثيابهما وخائفين من أن يُكتشفا، كانت تخلف موريس أقرب إلى المجد، وتخلفها هي في حالة أقرب إلى الضجر.

انقضت بقية الإجازة بسرعة كبيرة، وانتهى الأمر بموريس المراهق إلى الوقوع بالطبع في الحب. وزاد ذلك الحب من إحساسه بتأنيب الضمير لأنه لطخ شرف جيزيل. ولم تكن هناك سوى طريقة فروسية

الأخلاقية.

جورجيا التي تأسست في العام ١٩٣٣، شكلت المستعمرة البريطانية الثالثة عشرة والأخيرة في أميركا الشمالية، وكانت سفانا هي مدينتها الأولى. القادمون الجدد احتفظوا بعلاقات مودّة مع قبائل السكان الأصليين، متجنبين بذلك العنف الذي كان يعصف بمستعمرات أخرى. في بداية تأسيسها، لم تكن العبودية وحدها هي المحظورة في جورجيا، بل الخمور والمحامون أيضاً، ولكن سرعان ما أدرك مستوطنوها أن المناخ ونوعية التربة مثاليان لزراعة الرز والقطن، فشرَّعوا العبودية. وبعد الاستقلال تحولت جورجيا إلى ولاية من ولايات الاتحاد، وازدهرت مدينة سفانا كميناء لإدخال التجارة من أفريقيا من أجل تموين مزارع المنطقة. «هذا يثبت لك يا موريس أن الأخلاق تتهاوى سريعاً أمام الجشع. فعندما يتعلق الأمر بالثراء، لا يتورع معظم البشر عن التضحية بالروح. لا يمكنك أن تتصور كيف يعيش مزارعو جورجيا بفضل عمل عبيدهم»، كان هاريسون كوب يخطب به. ولم يكن الفتى بحاجة إلى تصور ذلك، فقد عاشه في سان دومانغ ونيو أورلينز، ولكنه وافق على اقتراح خاله سانتشو بقضاء الإجازة في سفانا كيلا يخيب أمل معلمه فيه. «لا يكفي حب العدالة لهزيمة العبودية يا موريس، لا بد من رؤية الواقع ومعرفة قوانين السياسة وتروسها ومسنناتها بعمق»، أكد له كوب الذي كان يعدّه كي يفوز حيث أخفق هو نفسه. كان الرجل يعرف نقاط محدوديته، فهو لا يمتلك الطبع ولا الصحة اللازمين للصراع في الكونغرس، مثلما كان في شبابه، ولكنه كان معلماً جيداً قادراً على اكتشاف مواهب التلميذ وقولبة شخصيته.

بينما كان سانتشو غارثيا دل سولار يستمتع على هواه ببهاء سفانا وضيافتها، كان موريس يعاني شعوراً بالذنب لأنه يقضي وقتاً ممتعاً. ما الذي سيقوله لأستاذه عندما يرجع إلى المدرسة؟ أيقول له إنه كان في فندق فاخر، يقوم على خدمته جيش من الخدم الودودين، ولم يتسع

له الوقت لأكثر من الاستمتاع كطائش عديم المسؤولية.

لم يكن قد مضى عليهما أكثر من يوم واحد في سفانا عندما أقام سانتشو صداقة مع أرملة اسكتلندية تقيم على بُعد شارعين من الفندق. وقد عرضت عليهما السيدة تعريفهما على المدينة وما فيها من أبنية ونُصب وكنائس وحدائق، بنيت جميعها على أجمل وجه بعد حريقٍ مدمر. وقد وفت الأرملة بوعدها، فحضرت مع ابنتها، جيزيل الرقيقة، وخرج الأربعة للتجول معاً، وهكذا بدأت صداقة ملائمة للخال وابن الأخت. وقد أمضوا ساعات طويلةٍ معاً.

وبينما كانت الأم وسانتشو يلعبان أدواراً لانهائية من ألعاب الورق، ويختفيان بين حين وآخر من الفندق دون أن يقدما تفسيرا، كانت جيزيل تتولى تعريف موريس عليٍ الأمكنة المحيطة. فكانا يقومان مفردين برحلات على الخيول، بعيدا عن رقابة الأرملة الاسكتلندية، وكان ذلك يفاجئ موريس الذي لم ير مثل تلك الحرية لدى فتاة. وقد اقتادته جيزيل، في عدة مناسبات، إلى شاطئ منعزل، حيث كانا يتقاسمان وجبة خفيفة وزجاجة من النبيذ. كانت الفتاة قليلة الكلام، وما كانت تقوله مغرق في التفاهة، مما جعل موريسٍ يفقد الشعور بالرهبة ويتدفق منه بطلاقة الكلام الذي كان حبيساً في صدره. فقد وجد أخيراً مستمعة لا تتثاءب حيال موضوعاته الفلسفية، بل تصغي إليه بإعجاب واضح. وبين حين وآخر تلمسه أصابعها الأنثوية كما لو أنها حركة سهو غير متعمدة، وتتحول الملامسة إلى مداعبة جريئة لم تحتج إلا إلى ثلاثة مغيبات شمس. تلك الهجمات في الهواء الطلق، تحت لسع الحشرات، وهما ملتفين بثيابهما وخائفين من أن يُكتشفا، كانت تخلف موريس أقرب إلى المجد، وتخلفها هي في حالة أقرب إلى الضجر.

انقضت بقية الإجازة بسرعة كبيرة، وانتهى الأمر بموريس المراهق إلى الوقوع بالطبع في الحب. وزاد ذلك الحب من إحساسه بتأنيب الضمير لأنه لطخ شرف جيزيل. ولم تكن هناك سوى طريقة فروسية

واحدة لإصلاح خطيئته، وهو ما شرحه لسانتشو فور استجماعه ما يكفي من الشجاعة:

ـ سأتقدم بطلب يد جيزيل ـ قال لخاله.

ـ هل فقدت عقلك يا موريس؟ أتريد الزواج وأنت لا تعرف بعد كيف تمسح مخاطك!

ـ لا تسيء احترامي أيها الخال. إنني رجل كامل الرجولة.

ـ ألأنك ضاجعت الفتاة؟ ـ وانفجر سانتشو في قهقهة مدوية.

وتمكن الخال في اللحظة الأخيرة من تفادي اللكمة التي وجهها موريس إلى وجهه. وقد حُلت المشكلة بعد قليل من ذلك عندما أوضحت السيدة الاسكتلندية أن الفتاة ليست ابنتها، واعترفت جيزيل بأن اسمها هذا هو اسم مستعار، وأنها ليست في السادسة عشرة من العمر بل في الرابعة والعشرين، وأن سانتشو غارثيا دل سولار قد دفع لها من أجل تدريب ابن أخته. واعترف الخال بأنه اقترف حماقة كبيرة وأنه أراد جعل المسألة نوعاً من المزاح، ولكنه مضى في الأمر بعيدا. عندئذ أقسم موريس، وقد تحطم قلبه، إنه لن يعود إلى التكلم مع خاله مدى الحياة. ومع ذلك، ما إن وصلا إلى بوسطن حتى كانت بانتظاره رسالتين من روزيت، فتلاشت عاطفته تجاه فاتنة سفانا؛ وتمكن عندئذ من الصفح عن خاله. وعند الوداع تعانقا بالرفاقية المعهودة والوعد بأن يلتقيا مجددا في وقت قريب.

خلال الرحلة إلى فرنسا لم يخبر موريس أباه بشيء مما حدث في سفانا. ألح فالموران مرتين أخريين على التمتع مع سيدات الفجر بعد تليين ابنه بالخمر، ولكنه لم يتمكن من دفعه إلى تغيير رأيه، وأخيرا قرر عدم العودة إلى الحديث في الموضوع حتى عودتهما إلى نيو أورلينز، حيث سيضع تحت تصرفه شقة أعزب، مثل تلك التي يمتلكها الشباب *الكريوليين* الذين في مثل وضعه الاجتماعي. ولن يسمح في هذه اللحظات لعفة ابنه أن تحطم توازن علاقتهما المزعزع.

الجواسيس

ظهر جان مارتن روليه في نيو أورلينز قبل ثلاثة أسابيع من حفل ***الكوردون بلو*** الراقص الأول الذي نظمته أمه. وقد جاء دون زي الأكاديمية العسكرية الذي استخدمه منذ الثالثة عشرة من عمره، وبصفة سكرتير لإزيدور موريسيه، وهو عالم يسافر لتقويم ظروف التربة في الأنتيل وفلوريدا بهدف إقامة مزارع قصب سكر جديدة، بسبب الخسائر في مستعمرة سان دومانغ التي بدا أنها نهائية. ففي جمهورية هايتي السوداء الجديدة كان الجنرال ديسالين يقوم بتصفية منهجية لجميع البيض، وهم البيض أنفسهم الذين دعاهم إلى العودة. وإذا كان نابليون يأمل في التوصل إلى اتفاق تجاري مع هايتي، بعد أن عجز عن احتلالها بقواته، فقد تخلى عن الفكرة بعد تلك المجازر الرهيبة التي كان ينتهي فيها حتى الأطفال في قبور جماعية.

كان إزيدور موريسيه رجلاً ذا نظرة نفاذة، وأنف معقوف، له ظهر مصارع يمزق خياطة سترته، وكان أحمر مثل قطعة قرميد بفعل شمسٍ لا ترحم خلال رحلة اجتياز المحيط، يتكلم بلغة مقتضبة تجعله مزعجاً فور فتحه فمه. فوقع عباراته ـ وهي موجزة على الدوام ـ أشبه بالعطاس. يرد على الأسئلة بخير بدائي وملامح ريبة من ينتظر الأسوأ من الآخرين. وقد استقبله الحاكم كلايبورن فوراً وبالاهتمام اللائق بأجنبي رفيع المقام، مثلما تشهد على ذلك رسائل التوصية من عدة جمعيات علمية سلمها للسكرتير في حافظة جلدية خضراء مزينة بنقش نافر.

انتبه كلايبورن، وكان يرتدي ملابس الحداد لموت زوجته وابنته مؤخراً ضحية وباء الحمى الصفراء، إلى لون بشرة السكرتير السمراء. ومن خلال الطريقة التي قدمه بها موريسيه، افترض أن ذلك الشاب

الخلاسي حرّ، وصافحه بناء على ذلك. لا يمكن أبداً معرفة الاتيكيت الواجب استخدامه مع هؤلاء المنتمين إلى شعوب البحر المتوسط، فكر الحاكم. ولم يكن بالرجل القادر على تقدير الجمال الذكوري بسهولة، ولكنه لم يستطع إلا أن يمعن النظر بملامح الشاب الناعمة ـ الأهداب الكثيفة، والفم الأنثوي، والذقن المدورة مع تقعر في منتصفها ـ وجميعها تتناقض مع جسده النحيل والمرن ذي التقاطيع الرجولية التي لا ريب فيها. وقد أدى الشاب المتعلم ومرهف السلوك دور المترجم، لأن موريسيه لا يتكلم سوى الفرنسية. إتقان السكرتير للغة الإنكليزية كان ينقصه الكثير، ولكنه كان كافياً، لأن موريسيه نفسه قليل الكلام.

حاسة شم الحاكم نبهته إلى أن الزائرين يخفيان شيئاً ما. وبدت له المهمة السكرية مريبة بقدر ما هي مريبة هيئة القاتل التي لذلك الرجل، والتي لا تتناسب أبداً مع فكرة الباحث العلمي، غير أن تلك الشكوك لم تمنعه من تقديم حسن الضيافة الصارمة في نيو أورلينز. فبعد الفطور البسيط الذي قدمه زنجيان حران، لأنه لا يملك عبيدا، عرض عليهما استضافتهما للمبيت. وترجم السكرتير أن ذلك لن يكون ضرورياً، لأنهما آتيان لبضعة أيام قليلة، وسيقيمان في الفندق بانتظار السفينة للعودة إلى فرنسا.

وفور مغادرتهما، أمر كلايبورن باللحاق بهما بتكتم، وهكذا تبين أن الرجلين غادرا الفندق بعد الظهر، وأن السكرتير الشاب ذهب ماشياً إلى شارع شارت بينما ذهب موريسيه مفتول العضلات على حصان مستأجر إلى ورشة حدادة متواضعة في آخر شارع سان فيليب.

لقد أصاب الحاكم في شكوكه: ليس في موريسيه شيء من رجل العلم، وإنما هو جاسوس بونابارتي. ففي شهر كانون الأول ١٨٠٤، تحوّل نابليون إلى إمبراطور فرنسا، وقام هو نفسه بوضع التاج على رأسه، لأن البابا نفسه، وقد دعي بصورة خاصة إلى المناسبة، وجد أنه جدير بفعل ذلك. كان نابليون قد غزا نصف أوروبا، ولكنه كان يضع بريطانيا العظمى نصب عينيه، فتلك الأمة

الصغيرة ذات المناخ المريع والناس القبيحين تتحداه من الجانب الآخر للمضيق المسمى قناة المانش. في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٨٠٥ جرت مواجهة بين الأمتين جنوب غربي إسبانيا، في الطرف الأغر. فمن جانب كان هناك الأسطول الفرنسي الإسباني المؤلف من ثلاث وثلاثين سفينة، وفي الجانب الآخر الإنكليز سبع وعشرين سفينة بقيادة الأميرال المشهور هوراتيو نيلسون، عبقري الحرب البحرية. لقد مات نيلسون في المعركة بعد انتصار مشهود دمر فيه الأسطول المعادي وقضى على الحلم النابليوني بغزو إنكلترا. وفي تلك الأيام بالتحديد زارت بولين بونابرت أخاها لتعزيه بالخيبة في معركة الطرف الأغر. كانت بولين قد قصت شعرها لتضعه على نعش زوجها، الجنرال لوكليرك ذي القرنين الذي مات بالحمى في سان دومانغ ودُفن في باريس. تلك الإيماءة الدرامية من الأرملة التي لا عزاء لها هزت أوروبا كلها بالضحك. فمن دون شعرها الطويل الذي بلون خشب المهاجوني، والذي كانت تصففه من قبل على طريقة ربات الإغريق، كانت بولين لا تقاوَم، وسرعان ما صارت تسريحتها هي الرائجة. وصلت في ذلك اليوم مزينة بتاج من الماس بورغس الشهير يرافقها موريسيه.

ظن نابليون أن الزائر هو عشيق آخر من عشاق أخته واستقبله بوجه مكفهر، ولكنه أبدى اهتماماً على الفور عندما أخبرته بولين أن القراصنة قد هاجموا السفينة التي كان يسافر بها موريسيه عبر الكاريبي، وأنه ظل أسيراً عدة شهور بين يدي المدعو جان لافيت، إلى أن تمكن من دفع فدية والعودة إلى فرنسا. وخلال وجوده في الأسر أقام علاقة صداقة مع لافيت عمادها أدوار شطرنج. استجوب نابليون الرجل حول التنظيم الباهر الذي فرضه لافيت الذي يتحكم أسطوله بالبحر الكاريبي، ولا يمكن لسفينة أن تنجو منه باستثناء سفن الولايات المتحدة، لأن القرصان لا يهاجم الأمريكيين بسبب نزوة وفاء تجاههم.

اقتاد الإمبراطور موريسيه إلى أحد الصالونات، حيث أمضيا

ساعتين على انفراد. ربما يكون لافيت هو الحل لمعضلة تؤرقه منذ كارثة الطرف الأغر: كيف يمكن منع الإنكليز من السيطرة على التجارة البحرية. وبما أنه لا يملك قوة بحرية تكبحهم، فقد فكر في التحالف مع الأمريكيين الذين هم على خلاف مع بريطانيا العظمى منذ حرب الاستقلال عام ١٧٧٥، ولكن الرئيس جيفرسون يرغب في تعزيز أراضي بلاده ولا يفكر في التدخل في الخلافات الأوروبية. وفي ومضة وحي، مثل كثيرات غيرها قادته من صفوف الجيش المتواضعة إلى قمة السلطة، كلف نابليون إزيدور موريسيه بأن يجند قراصنة لمهاجمة السفن الإنكليزية في الأطلسي. فهم موريسيه أن الأمر يعني مهمة حساسة، لأنه لا يمكن للإمبراطور أن يظهر كحليف للقراصنة، واعتقد أنه يستطيع باستخدام غطاء رجل العلم أن يسافر دون أن يلفت الكثير من الانتباه. كان الأخوان جان وبيير لافيت قد أثريا دون عقاب خلال سنوات من غنائم هجماتهم وكل أنواع التهريب، ولكن السلطات الأمريكية لا تتسامح مع التهرب من الضرائب، وعلى الرغم من تعاطف لافيت المعلن مع ديمقراطية الولايات المتحدة، إلا أنهم اعتبروه خارجاً على القانون.

لم يكن جان مارتن روليه يعرف الرجل الذي سيرافقه عبر الأطلسي. ففي صباح يوم اثنين استدعاه مدير الأكاديمية العسكرية إلى مكتبه، وسلّمه نقوداً وأمره أن يشتري ملابس مدنية وصندوقاً، لأنه سيُبحر بعد يومين. «لا تتلفظ بكلمة حول هذا الأمر يا روليه، إنها مهمة سرية»، أوضح له المدير. انصاع الشاب الوفي لتربيته العسكرية دون أن يوجه أي سؤال. وقد عرف في ما بعد أنهم اختاروه لأنه أكثر التلاميذ تيقظاً في صف دراسة الإنكليزية، ولأنه يتحدر من المستعمرات، فقد قدّر المدير أنه لن يسقط صريعاً لدى تلقيه أول لسعة من بعوضة مدارية.

سافر الفتى بسرعة أنهكت الحصان حتى فرساي، حيث كان ينتظره إزيدور موريسيه وبطاقات السفر في يده. وحمد الله بصمت لأن الرجل لم يكد ينظر إليه، لأنه كان عصبياً يفكر في أنهما سيتقاسمان القمرة

الضيقة نفسها خلال الرحلة. ولم يكن هناك ما يجرح كبرياءه مثل التلميحات التي يوجهها إليه الرجال عادة.

ـ ألا ترغب في أن تعرف إلى أين سنذهب؟ ـ سأله موريسيه بعد أن مضت عليهما عدة أيام في أعالي البحر دون أن يتبادلا سوى بعض كلمات المجاملة.

ـ أنا أذهب إلى حيث تُرسلني فرنسا ـ ردّ روليه وهو يتأهب ويقدم التحية.

ـ لا أريد شيئاً من التحيات العسكرية أيها الشاب. إننا مدنيان، مفهوم؟

ـ حاضر.

ـ تكلم مثل الناس العاديين يا رجل، بالله عليك!

ـ مثلما تأمر يا سيدي.

وسرعان ما اكتشف جانٍ مارتن أن موريسيه قليل الكلام والمنفر في المجتمع، يمكن أن يكون رائعاً على انفراد. فالكحول يطلق لسانه ويجعله يسترخي إلى حدّ يبدو معه رجلاً آخر لطيفاً وساخراً وباسماً. كان لاعب ورق جيد، ولديه ألف قصة وحكاية رويها دون تجميل، وبعبارات قليلة. وما بين كأس كونياك وأخرى راحا يتعارفان وتولدت بينهما علاقة رفاقية حميمة.

ـ لقد دعتني بولين بونابرت ذات مرة إلى صالونها ـ روى له موريسيه ـ. زنجي من الأنتيل يكاد لا يرتدي سوى غطاء صغير حول وسطه جاء بها بين ذراعيه، وراح يساعدها على الاستحمام أمامي. وكانت بونابرت تتباهى بقدرتها على إغواء أي رجل، ولكنها لم تنجح معي.

ـ لماذا؟

ـ تضايقني بلاهة النساء.

ـ وهل تفضل بلاهة الرجال؟ ـ قال الشاب ساخراً، بشيء من الدلال؛ وكان قد شرب أيضاً بضع كؤوس ويشعر بالثقة.

ـ بل أفضل الخيول.

ولكن جان مارتن كان يهتم بالقراصنة أكثر من اهتمامه بفضائل الخيول أو استحمام بولين الجميلة، وتدبر الأمر مرة أخرى للعودةً إلى موضوع المغامرات التي عاشها صديقه الجديد عندما كان مخطوفاً في جزيرة باراتاريا. ولأن موريسيه كان يعرف أنه لا يمكن حتى للسفن الأوروبية الحربية أن تقترب من جزيرة الأخوين لافيت، فقد استبعد على الفور فكرة الذهاب إلى هناك دون دعوة منهما: فسوف يُذبحان قبل أن يصلا إلى الشاطئ، دون منحهما فرصة شرح الهدف من جسارتهما تلك. كما أنه لم يكن واثقاً من أن اسم نابليونٍ سيفتح له أبواب الأخوين لافيت؛ بل يمكن أن يحدث العكس تماما، ولهذا قرر التقرب منهما في نيو أورلينز، فهي أرض محايدة.

ـ الأخوان لافيت خارجان على القانون. لا أعرف كيف سنجدهما ـ قال موريسيه لجان مارتن.

ـ سيكون ذلك سهلاً جداً، لأنهما لا يختبئان ـ طمأنه الشاب.

ـ وكيف تعرف ذلك؟

ـ من خلال رسائل أمي.

حتى تلك اللحظة لم يكن قد خطر لروليه الإتيان علىٍ ذكر أن أمه تعيش في تلك المدينة، لأن الأمر بدا له تفصيلاً تافهاً بالمقارنة مع ضخامة المهمة التي أوكلها إليهما الإمبراطور.

ـ أمك تعرف الأخوين لافيت؟

ـ الجميع يعرفونهما، أنهما ملكا الميسيسيبي ـ أجاب جان مارتن.

في الساعة السادسة مساء كانت فيوليت بواسيير لا تزال تستريح عارية ومبللة بالمتعة في فراش سانتشو غارثيا دل سولار. فمنذ أن بدأت تيتي وروزيت تعيشان معها، وغزت بيتها تلميذات المتعة، صارت تفضل شقة عشيقها لممارسة الحب، أو لنوم القيلولة وحسب حين لا تكون معنوياتهما قادرة على ما هو أكثر من ذلك. لقد حاولت فيوليت في البدء تنظيف جو الشقة وتجميلها، ولكن كان ينقصها الميل إلى

العمل كخادمة، وكان من العبث إضاعة ساعات حميمة ثمينة في محاولة إصلاح فوضى سانتشو الهائلة. فالخادم المنزلي الوحيد لدى سانتشو لا ينفع في شيء سوى إعداد القهوة. وقد أعاره إياه فالموران، لأن بيعه مستحيل. وما كان يمكن لأحد أن يشتريه. فقد سقط عن سطح، وأصيب بخلل في عقله، وصار يتجول وهو يضحك بمفرده. وقد كانت أورتينس غيزو محقة في عدم قدرتها على تحمله. أما سانتشو فكان يعامله بتسامح، بل ويشعر بالمودة نحوه، بسبب نوعية قهوته ولأنه لا يسرق ما يتبقى من الفراطة عندما يذهب للشراء من السوق الفرنسي. ولكن فيوليت كانت تشعر بالقلق من الرجل: تظن أنه يتجسس عليهما وهما يمارسان الحب. فيطمئنها عشيقها: «إنها أوهامك يا امرأة. فهو غبي إلى حد لا يتيح له عقله عمل ذلك».

وفي تلك الساعة بالذات، كانت لولا وتيتي تجلسان على كرسيين من الخيزران في الشارع، قبالة البيت الأصفر، مثلما تفعل الجارات عند الغروب. وكانت نغمات تدريب على البيانو تعكر هدوء المساء الخريفي. كانت لولا تدخن سيجار تبغ أسود بعينين شبه مغمضتين، وتستمتع بالراحة التي تحتاج إليها عظامها، بينما تيتي تخيط قميصاً داخلياً لوليدها المنتظر. ولم يكن الحمل بادياً على بطنها بعد، ولكنها كانت قد أطلعت على خبر حبلها دائرة صداقاتها الضيقة، والوحيدة التي فوجئت هي روزيت المستغرقة في تأملاتها إلى حدّ لم تنتبه معه إلى غراميات أمها مع زاشاري. وهناك وجدهما جان مارتن روليه. لم يكن قد كتب رسالة تعلن عن رحلته لأن الأوامر تفرض الحفاظ على السرية، كما أنه ما كان يمكن للرسالة إلا أن تصل بعد وصوله.

لم تكن لولا تنتظر مجيئه، ولأن سنوات عديدة قد انقضت دون رؤيته، فإنها لم تتعرف إليه. وعندما توقف أمامها، اكتفت بأخذ مجةٍ أخرى من السيجار. «إنني جان مارتن!»، هتف الشاب منفعلاً. واحتاجت المرأة العجوز إلى بضع ثوان لتميزه من خلال الدخان وتدرك أنه بالفعل طفلها، أميرها، نور عينيها الهرمتين. هزت صرخات بهجتها

الشارع. عانقته من خصره، رفعته عن الأرض وغطته بالقبلات والدموع، بينما هو يحاول الدفاع عن كرامته بطرف قدميه. «أين هي ماما؟»، سألها فور تمكنه من التحرر واستعادة قبعته التي داسها على الأرض. «إنها في الكنيسة يا بني، تصلي على روح أبيك المتوفى. فلندخل إلى البيت، سأصنع لك قهوة، بينما تذهب صديقتي تيتي لاستدعائها»، أجابته لولا دون لحظة تردد واحدة. وانطلقت تيتي راكضة نحو شقة سانتشو.

حين دخلٍ جان مارتن إلى صالون البيت، رأى فتاة ترتدي ثوباً أزرق سماويا وتعزف على البيانو وهي تضع فنجاناً فوق رأسها. «انظري ما جاءنا يا روزيت! إنه صغيري جان مارتن!»، صاحت لولا معرفة به. فقطعت الفتاة تمريناتها الموسيقية والتفتت ببطء. تبادلا التحية، فعل هو ذلك بانحناءة متصلبة من رأسه مع ضرب كعبيه، كما لو أنه مازال يرتدي الزي العسكري، بينما رمشت هي بأهداب الزرافة التي لها. «أهلاً بك يا مسيو. لا يمر يوم إلا وتتكلم المدام ولولا عنك»، قالت روزيت باللباقة الاضطرارية التي تعلمتها عند الراهبات الأورسوليات. ولم يكن هناك ما هو أكثر صواباً من ذلك. فذكرى الفتى يطفو في البيت مثل شبح، ولكثرة ما سمعته روزيت صارت تعرفه.

تولت لولا رفع الفنجان عن رأس روزيت وذهبت لتصفي القهوة؛ ومن الفناء كانت تُسمع صرخات ابتهاجها. أما روزيت وجان مارتن اللذان جلسا على حافة كرسييهما، فراحا يوجهان نظرات اضطرارية مع الإحساس بأنهما تعارفا من قبل. وبعد عشرين دقيقة من ذلك، عندما كان جان مارتن يتناول قطعة الحلوى الثالثة، وصلت فيوليت لاهثة تتبعها تيتي. رأى جان مارتن أن أمه أكثر جمالاً مما يتذكرها، ولم يتساءل لماذا هي آتية من الصلاة في الكنيسة مشعثة الشعر وأزرار ثوبها مزررة بصورة سيئة.

ومن العتبة وقفت تيتي تتأمل ذلك الشاب المتضايق لأن أمه توالي

تقبيله قبلات سريعة دون أن تفلت يده بينما لولا تقرص خديه. كانت ملوحة رياح الرحلة البحرية قد زادت من سمرة جان مارتن عدة درجات، وسنوات الإعداد العسكري قد عززت تصلبه بوحي من الرجل الذي يظنه أباه. إنه يتذكر إيتيان روليه قوياً، صبوراً وقاسياً؛ ولكنه يكتنز كذلك الحنان الذي أغدقه عليه في حميمية البيت الصارمة. أما أمه ولولا، فعاملتاه على الدوام كما لو أنه طفل، ويبدو أنهما مازالتا تفعلان ذلك. ومن أجل التعويض عن جمال وجهه، كان يبالغ على الدوام في الحفاظ على التزام البعد، واتخاذ موقف جليدي وإبداء ملامح متحجرة مثلما هي حال العسكريين عادة. لقد تحمّل في الطفولة خطأ الناس في الظن أنه طفلة، وفي المراهقة كان زملاؤه يسخرون منه أو يقعون في حبه. تلك المداعبات أمام روزيت والمرأة الخلاسية التي لم يعرف اسمها، أشعرته بالحرج. لم يلفت نظر تيتي أن لجان مارتن الملامح نفسها التي لروزيت، لأنها كانت تفكر على الدوام في أن ابنتها تشبه فيوليت بواسيير، وقد ازداد ذلك الشبه خلال شهور التدرب لحفلة المتعة حيث صارت الفتاة تنافس معلمتها.

وفي أثناء ذلك كان موريسيه قد ذهب إلى ورشة الحدادة في شارع سان فيليب، لأنه تحرى وعلم أنها ستار للتغطية على نشاطات قرصنة، ولكنه لم يجد من يبحث عنه. وكان يفكر في ترك ملاحظة لجان لافيت يطلب منه فيها موعداً ويذكّره بالعلاقة التي ربطت بينهما قبالة رقعة الشطرنج، ولكنه أدرك أن ذلك سيكون خطأً فاحشاً. إنه يمارس الجاسوسية متنكراً كعالم منذ حوالي ثلاثة شهور ولم يعتد بعد على الحذر الذي تتطلبه مهمته، ففي مرتين من كل ثلاث يفاجئ نفسه على وشك اقتراف تهور. وفي ما بعد، في ذلك اليوم بالذات، عندما عرّفه جان مارتن على أمه، بدا له حذره مضحكاً، لأنها عرضت عليه بصورة طبيعية تماماً أن تأخذه إلى حيث القراصنة. كانا في صالون البيت الأصفر الذي يضيق بأفراد الأسرة ومن جاؤوا للتعرف على جان مارتن: الدكتور بارمونتيه، آديل، سانتشو، واثنان من الجيران.

ـ أعرف أنهم وضعوا ثمناً لرأس لافيت ـ قال الجاسوس.
ـ هذه شؤون أمريكية يا مسيو موريست! ـ ضحكت فيوليت.
ـ بل مسيو موريسيه يا مدام.
ـ الأخوان لافيت يلقيان تقديراً كبيراً لأنهما يبيعان بأسعار رخيصة. ولا يمكن أن يخطر لأحد الوشاية بهما من أجل الخمسمئة دولار المعروضة مقابل رأسيهما ـ تدخل سانتشو غارثيا دل سولار.
وأضاف أن بيير مشهور بالفظاظة، ولكن جان رجل محترم من رأسه حتى قدميه، متودد مع النساء، ومهذب مع الرجال، يتكلم خمس لغات، ويكتب بأسلوب منمق، ويبالغ في كرم الضيافة. إنه شخص ثمين بكل المعايير، ورجاله الذين يبلغ عددهم قرابة الثلاثة آلاف لا يتورعونٍ عن الموت من أجله.
ـ غداً يوم السبت، وسيقام مزاد. أترغب في الذهاب إلى **المعبد**؟ ـ سألته فيوليت.
ـ هل قلت **المعبد**؟
ـ إنهم يقيمون مزاداتهم هناك ـ أوضح بارمونتيه.
ـ إذا كان الجميع يعرفون مكان وجودهم، لماذا لم يجر اعتقالهم؟ ـ تدخل جان مارتن.
ـ لا أحد يتجرأ على ذلك. كلايبورن طلب تعزيزاتٍ، لأن هؤلاء الرجال مرهوبين، قانونهم هو العنف وهم أفضل تسليحاً من الجيش.
في اليوم التالي خرجت فيوليت وموريسيه وجان مارتن في نزهة مزودين بوجبة طعام وزجاجتي نبيذ في سلة. وقد تدبرت فيوليت أمر إبقاء روزيت في البيت بحجة تمارين البيانو، لأنها لاحظت أن جان مارتن ينظر إليها بكثرة، وواجبها كأم يتمثل في منع أي أوهام غيرٍ مناسبة. فروزيت هي أفضل تلميذة لديها، ولكنها غير مناسبة تماما لابنها، وهي بحاجة لأن تدخل إلى ***السوسييته دي كوردون بلو*** عن طريق زواج جيد. إنها تفكر في أن تختار كنتها بحس واقعي لا تشوبه شائبة، دون أن تتيح لجان مارتن فرصة ارتكاب أخطاء عاطفية. وقد

انضمت إلى الرحلة تيتي التي صعدت إلى الزورق في اللحظة الأخيرة مع بعض التحفظ، لأنها تعاني نوبات الغثيان المعهودة في الشهور الأولى من حملها، ولأنها تخشى التماسيح، والثعابين التي تجتاح الماء وتلك التي تسقط عادة عن أشجار المانغلي التي تنمو وسط الماء. كان يقود الزورق الهش مجذف قادر على التوجه بعينين مغمضتين في تلك المتاهة من القنوات والجزر والمستنقعات الغارقة دوماً في أبخرة نتنة وسحابة من البعوض، وهي منطقة مثالية للصفقات غير الشرعية والخيانات المتخيلة.

ابن الزنا

تبين أن **المعبد** هو جزيرة صغيرة في مستنقعات الدلتا، رابية كاملة من أصداف مطحونة عبر الزمن مع غابة من أشجار البلوط، وقد كانت في القديم مكاناً مقدساً للهنود، ومازالت فيها بقايا أحد معابدهم، ومن هنا جاءت التسمية. كان الأخوان لافيت قد وصلا منذ الصباح الباكر، كما في كل يوم سبت على مدار السنة، اللهم إلا إذا تصادف يوم السبت مع عيد الميلاد أو يوم صعود العذراء. وكانت تصطف على الضفة سفن قليلة العمق، ومراكب صيادين، وزوارق صغيرة، ومراكب خاصة مزودة بمظلات للسيدات، ومراكب غير متقنة الصنع تُستخدم في نقل البضائع.

كان القراصنة قد نصبوا عدة خيام من قماش مشمع ليعرضوا فيها كنوزهم ويوزعوا مجاناً كؤوس ليمونادة للسيدات وخمر الروم الجاميكي للرجال وقطع حلوى للأطفال. كان الهواء يعبق برائحة المياه الراكدة وجراد البحر المقلي بالفلفل الحار الذي يُقدم على أوراق ذرة. وكانت تسود المكان أجواء كرنفال، مع موسيقى، وبهلوانات، ومروض كلاب. وعلى إحدى المنصات الخشبية كانوا يعرضون للبيع أربعة عبيد كبار وطفل عارٍ في السنة الثانية أو الثالثة من العمر. وكان المهتمون يتفحصون أسنانهم ليقدروا أعمارهم، وبياض عيونهم للتأكد من صحتهم، وفتحات شرجهم للتأكد من أنها ليست مسدودة بألياف قنب، وهي أكثر الخدع شيوعاً لإخفاء الإصابة بالإسهال. وكانت سيدة ناضجة، تضع قبعة مخرمة، تروز بيدها ذات القفاز الأعضاء الجنسية لأحد أولئك الرجال.

بدأ بيير لافيت المزاد على بضائعة التي تبدو للوهلة بعيدة عن أي منطق، وكما لو أنها منتقاة لسبب وحيد هو إرباك الزبائن؛ فهناك ركام

من المصابيح الزجاجية، وأكياس البن، والملابس النسائية، والأسلحة، والجزمات، والتماثيل البرونزية، والصابون، والغلايين وشفرات الحلاقة، وأباريق شاي فضية، وأكياس فلفل وقرفة، وأثاث، ولوحات، وفانيلا، وأقداح قربان وشمعدانات كنائس، وصناديق نبيذ، وقرد مروض وببغاوين. لا أحد ينصرف دون شراء شيء، لأن الأخوين لافيت يعملان أيضاً كمصرفيين ومرابيين. وكل مادة لديهم هي قطعة فريدة، كما يعلن بيير بملء رئتيه، ولا بد أن تكون كذلك، لأنها حصيلة هجمات مسلحة في أعالي البحار على سفن تجارية. «انظروا أيها السيدات والسادة، هذه فازة خزفية جديرة بأن توضع في قصر ملكي!» «وكم ستدفعون ثمناً لهذه العباءة المصنوعة من البروكار مع حواشٍ من فراء النمس؟» «لن تتكرر مثل هذه الفرصة!». وكان الجهور يرد بالمزاح والصفير، ولكن العروض تتصاعد بمنافسة مسلية يعرف بيير كيف يستغلها.

وفي أثناء ذلك كان جان لافيت الذي يرتدي السواد، مع معصمينٍ وياقة من الدانتيلا، ومسدسين في حزامه، يتمشى بين الحشود مغرياً الحذرين بابتسامته السهلة ونظرته الغامضة التي كنظرة ساحر ثعابين. حيا فيوليت بواسيير بانحناءة مسرحية وردت هي على تحيته بقبلتين على الخدين كصديقين قديمين توصلا إلى أن يكونا كذلك بعد سنوات عديدة من الصفقات والخدمات المتبادلة.

ـ بماذا يمكنني أن أفيد السيدة الوحيدة القادرة على سرقة قلبي؟ ـ سألها جان.

ـ لا تهدر مغازلاتك عليّ يا صديقي العزيز، لأنني لم أحضر هذه المرة للشراء ـ ضحكت فيوليت مشيرة إلى موريسيه الذي ظل وراءها على بُعد أربع خطوات.

تأخر جان لافيت لحظات قبل التعرف إليه، وقد خدعته ملابس الكشاف التي يرتديها، والوجه الحليق والنظارة ذات العدستين السميكتين، لاسيما وأنه تعرف عليه حين كان له شارب وسالفين

طويلين.
ـ موريسيه؟ أهذا أنت حقاً! ـ هتف أخيراً وهو يربت على ظهره.
تلفت الجاسوس بقلق في ما حوله، وأنزل القبعة حتى حاجبيه. فمن غير المناسب له أن تصلٍ مثل مظاهر المودة الصريحة تلك إلى الحاكم كلايبورن، ولكن أحداً لم يلتفت إليه، لأن بيير كان في تلك اللحظة ينهي مزاداً على حصان عربي يطمع فيه كل الرجال. قاده جان لافيت إلى إحدى الخيام، حيث تمكنا من التحدث على انفراد والتبرد بتناول نبيذ أبيض. أطلعه الجاسوس علىٍ عرضٍ نابليون: براءة قرصنة، *إذن بالثأر*، وهو ما يعادل تصريحاً رسمياً بمهاجمة سفن أخرى، مقابل إغاظة الإنكليز. ردّ لافيت بلطف أنه لا يحتاج في الحقيقة إلى إذن لمواصلة عمل ما فعله على الدوام، وأن الإذن بالثأر سيكون عقبة، لأنه يعني الامتناع عن مهاجمة السفن الفرنسية، وما ينتج عن ذلك من خسائر.
ـ ستصبح نشاطاتكم شرعية. لن تكونوا قراصنة منبوذين وإنما قراصنة شرعيين، وهو ما سيجعلكم مقبولين أكثر لدى الأمريكيين ـ تعلل موريسيه.
ـ الشيء الوحيد الذي يمكن له أن يبدل وضعنا مع الأمريكيين هو دفع الضرائب، ونحن بصراحة لم ندرس هذا الاحتمال بعد.
ـ ولكن براءة القرصنة ثمينة...
ـ ستكون ثمينة إذا استطعنا الإبحار تحت راية فرنسية.
شرح له موريسيه قليل الكلام أن ذلك غير متضمن في عرض الإمبراطور، وأنه عليهم مواصلة استخدام راية كارتاخينا، ولكنهم سيتمتعون بعدم العقاب، ويمكن لهم اللجوء إلى الأراضي التي تحت السيطرة الفرنسية. لقد كانت كلمات من أطول ما نطق به منذ زمن طويل. وقد وافق لافيت على التشاور في الأمر، لأن هذه المسائل تقر بالتصويت بين رجاله.
ـ ولكن صوتك وصوت أخيك وحدهما يحسمان الأمر في النهاية ـ

قال موريسيه.

ـ إنك مخطئ. فنحن أكثر ديمقراطية من الأمريكيين، وأكثر بكثير في الحقيقة من الفرنسيين. ستحصل على الجواب بعد يومين.

وفي الخارج، كان بيير لافيت قد بدأ المزاد على العبيد، وهو أكثر مزاد منتظر في السوق، وكانت ضجة المزايدات تتصاعد. المرأة الوحيدة في الصفقة كانت تشد الطفل إلى جسمها وتتضرع إلى اثنين من المشترين ألا يفرقوا بينهما، وأن طفلها ذكي ومطيع. كانت تقول ذلك بينما بيير يصفها بأنها ولود جيدة، وأنها أنجبت عدة مواليد ومازالت خصبة جداً. كانت تيتي تراقب بأمعاء مختلطة وبصرخة مخنوقة في فمها، مفكرة في الأبناءٍ الذين فقدتهم تلك المرأة عاثرة الحظ ومدى دناءة أن يكون المرء نخاساً. وعلق أحدهم أن العبيد جيء بهم من هايتي، وتم تسليمهم مباشرة للأخوين لافيت عن طريق وكيل لديسالين الذي يمول بتلك الطريقة أسلحته ويثري في أثناء ذلك من بيع مِن قاتلوا معه من أجل الحرية. وفكرت تيتي في أن غامبو سينفجر غضباً لو أنه رأى ذلك.

عندما كانت صفقة البيع على وشك أن تتم، سُمع صوتٍ أوين مورفي الأجش الذي لا يمكن الخطأ فيه يعرض خمسين دولارا إضافية مقابل المرأة ومئة دولار أخرى مقابل الطفل. انتظر بيير مرور الدقيقة النظامية، وحين لم يزد أحد على السعر، صرخ أن العبدين كليهما صارا ملكاً للزبون ذي اللحية السوداء. سقطت المرأة على المنصة شبهٍ منهارة من الراحة، دون أن تفلت ابنها الذي كان يبكي مذعورا. أمسكها أحد مساعدي بيير لافيت من ذراعها وسلّمها إلى أوين مورفي.

ابتعد الايرلندي باتجاه المراكب تتبعه العبدة والطفل، وحين خرجت تيتي من ذهولها، ركضت وراءهم وهي تناديه. حياها دون إفراط في المظاهر العاطفية، ولكن ملامحه كشفت عن إحساسه بالسعادة لرؤيتها. أخبرها أن ابنه الأكبر براندين قد تزوج بين ليلة وضحاها وسيحوّله إلى جدّ عما قريب. وحدثها كذلكٍ عن الأرض التي يشتريها في كندا، حيث يفكر في الانتقال قريباً جداً مع أسرته كلها، بمن في ذلك براندين

وزوجته، للبدء في حياة جديدة.

ـ أظن أن المسيو فالموران لن يوافق على ذهابك ـ علقت تيتي.

ـ منذ زمن ومدام أورتينس ترغب في استبدالي. فأفكارنا مختلفة ـ أجاب مورفي ـ. سوف تتضايق لأني اشتريت هذا الطفل، ولكنني عملت حسب القانون. فهو ليس في سن تسمح بفصله عن أمه.

ـ لا وجود هنا لقوانين صالحة يا سيد مورفي. فالقراصنة يفعلون ما يحلو لهم.

ـ ولهذا لا أحب التعامل معهم، ولكنني لستُ من يقرر يا تيتي ـ أخبرها الايرلندي وهو يشير من بعيد إلى تولوز فالموران.

كان يقف بعيداً عن الحشود، يتبادل الحديث تحت شجرة بلوط مع فيوليت بواسيير التي تحتمي من الشمس بمظلة يابانية، بينما هو يستند إلى عكاز ويمسح العرق بمنديل. تراجعت تيتي، ولكن بعد فوات الأوان، فقد رآها ووجدت نفسها مضطرة إلى الاقتراب. ولحق بها جان مارتن الذي كان ينتظر موريسيه بالقرب من خيمة لافيت، وبعد قليل اجتمعوا كلهم تحت ظل شجرة البلوط الشحيح. حيّت تيتي سيدها القديم دون النظر إليه مباشرة، ولكنها استطاعت أن تلاحظ أنه أكثر بدانة وحمرة. وأسفت لأن الدكتور بارمونتيه هو من يتصرف بالأدوية التي تحضّرها هي نفسها من أجل تهدئة الدم. فهذا الرجل قادر على أن يقوض بضربة عكاز واحدة حياتها وحياة روزيت المزعزعة. ومن الأفضل له أن يكون في المقبرة.

كان فالموران يصغي إلى تقديم فيوليت بواسيير لابنها. تأمل جان مارتن من أعلى إلى أسفل مقدراً قامته الرشيقة، والأناقة التي تبدو بها بدلته متواضعة الصنعة، وتناسب وجهه التام. حياهِ الشاب بانحناءة تحترم فارق الطبقة والسن، ولكن الآخر مدّ إليه يداً ممتلئة، ملطخة ببقع ضاربة إلى الصفرة، فاضطر إلى مصافحتها. استبقى فالموران اليد بين يديه أكثر بكثير مما هو مقبول، وكان يبتسم بملامح عصية على التفسير. أحس جان مارتن بالحياء الحار في خديه وانتزع يده بخشونة. لم

تكن تلك هي أول مرة يُلَمّح فيها رجلٌ إليه، وكان يعرف كيف يتدبر ذلك النوع من الخجل دون غضب، ولكن سفاهة ذلك *المثلي* بدت له مهينة وأخجله أن أمه شاهدة على المشهد. وقد كان صده جلياً إلى حدّ انتبه معه فالموران نفسه إلى أن حركته أُسيء تفسيرها، ولكن ذلك لم يضايقه، بل ضحك مقهقهاً وهتف بمرح:

ـ أرى أن ابن العبدة هذا قد خرج حساساً سريع الاستياء!

سقط صمت ثقيل بين الجميع بينما كانت تلك الكلمات تُنشب أظفار نسر في الحاضرين. أصبح الهواء أشد حراً، والضوء أشد إبهاراً، ورائحة السوق أشد نتانة، وصخب الحشود أشد كثافة، ولكن فالموران لم يلحظ التأثير الذي أحدثه.

ـ ماذا قلت؟ ـ تمكن جان مارتن من القول بشحوب بعد أن استرد قدرته على الكلام.

أمسكته فيوليت من ذراعه وحاولت سحبه من هناك، ولكن الشاب تخلص منها ليواجه فالموران. رفع يده، بحكم العادة، إلى وركه حيث يجب أن يكون مقبض سيفه لو أنه يرتدي زيه العسكري.

ـ لقد أهنتَ أمي! ـ هتف بغضب.

ـ لا تقولي لي يا فيوليت أن هذا الفتى يجهل أصله ـ علق فالموران بالنبرة الساخرة السابقة.

لم تجبه المرأة. كانت قد أفلتت مظلتها التي تدحرجت على الأرض الصدفية، وأطبقت فمها بكلتا يديها، بينما جحظت عيناها.

ـ إنك مدين لي بتكفير عن الإهانة يا مسيو. سأراك في حدائق سان أنطوان مع شاهديك خلال مهلة أقصاها يومين، لأنني سأغادر في اليوم الثالث عائداً إلى فرنسا ـ قال له جان مارتن وهو يمضغ كل حرف من كلماته.

ـ لا تكن مضحكاً يا بني. لن أدخل مبارزة مع شخص من طبقتك. ما قلته لك هو الحقيقة. اسأل أمك عنه ـ أضاف فالموران مشيراً بعكازه إلى المرأتين قبل أن يدير ظهره ويبتعد دون تسرع باتجاه المراكب، مترنحاً

على ركبتيه المتورمتين، كي ينضم إلى أوين مورفي.

حاول جان مارتن اللحاق به وفي نيته تهشيم وجهه باللكمات، ولكن فيوليت وتيتي تشبثتا بثيابه. وفي تلك اللحظة وصل إزيدور موريسيه الذي رأى سكرتيره يصارع المرأتين وقد احمر غضباً، فثبته باحتضانه من الخلف. وتمكنت تيتي من أن تختلق على الفور أن شجاراً نشب بينهم وبين أحد القراصنة، وأنه عليهم الذهاب حالاً. وقد وافق الجاسوس على ذلك ـ فهو لا يريد تعريض مفاوضاته مع لافيت للخطر ـ وأمسك الشاب بيدي الحطاب اللتين له واقتاده، تتبعه المرأتان، إلى حيث ينتظرهم المجذف ومعه سلة الطعام الذي لم يُمس.

وضع موريسيه القلق ذراعه على كتفي جان مارتن في حركة أبوية وحاول التحري عما حدث، ولكن الأخير تخلص منه وأدار له ظهره مصوباً نظره إلى الماء. لم يتكلم أحد خلال أكثر من ساعة ونصف الساعة أمضوها مبحرين في متاهة المستنقعات تلك حتى الوصول إلى نيو أورلينز. توجه موريسيه وحيداً إلى الفندق. ولم ينصع سكرتيره للأمر بمرافقته ولحق بفيوليت وتيتي إلى شارع شارت. ذهبت فيوليت إلى حجرتها، أغلقت الباب وألقت بنفسها على السرير لتبكي حتى آخر دمعة، بينما جان مارتن يذرع الفناء جيئة وذهاباً مثل أسد، منتظراً أن تهدأ كي يستجوبها. وفي أثناء ذلك طالب مربيته السابقة: «ماذا تعرفين عن ماضي أمي يا لولا؟ عليكِ أن تخبريني!». لم تعلم لولا بما جرى في المعبد، وظنت أنه يشير إلى الفترة المجيدة التي كانت فيها فيوليت أشهر مومس في لوكاب وكان اسمها يدور على أفواه قباطنة السفن في بحار بعيدة، وهو أمر لم تفكر في أن تقوله لصغيرها، لأميرها، مهما صرخ بها. فقد سعت فيوليت جاهدة لمحو أثر ماضيها في سان دومانغ ولن تكون هي، لولا الوفية، من تخون السر.

عند الغروب، حين لم يعد يُسمع البكاء، حملت تيتي لفيوليت شراباً من أجل آلام الرأس، وساعدتها على خلع ملابسها، وسرحت عش الدجاج الذي تحولت إليه تسريحة شعرها، ورشتها بماء الورد،

وألبستها قميصاً رقيقاً ثم جلست إلى جانبها على السرير. وفي عتمة الستائر المسدلة على النوافذ تجرأت على التكلمِ إليها بالثقة التي تنامت يوماً فيوماً خلال سنوات عيشهما وعملهما معاً.

ـ ليس الأمر بهذه الخطورة يا مدام. تصرفي كما لو أن تلك الكلمات لم تُقل قطّ. لن يكررها أحد، ويمكنك أنت وابنك أن تواصلا العيش كالعادة ـ قالت لها مواسية.

لقد افترضت أن فيوليت بواسيير لم تولد حرة، مثلما أخبرتها ذات يوم، وإنما كانت في صباها عبدة. لا يمكنها تجريمها لإخفائها ذلك. وخمنت أنها قد تكون أنجبت جان مارتن قبل أن يعتقها روليه ويجعلها زوجة له.

ـ ولكن جان مارتن صار يعرف! لن يسامحني على خداعي له ـ أجابت فيوليت.

ـ ليس من السهل على إحدانا تقبل أنها كانت عبدة يا مدام. ولكن المهم أنكما كلاكما الآن حران.

ـ أنا لم أكنٍ عبدة يا تيتي. ولكن المسألة في أنني لستُ أمه. لقد ولد جان مارتن عبداً وزوجي اشتراه. والوحيدة التي تعرف ذلك هي لولا.

ـ وكيف عرف مسيو فالموران بالأمر؟

عندئذ أخبرتها فيوليت بواسيير بالظٍروف التي تلقت بها الطفل، وكيف جاء فالموران ومعه الوليد ملفوفاً ببطانية ليطلب منها أن تعنى به لبعض الوقت، وكيف انتهى الأمر بها وبزوجها إلى تبنيه. لم يتحريا عن منشئه، ولكنهما تصورا أنه ابن فالموران من إحدى عبداته. لم تعد تيتي تسمعها، لأنها تعرف بقية القصة. لقد أعدت نفسها في آلاف ليالي الأرق من أجل هذا الكشف، عندما ستعرف أخيراً مصير الابن الذي انتزعه فالموران منها؛ ولكنها الآن بعد أن صار الابن في متناول يدها لم تشعر بأي وميض من السعادة، ولا بنحيب محبوس في صدرها، ولا بموجة حنان لا تُقاوم، ولا بدافع إلى الركض لمعانقته، وإنما ضجيج أصم في أذنيها، مثل ضجة عربة على غبار الدرب. أغمضت عينيها

واستحضرت صورة الشاب في الظلمة، وفوجئت بأنها لم تلمح أي إشارة إلى الحقيقة؛ غريزتها لم تنبهها إلى أيٍ شيء، حتى عندما لاحظت شبهه بروزيت. نبشت في مشاعرها بحثاً عن حب أموي عميق القرار تعرفه جيدا، ولكنها لم تجد سوى راحة النفس. لقد ولد ابنها بنجم طيب، نجم لامع، لهذا وقع بين أيدي الزوجين روليه ولولا الذين دللوه وعلموه، لهذا أورثه الضابط العسكريٍ أسطورة حياته، وتعمل فيوليت دون راحة كي تضمن له مستقبلاً جيداً. ابتهجت دون أي أثر للغيرة، لأنه ما كان بإمكانها أن تقدم له شيئاً من ذلك.

ضغينتها ضد فالموران، تلك الصخرة السوداء والقاسية التي حملتها تيتي مغروسة في صدرها على الدوام، أخذت بالتضاؤل، والرغبة في الانتقام من السيد تلاشت في الامتنان لمن اعتنى بابنها جيداً. ولم يكن عليها أن تفكر طويلاً في المعلومات التي تلقتها للتو، لأن الامتنان هو الذي أملى عليها. ما الذي ستكسبه بإعلانها في الرياح الأربع أنها أم جان مارتن ومطالبتها بعاطفة يبين العدل أنها من حق امرأة أخرى؟ اختارت أن تعترف بالحقيقة لفيوليت بواسيير، دون التوسع في المعاناة التي أثقلت عليها كثيراً في ما مضى، لأن تلك الآلام قد خفت في السنوات الأخيرة. والشاب الذي يتمشى الآن في الفناء هو شخص مجهول بالنسبة إليها.

بكت المرأتان لوقت طويل وكل منهما تمسك بيد الأخرى، متحدثتين بتيار حساس من التعاطف المتبادل. وأخيراً نفدت الدموع وتوصلتا إلى أن ما قاله فالموران غير قابل للمحو، ولكنهما ستحاولان التخفيف من وقعه على جان مارتن. لماذا القول للشاب إن فيوليت ليست أمه، وأنه ولد عبداً، ابن زنا من رجل أبيض، وبيع بعد ذلك؟ من الأفضل أن يظل مصدقاً ما قاله فالموران، لأنه الحقيقة في الجوهر: أمه كانت عبدة. ولا حاجة به لأن يعرف كذلك أن فيوليت كانت مومساً أو أن روليه كان مشهوراً بالقسوة. وسيعتقد جان مارتن أن فيوليت قد أخفت عنه وصمة العبودية كي تحميه، ولكنه سيظل فخوراً

بأنه ابن آل روليه. وبعد يومين سيعود إلى فرنسا وإلى مسيرته في الجيش، حيث الأحكام المسبقة حول أصله أقل أذى مما هي عليه في أميركا أو في المستعمرات، وحيث يمكن لكلمات فالموران أن تُرمى إلى ركن منسي من الذاكرة.

ـ فلندفن هذا الأمر إلى الأبد ـ قالت تيتي.

ـ وماذا سنفعل بتولوز فالموران؟ ـ سألتها فيوليت.

ـ اذهبي لمقابلته يا مدام. أوضحي له أنه من غير المناسب له إذاعة بعض الأسرار، لأنكِ أنت نفسك ستتولين جعل زوجته والمدينة بأسرها تعلم أنه أبو جان مارتن وروزيت.

ـ وأنه يمكن لأبنائه أيضاً أن يطالبوا بنسب آل فالموران وبحصة من الميراث ـ أضافت فيوليت بغمزة ماكرة.

ـ أهذا صحصح؟

ـ لا يا تيتي، ولكن الفضيحة ستكون أخلاقية لفالموران.

الخوف من الموت

كانت فيوليت بواسيير تعرف أن حفلة رقص *الكوردون بلو* ستكون نموذجاً لحفلات الرقص المستقبلية وعليها أن تُقر منذ البدء الاختلاف عن الحفلات الأخرى التي تقيمها المدينة عادة منذ شهر تشرين الأول حتى نيسان. جرى تزيين المحل الفسيح دون الالتفات إلى النفقات. أعدوا شرفات للموسيقيين، ووضعوا مناضد عليها شراشف من الكتان المطرز وآرائك من القطيفة للأمهات والوصيفات، حول حلبة الرقص. وأقاموا ممرا مرتفعا مغطى بالسجاد لدخول الفتيات الاستعراضي إلى الصالة. وفي يوم العرض نظفوا قنوات الشارع وغطوها بألواح خشبية، وأشعلوا مصابيح ملونة وهيجوا الحي بموسيقيين وراقصين زنوج، كما في الكرنفال. ومع ذلك كانت الأجواء داخل الصالة بسيطة جدا.

في بيت آل فالموران، في مركز المدينة، كانت تُسمع أصداء موسيقى الشوارع البعيدة، غير أن أورتينس غيزو، مثل جميع النساء البيض في المدينة، تظاهرت بعدم سماعها. كانت تعرف سببها، لأنه لم يكن هناك من حديث آخر منذ عدة أسابيع. وكانت قد تناولت العشاء للتو وجلست تطرز في صالون البيت محاطة ببناتها، جميعهن شقراوات ومتوردات مثلما كانت هي من قبل، يلعبن بالدمى، بينما الصغرى تنام في مهدها. ولكنها الآن مستنزفة من الأمومة، تستخدم صباغا أحمر للخدين، وتضع عقيصة شعر مستعار أصفر تقوم عبدتها دينس بخلطه بشعرها الذي بلون القش. كان العشاء مؤلفاً من حساء، وطبقين رئيسيين، وسلطة، وجبن وثلاثة أصناف من الحلوى، لا شيء من المبالغة في التعقيد، لأنها كانت وحدها. فبناتها لا يجلسن بعد إلى المائدة، وكذلك زوجها الذي يتبع نظام حمية صارماً ويفضل عدم الوقوع في الغواية. فقد حملوا إليه رزاً وفروجاً مسلوقاً في المكتبة، حيث

ينفذ أوامر الدكتور بارمونتيه الصارمة. وفضلاً عن جوعه الاضطراري، كان عليه المشي لمسافات طويلة وحرمان نفسه من تناول الكحول والسيجار والقهوة. وكان يمكن له أن يموت من الضجر لولا صهره سانتشو الذي اعتاد على زيارته كل يوم ليطلعه على الإشاعات، ويبهجه بمزاجه الطيب، ويفوز عليه بلعب الورق والدمينو.

أما الدكتور بارمونتيه الذي يكثر من الشكوى من توعكات قلبه، فلم يكن يتبع نظام حمية مترهب كالذي يفرضه على مرضاه، لأن سانت ديدي، كاهنة ديانة الفودو في ساحة الكونغو، قرأت له مستقبله برمي القواقع، ورأت في نبوءتها أنه سيعيش حتى التاسعة والثمانين. «أنت أيها الأبيض، ستطبق عيني القديس الأب أنطونيو عندما يموت في العام ١٨٢٩». طمأنه ذلك القول على صحته، ولكنه ولّد فيه غم أنه سيفقد في حياته الطويلة أعز الكائنات إليه، مثل آديل وربما أحد أبنائه.

أول إنذار بأن شيئاً غير طبيعي قد ألمَّ بفالموران كان خلال الرحلة إلى فرنسا. فبعد زيارة أمه التسعينية وأختيه العانسين، ترك موريس في باريس وأبحر نحو نيو أورلينز. وفي السفينة شعر عدة مرات بالإنهاك، فكان يعزو ذلك إلى تلاطم الأمواج، والإفراط في تناول النبيذ، وسوء نوعية الطعام. وعند وصوله، شخّص صديقه بارمونتيه أن لديه ارتفاع في الضغط، واضطراب في النبض، وسوء هضم، وزيادة في إفرازات المرارة، وغازات، وسوائل نتنة، وخفقان في القلب. وأخبره دون مواربة أنه عليه أن يخفض وزنه ويبدل نظام حياته وإلا فإنه سينتهي إلى الرقود في ضريحه في مقبرة سان لويس قبل انقضاء عام. أُصيب فالموران بالذعر وخضع لمطالب الطبيب واستبداد زوجته التي تحولت إلى سجانة بحجة العناية به. ولجأ، على سبيل التحسب، إلى «أطباء الأعشاب» والسحرة الذين طالما سخر منهم، إلى أن اضطره الذعر إلى تغيير رأيه. وفكر في أنه لن يخسر شيئاً بالتجريب. حصل على تميمة، وأقام في

حجرته مذبحاً وثنياً، وصار يشرب أشربة من المحال تحديد كنهها تجيء له بها سيلستين من السوق، كما قام برحلتين ليليتين إلى جزيرة صغيرة في المستنقعات كي تطهره سانت ديدي بدخان تبغها وتعاويذها السحرية. لم يكن بارمونتيه يرى في الكاهنة منافسة له، وفياً بذلك لفكرته عن أن للذهن قدرة على العلاج، ومادام المريض يثق بالسحر فلا مسوغ لإنكاره عليه.

أما موريس الذي بقي في فرنسا للعمل في وكالة لاستيراد السكر، حيث سعى فالموران لتوظيفه كي يتدرب على هذا المظهر من أعمال الأسرة، فقد أبحر في أول سفينة متوافرة حين علم بمرض أبيه، ووصل إلى نيو أورلينز في نهاية شهر تشرين الأول. وجد فالموران متحولاً إلى ذئب بحر متضخمٍ يقبع على أريكة إلى جوار المدفأة، وعلى رأسه طاقية محاكة يدوياً، وشال على ساقيه، وصليب خشبي ورقية قماشية حول عنقه، في حالة متردية جداً بالمقارنة مع الرجل المتغطرس والمبذر الذي أراد أن يريه حياة التهتك الباريسية. اندس إلى جوار أبيه الذي ضمه في احتضانة مرتعشة. «ها أنتذا تصل أخيراً يا بني، الآن يمكنني أن أموت مطمئناً»، قال متلعثماً. «دعك من قول الحماقات يا تولوز»، قاطعته أورتينس غيزو التي كانت تراقبه مستاءة. وكانت على وشك أن تضيف أن موته لم يحن بعد، للأسف، ولكنها كبحت نفسها في الوقت المناسب. لقد أمضت ثلاثة شهور وهي تعنى بزوجها، وقد نفد صبرها. ففالموران يضايقها طوال النهار ويوقظها في الليل بكوابيس متتالية عن شخص يدعى لاكروا، يظهر له حياً ومجرجراً جلده على الأرض كأنه قميص دام.

استقبلت زوجة الأب موريس بجفاء وحيّته أخواته باحترام مهذب محافظات على مسافة حذر، لأنه لم تكن لديهن فكرة عمن هو ذلك الأخ الذي لا يرد ذكره إلا نادراً في الأسرة. أكبر الأخوات الخمس، وهي الوحيدة التي عرفها موريس قبل أن تتعلم المشي، كانت في الثامنة من العمر، وأصغرهن كانت ما تزال بين ذراعي المرضعة. ولأن

البيت كان أصغر من أن يتسع للأسرة والخدم، فقد أقام موريس في شقة خاله، وهو حلّ مثالي للجميع باستثناء تولوز فالموران الذي يرغب في إبقائه إلى جانبه ليقدم له النصائح وينقل إليه إدارة ممتلكاته. كان ذلك آخر ما يتمناه موريس، ولكن الوقت لم يكن مناسباً لمخالفة أبيه.

في ليلة الحفل الراقص لم يتناول سانتشو وموريس العشاء في بيت آل فالموران مثلما يفعلان كل يوم تقريباً بحكم الضرورة وليس إعجاباً. لم يكن أي منهما يشعر بالراحة بوجود أورتينس غيزو التي لم تحب يوماً ابن زوجها وتتسامح على مضض مع سانتشو، بشاربه الوقح ولكنته الإسبانية وقلة حيائه، لأنه لا بد أن يكون صفيقاً جداً ليتجرأ على التجول في المدينة مع تلك الكوبية ، تلك القحبة ذات الدم المختلط ، المذنبة المباشرة في موضوع *الكوردون بلو* الذي يكثر الحديث عنه. ولم يكن يمنع أورتينس من الانفجار في السباب حين تتذكر ذلك سوى تربيتها المحترمة. لا وجود لسيدة تعتبر نفسها معنية بالسحر الذي تمارسه أولئك العاهرات على الرجال البيض أو ممارستهن غير الأخلاقية بتقديم بناتهن لهم. كانت تعلم أن الخال وابن الأخت يرتبان أمورهما لحضور الحفل الراقص، ولكنها غير مستعدة لأن تقدم لهما أي تعليق حتى لو كانت في سكرة الموت. وليس بإمكانها كذلك أن تتحدث في الأمر إلى زوجها، لأن ذلك يعني تأكيداً منها بأنها تتجسس على أحاديثهما الخاصة، مثلما تراقب الرسائل وتدخل إلى الحجرات السرية في مكتبه، حيث يخبئ النقود. وهكذا علمت أن سانتشو قد حصل على بطاقتي دعوة من فيوليت بواسيير، لأن موريس يرغب في حضور الحفل الراقص. وقد كان على سانتشو أن يستشير فالموران في الأمر، لأن اهتمام ابن أخته المفاجئ بمساكنة المتعة يتطلب دعماً مالياً.

وأورتينس التي كانت تصغي وأذنها ملتصقة بثقب أمرت هي نفسها بإحداثه في الجدار، سمعت زوجها يوافق على الفكرة فوراً، وفكرت في أن ذلك سيبدد شكوكها حول رجولة موريس. لقد أسهمت هي

نفسها في ترويج تلك الشكوك مطلقة كلمة مخنث في أكثر من محادثة حول ابن زوجها. بدت ***مساكنة المتعة*** مناسبة لفالموران، نظراً لأن موريس لم يبدِ أية ميول إلى المواخير أو إلى عبدات الأسرة. والشاب مازال بحاجة إلى عشر سنوات كي يفكر في الزواج، وهو يحتاج في أثناء ذلك إلى التفريج عن اندفاعاته الذكورية، مثلما يسميها سانتشو. ويمكن لفتاة ملونة نظيفة، صالحة ومخلصة، أن توفر منافع كبيرة. أوضح سانتشو لفالموران الشروط المادية التي كانت تُترك من قبل لمشيئة الرجل الحامي، ولكنها الآن، بعد أن أمسكت فيوليت بواسيير بزمام المبادرة في الموضوع، صار يُشترط عقد اتفاق كلمة شرف، صحيح أنه يخلو من أي قيمة قانونية، إلا أنه غير قابل للخرق بأي حال. لم يعترض فالموران على التكاليف: فموريس يستحقها. وفي الجانب الآخر من الجدار كانت أورتينس غيزو على وشك أن تصرخ.

حفلة رقص الحوريات

اعترف جان مارتن لإزيدور موريسيه، وهو يذرف دموع الخجل، بما قاله فالموران، وبأن أمه لم تكذبه؛ بل رفضت بكل بساطة التكلم في الموضوع. تلقى موريسيه كلماته بقهقهة سخرية «وما أهمية ذلك يا بني!» - ولكنه تأثر على الفور وجذبه إليه ليفرّج عن همه على صدره العريض. لم يكن عاطفياً وقد فوجئ هو نفسه بالتأثر الذي أثاره فيه الشاب: لقد كان راغباً في حمايته وتقبيله. ولكنه أبعده عنه بشهامة وتناول قبعته وخرج ليتنزه على الرصيف البحري بخطوات واسعة إلى أن صفا ذهنه. وبعد يومين من ذلك انطلقا عائدين إلى فرنسا. ودّع جان مارتين أسرته الصغيرة بالصلابة المعهودة التي يحافظ عليها أمام الملأ، ولكنه في اللحظة الأخيرة عانق فيوليت وهمس لها أنه سيكتب إليها.

حفلة *الكوردون بلو* الراقصة كانت عظيمة مثلما تخيلتها فيوليت بواسيير ومثلما أمل الآخرون أن تكون. حضر الرجال بملابسهم الاحتفالية، في الموعد المحدد بدقة، وتوزعوا في جماعات تحت مصابيح الكريستال المضاءة بمئات الشموع، بينما الفرقة الموسيقية تعزف والخدم يقدمون مشروبات خفيفة وشمبانيا، ولا شيء من المشروبات الكحولية القوية. موائد المأدبة كانت جاهزة في قاعة مجاورة، إلا أنه من عدم اللياقة الانقضاض على الصواني والأطباق قبل الموعد المحدد. رحبت بهم فيوليت بواسيير التي تلبس ببساطة؛ ثم دخلت الأمهات والوصيفات واتخذن مجالسهن على المقاعد. عزفت الفرقة الموسيقية لحناً سريعاً، وفتحت ستارة مسرحية في أحد جوانب القاعة، وظهرت الفتيات على الممر المغطى بالمخمل، وتقدمن ببطء في صف. قلة منهن كن خلاسيات قاتمات، وعديدات من ذوات الدم المختلط اللاتي يبدون كأوروبيات، بل بينهن اثنتين أو ثلاث زرق العيون، وسلسلة

طويلة من الخلاسيات الربعات بتدرجات لون متعددة، جميعهن جذابات، منتصبات القامة، ناعمات، رشيقات ومربيات على الديانة الكاثوليكية. بعضهن كن خجولات لا يرفعن بصرهن عن السجادة، ولكن أخريات أشد جرأة يوجهن نظراتهن خلسة إلى الشبان المصطفين عند الجدران. وواحدة منهن فقط أتت متيبسة، جدية، وبملامح متحدية، شبه عدائية. إنها روزيت. الملابس الشفافة ذات الألوان الزاهية جرت التوصية عليها من فرنسا أو استنسخت آديل موديلاتها بدقة، والتسريحات البسيطة تُظهر الشعور اللامعة بوضوح، وكانت الأذرع والأعناق عارية، وبدت الوجوه خالية من أي مكياج، ولكن النساء وحدهن يعرفن الجهد والفن الذي يتطلبه ذلك المظهر البريء.

استُقبلت أولى الفتيات بصمت احترام مهيب، ولكن التصفيق العفوي ما لبث أن دوى بعد دقائق قليلة. لم تُرَ من قبل مثل تلك الجماعة من الحوريات معاً، هذا ما علق به في اليوم التالي في المقاهي من حالفهم الحظ بالحضور. لقد انسابت فتيات المتعة مثل بجعات في الصالون، وتخلت الفرقة الموسيقية عن الأبواق وآلات النفخ لتعزف موسيقى راقصة، وبدأ الشبان البيض تقدمهم بإيتكيت غير معهود، لا شيء من الألفة الجريئة التي يندفعون بها إلى حفلات الخلاسيات الربعات. وبعد تبادل بضع عبارات مجاملة لتلمس الميدان، يطلبن إحداهن للرقص. كان بمقدورهم مراقصة كل الفتيات، ولكنهم أُعلموا بأنه عليهم بعد الرقصة الثانية أو الثالثة أن يحسموا أمرهم ويتخذوا القرار. كانت الوصيات يراقبن بعيون صقور. ولم يتجرأ على خرق الأنظمة أي من أولئك الشبان المتعجرفين المعتادين على فعل ما يحلو لهم. كانوا يشعرون بالرهبة أول مرة في حياتهم.

لم ينظر موريس إلى أحد. فمجرد التفكير في أن أولئك الفتيات معروضات لمنفعة البيض يسبب له المرض. لم يكن يهمه أحد سوى روزيت. منذ أن نزل في ميناء نيو أورلينز، قبل عدة أيام، كان ينتظر الحفل الراقص ليلتقي بها وحسب، مثلما اتفقا في مراسلاتهما السرية.

ولكنه كان يخشى ألا يتعرف كل منهما على الآخر لأنهما لم يلتقيا قبل ذلك. غير أن الغريزة والحنين الذي تغذى بين جدران مدرسة بوسطن الحجرية أتاحا لموريس أن يدرك من النظرة الأولى أن الفتاة المتكبرة التي ترتدي ثوباً أبيض، وأجملهن جميعاً، هي روزيت. وعندما تمكن من انتزاع قدميه عن الأرض، كانت قد أحيطت بثلاثة متوددين أو أربعة، فتفادتهم محاولة اكتشاف الشخص الوحيد الذي ترغب في رؤيته. لقد انتظرت هي أيضاً هذه اللحظة بلهفة وجزع. فمنذ الطفولة صانت حبها لموريس بالمداراة، مقنِّعة إياه بالمحبة الأخوية، ولكنها لم تعد تفكر في مواصلة ذلك. وهذه هي ليلة الحقيقة.

اقترب موريس شاقاً طريقه، متيبساً، ووقف قبالة روزيت بعينين براقتين. تبادلا النظرات باحثين عمن يتذكرانه: هي تبحث عن الصبي النحيل ذي العينين الخضراوين والبَكّاء الذي كان يتبعها كظلها في الطفولة، ويبحث هو عن الطفلة الآمرة التي كانت تندس في فراشه. ووجدا نفسيهما في جمار الذاكرة وعادا في لحظة واحدة ليكونا نفسيهما كما في ما مضى: موريس ينتظر بصمت غير قادر على الكلام، وروزيت تتجاوز الأنظمة لتأخذه من يده وتقوده إلى حلبة الرقص.

أحست الفتاة من خلال قفازيها الأبيضين حرارة بشرة موريس غير المألوفة التي جابتها من عنقها حتى القدمين، كما لو أنها قد أطلت على موقد متأجج. أحست بساقيها تتراخيان، ففقدت إيقاع الخطوات وتشبثت به كيلا تسقط على ركبتيها. مضى الفالس الأول دون أن ينتبها، ولم يتوصلا إلى قول أي شيء، مكتفيين بملامسة أحدهما الآخر وتأمله، نائيين تماماً عن بقية الراقصين. انتهت الموسيقى وظلا ساهمين يتحركان بخراقة عميان إلى أن تجدد عزف الموسيقى وعادا إلى التقاط الإيقاع. وحتى تلك اللحظة كان عدد من الأشخاص ينظرون إليهما ساخرين، وانتبهت فيوليت بواسيير إلى أن هناك شيئاً يهدد إتيكيت الحفلة الصارم.

ومع المعزوفة الأخيرة، تدخل شاب أكثر جرأة من زملائه الآخرين

يريد مراقصة روزيت. لم تلحظ الفتاة ذلك التدخل، فقد كانت متشبثة بذراع موريس، وكانت عيناها متعلقتين بعينيه، ولكن الرجل ألح. عندئذ بدا على موريس أنه قد استيقظ من لحظة هيام، والتفت فجأة وأبعد الدخيل بدفعه بصورة غير متوقعة، فتعثر المنافس وسقط أرضاً. شلت الموسيقيين صرخة جماعية. تلعثم موريس باعتذار ومدّ يده يريد مساعدة الشاب على النهوض، غير أن الإهانة كانت أكثر من جلية. وكان اثنان من أصدقاء الشاب قد سارعا إلى حلبة الرقص وواجها موريس. وقبل أن يتمكن أحد من التحدي في مبارزة، مثلما يحدث بكثرة، تدخلت فيوليت بواسيير محاولة تبديد التوتر بالمزاح وبضربات من مروحتها اليدوية، وأمسك سانتشو غارثيا دل سولار ابن أخته بقوة من ذراعه واقتاده إلى قاعة الطعام، حيث كان الرجال الكبار قد بدؤوا بتذوق ألذ أطباق أفضل مطبخ كريولي.

ـ ما الذي تفعله يا موريس! أتراك لا تعرف من هي هذه الفتاة؟ ـ سأله سانتشو.

ـ إنها روزيت، ومن ستكون غيرها؟ لقد انتظرتُ سبع سنوات كي أراها.

ـ لا يمكنك الرقص معها! ارقص مع فتاة أخرى، يوجد جميلات كثيرات، وعندما تختار واحدة سأتولى أنا الباقي.

ـ لقد جئت من أجل روزيتٍ وحدها يا خالي ـ أوضح موريس.

تنفس سانتشو بعمق، مالئاً صدرهِ بجرعة هواء مختلط بدخان السجائر وعبق الأزهار. لم يكن مهيئاً لهذه المفاجأة الطارئة، ولم يتخيل قطّ أنه سيكون عليه أن يفتح عيني موريس على الواقع، وأن يكون في حالة بوح ميلودرامية تحدث في ذلك المكان وبكل تلك السرعة. كان قد لاحظ انتبه إلى تلك العاطفة مذ رآه مع روزيت أول مرة في كوبا في العام ١٧٩٣، حين جاؤوا هاربين من لوكاب، بملابس ممزقة ورماد الحرائق في شعورهم. كانا آنذاك طفلين يمضيان ممسكينِ أحدهما بيد الآخر، مذعورين من الرعب الذي شهداه، وكان واضحاً

أنهما مرتبطين بحب غيور وعنيد. ولم يجد سانتشو تفسيراً لعدم انتباه الآخرين إلى ذلك.

ـ انسَ روزيت. إنها ابنة أبيك. روزيت هي أختك يا موريس ـ تنهد سانتشو ونظره مصوب إلى مقدمة حذائه.

ـ أعرف ذلك يا خالي ـ كرر الشاب بهدوء ـ وكنا نعرف ذلك طوال الوقت، ولكنه لن يحول دون أن نتزوج.

ـ يجب أن تكون مجنوناً يا بني. فهذا الذي تقوله مستحيل.

ـ سوف نرى يا خال.

لم تتجرأ أورتينس غيزو على انتظار أن تساعدها السماء على التحرر من موريس دون تدخل مباشر من جانبها. فكانت تُشبع ضغينتها بتصور أساليب لتصفية ابن زوجها، وهو حلم اليقظة الوحيد الذي تسمح هذه المرأة العملية به لنفسها، وهذا أمر لا يتوجب الاعتراف به أمام الكاهن، لأن مثل هذه الجرائم الافتراضية هي مجرد أحلام، والأحلام ليست خطيئة. لقد حاولت كثيراً أن تُبعده عن أبيه ليحل محله ابن منها لم تستطع إنجابه، ولكثرة ما حاولت ذلك أحست، بصورة غامضة، بالإحباط عندما غرق موريس من تلقاء نفسه، تاركاً لها الميدان حراً للتصرف على هواها بثروات زوجها. أمضت ليلة حفلة الرقص في سريرها الملكي تحت مظلة مزينة بنقوش ملائكة، وهو السرير الذي يُنقل في كل موسم من البيت إلى المزرعة، وكانت تتقلب بين الملاءات دون أن تتمكن من النوم، مفكرة في أن موريس منهمك في تلك اللحظة بالذات في اختيار خليلة، وهي إشارة حاسمة على أنه قد خلّف المراهقة وراءه ودخل كلياً في مرحلة النضوج. لقد صار ابن زوجها رجلاً وسيبدأ طبعاً في تولي أعمال الأسرة، وهو ما سيؤدي إلى تناقص سلطتها، لأنه لا يمكنها أن تمارس عليه التأثير الذي تمارسه على زوجها. وآخر ما كانت تتمناه هو رؤيته يقلّب سجل الحسابات ويضع حدودا لنفقاتها.

لم تتمكن أورتينس من الراحة حتى الفجر، عندما تناولت أخيراً

بضع قطرات من اللودانيوم واستطاعت أن تغفو في نوم قلق، مترع برؤى كئيبة. استيقظت قرابة منتصف النهار، متوعكة بسبب تلك الليلة السيئة ونذر الشؤم. شدت الحبل لتستدعي خادمتها دينس وتطلب منها مبولة نظيفة وفنجان الشكولاتة المعهود. بدا لها أنها سمعت حديثاً بأصوات منخفضة يأتي من المكتبة، في الطابق الأسفل. فالمجرى الذي يمر منه حبل استدعاء العبيد ويجتاز الطابقين والعلية، يفيدها في أحيان كثيرة في سماع ما يجري في بقية أنحاء البيت. قرّبت أذنها وسمعت أصواتاً غاضبة، ولأنها لم تستطع تمييز الكلمات، خرجت بخفة من حجرتها. التقت على السلم بعبدة، ولكن هذه ما إن رأتها بقميص النوم وحافية تنسل مثل لص حتى التصقت بالجدار، متخفية وصامتة.

كان سانتشو قد تقدم كي يشرح لتولوز فالموران ما حدث في حفل *كوردون بلو* الراقص وتهيئته معنوياً، ولكنه لم يجد طريقة لينقل إليه بلباقة نية موريس الحمقاء بالزواج من روزيت، فقدم إليه الخبر بجملة واحدة. «زواج؟»، كرر فالموران غير مصدق. بدا له الأمر مضحكاً وانفجر في الضحك مقهقهاً، ولكنه مع تقدم سانتشو في إعطائه فكرة عن قرار ابنه، انقطع ضحكه متحولاً إلى سخط عنيف. سكب جرعة كبيرة من الكونياك، وهي الكأس الثالثة منذ الصباح، بالرغم من منع بارمونتيه له من الشرب، وأفرغه في جوفه دفعة واحدة سببت له نوبة سعال.

بعد قليل من ذلك وصل موريس. تلقاه فالموران واقفاً وهو يومئ ويضرب المنضدة بقبضته، وبادره بأقواله المعهودة نفسها، ولكن بصوت صارخ في هذه المرة: إنه وريثه الوحيد، والذي عليه أن يحمل بفخر لقب *فارس*، وينمي سلطة وثروة الأسرة اللتين كسبهما بالكثير من الجهد؛ وهو الابن الذكر الوحيد الذي يمكن له أن يخلد سلالته، وقد رباه على هذا الأساس، ولقنه مبادئه وحسه بالشرف، وقدم له كل ما يمكن تقديمه إلى ابن؛ ولن يسمح له بتلويث اسم آل فالموران البارز بطيش شبابي. لا، ليس طيشاً، قال مصححاً، وإنما هو سلوك

معيبٍ، انحراف أخلاقي، ليس أقل من زنا محارم. تهاوى على أريكته فاقداً أنفاسه. وفي الجانب الآخر من الجدار، ملتصقة بثقب التجسس، كتمت أورتينس صرخة كادت تفلت منها. لم تكن تنتظر من زوجها أن يخبر ابنه بصلة قرابته بروزيت، وهو السر الذي أخفاه عنها بحذر شديد.

ـ زنا محارم يا مسيو؟ لقد كنت تجبرني على ابتلاع صابون كلما دعوت روزيت بأختي ـ احتج موريس.

ـ أنت تعرف جيدا ما الذي أعنيه!

ـ سأتزوج من روزيت حتى لو كنت أنت أبوها ـ قال موريس محاولاً الحفاظ على نبرة احترام.

ـ ولكن كيف تتزوج من خلاسية! ـ زمجر فالموران.

ـ يبدو لي يا مسيو أن ما يزعجك هو لون روزيت وليس صلة القربى بيننا. ولكنك إذا كنت قد أنجبت ابنة من امرأة ملونة، فيجب ألا يفاجئك أن أقع في حب ملونة أخرى.

ـ وقح!

حاول سانتشو تهدئته بإيماءات مصالحة. وأدرك فالموران أن هذا الطريق الذي يسلكه لن يوصله إلى أي مكان، فبذل جهده ليبدو هادئاً وعقلانياً.

ـ أنت فتى جيد يا موريس، ولكنك شديد الحساسية وحالم ـ قال له ـ إرسالك إلى تلك المدرسة الأمريكية كان خطأ. لا أدري أية أفكار أدخلوها في رأسك، ولكنك تجهل على ما يبدو من تكون، وما هي مكانتك ومسؤوليتك تجاه أسرتك والمجتمع.

ـ لقد وفرت لي المدرسة رؤية واسعة للعالم يا مسيو، ولكن ذلك لا علاقة له بروزيت. فمشاعري نحوها هي نفسها الآن وقبل خمسة عشر عاماً.

ـ هذه الاندفاعات أمر طبيعي في مثل سنك يا بني. لا وجود لما هو غير عادي في حالتك ـ أكد له فالموران ـ. ليس هناك من يتزوج وهو في الثامنة عشرة يا موريس. ستختار عشيقة، مثل أي شاب في مثل

وضعك. وهذا سيوفر لك الطمأنينة. وإذا كان هناك شيء فائض في هذه المدينة، فهو الخلاسيات الجميلات.

ـ لا! روزيت هي المرأة الوحيدة لي ـ قاطعه ابنه.

ـ زواج المحارم أمر خطير يا موريس.

ـ وأخطر منه بكثير العبودية.

ـ ما علاقة هذا بذاك؟

ـ العلاقة كبيرة يا مسيو. فمن دون العبودية التي أتاحت لك استغلال عبدك، ما كان لروزيت أن تكون أختي ـ أوضح له موريس.

ـ كيف تتجرأ على التكلم هكذا مع أبيك؟

ـ اعذرني يا مسيو ـ أجاب موريس بسخرية ـ. الحقيقة أن الأخطاء التي ارتكبتها حضرتك لا يمكن أن تكون عذراً لأخطائي.

ـ ما لديك يا بني هي حرارة ـ قال فالموران بزفرة مسرحية ـ. وهذا أمر مفهوم تماماً. عليك أن تفعل ما يفعله الجميع في مثل هذه الأحوال.

ـ ماذا يا مسيو؟

ـ أعتقد أنني لست بحاجة إلى التوضيح يا موريس. ضاجع الفتاة ثم انسها. هذا ما عليك فعله. وأي شأن للزنجية سوى هذا؟

ـ أهذا ما ترغب فيه لابنك؟ ـ سأله موريس شاحباً، وهو يضغط أسنانه. بينما كانت تسيل قطرات عرق على وجهه وبدا قميصه مبللاً.

ـ إنها ابنة عبدة! أما أبنائي فبيض! ـ هتف فالموران.

خيم صمت جليدي على المكتبة. رجع سانتشو القهقرى وهو يتلمس رقبته، شاعراً بضياع كل شيء. فقد بدت له رعونة صهره أمراً عصياً على الإصلاح.

ـ سأتزوج منها ـ كرر موريس أخيراً وخرج بخطوات واسعة دون أن يعير اهتماما لسيل تهديدات أبيه.

إلى يمين القمر

لم يخطر ببال تيتي أن تذهب إلى الحفل الراقص، كما أنها لم تتلق دعوة إليه، لأنها تدرك أنه ليس حفلاً لأناس في مثل وضعها. فذهابها سوف يسبب استياء الأمهات الأخريات، ويُشعر ابنتها بالخجل. وقد اتفقت مع فيوليت كي تتصرف كوصية على روزيت. الإعدادات لتلك الليلة التي تطلبت شهوراً من الصبر والعمل أعطت النتائج المنتظرة. بدت روزيت كملاك بفستانها الأبيض وأزهار الياسمين المتدلية من شعرها. وقبل الصعود إلى العربة المستأجرة، بحضور الجيران الذين خرجوا إلى الشارع ليصفقوا لهن، كررت فيوليت القول لتيتي ولولا إنها ستحصل على أفضل متودد لروزيت. ولم يدر بخلد أحد أنها سترجع مجرجرة الفتاة بعد ساعة من ذلك، حين كان بعض الجيران لا يزالون في الشارع يتبادلون التعليقات.

دخلت روزيت إلى البيت مثل دوامة، وبوجه البغلة العنيدة الذي حلّ محل غنجها في تلك السنة، انتزعت الثوب عنها بتمزيقه وانزوت في حجرتها دون التفوه بكلمة واحدة. وقد جاءت فيوليت عصبية، تصرخ بأن هذه العاهرة ستدفع الثمن، وأنها كانت على وشك أن تقوض الحفلة، وأنها خدعت الجميع، وجعلتها تضيع الوقت والجهد والمال، لأنها لم تكن تنوي في أي لحظة أن تكون فتاة متعة، واتخذت من حفلة الرقص مجرد ذريعة للقاء مع ذلك التعيس موريس. وقد كانت المرأة على حق. فقد توصلت روزيت وموريس إلى الاتفاق بطريقة لا يمكن تفسيرها، لأن الفتاة لم تكن تخرج إلى أي مكان. أما كيف كانت ترسل الرسائل وتتلقاها فظل سرا رفضت الكشف عنه، على الرغم من الصفعة التي تلقتها من فيوليت. وقد أكد ذلك الشكوك التي طالما ساورت تيتي: نجما هذين الصغيرين كانا معاً في السماء؛ وكانا يبدوان

في بعض الليالي بوضوح إلى يمين القمر.

بعد الجدل الساخن مع أبيه ومواجهته معه في مكتبة البيت، انسحب موريس مصمماً على قطع صلته بأسرته نهائيا. وقد تمكن سانتشو من تهدئة فالموران قليلاً ثم لحق بابن أخته إلى الشقة التي يتقاسمان العيش فيها، حيث وجده متوعكا ومحمرا من الحمى. وبمساعدة خادمه، خلع عنه سانتشو ملابسه وحمله إلى الفراش، ثم أجبره على تناول كأس من الروم الساخن مع السكر والليمون، وهو دواء مرتجل خطر له كمهدئ لآلام الحب، وطرح موريس في نوم طويل. أمر سانتشو خادمه بأن يبرده بكمادات مبللة لتخفيض حرارته، ولكن ذلك لم يحل دون قضاء موريس بقية المساء وشطراً لا بأس به من الليل في الهذيان.

استيقظ الشاب في صباح اليوم التالي وقد خفت الحمى. كانت الحجرة مظلمة، لأنهم أغلقوا الستائر، ولكنه لم يشأ استدعاء الخادم على الرغم من حاجته إلى الماء وفنجان قهوة. وعندما حاول النهوض ليستخدم المبولة أحس بألم في عضلاته كلها، كما لو أنه أمضى أسبوعا على صهوة حصان يعدو، وفضّل أن يعود إلى الاضطجاع في الفراش. بعد قليل من ذلك حضر سانتشو ومعه بارمونتيه. والطبيب الذي يعرف موريس مذ كان طفلاً، لم يستطع إلا أن يكرر الملاحظة المعهودة بأن الزمن أكثر تسرباً من المال. أين مضت السنون؟ فقد خرج موريس من باب وهو بسروال قصير ورجع من باب آخر متحولاً إلى رجل. فحصه بدقة دون أن يتوصل إلى تشخيص ما به، وقال إن الصورة مازالت غير واضحة، ولا بد من الانتظار. أمر بإبقائه مستريحاً ليرى كيف سيكون تأثره. وكان قد عالج في ذلك الأسبوع بحارين اثنين مصابين بالتيفوس في مستشفى الراهبات. وأكد أن الأمر ليس جائحة وبائية، وإنما هي حالات معزولة، ولكن عليهم أن يأخذوا هذا الاحتمال بالاعتبار. ففئران السفن تنقل عادة عدوى المرض، وربما تكون العدوى قد انتقلت إلى موريس خلال رحلته.

ـ إنني واثق من أنه ليس التيفوس يا دكتور ـ تلعثم موريس بخجل.

ـ ما هو إذاَ؟ ـ ابتسم بارمونتيه.
ـ أعصاب.
ـ أعصاب؟ ـ كرر سانتشو ضاحكاً ـ. أهذا ما يعانيه العازبون؟
ـ هذه الحالة لم تعاودني مذ كنتُ طفلاً يا دكتور، ولكنني لم أنسها وأعتقد أن حضرتك لم تنسها أيضاً. ألا تتذكر لوكاب؟

عندئذ عاد بارمونتيه إلى تذكر الصبي ذي السنوات القليلة الذي كانه موريس في ذلك الزمن، يحوّم في الحمى بسبب حصار أشباح الزنوج المعذبين التي تتنقل في البيت.

ـ آمل أن تكون على حق ـ قال بارمونتيه ـ. لقد أخبرني خالك سانتشو بما جرى في حفلة الرقص والمشاحنة التي حدثت مع أبيك.
ـ لقد شتم روزيت! عاملها على أنها محتالة ـ قال موريس.
ـ كان صهري غاضباً، وهذا منطقي ـ قاطعه سانتشو ـ. فقد خطر لموريس أن يتزوج بروزيت. إنه لا يريد تحدي أبيه وحسب، وإنما العالم بأسره.
ـ إننا لا نطلب إلا أن يتركونا بسلام يا خال ـ قال موريس.
ـ لن يترككما أحدٌ بسلام، لأن تحقق ما تنويان يعرض المجتمع للخطر. تصور المثال الذي ستقدمانه! سيبدو ذلك مثل ثقب في السد. في البدء دفقة ماء صغيرة وبعد ذلك طوفان يدمر كل شيء في طريقه.
ـ سنذهب بعيدا، حيث لا يعرفنا أحد ـ ألح موريس.
ـ إلى أين؟ إلى العيش مع الهنود، وارتداء جلود نتنة والتغذي على الذرة؟ فلنرَ كم سيدوم الحب في مثل تلك الظروف!
ـ أنت مازلت شاباً يا موريس، ومازالت الحياة أمامك ـ قال الطبيب بوهن.
ـ حياتي! يبدو أن حياتي فقط هي التي تؤخذ بالاعتبار! وماذا عن روزيت؟ ألا يُحسب لحياتها حساب أيضاً؟ إنني أحبها يا دكتور!
ـ إني أفهمك أكثر من الجميع يا بني. فرفيقتي مدى الحياة وأم أبنائي هي خلاسية ـ اعترف له بارمونتيه.

ـ صحيح، ولكنها ليست أختك! ـ صاح سانتشو.
ـ هذا لا يهم ـ ردّ موريس.
ـ اشرح له يا دكتور كيف أنه يولد من هذه الزيجات أطفال متخلفون ـ ألح سانتشو.
ـ ليس دائماً ـ دمدم الطبيب وهو مستغرق في التفكير.

كان فم موريس جافاً وبدأ يشعر من جديد بجسده يلتهب. أغمض عينيه غاضباً من نفسه بالذات لعجزه عن كبح ذلك الارتجاف الذي تتسبب به مخيلته دون شك.

قاطع بارمونتيه قائمة حجج سانتشو. «أظن أن هناك طريقة مرضية للجميع تتيح لموريس وروزيت أن يظلا معاً.» وأوضح أن قلة قليلة من الناس تعرف إنهما نصف أخوين، ثم إنها ليست المرة الأولى التي يحدث فيها مثل ذلك. وأضاف أن اختلاط السادة مع عبداتهم يؤدي إلى كافة أشكال العلاقات والاختلاطات. ولا أحد يعرف معرفة يقينية ما الذي يحدث في حميمية البيوت ناهيك عن المزارع. فالكريوليون لا يولون كثيراً من الاهتمام إلى الغراميات بين أقرباء من أعراق مختلفة ـ ليس بين الأخوة فقط، بل كذلك بين آباء وبناتهم ـ مادام خبرها لم ينتشر بين الملأ. أما غراميات البيض مع البيض بالمقابل فمحظورة ولا يمكن التسامح بها.

ـ إلى أين تريد الوصول يا دكتور؟ ـ سأله موريس.
ـ *مساكنة المتعة*. فكر في الأمر يا بني. ستقدم لروزيت المعاملة نفسها التي تتلقاها الزوجة ولكنك لن تعيش معها بصورة سافرة، ويمكنك زيارتها كلما رغبت. ستكون روزيت محترمة في وسطها الاجتماعي. وتحتفظ أنت بوضعك، وبه يمكنك توفير الحماية لها بصورة أفضل بكثير من كونك منبوذاً من المجتمع، وفقيراً فوق ذلك، وهذا ما ستصير إليه إذا أصررت على الزواج بها.
ـ اقتراح لامع يا دكتور! ـ هتف سانتشو قبل أن يتمكن موريس من فتح فمه ـ. لم يبق إلا أن يوافق تولوز فالموران على ذلك.

وفي الأيام التالية، بينما كان موريس يصارع ما تبين بصورة نهائية أنه التيفوس، حاول سانتشو أن يقنع صِهره بفوائد ***مساكنة المتعة*** لموريس وروزيت. وإذا كان فالموران مستعداً من قبل لتمويل نفقات فتاة غير معروفة، فليس هناك سبب لرفض مساعدة الوحيدة التي يرغب فيها موريس. وحتى هذه النقطة كان فالموران يصغي إليه مطرقاً رأسه، ولكن بانتباه.

ـ أضف إلى ذلك أنها كانت خادمة ضمن أسرتك وأنت تعرف أنها وديعة ورقيقة وجيدة التربية ـ أضاف سانتشو، ولكنه ما كاد يقول ذلك حتى أدرك خطأه في تذكيره بأن روزيت هي ابنته؛ فكان ذلك كما لو أنه قد وخز فالموران.

ـ أُفضّل رؤية موريس ميتاً قبل رؤيته يساكن تلك العاهرة! ـ صرخ.

بادر الإسباني بصورة آلية إلى رسم إشارة الصليب: قول ذلك يعني استدعاء الشيطان.

ـ لا تلقِ بالاً لما قلتُه يا سانتشو، لقد خرج مني الكلام دون تفكير ـ تلعثم الآخر، وقد هزته أيضاً قشعريرة شعوذة.

ـ اهدأ يا صهري العزيز. الأبناء يتمردون دوماً، وهذا طبيعي، ولكنهم يعودون إلى العقل عاجلاً أو آجلاً ـ قال سانتشو وهو يسكب كأساً من الكونياك ـ. رفضك سيعزز عناد موريس. ولن تتوصل إلا إلى إبعاده عنك أكثر فأكثر.

ـ سيكون هو من سيخرج خاسراً!

ـ فكر في الأمر. أنت أيضاً ستخرج خاسراً. فأنت لم تعد شاباً وبدأت تفقد صحتك. من سيكون دعامتك في الشيخوخة؟ من سيدير المزرعة وأعمالك عندما لا تعود قاراً على عمل ذلك؟ ومن سيعنى بأورتينس والصغيرات؟

ـ أنت.

ـ أنا؟ ـ أطلق سانتشو قهقهة مرحة ـ. إنني صعلوك متشرد يا تولوز! هل تراني قادراً على التحول إلى عماد الأسرة؟ لا شاء الله ذلك!

ـ إذا ما خانني موريس، سيكون عليك أن تساعدني يا سانتشو. أنت شريكي وصديقي الوحيد.
ـ أرجوك، لا تخيفني.
ـ أظن أنك محق: يجب عدم خوض الصراع مواجهة مع موريس، وإنما التصرف بدهاء. الفتى بحاجة إلى تبريد، والتفكير في مستقبله، والتمتع مثلما يليق بسنه، ومعرفة نساء أخريات. ولا بد لهذه المحتالة من أن تختفي.
فسأله سانتشو:
ـ كيف؟
ـ توجد عدة أساليب.
ـ أية أساليب؟
ـ عرض مبلغ محترم من المال عليها، مثلاً، كي تذهب بعيداً وتترك ابني بسلام. المال يشتري كل شيء يا سانتشو، ولكن إذا لم ينفع ذلك... حسن، سنتخذ إجراءات أخرى.
ـ لا تعتمد عليّ في شيءٍ من ذلك! ـ هتف سانتشو مذعوراً ـ. موريس لن يسامحك أبداً.
ـ لا حاجة لأن يعلم بذلك.
ـ أنا سأخبره. وسأفعل ذلك بالضبط لأني أحبك كأخ لي يا تولوز، لن أسمح بأن تقترف مثل هذه الشرور. سوف تندم على ذلك مدى الحياة ـ ردّ سانتشو.
ـ لا تغضب هكذا يا رجل! كنت أمزح. أنت تعلم أنني غير قادر على قتل ذبابة.
دوت قهقهة فالموران مثل عواء. انسحب سانتشو قلقاً، وظل الآخر يفكر بشأن *مساكنة المتعة*. يبدو أنها الخيار الأكثر منطقية، ولكن رعاية المساكنة بين أخوين أمر بالغ الخطورة. وإذا ما شاع الأمر فإن شرفه سيُلوث بصورة لا يمكن إصلاحها وسيدير الجميع ظهرهم لأل فالموران. بأي وجه سيظهر أمام الناس؟ عليه التفكير في مستقبل بناته

الخمس، وأعماله ومكانته الاجتماعية، مثلما بينت له أورتينس بوضوح. ولم يخامره الشك في أن تكون أورتينس نفسها قد أذاعت الخبر بين الناس. ففي الخيار بين حماية سمعة أسرتها، مثلما هو الواجب الأول لأي سيدة كريولية، أو تدمير سمعة ابن زوجها، انصاعت أورتينس لإغواء الخيار الثاني. ولو كان الأمر بيدها لقامت هي نفسها بتزويج موريس من روزيت، لا لشيء إلا لتدمره. لم تكن مساكنة المتعة التي يقترحها سانتشو مناسبة لها، لأنه عندما تنفد الحماسة، مثلما يحدث على الدوام بعد بعض الوقت، سيتمكن موريس من ممارسة حقوقه كابن بكر دون أن يتذكر أحد زلته. فذاكرة الناس ضعيفة. الحل الوحيد هو أن يلقى ابن زوجها ازدراء أبيه. «أيرغب في الزواج من خلاسية ربعة؟ جيد. فليفعل ذلك وليعش معنا مثلما تستدعي الحال»، هكذا علقت على الأمر أمام أخواتها وصديقاتها اللواتي تولين بدورهن ترديد أقوالها.

الحبيبان

تركت تيتي وروزيت البيت الأصفر في شارع شارت في اليوم التالي للتصرف المخجل في حفل **كوردون بلو** الراقص. وقد تلاشت نوبة غضب فيوليت بواسيير بسرعة وسامحت روزيت، لأن الغراميات المعاكسة تحرك أشجانها على الدوام، ولكنها أحست بالراحة على كل حال حين أخبرتها تيتي بأنها لا ترغب في مواصلة استغلال كرم ضيافتها. وفكرت في أنه من الأفضل فرض شيء من المسافة بينهما. أخذت تيتي ابنتها إلى النزل الذي كان يعيش فيه قبل سنوات المعلم غاسبار سيفران، ريثما تنتهي إصلاحات المسكن الصغير الذي اشتراه زاشاري على بُعد شارعين من بيت آديل. واصلت العمل مع فيوليت كالعادة، وجعلت روزيت تعمل في الخياطة مع آديل؛ فقد حان الوقت لأن تكسب الفتاة قوتها. وجدت نفسها عاجزة حيال الإعصار الذي توالت حلقاته. كانت تشعر بشفقة لا مفر منها تجاه ابنتها، ولكنها لا تستطيع التقرب ومحاولة مساعدتها، لأن الفتاة انغلقت على نفسها مثل قوقعة محار. لم تكن روزيت تتكلم مع أحد، تخيط بصمت متجهم، منتظرة موريس بصلابة حبة قمح، عمياء عن فضول الآخرين وصماء عن نصائح النساء المحيطات بها: أمها، وفيوليت، ولولا، وآديل، ودزينة أخرى من الجارات الفضوليات.

علمت تيتي بالمواجهة بين موريس وتولوز فالموران من خلال آديل التي أخبرها بذلك بارمونتيه، ومن خلال سانتشو الذي جاء إليها في زيارة قصيرة في النزل لينقل إليها أخبار موريس. قال لها إن الشاب يضعف بفعل التيفوس، ولكنه خارج الخطر، ويرغب في رؤية روزيت بأسرع ما يمكن. وأضاف: «طلب مني أن أتوسط كي تستقبليه يا تيتي». فردت عليه: «موريس هو ابني يا دون سانتشو، ولا يحتاج إلى أن

يرسل لي وساطة. إنني بانتظاره». تمكنا من الكلام بصراحة منتهزين فرصة خروج روزيت لتوصيل بعض الملابس المخيطة. فمنذ عدة أسابيع لم تُتح لهم فرصة اللقاء، لأن سانتشو قد اختفى من الحي. لم يعد يتجرأ على الظهور بالقرب من فيوليت بواسيير مذ فاجأته وهو مع آدي سابير، الفتاة الطائشة نفسها التي كان على علاقة بها من قبل. ولم يستفد سانتشو شيئاً من قسمه لها بأنه التقى بها مصادفة في ساحة السلاح ودعاها ببراءة لتناول كأس من نبيذ شيرش، ولا شيء أكثر من ذلك. ما هو السيئ في هذا التصرف؟ ولكن فيوليت لم تكن بحاجة إلى التزاحم مع أي منافِسة على كسب قلب الإسباني الشوكي، وخاصة مع فتاة تكبرها فيوليت بضعف عمرها.

لقد طالب فالموران، حسب قول سانتشو، بأن يذهب ابنه للتحدث إليه فور تمكنه من النهوض. وقد استجمع موريس قواه كي يرتدي ثيابه وذهب إلى بيت أبيه، لأنه لا يستطيع مواصلة تأخير الحل. فمادام لم يوضح الأمور معه، لن يكون حرا في المثول أمام روزيت. أحس فالموران بالرعب حين رأى ابنه أصفر الوجه وملابسه تتدلى متهدلة عليه لأن وزنه قد نقص عدة كيلوغرامات خلال فترة مرضه القصيرة. والخوف من فكرة أن يختطفه الموت التي داهمته مرات كثيرة حين كان موريس طفلاً صغيراً، عادت الآن تطبق على صدره. وكان قد استعد، بتحريض من أورتينس، لأن يفرض عليه سلطته، ولكنه أدرك أنه يحبه كثيرا. وأن أي حل سيكون أفضل من الشجار معه. وقد اختار في اندفاع مفاجئ ***مساكنة المتعة*** التي عارضها من قبل بدافع الكبرياء وبتحريض من امرأته. ورأى بوضوح أنها المخرج الوحيد الممكن. «سوف أساعدك مثلما يتوجب عليّ يا بني. ستحصل على ما يكفي لتشتري بيتاً لتلك الفتاة وتنفق عليها كما يجب. وسوف أصلي كيلا تحدث فضيحة وكي يسامحكما الرب. ولست أطلب منك سوى الامتناع عن ذكر اسمها بحضوري، وعن ذكر أمها كذلك»، قال له فالموران.

لم يأت ردّ فعل موريس مثلما ينتظر أبوه أو سانتشو الذي كان

حاضراً أيضاً في حجرة المكتبة. فقد أجاب بأنه شاكر للمساعدة المعروضة، ولكن ليس هذا هو المصير الذي يرغب فيه. فهو لا يفكر في مواصلة الخضوع لنفاق المجتمع ولا لإخضاع روزيت لوضع فتاة المتعة الجائر، حيث تكون هي محتجزة، بينما هو يتمتع بحرية كاملة. كما أن ذلك سيكون وصمة في مسيرته السياسية التي سينطلق بها. وقال إنه سيرجع إلى بوسطن ليعيش بين أناس أكثر تحضراً، وأنه سيدرس المحاماة وسيحاول بعد ذلك، من خلال الكونغرس والصحافة، تغيير الدستور والقوانين، وتغيير العادات أخيراً، ليس في الولايات المتحدة وحدها وإنما في العالم بأسره.

ـ عمَ تتكلم يا موريس؟ ـ قاطعه أبوه مقتنعاً من أن هذيان التيفوس قد عاوده.

ـ عن إلغاء العبودية يا مسيو. سوف أكرس حياتي للنضال ضد العبودية ـ أجابه موريس بحزم.

كانت تلك صفعة أشد وطأة على فالموران من مسألة روزيت: إنه اعتداء مباشر على مصالح أسرته. فابنه مختل أكثر بكثير مما تصوره، وما يسعى إليه ليس أقل من تقويض أسس الحضارة وتبديد ثروة آل فالموران. فدعاة إلغاء العبودية يُضربون ويُشنقون مثلما يستحقون. إنهم جماعة مجانين متعصبين يتجرؤون على تحدي المجتمع والتاريخ، وحتى على تحدي كلمة الرب، لأن العبودية واردة في الكتاب المقدس. داعٍ إلى إلغاء العبودية في أسرته بالذات؟ لا يمكن قبول ذلك بأي حال! ألقى عليه خطبته بصوت صارخ، ودون أن يلتقط أنفاسه، وانتهى إلى تهديده بحرمانه من الميراث.

ـ أفعل ذلك يا مسيو، لأنني إذا ورثت ثروتك، فسيكون أول ما سأفعله هو إعتاق العبيدٍ وبيع المزرعة ـ أجابه موريس دون تردد.

نهض الشاب مستنداً إلى مسند الكرسي، لأنه كانٍ يشعر بشيء من الدوار، وودّع بانحناءة خفيفة وخرج من المكتبة محاولاً مواراة ارتعاش ساقيه. ولحقت به شتائم أبيه حتى الشارع.

فقد فالموران القدرة على التحكم بنفسه، وحوّله الغضب إلى إعصار: لعن ابنه، وصرخ به بأنه قد مات في نظره، وأنه لن يتلقى سنتاً واحداً من ثروته. «أمنعك من العودة لدخول هذا البيت ومن استخدام لقب فالموران! أنت لم تعد تنتمي إلى هذه الأسرة!» لم يتمكن من مواصلة الكلام، لأنه سقط متهاوياً وهو يحمل مصباحاً من زجاج الأوبالين تهشم إلى شظايا بارتطامه بالجدار. هرعت على صرخاته أورتينس ومعها عدد من الخدم المنزليين، ووجدوه مُزرقاً وبعينين بيضاوين، بينما سانتشو يجثو على ركبتيه إلى جانبه، ويحاول حلّ ربطة عنقه المدفونة بين طيات لغده المزدوج.

رابطة دم

بعد ساعة من ذلك مثل موريس دون إشعار مسبق في نزل تيتي. لم تكن قد رأته منذ سبع سنوات، غير أن ذلك الشاب طويل القامة والجدي، بشعره الطويل المشعث ونظارته مدورة العدستين، بدا لها مثل الطفل الذي كانت قد ربته. لقد كانت لموريس الرقة والزخم نفساهما اللذان كانا له في طفولته. تعانقا طويلاً وهي تردد اسمه بينما هو يهمس بالكلمة المحظورة: ***ماما، ماما***. كانا في صالة النزل المعفرة التي تظل في عتمة دائمة. وكان الضوء الشحيح المتسرب من شقوق النوافذ يكشف بوضوح عن قطع الأثاث المتداعية، والسجادة الرثة، وورق الجدران الضارب إلى الصفرة.

لم تفلت روزيت موريس بعد أن انتظرته طويلاً، كانت مذهولة من السعادة وحائرة لرؤيته هزيلاً، ومختلفاً جداً عن الشاب الوسيم الذي رقصت معه قبل أسبوعين. ظلت تتأمل المشهد بصمت، كما لو أنه لا علاقة لزيارة حبيبها العاصفة بها.

ـ لقد أحببنا أنا وروزيت أحدنا الآخر على الدوام يا ماما، أنت تعرفين ذلك. مذ كنا صغيرين ونحن نتحدث عن زواجنا، ألا تتذكرين؟ ـ قال موريس.

ـ بلى يا بني، إنني أتذكر. ولكن ذلك خطيئة.

ـ لم أسمعك تقولين هذه الكلمة من قبل. هل تراكِ تحولتِ إلى كاثوليكية؟

ـ ***اللوات*** هم من يرافقونني على الدوام يا موريس، ولكنني أذهب أيضاً إلى قداديس الأب أنطوان.

ـ كيف يمكن للحب أن يكون خطيئة؟ الرب هو من وضعه فينا. وقد كنا متحابين قبل أن نولد. لسنا مذنبين في أن لنا الأب نفسه. الخطيئة

ليست خطيئتنا، بل خطيئة أبينا نفسه.

ـ سيكون لذلك نتائج... ـ دمدمت تيتي.

ـ أعرف ذلك. العالم بأسرة يحاول تذكيري بأننا قد ننجب أبناء غير طبيعيين. إننا مستعدان لتحمل هذه المجازفة، أليس كذلك يا روزيت؟

لم تجب الفتاة. فاقترب موريس منها وأحاط كتفيها بإحدى ذراعيه في إيماءة حماية.

ـ ماذا سيحل بكما؟ تساءلت تيتي مغمومة.

ـ إننا حران وشابان. سنذهب إلى بوسطِن وإذا ساءت أمورنا هناك سنبحث عن مكان آخر. أميركا فسيحة جداً.

ـ وماذا عن اللون؟ لن يقبلوكما في أي مكان. يقال إن الأحقاد أسوأ في الولايات الحرة، لأن البيض والسود لا يعيشون مختلطين معاً.

ـ صحيح، ولكن هذا الحال سيتغير، أعدك بذلك. هناك أناس كثيرون يعملون من أجل إلغاء العبودية: فلاسفة، وسياسيون، ورجال دين، وكل من لديهم شيء من الشرف...

ـ لن يمتد بي العمر لرؤية ذلك يا موريس. ولكنني أعرف أنه لن تكون هناك مساواة حتى لو أعتقوا العبيد.

ـ بل ستكون هناك مساواة على المدى البعيد يا ***ماما***. فالأمر أشبه بكرة الثلج، تبدأ بالتدحرج، وتأخذ بالتعاظم، وتتخذ السرعة ولا يمكن لشيء عندئذ أن يوقفها. هكذا تقع الأحداث العظمى في التاريخ.

ـ من قال لك ذلك يا بني؟ ـ سألته تيتي التي لم تكن لديها فكرة واضحة عما هو الثلج.

ـ أستاذي هاريسون كوب.

أدركت تيتي أنه لا جدوى من الجدال معه، لأن القدر قد حُسم منذ خمسة عشر عاماً، عندما انحنى أول مرة وهو طفل ليقبّل وجه الطفلة حديثة الولادة التي كانتها روزيت.

ـ لا تقلقي، سنتدبر أمورنا ـ أضاف موريس ـ. ولكننا بحاجة إلى مباركتك يا ***ماما***. فنحن لا نرغب في الهرب كقطاع طريق.

ـ ستكون لكما مباركتي يا ابنيّ، ولكنها ليست كافية. فلنذهب لطلب النصح من الأب أنطوان، فهو يعرف أمور هذا العالم والعالم الآخر ـ أنهت تيتي.

ذهبوا مشياً وسط نسيم شهر شباط إلى بيت الكاهن الكابوشي الذي كان قد أنهى للتو جولة إحسانه الأولى وجلس يستريح قليلاً. استقبلهم دون أن تبدو عليه أنه فوجئ بالزيارة، لأنه كان ينتظرهم منذ أن بدأت تصل إليه الإشاعات عن أن وريث ثروة آل فالموران ينوي الزواج من خلاسية. وبما أنه كان على اطلاع دائم على كل ما يحدث في المدينة، فقد افترض مؤمنوه أن الروح القدس يهمس له بالأخبار. قدم إليهم نبيذ قداس كثيف كأنه الورنيش.

ـ نريد الزواج يا أبتاه ـ أعلن موريس.

ـ ولكن هناك تفصيل صغير بشأن الاختلاف العرقي، أليس كذلك؟ ـ ابتسم الكاهن.

ـ نحن نعلم أن القانون... ـ واصل موريس.

ـ هل ارتكبتما خطيئة الجسد؟ ـ قاطعه الأب أنطوان.

ـ كيف يمكن التفكير في ذلك أيها الأب! أقدم لك كلمة شرفٍ رجولية بأن عفة روزيت لم تمس وكذلك شرفي ـ قال موريس فزعاً.

ـ هذا مؤسف يا ابنيّ! لو أن روزيت فقدت عذريتها ورغبتَ أنت في إصلاح الضرر، فسأكون مضطراً إلى تزويجكما لإنقاذ روحيكما ـ أوضح القديس.

عندئذ تكلمت روزيت أول مرة منذ حفل *الكوردون بلو* الراقص.

ـ بالإمكان تدبر الأمر هذه الليلة بالذات يا أبتاه. اعتبر الموضوع منتهياً. ونرجو منك أن تنقذ روحينا الآن ـ قالت بوجه محمر ونبرة حاسمة.

كانت لدى القديس مرونة معتبرة في تجاوز القواعد التي يعتبرها غير مواتية. وبالتهور الطفولي نفسه الذي يتحدى به الكنيسة، اعتاد أن ينتزع جسد القوانين، دون أن تتجرأ حتى الآن أي سلطة دينية أو مدنية على

لفت انتباهه. أخرج سكين حلاق من أحد الصناديق، وغمس نصله في كأس نبيذ وأمرِ الحبيبين أن يرفعا كميهما ويمدا إليه ذراعيهما. ثم أحدث دون تردد شقاً في معصم موريس بمهارة من مارس هذه العملية عدة مرات. أطلق موريس صرخة ومص الجرح، بينما كانت روزيت تضغط شفتيها وتغمض عينيها ويدها ممدودة. وبعد ذلك ألصق الكاهن ذراع أحدهما بالآخر، وفركِ دم روزيت بجرح موريس الصغيرِ.

ـ الدم أحمر دائماً كما ترون، ولكن إذا ما سألكَ أحدٌ الآن يا موريس، فيمكنك القول إن في عروقك دماء سوداء. وهكذا يكون الزواج شرعياً ـ أوضح الكاهن وهو ينظف السكين بيده، بينما تيتي تسحب منديلها لتضمد المعصمين.

ـ فلنذهب إلى الكنيسة. سنطلب من الأخت لوسي أن تكون شاهداً على الزواج ـ قال الأب أنطوان.

ـ لحظة واحدة يا أبتاه ـ أوقفته تيتي ـ. لم نحل بعد مسألة أن هذين الشابين نصف أخوين.

ـ ما الذي تقولينه يا ابنتي! ـ صرخ القديس.

ـ أنت تعرف قصة روزيت يا أبتاه. لقد أخبرتك أن أباها هو تولوز فالموران الذي هو والد موريس.

ـ لست أتذكر. الذاكرة صارت تخونني. ـ تهاوى الأب أنطوان مهزوماً على كرسي ـ. لا يمكنني تزويج هذين الشابين يا تيتي. فتجاوز القانون البشري الذي يكون في العادة سخيفاً هو شيء، وشيء آخر هو تجاوز قانون الرب...

خرجوا مطأطئي الرؤوس من بيت الأب أنطوان. كانت روزيت تحاول كبح البكاء بينما موريس، المتوعك، يسندها من خصرها. «كم أود مساعدتكما أيها الشابان! ولكن ليس بمقدوري عمل ذلك. لا يمكن لأحد أن يزوجكما على الأرض»، كانت هذه هي كلمات وداع القديس لهم. وبينما كان العاشقان يجرجران أقدامهما يائسين، كانت تيتي تمضي وراءهما على بُعد خطوتين، مفكرة في الإشارة التي ضمنها

الأب أنطوان في كلمته الأخيرة. ربما لم تكن هناك أي إشارة في التفخيم، وإنما اختلط عليها الأمر هي نفسها بسبب النبرة الحادة التي يتكلم بها القديس الإسباني اللغة الفرنسية، ولكن العبارة الأخيرة بدت لها مشغولة بحذر، وعادت تسمعها كصدى لقدميها العاريتين اللتين تقرعان أحجار رصف الساحة، ولكثرة ترديدها بصمت ظنت أنها فهمت معنى مشفراً. فبدلت الاتجاه للذهاب إلى «***شي فلور***».

مشوا قرابة ساعة من الزمن، وعندما وصلوا إلى البوابة الغامضة لبيت القمار رأوا صفاً من الحمالين يحملون حزماً من المؤن وتحرسهم فلور إيرونديل التي كانت تدون كل حزمة في سجل حساباتها. استقبلتهم المرأة بمودة كالعادة، ولكنها لم تكن قادرة على تبادل الحديث معهم، فأشارت لهم أن يدخلوا إلى القاعة. انتبه موريس أنه محل مشبوه السمعة وبدا له طريفاً أن تكون ***ماماته*** في ذلك المكان كما لو أنها في بيتها، وهي المهتمة دوماً بالوقار. في تلك الساعة، مع وهج النهار القاسي، والموائد الخاوية، بلا زبائن، ولا مومسات، ولا دخان أو صخب أو رائحة عطور وخمر، بدا الصالون مسرحاً بائساً.

ـ ما الذي نفعله هنا؟ ـ سأل موريس بنبرة جنائزية.

ـ ننتظر أن يتبدل حظنا يا بني ـ قالت تيتي.

بعد لحظات ظهر زاشاري بملابس العمل ويدين متسختين، وقد فاجأته الزيارة. لم يعد الرجل الجميل السابق، فوجهه بدا أشبه بقناع كرنفال. هذا ما صار إليه بعد الهجوم عليه. كان الوقت ليلاً وقد ضربوه بقسوة، لم يتمكن من رؤية الرجال الذين انقضوا عليه بالهراوات، ولكنهم حين لم يسرقوا نقوده ولا العكاز ذي القبضة العاجية، عرف إنهم ليسوا قطاع طرق من منطقة المستنقعات. وكانت تيتي قد حذرته أكثر من مرة من أن هيئته شديدة الأناقة وسخاءه بالمال يستفز بعض البيض. وقد عُثر عليه قبل فوات الأوان ملقى في قناة مجرور، ومحطما من الضرب، وبوجه ممزق. أعاد الدكتور بارمونتيه تركيبه بحذر شديد تمكن معه من وضع عظامه في أمكنتها وإنقاذ إحدى عينيه، وغذته تيتي

بوساطة أنبوب إلى أن تمكن من المضغ. لم تبدل هذه النكبة من سلوكه الظافر، ولكنها جعلته أكثر حرصا، فصار يخرج وهو مسلح على الدوام.

ـ ماذا يمكنني أن أقدم لكم؟ روم؟ وعصير فاكهة للصغيرة؟ ـ ابتسم زاشاري بابتسامته الجديدة ذات الفك المعوج.

ـ قبطان أي سفينة هو ملك، يمكن له عمل ما يشاء في سفينته، بما في ذلك شنق أحدهم. أليس هذا صحيحاً؟ ـ سألته تيتي.

ـ عندما تكون السفينة مبحرة فقط ـ أوضح زاشاري وهو ينظف يديه بخرقة.

ـ أتعرف واحداً منهم؟

ـ أعرف كثيرين. ودون المضي بعيداً، أنا و فلور إيروندیل شريكان مع روميرو توليدانو، قبطان برتغالي لديه سفينة شراعية.

ـ شركاء في أي شيء يا زاشاري؟

ـ فلنقل إننا شركاء في الاستيراد والشحن.

ـ لم تذكر أمامي المدعو توليدانو من قبل. أهو رجل ثقة؟

ـ هذا يعتمد على الوضع. في بعض الأمور موثوق، وفي أمور أخرى لا.

ـ أين يمكنني التحدث إليه؟

ـ سفينته الآن في المرفأ. ولا بد أنه سيأتي في الليل ليتناول بضع كؤوس ولعب بضعة أدوار. ما الذي تريدينه يا امرأة؟

ـ أنا بحاجة إلى قبطان ليزوج موريس وروزيت ـ أمرته تيتي أمام ذهول صاحبي الشأن.

ـ كيف تطلبين مني هذا يا زاريتيه؟

ـ لأنه لا يمكن لشخص آخر فعل ذلك يا زاشاري. ويجب أن يتم الأمر الآن في الحال، لأن موريس سيغادر إلى بوسطن في السفينة المغادرة بعد غد.

ـ السفينة الشراعية راسية في الميناء، حيث الحكم للسلطات البرية.

ـ أيمكنك الطلب من توليدانو أن يفلت الأعنة ويقود سفينته بضعة أميال في عمق البحر ويزوج هذين الصغيرين؟

بهذه الطريقة، وبعد أربع ساعات من ذلك، على متن سفينة مهتزة، ترفع العلم الإسباني، يقودها القبطان روميرو توليدانو، وهو رجل قصير لا يزيد طوله عن سبعة أشبار، ولكنه يعوض قصر قامته بلحية سوداء لا تكاد تظهر منها عيناه، قام القبطان بتزويج روزيت سيديلا وموريس. وكان الشاهدان زاشاري، ببدلة رسمية ولكن بأظفارٍ لا تزالٍ متسخةٍ، و فلور إيرونديل التي ارتدت من أجل المناسبة ثوباً حريرياً وعقداً من أسنان دب. وبينما كانت زاريتيهِ تمسح دموعها، خلع موريس ميدالية أمه الذهبية التي يحتفظ بها دائماً ووضعها حول عنق روزيت. وزعت فلور إيرونديل كؤوس شمبانيا ورفع زاشاري نخب «هذا الثنائي الذي يرمز إلىٍ المستقبل، عندما ستكون الأعراق مختلطة ويصبح جميع البشر أحرارا ومتساوين أمام القانون». وموريس الذي سمع تلك الكلمات نفسها بكثرة من الأستاذ كوب، انفلتَ في نحيب طويل وعميق، لاسيما وأن التيفوس حوّله إلى عاطفي جداً.

ليلتا حب

ولعدم توفر مكان آخر، أمضى العريسان النهار الوحيد وليلتي الحب في القمرة الضيقة في سفينة روميرو توليدانو الشراعية، دون أن يدريا أنه في مخبأ سري تحت أرضية القمرة كان هناك عبد مختبئ يمكنه سماعهما. فالمركب هو المرحلة الأولى من الرحلة الخطرة إلى الحرية لكثير من العبيد الهاربين. فقد كان زاشاري و فلور إيرونديل يؤمنان بأن العبودية ستنتهي عما قريب، ويسعيان ريثما يتم ذلك إلى مساعدة أشد العبيد يأساً ممن لا يستطيعون التحمّل حتى ذلك الحين.

في تلك الليلة مارس موريس وروزيت الحب على سرير ضيق من ألواح خشبية، متأرجحين مع تيارات الدلتا، على الضوء الخافت المتسلل من خلال ستارة مخططة من القطيفة الحمراء تغطي الكوة الصغيرة. تلامسا في البدء غير واثقين، برهبة، على الرغم من أنهما ترعرعا وهما يستكشفان أحدهما الآخر، ولم يكن هناك ركن واحد في روح أي منهما خفي على الآخر. ولكنهما تغيرا، وعليهما الآن أن يتعلما التعرف على نفسيهما من جديد. وحيال أعجوبة امتلاك روزيت بين ذراعيه، نسي موريس القليل الذي كان قد تعلمه في تقلباته مع جيزيل، محتالة سفانا. لقد كان يرتجف. «بتأثير التيفوس»، قال على سبيل الاعتذار. ولتأثر روزيت بخراقته العذبة تلك، أخذت هي زمام المبادرة وبدأت بخلع ملابسها دون تعجل مثلما علمتها فيوليت بواسيير على انفراد. وحين فكرت في ذلك باغتتها نوبة ضحك، وظن موريس أنها تسخر منه.

ـ لا تكن أبله يا موريس، كيف أسخر منك ـ ردّت عليه وهي تمسح دموع الضحك ـ. إنني أتذكر دروس ممارسة الحب التي خطر لمدام فيوليت أن تعطيها لتلميذات المتعة.

ـ لا تقولي لي أنهم أعطوكن دروساً!
ـ أجل بالطبع، أم أنك تظن أن الإغواء يأتي ارتجالاً؟
ـ وهل تعرف *ماما* ذلك؟
ـ لم تكن تعرف التفاصيل.
ـ وماذا علمتكن تلك المرأة؟
ـ شيء قليل، لأن المدام اضطرت إلى التخلي عن الدروس العملية. فقد أقنعتها لولا بأن الأمهات لن يتسامحن في ذلك مما سيؤدي إلى تقويض الحفل الراقص. ولكنها تمكنت من تجريب أسلوبها معي. وكانت تستخدم موزاً وخيارا لتوضح لي.
ـ توضح لكِ أي شيء؟ ـ هتف موريس الذي بدأ يجد ذلك مسلياً.
ـ كيف أنتم معشر الرجال، ومدى سهولة التلاعب بكم، لأن كل شيء فيكم خارجي. وكان عليها أن تعلمني بطريقة ما، ألا ترى ذلك؟ فأنا لم أر رجلا عاريا من قبل يا موريس. حسن، رأيتك أنت فقط، ولكنك كنت طفلاً صغيراً آنذاك.
ـ قد يكون حدث بعض التغيير منذ ذلك الحين ـ قال مبتسماً ـ ولكن يجب عدم انتظار أي موز أو خيار.
ـ لا؟ دعني أرى.
وكان العبد في مخبئه يتحسر لأنه لا وجود لثقب بين ألواح خشب الأرضية يستطيع النظر منه. وقد تلا الضحكات صمت بدا له طويلا جداً. ما الذي يفعله هذان صامتين؟ لم يستطع تخيل ذلك، لأنه يعرف من خلال التجربة أن سيده كان شديد الصخب. وعندما فتح له القبطان الملتحي باب المخبأ السري كي يخرج ليأكل ويحرك عظامه، مستغلاً ظلام الليل، كان العبد الهارب على وشك أن يطلب منه ألا يزعج نفسه، وأنه قادر على الانتظار.
توقع روميرو توليدانو عدم خروج العريسين من مأواهما، وفق العادة السائدة. وعملا بأوامر زاشاري، حمل إليهما قهوة وكعكا وضعه بتكتم عند باب القمرة. ولو أن الأوضاع طبيعية لكان على

روزيت وموريس أن يقضيا معتكفين ثلاثة أيام على الأقل، ولكن لم يكن لديهما كل ذلك الوقت. وقد ترك لهما القبطان الطيب بعد ذلك صينية من لذائذ السوق الفرنسي أرسلتها إليهما تيتي: مأكولات بحرية، وجبن، وخبز ساخن، وفاكهة، وحلوى، وزجاجة نبيذ، سرعان ما سحبتها يدان إلى الداخل.

خلال الساعات القصيرة جداً في ذلك النهار الوحيد والليلتين اللتين أمضاهما موريس وروزيت معاً، مارسا الحب بالعذوبة التي تشاطراها في الطفولة والعاطفة التي تؤججهما الآن، مرتجلين هذا الشيء أو ذاك لمنح نفسيهما سعادة مشتركة. كانا شابين فتيين، وكانا متحابين منذ الأزل ولديهما الحافز الرهيب بأنهما سيفترقان: لم يكونا بأي حال بحاجةٍ إلى تعليمات فيوليت بواسيير. وخلالٍ بعض وقفات الراحة وجدا وقتاً لتبادل الحديث، وهما متعانقان دوماً، حول بعض الأمور المعلقة والتخطيط لمستقبلهما المشترك. والعامل الوحيد الذي كان يسمح لهما بتحمل الفراق هو اليقين بأنهما سيعودان للقاء قريباً، فور حصول موريس على عمل ومكان يستقبل فيه روزيت.

بزغ فجر اليوم الثاني وكان عليهما أن يرتديا ملابسهما، ويتبادلا القبلات آخر مرة والخروج بحذر لمواجهة العالم. كانت السفينة الشراعية قد رست من جديد؛ وفي الميناء كان بانتظارهما زاشاري وتيتي وسانتشو الذي أحضر صندوقاً يضم حوائج موريس. وأعطاه الخال كذلك أربعمئة دولار، متباهياً أنه كسبها في ليلة واحدة بلعب الورق. وكان الشاب قد اشترى تذكرة السفر باسمه الجديد: موريس سولارٍ، كنية أمه مختصرة وبلفظها الإنكليزي. وقد أغضب ذلك سانتشو قليلاً، لأنه فخور برنة كنية غارثيا دل سولار عند النطق بها كما يجب بالإسبانية.

ظلت روزيت على اليابسة يضنيها الأسى، ولكنها تتصنع هدوء من لديه كل ما يرغب فيه في هذا العالم، بينما موريس يلوح لها بيده من سطح السفينة السريعة التي ستنقله إلى بوسطن.

المطهر

فقد فالموران ابنه وفقد صحته في ضربةٍ واحدة. ففي لحظة خروج موريس من بيت أبيه كيلا يعود إليه أبداً، انفجر شيء في داخله. وعندما تمكن سانتشو والآخرون من إنهاضه، أدركوا أن جانباً من جسده قد مات. وحدد الدكتور بارمونتيه أن ليس قلبه هو الذي خذله، مثلما كان يخشى، وإنما عانى من جلطة دماغية. كان شبه مشلول، تسيل ريالته ولا يستطيع التحكم بعضلاته الصارّة. «مع مرور الزمن وقليل من الحظ يمكن لك أن تتحسن كثيراً يا صديقي، ولكنك لن تعود إلى ما كنت عليه»، قال له بارمونتيه. ثم أضاف إنه يعرف مرضى عاشوا سنوات طويلة بعد إصابة مماثلة. وأومأ له فالموران بأنه يرغب في التكلم معه على انفراد، فاضطرت أورتينس غيزو التي كانت تحرسه مثل نسر إلى الخروج من الغرفة وإغلاق الباب. كانت لعثمته غير مفهومة، ولكن بارمونتيه استطاع أن يفهم منه أن امرأته تخيفه أكثر من المرض. يمكن لأورتينس أن تحاول تعجيل موته، لأنها تفضل الترمل دون ريب على العناية بمشلول يبول في ثيابه. «لا تقلق، هذا أمر يمكنني تدبره بثلاث عبارات»، طمأنه بارمونتيه.

قدم الطبيب لأورتينس الأدوية والتعليمات اللازمة لرعاية المريض ونصحها بأن تحصل على ممرضة جيدة، لأن استعادة زوجها لعافيته تعتمد إلى حدّ كبير على العناية التي يتلقاها. يجب عدم معارضته وعدم زيادة همومه: الراحة أساسية له. وعند الوداع استبقى يد المرأة بين يديه في إيماءة مواساة أبوية، وقال: «أتمنى لك خروج زوجك بحالة جيدة من هذه الأزمة يا مدام، لأنني لا أظن أن موريس مهيأ للحلول محله»، ثم ذكّرها بأن فالموران لم يتمكن من القيام بإجراءات تبديل وصيته، وموريس مازال قانونياً وريثه الشرعي الوحيد في الأسرة.

بعد أيام من ذلك جاء رسول وسلّم ملاحظة من فالموران إلى تيتي. فلم تنتظر هذه مجيء روزيت لتقرأها لها، بل ذهبت مباشرة إلى حيث الأب أنطوان. فلكل ما يأتي من سيدها السابق القدرة على إصابة معدتها بالانقباض. توقعت أن يكون فالموران قد علم بالزفاف المتعجل وسفر ابنه ـ فالمدينة بأسرها علمت بذلك ـ ولن يقتصر غضبه على موريس الذي كانت الأقاويل قد برأته باعتباره ضحية مشعوذة زنجية، بل سيكون كذلك ضد روزيت. فهي المذنبة في بقاء سلالة فالموران دون وريث يواصل السلالة، والقضاء عليها دون أمجاد. فبعد موت بطريرك الأسرة، ستتحول الثروة إلى آل غيزو ولن يبقى لكنية فالموران من ذكر سوى على لوحةِ الضريح، لأنه لا يمكن لبناته نقل الكنية إلى ذريتهن. كان الخوف كبيراً من انتقام فالموران، ولكن الفكرة لم تكن قد خطرت لتيتي إلا بعد أن ألمح لها سانتشو بوجوب حراسة روزيت وعدم السماح لها بالخروج وحدها إلى الشارع. ممَ أراد أن يحذرها؟ فابنتها تقضي النهار عند آديل تخيط جهازها المتواضع كعروس جديدة وتكتب الرسائل إلى موريس. إنها بأمان هناك، وهي بنفسها تذهب لإحضارها في الليل، ولكنها تمضي على كل حال بحذرٍ، وتظل متأهبة على الدوام: يمكن لذارع سيدها الطويلة أن تصل بعيداً.

الملاحظة التي تلقتها كانت مؤلفة من سطرين اثنين من أورتينس غيزو تخبرها فيها أن زوجها بحاجة إلى التكلم معها. وقد علق الكاهن بالقول:

ـ لا بد أن جهداً كبيراً تكلفته تلك السيدة المتعجرفة كي تستدعيكِ إلى بيتها.

ـ أُفضلُ عدم الذهاب إلى بيتها يا أبتِ.

ـ لا خسارة في الاستماع. وهل لديك ما هو أكثر سخاء لتقدميه في هذه الحالة يا تيتي؟

ـ أنت تقول الكلام نفسه على الدوام ـ تنهدت تيتي مستسلمة.

كان الأب أنطونيو يعلم أن المريض مذعور من الصمت السحيق والعزلة التامة في القبر. فقد تخلى فالموران عن الإيمان بالرب في الثالثة عشرة من عمره، وصار يتبجح منذ ذلك الحين بعقلانية عملية لا متسع فيها لأوهام عالم الغيب، ولكنه حين رأى نفسه وقد أصبحت إحدى قدميه في القبر، وجد الملاذ في ديانة طفولته. وفي استجابة لدعوة منه، حمل إليه الكاهن الكابوشي المناولة الأخيرة. وخلال اعترافه أمام الكاهن، كان يعلك الكلمات بفم معوج بين شهقات وفواق، وقد أقر فالموران بأنه استولى على أموال لاكروا، وهي الخطيئة الوحيدة التي بدت له عظيمة. «حدثني عن عبيدك»، طالبه رجل الدين. «إنني أدين نفسي بالضعف يا أبتِ، لأنني لم أكن في سان دومانغ قادرا أحيانا على الحيلولة دون إقدام رئيس رؤساء العمل على معاقبة العبيد وتعذيبهم، ولكنني لا أتهم نفسي بالقسوة. فقد كنتُ على الدوام سيداً طيباً». منحه الأب أنطوان الغفران ووعده بالصلاة من أجلِ صحته مقابل تبرعات دسمة تُقدم إلى متسوليه وأيتامه، موضحاً له أن الإحسان وحده هو القادر على تليين نظرة الرب. بعد هذه الزيارة الأولى، صار فالموران يريد الاعتراف في كل لحظة، كيلا يفاجئه الموت وهو غير مهيأ، ولكن لم يكن لدى القديس الوقت والصبر اللازمان لإرضاء تلك الهواجس المتأخرة، ووافق فقط على أن يرسل إليه خبز القربان مع رجل دين آخر مرتين في الأسبوع.

اكتسب بيت آل فالموران رائحة المرض التي لا يمكن الخطأ فيها، وقد دخلت تيتي إلى البيت من باب الخدم، وقادتها دينس إلى الصالون، حيث كانت أورتينس غيزو واقفة، بعينين تحيط بهما هالة من الزرقة، وبشعر مشعث، وقد بدت غاضبة أكثر منها متعبة. كانت في الثامنة والثلاثين من العمر، ولكنها بدت كما لو أنها في الخمسين. لمحت تيتي أربعاً من طفلات آل فالموران الخمس، وكن جميعهن متشابهات إلى حدّ لم تستطع معه تمييز من تعرفهن منهن. وبكلمات قليلة، بصقتها من بين أسنانها، أشارت لها أورتينس أن تصعد إلى حجرة زوجها. وظلت

وحدها تجتر إحباط رؤيتها هذه المرأة التعيسة في بيتها، هذه اللعينة التي تمكنت من نيل مرادها متحدية آل فالموران وآل غيزو والمجتمع بأسره. يا للعبدة! إنها لا تعرف كيف أفلت الوضع من يديها. فلو عمل زوجها بنصيحتها لكانوا باعوا تلك الماكرة روزيت مذ كانت في السابعة من عمرها، ولما كان حدث شيء من هذا الذي يحدث. المذنب في ذلك كله هو تولوز العنيد الذي لم يعرف كيف يربي ابنه، ولا كيف يعامل العبيد مثلما تتوجب معاملتهم. لا يمكن له إلا أن يكون مهاجراً! إنهم يأتون إلى هنا معتقدين أنهم قادرون على ترويح أنفسهم بعاداتنا. وانظروا كيف أعتق هذه الزنجية، وكذلك ابنتها! لا يمكن لشيء كهذا أن يحدث لدى آل غيزو، ويمكن لها أن تقسم على ذلك.

وجدت تيتي المريض غارقاً بين الوسائد وبوجه لا يمكن التعرف عليه، وخصل شعره مشعثة، وبشرته رمادية، وعينيه دامعتين وإحدى يديه ملتصقة بصدره. كانت الأزمة قد منحت فالموران قدرة حدس عجيبة أشبه بنوع من البصيرة. وقد افترض أنها أيقظت جزءاً هاجعاً من دماغه، بينما جزء آخر، ذاك الذي كان يحسب فيه أرباح السكر في ثوان قليلة أو يحرك أحجار الدمينو، لم يعد يعمل الآن. وبهذه البصيرة كان يحزر بواعث الآخرين ونواياهم، لاسيما امرأته التي لم يعد بإمكانها أن تتلاعب به بالسهولة السابقة. لقد اكتسبت انفعالاته الخاصة وانفعالات الآخرين شفافية البلور، وبدا له في بعض لحظات السمو أنه يخترق حجب الحاضر الكثيفة ويستبق المستقبل مذعوراً. فذلك المستقبل هو مطهر يدفع فيه إلى الأبد ثمن خطايا نسيها أو لم يقترفها في الأصل. «صلِ، صلِ يا بني، وقدم الصدقات»، هذا ما نصحه به الأب أنطوان والكاهن الآخر الذي صار يأتيه بخبز القربان يومي الثلاثاء والسبت.

صرف المريض بزمجرة العبدة التي رافقت تيتي. كان اللعاب يسيل من جانبي فمه، ولكنه قادر مع ذلك على فرض مشيئته. وعندما اقتربت تيتي كي تسمعه، لأنها لم تفهم ما يقوله، أمسك ذراعها بقوة مستخدماً يده السليمة، وأجبرها على الجلوس إلى جانبه على السرير.

لم يكن عجوزاً مهلهلاً، بل تبين أنه مرهوب. «ستبقين هنا للعناية بي»، قال لها مطالباً. وكان ذلك آخر ما يمكن لتيتي أن تنتظر سماعه، فاضطر هو إلى تكرار ما قاله. وبذهول أدركت أنه ليس لدى سيدها القديم أدنى فكرة عن مقدار كراهيتها له، وأنه لا يعرف شيئاً عن الحجر الأسود الكامن في قلبها منذ اغتصبها وهي في الحادية عشرة، وأنه لا يعرف الشعور بالذنب أو الندم، وربما كانت ذاكرة البيض لا تسجل المعاناة التي يتسببون بها للآخرين. لقد أثقل الحقد عليها وحدها، أما هو فلم يشعر به. ومع ذلك، لم تسعف فالموران بصيرته النافذة في إدراك المشاعر التي يستثيرها في تيتي، وأضاف قائلاً إنها اعتنت لسنوات طويلة بإوخينيا، وإنها تعلمت الكثير من تانت روز، وإنه لا وجود حسب رأي بارمونتيه لمرضة أفضل منها. صمت طويلٍ لفّ هذه الكلمات، انتهى معه فالموران إلى الانتباه إلى أنه لم يعد قادرا على إصدارٍ الأوامر إلى هذه المرأة، فبدّل من نبرة صوته «سأدفع لك أجراً عادلاً... لا. سأدفع لك ما تطلبين. افعلي ذلك باسم كل ما أمضيناه معاً وباسم أبنائنا»، قال لها بين المخاط والريالة.

تذكرت تيتي نصيحة الأب أنطوان المعهودة، ونبشت عميقاً في روحها، ولكنها لم تجد ومضة سخاء واحدة. أرادت أن تشرح لفالموران أنها لتلك الأسباب التي ذكرها بالذات لا تستطيع مساعدته: من أجل ما أمضياه معاً، ومن أجل ما عانته حين كانت عبدة له، ومن أجل أبنائهما. الابن الأول الذي انتزعه منها عند ولادته، والابنة الثانية التي سيدمرها الآن بالذات إذا ما سهت هي عن حمايتها. ولكنها لم تستطع قول شيء من ذلك. وكان الشيء الوحيد الذي تمكنت من قوله: «لا أستطيع، اعذرني يا مسيو». نهضت واقفة بتردد، تهزها ضربات قلبها، وقبل أن تخرج تركت على سرير فالموران شحنة الحقد غير المجدية، لأنها لم تعد راغبة في جرجرتها معها. وانسحبت بصمت من ذلك البيت عبر بوابة الخدم.

صيف طويل

لم تتمكن روزيت من اللحاق بموريس بالسرعة التي خططا لها، لأن ذلك الشتاء كان قارساً جداً في الشمال وكانت الرحلة مستحيلة. فقد تخلف مجيء الربيع في أنحاء أخرى، ولكن الثلج استمر في بوسطن حتى نهاية نيسان. وعندئذ ما عاد بمقدورها هي أن تبحر إليه. لم يكن كبر بطنها ملحوظاً بعد، ولكن النساء المحيطات بها كنّ قد أدركن وضعها، لأن جمالها صار يبدو خارقاً. كانت متوردة، شعرها يلمع كالبلور، وكانت عيناها أشد عمقاً وعذوبة. إنها تشع دفئاً ونوراً على حدّ قول لولا. وقد بدا هذا التفسير لتيتي غير قابل للدحض، لأنها رأت عمليات توليد كثيرة، وقد أذهلها على الدوام السخاء الذي تنزف به النساء دماءهن. ولكن لم تبد عليها هي نفسها الأعراض ذاتها التي ظهرت على روزيت. فقد كان بطنها وثدييها بثقل الحجارة، وظهرت لطخات قاتمة على وجهها، وبرزت أوردة ساقيها، ولم تكن قادرة على المشي أكثر من كوادرتين بسبب تورم قدميها. وهي لا تتذكر أنها شعرت بمثل ذلك الوهن والقبح عند حبلها في المرتين السابقتين. وكانت تشعر بالخجل لأنها حامل في آن واحد مع روزيت؛ وسوف تصير أماً وجدّة في وقت واحد.

في صباح أحد الأيام رأت في السوق الفرنسي متسولاً يقرع بيده الوحيدة طبلين من الصفيح. وكانت تنقصه إحدى القدمين كذلك. وفكرت تيتي في أن سيده قد يكون أطلقه ليكسب خبزه كيفما يستطيع طالما لم يعد نافعاً له. كان لا يزال شاباً، له ابتسامة تكشف عن أسنان تامة وعن تعبير خبيث يتناقض مع وضعه البائس. وكان يحمل الإيقاع في روحه، في جلده، في دمه. يقرع الطبلين ويغني بسعادة كبيرة وحماسة جامحة دفعت جماعة من الناس إلى الالتفاف حوله. كانت أرداف النساء

تتحرك من تلقاء ذاتها على إيقاع الطبلين الذي لا يُقاوم، والأطفال الملونون يرددون كلمات الأغنية التي يبدو أنهم سمعوها مرات كثيرة بينما هم يتبارزون بسيوف خشبية. بدت الكلمات لتيتي غير مفهومة في البدء، ولكنها سرعان ما أدركت أنها بلهجة ***الكريولي*** المغلقة المتداولة في سان دومانغ، وتمكنت من ترجمة المقطع ذهنياً إلى الفرنسية: *Capitaine La Liberté / protégé de Macandal / c'est batu avec son sable / por sauver son general.* تراخت ركبتاها واضطرت إلى الجلوس على صندوق فاكهة، موازنة بمشقة بطنها المتضخم، حيث انتظرت إلى أن انتهى الموسيقي، وجَمَعَ الصدقات من الجمهور. كانت قد انقضت سنوات طويلة لم تستخدم خلالها لغة ***الكريولي*** التي تعلمتها في سان لازار، ولكنها تمكنت من التواصل معه. كان الرجل آتياً من هايتي التي مازال يسميها سان دومانغ، وأخبرها أنه فقد يده في مهرسة قصب، وفقد قدمه تحت فأس الجلاد لأنه حاولٍ الهرب. طلبت منه أن يكرر لها كلمات الأغنية ببطء لتفهمها جيداً، وهكذا علمت أن غامبو قد تحول إلى أسطورة. فهو حسب كلمات الأغنية قد دافع عنٍ توسان لوفيرتور مثل أسد، وقاتل جنود نابليون إلى أن سقط أخيراً مثخناً بجراح لا تُعد بالرصاص والسيوفٍ. ولكن الكابتن، مثلما حدث لماكاندال، لم يمت. لقد نهض متحولاً إلى ذئب مستعد لمواصلة القتال إلى الأبد في سبيل الحرية.

ـ كثيرون هم من رأوه يا مدام. ويقال إن ذلك الذئب يحوم حول ديسالين وجنرالات آخرين ممن خانوا الثورة وصاروا يبيعون أناسهم عبيداً.

كانت تيتي قد تقبلت منذ زمن بعيد إمكانية أن يكون غامبو قد مات، وقد أكدت أغنية المتسول ذلك. وفي تلك الليلة ذهبت إلى بيت آديل لترى الدكتور بارمونتيه، الشخص الوحيد الذي يمكنه مشاطرتها الحزن، وأخبرته بما سمعته في السوق.

ـ أعرفُ هذه الأغنية يا تيتي، فالبونابرتيون يغنونها حين يسكرون

في مقهى المهاجرين، ولكنهم يضيفون إليها مقطعاً آخر.
ـ ما هو؟
ـ شيء ما حول قبر جماعي يتعفن فيه الزنوج والحرية، ولتحيا فرنسا، وليحيا نابليون.
ـ هذا فظيع يا دكتور.
ـ لقد كان غامبو بطلاً في الحياة، ومازال كذلك في مماته يا تيتي. وطالما ظلت هذه الأغنية تتردد، سيظل مثالاً في الشجاعة.

لم يعلم زاشاري بالحداد الذي تعيشه امرأته، لأنها تولت موارة ذلك. فقد كانت تيتي تصون كسر خاص ذلك الحب الأول والأقوى في حياتها. ونادراً ما كانت تذكره، لأنها غير قادرة على أن تقدم إلى زاشاري عاطفة بمثل ذلك الزخم، فالعلاقة التي يتقاسمانها هادئة وغير متسرعة. أما زاشاري غير العارف بتلك المحدودية، فكان ينشر مع الرياح الأربع خبر أبوته المقبلة. لقد كان معتاداً على التألق وإصدار الأوامر، حتى عندما كان عبداً في لوكاب، ولم يرتدع بعد الضرب الذي تلقاه وكاد يودي بحياته وخلّف في وجهه ندوباً سيئة الالتئام، بل ظل مسرفاً في الإنفاق وكاشفاً عن أفكاره ومشاعره. يوزع الخمر مجانا على زبائن *الشي فلور* كي يشربوا نخب الطفل الذي تنتظره زوجته تيتي. وكان على شريكته فلور إيرونديل أن تكبح جماحه، لأن الأزمنة غير مناسبة للتبذير ولا لاستثارة الحسد. فليس هناك ما يُغضب الأمريكيين أكثر من زنجي متبجح.

كانت روزيت تُبقي الجميع على اطلاع على آخر أخبار موريس التي تصلها متأخرة شهرين أو ثلاثة شهور. وكان البروفيسور هاريسون كوب، بعد أن استمع إلى تفاصيل القصة، قد عرض على موريس أن يستضيفه في بيته، حيث يعيش مع أخته الأرملة وأمه، وهي عجوز مخبولة تأكل الأزهار. وبعد ذلك، عندما علم البروفيسور أن روزيت حبلى وستنجب مولودها في شهر تشرين الثاني، رجاه ألا يبحث عن مكان آخر لإقامته، وأن يأتي بأسرته للعيش معهم. وكانت أخته أغاتا

أشد حماسة منه لهذه الفكرة، لأن روزيت ستساعدها في العناية بأمها، ووجود الطفل سيبهج الجميع. وأعلنت أن البيت الفسيح الذي تخترقه تيارات الهواء، وغرفه الخاوية التي لم تطأها قدما أحد منذ سنوات طويلة، والأسلاف الذين يراقبون من صورهم المعلقة على الجدران، بحاجة إلى زوجين محبين وطفل.

أدرك موريس أن روزيت لن تتمكن من السفر في الصيف أيضاً، واستسلم لفراق سيطول أكثر من عام، إلى أن ينتهي الشتاء التالي، وتكون روزيت قد استردت عافيتها بعد الولادة، ويصير بإمكان الطفل تحمل مشقة الرحلة البحرية. وكان في أثناء ذلك يغذي جذوة الحب بسيل من الرسائل، مثلما اعتاد أن يفعل على الدوام، وركز جهوده على الدراسة مستغلاً كل دقيقة فراغ. لقد وظّفه هاريسون كوب كسكرتير له، وكان يدفع له أكثر بكثير مما يستحق عمله في تصنيف أوراقه ومساعدته في تحضير دروسه، وهو عمل خفيف يتيح لموريس فائضاً من الوقت لدراسة القانون وللشيء الوحيد الذي يراه كوب مهماً: حركة إلغاء العبودية. كانا يشاركان معاً في مظاهرات عامة، ويحرران منشورات، ويجولان على الصحف والمتاجر والمكاتب، ويتحدثان في الكنائس والأندية والمسارح والجامعات. لقد وجد فيه هاريسون كوب الابن الذي لم يُرزق به ورفيق النضال الذي حلم به. فبوجود هذا الشاب إلى جانبه، بدا له أن انتصار أفكاره صار في متناول اليد. أخته أغاتا، وهي من دعاة إلغاء العبودية أيضاً، مثل جميع آل كوب، بمن فيهم السيدة آكلة الأزهار، كانت تعدّ الأيام المتبقية للذهاب إلى الميناء من أجل استقبال روزيت والطفل. فأسرة ذات دماء مختلطة هي أفضل ما يمكن أن يخطر لهم، لأنها تجسيد للمساواة التي يبشرون بها، والدليل القاطع على أنه يمكن للأعراق، ويتوجب عليها، أن تختلط وتتعايش بسلام. يا للصدمة التي سيُحدثها موريس حين يظهر أمام الملأ مع زوجته الملونة وابنه ليدافع عن إلغاء العبودية! سيكون ذلك أشد بلاغة من مليون منشور. ولكن خطابات مضيفيه

النارية كانت تبدو سخيفة بعض الشيء لموريس، لأنه لم ير في أي يوم أن روزيت مختلفة عنه.

بدا صيف العام ١٨٠٦ طويلاً جداً، وحمل معه إلى نيو أورلينز وباء كوليرا وعدة حرائق. فنقلوا تولوز فالموران، ترافقه الراهبة التي تعنى به، إلى المزرعة، حيث استقرت الأسرة لقضاء أسوأ أيام الحر في الموسم. وكان بارمونتيه قد شخَّص حالة المريض الصحية بالمستقرة وسوف تفيده الإقامة في الريف. ولكن الأدوية التي صارت أورتينس تذيبها له في الحساء، لأنه يرفض تناولها، لم تُحسّن طباعه. فقد تحول غضبه إلى سعار، حتى إنه لم يعد هو بالذات يتحمل نفسه. فكل شيء يستثير غضبه، ابتداء من مواكب ندم الإسبان التائبين وحتى ضحك بناته البريء في الحديقة، ولكن أكثر ما كان يغيظه هو موريس. فذاكرته تحتفظ بكل مرحلة من حياة ابنه. وهو يتذكر كل كلمة قالاها في النهاية، ويراجعها ألف مرة باحثاً عن تفسير لتلك القطيعة المؤلمة والنهائية. كان يرى أن موريس قد ورث جنون أسرة أمه. وأن الدماء التي تسري في عروقه هي دماء إوخينيا غارثيا دل سولار الواهنة وليست دماء آل فالموران القوية. لم يكن يتعرف على شيء منه في ذلك الابن. فموريس مثل أمه، له عينان مماثلتان لعينيها، ومثل نزوعها المرضي إلى الوهم، والاندفاع إلى تدمير نفسه بنفسه.

وخلافا لما ظنه الدكتور بارمونتيه، لم يجد مريضه الراحة في المزرعة وإنما المزيد من القلق، حيث صار بالإمكان التأكد من التردي الذي تنبأ به سانتشو مسبقاً. كان أوين مورفي قد رحل إلى الشمال مع أسرته كلها، ليشغل الأراضي التي اشتراها بشق النفس، بعد أن عمل ثلاثين سنة كحيوان جر. وحلّ محله رئيس عمال شاب أوصى به أبو أورتينس. وكان فالموران قد قرر، في اليوم التالي لوصوله، البحث عن رئيس عمال آخر، لأن الرجل يفتقر إلى الخبرة في إدارة مزرعة بذلك الحجم. فقد انخفض الإنتاج بصورة كبيرة وتبدى لدى العبيد ميل إلى التحدي. وكان المنطقي أن يتولى سانتشو مسؤولية حلّ تلك المشاكل، ولكن تبين بوضوح لفالموران

أن شريكه يكتفي بدور ديكوري. فاضطره ذلك إلى الاعتماد على أورتينس، رغم معرفته أنها كلما اتسعت سلطتها سيزداد هو غرقاً في متكأ شلله النصفي.

كان سانتشو قد قرر، سراً، السعي لمصالحة فالموران وموريس. وكان عليه أن يفعل ذلك دون استثارة شكوك أورتينس غيزو التي تخرج لها الأمور مواتية وأفضل مما تخطط له، وقد صارت تتحكم الآن بزوجها وبثروته كلها. وكان سانتشو يحافظ على الاتصال بابن أخته من خلال رسائل مقتضبة جداً، لأنه لا يتقن كتابة الفرنسية بصورة جيدة؛ أما بالإسبانية فيؤكد أنه يكتب خيراً من غونغورا، بالرغم من أنه لم يكن هناك أحد ممن يحيطون به يعرف من يكون ذلك السيد المدعو غونغورا. وكان موريس يروي لخاله تفاصيل حياته في بوسطن ويعرب له عن شكره الجزيل للمساعدة التي يقدمها لزوجته. فقد أخبرته روزيت بأنها تتلقى نقوداً في أحيان كثيرة من خاله الذي لم يذكر له شيئاً عن ذلك قطّ. وكان موريس يخبره كذلك بخطوات النملة التي تتقدم بها حركة مناهضة العبودية، وبموضوعات أخرى تستحوذ على اهتمامه، مثل حملة لويس وكلارك التي أرسلها الرئيس جيفرسون لارتياد نهر ميسوري. وتتضمن مهمتها دراسة قبائل السكان الأصليين، ونباتات وحيوانات تلك المنطقة شبه المجهولة من قبل البيض، والوصول إلى شاطئ المحيط الهادي إن أمكن ذلك. لقد كان الطموح الأمريكي في احتلال مزيد ومزيد من الأراضي يذهل سانتشو الذي يفكر: «من يطوق الكثير لا يحتضن إلا القليل»، ولكنها كانت تلهب مخيلة موريس الذي كان يمكن له أن يذهب مع المكتشفين لولا روزيت والطفل ومسألة إلغاء العبودية.

في السجن

أنجبت تيتي ابنتها في قيظ شهر حزيران بمساعدة آديل وروزيت التي أرادت أن ترى عن قرب ما ينتظرها هي نفسها بعد بضعة شهور، بينما كانت لولا وفيوليتِ تتمشيان في الشارع بعصبية برفقة زاشاري. وعندما تناولت تيتي الطفلةَ بين يديها، انفجرت في البكاء من السعادة: يمكنها أن تحبها دون الخوف من انتزاعها منها. إنها لها. عليها أن تحميها من الأمراض والحوادث وغيرها من النكبات الطبيعية، مثلما يُحمى جميع الأطفال، ولكن لا حاجة بها لأن تحميها من سيد له حق التصرف بها على هواه.

سعادة الأب كانت عظيمة بمبالغة، والاحتفالات التي أقامها بسخاء استثارت مخاوف تيتي: يمكن لهذا البذخ أن يجلب سوء الطالع. وعلى سبيل الاحتياط حملت ابنتها الوليدة إلى الكاهنة سانت ديدي التي تقاضت خمسة عشر دولاراً لحمايتها بطقس تلطيخها ببصاقها وبدماء ديك. بعد ذلك ذهبوا جميعهم إلى الكنيسة كي يعمدها الأب أنطوان باسم عرابتها: فيوليت.

بقية ذلك الصيف الحار والرطب بدا أبدياً لروزيت. فمع ازدياد تضخم بطنها كان شوقها إلى موريس يزداد. كانت تعيش مع أمها في البيتِ الصغير الذي اشتراه زاشاري، محاطة بنساء لا يتركنها وحدها أبداً، ولكنها كانت تشعر بأنها سريعة العطب. لقد كانت قوية على الدوام ـ وترى أنها محظوظة ـ ولكنها تشعر الآن بالخوف، تعاني كوابيس وتداهمها أفكار مشؤومة. فكانت تقول باكية: «لماذا لم أذهب مع موريس في شهر شباط؟ وماذا لو حدث له مكروه؟ وماذا إذا لم نعد للقاء ثانية؟ ما كان علينا أن نفترق أبداً!». فتقول لها تيتي: «لا تفكري في أمور سيئة يا روزيت، لأن التفكير فيها يجعلها تحدث».

في شهر أيلول، بدأت بعض العائلات التي هربت من الحر ترجع إلى المدينة، ومنهم أورتينس غيزو وبناتها. وظل فالموران في المزرعة، لأنه لم يتمكن بعد من استبدال رئيس فرق العمل، ولأنه ضجر من زوجته وضجرتٍ هي منه. لم يكن يفتقر إلى رئيس عمال وحسب، بل إنه لم يعد قادراً على الاعتماد على مرافقة سانتشو له، لأن الأخير ذهب إلى إسبانيا. فقد أخبروه بأنه يمكن له استعادة بعض الأراضي ذات القيمة المعقولة، وإن تكن مهجورة، من أملاك آل غارثيا دل سولار. ذلك الميراث المشكوك فيه كان يشكل وجع رأس لسانتشو، ولكنه كان راغباً في العودة إلى بلاده التي لم يرجع إليها منذ اثنين وثلاثين عاماً.

كان فالموران يستعيد عافيته ببطء من أزمته الصحية بفضل رعاية الراهبة له، وهي ألمانية صارمة لا تعير أي اهتمام لنوبات غضب مريضها، بل تجبره على المشي بضع خطوات، وتدريب يده المصابة بالضغط على كرة صغيرة من الصوف. أضف إلى ذلك أنها راحت تعالجه من سلس البول بالإذلال، وذلك بجعله يستخدم حفاضات. وفي أثناء ذلك، استقرت أورتينس مع بطانتها من مربيات بناتها وخدم آخرين في بيت المدينة، وتأهبت للاستمتاع بالموسم الاجتماعي، حرة من ذلك الزوج الذي يُثقل عليها أكثر من حصان ميت. وربما يمكن لها أن تتدبر الأمر في إبقائه حياً، مثلما هو مناسب لها، ولكن بعيداً عنها على الدوام.

لم يكن قد انقضى أكثر من أسبوع على عودة الأسرة إلى نيو أورلينز، عندما خرجت أورتينس غيزو إلى شارع شارت، حيث ذهبت مع أختها أوليفيا لشراء أشرطة ورياشاً، إذ أنها مازالت تحافظ على عادتها القديمة بتحويل قبعاتها. وهناك التقت بروزيت. كانت أورتينس قد رأت الشابة خلال السنوات الأخيرة مرتين عن بعد ولم تجد صعوبة في التعرف إليها. وكانت روزيت تلبس ثوباً قاتماً من صوف خفيف، مع شال مطرز على الكتفين، وشعرها معقود في عقيصة، غير أن تواضع ملابسها لم يؤثر في شيء على كبرياء هيئتها. لقد رأت أورتينس في

جمال تلك الشابة استفزازاً لها على الدوام، والآن أكثر من أي وقت آخر، لاسيما وأنها كانت تختنق في بدانتها. لقد كانت تعلم أن روزيت لم تذهب مع موريس إلى بوسطن، ولكن أحداً لم يخبرها بأنها حبلى. وعلى الفور أحست بدوي جرس إنذار: يمكن لذلك الطفل، وخاصة إذا كان ذكراً، أن يهدد توازن حياتها. فزوجها ضعيف الشخصية سيستغل هذه الذريعة كي يتصالح مع موريس ويغفر له كل شيء.

لم تنتبه روزيت للسيدتين إلى أن صارتا قريبتين جدا منها. فخطت خطوة جانبا لتسمح لهما بالمرور، وحيتهما بصباح خير مهذبة، ولكن دون أثر من التذلل الذي ينتظره البيض من الناس الملونين. توقفت أورتينس في مواجهتها متحدية. «انظري يا أوليفيا إلى هذه كم هي وقحة»، قالت لأختها التي فوجئت بشدة بقدر ما فوجئت روزيت. «ولاحظي ما الذي تعلقه حول عنقها، إنه من الذهب! الزنجيات لا يستطعن استخدام الحلي أمام الملأ. إنها تستحق الجلد، ألا ترين ذلك؟»، أضافت. أمسكتها أختها من ذراعها دون أن تدري ما الذي أصابها، وحاولت اقتيادها، ولكن أورتينس تخلصت منها وشدت بقوة قلادة روزيت التي قدمها إليها موريس. تراجعت الشابة إلى الوراء حامية عنقها، فصفعتها أورتينس عندئذ على وجهها.

لقد عاشت روزيت متمتعة بامتياز طفلة حرة، في بيت فالموران أولاً، ثم في مدرسة الراهبات الأورسوليات بعد ذلك. لم تشعر قط بأنها عبدة وكان جمالها يمنحها طمأنينة كبيرة. ولم تكن قد تعرضت حتى تلك اللحظة لأي إساءة من البيض، ولم تكن تدرك السلطة التي يتمتعون بها عليها. وبصورة غريزية، دون أن تنتبه إلى ما تفعله أو تتصور عواقبه، ردّت الصفعة إلى تلك المرأة المجهولة التي اعتدت عليها. ترنحت أورتينس غيزو وقد استولت عليها المفاجأة، ومال كعب حذائها وأوشكت على السقوط أرضاً. راحت تصرخ كمن تلبسها شيطان، وخلال لحظات اجتمع حشد من الفضوليين. وجدت روزيت نفسها محاطة بالناس وأرادت التسلل هاربة، ولكنهم أمسكوا بها من

الخلف، وبعد لحظات اقتادها الحراس معتقلة.

علمت تيتي بالأمر بعد نصف ساعة، لأن أشخاصاً كثيرين شهدوا الحادث، وطار الخبر من فم لفم حتى وصل إلى مسامع لولا وفيوليت اللتين تعيشان في الشارع نفسه، ولكن تيتي لم تتمكن من رؤية ابنتها حتى الليل، عندما رافقها الأب أنطوان. فالقديس الذي يعرف السجن كما لو أنه بيته، أزاح الحارس جانباً وقاد تيتي عبر ممر ضيق مضاء بمشعلين. ومن خلال القضبان الحديدية كانا يريان زنازين، وفي نهاية الممر وصلا إلى الزنزانة الجماعية التي تتكدس فيها النساء. جميعهن كنّ ملونات، باستثناء فتاة ذات شعر أشقر، ربما هي خادمة، وكان هناك طفلان زنجيان بأسمال بالية، ينامان ملتصقين بإحدى السجينات. وسجينة أخرى تحمل طفلاً بين ذراعيها. كانت أرضية الزنزانة مغطاة بطبقة رقيقة من القش، وتوجد عليها عدة بطانيات متسخة، ودلو لقضاء حاجات راحة البدن، وإبريق ماء قذر للشرب؛ وتضاف إلى نتانة الجو رائحة مؤكدة للحم آخذ بالتفسخ. وعلى الضوء الشاحب المتسرب من الممر، رأت تيتي ابنتها روزيت جالسة في أحد الأركان بين امرأتين، ملتفة بشالها، ويديها على بطنها بينما وجهها منتفخ من كثرة البكاء. هرعت لمعانقتها مذعورة، فاصطدمت بسلاسل الحديد الثقيلة التي وُضعت في كاحلي ابنتها.

لقد حضر الأب أنطوان مجهزاً، لأنه يعرف جيداً الظروف التي يعيشها السجناء. فقد حمل في سلته خبزاً وقطع سكر ليوزعها على النساء، وبطانية لروزيت. «غداً بالذات سنُخرجك من هنا يا روزيت، أليس كذلك يا أبتاه؟»، قالت تيتي ذلك باكية. ولكن الكاهن الكابوشي احتفظ بالصمت.

التفسير الوحيد الذي استطاعت تيتي تصوره لما حدث هو أن أورتينس غيزو أرادت الانتقام للإهانة التي وجهتها هي نفسها إلى الأسرة برفضها العناية بفالموران. لم تكن تعلم أن مجرد وجودها هي وروزيت يشكل إهانة لتلك السيدة. فذهبت مذعنة إلى بيت آل

فالموران، بعد أن كانت قد أقسمت أنها لن تطأه أبداً، وارتمت على الأرض أمام سيدتها القديمة للتوسل إليها من أجل إطلاق سراح روزيت، والتأكيد على استعدادها للعناية بزوجها مقابل ذلك، وسأفعل كل ما تطلبين مني، أي شيء، ورحماك يا سيدتي. ولكن المرأة الأخرى المسممة بالحقد، راحت تكيل لها على هواها كل ما خطر لبالها من إهانات، ثم أمرت بعد ذلك بإلقائها خارج البيت.

فعلت تيتي كل ما تستطيعه للتخفيف عن روزيت بمواردها المحدودة. فكانت تترك طفلتها فيوليت عند آديل أو لولا وتحمل الطعام يومياً لجميع النساء السجينات، لثقتها بأن روزيت ستتقاسم ما تتلقاه معهن، ولم تكن قادرة على تحمل فكرة معاناة ابنتها الجوع. وكان عليها أن تترك المؤن عند الحراس، لأنهم نادراً ما كانوا يسمحون لها بالدخول، ولم تكن تعلم ما الذي يسلمه أولئك الرجال للسجينات وما الذي يستولون عليه. كانت فيوليت وزاشاري يتوليان تغطية النفقات، وتقضي تيتي نصف الليل في إعداد المأكولات. ولأنها كانت تشتغل أيضاً، وتعنى بطفلتها، فقد عاشت منهوكة ومستنفدة القوى. تذكرت أن تانت روز كانت تشفي من الأمراض المعدية بالماء المغلي، فتوسلت إلى النساء السجينات ألا يشربن من ماء الإبريق، حتى لو كنّ يمتن من العطش، وأن يكتفين بشرب الشاي الذي تحمله لهن. لقد مات عدد منهن بالكوليرا في الشهور السابقة. ولأن البرد كان يشتد في الليل، فقد حصلت على ملابس سميكة ومزيد من البطانيات لهن جميعا، لأن ابنتها لن تقبل أن تكون الوحيدة التي تتدثر جيداً، غير أن قش الأرضية الرطب والماء الذي ينز من الجدران تسببت بآلام صدر لروزيت وأصابها بسعال دائم. لم تكن المريضة الوحيدة، فهناك واحدة أسوأ حالاً منها، أصابت الغرغرينا جراحها التي أحدثتها الأصفاد الحديدية. وبإلحاح من تيتي والأب أنطوان سمحوا بنقل تلك المرأة إلى مستشفى الراهبات. لم ترها النساء الأخريات بعدها، ولكنهن علمن بعد أسبوع أنه جرى بتر ساقها.

لم تشأ روزيت أن يخبروا موريس بما حدث، فقد كانت واثقة من أنهم سيطلقون سراحها قبل أن تصله الرسالة، ولكن العدالة راحت تتأخر. فانقضت ستة أسابيع قبل أن يراجع القاضي قضيتها، وقد تصرف بسرعة لأنها امرأة حرة من جهة، وبسبب ضغوط الأب أنطوان من جهة أخرى. فالسجينات الأخريات ينتظرن سنوات ليعرفن فقط سبب اعتقالهن. كان أخوة أورتينس غيزو المحامون قد قدموا ضدها اتهامات «بالاعتداء بالضرب على سيدة بيضاء». وكان الحكم يتمثل بجلد المتهمة وسجنها سنتين، ولكن القاضي تنازل أمام القديس، فألغى عقوبة الجلد بالنظر إلى أن روزيت حبلى، ولأن أوليفيا غيزو عرضت الوقائع مثلما جرت دون أن تعطي الحق لأختها. وقد تأثر القاضي أيضاً بإحساس المتهمة بالكرامة، ومثولها أمامه بثوب أبيض، وردّها على الاتهامات دون إبداء الوقاحة، ولكن دون أن تتهاون أيضاً، على الرغم من تكلفها المشقة في التكلم بسبب السعال، ولأن ساقيها تكادان لا تقويان على حملها.

عند سماع الحكم، استيقظ إعصار في أعماق تيتي. فروزيت لن تستطيع البقاء على قيد الحياة لسنتين في زنزانة قذرة، وأقل منها طفلها. «إرزولي، أيتها *اللوا* الأم، امنحيني القوة.» ستعمل على إطلاق سراح ابنتها كيفما كان، حتى لو اضطرت إلى هدم جدران السجن بيديها. وكمن أصابها مس من الجنون، أعلنت أمام كل من وقف في وجهها أنها ستقتل أورتينس غيزو وتلك الأسرة الملعونة كلها؛ عندئذ قرر الأب أنطوان التدخل قبل أن تنتهي هي نفسها أيضاً إلى السجن. فذهب إلى المزرعة دون أن يخبر أحداً ليتحدث إلى فالموران. لقد كلفه ذلك القرار الكثير، لأنه في المقام الأول لا يستطيع أن يترك الناس الذين يساعدهم عدة أيام، وكذلك لأنه لا يعرف امتطاء الخيول للسفر، والرحلة في زورق بعكس تيار النهر مكلفة وشاقة، ولكنه تدبر أمره في الوصول.

وجد القديسُ فالموران في حالة أفضل مما توقع، وإن كان لا يزال

نصف مشلول ويتكلم بتعثر. وقبل أن يتمكن من توعده بعذاب الجحيم، انتبه إلى أنه ليس لدى الرجل أدنى فكرة عما فعلته زوجته في نيو أورلينز. وحين سمع فالموران بما حدث، أحس بالغضب لأن أورتينس عمدت إلى إخفاء ذلك عنه، مثلما تخفي عنه أشياء كثيرة، أكثر من غضبه على مصير روزيت التي صار يسميها «المحتالة». غير أن موقفه تبدل عندما أوضح له الكاهن أن الشابة حبلى. فقد أدرك عندئذ أنه لن يكون هناك أمل في مصالحته مع موريس إذا ما أصيبت روزيت أو طفلها بسوء. هز بيده السليمة جلجل بقرة ليستدعي الراهبة وأمرها بأن تطلب تجهيز الزورق من أجل الذهاب إلى المدينة فورا. وبعد يومين من ذلك اضطر الأخوة غيزو المحامون إلى سحب كل تهمهم الموجهة ضد روزيت سيديلا.

زاريتيه

انقضت أربع سنوات ونحن الآن في العامٍ ١٨١٠. لقد تخلصتُ من الخوف من الحرية، وإن كنت لن أتخلص أبداً من خوفي من البيضِ. لم أعد أبكي على روزيت، بل إنني أشعر بالسعادة على الدوام تقريباً.

خرجت روزيت من السجن موبوءة بالقمل، هزيلة، مريضة، وبقروح في ساقيها بسبب عدم الحركة وثقل الأصفاد. استبقيتُها في الفراش وقمت على العناية بها نهاراً وليلاً، قوّيتها بحساء قوامه نخاع الثيران ومأكولات دسمة يأتينا بها الجيران، ولكن ذلك كله لم يحل دون وضعها وليدها قبل موعده. لم يكن الطفل جاهزاً للولادة بعد، كان ضئيلاً، بشرته شفافة كأنها من ورقٍ مبلول. تمت عملية الولادة بسرعة، ولكن روزيت كانت ضعيفة جداً وفقدت الكثير من الدم. في اليوم التالي بدأت الحمى، وفي الثالث صارت تهذي منادية موريس، عندئذ أدركتُ بيأس أنها تضيع مني. لجأت إلى كل المعارف التي أورثتني إياها تانت روز، وإلى معارف الدكتور بارمونتيه، وإلى صلوات الأب أنطوان، وإلى استحضار **لوات** ديانتي. وضعتُ وليدها على صدرها لعل واجبها كأم يجبرها على النضال من أجل حياتها، ولكنني أظن أنها لم تشعر به. تشبثتُ بابنتي محاولة تثبيتها، متوسلة إليها أن تتناول رشفة ماء، أن تفتح عينيها، أن ترد عليّ، روزيت، روزيت. «أحبك يا ماما»، قالت لي، وانطفأت في الحال مطلقة زفرة. أحسست بجسدها الخفيف بين ذراعي ورأيت روحها تنفصل عنها بعذوبة، ثم خيط من ضباب وتنسل خارجاً عبر النافذة المفتوحة.

التمزق الفظيع الذي شعرت به لا يمكن وصفه، ولكني لستُ بحاجة لوصف ذلك: الأمهات يعرفنه، لأن قلة منهن، أكثرهن حظاً، يحتفظن بكل أبنائهن أحياء. عند الفجر جاءت آديل حاملة إلينا حساء،

وكان عليها هي أن تخلّص روزيت من بين ذراعي المطبقتين عليها وتمددها على فراشها. تركتني لبعض الوقت أنتحب منحنية من الألم على الأرض، ثم وضعت بعد ذلك فنجان حساء بين يدي وذكرتني بالطفلين. كان حفيدي متكوراً إلى جانب صغيرتي فيوليت في المهد نفسه، ضئيل ومهمل إلى حدّ يمكن له معه أن يلحق بروزيت في أي لحظة. عندئذ خلعتُ عنه ملابسه، ووضعته فوق الخرقة الطويلة التي تشكل عمامتي، وربطته بها على صدري العاري، ملتصقاً بقلبي، الجلد على الجلد، كي يظن أنه مازال داخل أمه. حملته على تلك الحال لأسابيع. وكان حليبي، مثل حناني، يكفي لابنتي وحفيدي. وعندما أخرجت «جوست» من لفافته، كان قد صار جاهزا للعيش في هذا العالم.

ذات يوم جاء مسيو فالموران إلى بيتي. أنزله عبدان من عربته وأتيا به محمولاً حتى الباب. كان هرماً جداً. «أرجوكِ يا تيتي، أريد رؤية الطفل»، طلب مني بصوت متقطع. ولم يتحمل قلبي أن أتركه خارجاً.

ـ متأسف جداً لما حدث لروزيت... أقسم لك أنه لا علاقة لي بشيء مما جرى.

ـ أعرف ذلك يا مسيو.

ظل يتأمل حفيدنا لوقت طويل ثم سألني عن اسمه.

ـ جوست سولار. أبواه اختارا له هذا الاسم، لأنه يعني عدالة. ولو ولد بنتاً لكان اسمها جوستيه ـ أوضحتُ له.

ـ آي! آمل أن تمتد بي الحياة لأصلح بعض أخطائي ـ قال، وبدا لي أنه يوشك على البكاء.

ـ جميعنا نخطئ يا مسيو.

ـ هذا الطفل ينتمي إلى آل فالموران من جهة الأب والأم. له عينان زرقاوان ويمكن أن يعتبر أبيض. يجب عدم تربيته بين الزنوج. أريد مساعدته، وأن ينال تعليماً جيداً ويحمل اسم أسرتي، مثلما يليق به.

ـ هذا أمر يجب أن تتحدث فيه مع موريس يا مسيو، وليس معي.

تلقى موريس في الرسالة نفسها خبر ولادة ابنه وأن روزيت قد توفيت. أبحر فورا، على الرغم من أننا كنا في أوج الشتاء. وعندما وصل، كان الصغير قد أكمل ثلاثة شهور من العمر، وكان طفلاً هادئاً، له ملامح عذبة وعينين خضراوين، يشبه أباه وجدته دونيا إوخينيا المسكينة. احتضنه موريس في عناق طويل، ولكنه بدا أشبه بالغائب عن الوعي، جافاً من الداخل، وبلا نور في نظرته. «سيكون عليكِ العناية به لبعض الوقت يا ماما»، قال لي. ظل في المدينة أقل من شهر، ولم يشأ التكلم إلى المسيو فالموران على الرغم من إلحاح سانتشو الذي كان قد رجع من إسبانيا. أما الأب أنطوان المشغول دوما بإغاثة الملهوفين، فقد رفض أن يكون وسيطاً بين الأب وابنه. قرر موريس أنه يمكن لأبيه رؤية جوست بين حين وآخر، على أن يتم ذلك بحضوري فقط، وحظر عليّ قبول أي شيء من أبيه؛ لا نقود ولا مساعدة من أي نوع، وأقل من ذلك كله منح كنيته للطفل. طلب مني أن أحدث جوست عن روزيت، كي يظل على الدوام فخوراً بها وبدمه المختلط. كان يرى أن ابنه، ثمرة الحب العظيم، سيكون قدره مميزاً وسيحقق أشياء عظيمة في حياته، الأشياء التي كان يرغب هو نفسه في تحقيقها قبل أن يكسر موت روزيت إرادته. وأمرني أخيراً بأن أبقي الطفل بعيداً عن أورتينس غيزو. ولم يكن بحاجة إلى تحذيري بهذا الشأن.

سرعان ما غادر موريس، ولكنه لم يرجع إلى أصدقائه في بوسطن، وإنما هجر دراسته وتحوّل إلى رحالة لا يكل: جاب أراض أكثر مما تجوبه الريح. وقد اعتاد أن يكتب إلينا بضعة سطور، وبهذه الطريقة كنا نعرف أنه حي، ولكنه لم يأت خلال هذه السنوات الأربع سوى مرة واحدة لرؤية ابنه. جاء يرتدي جلوداً وفراءً، وكان ملتحياً وببشرة قاتمة لوحتها الشمس، بدا أشبه بواحد من **الكينتوك**. في مثل سنه لا يمكن لأحد أن يموت بقلب ممزق. كان موريس بحاجة إلى وقت للتعب وحسب. فبمسيره ومسيره عبر العالم يأخذ بالتوصل إلى السلوى شيئاً فشيئاً. وذات يوم، عندما لا يعود قادراً على أن يخطو خطوة إضافية من

التعب، سيدرك أنه لا يمكن الهرب من الألم؛ وأنه لا بد له من تدجينه كيلا يضايقه. عندئذ سيتمكن من الإحساس بروزيت إلى جانبه، ترافقه، مثلما أشعر أنا بها، وربما سيستعيد حينذاك ابنه ويعود إلى الاهتمام بإنهاء العبودية.

لدينا أنا وزاشاري الآن طفل آخر، وقد بدأ يخطو خطواته الأولى ممسكاً بيد جوست، صديقه المفضل وخاله في الوقت نفسه. نريد مزيداً من الأبناء، بالرغم من ضيق هذا البيت ومن أننا لم نعد شابين - زوجي في السادسة والخمسين وأنا في الأربعين - لأننا نحب أن نهرم بين الكثير من الأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد، وأن يكونوا جميعهم أحراراً.

مازال زوجي وفلور إيروندیل يملكان محل القمار ومازالا شريكين مع القبطان روميرو توليدانو الذي يبحر في الكاريبي وينقل بضائع مهربة وعبيداً هاربين. لم يحصل زاشاري على قروض، لأن القوانين صارت أشد قسوة على الملونين، وبهذا لم يتحقق طموحه في امتلاك عدة بيوت قمار. أما أنا، فأعيش مشغولة جداً بالأطفال والبيت والعقاقير التي أحضّرها للدكتور بارمونتيه، وقد صرتُ أعدها الآن في مطبخي بالذات، ولكنني أجد الوقت في المساء لتناول القهوة بالحليب في فناء أزهار الجهنمية المتسلقة في بيت آديل، حيث تجتمع الجارات لتبادل الأحاديث. أما مدام فيوليت فلا نراها إلا قليلاً، لأنها تلتقي الآن بصورة أساسية مع سيدات **السوسيتيه** دل **كوردون بلو**، وجميعهن يخطبن ودها وصداقتها، لأنها من تنظم وتترأس حفلات الرقص ويمكن لها أن تقرر مصير بناتهن في **مساكنة المتعة**. لقد احتاجت لأكثر من سنة كي تتصالح مع دون سانتشو، لأنها أرادت معاقبته على نزواته مع أديس سوبير. فهي تعرف طبيعة الرجال ولا تأمل أن يتحولوا إلى أوفياء، ولكنها تصر على الأقل على ألا يذلها عشيقها بالتنزه على الرصيف البحري مع منافستها. ولم تتمكن المدام من تزويج جان مارتن من خلاسية ربعة ثرية، مثلما خططت، لأن الشاب ظل في أوروبا ولم

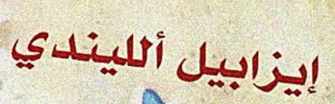
يعد يفكر في العودة. ولولا صارت في سن تكاد تعجز معها عن المشي ـ لا بد أنها تجاوزت الثمانين من العمر ـ، وقد أخبرتني بأن أميرها الشاب قد تخلى عن مسيرته العسكرية وأنه يعيشٍ مع إزيدور موريسيه، ذلك المثليّ الذي لم يكن عالماً، وإنما عميلاً لنابليون أو للأخوين لافيت، إنه قرصان صالونات، مثلما تؤكد وهي تتنهد. لم أعد أنا ومدام فيوليت إلى التحدث عن الماضي، ولشدة حفاظنا على السر انتهينا إلى القناعة بأنها هي أم جان مارتن الحقيقية. نادراً جداً ما أفكر في ذلك، ولكنني أرغب في أن يجتمع ذات يوم جميع أبنائي: جان مارتن، وموريس، وفيوليت، وجوست، وهونوري والأبناء والأحفاد الآخرون الذين لم يولدوا بعد. وسوف أدعو في ذلك اليوم الأصدقاء، وسأطهو أفضل بامية **كريولية** في نيو أورلينز، وستكون هناك موسيقى حتى الفجر.

لقد صار لدينا أنا وزاشاري تاريخٍ مشترك، يمكننا النظر إلى الماضي ورواية أحداث الأيام التي عشناها معاً، وحساب الأحزان والأفراح؛ هكذا يُصنع الحب، دون تسرع، ويوماً فيوماً. إنني أحبه مثلما أحببته دوماً، ولكنني أشعر بالراحة إلى جانبه أكثر مما كنت أشعر بها من قبل. عندما كان وسيماً، كان الجميع يعجبون به، لاسيما النساء اللاتي كن يعرضن أنفسهن عليه بوقاحة، وكنت أصارع ضد الخوف من أن يبعده الغرور والإغراء عني، بالرغم من أنه لم يقدم لي قطّ مسوغات للغيرة. يتوجب معرفته الآن من الداخل، مثلما صرتُ أعرفه، كي أعرف قيمته. ما عدتُ أتذكر كيف كانت هيئته؛ ويروقني الآن وجهه المكسور، والعصابة التي تغطي عينه الميتة، وندوب جروحه. لقد تعلمنا عدم الجدل في الصغائر، وإنما في الأمور المهمة فقط، وهي قليلة جداً. وكي أجنبه القلق والإزعاج، أستغل غيابه كي أستمتع على طريقتي، وهذه فائدة أن يكون لإحدانا زوج مشغول بعمله على الدوام. فهو لا يحب أن أمشي حافية في الشارع، لأنني لم أعد عبدة، ولا يريدني أن أرافق الأب أنطوان لمساعدة الخاطئين في منطقة

المستنقعات، لأن ذلك ينطوي على مخاطر، ولا يريدني أن أحضرٍ حفلات **البامبوسيس** في ساحة الكونغو، لأنها حفلات مبتذلة جداً. ولكنني لا أخبره بشيء من ذلك وهو لا يسألني عنه. يوم أمس بالذات كنت أرقص في الساحة على وقع طبول سانت ديدي السحرية. رقصتُ ورقصت. وبين حين وآخر تأتيٍ إرزولي، **اللوا** الأم، **لوا** الحب، وتمتطي زاريتيه. عندئذ نذهب معاً في عدو سريع لزيارة موتاي في الجزيرة تحت البحر. هكذا هي الحال.









العالم يهتز. الإيقاع يولد من الجزيرة تحت البحر، يهز الأرض، يخترقني كوميض برق ويمضي إلى السماء حاملاً أحزاني كي يمضغها بابا بوندي ويبتلعها ويخلفني سعيدة ونظيفة من الهموم. الطبول تهزم الخوف والطبول هي إرث أمي، إنها قوة غينيا التي في دمي

لم تكن زاريتيه (تيتي) قد بلغت التاسعة من عمرها بعد ما بيعت إلى سيد فرنسي، المسيو فالموران، مالك إحدى أكبر مزارع قصب السكر في سان دومانغ. وعلى الرغم من معاناتها من نزوات شهوة سيدها، فقد ترعرعت دون أن تتعرض للجلد بالسوط، أو الجوع الذي قضى على كثيرين من أمثالها.

إنها تريد شيئاً أكثر من مجرد البقاء على قيد الحياة: تتلهف إلى حقها في أن تحب رجلاً، وحقها في أن تكون حرة مثلما كان ذات يوم جدها في مسقط رأسها الأفريقي

رغبات تصطدم بالواقع القاسي بأن العبدة لا تتمتع بأية حقوق، بل ليس لها الحق بالاحتفاظ بابنها الذي أنجبته من سيدها.

ربما تحين فرصتها فجأة، مع وعد العنف والانهيار الذي يبدو أن طبول الجبال تعلن عنه، منذرة بأن حيوات الجميع، السادة والعبيد، سوف تتبدل إلى الأبد

